

AHMET ÜMIT

إغتيال السلطان

Sultanı Öldürmek

رواية

الإمارات U.A.E.
THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م
Publishing & Distribution L.L.C.

إِغْتِيَالُ السُّلطَانْ

Sultanı Öldürmek



الطبعة الأولى 2015 م - 1436 هـ

ردمك 978-9948-446-62-0

يتضمن هذا الكتاب ترجمة النسخة التركية
Sultanı Öldürmek

نشر هذا الكتاب بدعم من وزارة الثقافة والسياحة في الجمهورية التركية ضمن مشروع



Translation is sponsered by TEDA
T.C. Kultur ve Turizm Bakanligi
Kutuphaneler ve Yayimlar Genel Mudurlugu
(Fevzi Paşa Mahallesi Cumhuriyet Bulvarı No:4 (Eski Sayıştay Binası
Ulus/ANKARA/TURKEY 06030
e-mail: teda@kulturturizm.gov.tr - Web: www.tedaproject.com

THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.

أبوظبي هاتف: 6766700 (2-971+) فاكس: 6766972 (2-971+)
دبي هاتف: 2651623 (4-971+) فاكس: 2653661 (4-971+)
بيروت هاتف: 786233 (1-961+) فاكس: 786230 (1-961+)

تصميم الغلاف: **علي القهوجي**

التنضيد وفرز الألوان: **أبجد غرافيكس**، بيروت - هاتف 785107 (1-961+)
الطباعة: **مطابع الدار العربية للعلوم**، بيروت - هاتف 786233 (1-961+)



إغتيال السلطان

Sultanı Öldürmek

(شمسكَ قاربت الغروبَ يا مولاي)

رواية

أحمد أوميت
AHMET ÜMIT

ترجمة
مهتاب محمد

مراجعة وتحرير
مركز التعريب والبرمجة



الحب الكبير في كثيرٍ من الأحيان

هو عمرٌ ضاع منثوراً..

كلمة شكر

أتقدّم بالشكر الجزيل لصديقي وأستاذي سليم إيلاري الذي أمدّني بالمعلومات والمصادر اللازمة لإتمام هذا الكتاب، إيرول أويبازجي عاشق الروايات البوليسية والناقد المهم، الدكتور سوالب بينغيدال الذي، كما في كل مرة، يمدني بالمعلومات اللازمة حول الطب الشرعي.

البروفيسور الدكتورة نورهان أتاسوي التي قدمت لي معلومات وافرة عن الخيمة السلطانية خلال الغزوات، الأستاذة الدكتورة بتول يالتشنر التي زودتني بالمعلومات اللازمة حول مرض شرود الذاكرة النفسي، عالمة الآثار الدكتورة مالتم دوغان ألبرسلان، السيد أنور شينغول مدير القسم الطبي في متحف كلية السلطان مراد الثاني في أدرنة، الدكتورة سهر أوتسون..

أصدقائي الذين كان لمساعدتهم فضل كبير عليّ؛ بكر أوكان، محمود تانيول، هاكان أتيش، زولفو أوغور، عدنان سيل ويوسف جوبر..

أصدقائي الأعزاء، أول قرّاء رواياتي وأول منتقديها؛ فيغان بيتيرمين، كمال كوجاك، بيريهان يوجال، إردينتش جيكيج، أورال إسن، وكذلك ابنتيّ كول أوميت، كوركان كوراك، وزوجتي فيلدان أوميت... والذين أتوجّه إليهم جميعاً بالشكر العميق..

فلولا جهود كل هؤلاء الأعزّاء لما أبصر هذا الكتاب النور..

إلى ذكرى مقتل أستاذي العزيز مدرّس مادة الأدب محمد سافاش إسلام، الذي اغتالته قوى الظلام في غازي عنتاب العام 1978



(1)

المرأة التي تركتني قبل واحدٍ وعشرين عاماً

عندما يتّهمك أحدهم بجريمة قتلٍ يسعى لإيجاد الأدلة والشهود ليثبت حقيقة ما يقول، فيما تحاول أن تثبت أنّ ذلك محض افتراء، ولكن المفارقة تكمن عندما تكون أنت من يوجّه الاتهام لنفسك.. ما الذي يجب أن تفعله حينها؟

لقد بدأت هذه المغامرة الغريبة ظهيرة يومٍ مثلجٍ، حين كان الهاتف يرن بإلحاحٍ متواصلٍ في منزلي الذي يقع في منطقة بهرية.

– مرحباً مشتاق..

هذا الصوت الذي ما إن سمعته حتى عرفته على الفور؛ إنها نزهت.. المرأة التي تركتني قبل واحدٍ وعشرين عاماً، وخلا رسالة الوداع التي أرسلتها لي بعد أن تركتني، لم تكلّف نفسها عناء الاتصال بي، واستكثرت عليّ مجرد السلام، وبقيت رغم ذلك سلطانة قلبي دون منازعٍ.. والآن تتصل بي وكأنّ شيئاً لم يحدث، وتقول مرحباً مشتاق من الطرف الآخر بصوتٍ لا يحمل أي ذرّةٍ من الندم.. ولن أنكر أنّ ثقتها المفرطة سببت لي الاضطراب من جهة، ومن جهة أخرى عادت لتتجسّد بكل تفاصيلها أمام مخيّلتي.. فبعد كل هذه السنوات، وما إن سمعت صوتها، لم أكتف بمجرد التعرف إليه فهذا أمرٌ متوقّع، بل استرجعت على الفور وجهها النحيل بملامحه الدقيقة وعينيها الزرقاوين الواسعتين وابتسامة السخرية المرتسمة على شفتيها باستمرار؛ والأهم من كل ذلك تلك النبرة المستبدّة المحبّبة التي لم تمحُها السنون من صوتها. فخلال كل هذه الأعوام لم يمرّ يومٌ واحدٌ دون التفكير بها، وأكثر من ذلك لقد تحوّلتْ في ذهني، مع بُعد المسافات وتوالي مرور السنوات، خياراً لا بديل عنه وإنسانةً منزّهةً عن كل العيوب..

ولكن الأغرب في الأمر أنّ تلك المرأة التي كنت أستعيد ذكرياتي معها يومياً،



كطقسٍ مقدسٍ لتبقى حيّة في ذاكرتي، لم يترك اتصالها غير المتوقع ذلك الأثر الذي كنت أخشاه، رغم أنني بقيت طوال إحدى وعشرين سنة أتخيّل وبإصرار قدوم هذه اللحظة ذات يوم. كنت أجلس على الأريكة القرفية اللون ذاتها ساعاتٍ متواصلةً أراقب جهاز الهاتف منتظراً مكالمةً منها، من شيكاغو، وقد علّقت فوق أريكة الانتظار تلك بورتريه السلطان محمد الفاتح وبيده وردة للمعماري والفنان سنان، والتي أهدتني إياها بمناسبة ذكرى مولدي الخامسة والثلاثين وقد ظلت معلّقة على الجدار ذاته طوال سنوات كشاهدٍ صامت.

وفي كثيرٍ من الليالي وتحت تأثير الأرق والشراب، كنت أتخيّل الهاتف يرن مبشّراً فأرفع سماعته لأسمع صوتها الذي زاد الأسى من بحّته المميزة، وهي تقول لي: لقد أخطأت الاختيار يا مشتاق ولم أجد ما أبحث عنه هنا، تعالَ وخذني... كما كنت متوهماً بالطبع. ولكن الغريب في الأمر أنه حين تحقق هذا الحلم المضني الذي رافقني سنوات طويلة، لم أشعر بأي فرحة أو انفعال. فقد أحسست أنني أتكلم مع صديقة عادية التقيتها منذ بضعة أيام لا أكثر.

- أهلاً نزهت.

وعلى عكس صوتي الحيادي والمتّسم بالبرود، كان صوتها حيوياً ومليئاً بالانفعال والحماسة.

- كيف؟.. كيف استطعت أن تتعرف إلى صوتي بعد كل هذه السنوات؟

"هناك أشياء لا تُنسى رغم مرور السنين" هذا ما كنت أود قوله، ولكن لا، لن أشعرها بمدى أهميتها. أجبتها بنبرة جاهدت أن تكون اعتيادية:

- لأن صوتك لم يتغير مطلقاً. لا يزال صوتك شاباً.

يبدو أنها واثقة من تعلّقي بها، لذلك لم تلحظ التصنّع الذي بدا في كلماتي، وهذا ما جعلها تطلق ضحكةً لفحتني لمسة الإغراء التي تخلّلتها.

- لقد دخلت عقدي السادس! عن أيّ شبابٍ تتحدّث يا مشتاق؟

تركت اللغة الأميركية نبرةً حادةً في صوتها، ولكن عندما ذكرت كلمة الشباب عاد إلى صوتها ولع تركي، ولسبب لا أعلمه شعرتُ بالضيق فأردت أن أقسو عليها قليلاً.

- معكِ حق فالصوت يحافظ على شبابه أكثر من الجسم، ولا تصله تجاعيد الزمن بالسرعة ذاتها التي تصيب البشرة.

لقد كان هدفاً أصاب المرمى، وفي الحال اختفت بهجتها.

- حسناً، حسناً.. كيف حالك؟ أقرأ عن نجاحاتك كثيراً.

أتحاول هذه المرأة أن تهزأ بي؟ نجاحاتي! أنا ليس لديّ أي نجاحات، على عكسها. فقد كان الاسم الذي يتبادر إلى الأذهان، ليس في تركيا فحسب بل وفي جميع أنحاء العالم عند الحديث عن العصر العثماني الكلاسيكي، هو اسمها؛ وكانت الجامعات سواء في أميركا وحتى في الصين تتسابق إلى دعوتها لإلقاء محاضرة في قاعاتها، وكنت أتابع محاضراتها ومقالاتها باستمرار، وللحقيقة فقد كانت تمتلك آراء مثيرة، وتحاول أن تفسر التاريخ العثماني من وجهة نظرٍ جديدةٍ ومختلفةٍ تماماً. وكان أستاذنا المحبوب طاهر حقي بنتلي يعقّب معترضاً على آرائها:

- إن آراءها لا تقارب الحقيقة في شيء. إنها تنظر إلى الأحداث من وجهة نظرٍ غربية؛ ويبدو أنها، وبعد الذهاب إلى شيكاغو، تبنّت وجهات نظر المستشرقين وتحوّلت إلى واحدةٍ منهم.

على الرغم من أنّ انتقاده لنزهت بهذه الطريقة كان يروق لي، ولكنني لم أكن أتفق معه في وجهة نظره هذه. فلكلّ مؤرخٍ وجهة نظر مختلفة وخاصة.. بعضنا ينظر إلى الأحداث من وجهة نظرٍ غربية، وبعضنا الآخر يراها من خلال نوافذ الشرق وأهوائه، ومن الممكن الوصول إلى نقطة التقاء مشتركة بين جميع وجهات النظر هذه. وفي الوقت ذاته لا يمكن التجرّد من الوسط المحيط بنا، فالتاريخ كالمادة التي تتناثر حقائقها عبر طبقات الزمن، وتفقد صدقيّتها الحتمية مع مرور الوقت؛ وهو، في كثيرٍ من الأحيان ليس سوى مجموعة وجهات نظرنا ونقاشاتنا حول شخصيات ووقائع مهمة لا نملك حتى وثيقة إثبات تؤكدها، أو شاهداً عليها: "التاريخ هو ما يكتبه المؤرخون".

لست متفقاً مع هذه المقولة بشكل كلّي، لكنني لا أنكر أنّ هذا العلم إناء يتّسع لمختلف وجهات النظر، وكل طبقةً فيه تناقض طبقة أخرى.. ألا تتجلّى أبرز صور هذا التناقض في اعتمادنا على مؤرّخين ينتمون إلى مدارس مختلفة وغالباً ما اتّهم

بعضهم بعضاً عبر العصور بالجهل والتخلّف؟ لذا لم ألقِ باللوم على نزهت كثيراً من هذه الناحية، وفي المقابل لا أنكر أنّ نعتها بالاستشراق أمرٌ غير قابل للنقاش. في الحقيقة، الأستاذ طاهر حقي هو الشخص المُلام، فهو من ساعدها للحصول على المنحة الدراسية في جامعة شيكاغو، ولكنها في المقابل لم تكن على هذا القدر من البراءة؛ فقد أوضح لي الأستاذ حقي، فيما بعد، مقدار الإلحاح الذي مارسته عليه من أجل أن يساندها لنيل هذه المنحة، حيث توسّلت البروفيسور عشرات المرات من دون أن تطلعني على الأمر؛ وقد أثمرت توسّلاتها في النهاية. ورغم اتهامات الاستشراق التي يوجهها البروفيسور إلى نزهت، ستبقى أكثر الأكاديميين نجاحاً بيننا، ولا أنكر أن نجاحها هذا يعود، في جزء كبير منه، إلى هجرها لي لتخطّ لنفسها طريقاً مختلفاً في الحياة.

أما بالنسبة إليّ فقد كنت كساعةٍ أثريةٍ قديمةٍ نسي صاحبها أن يعيد فتل الزنبرك، لتتوقّف العقارب على اللحظة التي تركتني فيها. أجل فقد واصلتُ الارتقاء على درجات التقدم في مهنتي، وكنت أنشر المقالات، ولديّ وجهات نظر خاصة بي، وألّفت كثيراً من الكتب، ودُعيت إلى بعض الجامعات التي لم تكن بأهمية الجامعات التي دُعيتْ هي إليها بطبيعة الحال، وتكللت جهودي بالنجاح أخيراً وأصبحت بروفيسوراً.

وقد استمرت الحياة وأصبح لديّ عشيقات وحبيبات، حتى أنّ علاقتي بإحداهن تطورت لتصل إلى عتبة الزواج، ولكن كل ذلك لم يكن سوى مجرد مظاهر لإخفاء ضعفي. ففي اليوم الذي تركتني فيه نزهت وذهبتْ، بقيت أراوح في المكان ذاته واللحظة ذاتها، تعيساً يائساً يملؤني الحقد..

أجل الحقد، لا يمكنني إخفاء هذه الحقيقة مطلقاً، فهذا التعلّق الذي استمر واحداً وعشرين عاماً كان يستمد بقاؤه من الحقد أكثر من الحب. هل قلت واحد وعشرون عاماً؟ لا، إنها واحد وعشرون عاماً، وثمانية أشهر، وثلاثة أيام.. كل هذه الأوقات مرت وأنا أفكر فيها.. أفكر ليس فقط في اللحظات الحلوة معها، ولكن أيضاً في الأسى الذي سبّبته لي، والخيانات، والمذلاّت.. كانت ذكرياتٍ مؤلمةً في معظمها وسيلاً لا يتوقف من المعاناة، وفي لحظات الذروة كانت تصل معاناتي إلى حد تمزيق

كل ذرةٍ في كياني المسكين المرضوض. في تلك اللحظات كنت أتخيّل نفسي أطعن جسدها النحيل بهذه السكين المصنوعة من الفضّة الخالصة، والموضوعة على مكتبي منذ سنين طويلة، والتي تحمل ختم السلطان محمد الفاتح منقوشاً عليها.. لأشعر بعدها بالخجل من نفسي ومن أفكاري الحاقدة هذه، وأحاول الابتعاد عنها قدر الإمكان. في الحقيقة كنت أحاول الابتعاد، وكنت في كل مرة ألعن آلاف المرات أستاذي الذي أقنعني بفكرة دراسة التاريخ حيث ذهبتُ إثر ذلك إلى الجامعة وتعرّفتُ إليها. وفي الوقت ذاته كنت أحاول مسح أي أثرٍ أو صورةٍ أو صوتٍ يعود إلى حبيبتي الخائنة من تلافيف ذاكرتي المجهدة.. وبعدها تغمرني لحظات من الهدوء لأدرك أنني بالغت في التجنّي على نفسي وعلى الجامعة وعلى الأستاذ.. فالحل الوحيد ليس في صبّ اللعنات على أحد، بل في محاولة إخراج لعنة نزهت من حياتي.

من المفترض ألا تبدو محاولةً مستحيلةً ولكن جميع جهودي تكلّلت بفشل ذريع، فذكرياتي التي كنت أريد محوها من ذاكرتي تنهض من الرماد أكثر قوة، والأحاسيس التي حاولت طمسها تتضخّم أكثر من السابق لتغزو فؤادي، إنها نقش محفور في أعمق أعماقي التي لا أستطيع الوصول إليها مطلقاً، على ما يبدو.

لذا فإن أكثر الأمور التي فاجأتني في الحياة هو عدم انفعالي وتأثري لدى سماع صوتها على الهاتف اليوم. ربما نسيتها دون أن أدرك ذلك، وكل الأحاسيس التي عصفت بي طوال هذه السنوات كانت مجرد أوهام وليست عشقاً أزلياً كما خُيّل لي. وكل هذا الشغف لم يكن سوى غيرةٍ مهنيةٍ لا أكثر.. قد يكون مجرّد حنقٍ على حبيبتي التي اختارت القرار المنطقي بتركي واغتنام الفرصة للذهاب إلى أميركا والتقدم في مستقبلها المهني، حيث نجحت في تحقيق ذلك بجدارةٍ فائقة.

أصابني الذعر لأنّ هذه الأفكار كانت تنتابني، فيما نزهت كانت تنتظر على الطرف الآخر من الهاتف، فلم أرغب أن تشعر المرأة التي تركتني، أنني، وبعد كل هذه السنوات، لا أزال مُحاصَراً في الفخ القديم ذاته من الأسى. طمست أفكاري ومشاعري وعدت لتقمّص دور الصديق الودود والمتسامح.

- لا، فأنتِ الأكثر نجاحاً بيننا يا نزهت، أنت المؤرخة التي يصفّق لكلماتها العالم بأجمعه- لا بدّ أن تعبير تصفيق العالم لها مبالغ فيه نوعاً ما، لذا

حاولت تلافي هذا الخطأ بمقارنتها بنفسي – أما أنا فقد واصلت العمل في مجال تخصّصي لا أكثر.

لم تتمكّن من التخلّص من هذه العادة، وأردفت بجدية:

– لا تزال مصراً على التقليل من شأنكَ! فقد قرأت أطروحتكَ حول الفرمان الذي أصدره السلطان محمد الفاتح حول قتل الأشقاء، وأعتقد أنه عمل ناجح بكل المقاييس.

في الحقيقة راقني إطراؤها وكلماتها اللطيفة، ولكنني لم أكن أعلم نوع الحديث الذي تحاول فتحه معي؛ لذا، حاولت الحفاظ على جديتي:

– لا أظنها أطروحةً على هذا القدر من الأهمية، فقد طُلب مني أن أقدم أطروحةً حول هذا الموضوع وقد قدمتها دون اهتمام بالغ – حاولت تغيير دفة الحديث – لكم من أين تتصلين؟ من شيكاغو؟

– بالطبع لا، أي شيكاغو هذه؟ أنا في منطقة شيشلي الآن.

هنا بدأت الدهشة تستولي حقاً.

– هل أتيتم إلى إسطنبول؟ منذ متى؟

– دعني أصحّح لك أولاً، لقد أتيت إلى إسطنبول ولم نأتِ؛ أي أنني أتيت وحدي.

– وزوجك؟

بمجرد أن خرجت الكلمات من فمي أدركت الخطأ الفادح الذي ارتكبته للتو، فقد أثبتّ لها أنني أتابع أخبارها طوال هذه السنوات. لكنها لم تتوقّف كثيراً عند هذه النقطة، بل اعتبرت اهتمامي بحياتها أكثر الأمور اعتيادية، وأجابتني موضحة:

– أتقصد جيري؟ لقد افترقنا – لم يبدُ على صوتها أي أثر من الحزن – لم نستطع الاستمرار معاً.

لا أدري ما الذي دفعني إلى التعاطف مع جيري الذي لم يسبق لي أن رأيت وجهه سوى في الصور. يبدو أنه ذلك الرابط الخفي الذي يجمع بين المنكوبين بالهجران.

– آسف لسماع ذلك.



ولكنها ردت بصراحتها المعهودة كما في كل مرة:

- لا تحزن على الإطلاق فقد كان زواجاً فاشلاً بكل المقاييس، فالاختلافات الثقافية أمر مهم جداً.. لأنه، وبعد كل هذه السنوات من الزواج وعيشنا المشترك، لم يتعلّم المسكين أي شيء يتعلق بي وبثقافتي التركية.. لذا لا تتأسف.. وماذا عنكَ؟ ألم تتزوج؟

كانت المرة الأولى التي أحسست فيها بشيء غريب في داخلي يتحرّك منذ أن سمعت صوتها، كأنّها موجة عاتية من بحر لم أكن أظنه سوى جثّة هامدة، ولكنني لم أعطِ الفرصة لهذا الإحساس المشؤوم بأن يتملكنّي بالكامل.

- لم أتزوّج - ووضعت حداً لهذا النقاش - لم أفضل الزواج.

- ربما اتخذتَ القرار الأصح، فالزواج لا يناسب أشخاصاً مثلنا.. - أكان صوتها يرتجف أم خيّل لي ذلك؟ - على كل حال، ماذا لديك هذا المساء؟

ما الذي ترمي إليه من هذا السؤال؟ أتود أن نلتقي فوراً واعتباراً من هذه الليلة؟ اجتاحتني موجة أكثر صخباً من الموجة السابقة، وشعرت بألمٍ حادّ يخرج من مكانٍ عميق، ولكن لم تكن لدّي نيّة للاستسلام بهذه السهولة.

- لِمَ تسألين؟

عقّبت على سؤالها.

وعلى الفور اعترفت بما كانت ترمي إليه من وراء السؤال.

- أتستطيع المجيء إليّ؟ هناك موضوع مهم أود التحدث إليك بشأنه ولا يحتمل التأجيل.

إنها نزهت التي عرفتها على الدوام، فلا أهم من مشاعرها وأحاسيسها ورغباتها. فبعد كل هذه السنوات التي لم تكلّف فيها نفسها عناء الاتصال بي، تتصل فجأةً وتود أن أذهب لرؤيتها بكل بساطة، بسبب نزوةٍ أو رغبةٍ لا أعرف كنهها، وأظن أنها تجاوزت الجرأة لتقف على أعتاب الوقاحة. بالطبع كان عليّ أن أرفض، فلست ذلك الكلب المطيع الذي يلحق بها من أول نداء. كان عليها أن تعلم بأنّ لديّ كبريائي وكرامتي، وقد حان الوقت، بل لقد فاتني أيضاً، لأوضح لها بأنها لا تستطيع التحكّم فيّ على هواها. وعلى الرغم من إدراكي لهذه الحقيقة الساطعة إلا أنني لم أستطع،

بعد كل هذه السنوات، أن أعطيها الجواب الذي تستحقه، فقلبي لم يكن يطاوعني على القيام بثورة من هذا النوع، فهو يفقد زمام السيطرة على نفسه، وخاصة عندما يتعلق الموضوع بنزهت. ليس قلبي فقط بل عقلي المسكين أيضاً، والذي بدأ ببناء الأوهام حول سبب هذه الدعوة اللامتوقعة وتشييد قصور الرمال كعادته.

فماذا يعني أن تدعوني فوراً إلى بيتها عندما بدأنا الحديث عن موضوع الزواج؟ ما الذي كانت تريده هذه المرأة؟ هل كانت تلمّح إلى بدء علاقتنا من جديد؟ أحقاً كانت تود الاعتذار عما فعلته بي؟ هل أدركت حقاً، بعد كل هذه السنوات، أن الحب الحقيقي والوحيد كان ذلك الحب الذي يجمعنا؟.. وكانت سترجوني راكعةً متوسلةً أن أعفو عنها.. أكان هذا ما سيحصل يا ترى؟

في الحقيقة ما كان عليّ أن أصدّق هذه التخيّلات الساذجة فقد توالت تحذيرات الأنا العليا لي وهي تقول "توقّفْ عن الحماقات، أليست هذه المرأة هي التي تركتك منذ سنوات من أجل مصلحتها الشخصية؟ كيف تستطيع الوثوق بها مرةً أخرى؟ عليك أن ترفض أي عرضٍ يأتيك من ناحيتها.." لحسن الحظ أن جزءاً من ذهني لا يزال قادراً على التمسك بأهداب المنطق، وكان يكفي لوقف كل هذه المعاناة حرفان، ولكن لساني لم يستطع قول "لا" رغم كل الصراعات المحتدمة داخلي.

- سأجهّز لك طبقاً من اللازانيا التي تحبها كثيراً – يبدو أن تردّدات حيرتي وصلت إلى المكان المناسب في ذهنها لتصرّ عليّ – وسنفتح معاً قنينة من الشراب كما في الأيام الخوالي. ما رأيك؟

الأيام الخوالي.. تذكّرتُ لحظاتنا الحميمة في غرفتي في قصر شفيق باشا، شعرت بالقشعريرة ذاتها وأنا أتذكر مذاق شفتيها بنكهة النعناع التي كانت تحب، وأنفاسها الدافئة وهي تهمس في أذني. وفيما هي تواصل الكلام أخذ صوتها يتخلّص من تلك اللكنة الغريبة التي اجتاحته ويعود ذلك الصوت الدافئ الذي أحببته. إذاً فهي صريحة في إبداء رغبتها التلاعب بي كما كانت تفعل في الأيام الخوالي. وعلى الرغم من جميع المبرّرات المنطقية وخطوط الدفاع التي جهّزها عقلي للمواجهة لم أبدِ أي رغبة في المقاومة، بل على العكس أعلنت استسلامي على الفور. وحين خفّ تلاطم الأمواج العاتية في نفسي المضطربة تبيّنت الجهة التي اتّجه إليها رغماً عن إرادتي

المسكينة، هل يستطيع أحد الوقوف في وجه إرادة السلطان وعدم تنفيذ أوامره؟

- أما زلت تسكنين في البيت ذاته؟

تداركت نفسي بهذا السؤال قبل أن أقول لها: أنا آتٍ على الفور. كنت أظن أن عدم انفعالي لدى سماع صوتها للوهلة الأولى كان شيئاً آخر يختلف عن تأثير الصدمة التي تلقيتها، ولكن الحقيقة الساطعة بدأت تتجلّى أمامي مرةً أخرى. فعندما يتعلّق الموضوع بنزهت أتحوّل عبداً مسلوب الإرادة، ذليلاً لا قدرة لديه على المقاومة، وبالتالي لا داعي لأن أعذّب نفسي أكثر بمقاومة لا طائل من ورائها. حال اعترافي بهذه الحقيقة شعرت براحةٍ عميقة تغمرني. فهذا أنا، وعليّ تفهم ذاتي ومسامحتها، والعيش بسلام مع نفسي. لذا أكملت سؤالي دون إبداء مزيدٍ من المقاومة.

- أليس البيت ذاته في شارع هانم أفندي؟

- أجل، في بناء ساهتيان.. في الحقيقة لستُ مرتاحةً مطلقاً هنا.. فسيزجين يفكر في بيع المنزل.

من خلال ضباب ذاكرتي ظهرت ملامح طفلٍ لطيف الوجه أجعد الشعر.

- الطفل ذو العينان الزرقاوان؟

- أجل، ولكن لم يبقَ من ذلك الطفل المحبوب أي أثر.. فقد تحول شابًّا يعشق المال..- كان صوتها مجهداً ويائساً- إننا نتشاجر كل يوم.. في الحقيقة الوضع مزرٍ.. ولكن دعنا من هذا الكلام، سنتحدث لاحقاً عندما تأتي، حاول ألا تتأخّر فقد جهّزت لك مفاجأة.

- حسناً، لن أتأخر.

لا أدري كيف نطقت بهذه الكلمات الثلاث، فما إن سمعت كلمة المفاجأة حتى تخليت عن كل آلياتي الدفاعية، ولا أذكر سوى أنني أغلقت سماعة الهاتف على عجل للذهاب. كانت تلك النبوءة التي يصلني صداها من أعمق أعماقي تخبرني بأنّ أمواج هذه الرغبة العاتية ستغرق كياني المهزوز وتدمر كل ما سواها، لأقف مرة أخرى على حافة الهاوية صامتاً، أنتظر كلمة الحكم التي ستنطق بها، كما في الماضي.

(2)

الرجل الذي تخلّى عن تسلسل الزمن
كما لو أنه قطعة ثياب بالية

استيقظت وكأن أحدهم يناديني، وعندما استعدت وعيي كنت غارقاً في ظلامٍ دامس، وأسمع الطنين ذاته في أذني، وأشعر بتلك الراحة ذاتها تغمر جسدي، لقد تخلّص ذهني من تلك المقاومة والمجادلة المضنية، لأنعم بلحظاتٍ من السكينة والسلام النفسي.. كنت أتجوّل لا وجهة لها على أنقاض متاهةٍ مُحيت كلّ خطوطها وحدودها. بدأت أتمعّن في ما حولي لكنني شعرت بالدوار، لذا أخذت أبحث عن شيء أتمسك به كي لا أسقط، فوقعت يدي اليمنى على درابزون خشبي، وكان يصلني ضوء خافت من مكانٍ ما. كنت جالساً داخل مبنى قديمٍ على درجٍ مرمري واسع.

حاولت التركيز في ما حولي مرةً أخرى، كان المكان مألوفاً لدّي ولكنني لم أتمكّن من تذكّره على وجه التحديد. لا بدّ من وجود زر للكهرباء في مكانٍ ما، ولم أتكبّد مشقة في معرفة مكانه، وبدأت أنزل الدرج ببطء شديدٍ غير مكترثٍ بالدوار الذي لا يزال ينتابني. أظهر الضوء الباهت الأصفر الصادر من المصباح المتدلي من السقف، جدران المبنى الذي تقشّر طلاؤه، والمصعد الخشبي القديم، فعرفت أنني في مبنى ساهتيان؛ البناء الذي ورثته نزهت عن جدّها، وهو من أقدم الأبنية في هذه المنطقة.

هذه المرة الثالثة التي أتعرّض فيها للموقف ذاته، فبعد أن أفقد الوعي ساعات عدّة أستيقظ لأجد نفسي في مكانٍ ما؛ والشيء الوحيد الذي أنا متأكد منه أنّ الأماكن التي أجد نفسي فيها ترتبط بأشخاصٍ هم السبب في فقدي للوعي، لتبقى هذه الساعات زمناً ضائعاً وكل ما يحصل فيها مجهولاً، لا صوت أو رائحة أو مشهدٌ يبقى لي من ذلك الزمن الغامض، ولا أثر في ذاكرتي يدلني على ما كنت أفعله حينها. وقد اقترحت

عليّ ابنة خالتي شازية، التي تسكن في البناء الذي أسكنه، وهي طبيبة نفسية على قدرٍ كبيرٍ من الكفاءة، أن أخضع لجلسات تنويمٍ مغناطيسي لمعرفة ما يحصل لي. ولكنني رفضت هذا العرض، لأنني لا أعلم ما الذي أخفيه في أعماق نفسي، ويمكن أن يطفو على السطح بمجرد فتح ذلك الباب السري، كما أن هذه الحادثة الغريبة لا تنتابني بشكلٍ متواصل.

المرة الأولى التي حصل لي هذا الأمر كانت بعد أن تركتني نزهت بشهرٍ واحد، أي قبل واحدٍ وعشرين عاماً وبضعة أشهر.. ففيما كنت جالساً داخل مكتبي في الجامعة، شعرت بطنين في رأسي، لأجد نفسي جالساً بعد ساعتين أمام نعش السلطان محمد الفاتح، لا بدّ أنني أدركت حينها أنّ السبيل الوحيد للخلاص من نزهت هو بالتعمّق والتقرّب من السلطان محمد الفاتح، أي اتّباع الفرضية التي تقول: "لتتخلّص من حبٍّ ما، عليك أن تجعل ذهنك مشغولاً على الدوام" وكان عليّ أن أبقي ذهني مشغولاً بالعمل. أما النوبة الثانية فقد انتابتني بعد عشرة أعوام وذلك بعد خمسة أيام من وفاة والدتي. فقد فتحت عيني بعد منتصف الليل في أحد فنادق منطقة حيدر باشا وبالقرب مني بائعة هوى، تشوّهت زينتها ومكياجها، وكنت أستنشق عبير شعرها الذي صبغته بأشقر مبتذل جداً فيما ارتسمت على وجهها ملامح اللامبالاة واضحة. ولم يكن لدّي أدنى فكرة، عن المكان أو الوقت الذي وجدتها فيه. كانت الذكرى الوحيدة الباقية في ذاكرتي لما قبل تلك النوبة هي أنني كنت أمسك بصورة والدتي وهي شابّة؛ كانت ترتدي ثوباً أحمر تزيّنه الأزهار، وتقف تحت شجرة المانوليا الوارفة الظلال وهي تبتسم للكاميرا. وكان آخر ما أذكره الشبه الواضح بين وجه أمي المشرق ووجه نزهت، وما تلا ذلك كان مجهولاً تماماً.

قالت لي شازية:

– شرود الذاكرة النفسي هو إحدى حالات فقدان الذاكرة المؤقت. وأنت تمر بهذه الحالة من فقدان الوعي بعد الصدمات النفسية القوية. وأضافت وهي تضحك: أنت الرجل الذي تخلّى عن تسلسل الزمن كما لو أنه قطعة ثيابٍ بالية.

يبدو أنها كانت محقة، فقد تعرّضت لكلتا النوبتين بعد فقداني شخصين عزيزين



على قلبي، حبيبتي التي تركتني وابتعدت عني آلاف الكيلومترات، وأمي التي ذهبت في طريق اللاعودة.. هذان الحدثان كانا أكبر مما يمكن أن نسميه مجرّد صدمات نفسية، ولكن ما سبب النوبة التي تعرّضت لها اليوم؟ هل عودة نزهت هي حدث مفجع؟ بالطبع لا، ولكنه حدث صادم بكل تأكيد. إذاً فلا علاقة لطبيعة الحدث سواء كان ساراً أم حزيناً بهذه النوبات التي تجتاحني، بل الصدمة التي تولّدها هذه الأحداث هي ما يفقدني وعيي.

ساعدني الهواء البارد الذي لفحني من داخل المنزل الذي كان بابه الخشبي موارباً، على لملمة شتات نفسي قليلاً. لقد أتيت لرؤية نزهت كما وعدتها على الهاتف، ولا غرابة في ما حدث، ولكن ليس لدّي أدنى فكرة عن كيفية اجتيازي لمنطقة بهرية نحو كادي كوي، ومتى ركبت السفينة، وكيف وصلت إلى شيشلي. على أي حال فقد وقع المحظور. نظرت إلى ساعة نجار التي أضعها في معصمي كذكرى من المرحوم والدي، فرأيتها تشير إلى السابعة واثنتين وأربعين دقيقة أي أنه الوقت المناسب للعشاء. وحتى في حالاتي العادية كانت موازين عقلي ستختار هذا التوقيت بالذات من أجل الحضور إلى منزل نزهت.

كيف كان مظهري يا تُرى؟ انتابني ذعر شديد، وبدأت بترتيب هندامي وشكلي. كنت أرتدي معطفي الرمادي وبنطالي الأسود، وكانت سترتي بلون اللازورد الغامق وتحتها قميص أزرق باهت اللون، ولم أنسَ ربطة العنق القرمزية، بالإضافة إلى حذاء مخملي أسود يحاكي أحدث صيحات الموضة لهذا الموسم. لم تكن هذه الألوان والألبسة توفر الدفء المناسب لهذا الطقس المثلج، ولكنني حاولت تدبّر الأمر قدر الإمكان. وقبل أن أشعر بالطمأنينة على مظهري امتدت يدي بشكل لاإرادي نحو ذقني الذي حلقت شعيراته صباحاً، لكنني أحسست بتلك الرؤوس القاسية لشعيراتي وهي تلامس أصابعي، ولم تكن هذه النقطة لصالحي، فقد تظن نزهت أنني تقصدت إبداء اللامبالاة في مظهري تجاهها.

اتّجهت نحو المصعد الخشبي، وقد جاهدت أن أضع على ملامحي أكبر قدرٍ ممكنٍ من الجدية. إن لم تخنّي ذاكرتي ففي هذا الصندوق الخشبي العتيق توجد مرآة كبيرة، وبالفعل فقد استقبلتني تلك المرآة ما إن فُتِح باب المصعد، فعلى الرغم من

تبعثر الأسرار في نفسي وخروجها من مكامنها، إلا أنني جاهدت مثل كل من يركب هذا المصعد ليواجه المرآة على إخفاء ما يجول في أعماقي. كان يرتسم على وجهي تعبير غريب، وكانت عيناي العسليتان تلتمع فيهما إشراقة خفية وباهتة، أما لحيتي التي لم تكن قد نمت بشكلٍ كافٍ، فقد كانت تضفي عليّ بعداً من الحكمة والرزانة أقرب ما يكون إلى اللامبالاة.

هذه اللامبالاة كانت العلاج الناجع في وجه كل المآسي التي تعرّضت لها، وكانت تملؤني بثقةٍ لا محدودة.

وبهذه الثقة ضغطت على الرقم ثلاثة في لوحة أزرار المصعد الذي اهتزّ كشخصٍ انتابته نوبة صرع، فشعرت بالقلق لأنني قد أضطر إلى صعود الدرجات وصولاً إلى الطابق الثالث، ولكنه في هذه اللحظات فاجأني بتوقف ارتعاشاته وصعوده نحو الأعلى، وقد رافق صعوده جوقة صرير معدنية كانت تشي بتعب جسده العجوز ورغبته في الفناء، ولكن هذه الأصوات البعيدة عن المشاعر الإنسانية أيقظت في نفسي ذكرى جميلة.

لا بدّ أنه كان شهر حزيران/يونيو لأن عبير شجرة الزيزفون في الشارع كانت تصل إلى داخل المصعد حيث كلانا، كنا ننزل بعد انتهاء دعوة السيدة سميحة والدة نزهت لي على الغداء. كانت المرة الأولى التي تدعوني فيها بعد سنوات من علاقتي بابنتها ولم تكن بالطبع بقصد التعارف، لأنها كانت تعرف كل ما يجب أن تعرفه عني. ولكن الأرملة العجوز كانت تريد أن تضع علاقتي بابنتها، بعد كل هذه السنوات من الشغف والحب، في إطار جدّي. لو كان الأمر بيدي لكنت تزوّجتها في اليوم ذاته، ولكن حبيبتي المجنونة كانت ترى فكرة الزواج بشخصٍ ما جنوناً محضاً، وقد تكون خططت منذ تلك الفترة المبكرة. ما يهمني في الأمر أنه حين نزل بنا المصعد، وكما في كل مرة كنت متمسكاً بالآداب والفضيلة، لسوء حظي، وأعامل الجميع بمن فيهم حبيبتي بطريقةٍ رسميةٍ ومحترمةٍ جداً على عكسها هي حيث لفّت ذراعيها حول عنقي وهي تقول: «قبّلني».

تراجعت بضع خطوات لأنني لم أتوقع أن تتصرّف بهذه الجرأة، ولكن لم يكن أمامي أيّ مهرب. وأذكر أنني أسندت ظهري على هذه المرآة. بالطبع لم تكن تفعل

ذلك، كما في كثيرٍ من الأحيان – من أجل أن تحرجني فقط، ففي هذه المرة كان هناك بريق يلتمع في عينيها، وقد اتسعت فتحتا أنفها لتلتهم مزيداً من الهواء من حولها وهي تقول لي بصوتٍ يفيض رغبة:

– هيا أيها الأحمق قبّلْني، ماذا تنتظر؟

وقد التصق جسدها بجسدي فلم أجد سوى جملةٍ واحدةٍ لأدافع بها عن نفسي:

– سيصل المصعد بعد قليل.

لو كان الأمر يقف على مجرّد التقبيل لفعلت ذلك، ولكن تلك النظرة في عينيها الزرقاوين كانت تشي بحصول مزيدٍ على زخم عطر الزيزفون المحيط بنا. وعندما رأت ترددي الواضح ابتعدت عني بسرعة، ولم أعترض على الأمر. ولو لم يكن الذي ينتظر المصعد في الأسفل هو سعاد شقيق نزهت لربما أعدنا إغلاق بابه ليشهد جميع تفاصيل علاقة بين عاشقين.. لكن أخاها وعندما شاهد وجهي المحمر صوّب نحو أخته نظراتٍ ناريةً وهو يقول:

– لقد تأخّر الوقت، إلى أين أنتما ذاهبان في مثل هذه الساعة؟

لكن نزهت لم تبالِ نهائياً بهذه الملاحظة.

– سأعود. سأرافق مشتاق إلى موقف الحافلة وأعود.

وكأنها هي الشاب وأنا الفتاة التي يخاف عليها حبيبها، ولا يريد أن تعود بمفردها في وقتٍ متأخرٍ من الليل، لذا ستوصلني إلى موقف الحافلة.

أعادت إليّ هذه الذكرى الخجل القديم ذاته، وأحسست أنّ خديّ يتحوّلان جمرتين تتقدان رغم أنها كانت تثلج في الخارج، وقد خفت أن تراني نزهت بهذه الحالة ويفتضح أمري. فبعد بلوغي العقد السادس من عمري ما زلت أشعر بالخجل من هذه التصرّفات كمراهقٍ أخرق، ولو علمت سبب خجلي فستسخر مني بكل تأكيد.

– داخل هذا الجسد الكبير لا يوجد سوى طفل خجول.. أما آن لك أن تكبر قليلاً يا رجل؟..

وحين كانت ترى العبوس يرتسم على وجهي كانت تحاول أن ترضيني قائلة:

– أنا أمزح. وتبدأ بالضحك بصوت عالٍ لتجلس إلى جواري وهي تقول لي: ولكنك حسن التربية بصورة مبالغٍ فيها يا مشتاق. نحن شباب، ولا ضير

من بعض البذاءة.

كنت أعلم بأنها محقة على الدوام، وللمفارقة فقد كانت بذاءتها ومجونها يروقان لي، وحتى بعد أن أتركها وأعود إلى المنزل كنت أبقى ساعاتٍ طويلة وأنا عاجز عن التنفس بصورة منتظمة لشدة انفعالي وتأثّري. قد أكون أحببتها لهذا السبب فهي كانت تفعل وبكل جرأة، ما كان يجول في خاطري بشكل سري، وبصورةٍ مثيرةٍ ومستفِزةٍ وكأنها تتحداني. لكن الغريب في الأمر أنّ امرأة مثلها تحب الحياة وتقضي كثيراً من وقتها في اللهو، كانت في الوقت ذاته ناجحة نجاحاً منقطع النظير في مهنتها. لا بدّ أن دراستها في الثانوية الألمانية قد نظّمت أفكارها، فللمتعة وقتها الخاص وللعمل وقته الخاص.

– ما يهم في الأمر حقاً يا مشتاق هو التركيز، أن تركّز على كل ما تفعله بغض النظر عن طبيعته.

وقد فقدت التركيز عليّ في أحد الأيام وشدّتها مواضيع أخرى؛ مواضيع تقع خلف المحيطات البعيدة.

عالم جديد وجامعة جديدة وحبيب جديد. جيري الذي تزوّجها كان يصغرها بعشرة أعوام ويصغرني باثني عشر عاماً، أظنه كان رجلاً بشعاً. لا أقول ذلك لأنني رجل وسيم، ولكن من الواضح أنها تهوى الرجال البشعين أكثر، وقد كانت تجمعني به صفة أخرى، فكلانا ينافس دبًّا متوسط الحجم من حيث ضخامة جسدينا.

كان جيري بتاريخ الفن وكان يقف بخيلاء مرتدياً معطفاً جلدياً بني اللون فوق قميص أصفر ويحيط عنقه بوشاح أحمر. وكان شعره الأحمر يذكرني بخروف مصبوغ بالحناء فيما تتجلّى الغطرسة في نظرة عينيه وتحت أنفه الضخم، وعلى فمه الواسع ارتسمت ابتسامة سمجة.. لا أعطي هذه الانطباعات عنه لأنني أغار منه.. فهذه بالضبط كانت ملامحه في صورة له في إحدى المجلات البريطانية التي تهتم بشؤون الفن. ولكن نزهت ولأسبابٍ مجهولةٍ أحبته، كما أحبتني أيضاً، ربما أكثر مني وربما أقل، ولكن لِمَ تزوجت به ولم تتطرق إلى موضوع زواجنا مطلقاً؟ في حين تطرقت والدتها إلى الموضوع. وهذا كان سبب دعوتها لي لتناول العشاء في تلك الليلة، حين حاولت ابنتها التحرّش بي في هذا المصعد. وقد ظلت نزهت على موقفها ولم تتطرق

إلى الموضوع، لا في تلك الليلة ولا فيما بعد. بالطبع لن تفكر بالزواج من رجل كان يخجل من الاقتراب منها ومبادلتها المشاعر والأحاسيس، وأنا متأكد لو أن جيري كان مكاني لما فوّت هذه الفرصة على الإطلاق، وكان ارتشف رحيق النعناع من شفتيها اللمياوين إلى داخل فمه الكبير دون أن يهتم بأن حبيبته أكبر منه بعشر سنوات، بل على العكس، لربما كان متعلّقاً بها لهذا السبب بالذات، ولكانا على الأغلب قد أوقفا المصعد بينما ينتظر سعاد أسفل الدرج، ذلك الأخ الذي لم تبالِ نزهت بأوامره وتوجيهاته على الإطلاق.

شعرت بالاهتزاز فتلفتّ حولي متسائلاً إن كنا قد وصلنا، ولكن المصعد لم يكن يتوقف بل كانت الرعشة مصدرها جسدي الذي كان يختلج ويرتعد غيرةً وحقداً وخجلاً من نفسي.. هل ستعود النوبة مرة أخرى؟ حاولت أن أتنفّس بعمقٍ شديدٍ وفيما كنت أحاول السيطرة على توتّري، وقعت نظراتي مجدّداً على المرآة كاشفة الأسرار.

كان مشتاق يقف أمام المرآة دون تغير. كانت ملامح عجوز سئم ولكن هناك تعبير جديد يتبدى على وجهه، فقد اختفت الطمأنينة التي كانت ظاهرة في عينيه وحلت محلها ملامح مغايرة تماماً تشي بحقد رجلٍ فقد عقله تماماً. أدركت أنني لن أستطيع أن أواجه نزهت وأنا على هذه الحال، فحاولت أن أشيح بنظري عن المرآة وكأنني إن فعلت ذلك سأغيّر من حالتي النفسية أو سأستطيع إخفاءها. لذا، حاولت أن أبعد جيري ونزهت وكل ما فعلاه بي طيلة هذه السنوات عن ذهني وأن أنقذ أفكاري من التشبّث بهما. وقبل أن أسدل الستارة على كل هذه المشاهد المؤلمة وعلى صورة وجه جيري بالذات، بدأ المصعد بالاهتزاز مجدّداً وتوقّف هذه المرة.

للحظاتٍ فكرت أن أضغط على زر الهبوط لأنزل إلى الأسفل مجدّداً وأهرب من هذا المنزل بأقصى سرعة ممكنة قبل أن يراني أحد، وقبل أن أنطق بأي كلمة. سأعتبر أنّ المحادثة لم تتم بيني وبين نزهت أو سأعتبر نفسي رفضت دعوتها السابقة. كان هذا التصرف الأقرب إلى طباعي في الحقيقة. ولكنني لم أفعل ذلك، ربما لشعوري بضرورة محو تلك الصورة المثالية المرتسمة في أذهان الناس عني، كشخصٍ مسالمٍ وقورٍ وديعٍ لا يستطيع القيام بأي ضرر مهما كان صغيراً. كنت أشعر بالاشمئزاز من

ضعف إرادتي ومن امتثالي للمنطق في كل الأمور، ومن ضعفي أمام الآخرين. كنت أشعر بالملل والتقزّز من كل هذه الأمور، وأحاول وضع حدّ لهذا الشعور الذي ينتابني، وكان عليّ أن أواجه نزهت وأن أواجه مشاعري تجاهها، لتجاوز هذا الاحترام الزائف والمبالغ فيه، وتلك اللباقة التي لا طائل منها. لقد حان وقتُ مواجهة الحقيقة العارية كما هي. أحقاً حان الوقت؟ أظن ذلك. غريب! فهذه المصارحة الذاتية جعلت كل الضيق الذي اجتاحني منذ قليل ينساب إلى الأسفل ليخرج من مسام حذائي وينتقل إلى الأرض الخشبية لهذا المصعد القديم، ويضيع بين متاهات الصعود والهبوط. وقد خرجت بهذه الروح الجديدة من المصعد، وأودعته تلك الذكريات المؤلمة ليهبط بها.

ما إن خرجت حتى وقفت حائراً، فالباب الموارب من جهة، وقربه من باب المصعد من جهة أخرى، قد أصاباني بحيرة ظننت معها بأنني أخطأت الطابق المقصود. كان هذا الباب في ذاكرتي أبعد بقليلٍ من مدخل المصعد، ولحسن الحظ فقد استطاعت الحيرة المكانية أن تنتشل ذهني من الماضي وتعيد أفكاري إلى الزمان والمكان الصحيحين.

هل خرجت نزهت؟ ولكن إلى أين؟ ربما إلى البقال، أو ربما إلى محل اللحوم المقدّدة؟ ماذا كان اسم ذاك الرجل؟ نايل ديلي؛ ذاك الذي كان يصنع أفضل شطائر الجبن الرومي مع لحم اللسان واللحم المقدّد، وكانت نزهت تعشق هذه الشطائر. وعندما كانت العائلة، في أيام الصيف، تنتقل إلى منزلها الصيفي في جزيرة بيوك أدا، كان هذا المنزل يبقى فارغاً ليحتوينا أنا ونزهت طيلة الصيف، وكلما أتيت لرؤيتها كانت تطلب مني أن أحضر معي بعض تلك الشطائر من المحل ذاته. وبالطبع معها زجاجة من الشراب البارد، وكان ذلك عادة ورثتها عن والدها، فقد كان السيد فهمي مدير البنك الزراعي، مغرماً بهذا النوع من الشراب المحلي الصنع.

عندها فقط لاحظت أنني أتيت خالي الوفاض، فبعد كل هذه السنوات سأذهب إلى رؤية حبيبتي، دون أن أحضر لها معي باقة ورد أو زجاجة شراب. لا يتعلق الأمر بالمرأة التي أحبها فقط، فعندما تُدعى من قِبَل أي شخص عادي، ليس من المستحسن أن تذهب خالي الوفاض. خطر لي للحظات أن أعود لأحضر معي شيئاً ما، ولكن ماذا لو التقيت بنزهت وأنا ذاهب؟ كيف سأبرّر لها الأمر؟ هل سأقول لها عذراً عزيزتي،

فمنذ أن تركتني أصبت بمرض يطلق عليه الأطباء النفسيون شرود الذاكرة اللعينة النفسي، وهذا يعني أنني أسقط فاقداً الوعي وتغيب عني ذاكرتي ساعات عدّة، لا أدري خلالها أين كنت وما الذي أفعله، وقد تعرّضت لنوبة جديدة عندما أغلقت سماعة الهاتف بعد أن دعوتني إلى منزلك، لأجد نفسي في ممر البناء الذي تسكنينه، لذا لم أتمكن من إحضر لك ولو علبة شوكولا.. أهذا ما سأقوله لها؟ ربما أتمكن من أن أخبرها بحالتي النفسية فيما بعد، ولكن لن أبرر به عدم إحضار هديةً بالطبع.. لذا اخترت الدخول إلى المنزل بيدين فارغتين. ضغطت على الجرس فبدأ يرن رناتٍ حادةً عالية الصوت ولكن دون مجيب. ضغطت عليه مرة أخرى، وأبقيت يدي على الزر لمدة أطول فخرج الصوت أكثر حدّة مما قبل، وكانت النغمات أكثر طولاً. من الواضح أنها لم تكن في المنزل. ربما ذهبت إلى شقة ابن أخيها سيزجين. بعد تردّد دام لحظاتٍ قصيرةً، دفعت الباب العسلي اللون بطرف إصبعي نحو الداخل فصرّ قليلاً وهو يفتح لتقابلني الأريكة في الردهة. من الواضح أن الجدران تُركت دون طلاء سنواتٍ طويلة، حتى أنّ لونها الأبيض قد تحوّل رمادياً على مرّ السنين. على المشجب الموضوع على يسار الأريكة عُلّق معطف نسائي أخضر، وقبعة من اللون نفسه، وزوج من القفازات البنية الغامقة. إنها الألوان التي تفضّلها نزهت. عندما رأيت أشياء حبيبتي أمامي خيّل لي فجأة أنني أرى وجهها وهي تحدق إليّ. وذعرت من احتمال أنني بدأت أخلط بين الواقع والخيال وأن تلك الحالة المشؤومة بدأت تنتقل إليّ في وعيي، ولكن باب غرفة الجلوس المفتوح على مصراعيه أكدّ لي ما كنت أخاف تخيّله، فقد رأيت وجه حبيبتي نزهت وهي تحدق إليّ بإصرار غريب. كانت سلطانة قلبي وروحي جالسةً بكل هدوء تراقبني وتتفحّصني بصمتٍ مطبق. اضطربت للحظات، ثم حاولت رسم ابتسامةٍ على وجهي. فرؤية شخصٍ تحبه بعد غياب كل هذه السنوات أمر في غاية الصعوبة، بغض النظر عمّا إذا كان موقفاً ساراً أم حزيناً.. يبدو أنها كانت تعاني من المشاعر نفسها، وهذا ما دفعها إلى البقاء صامتةً تحدّق إليّ كل هذا الوقت. لم أعد أتحمّل هذا الصمت العميق الذي يفصل بيننا فبادرت بالقول:

- أكنتِ في الداخل؟ خرج صوتي مرتجفاً ولكنني لم أبالِ بالأمر، وواصلت محاولة بناء جسر من الكلام بيننا: لقد ضغطت على الجرس، ولكنك لم

تردي عليّ.

لم تعلّق على الأمر ولم تتحرّك مطلقاً. كانت تجلس على الأريكة السكرية اللون وقد مال رأسها نحو الوراء قليلاً، وبقيت صامتةً تحدّق إليّ وتتفحّصني. لم يتحْ لي الضوء الخفيف الصادر عن الثريا المعلّقة بالسقف رؤية المشهد بشكلٍ واضح، ولكنها كانت كمن لا يريد أن يفوّت أدنى حركة من حركاتي، فلم ترمش بعينيها ولو لمرة واحدة، أو أن هذا ما كان يتراءى لي، ولكن هذا الصمت المطبق زاد من انفعالي.

– لقد تركتِ الباب مفتوحاً – قلت ذلك وأنا أقترب منها بضع خطوات أخرى – ظننتك في الخارج.

لكنها حافظت على صمتها وقد فتحت عينيها على اتساعهما وكأنها تود التأكد ممن أكون؛ فبدأت أستغرب موقفها هذا. صحيح أنني لست الشخص ذاته الذي تركته منذ واحدٍ وعشرين عاماً، فقد خطّ الشيب شعري وتهدّلت كتفاي، كما أنني اكتسبت بعض الوزن. ولكنها بالمقابل لم تكن نزهت التي تركتني وهي في ريعان شبابها. فعلى الرغم من المسافة الواضحة بيننا، وعلى الرغم من الضوء الخافت، إلا أنّ تراكم السنين كان بادياً على وجهها وجسدها. لقد أصبحت عجوزاً، وبدا عليها أثر السنين أكثر مما بدا عليّ، وقد أحسست بفرح خفي من هذه المقارنة الناجحة لصالحي، ولكنني على الفور شعرت بدناءتي، فليس من المفترض أن تسرني مقارنة كهذه على الإطلاق. وأصابني ذعر خفيف من أن تدرك نزهت ما يجول في فكري، فحاولت أن أستمر في الكلام لأخفي عنها الأمر وأنا أدخل غرفة الجلوس ذات الباب الزجاجي:

– هل أنتِ بخير؟ لِمَ كل هذا الصمت؟

"ربما من وقع المفاجأة فليس من السهل رؤية شخص بعد غياب كل هذه السنوات"..

هذا ما كنت أتوقع سماعه منها، ولكنها لم تبادر إلى التحرك أو حتى محاولة الكلام. وفي تلك اللحظة بالذات لمحت لمعان نصلٍ في الجانب الأيسر من عنقها. ما كان ذلك الشيء الذي يلمع بفعل الضوء القادم من النافذة؟ بعد خطوتين تغيّرت زاوية الرؤية قليلاً، واستطعت رؤية ذلك الشيء الفضي اللامع. لقد كانت السكين الفضية الخاصة بفتح الرسائل والتي نُقِش عليها ختم السلطان محمد الفاتح. فعند

الحصول على درجة الدكتوراه اشتريت اثنتين منهما أبقيت واحدة معي، وأهديتها الأخرى. تلك السكين ذاتها التي بقيت على طاولتي لمدة واحدٍ وعشرين عاماً، وفي كل مرة كنت أراها فيها أتخيّلني أغرزها في جسد نزهت النحيل انتقاماً.

مجدّداً، عاد ذلك الاهتزاز الذي استطعت التغلّب عليه في المصعد القديم ليجتاح جسدي كله، وبدأت أشعر بدوار عميق، وقد جفّ حلقي، وبدأت أكابد صعوبة في التنفس، فقد كان هناك ثقل هائل يطبق على صدري. تخيّلت أنني سأقع أرضاً، ولكن هذا لم يحصل فقد بقيت منتصباً في المكان ذاته دون أدنى حركةٍ، خائفاً من التفكير في الاحتمالات التي بدأت تصيب ذهني كسهامٍ مسمومةٍ، بينما عيناها الزرقاوان مغروزتان فيّ بإصرار أكثر وضوحاً من ذي قبل، وكأنها تؤكّد الأفكار المرعبة التي بدأت تراودني.

لم ألحظ المدة التي بقيت واقفاً فيها هناك، وكانت رئتاي من بادرتا إلى إنقاذي وذلك بعد أن عادتا إلى العمل ببطء شديد لتمكّناني من استنشاق الهواء والعودة مجدّداً للتمسك بأهداب الحياة. تململت في مكاني، ولكني لم أجرؤ على الاقتراب من حبيبتي، ولم أرغب في ذلك صراحة، وبدأت بتفحّص المكان من حولي في محاولةٍ لاستعادة الواقع ولكن ذلك الضوء الخافت زاد من عظمة الأوهام، وعندما تجرّأت وعدت بأنظاري نحوها كان المشهد مرعباً حقاً، فقد كانت تلك السكين مغروزةً في عنقها من جهة اليسار وقد وُضِعت أمامها كأس ماء نصف مملوءة. ولم أتيقّن من الحقيقة حتى رأيت دمها النازف، فقد كان الحائط إلى يسارها، والذي علّقت عليه صورة زفاف السيدة سميحة والسيد فهمي، ملطّخاً برذاذ دمها، وكانت الأرض الخشبية أيضاً التي تفصلها عن الحائط قد نالت نصيبها من دماء نزهت المسفوحة. من الواضح أنّ اندفاع الدم قد توقّف ولكن الجرح ظلّ ينزف مدةً طويلةً، فقد اصطبغ الجانب الأيسر من سترتها البيضاء باللون الأحمر القاني وقد تشكّلت بحيرة صغيرة متجلّطة من الدماء حول يديها اللتين كانتا موضوعتين إحداهما فوق الأخرى على حجرها. حينها أدركت الحقيقة؛ لقد قُتِلت نزهت؟ لقد طعنها أحدهم بهذه السكين دون رحمة، ولكن من هو؟ وفي تلك اللحظة شعرت بصداعٍ حادّ كمن تلقّى ضربةً قاصمةً على رأسه ولم أتمكّن سوى من نطق حرفين:

- آه.

حرفان عبّرا بعمق عن فداحة الفاجعة الماثلة أمامي.

- آه.

(3)

ازرعوا أزهار البنفسج على قبري

تلك الآهة التي خرجت من بين شفتيّ التي غاضت عنهما الدماء، كانت تعبيراً عن الذعر الذي انتابني عندما أدركت أنني أنا من قتل نزهت. وفي اللحظة ذاتها نظرت بخوفٍ إلى يديّ، اللتين، على عكس يدي نزهت المصطبغتين بالدماء والمتروكتين في حضنها بلا حراك، كانتا ترتجفان كورقتي خريف ضخمتين فارقتهما الحياة. لم ألتفت مطلقاً إلى ارتعاشهما، ولكنني قربتهما من وجهي قدر الإمكان باحثاً عن أي أثر صغير أو بقعة دم حمراء تثبت تورّطي... عن دليل يثبت ما كنت أفعله في تلك الساعات المجهولة المشؤومة التي غابت عن ذاكرتي. كان الضوء ضعيفاً فمن أصل خمسة مصابيح للثريا التي كانت هدية من جدها لأمها لم يكن يعمل سوى اثنين، فاقتربت من لوحة المفاتيح لأُضيء الثريا الأخرى، وهنا لمع بارق غريب في ذهني أصابني بذعرٍ أكبر: ماذا لو لم أكن أنا القاتل؟ ماذا لو كان القاتل لا يزال موجوداً في منزل نزهت؟ جالت نظراتي في المكان كله لكنني لم أجد أحداً، وحاولت أن أصيخ علّني أكتشف صوتاً صادراً من مكان ما في المنزل، وبقيت صامتاً في مكاني للحظات، ولكن ما من صوتٍ أو همسةٍ تدل على وجود أحد سواي. أدركت حينها أنه لا مبرر لأن أواسي نفسي باحتمالٍ كهذا، فالقاتل معروف وهو أنا. لقد قتلتها وخرجت من المنزل تاركاً الباب موارباً، وهنا لمع بارق آخر في ذهني المسكين فقد كان الباب حقًّا مفتوحاً، فاتجهت نحوه مذعوراً وأغلقته. وعندما التفتّ عائداً التقت نظراتي مجدّداً نظرات نزهت المصوّبة نحوي، نزهت تلك المرأة التي بقيتُ كل هذه السنين أنتظرها بشوقٍ لا ينضب، عشقي اليائس الذي كان يحتل قلبي كلما توالت السنون أكثر فأكثر.. لا أصدق.. هذا يعني أنني، بعد كل هذه السنوات من الانتظار وبيدي الاثنتين... انتقلت الرعشة العنيفة من يدي إلى جسدي كله فيما كانت عيناي

تحترقان وتتسع دوائر الألم في قلبي، وهذا الهواء عاد يضيع مني لأختنق مجدّداً.. أكنت أغيب عن الوعي مرةً أخرى؟

لا، ليس الآن. على الفور أشحت بنظري عنها، وضغطت على مفاتيح النور، فأضاءت الثريا لتتغيّر الغرفة كتحوّل الليل نهاراً. حاولت قدر الإمكان أن أبقى بعيداً عن جسد نزهت الساكن، ووقفت تحت ضوء الثريا الذهبي وبدأت بفحص يديّ وكأنهما أيضاً جثتان هامدتان، وعلى الرغم من أنني قربت يديّ حتى لامستا أرنبة أنفي لكن الرؤية لم تكن واضحة، فأخرجت نظارتي من جيب معطفي الداخلي، والتي أحملها معي على الدوام منذ خمس عشرة سنة متواصلة. الآن لم يكن ليديّ أيّ مهرب وقد حوصرتا كمذنبين يتم التدقيق في تفاصيل حياتهما. بدأت بتفحّصهما ظاهراً وباطناً وبفحص أظفاري بكل دقّةٍ وتأنٍّ، ولكنني لم أجد أي أثر أو لطخة أو نقطة حمراء عليهما.

وبدل أن أسحب نَفَساً عميقاً، كان جرس الإنذار يطن في ذهني بتواصلٍ، ماذا لو أنني ذهبت وغسلت يدي بعد ارتكاب الجريمة؟ أيعقل أن أفعل ذلك؟ بالطبع يعقل، فأثناء النوبة أقوم بأشياء أكثر غرابةً من مجرد غسل يديّ، مثلاً لم يسبق لي أن تجرأت على الخروج إلى الشارع بلباس متعدّد الألوان كما فعلت اليوم، كانت أكثر زلاتي على صعيد الألبسة هي عدم اختيار الحذاء المناسب أحياناً. أي أنني كما في الحالات الاعتيادية أتصرّف أثناء النوبة أيضاً بكل منطقية ممكنة، وذلك رغم أنّ ما أفعله أثناء النوبة يبقى مجهولاً كشريط فيلم مُسِحت منه بعض المشاهد، فلا صوت أو صورة تدل عليها وفكرة استعادتها أمر شبه مستحيل. لو أنني قمت بقتل نزهت تحت تأثير رغبات اللاوعي؛ ولأكون صادقاً فقد تخيّلت الأمر مراراً وتكراراً وأنا بكامل وعيي وإرادتي. لو أنني فعلت أمراً كهذا وتجرّأت على قتلها وأنا أسير في تلك المناطق المجهولة عن وعيي وإرادتي، فلا بدّ من أنني قمت بتنفيذ الأمر على أكمل وجه. أي أنني بعد أن غرزت تلك السكين الحادة في عنق حبيبتي، اتّجهت إلى الحمام لأغسل يديّ من آثار الدماء. الحمام.. أجل، توجّهت نحو الحمام بذعر شديد وسرعة جنونية، ولكنني توقفت في منتصف الطريق لأن فكرةً لمعت في ذهني كبارقٍ خاطف. الستائر؛ لقد كانت ستائر الصالة كلها منزاحةً عن النوافذ التي لا يغطيها سوى تلك الستائر

الشفافة المزينة في أسفلها بشريطٍ من الدانتيل المخرّم بأزهار ناعمة، ماذا لو رآنا أحد من الجيران؟ اتجهت بسرعة إلى النوافذ الواقعة إلى الجهة اليمنى في البداية ثم إلى النوافذ التي تقع خلف الأريكة التي كانت نزهت تجلس عليها، وبدأت بإسدال الستائر المخملية البنية اللون بإحكام، وحرصت على أن أدقّق في نوافذ البناء المقابل لمنزلها. ولحسن الحظ كانت كل النوافذ معتمة ولا يبدو أحد من خلالها، فهي كانت إما مهجورة وإما أن أصحابها لم يكونوا موجودين فيها في تلك اللحظات. وفيما كنت آخذ نَفَساً عميقاً عادت أنظاري لتقع على نزهت، فتحولت شهقتي إلى تنهيدة مؤلمة. كانت قد جمعت شعرها البني اللون وربطته خلف رأسها كما كانت تفعل في الأيام الخوالي، ولكنني لاحظت أن لون شعرها أصبح أفتح مما كان عليه سابقاً. والمثير في الأمر أنه، ورغم مرور كل هذه السنوات، لم يخط الشيب شعرها، وتذكّرت حينها أنّ الأصباغ هي حيلة النساء الذكية لإخفاء آثار السنين. في السابق كانت تترك شعرها منسدلاً ليصل حتى كتفيها؛ ذلك الشعر البني الجميل والوجه اللذان يشدّانك إليهما من النظرة الأولى. ولم تكن تضع المكياج والزينة كبقية النساء فهي لم تكن تشعر أنها بحاجة إليهما.. تذكّرت تفاصيل حبيبتي الجميلة وأنا أنظر إليها الآن جالسةً أمامي بلا روح على هذه الأريكة. نزهت المليئة بالحيوية والإثارة والتي كانت ابتسامتها تضفي السرور على كل من حولها.

كانت في الثلاثينات من عمرها. عند مدخل الجامعة كما أعتقد، وأظن أمام درج المكتبة أو في حديقة قصر توب كابي؟ أظنها كانت ظهيرة يوم ربيعي، لأن الشجرة التي خلفنا كانت قد أزهرت. لا أذكر إن كانت شجرة كرز أو أكاسيا أو شجرة الأرجوان، ولا أذكر لون الشجرة ورائحتها على الإطلاق. كل ما أتذكّره هو وجهها الذي اعتراه بعض القلق وهي تلوّح لي بيدها:

– أسرع يا مشتاق، سنتأخر على السينما.

أحقاً عشت هذه اللحظات معها؟ أم أن ذاكرتي تلعب معي لعبة جديدة؟ بدأت أهز رأسي بعنفٍ لأبعد عنه الأصوات والصور والروائح، فحتى لو كنا قد عشنا هذه اللحظة، فلا مبرّر أن أستذكرها الآن بالتحديد.

عليّ أن أبعد المشاعر والأحاسيس وأي نوع من الشعور بالذنب عن ذهني

الآن.. "المنطق هو الملَكة الأهم التي تنسّق العمليات الفكرية في ذهننا".. كانت هذه الكلمات التي لا يمل المرحوم والدي من تكرارها على الدوام "في المكان الذي تنتهي فيه سيطرة المنطق تبدأ سيطرة الفوضى بكل تأكيد". كان عقلي يوافق على هذه المقولة ولكن عينيّ كانتا تقولان شيئاً آخر. كانتا تتابعان تلك الربطة الليلكية اللون التي كانت معلّقة في شعرها، لا، لا، لم تكن ليلكية إنما كانت تميل إلى البنفسج أكثر، أجل كانت ذات لون بنفسجي غامق. ذلك اللون الذي لم تتخلّ عنه نزهت حتى لحظة وفاتها.. "إن متّ ازرعوا أزهار البنفسج على قبري.. ولتكنْ ألواناً مختلفةً من زهر البنفسج".

لم تكن عاطفيةً إلى هذه الدرجة، كانت تضيق ذرعاً بالميلودراما واللحظات التراجيدية والمبالغة في إظهار المشاعر. وحين طلبت مني هذا الطلب لم تكن حزينةً مطلقاً، فقد قالتها بشكل اعتيادي كأيّ طلب يتعلّق بأمورها الحياتية. ولكنني اعتقدت أنه طلب سخيف حينها، فلم أتخيل أنّ جسدها سيُوارى تحت الأرض وفوق التراب المنهال عليها سنضع أزهار البنفسج، ليس لأنني لم أتوقع موتها، ولكنني لم أتخيل شكل الحياة من بعدها، فحيويتها المفعمة كانت تناقض الموت بشكلٍ واضح، ولم أتعرف إلى شخصٍ متعلقٍ بالحياة ويحبها مثلها، لذا عندما أوصتني بوضع البنفسج على قبرها لم أشعر بأدنى ألم يجتاحني، وتلاشت الفكرة من ذهني على الفور. تلاشت الفكرة دون أن تترك أدنى أثرٍ في ذهني ودون أن تشعرني بأي حزن.. ولكن الآن.. وأنا أقف أمام جسدها الهامد محاولاً تقبل فجيعة استمرار الحياة من دون وجودها تذكّرت تلك الوصية، وشعرت بسخونةٍ في خديّ، كانت عيناي تهميان رغماً عني، وبدأت أشعر بملوحة القطرات تلامس شفتي، لكن ذهني كان مصراً على عدم الامتثال لهذا الضعف.. ليس الآن، فلا وقت للبكاء حالياً. أشحت بنظراتي على الفور عن شعرها البني وعن الربطة البنفسجية في شعرها وعن عينيها اللتين تحدقان إليّ بإصرار. أشحت بنظري عن جسد محبوبتي، وخرجت من الغرفة على الفور، وولجت الممر الضيق الذي كان يصل إليه ضوء شحيح من الثريا. كان الحمام في مدخل الممر بينما تقع غرفة النوم على الطرف الآخر منه. غرفة النوم، لا أذكر عدد الليالي التي قضيتها في هذه الغرفة الصغيرة، هذه الغرفة السحرية التي كانت مفتوحة الباب

وينساب منها ضوء فضي نحو الممر.. أكانت تدعوني إلى الدخول؟

ليس بعد. عليّ أولاً أن أجد آثار هذه الجريمة الوحشية التي ارتكبتها. تجاوزت الضوء الفضي المنساب على أرضية الممر والقادم من غرفة النوم، واتجهت نحو الحمام. وقبل أن أضغط على مفتاح النور لأرى المشهد بوضوح، اجتاحت أنفي رائحة كنت أعرفها جيداً.. رائحة البنفسج.. رائحة نزهت.. تلك الرائحة التي تغلغلت في خلايا جسدها الجميل وأصبحت جزءاً لا يتجزأ منها، تلك الرائحة التي كانت تجعلني حين أستنشقها أطلق تنهيدة ولعٍ وعذابٍ لا سبيل إلى شفائهما. كانت رائحة عطرها، رائحة الصابون الذي تستعمله ورائحة الشامبو الذي تغسل به شعرها الجميل. تلك الرائحة التي انضمت إلى قائمة المقدّسات التي تخصّها والتي لم تفارقني منذ أن فارقتني هي. في كل مرة كنت أستنشق عبير هذه الرائحة، كانت تصلني حيويتها وحبها للحياة، لتعيد إليّ بعضاً من توازني في لحظات اليأس الشديدة. ولكن الآن هذه الرائحة ستذكّرني بأقسى وأبشع اللحظات التي يمكن أن يمر بها عاشق مثلي. ستشعرني بالعجز، بعدم جدوى الحياة، وباليتم مرة أخرى. ذلك الوله المتناقض الذي يبقيك على قيد الحياة.. تلك اللوعة التي تسمو قسوتها بروحك إلى سموات لن تحلم بها.. ذلك المستحيل الذي يدفعك إلى قبول التحدي.. وأشياء أخرى لا أستطيع وصفها. يأس عبدٍ فقد السلطان الذي كان ظل الله على أرضه وروحه.. بت أرضاً من العدم، لا أحلام ولا خيالات ولا آمال يمكن أن تنمو عليها، هذا بالضبط ما يحصل لشخص يفقد حبيباً كان محور حياته، والمعجزة التي تمكّنه من النهوض كل يوم، وتغذي مشاعره بالحقد والكره ولكن بالتحدي والشغف أيضاً.

لم تعد هنا تلك التي انتظرتها بلهفةٍ لا تخبو، وتعلّقت بها بشغفٍ لا ينضب، تلك التي علّقت عليها كل خيباتي وعزوت إليها كل مساوئي وأخطائي. وبمجرد تذكّر لحظةٍ جميلةٍ معها كنت أعفو عنها وأسامحها على كل ما فعلته بي؛ سلطانة قلبي. ولكن هذا الجسد الخاوي من الحياة ليس لها وهاتان العينان اللتان غاب عنهما البريق ليستا لها وهاتان الشفتان اللتان ارتسم عليهما الجزع بدل ابتسامتها المعهودة ليستا شفتي حبيبتي، ذلك الجسد الأكثر برودةً من هذا اليوم المثلج ليس جسدها، إنها ليست نزهت.

شعرت بضربةٍ أقوى من التي سبقتها تهزّ كياني، واجتاحتني رغبة عارمة لم أستطع كبحها كما في المرة السابقة، فسقطت أرضاً، وأسندت ظهري إلى جدار الحمام المالس البارد، وبكيت لدقائق حتى انقطعت أنفاسي. في البداية كان نحيباً صامتاً، ولكنه تحوّل نشيجاً لم أستطع كبحه فاستسلمت، ولم أكن أعلم على وجه التحديد ما الذي يؤلمني أكثر؛ أنني خسرت نزهت؟ أم أنني وضعت حداً للحلم والأمل اللذين كانا يبقيانني متمسكاً بالحياة طوال هذه السنوات بيديّ هاتين؟ لا أعلم، فقط استسلمت للبكاء. كنت طوال حياتي أسخر من مقولة إن الدموع تغسل الروح من الكدر وتخفّف عنها، ولكنني الآن لا أملك سوى هذه الدموع لتخفّف عني مصيبتي. بالطبع لم تخفّف من معاناتي ولم تخلّصني من حزني، ولكنها جعلتني أرتاح بعض الشيء. أجل البكاء شيء جميل، لكنه لا يستمر إلى الأبد. حاولت أن أمسح دموعي وأستجمع قواي، ونهضت من جديد على أمل الخلاص من هذا الكابوس.

ذلك المصباح الدائري الذي كان معلّقاً في سقف الحمام، كما أذكر، لم يكن موجوداً، وقد حل محله مصباح يصدر ضوءاً أبيض شاحباً، ولم تكن هناك تلك الغسالة التي أعرفها، ولا ذلك الدرج الخشبي الذي توضع فيه الثياب، لا بدّ أنّ أحدهم قد رمى هذه الأغراض بعد أن مرت عليها السنون. على اليسار وفوق البلاط المزيّن بأزهار الزنبق كان يقبع حوض الاستحمام كقاربٍ ثقيلٍ، وهو يشغل المساحة من الحائط إلى الحائط، وكانت هناك مغسلة وُضِع بالقرب منها تمثال غريب الشكل. لا بدّ أنني غسلت يدي هنا، وقد لفتت نظري المنشفة الزهرية اللون المعلّقة بالقرب من المغسلة، وعندما لمستها شعرت بالرطوبة التي لا زالت تحتفظ بها. هل وجدت الدليل الذي يثبت تورطي في الجريمة؟ ولكن كيف؟ هل ستثبت منشفة رطبة قيامي بجريمة قتل؟ ربما تكون نزهت هي من نشفت يديها واستخدمت هذه المنشفة، ألم تكن تعيش في هذا المنزل؟ أياً يكن الأمر فقد بدأت بفحص المنشفة بكل دقة. لم تكن هناك نقطة دم أو بقعة تثير الشبهات عليها، أعدتها إلى مكانها وعندها لفتت انتباهي تلك البقعة الموجودة على المغسلة. لم تكن رطوبة المنشفة هي ما يثبت تورطي في الجريمة، بل تلك البقعة التي انتصبت أمامي كدليل إدانتي. لا بدّ أنني غسلت يديّ الملطختين بدماء نزهت في هذه المغسلة بعد أن أتممت جريمتي. ما

الذي عليّ فعله الآن؟ لم يكن لديّ وقت للتفكير مطولاً، عليّ أولاً أن أُزيل هذه البقعة الموجودة على المغسلة. عندما اقتربت من صنبور المياه لفتحه، أدركت حينها خطأي. لقد خدعتني عيناي مرة أخرى، فلم تكن تلك البقعة سوى صدأ تركته سنوات طويلة من الإهمال. إنها لعبة سخيفة ضخمتها لي أوهامي ومخاوفي، ولم يستطع خيط الماء المنساب من الصنبور أن يمحو بالطبع تلك البقعة المتأصلة هناك. لا أخفي أنني ارتحت قليلاً، ولكن لا بدّ من الوصول إلى يقين حول ما جرى هنا. بدأت بتفحّص أرضية الحمام أيضاً والتي كانت بقع الصدأ قد انتقلت من حديد المغسلة إليها وقد تكسرت أحجار بلاطها وتشقّقت. لم أبالِ برائحة الرطوبة التي كانت تطغى على المكان ممتزجة بالصدأ، ولا بالصراصير وحشرات الرطوبة التي كانت تحتل الزوايا المهملة. وضعت نظارتي مرة أخرى في مهمة مضنية للبحث عن أدلة جديدة، وكنت أبحث بتمهل من دون أي استعجال، أفحص كل شبرٍ وكل زاويةٍ في المكان محاولاً ألاّ أضيع أدنى دليلٍ مهما كان صغيراً، ولكن لم أجد أي شيء ولا حتى مجرد نقطة حمراء في المكان كله، لم يكن هناك أي شيء يميل إلى الحمرة سوى قطعة صابون أرجوانية باهتة اللون مرمية في إحدى الزوايا، أخذت الصابونة وقرّبتها من أنفي أيضاً فلم أشم سوى رائحة البنفسج. وضعت الصابونة مكانها، وعدت لأشم رائحة يديّ. بلعت ريقي بصعوبة جمة، فقد كانت تفوح منهما رائحة هذا الصابون، هل غسلت يديّ به؟ ولكن التأكد من هذا الأمر كان شبه مستحيل، فربما غسلت يديّ قبل الخروج من المنزل ومن المحتمل أن تكون رائحة الصابون عالقة بهما. وكل أنواع الصابون في منزلي هي بعطر البنفسج حصراً.

(4)

سيكون أمراً مبهجاً لو أننا لم نُخلق

خرجت من الحمام وأنا يائس تماماً، وكنت أنوي الذهاب إلى غرفة المكتب التي تقع في نهاية الممر، ولكن ذلك الضوء الفضي المنبعث من غرفة النوم المليئة بالأسرار كان يغريني بالدخول، تلك الغرفة السرية الحميمة تناديني إلى عالم مليء بالأسرار. أطعت رغبة الضوء الفضي، ودلفت إلى داخل الغرفة التي كان بابها موارباً. وغرقت في زرقةٍ سحريةٍ تماثل تلك الزرقة التي تنبعث من عيني نزهت، لا بدّ أنه ذلك الضوء المعلق على سطح البناء المجاور والذي يصل إلى الغرفة أيضاً "إنها باب الأسرار". بقيت واقفاً تحت ذلك الضوء المخيف أعزل من كل أسلحتي، عاجزاً عن التفكير فيما عليّ فعله في هذه الغرفة المليئة بالذكريات. ما الذي كان يمنعني من الحركة؟ ربما الخوف، أو ربما نوع من الخجل، أو ربما احترامي لنزهت؛ احترامي لحياتها وحميميتها بعد أن جعلتني خارج هذه الحياة الخاصة من دون أي رحمة، ومن دون أن تعطيني أي فرصةٍ أو بارقة أمل. لو كانت لا تزال حية، ربما لم تكن لتمنحني هذه الفرصة، وربما كان من المستحيل عليّ أن أدخل هذه الغرفة مرةً أخرى. وقد يكون سبب ارتكابي لهذه الجريمة هو مجرد رغبتي الدخول إلى هذه الغرفة براحة تامة، لأشم رائحتها وأستنشق عبيرها، لأتفحّص أشياءها الحميمة وأتلمسها دون رقيب. أظنني عدت إلى الترّهات مرة أخرى في الوقت الذي كان عليّ أن أدرك حقيقة ما جرى هنا.

كان عليّ أولاً أن أتخلّص من هذا الضوء الغريب. وكما فعلت في الصالة أسدلتُ الستائر مرة أخرى على النوافذ بإحكامٍ شديدٍ، لكن ذلك الضوء الأزرق كان ينساب من بين الستائر، ويتسلل إلى الغرفة ليصبغها بذلك اللون الغريب مجدّداً. هذا الضوء أثار في ذهني لحظاتٍ من الماضي البعيد وأعادها إليّ بوضوحٍ تام. كان



القمر بدراً كبيراً ينير السماء، ونسمات شرقية ساحرة تضفي مزيداً من السحر على تلك الليلة، ورائحة الزيزفون تعبق في الأرجاء، كانت رائحة شجرة الزيزفون ذاتها التي تصلنا من الشارع.. ونسيم يتلاعب في الغرفة منساباً من النافذة المفتوحة قليلاً لينعش جسدينا المتشابكين حيث كانت نزهت تحتضنني بحنان غامر.

- دعنا ننم، فلننم فقط، ولنرَ إلى أيّ مدى نستطيع أن نتحمّل البقاء هكذا دون أن نمارس الحب؟

استطعنا البقاء على تلك الحال ساعات طويلة. لم يكن الأمر تحمّلاً لشيءٍ شاقّ بل كانت لحظات من السلام الغامر، وأذكر إنني نمت بعمقٍ وسلامٍ غامرين كما لم أنمْ طيلة حياتي. "العشق ليس ملامسة فقط". العشق هو هذا الجسد الذي يتنفس بهدوء وطمأنينة بالقرب مني، وكأنه ليس جسداً آخر بل امتداد لجسدي، لرأسي وصدري وظهري ويديّ وقدميّ وبشرتي وأنفاسي. والحلم الذي تراه الآن هو حلمي. إنّ تلك الارتعاشات التي تنتاب عينيها المغمضتين هي ارتعاشات حلمي. أعتقد أنها كانت تشاركني الإحساس ذاته حينها.

- لقد نمتَ بعمقٍ كبير – هذا ما قالته لي عندما استيقظت صباحاً – فيك شيء يمنحني السلام والطمأنينة.

ولكن يبدو أنّ السلام وحده لا يكفي، فلا بدّ من القليل من الإثارة أيضاً. تلك الإثارة التي لم تجد لها عندي أدنى أثر من بريقها المتلون. الإثارة! في الحقيقة قد لا أعلم ما الذي تعنيه هذه الكلمة بالضبط.

- أنت رمادي – هذا ما قالته لي إحداهن بعد سنوات طويلة – الألوان تخيفك، ولا تملك سوى لون واحد لروحك.

وبعد ذلك تركتني وحيداً على الطاولة وغادرتني، ولم تحاول الاتصال بي مطلقاً أو السؤال عني. ولكن نزهت لم تجدني مملاً.. حقاً لم تفعل ذلك؟ إذاً لماذا تركتني وذهبت؟ ضغطت على مفتاح النور الموجود على الحائط. وبدا لي الضوء الذي أنار الغرفة مألوفاً جداً، خطوت بضع خطوات حائرة في اتجاهات مختلفة، لا أعلم من أين سأبدأ ولا أعلم ما الذي يتوجب عليّ فعله. كل ما أعلمه أن رائحة البنفسج عادت لتغمرني من جديد، وكل نَفَس كنت أتنفسه كان عبارة عن ألم حارق ينساب

إلى صدري، ولكنه لم يكن بشدة الألم الذي انتابني قبل قليل. كما أنّ الرائحة كانت مختلفة قليلاً، كانت رائحة قد اختلطت بجسد عجوز وبجدران قديمة وذكريات أكثر قدماً وبخشب عتيق مثلي. كانت مزيجاً من روائح كل شيء من حولي ومن رائحتي ذاتها. وكانت تنبعث بشدة من الزاوية التي وُضِع فيها السرير. لفت انتباهي أنّ السرير لم يكن مرتباً عندما اقتربت منه، على الرغم من أنّ نزهت كانت أكثر نساء الأرض تعلّقاً بالمحافظة على ترتيب الأشياء. وقد تكون هذه النقطة هي الوحيدة المشتركة بيننا، فكلانا كان يكره الفوضى في المكان الذي نعيش فيه، وفي الأفكار التي تعيش في أذهاننا؛ وبالطبع من السهل ترتيب فوضى الأماكن ولكن ترتيب فوضى الأفكار أمر مختلف تماماً. ما أنا متأكد منه، أنّ نزهت كانت تحافظ على ترتيب أفكارها وفق نمطٍ منطقي محدّد، ولم تتخلَّ عن هذه العادة طيلة السنوات التي عرفتها فيها، وكانت تدين لمعظم نجاحاتها إلى هذه الميزة بالذات. ولكن يبدو أنها في حمّى انشغالها بترتيب أفكارها، تغافلت عن ترتيب أمور القلب. أما أنا، فبعد أن تركتني نزهت لم يبقَ هناك نسق منطقي لأفكاري، ولا أذكر أنني تصرفت من بعدها بطريقةٍ عقلانية، فقد اختلطت كل الأشياء في ذهني، في الوقت الذي تحوّل الأمر لديّ هوساً مرضياً بترتيب كل ما حولي وتنظيم أموري الحياتية بشكلٍ يناقض خبايا باطني. وقد لاحظت ابنة خالتي هذا الأمر وعقّبت ملاحظة:

– تبدو كأولئك النساء العوانس اللواتي لم يتزوّجن مطلقاً.

أظنها كانت تقصد من وراء كلامها أولئك النساء اللواتي يعانين من حرمان جنسي، ولكنها لم تصارحني بالأمر. بالطبع، لم تكن لديّ أي نية في مناقشة حميمية رغباتي معها، وعلى الفور تهربتُ من نظرات عينيها السوداوين الواسعتين، رغم أنها ربما بادرت إلى فتح هذا الموضوع من أجل مساعدتي والتوصل إلى حل لمشاكلي العارية أمام نظراتها الخبيرة.

أشحت بنظري عن ملاءات سريرها المبعثر لأتفحص بقية الأشياء، فلفت انتباهي كتابان وُضِعا على الطاولة الصغيرة الموجودة بالقرب من السرير. هل كانت تقرأ هذين الكتابين قبل نومها؟ اقتربت وحملت الكتاب ذا الغلاف الجلدي السميك، وكانت هناك رسمة جميلة على الغلاف، وعلى الفور عرفتها. كانت الصورة لوحة شخصية

للسلطان محمد الفاتح، وعنوان الكتاب هو (عصر السلطان محمد الفاتح) وكانت من أشمل الدراسات التي أُعِدّت حول هذا السلطان. وعندما رفعته ظهر الكتاب الذي تحته بغلافه الباهت، كانت المجلة الجديدة عدد نيسان/ أبريل 1970.. أذكر هذه المجلة فقد كانت متخصّصة بالفن وكان اهتمام نزهت بهذا النوع من المجلات يعود إلى اهتمامها بالشعر والأدب، فقد كانت شغوفة بكليهما وخاصة بالشعر، وهي من عزّزت لديّ اهتمامي بمتابعة الأدب وقراءة الروايات.

– القراءة وحدها لا تكفي عليك أن تكتب – كانت تقول ذلك وهي تحدّق إليّ بحنوّ – لديك أسلوب جيد جداً.

لقد اكتشفت أسلوبي المتمكّن في الكتابة وذلك في ربيع عام 1982 عندما سافرتْ إلى ألمانيا وبدأتُ أرسل لها الرسائل الواحدة تلو الأخرى. في الحقيقة، لم أحاول كتابة نصٍّ أدبي على الإطلاق، وتلك الرسائل التي أرسلتها إليها كانت صادرة من تجربة تخصني كثيراً، فقد عبّرت بكل صدق عما أحسه. كانت أحاسيس خاصة جداً، أحاسيس تخصني وحدي.. ربما كان عليّ اتّباع نصيحة نزهت والبدء في الكتابة منذ ذلك الحين، وأيّاً يكن الأمر فلم أقمْ بذلك. أما هي فقد كانت تكتب؛ وكانت لديها أشعار وقصائد جميلة، ولكنها للأسف لم تكمل في هذا المجال. فقد كان اهتمامها بالتاريخ أكبر بكثير من أي مجال آخر، فالعلم يقتل الشعر، أحقاً يقتله؟ لا أعلم ولا أعلم بالضبط من هو صاحب هذه المقولة. كل ما أعلمه أنّ نزهت تركت كتابة الشعر بعد فترة قصيرة تماماً مثل المؤرخ اليوناني هيرودوت؛ هذا الرجل الذي يمثل المعلم الأكبر لجميع المؤرخين في العالم، والذي كان مهتماً جداً في بداياته بالشاعر هوميروس، وقد يكون شعر بالغيرة من مؤلّف أهم عمل أدبي في ذلك العصر وهو الإلياذة، ولكنه اهتم فيما بعد بالتاريخ، وبذل في هذا المجال كل طاقاته الممكنة. وكما تركتني نزهت تركتْ الشعر والأدب أيضاً، وسارت على خطى هيرودوت، وانصب اهتمامها على التاريخ فقط. ولو لم تترك الشعر والأدب واستمرت في الاهتمام بهما، ولو لم تمنح معظم وقتها لتطوير مسيرتها المهنية في مجال التاريخ لربما ما كانت تركتني. حسناً، لا طائل من كل هذه الاحتمالات التي لم يعد تحقيقها ممكناً الآن.

عادت المجلة لتلفت نظري. لِمَ استحوذت هذه المجلة على اهتمامها بعد كل

هذه السنوات؟ هل كانت تحتوي على مقالة أو قصيدة لها؟ كان الجواب الذي أبحث عنه يتمثل في ورقةٍ مطويةٍ وُضِعت بين صفحات المجلة، قرأت عنوان المقالة التي كانت تضمها تلك الورقة، (دراسة لسيغموند فرويد: دوستويفسكي وقتل الأب) حينها انتبهت إلى أنّ هذا العنوان كان موجوداً بخطٍ صغير على غلاف المجلة أيضاً. هل كانت تعمل على أطروحة جديدة؟ أم أنها كانت تتفحّص الكتب الموجودة في مكتبتها القديمة، فاسترعت انتباهها هذه المجلة ووضعتها دون هدف محدّد على طاولتها؟ عدت إلى صفحة المقالة في المجلة وفتحتها مجدّداً، ولكن ما أثار انتباهي هذه المرة هو بضع كلمات قد خُطّت على الورقة التي كانت بين أوراق المجلة، كانت ثلاث كلمات باللغة الإنكليزية قد كُتِبت بخط نزهت الذي أعرفه جيداً، ذلك الخط الجميل والأنيق (patricide, filicide, fratricide) قتل الأب، قتل الابن وقتل الأخ. لماذا كتبت نزهت هذه الكلمات؟ هل كانت لها علاقة بمقالة فرويد يا تُرى؟

قطع صوت رنين الهاتف أفكاري هذه، لقد كان هناك هاتف يرن، أصخت السمع، لا، لم يكن الهاتف العادي، بل كان صوت الجوال ولكنه ليس جوالي بكل تأكيد، كان يأتي من الصالة، لا بدّ أنه جوال نزهت الذي كان يرن بإصرارٍ متواصل، وكأن الذي يرن متيقنٌ من أنها في المنزل الآن، وهذا ما سبّب لي هلعاً كبيراً. ما الذي عليّ فعله الآن؟ كدت أستسلم لهذا الهلع الذي انتابني، وبدأت أفكر في البحث عن مكان لأختبئ فيه، ولكن لحسن الحظ أنّ الشخص على الجانب الآخر يئس وتوقّف الهاتف عن مواصلة الرنين عند الرنة الخامسة أو السادسة تقريباً وساد صمت منحني بعض السكينة والهدوء. في تلك اللحظة خطر لي أن أعود إلى غرفة الجلوس، لأعرف هوية المتصل بها. لا، لا يتوجّب عليّ معرفة هوية المتصل، ذلك أنني كلما كبحت فضولي وخفّفت من تدخلي في الأمور، قلّلت من خطورة تورّطي في هذه الفاجعة. ولكن احتمال اتصال أحد آخر في أي لحظةٍ وارد بكل تأكيد والمصيبة الأكبر أن يحاول أحدهم مثل سيزجين أن يأتي لزيارتها في المنزل. فليأتِ، لن أفتح الباب بكل بساطة. وماذا لو كان يملك نسخة من المفاتيح؟ فلا بدّ أنه من كان يعتني بالمنزل أثناء غياب نزهت كل هذه السنوات، حينها كانت ستتثبت عليّ تهمة القتل بكل تأكيد.

"بعد قيامه بقتل السيدة نزهت، كان يحاول مسح بصمات أصابعه".

فجأة انتابني هلع شديد لهذا الخاطر، فقد كانت بصمات أصابعي منتشرة في أرجاء المنزل كله. ولكن ما الذي سيجعل الشرطة تعلم بأنني أنا بالذات من كنت في المنزل؟ بالطبع الأمر في غاية البساطة، لأنها ستراجع مكالمات نزهت وسترى أنني آخر شخص اتصلت به قبل مقتلها. أنا الشخص الذي لم يتقبّل أن تتركه حبيبته بكل هذه البساطة، والذي أرسل إليها مئات الرسائل بعد أن سافرت إلى أميركا من دون أن يتلقى جواباً، ذلك المهووس والعاشق القديم. وستدينني بصمات أصابعي المنتشرة في جميع أرجاء هذا المنزل المشؤوم القديم. عاد الذعر ليطبق بأصابعه البغيضة على قلبي الهلِع ويمنعني من التفكير والتنفّس لبضع لحظات، وبدأت المجلة تهتز على وقع رجفة يدي، لذا أعدتها على الفور إلى مكانها، وأخرجت منديلاً من جيبي، وبدأت بمسح المواضع التي لامستها أصابعي على غلاف المجلة. كان مسح مفتاح النور أسهل بكثيرٍ ولكن ماذا عن الستائر؟ هل يمكن مسح بصمات الأصابع عن قماش ستائر المخمل؟ لم أترك الأمر للحظ وللمصادفات، لذا قمت بمسح الستارة في كل المواقع التي خمّنت أنني لمستها، وعدت إلى الداخل لمسح مقبض باب غرفة النوم والحمّام أيضاً. كانت التفاصيل تضيع عن ذاكرتي وسط ضباب الألم والخوف. عدت إلى الحمام مجدّداً، وأنا أفكّر في الأماكن التي لمستها: مفتاح النور والمغسلة. ولكن أي مكان من المغسلة بالتحديد؟ بدأت بصنبور المياه، ثم مسحت حواف المغسلة مسحاً جيداً ومسحت كل زاوية خطر لي احتمال اقترابي منها، ولكن ماذا عن الصابونة؟ هل يمكن مسح البصمات عنها؟ لا، لن أخاطر بأمرٍ كهذا، لذا حملتها كما هي ووضعتها في جيبي، ثم ضغطت على مفتاح النور لأطفئه بواسطة المنديل، وخرجت من الحمام.

عدت إلى غرفة الجلوس لأجد جسدها الهامد كما هو، لكن كان عليّ أن أنسى جسد المرأة التي لم تغب عن ذاكرة قلبي ولو لحظةً واحدة، وكان عليّ أن أنسى وجودها الهامد أمامي. لا أدري كيف سأتمكّن من ذلك، ولكن ما من حلّ آخر، كان عليّ أن أنسى وحسب. كان عليّ أن أعتبرها شخصاً آخر وليست محبوبتي نزهت، شخصاً لم أعرفه مطلقاً، شخصاً لم أقتله. لو كنت قد ارتكبت الجريمة بالفعل، فلا بدّ من وجود دليل ما، أليس كذلك؟ ولكنني بحثت ولم أجده. أجل، عليّ الآن أن أتحلّى

بأكبر قدرٍ من الهدوء. بصمات الأصابع هي الأهم، فلنعدْ إلى بصمات الأصابع، عليّ أن أتذكر جيداً ما الذي لمسته بيديّ. بدأت بآخر الأشياء التي تذكرت بأنني لمستها؛ الستائر. عندما انتهيت منها توجّهت أنظاري نحو الكأس الموضوعة على الطاولة. لا، لم أقترب من الكأس مطلقاً ولكن أعتقد بأنني ضغطت على مفتاح النور لأشعل الثريا، ثم توجهت نحو باب المنزل العسلي اللون، لقد دفعته بأصابعي، ودخلت المنزل ثم أغلقته ورائي. إذاً عليّ مسح الباب من الداخل ومن الخارج أيضاً. وضغطت على مفتاح النور الموجود في مدخل الشقة بالقرب من المشجب الذي عُلّق عليه معطف نزهت، بالطبع لن أتمكّن من رؤية بصمات أصابعي، ولكنه كان نوعاً من التطمين لنفسي لأبحث بدقة عن كل أثر قد أكون خلفته ورائي من دون أن أدري، وعندما انتهيت من عملي ضغطت على المفتاح مجدّداً لإطفاء النور، ومسحته بشكلٍ جيدٍ بالمنديل الذي معي.

حسناً، حتى لو لم أتمكّن من التخلص من مخاوفي ومن الأفكار التي كانت تنتابني بين حين وآخر ومن ألمي الكبير، فأظنني أستطيع الخروج من هذا المنزل وأنا مطمئن أنني لم أترك أي أثر يدل عليّ. أحقاً عليّ الخروج؟ قبل أن أخرج ألقيت نظرةً أخيرةً على نزهت، كانت كما هي جالسة على الأريكة دون أيّ تغيير يذكر. لقد بقيت كما هي ولكنني تغيرتُ بشكل فجائي الآن. لاحظت مدى توتّري وانفعالي، ولكنني لم أعد أشعر بالخوف. ولماذا أخاف؟ ورغم أنني قد أكون المشتبه الوحيد في هذه الجريمة ولكنني قد أنجو. رمقتها بهدوء تام للمرة الأولى منذ مجيئي، لم يكن الضوء الصادر عن الثريا كافياً ومع ذلك اقتربت منها. كانت عيناها مفتوحتين على اتساعهما، وكأنها تسألني عن سبب اقترابي منها إلى هذه الدرجة. قد تكون تلك الأمواج الزرقاء التي في عينيها تجمّدت وبقيت كما هي، لا خوفاً وهلعاً كما خُيّل لي، بل بسبب خيبة الأمل التي انتابتها بعد أن اكتشفت الحقيقة، ولم تعد الحياة إليها مجدّداً ولم تعد تتراقص الأمواج في عينيها كما كانت من قبل. هل كانت الخيبة من رؤية حبيبها القديم وهو يحمل بيديه السكين ليغرزها بكل وحشيةٍ في عنقها الجميل؟

توقّفت هلعاً؛ فكلّ السكينة التي اكتسبتها قبل قليلٍ كانت على وشك التحطُّم ككأس من الكريستال على هذه الأرض المرمرية الصلبة. أحسست أنّ كتفيّ قد تهدلتا

مرة أخرى وأنني أنحني تحت وطأة الثقل الذي هبط عليّ من جديد. وذهني المتوقد الذي كان يعمل قبل لحظات من أجل فتح الطريق أمام خلاصي، عادت الغيوم لتتلبّد فيه مجدّداً ولتتشتّت أفكاره في كل طرقات الألم المبعثرة من حولي. وعلى الفور أشحت بنظراتي عن جسد محبوبتي، وبدأت خطواتي بالتراجع من تلقاء نفسها، كانت تود الهرب والعودة إلى الوراء، إلى ما قبل هذا الاتصال الذي جاءني من نزهت ظهيرة اليوم والذي قادني إلى هذا الطريق المروّع. كنت كطفلٍ أبصر النور في اللحظات الأولى لخروجه من رحم أمه الدافئة، وشعر بألم النور يخترق عينيه وجسده، ويرغب في العودة.. سيكون أمراً مبهجاً لو أننا لم نُخلق.. لو أنني بقيت غارقاً في ذلك الظلام الآمن بعيداً عن هذا الضوء الذي يكشف خبايانا وعيوبنا ليجعلنا عراةً أمام ضعفنا..

لم يكن الوقت قد فاتني بعد، فبالرغم من مرور أكثر من ستين سنة كنت بحاجة على الدوام إلى محبة الآخرين وشفقتهم واهتمامهم. لم يكن الوقت قد فاتني كثيراً، فأستطيع أن أضع حدًّا لكل هذه المشاعر الآن وبيديّ الاثنتين. كانت لتصبح نهاية ساخرة جداً، فبعد واحد وعشرين عاماً من عودة معشوقتي أقوم بقتلها ومن ثم قتل نفسي بالسكين الحادة ذاتها؛ بسكين الرسائل.. وتراءت لي صورنا الدامية التي ستنشرها الجرائد: جسدها المركون على الأريكة وجسدي الملقى على الأرض والسكين الفضية للسلطان محمد الفاتح المغروسة في قلبي.

لا، أعتقد أن نهايتي ستكون أفضل لو أنني انتحرت في منزلي، في سريري المألوف، وبعد مرور أيام عدة وبتأثير الرائحة النتنة التي سيصدرها جسدي المتعفّن، سيلحظ الجيران الأمر. أعتقد أنها نهاية أفضل من الموت هنا، ولكن حتى الموت لن يكون وسيلة مناسبة للهرب، فستظل هذه الشكوك تعذب روحي المسكينة حتى ما بعد الموت. الخلاص الوحيد سيكون بمواجهة الحقيقة ومعرفة ما حصل بالضبط. جالت نظراتي مرة أخرى في أرجاء المكان حائراً أبحث عما عليّ فعله...

أن تتذكّر ما فعلته في تلك الأثناء سيكون أشبه بمعجزة؛ هذا ما قالته لي شازية. تناسيت نظرة الإصرار التي كانت ترافق كلمات شازية كلما تحدثنا عن هذا الموضوع وعدت إلى حبيبتي نزهت، عدت إلى الاقتراب منها.. لربما يستطيع جسدها الصامت أن يدلني عمّا أبحث عنه. ولكنني كلما اقتربت منها انتابني شعور غريب، ليس الاقتراب

بل كلما أمعنت النظر إليه، في البداية بدا لي الأمر غريباً ولكنني عندما حاولت التركيز بدا لي واضحاً وتجلّت الحقيقة أمامي؛ هذا الجسد العجوز، هاتان العينان الضجرتان ليستا عيني حبيبتي الزرقاوين، ليستا عيني المرأة التي تركتني قبل واحد وعشرين عاماً، كانت امرأة أخرى جاءت، لا أدري من أي عالم، وألقت بجسدها هنا أمامي. كان لها لون العينين نفسه، ولكنها صبغت شعرها بلون أفتح من البني الذي كنت أعرفه، وليست لديها تلك الزرقة التي كنت أضيع فيها كلما نظرت إلى عينيها. لم يحدث أن نظرت إليّ بهذه الغرابة كما الآن، ولا أعرف هذا التعبير الذي يتجلّى في عينيها الآن.

كل ما أعرفه هو تلك السكين التي انغرست بكل قسوة في عنقها، ولكن أيّا منهما كانت يا تُرى؟ أكانت سكيني أم كانت السكين التي أهديتها إلى نزهت؟ بالطبع ستكون سكيني أنا فليس من المعقول أن تحضر معها تلك السكين من أميركا إلى هنا. ويمكن أنها لم تأخذها معها مطلقاً. قد تكون بقيت هنا طوال الوقت.. لا جدوى من البحث عن خلاصٍ كاذب. لا بدّ أنني قد أحضرت سلاح الجريمة معي، على الرغم من أنني لا أذكر أنني حملت هذه السكين أو وضعتها في جيبي قبل خروجي من المنزل، ولكن عيني شازية المسمّرتين عليّ بإصرار وهي تهمس في أذني أوضحت لي الأمر "في لحظات الشرود النفسي حيث يسيطر العقل الباطن عليك، يصبح هو من يسيّرك".

كانت عينا شازية الجميلتان تحدقان إليّ بإصرارٍ بالغ، وكأنها تشك بقيامي بارتكاب هذه الجريمة. ولكن هذه المرأة التي مالت برأسها إلى الوراء قليلاً، وبقيت ترمقني بعينيها المفتوحتين على اتساعهما، لم تكن تساعدني بل على العكس، كانت تصعب عليّ الأمر قدر استطاعتها بصمتها المطبق، إلا أنني لم أكن أنوي أن أتركها وشأنها. اقتربت منها وبدأت بفحص وجهها الشاحب وأنا أرمق عينيها على ضوء الثريا الخافت، هذه الثريا التي كانت تنير بنورها أجمل لحظات عمري التي قضيته في هذا المنزل. أمعنت النظر في تلك الزرقة الجليدية في عينيها اللتين كانتا تنبضان حيوية قبل بضع ساعات، علّني أجد دليلاً على تورطي أو براءتي من هذه الجريمة المروّعة. ولكن لا عيناها ولا سمات وجهها التي كانت تتراوح بين الألفة والغرابة ساعدتاني للوصل إلى حقيقة مطلقة، فلم يكن هناك دليل أو أثر ينير لي طريقي.

قبل أن تغمرني موجة يأس جديدة أدركت الحقيقة. لقد كانت الرسالة الحقيقية واضحة وتتمثل في هذا الهدوء المطبق. ففي هذه النظرات التي سببت لي الهلع، وهذا الجسد الذي حافظ على سكونه منذ لحظة وصولي، وهذا البيت الصامت الذي دخلته بعد كل هذه السنوات "عليك أن تجده". كانت كل هذه الأمور تهمس في أذني قائلة "عليك أن تكتشف حقيقة ما قمت باقترافه".. هذا هو المغزى بكل بساطة؛ وهذه هي الرسالة التي كان يحاول المنزل وجسدها وعيناها أن يوصلوها إليّ. أجل عليّ أن أدرك حقيقة ما اقترفته يداي.

حينها فهمت الرسالة، فهذا ما كانت تقوله عيناها المتبرمتان، وجسدها المتحجّر وهذا المنزل المشؤوم بلغة وصلتني حروفها لتترسّخ في ذهني، وقد آمنت بهذه الرسالة على الفور. فلو لم تكن حقيقية لما بقيتُ، ولما أخرجتُ سكين الرسائل من عنق حبيبتي وسلطانة روحي وقلبي نزهت، ذلك العنق الذي، على الرغم من أن الدماء قد لوثته، إلا أنّه حافظ على جماله كعنق بجعةٍ ملكية.

(5)

الشاهد الوحيد الذي يثبت تورّطي في قتل نزهت

واساني تساقط الثلج، فمن تلك السماء المظلمة كانت تسقط ندف الثلج على وجهي، وكأنها كانت تعلم بالاضطراب الذي يعتمل في صدري. وكانت تتخذ أشكال فراشاتٍ صغيرةٍ منهمرةٍ على وجهي، في محاولة منها لتسليتي والتخفيف عني.

ليس هناك أفضل من الطبيعة لكي يلجأ إليها الإنسان، ومحاولةُ التواصل مع المكان الذي بدأنا منه وسنعود إليه.

تبعت مقولة أستاذي التي كان يقولها بين الجد والمزح، وبدأت باستنشاق الهواء المثلج بعمق إلى داخل صدري. شعرت بدوار خفيف، لكنني لم أبالِ وأنا أحاول الابتعاد عن مبنى ساهتيان غائصاً في الطريق الذي غطاه الثلج بطبقة بيضاء ناصعة. شعرت بالخدر في أصابع قدميّ، فالحذاء الرقيق النعل لم يقِني برد الأرض، ولكنني واصلت السير بكل إصرار. عادت الرعشة إلى يديّ مرةً أخرى، فأدخلتهما في جيبي المعطف، وحينها لامست يدي اليمنى شيئاً بارداً، كانت السكين الفضية التي نُقِش عليها ختم السلطان محمد الفاتح؛ سلاح الجريمة الذي أخرجته قبل لحظات من عنق نزهت. كانت أداةً أكثر برودةً من هذا المساء المثلج، وفوق ذلك كانت ملوثةً بالدم. أخرجت يدي من جيبي على الفور وكأن الدماء التي كانت عليها من قبل ستلوث يدي.

بالرغم من أنني، وكأيّ قاتلٍ محترف، غسلتها في مغسلة الحمام، ولكن ما إن لامست يدي حتى شعرت بالقشعريرة تنتابني. كان عليّ التخلص من هذه السكين الملعونة بأسرع وقت.. أحقاً كان عليّ التخلص منها فقط؟ ماذا عن الصابونة التي وضعتها في جيبي الآخر؛ صابونة البنفسج؟ ليس الصابونة فقط بل كان عليّ الابتعاد عن هذا الشارع المحزون الذي تقادمت عليه السنون مثلي، والذي كنت من قبل

أستمتع برؤية منازله الجميلة المصفوفة بعضها إلى جانب بعض كفتيات في أوج زينتهن وفي ريعان شبابهن، وكانت تزين جنباته أشجار مريم بأوراقها الجميلة.. كان عليّ أن أجد سيارة أجرة للتوجه إلى محطة كارا كوي، ومن هناك سأستقل الباخرة لأرمي سكين فتح الرسائل في جوف البحر المظلم، ولكن ما الذي جعلني أشعر بهذا الهلع الشديد فجأة؟ لِمَ هذا اللهاث، إنني أشعر وكأن أنفاسي لن تسعفني للوصول إلى نهاية هذا الشارع، وكان عليّ التحلي بالهدوء. نظرت إلى الخلف نحو بناء ساهتيان الذي أغلقت بابه بكل هدوء، فوجدت نفسي قد ابتعدت عنه حوالى عشرة أمتار لا أكثر. عدت إلى استنشاق الهواء بأقصى ما أستطيع، واستجمعت قواي من أجل مواصلة طريقي المثلج. لكن أنفاسي كانت تتقطع وكنت على وشك الاختناق، فيما أصابع قدمي على وشك التجمّد.

لا أعلم كم مشيت، ومن دون أن أبالي بندف الثلج التي بدأت تتجمع على أهدابي، نظرت إلى نهاية الطريق، وهناك رأيت بقعةً صفراء تتحرك ببطء؛ لم يكن لونها الذي يميل إلى البرتقالي جميلاً وسط هذا البياض الناصع. تذكرت تلك الأغنية التي تقول إن الأحمر هو اللون الذي يليق ببياض الثلج أكثر من سواه، وأظنها كانت تقول الأحمر الدامي. ولحسن الحظ، كانت عيناي تعملان أفضل من ذهني الذي كانت تختلط فيه صور الجريمة. أخذت تلك البقعة الصفراء تقترب مني ببطء شديد، وكلما اقتربت أكثر كانت تتحول إلى ما يشبه سيارة الأجرة. وأخيراً، توقّفت أمامي. هل كانت رحمةً إلهية؟ أم ربما كانت هديةً من الشيطان. أيّاً كان مرسلها لي فإنها كانت فرصة للخلاص من هذا الطريق. توقفت السيارة وترجلت منها سيدة فارعة الطول ترتدي معطفاً جلدياً رفعت ياقته حتى جذور شعرها البني، الذي يشبه شعر المرأة التي تركتها قبل قليل في منزلها جثة هامدة، حين كانت في ريعان شبابها.

– أقلتَ شيئاً؟

سألتني السيدة ذات الشعر البني التي وقفت أمام باب السيارة وهي ترمقني بفضولٍ شديد.

– لا، كنت أود أن أستقلّ السيارة.

ابتعدت تلك السيدة التي بدت وكأنها تسمع صوت أفكاري عن باب السيارة

لتسمح لي بالصعود.

- شكراً لكِ.

كنت سأرمي بنفسي على الفور في المقعد الذي تركته السيدة شاغراً منذ لحظات، ولكن نظرات السائق رمقتني بتصميمٍ جعلني أتوقف وهو يقول لي:

- إلى أين سيدي؟

- كارا كوي.

كانت إحدى قدميّ داخل السيارة والأخرى تسيخ في ثلج الطريق.

- سأذهب إلى حوض السفن.

خفّت حدة نظراته وأصبحت أكثر وداً، وأشار لي بيده وهو يقول:

- حسناً، تفضل.

جلست على الفور خوفاً من أن يغيّر رأيه مرة أخرى، وقد لاحظ السائق لهفتي إلى الصعود في السيارة خوفاً من إضاعة الفرصة، فبادرني بالقول بودّ ظاهرٍ بعيدٍ عن تلك النظرة القاسية التي رمقني بها في سؤاله الأول.

- سأوصلك إلى الحوض وسأتابع طريقي إلى المنزل.

وبعد أن أغلقت الباب تابع حديثه ليتيقّن من أنني سمعت كلماته:

- بعد ساعات قليلة سيتكوّن الجليد، وفي هذا الطقس من الصعب مواصلة العمل.

كان التفكير في معاناة السائقين المتضرّرين من الليالي المثلجة آخر ما عليّ أن أفكر فيه في هذه اللحظات العصيبة، ولكنني جاريته في الحديث من باب اللياقة لا أكثر.

- إنه الشتاء موسم المعاناة والبؤس.

قلت الجملة الأولى التي خطرت في ذهني، ولكن السائق تمسك بهذا الخيط، وواصل الحديث.

- فليكن الله في عون الفقراء والمحتاجين، ماذا عن أولئك الذين لا يملكون حطباً أو أي وسيلة أخرى للتدفئة؟

يبدو أنني تورّطت مع أحد هؤلاء السائقين الذين تشكل الثرثرة متعة حياتهم



الحقيقة، وسيواصل الحديث حتى آخر لحظة، والأسوأ من ذلك أن يسألني عمن أكون، وما الذي أفعله في هذه الليلة المثلجة، وفي هذا الوقت المتأخر، وفي هذا الشارع تحديداً، وهنا أدركت أن هذا السائق الذي وضعته المصادفة في طريقي المثلج سيكون الشاهد الوحيد الذي يثبت تورّطي في قتل نزهت.

"أجل سيادة القاضي، لقد صعد إلى سيارتي في منطقة شيشلي في شارع هانم أفندي، كان متبرماً بعض الشيء ولكن لا تظهر عليه سيماء قاتل بأي شكل".

تهرّبت من نظرات السائق المتفحّصة التي كان يرمقني بها من خلال المرآة الأمامية، وأخذت أنظر إلى الشارع المثلج المظلم في الخارج. هل علم بما أخفيه حتى قام بتشغيل السيارة دون أن ينطق بحرف واحد؟ حيث بدأت مسّاحات الزجاج تتحركَ ببطء شديد لمسح ندف الثلج المتراكمة على الزجاج الأمامي وهي تصدر صريراً يشبه صوت باب قديم صدئ، وعلى وقع هذا الصوت الرتيب عادت بي أفكاري مرة أخرى إلى المنزل الذي تركته قبل قليل.

بدأت باستعادة تفاصيل اللحظات المروّعة التي عشتها قبل ذلك الفراغ المطبق الذي كان ذهني يجول فيه أثناء حدوث النوبة المشؤومة تلك، فحين تلقيت الاتصال ظهراً ما الذي كنت أفعله بالضبط؟ كنت أتناول طعامي والذي كان عبارة عن الملفوف المخلل الذي حضرته لي السيدة كاديفة.. لا، كنت قد تناولت طعامي قبل وقتٍ طويل. أعتقد أنني كنت أكوي ثيابي.. وأعيد كيّ القمصان التي لم تقم السيدة كاديفة بكيّها بشكلٍ جيد.

"النظافة والاهتمام المفرط بالتنظيم، هما ميزتان مشتركتان لدى الأشخاص الذين يعانون من مشاكل جنسية حيث تتحوّل نوعاً من الهوس لديهم".

أعتقد أنّ هذا ما قالته شازية.

لا، فقد أنهيت كيّ ثيابي قبل ذلك، ربما قبل تناول الطعام. أجل، فعندما تلقيت اتصال نزهت كنت قد أنهيتُ تناول الطعام وكيّ الثياب منذ وقت ليس بقصير. كنت جالساً على الطاولة أقرأ كتاباً، لقد كان كتاب (سوناتا لكروتزر) والذي ترجم إلى التركية بعنوان (سوناتا لكوريتجر). قد يكون اسمه الأصلي في الروسية سوناتا لكروتزر ولكن المترجم بادر إلى تغيير اسمه لاجتهاد شخصي منه أو لأنّ الاسم يلفظ

هكذا باللغة التركية. ذلك لأنّ لبتهوفن سيمفونية بالاسم ذاته وهي عن بوزدنيشيف وحكاية قتله المؤلمة لزوجته وعن المعاناة التي تتخلل علاقة النساء بالرجال، وذلك العنف المكبوت داخلنا والذي يخرج في لحظات معينة. كانت الرواية تصف كل تلك الأحاسيس بطريقة رائعة. فلا يمكن تجسيد جريمة قتل عبر الكلمات إلا بتلك الطريقة التي فعلها تولستوي. ولكن كيف قتل بوزدنيشيف زوجته الخائنة؟ طعناً بالسكين.. يا للغرابة، لا أزال أتذكر ذلك الجزء من الرواية بكل تفاصيلها.

"خنجر دمشقي حاد النصل ومنحنٍ.. أنزلته بكل قوة وغرزته في الجانب الأيسر من صدرها.. لكن المشدّ قاوم قليلاً.. وبعد لحظات انغرز النصل الحاد في لحمها الطري".

وفيما كنت أفكر في هذه الكلمات، امتدت يدي على نحوٍ لاإرادي إلى السكين الفضية الموجودة في جيبي. لم تكن منحنية ولا حادة على الإطلاق كما الخنجر الدمشقي، وأغلب الظن، لو كانت نزهت ترتدي مشداً ما كان باستطاعة هذه السكينة اختراقه مطلقاً، ولكن من الواضح أنه اخترق عنقها بكل بساطة.

"ثم انغرز النصل في لحمها الطري"..

أكنت أفكر بالطريقة ذاتها وأنا أغرز السكين في عنق نزهت؟ لحظة، لحظة... لم أتأكد حتى الآن أنني قاتلها. إذاً، لماذا قمت بإخفاء السكين والصابونة في جيبي معطفي؟ لماذا لا أرفع سماعة الهاتف، وأتصل بالشرطة وأخبرهم بكل ما حصل؟ ربما لو كنت بحالةٍ نفسيةٍ سليمة، لكنت اتخذت هذه الخطوة على الفور، ولكن الهلع والاضطراب اللذين أصاباني وتلك الرغبة الكامنة في نفسي، والتي كنت أخفيها منذ سنوات طويلة في قتل نزهت، كانت هي التي غرزت الشك في قلبي.

ربما كانت هذه الجريمة هي نتاج سنوات من الحقد والغل، لتنتهي قصتنا بهذه الصورة المأساوية، وبالسكين ذاتها التي أهديتها إياها من قبل. يا لسخرية القدر. أية سخرية هذه؟ إنها وحشية لا مثيل لها! فأيًا كانت الذنوب التي ارتكبتها نزهت في حقي، ما كانت لتستحق هذه النهاية المؤلمة.

– أنا قادم من قاسم باشا.

أجفلني صوت السائق الملتحي وهو يشير بيده نحو إشارة المرور الحمراء التي



توقفنا عندها، من الواضح أنّ هناك أزمة مرور خانقة.

– هناك أزمة سير حادة هنا، أننتظرها حتى تنتهي؟

أكان ينوي أن يطيل الطريق أم أن هناك أزمةً حادةً بالفعل كما يقول وعلينا تغيير مسار طريقنا؟ لم أكن متأكداً مما كان يرمي إليه ولم أكن مهتماً بحقيقة نواياه أيضاً. فقد كان تذكّر تلك اللحظات المؤلمة مرهقاً جداً لذهني المسكين الذي حاولت جاهداً أن أوقف تدفّق الصور إليه، ولكنني للأسف لم أفلح، فاستسلمت لما يمليه عليّ السائق ولم أُبدِ أي مقاومة تذكر وأنا أقول:

– طبعاً.

قلتها وأنا أحاول أن أبدو متبرّماً قدر الإمكان، وأن أبقي ملامح وجهي جدية.

– سيكون تغيير الطريق أمراً حسناً فمن الواضح أنّ أزمة المرور لن تنتهي بسرعة.

– كنت أودّ أن أخرج من هذه الورطة بأقصى سرعةٍ ممكنة.

أدار مقود السيارة نحو اليمين بزاوية حادة وهو يقول لي:

– هذا إن لم تكن أزمة المرور مستمرة في قاسم باشا أيضاً. لو فكّر الجميع بالطريق ذاتها مثلنا فحتماً سنبقى عالقين ساعات طويلة.

من الواضح أنّ هذا الرجل لا ينوي الكف عن الثرثرة مطلقاً.

– فلنجرِّبْ.

قلتها محاولاً أن أواسيه وأسايره في حديثه.

– لا حلّ آخر سوى أن نذهب ونجرّب حظّنا.

ما إن وصلنا إلى ذلك الطريق حتى كان صف السيارات أطول مما سبق. فانتهز السائق الفرصة ليعاود الثرثرة من حيث قطعها وهو يقول:

– اللعنة، لقد أخبرتك بما قد يواجهنا.

– لا عليك، بكل الأحول لن يبقى السير هكذا إلى الأبد.

هزّ رأسه متبرّماً كمن يقول: ليتني لم أطاوعك وبقينا على طريقنا القديم، وأخذ ينظر عبر زجاج السيارة إلى الطريق. ظننته غاضباً وأنا أراقبه، لكن نظراته لم تكن تحمل أدنى ضيقٍ أو تبرمٍ، بل على العكس، فقد كان أمراً مسلياً على ما يبدو للسائق

الثرثار.

- أهنئك على برودة أعصابك. كيف تستطيع البقاء هادئاً إلى هذه الدرجة؟

كانت نبرة الإعجاب واضحةً في صوته.

- ليتني أستطيع التحلّي بالهدوء مثلك.

لو تعرف ما أعانيه لما تمنيت ولو للحظة أن تشبهني في أي شيء، هذا ما كنت أود قوله.

- ما باليد حيلة.

قلتها وأنا أشير إلى صف السيارات الممتد أمامنا.

- الغضب والصراخ وحتى محاولة النزول وافتعال شجار مع السائقين الذين أمامنا لن يمكننا من تجاوز هذا الصف الطويل، وما دامت السيارة لن تتمكّن من الطيران، فما علينا سوى الانتظار بهدوء تام.

هز رأسه وهو يؤيّد ما أقوله وعاد للنظر أمامه.

- معك حق، سيدي. علينا التحلّي بالصبر. ولكن أزمة المرور الخانقة في إسطنبول تفقد المرء السيطرة على نفسه في بعض الأحيان. لا طرقات ولا جسور كافية ولا نظام مرور، والأهم من كل ذلك أنّ الناس لا يتحلّون بالاحترام اللازم. وكل من يقود سيارة يظن أنّ الطريق مسجّل باسمه وحده. والمشكلة الأكبر تكمن في البلديات التي...

كما توقعت بالضبط، فقد بدأ بالثرثرة مجدّداً، ولن يستطيع أحد إيقافه. لو طلبت منه الصمت بحجّة الصداع الذي أعانيه، لن يتهاون معي على الإطلاق وقد يطردني من السيارة، وهكذا سأصبح مرمياً في الشارع وأبقى في ذاكرة هذا الرجل الثرثار، وبالتأكيد سيدلي بشهادته ضدي في المحكمة.

"كما قلت لكم سيادة القاضي، لم يكن يتكلم مطلقاً بل كان غريب الأطوار، وقد أشاح بوجهه قدر الإمكان عني حتى لا أرى ملامحه بشكل جيد، لو كنت أعرف أنه القاتل...".

تركته يثرثر على هواه. فليتكلمْ كما يشاء، فتلك إحدى العادات الملازمة لعمله، ووسيلته لجلب الراحة وتخفيف التوتر. وإن لم يكن معه ركاب في السيارة فربما

يكلم نفسه. إنه ضرب من الجنون، وأعتقد أن من الصعب تجنّب إصابة بلوثة من الجنون في هذه المدينة الصاخبة المزدحمة بالسيارات. وبينما كان يتكلم عادت إليّ الأفكار مجدّداً، وعدت إلى تلك الساعات المظلمة لأحاول فهم ما جرى خلالها. أعدت تذكّر كل التفاصيل بحثاً عن دليل يرشدني إلى بقعة ضوء في هذا الظلام الدامس، أي دليل يثبت براءتي من هذه الجريمة. لكن هذا الصوت الحاد كان مستمراً.

- سيدي، لا أعنيك بكلامي، ولكننا نصادف مختلف أنواع الركاب أثناء الطريق وتظهر طباعهم الحقيقة في أزمات المرور الخانقة هذه.

كان هذا الصوت الحاد، المرتفع النبرة، لا يجعلني أستمع إليه مرغماً وهو يواصل الحديث.

- نصادف أشخاصاً غريبي الأطوار لدرجة أنك لا يمكن أن تتخيّلهم. بالأمس، وبعد أن رفض أحد السائقين فتح الطريق لسيارة أخرى، نزل السائق وهو يحمل فأساً وهجم على السائق الآخر. أقسم لك إن هذا جرى أمام عينيّ، وفي وسط المدينة وليس في مكانٍ بعيدٍ أو منعزل. ولكن، لحسن الحظ أننا تدخلنا وقمنا بحل المشكلة. أتستطيع أن تتخيَل أن أحدهم يحمل فأساً في سيارته؟

لم تكن فأساً، بل خنجر دمشقي. لقد قتل بوزدنيشيف زوجته بخنجرٍ دمشقي، ليس لأنها لم تمكنه من العبور، بل لأنها كانت تخونه مع أحد الموسيقيين، وهذا ما أوضحه بيتهوفن أيضاً في مقطوعته الموسيقية التي أسماها بالاسم ذاته، والتي تتحدث عن حقيقة العلاقات بين الرجال والنساء، كما قال عنها بيتهوفن نفسه.

- وهناك من يحمل معه قنابل أيضاً داخل السيارة.

انتشلني مرةً أخرى من رواية تولستوي، وعدت أتابع الطريق المظلم وصف السيارات الممتد أمامنا. وحتى بعد أن بدأ السير بالتحرك وفُتح الطريق أمامنا لم يتوقف السائق عن الثرثرة.

- أقسم لك يا سيدي، فقد رأى أحد زملائي السائقين مجنوناً يحمل قنابل في سيارته، وقد أخرجها من نافذة السيارة. كانت سيارة بورش، وكانت القنبلة يدوية على ما أظن، وقد أخرجها مهدداً بها سائق سيارة جيب رباعية الدفع

اندفعت أمامه أثناء القيادة.

لا بدّ أنّ الوقت كان يقارب المساء. فبعد أن تلقيت الاتصال بدأت بارتداء ثيابي، حينها بدأت تلك النوبة المشؤومة تجتاحني مرة أخرى؛ لأنني عندما تلقيت الاتصال كنت أرتدي بيجامتي المنزلية الزرقاء ذات الأشرطة الكحلية. أبدلها كل ثلاث سنوات ولكنني على الدوام أشتري القماش ذاته والتصميم ذاته.. لا بدّ أنني بعد أن خلعتها ارتديت القميص الأزرق الباهت وثبّتت ربطة العنق القرمزية، ثم ارتديت البنطال الأسود ومعطفي الرمادي وانتعلت حذائي الأملس الأسود اللون، ولن أنسى بالتأكيد سكين فتح الرسائل الحادة بالطبع والتي وضعتها في جيبي، ثم خرجت من المنزل. وبعد ذلك.. معلوم ما حدث.. شيشلي ثم شارع هانم أفندي، مبنى ساهتيان.. وأخيراً وجه حبيبتي الذي لم أره منذ سنوات طويلة، وكلماتها التي أثارت غضبي. وقد يكون تغيرها إلى هذه الدرجة الكبيرة، وشيخوختها الواضحة وبشاعتها، وذلك البريق الذي كنت أبحث عنه ولم أجده في نظرة عينيها الزرقاوين، وخيبة الأمل التي شعرت بها عندما رأيتها. أجل خيبة الأمل. فليس الحقد والكره اللذان راكمتُهما في قلبي طوال تلك السنوات هما ما دفعاني إلى قتلها. فقط خيبة الأمل هذه والإحباط الذي شعرت به عندما رأيتها بهذا الشكل أمامي؛ هما ما دفعاني إلى ارتكاب هذه الجريمة وقتلها.

– في غابر الأيام حاول أحدهم قتلي.

مجدّداً الصوت الحاد للسائق.

– أتكلم عن الشرطة يا سيدي، ليس شرطة المرور بل الحرس، فقد كنت أتوجّه من يشيل كوي نحو زيتين بورنو على الطريق الساحلي، ويبدو أنهم وضعوا إشارة منع المرور على الطريق، ولكن ما ذنبي إن لم أرَ تلك الإشارة. فجأة ظهر أمامي شخص وبيده السلاح، وقد انتصب في منتصف الطريق وهو يوجه سلاحه نحوي، ويأمرني بالتوقف. ضغطت على مكابح السيارة، ولو أنني تأخرت للحظات قليلة لأفرغ طلقات سلاحه في جسدي. تبين لاحقاً أنّ أحد الوزراء الأجانب قد جاء، وهذا المعتوه كان أحد حراسه الشخصيين، وكان يظنني أحد الإرهابيين. وقد نجوت بأعجوبة.

قد أكون مخطئاً، وقد يكون كل ما فكرت به غير حقيقي، فما الذي يثبت أنني



في تلك الساعات المجهولة قد خرجت في وقت متأخّر أو أنني قضيت وقتي أتجوّل في الشوارع؟ ربما كنت قد جلست في أحد المقاهي أو في إحدى الكافيتريات أو أنني حاولت تزجية الوقت الباقي في إحدى المكتبات؟ ربما فعلت ذلك حتى لا أتوجه باكراً إلى منزل نزهت. لا أعتقد ذلك، لو أنني فكرت بهذه الطريقة المنطقية لأدركت أنه ما كان عليّ الخروج من المنزل قبل الموعد بوقت مبكر، ولكن احتمال عدم خروجي في وقت مبكر واردٌ أيضاً، فأنا لا أعلم على وجه التحديد الوقت الذي خرجت فيه من المنزل. وربما تكون اللحظات التي استرددت فيها وعيي هي اللحظات الأولى لوصولي إلى بناء ساهتيان. ولكنني لا أذكر مطلقاً تلك الساعات الغارقة في المجهول والغائبة عن ذهني.

– كيف لا أذكر يا سيدي؟ فقد قضيت تسعة عشر عاماً وراء هذا المقود، ولو سألتني عن اليوم الأول الذي جلست فيه على مقعد هذه السيارة لسردته عليك لحظةً بلحظة. فمثلاً في الأسبوع الأول من عملي أقللت إحداهن من بشكتاش. لقد كانت فتاة تسحر الألباب، وتعجز الكلمات عن وصف جمالها، ولكن الزبون ما إن يركب هذه السيارة حتى يصبح من مسؤوليتي الخاصة. وأقسم لك يا سيدي أنني لم أحاول النظر إليها ولو لمرة واحدة ولكن تناهى إلى سمعي صوتها وهي تشهق وتمسح أنفها. ولن أخفيك بأنّ الفضول بدأ ينتابني، وحين ألقيت عليها نظرة من المرآة، رأيت المسكينة تبكي، وعندما لاحظت أنني رأيتها قالت لي بكل تهذيب:

– آسفة، لكن ليس لدّي أي مكان للذهاب إليه. كانت تنظر إليّ ببراءة لم يسبق لي رؤية مثيل لها من قبل.

– لا عليك، أستطيع أخذك إلى منزلي، هذا ما قلته لها. ولكن لا تسئ فهمي يا سيدي، فأنا لا أقول لكل السيدات اللواتي أقللهن هذا الكلام حتى لو كنّ ملكات جمال، ولكن حالتها أثرت فيّ تأثيراً قويًّا.. أخذتها إلى المنزل.. وكنت حينها عازباً. بالطبع لم أكن أسكن لوحدي، فقد كانت خالتي أيضاً تسكن معي، وبعد أن وصلنا أخبرتنا بقصتها. فقد توفيت أمها منذ زمن ليس ببعيد، وأحضر والدها إلى المنزل امرأة أخرى، وقاما بطرد المسكينة

التي ليس لديها أحد تستطيع اللجوء إليه. ولم أتركها منذ ذلك الوقت، فقد أصبحت سيدة منزلي وزوجتي وأماً لولدين يدعوان لك بالصحة والسلامة، أحدهما في الثانوية والآخر دخل المدرسة الابتدائية هذه السنة.. وكما أشرت لك يا سيدي فإنّ حياتنا نحن السائقين شيّقة جداً، لا تنتهي مغامراتها وقصصها.

يا للغرابة، ففي الوقت ذاته أنا ونزهت كنا مشغولين باثنين من أهم الأدباء الروس؛ تولستوي ودويستوفسكي.

حقاً ما الذي دفعها إلى الاهتمام بدويستوفسكي الآن؟ السبب واضح فقد كانت شغوفة بأعمال هذه الكاتب الكبير. ولكن الغريب في الأمر أنها لم تكن تقرأ إحدى الروايات، بل دراسة نفسية أعدها سيغموند فرويد حول أعماله. والأكثر غرابة هي قصاصة الورق الموضوعة بين أوراق المجلة والتي كتبت عليها ثلاث كلمات: قتل الأب، قتل الابن، وقتل الأخ.

هذه التسمية التي أُطلقتْ بعد سلسلة الجرائم الدموية التي مورست بين الورثة من أجل الاستيلاء على عرش روما والتي دفعت أصحابها؛ وبهدف الحصول على السلطة إلى قتل الآباء والأبناء والأشقاء. ولم تقتصر هذه الجرائم على عرش روما بل إنّ العرش العثماني أيضاً قد تلطّخ بهذه الجرائم. ولكن بعض المؤرخين لا يجدون الأمر جرائم وحشية على الإطلاق ويعتبرون إراقة قليلٍ من الدماء من أجل منع سفك مزيدٍ منها موقفاً إنسانياً.

(fratricide ,filicide ,patricide).. الكلمة الأولى وهي patricide وتعني قتل الأب.. ولكن ما الذي شدّ نزهت إلى هذه الكلمة أو هذا التعبير؟ ألم يتوفّى السيد فهمي بصورة طبيعية؟ ما أعرفه أنه توفى بعد أن تعرّض لنوبة قلبية حادّة، فقد كان رجلاً بديناً جداً وكان يسرف في الشراب كل مساء ويدخن علبتين من السجائر. إذاً لا علاقة لموت والدها باهتمامها بهذا الموضوع بالذات.

ولكن ماذا عن مقتل السلطان محمد الفاتح؟ فقد كانت المجلة التي تحتوي على مقال فرويد تحت كتاب بيبينغير الذي يتحدث فيه عن اغتيال السلطان محمد الفاتح، فنزهت لم تكن تهتم بمواضيع متباينة في الوقت ذاته. هل كان من رابط بين

دويستوفسكي والسلطان محمد الفاتح؟ ليس بين دويستوفسكي والسلطان محمد الفاتح، ولكن بين مقالة فرويد حول قتل الأب ومقتل السلطان، كما أن الكلمات الأولى التي خطّتها نزهت على تلك القصاصة كانت قتل الأب patricide، فهل كانت نزهت تعتقد أن السلطان محمد الفاتح قام باغتيال والده السلطان مراد الثاني مثلاً؟ لِمَ لا، فهي ليست المؤرخة الوحيدة التي تطرّقت إلى هذا الموضوع، منهم يدّعي أنّ السلطان محمد الفاتح لم يتحمّل البقاء مطوّلاً من أجل استلام العرش، وقام بتسميم والده السلطان مراد الثاني، وقد دفع موت السلطان الأب بصورة مفاجئة إلى تعزيز هذه الشكوك، إلا أنني لا أحمل هذا الاعتقاد على محمل الجد، فليس علينا تصديق تأويلات جميع المؤرخين. ولكن ماذا لو أنّ نزهت كانت تصدّق هذا الأمر؟ لا أعتقد ذلك، فقد عملنا سويةً على دراسة تلك الحقبة، وتوجّهنا إلى أطلال القصر الباقي في أدرنة، وتجوّلنا معاً في الجزيرة التي يحيط بها نهر تونجا، حيث كانت مستقر السلطان مراد الثاني في أواخر أيامه، فكان يطلب الراحة بسبب الضعف والوهن الذي أصابه. فالمشاكل التي دامت طويلاً مع أمرائه وولاته من جهة والمكائد والحروب الدامية التي كانت مستمرة في القصر من جهة أخرى أنهكته نفسياً وجسدياً، لذلك اختار الابتعاد واللجوء إلى هذه الجزيرة مستسلماً للشراب:

أيها الساقي أحضرْ كأس المدام كما في الأمس
ودع الربابة تعزف لنا ألحاناً تشي بالأنس

ولو أضفنا إلى كل ذلك الضرر الذي كان يسبّبه المطبخ العثماني المشهور بطعامه الدسم، فلن نستغرب أنّ نهايته كانت مماثلة لنهاية السيد فهمي والد نزهت.

- هو أيضاً قد مات يا سيدي. لقد مرّ على هذه السيارة أحداث لا تصدق، ذات يوم أقللت سيداً مثلك يشي منظره بالوقار من منطقة تشفيكة، ولكنه لسوء الحظ تعرّض لنوبة قلبية في السيارة وعلى الفور توجّهت نحو المستشفى لإسعافه، إلا أنهم رفضوا استقبالنا، وبدأت الأسئلة تنهال عليّ، من أنت؟ وما هي الإثباتات التي معك؟ وما صلة القرابة بينكما؟ في حين كان المسكين يوشك على الموت. وقد أصابتني أسئلتهم بالجنون، وبقيت أنظر إليهم حائراً. وبعدها أتت الشرطة أيضاً، وكانت نهاية عمل الخير الذي

حاولت القيام به هي قضاء ليلتين في قسم الشرطة. كنت أحاول أن أشرح لهم الوضع وأتكلم من دون أن يصغي أحد إليّ. أخيراً، لم أجد أمامي سوى اختراع كذبة مفادها أنّ الرجل زوج أمي وأنني أعتبره بمنزلة والدي. وبهذا تمكّنت من حلّ المشكلة والتنصّل منهم.

هناك قصة أخرى تدور حول موت والد السلطان الفاتح، وهي أقرب إلى الحكاية وليس هناك ما يدعمها. فبعض الناس يعتبرون أنّ موت السلطان مراد الثاني كان قضاء محتوماً، ويعتقدون أنّه لم يكن يقرب الشراب بل مات لسبب غريب جداً. ففي أحد الأيام بينما كان يسير على جسر نهر تونجا الذي يصله بالجزيرة مع صديقه المقرّب ورفيقه في المعارك ساروجا باشا، التقيا أحد الدراويش الذي كان يبكي بحرقة، فأشفق السلطان عليه وسأله عن سبب بكائه. لم يشأ الدرويش الإفصاح عن السبب في البداية ولكنه، وإزاء إصرار السلطان أخبره بالسبب:

- أنا أبكي من أجلك يا مولاي.

استغرب السلطان:

- لِمَ تبكي من أجلي؟

فأخبره الدرويش مجبراً عن السبب:

- لقد رأيتك في الحلم يا مولاي وأنت تسلم الروح لبارئها.

استغرب السلطان هذه الرؤيا خاصة أنّ قائلها لم يكن شخصاً عادياً بل أحد مريدي الشيخ بخاري. وأما الشيخ بخاري فهو شيخ جليل وقد تنبأ منذ ثلاثين سنة للسلطان مراد بأنه سيهزم عدوه اللدود ومنافسه على العرش عمه مصطفى الملقب بالمخادع. وقد اعتبر السلطان مراد أنّ رؤيا الدرويش لا يمكن تجاوزها وستتحقق بكل تأكيد، ومنذ تلك اللحظة، تفرّغ للعبادة، وأصبح زاهداً. وقبل مرور وقت طويل أصابه مرض غريب وتوفي في السابعة والأربعين من عمره.

أطّلعنا أنا ونزهت على هذه الروايات والقصص المتعلقة بموت مراد الثاني منذ سنوات طويلة، وقدّمنا الدراسات العلمية التي تثبت صحتها أو نفيها. وعلى حدّ علمي لم يتم اكتشاف وثيقةٍ جديدةٍ تثبت قتل محمد الثاني لوالده، وبالتالي ما من سبب يدفع حبيبتي للاعتقاد بأن الفاتح هو من قتل أباه، أي أنّ وجود مقالة فرويد

وكتاب بيبينغير في منزلها ما هو إلا محض مصادفة. فلا بدّ أنها قد أحضرت معها الكتاب من أميركا، وكانت تقرأه قبل أن تنام.

- لا، أنا لا أقرأ الكتب يا سيدي بل الجرائد فقط، وذلك عندما انتظر في الموقف زبائن جدداً، وبالذات الأخبار المتعلقة بالرياضة، فنحن مشجعون لفريق بشكتاش بالوراثة، كما أنني لا أفوّت أي مباراة لهم في إسطنبول.. أما عن الكتب فأطفالي يقرأون ويتابعون دراستهم، ولله الحمد. وأنا أقرأ في كتاب الحياة يا سيدي، فكل زبون جديد هو حكاية جديدة. لا تبدو شخصاً يميل إلى الكلام يا سيدي، ولكن كل من أقلله في سيارتي تنتابه رغبة مجاذبتي أطراف الحديث، وعندما أقول الكل يا سيدي فأنا لا أستثني أحداً، الرجال والنساء، وبمناسبة التجارب التي مرت بي أود أن أسرد عليك...

وعلى وقع ثرثرته التي لا تنتهي بدأ جوالي بالرنين، كان الجهاز الصغير يرتعش في جيب معطفي لتنتقل الرعشة إلى قلبي وجلاً. من الذي يتصل بي يا تُرى؟.. قد يكون أحد ما اتصل بي على هاتف المنزل وعندما لم يرد عليه أحد اتصل على الجوال، وهذا يثبت بأنني لم أكن في منزلي ساعة وقوع الجريمة.. إذاً فهو شاهد جديد يشهد ضدي في قاعة المحكمة.

"أجل سيادة القاضي، اتصلت به على هاتف المنزل، ولكنه ظل يرن من دون مجيب، وحينها اتصلت على هاتفه الجوال.. فأخبرني بأنه خرج لشراء بعض الحاجيات، ولكنني عندما قرأت الخبر على صفحات الجرائد...".

ربما عليّ ألاّ أرد على الهاتف مطلقاً على الرغم من نظرات السائق التي تتفحّصني من المرآة الأمامية. ولكن عندما أخرجت الجوال، ورأيت اسم الأستاذ طاهر على الشاشة شعرت براحةٍ عميقة، فلم أتخيّله يقف على منصة الشهود ليدلي بشيء ضدي. ورغم ذلك فإن اتصاله بي في هذا الوقت وفي هذه الليلة المثلجة ليس بالأمر المطمئن.. إلا أنني أجبت على أيّ حال:

- ألو..

بدأ صوت الأستاذ القوي يصلني:



- ألو مشتاق، مرحباً يا بُني. أين أنت؟

ما الذي عليّ قوله الآن؟ هل أقول إنني في المنزل، سأثير بكل تأكيد شبهات السائق الذي يتابع أدنى كلمة أتفوّه بها، وهو الشاهد الأقوى ضدي في المحكمة، خاصة وأنّ هذا اللعين يتذكّر أحداثاً جرت معه منذ ثلاثين سنة.

لذا بدأت أتمتم متعلثماً:

- في الحقيقة يا أستاذ.. أنا خرجت من أجل.

ولكنه لم يمهلني حتى أكمل كلامي فقد بدا متسرّعاً كعادته عند الحديث على الهاتف.

- على كل حال أريدك أن تخبر نزهت بأنني لن أستطيع القدوم هذا المساء.

كيف علم بأنني سأذهب لرؤية نزهت؟!

- أقلت نزهت يا أستاذ؟

- أجل، ألم يكن من المفترض أن نذهب إليها هذا المساء؟

نذهب؟.. إذاً فهو أيضاً مدعوٌّ مثلي. وفي ذلك الحين تذكّرت ما قالته لي نزهت عن المفاجأة التي تنتظرني، لا بدّ أنها حضور العجوز.

- لقد دعتنا إلى تناول العشاء في منزلها.

أوضح الأستاذ.

- ولكن الجو شديد البرودة. وفي الحقيقة لن أغامر بالخروج وحدي من تشفيكة إلى شيشلي في هذا الطقس السيئ حيث إيجاد سيارة أجرة يعد احتمالاً ضعيفاً.. وقد اتصلت بها كثيراً ولكنها لا ترد على اتصالاتي، لذا خطر لي الاتصال بك. من فضلك أخبرها أنني لن أستطيع القدوم.

الآن تأكدت من أنني سألقى حتفي بكل تأكيد، فالشاهد الأساسي ضدي ليس هذا الثرثار، بل المؤرخ والبروفيسور المعروف الأستاذ طاهر حقي.

"لقد كان مشتاق تلميذاً جيداً، وكان من أوائل مساعديّ في الجامعة، كان شاباً ناجحاً ومؤرّخاً مميزاً، ولكن ليته لم يتعرّف إلى نزهت...".

لا، لن أسمح لذلك بأن يتحقّق ولن أمكّن أحداً من توريطي في الجريمة. بدأت الكلمات تخرج من فمي من دون تخطيط مسبق.

- ولكن يا أستاذ أنا أيضاً لم ألبِ دعوتها، فقد اتصلت بي قبل بضع ساعات. ولكن ما هذه الدعوة التي تتم على عجل؟ كما أنها لم تخبرني بقدومك.
- ألم تخبرك بذلك؟
- لا، لم تفعل، ولو أنها أخبرتني بذلك للبّيت دعوتها. كما أنني كنت مشغولاً بأمورٍ أخرى لذا رفضت دعوتها.
- رفضت الدعوة؟

سألني العجوز وهو لا يعلم بالفاجعة التي حصلت.

- ولكنها اتّصلت بي بعد ظهر اليوم وأخبرتني بأنك قبلت الدعوة.

لم أعرف بما أجيب لذا بقيت صامتاً.

- ما الذي تخطّط له هذه المرأة مرة أخرى؟

تساءل الأستاذ ضاحكاً:

- في البداية قامت بدعوتي، وبعدها أخبرتني بأنك قادم، والآن لا ترد على اتصالاتي.
- ربما خرجت لشراء بعض الحاجيات عندما اتصلت بها.

لكن العجوز بدا برماً بهذه الثرثرة التي لا طائل من ورائها.

- في الحقيقة، لا يهمني الأمر يا مشتاق، فهي على الدوام تنشغل بأشياء تافهة. على أيّ حال لا بدّ أنها ستعاود الاتصال بي عندما ترى رقمي، وحينها سأعتذر منها. تصبح على خير يا بُني.
- تصبح على خير يا أستاذ.

هذا المساء الذي كان من المفترض أن يبدأ بدعوةٍ سارة، تتعقّد أحداثه مع كل لحظة تمر. ما الذي عليّ أن أفعله الآن وقد أصبح الأستاذ أيضاً مشتركاً في هذه المعمعة الدامية؟ ولا بدّ أنّ رقمي مسجّل على شاشة هاتفها وبالتالي لن أستطيع إنكار الدعوة.

- لا داعي لذلك يا سيدي.

قالها السائق الثرثار وهو يدير رأسه نحوي، كان يتكلم بصوت هامس متواطئ.

- ما عليك سوى أن تعيد ما قلته للتو، بأنها دعتك ولكنك رفضت دعوتها

بكل بساطة. هذا كل ما في الأمر. ومن يستطِع إثبات العكس فليفعلْ ذلك؟

- ماذا؟

تساءلت صارخاً بهلع وأنا أنظر إليه.

ضغط على مكابح السيارة فأصدرت العجلات صوتاً أعادني إلى الواقع من جديد:

- ما الذي جرى؟

قالها وهو ينظر إليّ:

- هل أنت بخير يا سيدي؟

- بخيرٍ. أنا بخير.

وتسمّرت نظراته على الهاتف الذي بقي في يدي:

- أهناك أخبار سيئة؟

"أجل هناك كارثة، فالجريمة التي ارتكبتها قبل قليل بدأت تتكشّف ملابساتها، وأنا لا أملك سوى الجلوس في هذا المقعد اللعين وانتظار أن تتم إدانتي".

خطر لي أن أصارحه بالحقيقة علّه يستطيع أن يرشدني من خلال تجاربه الواسعة إلى طريقة للنجاة. حينها أدركت أنني أتراقص على أعتاب الجنون ما دامت الأفكار وصلت بي إلى هذا الحد. فهذا الثرثار يجب أن يكون آخر من يعلم ما أفكر به وأعانيه.

قلت أول كذبة خطرت ببالي:

- والدة أحد أصدقائي توفيت هذا المساء.

بدا الأسى على ملامحه وهو يشاركني مصابي؟

- أكانت مسنّة؟

- أجل كانت في التسعين من عمرها.

- إنها مشيئة الله، فليتغمّدها برحمته الواسعة.

وعاد ليدير محرك السيارة ويواصل الحديث وكأن شيئاً لم يكن:

- ذات يوم أقللت سيدةً من تقسيم...

(6)

لكلّ أمةٍ أبطالها الذين يشكّلون مصدر فخرها

استطعت اللحاق بالباخرة في آخر لحظة، ولو أنني أطعت السائق الثرثار وبقيت في مدخل شارع أزاب كابي حتى تنتهي أزمة المرور التي سببتها شاحنة المرسيدس، لما استطعت أن ألحق بالسفينة التي تنطلق في الساعة التاسعة تماماً، لذا لم أكترث بمزيدٍ من البلل الذي قد يصيب قدميّ المجمّدتين، وقررت الترجّل من السيارة أمام جامع سوكولو محمد باشا، واجتزت سوق الأحد الذي كان فيما مضى يشكل أسوار غالاتا ساراي المشهورة.. كان الثلج يتساقط بكثافة ولكنني تمكّنت من الوصول في اللحظة التي كان فيها الموظفون يغلقون الباب إيذاناً بسير السفينة، فلوّحت بشدة للموظف علّه يراني وأتمكّن من اللحاق بالباخرة.

كانت الباخرة شبه خالية، فسكان إسطنبول الذي خمّنوا ما سيؤول إليه الأمر في هذا الطقس، فضّلوا اللجوء إلى منازلهم في وقتٍ باكر، وقد اخترت أحد المقاعد المجاور للنافذة والملاصق للشوفاج الذي كانت حرارته المنسابة إلى قدمي أجمل ما حدث لي هذا المساء، وبدأت أراقب من النافذة ندف الثلج التي ما إن تلامس سطح البحر حتى تبدأ بالاختفاء والذوبان. ولكن، بعد لحظات اختفى منظر البحر، وعادت صور مبنى ساهتيان لتتجسّد أمامي من جديد. تذكّرت نفسي وأنا أخرج من ذلك البناء يائساً، أود الهرب بأقصى سرعة ممكنة قبل أن يراني أحدهم، وأنا أفكر بإزالة كل أثرٍ يدل على وجودي هناك، ولكن ذلك كان من ضروب المستحيل. فقد كان الأستاذ طاهر يعرف أنني مدعوٌّ إلى العشاء في تلك الليلة. حسناً، أخبرته بأنني لم أذهب، وتداركت الأمر، وقد بدا أنه اقتنع أو أنه لم يبالِ. لكن ما الذي سيجري عندما يعلم بخبر مقتل نزهت؟ خاصة وأنه يعلم بالعلاقة التي تربطني بها، والوله الذي أكنه لها؛ هذا الوله الذي قد يدفعني بكل سهولةٍ إلى ارتكاب جريمة قتلٍ كهذه. لا، لا،

لا أظن أن الأمور ستصل إلى هذه الدرجة في ذهنه، فحتى أنا لست مقتنعاً بارتكابي لهذه الجريمة. إذاً لماذا قمت بمسح بصماتي عن أرجاء المنزل وقمت بإخفاء الأدلة وأحضرت أداة الجريمة معي؟

بدأت أشعر بتعبٍ شديدٍ يحل عليّ فجأة، قد يكون الجوع الذي سبّب هبوط مستوى السكر لديّ، وقد تكون الصدمة التي تعرضت لها، وربما ليس أيٌ من هذه الأمور، فقد يكون السبب هو تبدّلات الحرارة التي تعرضت لها بين الجو المثلج في الخارج وهذا الدفء داخل الباخرة. أيًا يكن الأمر، فليس الوقت مناسباً لكي أستسلم للتعب والإرهاق الآن. لذا، بدأت نظراتي تتنقّل بانتباهٍ وحذرٍ شديدين بين ركاب الباخرة، لقد كانوا سبعة عشر شخصاً؛ في المقعد الذي أمامي كان يجلس ثلاثة شبان تفوح من أنفاسهم رائحة الشراب، وكان يدور بينهم نقاش محتدم حول المباراة التي من المفترض أن تُقام هذا الأسبوع بين فريقي فنار بخشة وغالاتا ساراي، وتوقعاتهم بالفائز. وفي المقعد الذي يجاور مقعدهم في الصف الآخر كانت تجلس مجموعة من الشباب والفتيات والذين لم أحدد بالضبط إن كانوا طلبة مدارس أم جامعة، ومن الواضح أنهم نالوا حصتهم من الثلج المنهمر لأن ثيابهم كانت مبللة بشكل واضح، ولكن هذا لم يمنعهم من تبادل التهديدات بواسطة كرات الثلج التي ما زالوا يحملونها في أيديهم والتي كانت تتقاطر المياه منها بشكل متواصل لتزيد البلل بللاً. أما في المقعد الذي خلفهم فكانت تجلس إحدى سيدات إسطنبول المميزات الجمال جداً واللواتي يتمتعن بأناقةٍ بسيطةٍ تشكل طابعاً خاصاً بهن، كانت تراقب من النافذة غير مبالية بكل ما يجري حولها. وفي الطرف الآخر من الصالة كان يجلس زوجان حديثا العهد بالزواج، على ما يبدو، يراقبان طفلهما الصغير بمحبةٍ وصبرٍ لامتناهيين. تجاوزتهم نظراتي لتنتقل إلى مقعد آخر يشغله ثلاثة رجال بمعاطف طويلة سوداء ولحىً طويلة تشير إلى تديّنهم، وكانوا يتناقشون بهدوء في إحدى القضايا التي من الواضح أنها تعنيهم كثيراً حيث بدوا مندمجين في الحديث اندماجاً تاماً. على بعد مقاعد عدة كان يجلس موظفان شابان يبدو أنهما يعملان في أحد المصارف أو الدوائر الحكومية، وقد نال النعاس والتعب منهما بدرجة كبيرة. من الواضح أن لا أحد مهتمّ بي في هذه الصالة، لذا كان عليّ اختيار اللحظة المناسبة للتسلّل بهدوء إلى الخارج

لأرمي هذه السكين التي كانت تشعل يدي كلما لامستها في جيبي وصابونة البنفسج التي تحمل بصمات أصابعي، وبذلك كنت سأنتهي من هذه المشكلة لآخذ نَفَساً عميقاً وأستريح. ولكن ليس الآن بالطبع، عليّ الانتظار بعض الوقت حتى لا ألفت الانتباه؛ فليس من المعقول أن أخرج على الفور في طقسٍ مثلجٍ كهذا، بينما يفرض المنطق أن أنال قسطاً من الدفء كبقية الركاب. كان عليّ الانتظار قليلاً، حتى يتعوّد المسافرون على الجلوس والانغماس بأمورهم الشخصية لدرجة لا تسمح لهم بملاحظتي.

ما إن تحرّكت الباخرة حتى بدأ البحر يتّسع مبتعداً عن أضواء المدينة التاريخية التي اصطفّت السفن على مختلف أنواعها أمام موانئها، سفن تقل ركاباً مثلنا إلى وجهات مختلفة. إحدى البواخر كانت تماثل باخرتنا وكأنهما شقيقتان وقد رُبطت إلى الميناء وهي تنتظر الركاب لنقلهم إلى الجهة الأخرى، فيما كان جسدها النحيل يحاول التوازن قدر الإمكان في مواجهة الأمواج التي كانت تضربها دون توقّف. وعلى مسافة قريبة منها كانت سفينة مطفأة الأنوار تقف هي الأخرى باهتزازٍ ملحوظ، ومن الواضح أنها أنهت رحلتها لهذا اليوم، واستسلمت لنوم عميق. وبعد ذلك بمسافة لا بأس بها وبالقرب من سراي بورنو كانت تقف سفينة نقل ركاب كبيرة كُتب على لوحتها freedom. الحرية! خطر لي أن أصعد إليها هرباً من هذا الخوف، ومن هذه الليلة المثلجة، ومن هذه الذكريات الدامية ومن الشعور بالذنب على جريمة لا أدري من اقترفها بالضبط.. لتأخذني إلى الخلاص.. إلى الحرية.. أكان ذلك ممكناً؟ أعتقد أن الباخرة ما إن تصل إلى أول ميناء ستكون الشرطة بانتظاري لوضع الأصفاد الحديدية في يديّ.

ليس الهرب سوى محاولة للابتعاد مع حملٍ ثقيلٍ من الهموم والمخاوف والتساؤلات المضنية، لا أكثر. مع ذلك فإنّ فكرة الهروب تغري الإنسان في كثير من الأحيان. أعتقد أن الباخرة التي ستحملني إلى الهرب الأبدي دون عودة إلى هذه الحياة هي خلاصي الوحيد. على خلفية هذه المشاهد كان يشمخ على أعلى قمم إسطنبول قصر توب كابي بكل جلاله وفخامته. كانت قببه وأسواره وأبراجه تبدو من بين الأشجار بجلالٍ مهيب. هذا القصر الذي اتخذته السلالة العثمانية لمدة تتجاوز الأربعة قرون مقراً خاصاً لها، والذي كان اسمه الحقيقي والأول سراي

جديد آميري، والذي كنت أعرف كل باب وكل فناء وكل زاوية فيه: غرفه وحمّاماته ومطابخه وإسطبلاته وأفرانه. كنت أعرفها كلها كأي زاوية من منزلي، فقد كان هذا القصر المكان الذي لا غنى عنه للمؤرخين العثمانيين. وكان يحمل بالنسبة إليّ مكانةً خاصةً تعود لأسبابٍ شخصيةٍ بالإضافة إلى مكانته التاريخية.

شهد باب السعادة في هذا القصر إعلان حبنا للمرة الأولى، ولكن لا تذهب بكم الظنون أنني كنت أملك تلك الجسارة لأصارحها بمشاعري. فقد كانت هي من صارحتني بمشاعرها في المرة الأولى، وهي من أمسكت بيدي، وهي من نظرت إليّ تلك النظرة التي تشي بكل الحب، والتي حملتني إلى أقصى درجات السعادة أمام هذا الباب، فيما بقيت أنا كالأبله أراقب كل ما يجري بصمت غير مصدق السعادة التي منحتني إياها الحياة. لم أكتفِ بالبقاء كأبلهِ صامتٍ، بل قمت بأكثر من ذلك منهياً هذه اللحظات الاستثنائية بطريقةٍ مزرية. كانت حبيبتي تقترب مني وتحتضنني بجرأتها المعهودة، لكن نظرات سائحين ألمانيين فضوليين جعلتني أتفوّه بما لا يصح أن يتفوّه به أي عاشق في لحظة كهذه:

- إنهما يراقباننا.

لقد كسرت سحر اللحظة بخجلي وقلة حيلتي.

كنا نقضي ساعاتٍ طوالاً في غرف القصر الخافتة الأنوار ونحن نعكف على الدراسة وفحص المخطوطات اليدوية والكتب والثياب والمجوهرات والأسلحة والرسوم، والمنمنمات بحثاً عن أيّ أثرٍ تاريخي قد يفيدنا في دراساتنا. كانت أياماً جميلة مرّت كحلمٍ لطيف. سراي هومايون (قصر السلطان).. منزل السلطان محمد الفاتح في القسطنطينية والمكان الذي شغلته العائلة العثمانية طوال تلك القرون والذي خُطّت خلف أبوابه أهم القرارات، أكثر الأماكن أمناً، وقد كانت الكتابة المدوّنة على باب هومايون خير تعبير عن تلك السلطة المطلقة:

(بإذن الله وبرعايته سلطان البرين وخاقان البحرين، ظل الله على الأرض في الدنيا وفي الآخرة، أثير الله في الدنيا والآخرة، حاكم البر والبحر، فاتح القسطنطينية، السلطان محمد خان ابن السلطان مراد ابن السلطان محمد خان، فليبقَ ملكه أبد الدهر بإذن الله وليمنحْه مقاماً أعلى من النجوم الساطعة في السماء).

فليمنحه مقاماً أعلى من نجوم السماء. ليس واضحاً إلى أي درجة ألهمت هذه الأمنية الكاتب الألماني ستيفان زويك، ولكنه وفي كتابه المعنون باسم "في اللحظات التي سطع فيها نجمك" أضاف إلى جانب تولستوي ودويستوفسكي اسم السلطان محمد الفاتح أيضاً. كان هذا الكاتب من بين كثيرٍ من الكتّاب الذين ينطقون بالألمانية والذين اهتموا بالسلطان محمد الفاتح في كتاباتهم ودراساتهم.. ولكن اللافت للنظر ليس لغته الألمانية، وإنما جذوره اليهودية كما فرويد أيضاً، فكلاهما كانا يهودي الأصل ألماني الجنسية.

أي ارتباطات لا منطقية أعقدها في ذهني؟ فاهتمام الطبيب النفسي فرويد بالسلطان محمد الفاتح لم يكن وارداً على الإطلاق سوى في ذهني الذي اختلطت فيه الأمور بشدة، كما أنه لا يوجد أي دليل أو إثبات يبرّر هذا الربط الذي عقدته في ذهني. فالدراسة التي يطرحها فرويد عن قتل الأب تتعلق بدويستوفسكي، أما الدراسة التاريخية التي يتناولها بيبينغير حول الفاتح فهي موضوع آخر، وكلا الشخصين فرويد وبيبينغير لا يوجد أي رابط مشترك بينهما، ولكن مؤرختنا العظيمة كانت تحاول إيجاد نقطة مشتركة تجمعهما– وهي قتل الأب– لا، غير معقول.. فمهما بلغت الجرأة بنزهت، فإنها لن تتجاسر على قول شيء كهذا. ولكن لِمَ لا تفعل ذلك؟ فقد بنت شهرتها كمؤرخةٍ مميزةٍ على هذه المواضيع بالذات، على خرق المحرمات، وولوج مناطق لم يجرؤ أحد قبلها على الدخول إليها، وطرح مواضيع كانت تعتبر من المحظورات، وتسريبها إلى العلن.. ولكن حتى نزهت التي من المحتمل أن تكون الشهرة قد أطاحت بمنطقها لا يمكن أن تغامر بطرح قضية من هذا النوع، وأن تتهم محمد الفاتح بقتل أبيه، وهي تعلم منذ البداية أنها دراسة محكوم عليها بالفشل. من ناحية أخرى فمن الممكن أنّ يتملّك الجشع بعض الأشخاص ويستحوذ عليهم بشكلٍ يوحي لهم بأن كل ما يفكرون فيه غير قابل للنقاش، وأنّ آراءهم تتفوّق على قواعد المنطق التي سار عليها زملائهم. قد يكون هذا السبب هو الذي دفع حبيبتي الجميلة، على الرغم من ذكائها المعهود، لخوض غمار أطروحةٍ محفوفةٍ بالمخاطر من هذا النوع.

أيعقل ذلك؟ ربما أنا مخطئ! فمن المحتمل ألا تكون المرأة التي قتلتها فكرت

على هذا النحو، ولكن السنين التي نالت من بشرتها الناعمة وزرعت التجاعيد فيها قد تكون نالت أيضاً من صفاء ذهنها وزرعت تجاعيد فكريةً فيه.

الطبع يغلب التطبّع يا بُني - كانت المرحومة أمي تردّد هذه المقولة على الدوام - فالتربية والوسط المحيط والتعليم يمكن أن تأثر على الشخص إلى حدّ معيّن، ولكن الطبع المتجسّد في الأعماق يخرج على الدوام في لحظة الحقيقة ولا يتغيّر.

حسناً، ولكن المرأة التي قتلتها هذا المساء لا شيء يثبت حتى الآن أنها كانت تفكّر في دراسة تتناول قضية احتمال قتل السلطان محمد الفاتح لوالده. هزّ الأستاذ طاهر حقي الذي يجلس على المقعد المواجه لي رأسه مؤيّداً:

"التعميم في أغلب الأحيان يُعتبر منهجيةً خاطئة".

نزهت أيضاً مطّلعة مثلي على التاريخ العثماني اطّلاعاً تاماً. ولكن لا طائل من البحث عن الجليد بين رماد المدفأة. أجل، بعض الأمراء أعلنوا الحرب على أقربائهم حتى أنّ بعضهم قام بقتلهم، ولكن سلطاني لم يقم بهذا الأمر، أقلت سلطاني؟ إنه ليس سلطاني أنا فقط بل هو سلطاننا جميعاً.

"لا تحاول حرمان شعب متعطّش إلى النجاح، يرزح تحت عبء الشعور بالذنب.. شعب مسحوق كهذا لا تحاول سلبه هذا الأمر أيضاً".

هذه الكلمات ليست لي بل هي لأستاذنا طاهر حقي، وقد عقب بها على أطروحتي التي كنت أتناول فيها فرمان قتل الأشقاء بهذه الملاحظة.

- لكل أمةٍ أبطالها الذين يشكّلون مصدر فخرها، فلا تسلبوا هذا الشعب المسكين مصادر فخره وتحرموه منها.

أنا لم أكن أنوي أن أحرم أحداً من أحدٍ أو أن أنال من هيبة أحد سلاطيننا. كل ما في الأمر أنني لم أقدّم أطروحةً ودراسةً جديدةً منذ زمن طويل، وكان هذا حديثاً متداولاً في أروقة الجامعة وبين الطلاب والأساتذة أيضاً، لذا فقد اخترت دراسة عن السلطان المفضل لديّ، محمد الفاتح، وكان أكثر ما يلفت انتباهي هو ذلك القرار الذي صدر في عهده. ولكن نزهت لم تكن تفكر مثلي، فمنذ أن افترقنا كانت قد أعدّت عشرات الدراسات والأطروحات حول الشخصيات التي تشكل أهم مرتكزات تاريخنا، وبجرأةٍ تقارب حدود الوقاحة بعيداً عن كل احترامٍ لهم، لذا فمن المحتمل

أنها ربطت بين السلطان الفاتح وقتل الأب.

عدنا إلى نقطة البداية؛ ولكنني لا أعتقد أن نزهت تتجرّأ على ارتكاب حماقةٍ كهذه، لأن السلطان محمد الفاتح لم يكن يملك أدنى نيةٍ لقتل والده، ولم يكن من داعٍ للتفكير بأمر كهذا.. لأن والده السلطان مراد الثاني كان قد بدأ يشعر بالسأم من حياة الحروب ومن المؤامرات والدسائس التي تحيط به، كما أنّ خسارته لابنه الشاب علاء الدين علي زادت من شدة بؤسه، ولهذه الأسباب فقد صرح:

"سأبتعد فترة عن أمور الحكم لأتفرّغ للعبادة والتزهّد" هذه كانت رغبة السلطان.

أي أنّ السلطان مراد الثاني تنازل عن العرش لابنه محمد من تلقاء نفسه، ذلك العرش الذي قُطِعت أعناق كثيرة من أجل الوصول إليه، ولا يُلام على موقفه هذا فمن بين جميع أبنائه لم يكتب العيش سوى لمحمد الثاني فيما توفي البقية، وكان السلطان محمد الثاني والذي سيلقب فيما بعد بالسلطان محمد الفاتح طفلاً صغيراً ولأسباب غير معروفة فقد قرر السلطان مراد الثاني أن يطلق اسم والده على هذا الطفل من بين كثيرٍ من الأبناء الآخرين؛ هذا الطفل الذي استرعى انتباه والده مُذْ كان طفلاً.

– فليطلِ الله بأعمار أولادك ولا يحرمك منهم.

انتشلني هذا الصوت من عالم محمد الفاتح وعلاقته بوالده وببقية أشقائه، من عالم الرجل الذي فتح هذه المدينة، لأعود إلى الواقع مرة أخرى.

– فليرزقْكَ الله من حيث لا تعلم.

كانت تلك توسلات امرأةٍ متسوّلةٍ بثيابها البالية وعينيها السوداوين الواسعتين وهي تحدّق إليّ بإصرار وقد مدت يدها أمامي طالبة النقود، ولكن متى صعدتْ إلى الباخرة ودخلتْ الصالة؟ فقد تفحّصتها مقعداً مقعداً ولم ألحظ هذه المرأة، كما أذكر أنني كنت أنظر إلى الباب بانتباه شديد.. ربما كانت مستلقية تحت أحد المقاعد بعيداً عن أنظار المراقبين في الباخرة، وخرجت عندما أحسّت أنّ السفينة تحركت وأصبحت في مأمن من الطرد.. عندما شاهدت النظرة الحائرة في عينَيّ ظنت أنّ دعواتها لم تكن كافية فاسترسلت في سلسلة دعواتها وهي تقول:

– فليوفقْكَ الله في كل ما تقوم به.

راقني هذا الدعاء فقد جاء في الوقت المناسب.



أخرجت من جيب معطفي بعض قطع النقود المعدنية، ووضعتها في يد المرأة، فنظرت إليّ بابتسامة تبيّن أسنانها الصفراء وهي تقول:

- فليحمكِ الله من كلّ مكروهٍ يا سيدي.

لا أظن أنه حماني حتى اللحظة الحاضرة، واحتمال أن يستجيب لهذه الدعوة بعد كل ما جرى هو احتمال ضعيف جداً، لكنني تمنيت من أعماق قلبي أن تُستجاب دعوات المرأة وتوسّلاتها. تركتني المرأة لآمالي وابتعدت عني سريعاً متوجّهةً نحو صيدٍ آخر وعلى ما يبدو أنها اختارت الرجل وزوجته، ومن حسن الحظ، أن هذه المرأة لفتت انتباه كل من في الصالة باستثناء الشباب الثلاثة الذين تفوح منهم رائحة الشراب، وبدأ الجميع يراقبون حركاتها وأقوالها، وأظنه الوقت المناسب من أجل التخلّص من أداة الجريمة التي أحملها في جيب معطفي ورميها في البحر بأقصى سرعة ممكنة. وبينما كانت المرأة تقترب من هدفها الجديد قمت بهدوء من مقعدي وتوجّهت نحو باب الصالة تاركاً الشوفاج الدافئ بكل حزن.

كما خمّنت لم يلحظ أحد قيامي من مكاني فحتى الشبان الثلاثة بدأوا يهتمون بها عندما مرت من أمامهم حيث قال أحدهم بصوت عالٍ:

- ما الذي تقوله؟ إنها أغنى منا جميعاً وإن شئت فهي تستطيع شراءنا نحن الثلاثة.

وأيّد الشاب الآخر زميله:

- أجل، إنهم يمارسون تجارةً رابحةً ومضمونة.

لم أهتم إطلاقاً بمقدار الثروة التي تملكها المرأة، ولكنني شعرت بالامتنان لها بعد أن جذبت انتباه جميع الركاب نحوها، لأتمكن من الخروج بكل هدوء من الصالة الدافئة إلى الريح العاتية في الخارج.

(7)

ابني الذي سيتولى العرش سيسلم أعناق بقية أشقائه إلى الجلاد

استقبلني الهواء المثلج في الخارج، وقد ازدادت برودة الطقس هنا في عرض البحر، فانتابتني رجفة شديدة ولكني لم أبالِ بالأمر. جلت بنظري فاحصاً المكان، فارتحت لعدم وجود أحد في هذا الطقس؛ أكانت دعوات المرأة مستجابةً إلى هذا الحد؟ وحتى قبل أن أصل إلى المكان الذي يصعد منه الركاب إلى ظهر الباخرة، كانت أصابعي تتجوّل على أحرف ختم السلطان المحفورة على النصل الفضي لسكين فتح الرسائل الموضوعة في جيبي، وقد زادت برودة المعدن من القشعريرة التي كانت تنتابني.

- انتبه، أرجوك!

تراجعت بضع خطوات ملتفتاً نحو رجلٍ ضخمٍ كان يقبل نحوي. من الواضح أنه من طاقم الباخرة. كان يحمي وجهه والسيجارة التي بين شفتيه بيده متجنّباً ندف الثلج التي كانت تنهمر بفعل الريح من كل الاتجاهات.

- إنْ سقطت في البحر في هذه الساعة المتأخّرة فلن يلحظ أحد الأمر. أرجوك ابتعد عن تلك المنطقة. إن كنت خارجاً لشرب سيجارة فتعالَ معي لآخذك إلى زاويةٍ أكثر أماناً.

أجبت بكل هدوء:

- أليس ممنوعاً؟

أشار بيده غير مبالٍ وهو يقول:

- من سيراك في مثل هذا الطقس؟
- شكراً، أنا لا أدخن.. لكنني كنت متوجّهاً نحو الحمامات.



- حسناً، توجّه نحو الأمام إذاً. وأرجوك ألا تقترب من حافة الباخرة، لأنك إذا تعثّرت ووقعت فستغرق بكل تأكيد في هذا البحر الهائج. قبل أسبوعين سقطت امرأة عن ظهر الباخرة وتكبّدنا مشقةً كبيرةً حتى تمكّنا من إنقاذها.
- شكراً.

توجّهت نحو الحمامات، وما إن دخلت الممر الصغير حتى لفحتني تلك الرائحة النتنة القوية، وعلى الفور شعرت برغبةٍ شديدةٍ في التبوّل. لا علاقة لكلب بافلوف بالأمر، فقدماي اللتان بقيتا مبلّلتين لساعات في هذا الحذاء المخملي الأملس، بالإضافة إلى انقضاء وقتٍ طويلٍ منذ آخر مرة تبوّلت فيها كانت السبب في رغبتي المفاجئة هذه.

دخلت الحمام من الباب المفتوح على اتساعه فيما الريح تستغل كل زاويةٍ ومنعطفٍ لتطلق عويلاً متفاوت الارتفاع. وقفت فوق حوض الحمام الفارغ، وأنزلت سحاب البنطال، ولكن السائل الدافئ الذي ينهمر عادةً كان مصرًا على البقاء محتبساً لفترة أطول. ضغطت على نفسي، ثم حاولت سحب أنفاسٍ عميقةٍ ولكن بلا طائل، ربما كان السبب هو الضيق الذي أشعر به وربما بسبب الرائحة الكريهة والتي لم أتعوّد عليها أثناء دخولي الحمام.

لم أهتم لكل هذه التفاصيل وانتظرت بصبر. انتظرت وانتظرت.. وأخيراً بدأ السائل الدافئ ينهمر كخيطٍ طويلٍ رفيعٍ، وواصل التدفق لفترة لا بأس بها، وعندما انتهيت شعرت براحةٍ نفسيةٍ عميقة، وتوجّهت نحو المغسلة لغسل يدي ولكن المياه كانت ببرودةِ الجليد فتراجعت عن الفكرة. ولو أنّ شازية هنا لأدركت على الفور أنني لست مهووساً بنظافتي كما تدّعي ولعقّبت قائلةً: "جيد جداً مشتاق، يبدو أنّ هوسك لم يصل إلى أعتاب الخطورة بعد".

في الحقيقة، سأتجاوز أعتاب الخطورة بمراحل متقدّمة ما لم أتخلّص على الفور من السكين والصابونة الموضوعتين في جيبيّ، ولكنني كنت أفكر بالرجل الضخم الذي يدخّن متحدّياً هذه الريح العاصفة.. إلا أنني تفاجأت للمرة الثانية بدعوات المرأة المتسوّلة التي كانت تسعفني عند الحاجة، فما إن خرجت من باب الحمام حتى رأيت الرجل الضخم واقفاً أمامي، ما الذي كان يريده هذه المرة أيضاً؟

- البرودة تزيد رغبة المرء في التبول.

عبّر عن رغبته بكل صراحةٍ ودون أدنى ذرةٍ من الخجل.

لم أكن في وضع يسمح لي بمناقشة تأثير البرودة على الأعضاء التناسلية للرجال لذا تركته منسحباً وأنا أقول:

- معك حق..

خرجت من الحمامات بأقصى سرعة ممكنة، وتوجهت نحو المكان ذاته مواجهاً الريح العاصفة، وأخرجت السكين على الفور، ورميتها، ومن ثم أعقبتها بالصابونة البنفسجية. لم تسمح أصوات الموج وضجيج الباخرة بسماع صوت ارتطام السكين والصابونة بسطح البحر، وتمنيت للحظات أن يغرق كل شيء يتعلق بهذه الجريمة في صمت مطبق وأتمكن من الخلاص من هذه المصيبة. وما إن غرقت الدلائل حتى شعرت براحة عميقة وكأنّ ثقلاً كبيراً قد أُزيح عن كاهلي.

"في ظل عدم وجود أداة الجريمة يا سيدي القاضي كيف لك أن تتّهمني بارتكابها؟".

لم أستطع الصمود في الخارج أكثر من ذلك، فتوجّهت نحو الصالة مرةً أخرى، قبل أن يلحق بي الموظف الضخم. وما إن فتحت الباب حتى غمرني الدفء، وأشعرني بالسلام والسكينة مرةً أخرى. جلست على المقعد ذاته، وقد لاحظت أنّ المرأة المتسولة قد اختفت كما ظهرت بشكل مفاجئ. يبدو أنها أتمت مهمتها واستنفدت فرصها مع جميع الركاب الموجودين، وانسحبت إلى زاويتها لتغط في نومٍ عميقٍ منتظرةً مجموعةً جديدةً من الركاب. فلتنمْ نوماً هادئاً، فأنا لا مشكلة لديّ على الإطلاق.

عدت إلى مراقبة البحر بأمواجه المتلاطمة وأنا أحاول استحضار صور السكين والصابونة التي تحمل رائحة حبيبتي قدر الإمكان، ولكنني فشلت في ذلك. وما إن رفعت رأسي قليلاً حتى واجهتني أضواء قصر توب كابي التي كانت تبتعد، هذا القصر الذي بناه السلطان الذي وُلِد في أدرنة وبقي فيها لواحد وعشرين عاماً، ومن ثم قرر القيام بتحوّلٍ تاريخي وفتح القسطنطينية وتغيير قدرها، وبالتالي تغيير قدره وجميع السلالة العثمانية من خلال هذه الخطوة، كل ذلك تم خلال واحد وعشرين عاماً.

واحد وعشرون عاماً! إنها الفترة ذاتها التي تركتني فيها نزهت وتخلّت عني. تلك كانت فترة كافية ليحول خلالها السلطان محمد الفاتح، الذي ورث العرش عن والده، بلاده إلى سلطنة كبيرة تحكم معظم العالم القديم حينها، ولن أبخس نزهت حقها، فهي أيضاً استطاعت خلال هذه المدة أن تنتقل من مجرد مساعدة أستاذ في الجامعة إلى أحد أشهر المؤرّخين وتصبح بروفيسورة يتردد اسمها في أهم المحافل العلمية. كلاهما تغير قدره عند الانتقال من مدينة إلى أخرى – من أدرنة إلى إسطنبول ومن إسطنبول إلى شيكاغو – ولكنها لم ترضَ بالبقاء طويلاً في شيكاغو كما محمد الفاتح الذي لم يكتفِ بالقسطنطينية فقط، فقد انطلق كلاهما في مشاريع جديدةٍ ونجاحاتٍ جديدة.

في الحقيقة، كان عليّ أن أطرح السؤال بكل حياديّة بعيداً عن الغيرة والأحقاد المتراكمة طوال كل هذه السنين، أكانت نزهت محقة في افتراضاتها؟ أحقاً قام السلطان محمد الفاتح باغتيال والده أو أنه أمر بقتله مثلاً؟ السلطان محمد خان بن السلطان مراد خان بن السلطان محمد خان ولد في قصر أدرنة المتواضع في أيام السلم؛ ففي الفترة التي وُلِد فيها كان السلام يعم منذ سنتين وكانت البلاد تعيش في هدوء بعيد عن صليل السيوف والحِراب وهدير المدافع، بعيداً عن الدماء التي تُسفك في الساحات وآهات الثكالى وصرخات اليتامى، بعيداً عن سنابك الخيول وهي تدكّ الأرض بحوافرها. في تلك الفترة الهادئة وُلِد الأمير محمد جلبي والذي سيقضي معظم سنوات عمره في ساحات الوغى مستلاً سيفه.

تقول الروايات التي عاصرت ولادة السلطان محمد الفاتح أنه ولمدة ثلاثة أيام، شُوهدت ثلاثة أقمار في السماء، وعبرت درب التبّانة ثلاث نجوم بسرعة فائقة، وأعطت الأرض تلك السنة غلّة ثلاثة مواسم كما أنّ الخراف أنجبت ثلاث مرات، وكانت مواليد الأبقار تأتي إناثاً والأحصنة كانت تلد ذكوراً. أحقاً هذا ما جرى؟ لا أحد يعلم، ولكننا نعلم بالتحديد التاريخ الذي وُلِد فيه السلطان محمد الفاتح في الثلاثين من شهر آذار/ مارس للعام ألف وأربعمئة واثنين وثلاثين في صباح يوم أحد. ولكن ليس في القصر الموجود على ضفاف نهر تونجا والذي أصبح أنقاضاً واتّخذه مدمنو الكحول ملجأً لهم اليوم، بل في القصر القديم الذي بناه السلطان مراد الأول بالقرب من الجامع الذي يطلق عليه حالياً جامع سليميه في ميدان كافاك، والذي

اختفت حتى البقية الباقية من أطلاله. في ذلك القصر رُزِق السلطان مراد الثاني بابنه الثالث محمد.

ما الذي خطر للسلطان وهو يحمل ابنه الصغير لأول مرة في حضنه يا ترى؟

"الحمد والشكر لك يا إلهي، لأنك منحتني نعمة امتداد نسلي". أهذا ما قاله السلطان فرحاً؟ "أيّ من أبنائي الثلاثة سيرث عرش السلطنة؟" أم أنّ هذا السؤال كان يجول في ذهنه الحائر؟ أم أنّه كان يردّد بينه وبين نفسه حائراً متنهداً وهو يقول "ابني الذي سيتولى العرش سيسلم أعناق بقية أشقائه إلى الجلاد" أكانت هذه الخاطرة المؤلمة تجول في ذهنه في تلك الأثناء؟ أم أنّه استسلم لهذا القدر المؤلم الذي يعد ثمناً للسلطة والحكم؟ "هذا القتل هو جزء من تقاليد العرش، وهو ضروري من أجل استمرار حكمنا على العالم". أكان راضياً بما تحمله الأقدار منذ البداية؟

لا نعلم ما هي الخواطر التي كانت تجول في ذهنه حينها. ولكننا نعلم بالتأكيد أنه لم يخطر بباله، ولو للحظة واحدة، أنّ هذا الطفل الصغير، الذي بالكاد يشغل راحتي والده، سيقوم بفتح القسطنطينية في يوم من الأيام؛ تلك المدينة التي حاول هو وأجداده فتحها مراراً وتكراراً وعجزوا عن ذلك.

رغم أنّ بعض الروايات تعارض وجهة النظر هذه. فكما ورد في إحداها أنّه عندما حضر الولي الحاج بايرام إلى أدرنة وهو شخص عُرف بورعه وتقواه الشديدين، دعاه السلطان مراد إلى قصره.

- أيها الشيخ التقي، فلترافقْنا دعواتك على الدوام، ولنبتهلْ جميعاً إلى الله عزّ وجلّ أن يجعل فتح القسطنطينية على يدي، وأن ندخل هذه المدينة ظافرين منتصرين في أقرب وقت بإذن الله تعالى.

فأجابه الشيخ بصراحته المعهودة:

- لا شك في أنّ كل ما يحدث في هذا العالم هو بإذن الله وبإرادته وحده، ولكنك لست الشخص الذي سيفتح مدينة القسطنطينية وهذا ما أنا متأكد منه، كما أن عينيّ الهرمتين لن تشهدا هذا الظفر المبجّل أيضاً يا مولاي. ولكن هذا الطفل الذي لا يزال في مهده سيجعل شمسنا تنير سماء هذه المدينة العظيمة.

كما قلت سابقاً، فهي رواية لا دليل على صحتها، ومع ذلك ما زالت متداولة عبر مئات السنين تتوارثها الأجيال وتصدّقها، ذلك لأننا نحن البشر نبحث عن الإيمان في هذا العالم المليء بالألم والظلم، ورغم عدم معرفتنا بما تخبئه لنا الأقدار، وعدم رغبتنا في كثير من الأحيان بمعرفة الأمر، فنحن نعتقد جازمين بأنّ الله يخبئ لنا الأفضل دوماً.. ولأننا نفكر بهذه الطريقة فنحن نتناقل هذه الروايات بسذاجة تامة دون التحقّق من صدقيّتها. ونتوارث أقوالاً مثل "الابن الصادق أفضل من العروش التي تُمنح للسلاطين والملوك". فهذه المقولة طريقة لخداع أنفسنا ومواساتها، رغم أنّ معظمنا لا يُمنح العرش، وغالباً لا يُمنح الابن الصالح أيضاً. بل قد يمتد سوء الطالع إلى أكثر من ذلك، فمثلاً قد تختفي المرأة التي تحب لمدة واحدٍ وعشرين عاماً دون أن تحظى برؤيتها، وأخيراً حين تتاح لك فرصة رؤيتها تجدها جثةً هامدةً أمامك.

لكن السلطان مراد خان، وبعد أن رُزِق بابنه الثالث الأمير محمد احتضنه وأخذ ينظر إليه بإمعان، فيما نسيت الأم آلام الولادة وهي تراقب السلطان باعتزاز، فقد استطاعت منحه وريثاً للعرش. لقد كانت همّا خاتوم جارية، وهناك رواية أخرى يتناقلها الناس حول هذا الأمر، فبعضهم يرى أنّ والدة السلطان محمد هي آليمة همّا خاتون ابنة اسفنديار بيك، وهذا يعني أنها تركية الأصل والمنبت، وبعضهم الآخر قال إنها جارية، وهي خاتون ابنة عبد الله؛ واسم عبد الله بالذات كان يُطلق بشكلٍ عام على العبيد الذين يقومون بتغيير ديانتهم ويعتنقون الإسلام، جميع هذه التخمينات حول أصول المسكينة لا تستند إلى أي وثيقة تثبت حقيقة نسبها.. لأنّ الأمر لم يكن بهذه الأهمية حينها؛ فالنساء لم يكنّ معنيات بحمل أوراق تثبت هويتهن ونسبهن، والمثير أكثر أنّ قبرها لا يحمل اسماً على شاهدته، وهذا ما يدفع بعض الناس إلى الظن بأنّ السلطان العظيم كان يخاف من تأثير أصول والدته على مستقبله، لذا فقد حرص على بقاء نسبها واسمها بعيدين عن العامة.

هذا ما كان يخبرنا به الأستاذ طاهر وهو يمشّط لحيته التي تناثر الشيب فيها بأصابعه الطويلة وهو ينهي الحديث:

- من الأفضل عدم الخوض في هذه المواضيع، فالسلطنة العثمانية لم تكن دولة عرقٍ محدّدٍ، لذا دعْكم من هذه المسائل ولا تكشفوا عنها التراب.

وقد اتّبعت نصيحة الأستاذ، واكتفيت فقط بدراسة قانون قتل الأشقاء، ولم تكن لي نيّة في إثارة نقاش حول أصول والدة السلطان العظيم.

أهذا ما دفع السلطان مراد لتفضيل ابنه علاء الدين على الأمير محمد ودفعه لإبعاده عن العرش في تلك الفترة؟ فلو كانت همّا خاتون جارية بالفعل، لكان مولود الزوجة ذات الأصول التركية أكثر حظاً في استلام العرش. فوالدة الأمير علاء الدين، خديجة خاتون، كانت ابنة أحد البكوات التركمان. أهذا ما جعل السلطان مراد يتصرف ببرودٍ مع ابنه محمد، وبالتالي فتح باب المنافسة بين الشقيقين؟ خاصة بعد البطولة التي أبداها الأمير علاء الدين أثناء الحملة التي أعدها السلطان ضد إبراهيم بيك والي كرمان، فقد أظهر الأمير جرأةً وذكاءً منقطعي النظير في قيادة الحملة، وهذا ما جعل، ليس السلطان فحسب بل كل أب، يتمنى أن يرزقه الله بابنٍ كهذا، وجميع مصادر التاريخ تتحدث عن فضله في هزيمة والي كرمان.

لو أنّ السلطان محمد اشترك في تلك الحملة لأبدى جرأة وشجاعة مماثلين، ولكنه كان طفلاً في الحادية عشرة من العمر. ورغم ذلك لو طلب منه السلطان امتشاق السيف والانضمام إلى ساحة الوغى، لنفّذ الأمير محمد أوامر والده دون تردّدٍ بل بغبطةٍ غامرة. ولكن لا أحد كان يهتم به حينها..

حسناً، ماذا كانت ردة فعل الأمير محمد إزاء تفضيل الأمير علاء الدين عليه؟ ألم يشعر بالغيرة؟ وحتى لو لم يحصل ذلك، فإنّ الحاشية المحيطة به من خدمٍ ومربين وباشوات كانوا يزرعون بذور الغيرة في قلبه الصغير. "إنه لمن الظلم أن يفضّل مولانا السلطان الأمير علاء الدين عليك، فعلمك الموفور وذكاؤك وجرأتك.. كلها أمور تؤهلك لتولي العرش أكثر من سواك".. بالتأكيد كانت هذه الأقاويل تتردّد بين الحين والآخر على مسامع الأمير. ولا ننكر أنّ القصر كان منقسماً حينها إلى حزبين متنازعين؛ الأول بقيادة الصدر الأعظم تشاندرلي خليل باشا الذي يتحدّر من أصول تركية، والثاني بقيادة شهاب الدين باشا وزاغنوس باشا المتحدّرين من أصولٍ مختلطة، وقد نشبت حرب قاسية بين الطرفين. كما أنّ تولي الأمير محمد الذي كان مجرد مراهق حينها للسلطة، في الوقت الذي يعجز فيها الرجال عن حمل هذه المسؤولية، ومجريات الأحداث فيما بعد، أثّرت كثيراً على شخصيته، وزادت من

الهوة التي تفصل بين الأب وابنه.

لقد تم إرسال الأمير محمد إلى ولاية أماسيا، كما كانت العادة المتبعة في القصر مع جميع الأمراء، من أجل الحصول على الخبرة الكافية وتأهيلهم لتولي العرش فيما بعد.

أماسيا تلك المدينة الساحرة، والتي كانت من قبل تحت حكم أخيه أحمد جلبي، شهدت أعظم قصة حب يتداولها الناس؛ قصة شيرين وفرهاد الذي قام بهدم جبل برمته من أجل حبيبته، وأذكر أنني جلست مع نزهت عند سفح ذلك الجبل عندما زرنا المدينة.. وحينها نظرت إلى حبيبتي بدلالٍ وهي تقول:

- أتستطيع أن تفعل من أجلي ما فعله فرهاد لحبيبته وتهدّ جبلاً كهذا؟

ولأنني أخرق لا أمتّ إلى الرومانسية بصلةٍ، أجبتها بطريقة تتنافى مع منطق العشق:

- ولكن ما الداعي لأن أتجشّم كل هذا العناء؟ فالآلات الحديثة كفيلة بهدم الجبال بل وأشياء أعظم بكثير.

وكأنني لو قلت لها إني مستعد لهدم الجبال وردم البراكين وإيقاف الأعاصير وبناء عالم أجمل تستطيعين العيش فيه بسعادة، لاهتزّ عرش المنطق الذي أجلس عليه كأحمق!.. وبسبب غبائي تحديداً بقيت أنتظرها واحداً وعشرين عاماً، وهي مدة قد لا يغامر فرهاد نفسه لانتظار شيرين فيها. وفي النهاية كوفِئت بجثة هامدة لامرأة عجوز طُعنت بسكين فضية رميتها في قعر البحر.

حسناً، فلنعدْ إلى أماسيا تلك المدينة الجميلة التي استلم حكمها الأمير محمد حين كان لا يزال صغيراً، بعد أن توفي فيها أخوه الأكبر أحمد جلبي في العام ألف وأربعمئة وسبعة وثلاثين. ذلك الموت المفاجئ والذي فتح باباً آخر إلى طريق السلطة أمامه، وقد بقي موت أحمد جلبي لغزاً غامضاً، فقد يكون بسبب مرضٍ ما، ولا زال المؤرخون يضعون كثيراً من الاحتمالات لسبب موته. ولكن لم يكن الأمير محمد الوريث الوحيد للعرش، فقد كان هناك منافسه القوي وشقيقه الأكبر علاء الدين علي، إلا أنّ الظروف تغيّرت بطريقةٍ دراماتيكيةٍ ومفاجأة، وانقلبت الموازين؛ وذلك بعد أن قام السلطان مراد الثاني باستدعاء الأميرين؛ محمد من ولاية أماسيا وعلاء الدين من

ولاية مانيسا لإقامة حفل الختان لكليهما، وبعد الحفل أمر السلطان بتبادل الأميرين ولايتيهما، فتوجّه علاء الدين إلى أماسيا، فيما توجّه محمد إلى مانيسا، ولا أحد يعلم سبب التغيير المفاجئ. قد تكون رغبة السلطان في حماية ابنه الأكبر وإبعاده عن الطامعين، ولكن حتى هذا التدبير لم يمنعهم من قتل الأمير علاء الدين خلال هجوم على قصره. إذاً، لم يبقَ من وريثٍ لاستلام العرش سوى الأمير محمد. والمثير أنه لم يمضِ وقت طويل حتى مُنح هذه الفرصة، فالسلطان مراد ونتيجة التعب الذي أصابه من مكائد القصر والسلطة، ونتيجة حزنه لفقدانه ابنه المحبوب قرر الانزواء وابتعد عن القصر بكل ما فيه، ولم يتوانَ عن مواجهة وزيره الأقوى تشاندرلي خليل، وسلّم عرشه إلى ابنه محمد الذي لم يكن قد بلغ الثانية عشرة من عمره بعد.

استلم الأمير محمد الذي تنقل بين مانيسا وأماسيا هذه المسؤولية الكبيرة بكل جدارة، وكان يتمتع بقدرٍ كبيرٍ من العلم والكفاءة اللذين تلقاهما على يد الشيوخ والعلماء الذين أحاطوا به على الدوام.

وعندما سمع الأعداء بأن فتى صغيراً تولّى العرش قاموا باستغلال الفرصة، متوقّعين أنّ السلطان الأب قد أصابته لوثة من الجنون، واستسلم لنزواته بين أحضان الجواري ليترك سلطته لصغير، واعتبروا الوقت مناسباً للانقضاض على السلطنة العثمانية، رغم عدم مضي سوى أشهرٍ قليلةٍ على اتفاقية الصلح التي تم توقيعها بين الطرفين، وقاموا بتجهيز جيوشهم وتوجّهوا نحو أدرنة.. وهذه الحادثة المشؤومة كانت لتهز أركان الدولة العثمانية التي كان يحكمها سابع السلاطين العثمانيين السلطان محمد الثاني.. لذا قام الصدر الأعظم تشاندرلي خليل باستدعاء السلطان مراد الثاني لتفادي كارثةٍ على وشك الوقوع، وما كان من السلطان سوى الإذعان للواقع، رغم أنّ السلطان محمد الثاني أخبر وزيره تشاندرلي خليل بأنه قادر على قيادة الجيش وما من داعٍ لاستدعاء والده، ولكن السلطان الأب كان قد امتشق سيفه وامتطى جواده وعاد لقيادة جيشه ليتوجه نحو البلقان مجدّداً. وانتهت المعركة بمقتل ملك المجر وتقهقر جيوشه.. هذا النصر الذي عزّز مكانة السلطنة العثمانية لدى العالم الأوروبي، كان في الوقت نفسه سبباً لزعزعة مكانة السلطان الشاب وسلطته، وأصبح من الصعوبة الإمساك بزمام الأمور. ونتيجة مكائد تشاندرلي خليل عاد السلطان مراد الثاني ليتولى

العرش ويتجه محمد الثاني نحو مانيسا من جديد..

"هذا المدعو تشاندرلي قد ورّطنا في لعبة قذرة وكان السبب في إبعادنا عن القصر"..

لا بدّ أن هذه المقولة كانت تتردّد بكثرة على مسامع السلطان الشاب وقد أثرت بصورة بالغة على نفسيته، وقد تكون سببَ اتساع الهوة بين الابن وأبيه.. ولكن أهو سببٌ كافٍ ليقوم بقتل والده؟.. فلم يكن أمامه من سبيل لاستلام العرش من جديد سوى انتظار موت والده وهو انتظار قد يطول كثيراً. وما كان يثير مخاوفه أكثر هو شقيقه الأصغر أحمد الذي أنجبته امرأة تنحدر من أصول تركية والذي كان يكبر بشكلٍ سريع.. وماذا عن الخائن تشاندرلي؟.. ألا يمكن أن يقنع السلطان الأب بتهيئة الأمير أحمد ليكون وريث العرش.. لهذه الأسباب مجتمعة فكّر الأمير في التخلّص من والده بسرعة ودون تكبّد مخاطر الانتظار..

حسناً، لقد عدنا إلى قتل الأب وإلى مشروع نزهت.

"البروفيسورة والمؤرخة نزهت أوزجان استطاعت أن تتبوّأ مكانة مرموقة في الوسط العلمي، وأن تنال إعجاب جميع المؤرخين من خلال وجهة النظر الجديدة والجريئة التي طرحتها، والتي غيّرت كثيراً من المفاهيم حول دراسة التاريخ وفتحت آفاقاً جديدة أمامنا..".

صدقوني لا توجد أي آفاق أو تّرهات أخرى، فالسلطان محمد الثاني لم يقم بقتل والده الذي مات ميتة طبيعية وليس نتيجة كأس مسمومة قدمت إليه في ملاذه في تلك الجزيرة.. وهذه المرأة تبيعكم أوهاماً لا حقيقة لها سوى في ذهنها، ولا علاقة تربط بين الفاتح ودوستويفسكي، الذي ما من دليل على قيامه بقتل والده والذي لم يكن يستهوي السلطان الفاتح ليسير على خطاه.. فالسيدة نزهت لم تستطع أن تقدم حتى الآن دليلاً علمياً على صحة ادّعائها.. إنها مجرد روايات تشبه قصص الخيال، ولكن هذه الجريمة التي استنبطتها من مخيلتها التاريخية تسببت في حدوث جريمة على أرض الواقع..

فأنا مشتاق سرهزين قتلت حبيبتي التي انتظرتها واحداً وعشرين عاماً بواسطة سكين فتح الرسائل..

(8)

المجانين لا يُصابون بمزيدٍ من الجنون

عندما اقتربت من المنزل كانت العاصفة في ذهني على أشدها، فيما بدأت العاصفة الثلجية في الخارج تتوقّف. فقبل ساعة كانت الغيوم تثقل كاهل سماء هذه المدينة وتغطيها، والآن لا أثر لتلك الندف البيضاء المنهمرة. ولكن لم يحدث الأمر بشكل مفاجئ، فحينما صعدت إلى الباخرة في كادي كوي كانت علائم الانحسار تتّضح مع الوقت، ومع اقترابنا من الشاطئ الآخر كانت كثافة الثلج المنهمر تقل.. وحين وصلت إلى حينا الذي كانت ترتصف على جانبيه من قبل منازل جميلة بحدائق خضراء والتي حل محلها الآن أبنية موحّدة النسق، لم ألحظ تساقط أي ذرة ثلج. ومع توقف انهمار الثلج تحققّ توقّع السائق الثرثار حيث هبت رياح جليدية حوّلت طبقة الثلج إلى جليد يعتبر السير عليه في هذا الجو مخاطرة.

بالطبع لم أخاطر مرة أخرى لأستقل سيارة أجرة جديدة تقلني من محطة البواخر إلى المنزل، حتى لا أوجد شاهداً ثرثاراً آخر على جريمتي، واخترت المشي فيما الرياح الجليدية تهب بعناد يزيد من صعوبة مسيرتي. عندما وصلت إلى مدخل البناء نظرت إلى السماء من خلال أغصان شجرة الأكاسيا، فرأيت التماعة بعض النجوم التي كانت تكابد للظهور من بين كتل الغيوم التي كانت الرياح تبعد بعضها عن بعض، ولو بقيت الرياح تعمل بهذا النشاط لتمكنت من إظهار قبة السماء الكريستالية الجميلة. ولكنني لم أكن في حالة تخوّلني متابعة جمال الطبيعة، فقد كنت أتمنى الوصول إلى المنزل بأقصى سرعة ممكنة، والهرب من هذه الليلة الجليدية القاسية، من السيارات والأشجار والأبنية، من هذه المدينة برمتها، هذه الليلة التي بدأت أحداثها بعد ظهر اليوم حين تلقيت ذلك الهاتف المشؤوم، وبدأت مجرياتها تتصاعد بصورةِ كابوس لا أعرف إن كنت سأتمكّن من التخلّص منها.. أردت الاختباء في منزلي والابتعاد عن

كل ما جرى، لذا صعدت الدرجات بسرعة كبيرة حتى لا يلحظني أحد من الجيران، وما إن فتحت باب منزلي في الطابق الثاني حتى استقبلتني الرائحة المألوفة والدفء الذي كنت أبحث عنه، أغلقت الباب خلفي آملاً أن أترك كل الشرور خلفه.

"لا مكان في العالم أفضل من منزلك". كان الأستاذ يردّد هذه المقولة في الليالي التي كنا نقضيها في منزلي أو منزل نزهت ونحن نعمل حتى ساعاتٍ متأخرة.

– لا تذهب يا أستاذ، وأمكث هنا الليلة.

كنا نلحّ عليه، ولكنه يرفض عروضنا بأدب جمّ ويهز رأسه وهو يقول:

– لا أستطيع النوم خارج سريري، كما أنّ السيدة بيرين تنتظرني الآن.

حقًّا لا مكان أفضل من منزلك، على ألاّ تحضر معك مآسي الخارج وآلامك التي باتت تلتصق بجلدك كعلقة دامية تمتص روحك بقسوة بالغة.. عذاب الضمير ووساوسه.. أدركت حينها أن جدران منزلي لن تحميني من تلك المرأة التي لن تتركني بسلام.. أنا لا أتحدّث عن نزهت التي تركتني وسافرت إلى أميركا منذ سنوات طويلة، فقد بقيت هنا في هذا المنزل على الدوام.. بل عن تلك المرأة الأخرى التي فاجأتني بمكالمتها هذا المساء، واعترضت طريق حياتي بصورة لا متوقعة.. تلك العجوز التي كانت تشبه حبيبتي قليلاً، والتي استمدت زرقة عينيها من لون عيني نزهت، ولكنها لم تستطع أن تأخذ منها تلك النظرة التي كانت تذهب بعقلي كلما قابلتني عيناها الجميلتان، وربما لهذا السبب، لخيبة الأمل التي أصابتني حين لم أجد تلك النظرة في عينيها، غرزت تلك السكين دون رحمة في عنقها العجوز.

وضعت معطفي المبلّل على ظهر الأريكة، وبقيت مسمّراً في مكاني لدقائق وأنا أسترد تلك اللحظات المشؤومة، متخيلاً أنّ تلك المرأة تنتظرني بجثتها الباردة على أريكة غرفتي. تنتظرني بجثّتها الهامدة وتلك الدهشة العارمة ما زالت تتجلّى في عينيها الزجاجيتين بالبقعة الداكنة على عنقها والتي اصطبغت بها سترتها وأرضية الغرفة.

كان عليّ وضع حدّ لهذه الأفكار وطرد الوساوس قبل أن تقودني إلى الجنون، فحاولت تحريك أصابعي التي كانت متخشّبة من البرد، وقمت بتعليق المعطف على المشجب القريب مني، وخلعت الحذاء المبلل حيث كان جورباي أيضاً مبلّلين بالكامل، فتخلصت منهما على الفور. وقد كان الخف المنزلي المصنوع من القطيفة

والذي اهترأ قماشه تقريباً خير علاج لأصابعي المتجمدة، ولكن لا وقت لديّ للتفكير برفاهية كهذه، فقد حملت جوربيّ اللذين بلّلا أرضية الردهة وتوجّهت إلى الحمام.

اجتزت غرفة الجلوس بأقصى سرعة، وكانت المرة الأولى التي يقوم فيها ذهني بقياس المسافات بين غرف منزلي، وبدأت أقارنه بذلك المنزل الموحش في بناء ساهتيان الذي كان يشي بالبرودة والهجران وتفوح منه رائحة الموت، حيث عشّشت الحشرات فيه، ونسجت العناكب بيوتها في زواياه. لم يكن ذلك المنزل ليّقارن بمنزلي الذي حافظت طوال هذه السنين على نظافته وأثاثه، وهذا ما ولّد في نفسي شعوراً غريباً من الفخر بالملكية الصغيرة هذه.

منزلي؟.. على الفور انتابتني خيبة أمل شديدة وبدأت خطواتي بالتثاقل رغم البلل الذي أشعرني بالضيق وأنا أحمل جوربيّ، فأي فخر مسكين ذاك الذي أحسست به، في الوقت الذي لا يمكن فيه أن يصبح المنزل بيتاً حقيقياً دون وجود عائلة فيه، ليس بالضرورة أن يكونا زوجين، بل ربما شخصين اختارا العيش سويةً فيه، شخصين قرّرا تقاسم كل لحظات الحياة بين جدرانه الدافئة. ولا أتحدث بالضرورة عن حبيبة بل قد تكون أماً تغمرك بحنانها وتضفي نظراتها الودودة إشراقة إلى صباحك في كل يوم جديد، أو أباً ترى نفسك في قسمات وجهه وفي تفاصيل جسده. والأفضل من ذلك هو طفلٌ من صلبك تبادله الحب والحنان ويكون الرابط الذي يبعث فيك الأمل لتحيا هذه الحياة.

ولكن في حال غياب هؤلاء الأشخاص عن حياتك لا قيمة لمنزل نظيف مرتب أنيق الأثاث، لا قيمة للأشياء دون حياة. لذا لا أجد فرقاً كبيراً بين منزلي الحزين هذا ومنزل نزهت البارد الذي تركته منذ قليل، والفرق الوحيد هو وجود تلك الجثة الهامدة، في منزل عشت فيه أجمل لحظات حياتي، حيث الروائح والهمسات الحميمة والذكريات التي مضت ولن تعود أبداً.

كان الحمام أكثر ما حرّك شجوني، فرائحة البنفسج – التي تخترق الجدران والمرايا والمناشف وروحي – أعادتني من جديد إلى هول الكارثة التي ألمّت بي. تلك الرائحة التي تمكنت من إخراج سيدة صبورة عن طورها، إنها رائحة عطرة يا سيد مشتاق ولكنها باتت تشعرني بالغثيان، فمسحوق الغسيل والشامبو وسائل الجلي

وحتى المراهم الجلدية.. الأرض والسماء وحتى أحشاؤنا تفوح برائحة البنفسج، أرجوك فلنبدّل هذه الرائحة ولو لفترة قصيرة.

ولكنني رفضت بحزم، فأنا غير قادر على تنشّق عبير آخر، ولا أريد لتلك اللحظات الجميلة أن تغيب عن ذاكرتي، إنها ليست مجرد رائحة، بل هي جزء من روحها التي تتجوّل معي في أرجاء المنزل الذي لم تغادره ولو للحظة واحدة. لذا بقيت مصراً على استنشاق العبير ذاته طوال كل تلك السنوات.

كانت القطرات التي تتساقط من يدي تشكل بقعة داكنة على أرض الحمام، وهذا ما جعلني أشعر بالقلق، وبدأت نظراتي تنتقل بين يدي والأرض بتواتر، وكان عليّ أن أبدأ بتنظيف هذه الأوساخ وإزالتها من أمام ناظري. توجهت نحو أحد الأدراج وأخرجت لوحاً من صابون حاج شاكر برائحته المعتادة، وأنا أشعر بأن نهاية العالم قد تحل لو بقي هذا الوسخ ماثلاً أمامي، فبدأت برفع كميّ قميصي، ثم فتحت صنبور المياه الدافئة، وعلى الفور أخذت قطرات رمادية اللون تنز من الجوربين على حوض المغسلة. واصلت الدّعك بإصرار شديد وبعدها غسلت آثار الصابون عنهما، وأخذت المياه المناسبة منهما تتغير شيئاً فشيئاً لتصبح مياهاً صافية أفرحني منظرها، ثم عصرتهما بقوة ونشرتهما على الشوفاج بعناية شديدة، واستدرت لغسل يدي وأنا أنظر إلى وجهي في المرآة الجديدة التي استبدلتها منذ فترة بتلك المرآة القديمة المهترئة. كان البخار المتصاعد من مياه الصنبور الدافئة يشكّل طبقة من البخار الرقيق على سطح المرآة. وحينها رأيت وجهه، كان رجلاً شمرّ عن ساعديه وهو يرمقني بنظرات نارية.

- ما الذي تفعله يا مشتاق؟.. أتعتقد أن غسل الجورب سيحل مشكلتك؟

أصابني هلع مماثل لذاك الذي كنت أشعر به عندما ينهرني والدي:

- ماذا تفعل؟

سألني بصوت أكثر حدّة هذه المرة، وقد بدأت أرتعد.

- لا ترتعد، لا فائدة من الخوف الآن، فقد فات الوقت على ذلك بعد أن قتلت حبيبتك نزهت.

- لا لم أقتلها.



- المرأة التي منحتها كل سنوات عمرك، سلطانة روحك وقلبك، قتلتها بكل قسوة. وإن شئت الصدق فقد استحقّت هذا المصير، لذا عليك تقبل الحقيقة، وكفّ عن التذرّع بأنها لم تكن نزهت بل عجوز لا تشبه معشوقتك الجميلة. لا تحاول خداع نفسك بهذه التبريرات، فالمرأة التي أحببتها لم تعد شابة تماماً مثلك أنت. انظر إلى نفسك جيداً.. تمعّن في قسمات وجهك المتغضّن وجسدك المترهّل وكتفيك المتهدّلتين.. انظر كيف تبدو عجوزاً هرماً وأنت لم تتجاوز الستين سوى منذ بضع سنوات. حتى أنّ الأستاذ طاهر بسنواته الثمانين يبدو أصغر منك، ولا أعني فقط الشكل وحده بل شباب الروح أيضاً.. ومن الواضح أنّ نزهت قد هرمت بالسرعة نفسها، لذا عليك الاعتراف بأنك قتلتها، تماماً كاعترافك بأنها لم تعد تحبك، ولهذا السبب بالذات قمت بقتلها. هذه هي الحقيقة التي عليك مواجهتها لأن الوقت ليس لصالحك.

بدأ بريق الغضب الذي ينضح من عينيّ رجل المرآة يشع أكثر فأكثر ليغطي كامل وجهه، وبعد لحظات قصيرة حدث ما يشبه المعجزة فقد عاد وجهه شابًّا واختفت عنه آثار السنين.

- هكذا - قالها بثقة بالغة - تماماً مثلي، انظر جيداً وتمعّن في وجهي، وكن جريئاً، فقد آن لك أنّ تتحمل مسؤولياتك ووزر أعمالك دون كثير من المبرّرات والذرائع التي لن تفيدك. وكونك لا تتذكّر ما الذي حدث في تلك الساعات المظلمة، لا يغيّر من حقيقة ارتكابك للجريمة. أريد أن أوضح لك شيئاً مهماً، فلا فائدة من ابتهالاتك الجبانة طوال الوقت وأنت تردّد بكل غباء: يا إلهي ما الذي قمت به؟ يا إلهي ما الذي فعلته؟ فلست طفلاً لتستجدي أمك. عليك الجلوس بهدوء والتفكير بعمق حول ما يتوجّب عليك فعله دون الاستسلام للضعف.

أحسست بأنّ كتفيّ المتهدلتان استقامتا فجأة، وتوقفت الرعشة التي كانت تعصف بي، وأخذت نَفَساً عميقاً. فمن الواضح أنني كنت بحاجة إلى جرعة من الثقة بالنفس، وما إن شعرت ببعض التحسّن حتى فتحت صنبور المياه وبدأت بغسل وجهي بدفقات

من المياه الباردة التي تملأ كفي، فشعرت بالانتعاش يغمرني، ولاحظت أنّ وجه رجل المرآة الذي يواجهني قد انتعش أيضاً، وبدأ يهز رأسه مع هزّات رأسي. حينها تأكدت أنه جزء من كياني، وصورتي التي أحاول أن أخفيها عبثاً، وكما قال كوجا يونس: "هناك في داخلي أقبع أنا ونفسي" وكانت نفسي هي التي تراقبني وتحدثني وتعبّر عما يعتمل في داخلي على صفحة المرآة.

بعد أن غسلت وجهي لاحظت أنّ قطرات المياه التي كانت تتساقط من يدي على أرضية الحمام شكلت بقعة تحت قدمي تماماً، فأخذت المنشفة وأنا أضغط بها على وجهي ليلامس نسيجها الناعم بشرتي وأنا أتنشق الرائحة عميقاً عميقاً حدّ الثمالة مغمّض العينين لتغوص كل حواسي في هذه الرائحة. ولكن لم تتجسّد في مخيلتي صورة نزهت ولا المرأة العجوز المقتولة. حينها أدركت بأنني أسترد صفاء ذهني.

في تلك اللحظات، بدأت أسمع صوت جرس متواصل يرن بإلحاح. لم يكن الهاتف النقّال هذه المرة، بل الباب. عاد الخوف ليسيطر عليّ مرة أخرى، وأخذت الرعشة تعصف بي من جديد كأمواج بحر غاضب تتوالى بقسوة شديدة تزداد مع توالي رنين الجرس المتواصل بصخب في أذني. فبدأت أحس بالدوار ينتابني، وانسدلت أمامي ستارة من السواد الكالح لتحجب عني الرؤية. لكن الشخص الذي على الباب لم يكن يبالي، على ما يبدو، بما ألمّ بي وهو يواصل الضغط على الجرس وكأنه متأكد من وجودي في المنزل، فتلفت حولي حائراً لا أدري ما أفعله. تبادر إلى ذهني حينها خاطر غريب ومخيف، أيعقل أن يكون سعاد شقيق نزهت؟ كيف سأوضح له الأمر؟.. وكيف لي أن أبرر بشاعة الجرم الذي ارتكبته؟ تذكّرت حينها نظراته الغاضبة التي واجهنا بها حين ظنّ بأنني كنت أقبّل شقيقته في المصعد. زادت هذه الذكرى من مخاوفي ومن الدوار، فتمسّكت بحوض المغسلة كي لا أقع أرضاً فيما واصل الجرس رنينه. وعندما رفعت رأسي مرة أخرى رأيت مجنون المرآة يرمقني بنظرات قاسية يتخلّلها شيء من السخرية وكأنه يستمتع بعذاباتي. فشعرت بحنق شديد ورغبة في الشجار معه، لكن ستارة النافذة البنية اللون أعادتني إلى الواقع، واكتشفت أنني لست في منزل نزهت، وبالتالي فمن يقرع الجرس بهذا التواتر بالتأكيد ليس شقيقها الغاضب. وهذا ما ساعدني على استعادة بعض الشجاعة. لا بدّ أنني بدأت أصاب

بالجنون.

"لكن المجانين لا يصابون بمزيدٍ من الجنون".

قالها رجل المرآة وقد اتسعت ابتسامته الهازئة. لكنني لم أكن أملك الوقت للشجار، فتوجّهت نحو الباب على الفور.

كانت نظرات شازية القلقة من خلف نظارتها ذات الإطار الأزرق هي أول ما واجهني.

- أين كنت طوال هذا الوقت؟

حاولت إخفاء كل ذلك الرعب والخوف والجنون، والاختباء خلف قناع مزيف من الهدوء، وبادرتها بالقول وأنا أجاهد وضع ابتسامة على فمي:

- كنت في الحمام ولم أسمع صوت الباب، أعتذر عن ذلك.

حينها لاحظت الصحن الذي تحمله بيدها وهي ترمقني بتمعّن وكأنها اكتشفت ما يعتمل داخلي، فسألتها وأنا أحاول تشتيت انتباهها:

- ما هذا؟

كان السائل الأبيض اللون الذي يماثل بياض الثلج في الخارج يرتعش بخفة متوافقة مع ارتعاش يديها. وعندما طال صمتها بادرتُ بالإجابة عن سؤالي:

- محلبيّة الماء؟

أعترف بأنّ ما من أحد في هذا الحي يستطيع إعداد هذه المحلبيّة أفضل منها بعد وفاة جدتي. أجل هذا الحي الذي كان فيما مضى يزينه قصر شوقي باشا الذي كنا نسكنه جميعاً والذي توارثناه عن العائلة واقتسمناه فيما بيننا لاحقاً.. ولكن هذا البناء الإسمنتي بشكله المستطيل العابس لا يمت بصلة إلى ذلك القصر الجميل الذي كان عليه من قبل، ولا يحمل أي طابع خاص به يميزه عن بقية الأبنية المجاورة.

فقد كان أكبر خطأ ارتكبته في حياتي عندما وافقت على تسليم ذلك القصر الذي ورثناه من جدنا والذي تفوح كل زاوية فيه بعبير ذكريات أجيال بأكملها، إلى جرافات أحد متعهدي البناء. بالطبع فقد كانت لدينا أسبابنا المنطقية حينها، فالقصر كان يتداعى ببطء، وكان ترميمه والاعتناء به يكلفان مبالغ لا قدرة لنا على دفعها، وبمرور الوقت كنا نبيع مساحات من حديقته الواسعة وفي النهاية عندما أدركت شازية

التي طلقها زوجها ولم تحصل منه على ليرة واحدة بأنّ راتبها وراتبي المتواضعين غيرْ كافيين لتحمل نفقات القصر ومعيشتنا اليومية، قررنا الموافقة على العرض الذي قدّمه لنا المتعهد. ولن أخفي عليكم بأن عرضه تقديم شقتين واسعتين لكلّ منا كان مغرياً إلى الحد الذي جعلني أوافق دون مزيدٍ من التردّد والوقوف على الأطلال.

- هل أنت بخير يا مشتاق؟ - قالتها وهي ترمقني بنظراتها الكاشفة لأغوار النفوس، لتعيدني من رحلة الذكريات العائلية تلك إلى أمام باب منزلي وهي ما زالت تحمل الصحن بيدها - تبدو غريباً بعض الشيء.

كانت ترمقني طوال الوقت بقلق شديد وهي تحاول معرفة سبب ما ألمّ بي.

- ما الذي دعاكِ إلى اعتقاد كهذا؟ - حاولت التهرب من نظراتها وأنا أتكلم - أنا بخير كما ترين.

لكنها لم تقتنع على ما يبدو، لذا واصلت التحديق إليّ بإصرار شديد وهي تراقب أدنى حركة تصدر مني، ولا أدري ما الذي دفعني لاستحضار تلك الذكرى القديمة والمحرجة وأنا أقف تحت ثقل نظراتها.

كنا نجلس أنا وشازية تحت ظلال شجرة المانوليا الضخمة في حديقة القصر، وأذكر أنّ أوراق الشجرة كانت تغطي سطح بركة المياه، ودون تخطيط مسبق قمت بتقبيلها. وأذكر حينها الخجل الكبير الذي انتابني، ولا أدري حقاً إن كانت والدتي قد شهدت الحادثة لتغرقني بعدها في وابل من النصائح والتوبيخات.

- شازية هي أختك، والأخوة لا يقومون بفعل ذلك..

أم أنها إحدى ألاعيب ذاكرتي المتخبّطة ومبرر جديد من ذهني المحكوم بعقدة الذنب تجاه كل ما ارتكبته وما لم أقم بارتكابه. ولكن ما أنا متأكد منه هو أنني قبّلتها تحت ظلال تلك الشجرة، ولم تعترض على الأمر مطلقاً. هل تتذكّر هي أيضاً هذه الحادثة؟

- لماذا تبتسم؟ - سألتني بود وهي ترمقني - ما الذي تذكّرته؟

يبدو أن خجل تلك اللحظات قد انتقل ليصبغ وجهي بحمرة خفيفة ويزيد من حيرتي وأنا أبحث عن جواب مناسب. "لا شيء" لو قلتها لما صدقتني. "لقد تذكرت تلك القبلة التي تبادلناها عندما كنا صغاراً، وإن شئت الصدق فقد زرت أحلامي أكثر

من مرة أثناء مراهقتي ولكنني بالطبع لن أجرؤ على إخبارك بما كنا نفعله.." وهذا الجواب أيضاً ليس المناسب. لذا فقد أسعفتني جدتي لتخرجني من هذا المأزق.

- تذكّرت جدتي التي كانت تعدّ لنا هذه المحلبيّة في أيام الشتاء القارسة فقد كانت تعتبرها وسيلة ناجعة لتدفئة أحشائنا. لقد أعدتها في ليلة رأس السنة.

اختفى القلق الذي كان في عينيها، وارتسمت ابتسامة محبّبة على شفتيها اللتين حاولت إزالة آثار السنين عنهما بواسطة البوتوكس، وقد صبغتهما بحمرة باهتة اللون.

- حدث الأمر منذ أكثر من أربعين سنة- نظرت إليّ بدهشة يخالطها الإعجاب وهي تكمل - كيف لذاكرتك الحفاظ على هذه اللحظات القديمة واستحضارها في كل مناسبة؟

إنها محقّة في دهشتها، فبالنسبة إلى شخص يعجز عن تذكر ما قام به منذ ساعات قليلة، من الغريب أن يتذكّر أموراً قد مضى عليها كل هذا الزمن. يبدو أن الخيبة التي غيرت ملامح وجهي كانت واضحة، لذا بادرت لتدارك الأمر.

- أنا أيضاً كنت معك حينها ولكنني أعجز عن... - ولكنها عندما نظرت إلى قدمي مصادفة غيّرت الحديث برمته وهي تسأل- لِمَ قدماك مبللتان ولا ترتدي جوربيك؟ ألا تشعر بالبرد؟

- لا أنا بخير. فعندما كنتِ ترنين الجرس كنت أقوم بخلع جوربي المبلّلين حيث إنني وصلت منذ قليل، فقد كنت أشعر برغبة في السير تحت الثلج وقد تبلّل حذائي جراء ذلك.

- الآن فهمت. فقد كنت قلقة وأنا أتساءل عن سبب اختفائك في هذا الجو البارد. فهذه هي المرة الثالثة التي أنزل فيها لأدق بابك. ولو لم تفتح الباب هذه المرة لكنت استعملت المفاتيح التي لديّ ودخلت للاطمئنان عليك.

أخذت صحن المحلبيّة من يدها وأنا أقول:

- أعتذر لأنني أتعبتك.. وشكراً جزيلاً على المحلبيّة.

لو لم أثرثر أمامها كأحمق عن خروجي ورغبتي الغبية والغريبة في السير تحت الثلج في جوٍّ كهذا، لكنت قد تخلّصت منها ببساطة وأنا أغلق باب الشقة بعد توديعها. ولكنني نجحت في إثارة كل مخاوفها وشكوكها.

- لم آتِ من أجل المحلبيّة فقط، بل لأنك اتصلت بي بعد الظهيرة.

أنا اتصلتِ بها؟! لا أذكر أنني فعلت ذلك، ولكنني لست متأكداً مما قمت به اليوم بعد تلك المكالمة المشؤومة.

- كانت الساعة الرابعة تقريباً.

ربما اتصلت بها لأن عقلي الباطن قد قرّر قتل نزهت، وكنت أبحث بطريقة لاواعية عمن يمنعني من ارتكاب هذه الجريمة، ولكن كل ما يتعلق بتلك الساعات مُحي بشكل كامل عن ذاكرتي.

- كان لديّ مرضى لذا أقفلت جرس الجوّال، ولم ألحظ الأمر سوى في طريق العودة إلى المنزل، وقد أثار الأمر استغرابي فليس من عادتك الاتصال بي على الجوال، فقد تمر شهور طويلة دون أن تتصل. أياً يكن الأمر أخبرني ما سبب اتصالك فقد أقلقتني.

كيف سأخبرك عن السبب وأنا لا أذكره بعد أن زارني شرودي النفسي اللعين ودفعني لارتكاب جريمة قتل؟ قتلت نزهت أو بالأحرى تلك العجوز التي حلت محلها واتصلت بي بعد واحد وعشرين عاماً.

- مشتاق! مشتاق هل أنت بخير؟

حاولت تمالك نفسي:

- أنا بخير، بخير. ولكنني أشعر بدوار شديد، لعل السبب هو جلوسي أمام المدفأة حال عودتي من الخارج وهذا التقلب في درجات الحرارة قد أثر عليّ. كما أنني لا أذكر اتصالي بك، قد أكون ضغطت على اسمك دون قصد وأنا أحاول الاتصال بأحدٍ آخر.

وهنا أدركت فداحة الخطأ الذي قمت بارتكابه فيما كانت الكلمات تنساب من فمي. فغداً عندما تعلم بقتل نزهت ستدرك الرابط بين كل هذه الأحداث الغريبة وستعرف الحقيقة.

ولكن أحقاً ستفعل ذلك، فهي مشغولة على الدوام ولا وقت لديها لتفكّر وتحلّل تصرفاتي وغرابة أطواري التي اعتادت عليها. ولكنني، ولسوء حظي، عدا عن كوني أحد آخر أقربائها الذين بقوا على قيد الحياة؛ فأنا أحد مرضاها أيضاً وهي من شخّصت

مرضي اللعين، وهذا ما قد يدفعها للاهتمام بالأمر. ولأكون منصفاً أكثر فأنا الشخص الذي تهتم به في حياتها بعد قطتها السيامية والتي أطلقت عليها اسم كليوباترا.

- تعرّضتَ لنوبة جديدة أليس كذلك؟

أطلقت سهام شكوكها من دون مواربة، ولكنها لم تكن متأكدة من إصابتها الهدف. فهي لا تملك أي دليل سوى اتصالي اللامتوقّع بها، ولكنها ستتأكد بعد حين. أعليّ إخبارها بالحقيقة من دون مواربة؟

"أجل عزيزتي كنت أود التحدث معك حول الجريمة التي ارتكبتها قبل بضع ساعات".

بالطبع، فإن أول ما ستفعله هو التوجّه نحو أقرب مركز للشرطة. أحقاً ستفعل بي ذلك؟ كنت أتساءل وأنا أحاول تفسير تلك النظرات القلقة التي بدأت ترمقني بها علّني أعرف مصيري المرتقب، ولكن لا طائل من ذلك.

ربما لن تذهب إلى الشرطة؟ ربما تلك القبلة البريئة تحت شجرة المانوليا تشفع لي وقد تكون بانتظاري طوال هذه السنوات كما كنت بانتظار نزهت. أدركت حينها أنني أهذي، فشازية لا تنظر إليّ سوى كابن خالتها؟ "إنها مثل أختك". وإن لم تبلّغ الشرطة فسيكون السبب حمايتي وليس لأنها مغرمة بي.

- ألا تسمعني يا مشتاق؟.. لقد حصل معك أمر غريب بعد ظهيرة اليوم أليس كذلك؟

قطعت سير هذياني وأنا أحاول التركيز قدر الإمكان على ابنة خالتي التي تحاول سبر أغوار نفسي.

- لا. - استجمعت بقية القوة التي ما زالت تمكنني من الوقوف في مواجهتها - فقد أخبرتك بأنني بخير ولم يحصل لي شيء. ربما أخطأت في الضغط على الرقم لا أكثر.

من الواضح أنها لم تصدق أي كلمة تفوّهتُ بها، ومع ذلك لم تطرح مزيداً من الأسئلة.

- حسناً.. ضعْ جورباً في رجليك حتى لا تمرض.

وعلى الرغم من كل شكوكها ونظراتها القلقة، لم تتخلَّ عن خوفها عليّ "شازية

فتاة لطيفة طيبة القلب، ليتني أنجبت ابنة مثلها". هذا ما كانت تردّد والدتي على الدوام، لذا فإن بادرتها اللطيفة هذه قد تركت في نفسي أثراً جميلاً، وشعرت لأول مرة منذ ساعات ببعض الراحة، فهي الوحيدة التي تهتم بشأني في هذه الليلة المظلمة الدامية، بل في كل هذا الكون المترامي الأطراف الذي لا يوجد فيه من يكنّ لي بعض المحبة سواها، لذا كان من الجحود ألا أبادل عطفها بالمثل فعرضت عليها الدخول.

- تفضّلي بالدخول، وسأعد إبريقاً من الشاي.

حاولت أن أبدو ودوداً قدر الإمكان.

فلاحظت عتباً خفيفاً مرّ بسرعة في عينيها كبريق عابر، ولكنني أدركت على الفور ما الذي يعنيه.

- أتذكر ما الذي أخبرتك به يا مشتاق؟ لا تقم بشيء لست مضطراً على القيام به، فنحن واقفان على الباب منذ برهة لا بأس بها ولم تدعُني للدخول وأنصحك بألاّ تدعو أحداً إلى منزلك مجاملةً. لا ترتكب هذا الخطأ بحق نفسك وبحق الشخص الذي تقوم بدعوته.

(9)

فرمان الفاتح وإباحة قتل الأشقاء

كانت شازية محقة فيما تقوله، فأنا محترف في ارتكاب الأخطاء بحق نفسي، ولا أظن السبب يعود إلى غبائي وحده بل يبدو أنني أستلذّ بذلك، وإلا فما سبب كل هذه المعاناة التي أتعمّد إغراق نفسي فيها؟ وبالمقابل لا أمتلك القدرة على إيذاء الآخرين حتى لو رغبت في ذلك، ولكن علينا استثناء الجريمة التي حصلت في مبنى ساهتيان.

كنت لا أزال أحمل صحن المحلبيّة وهو يرتعش على وقع أفكاري، فيما تمرّ بذهني صور متلاحقة لما جرى وما سيكون عليه مصيري لو زُجّ بي في السجن. فقد اقترفت جريمة حقيقية لا يمكن لبضع كلمات لطيفة كالتي سقتها للتو لابنة خالتي لتسامحني على إساءتي أن تغيرها، فكل كلام العالم لن يمسح هذه الإساءة التي اقترفتها بحق التي كانت حبيبتي. كانت؟! أيمكن اعتبار تعلّقي بها شيئاً من الماضي؟! كيف ذلك وقد ظلت تلازم عقلي وكياني وروحي حتى لحظة ذلك الاتصال المشؤوم، وحتى مجرد اتصالها بي أودى بي في هاوية النسيان المظلم. يا إلهي لقد عدتُ إلى المتاهة ذاتها، وعادت الأفكار المسمومة لتنخر روحي المتهالكة مرة أخرى، فنهضت مذعوراً عن الأريكة في محاولة لإبعادها، واتّجهت نحو المطبخ لأضع الصحن في الثلاجة، وأنا أصمّ أذني عن همسات نزهت التي تلاحقني في كل خطوة. ولكن رائحة الطعام المنبعث من الثلاجة جعلتني أزداد سوءاً وأشعر بالغثيان ليعود إليّ الدوار. قد يعود السبب إلى الجوع فأنا لم أتناول أي طعام منذ الغداء، ومع ذلك لا رغبة لي في الأكل نهائياً. "على الأقل اشرب كأساً من الماء" تلفّت حولي باحثاً عن صاحبة الصوت، أهي أمي أم نزهت أم شازية؟ ولكني لم أجد أحداً في مطبخي الذي تحرص السيدة كديفة على إبقائه نظيفاً على الدوام. أغلقت الباب وأنا أتوجّه إلى غرفة النوم، ووضعت جورباً سميكاً في رجليّ علّه يبعد البرد عني، ولكن ما الذي سيبعد هذه

الأفكار عني؟ أي شيء سيقنعها بتركي وشأني ولو للحظات قليلة؟ فلتأخذْ استراحة محارب ولتضعْ سيفها جانباً حتى يتسنّى لي التنفس براحة، ولكن لا فائدة.

"لِمَ لا تعترف بجريمتك؟ فحتى شازية اعترفت بأنك من قام بارتكابها..." لا بدّ أنّ هذه الأسئلة ستنهال عليّ في إحدى غرف التحقيق وأنا تحت التعذيب.

كنت أحاول الهرب بأي ثمن من هذه الصور والأفكار الرهيبة التي يختلقها ذهني المستمتع بعذاباتي، وبدا وكأنه وحش كشف عن براثنه وهو يفتك بي بتلذّذ.. ولكن بادرة أمل ضئيل كانت تلوح في بحر هذا النفق، فقد تتم مراعاة وضعي النفسي الخاص، خاصة أنني قمت بارتكاب الجريمة دون أن أكون في كامل وعيي وبالتالي ستخفّف العقوبة.

"أنا أتكلم الآن بصفة طبيبة نفسية، فمشتاق قد تعرّض لهذه النوبات أكثر من مرة حيث يفقد القدرة على تذكر ما يحدث ويقوم بأفعال لا يقوم بها عادة وهو في كامل وعيه، وبالتالي فارتكابه للجريمة...".

صحيح فأنا لم أخطّط لارتكابها، ولا أذكر أي تفصيل حول ما جرى في منزل نزهت، ولكن أيعقل أن يركن القاضي إلى شهادة شازية وهي ابنة خالتي؟ وماذا لو لم أكن أنا من ارتكب الجريمة؟ ماذا لو تبين أنّ السكين التي رميتها في عرض البحر هي السكين ذاتها التي أهديتها يوماً ما إلى نزهت وليست سكيني؟.. ربما أحضرتها معها من أميركا، وربما بقيت في منزلها القديم طوال هذه السنوات، وهذا يعني أنّ سكيني يجب أن تكون في مكتبي. لحقت بهذا الأمل وتوجّهت نحو غرفة المكتب، وأشعلت الضوء، وبدأت في البحث عنها. ولكنني لم أتمكن من العثور عليها. فقد كنت أخدع نفسي، فأنا من قام بقتل نزهت بواسطة تلك السكين الملعونة التي كانت تقبع أمام ناظري على الطاولة كل هذه السنوات. حينها عاد الدوار مجدّداً، فحاولت التنفّس بعمق قدر المستطاع، وأنا أفكر بأنّ كل محاولاتي ما هي إلا لتجنّب اعترافي بالجريمة التي اقترفتها يداي في ساعات الظلام تلك. حسناً، ما الذي كنت أفكر فيه في تلك الساعات وما الذي كنت أفعله؟ قد لا أتمكّن من الوصول إلى معرفة ما كنت أفكر فيه، ولكنني متأكد تماماً مما كنت أفعله، فقد كنت مشغولاً بقتل حبيبتي بطريقة وحشية. لا لا، فلنتركْ جانباً تلك اللحظات، ولنفكرْ في ما قبل ذلك، حين كنت في

المنزل وقبل أن أتلقّى ذلك الاتصال حين كنت أنعم بالسكينة؛ قد لا تكون سكينة بقدر ما هي الاعتياد على حياة خاوية بانتظار أمل لن يتحقّق. ولكنني الآن فقط أجرؤ على التساؤل عن الهدف من كل ذلك الانتظار.

حسناً، فلأعدْ إلى ما قبل الاتصال حين كنت أجلس هنا وأقرأ أحد الكتب، لذا جلست إلى الطاولة مرة أخرى في محاولة لاستعادة ما حصل، وبدأت أفحص الأشياء الموضوعة أمامي بدقّة شديدة. كانت لوحة مفاتيح الكمبيوتر في متناول يدي وقد غُطّيت بغلاف بلاستيكي شفاف، فالسيدة كديفة التي تعلم مدى هوسي بالنظافة تحرص على عدم تراكم الغبار على أي غرض أو زاوية في المنزل، وقد اخترعت هذه الطريقة لتمنع الغبار من الوصول إلى لوحة المفاتيح. وبالقرب منها كانت رواية تولستوي (سوناتا لكروتزر) والتي كانت من مطبوعات دار نشر الوجود، وهي رواية صغيرة مقارنة مع بقية أعمال الكاتب. يبدو أنني عندما تلقيت الاتصال، وضعت الكتاب بشكل مقلوب على سطح المكتب، وتركته على حاله، ولم أعد له بسبب خروجي من المنزل، فحملت الكتاب لأرى الصفحة التي وصلت إليها، وكان عليّ وضع نظارتي الخاصة بالقراءة لأتمكن من رؤية الكلمات.

"حينها أبقيت الخنجر قريباً مني وأنا أحيط عنقها بكلتا يديّ، كانت مستلقية على ظهرها حين بدأت بخنقها. لقد كان عنقاً قاسياً جداً، وبدأت تقاوم وهي تحاول إبعاد يدي عن عنقها بالبقية الباقية من قوتها، وكأنني كنت أنتظر هذه اللحظة بالذات فقد أبقيت يدي اليسرى على عنقها وبيدي اليمنى حملت الخنجر لأغرزه بكل ما أوتيت من قوة في الجانب الأيسر من صدرها لتخترق أضلعها حتى أبعد نقطة".

أجل، كنت أقرأ وصف بوزدينشيف لجريمة قتل زوجته عندما اتصلت بي نزهت، يا إلهي فهذا دليل على ارتكابي الجريمة. لا بدّ أنّ هذه الكلمات ظلت محفورة في عقلي الباطن عند توجهي إلى منزلها، وحينها لاحظت هلعاً أنّ الرواية أيضاً كانت دليل إدانة ضدي فيما لو جاءت الشرطة للتفتيش. ولكن لِمَ ستأتي؟ حسناً، ربما لكوني آخر شخص اتصلت به الضحية، ولكن لحظة؛ فلست آخر من اتصلت به، فهناك الأستاذ طاهر والذي اتصلت به نزهت بعد الظهيرة وأخبرته بأنني قبلت دعوتها على العشاء. ومع ذلك أنا متأكد بأن الشرطة سترغب في التحدث معي، ولا أظنه

سيكون حديثاً ودياً بل سيكون نوعاً من الاستجواب والتحقيق.

"لقد قامت الضحية بدعوتك إلى العشاء في منزلها، ولكن لم تذهب فما هي الأسباب؟".

شعرت بخوف شديد، وكأن هناك بالفعل من يحقق معي، لذا أخذت الكتاب على الفور وأعدته إلى مكتبتي المصنوعة من خشب الجوز القاتم اللون، لأضعه بالقرب من بقية كتب تولستوي، وهي الحرب والسلم، آنا كارنينا.. وقد وضعته بين الروايتين السميكتين عامداً ليضيع بينهما وتصبح إمكانية ملاحظته شبه مستحيلة.

عدت إلى طاولة المكتب وقد لفت انتباهي مجموعة الكتب التي وضعت على الطاولة والتي أستند إليها في إعداد المحاضرات التي ألقيها في الجامعة، وعلى الأخص كتاب الأستاذ خليل إينالجك (العصر الكلاسيكي للسلطنة العثمانية) والذي كنت أعتمد عليه مراراً وتكراراً كواحد من أهم المراجع التاريخية عن العصر العثماني، وأخذت دفتر ملاحظاتي الموضوع فوقه، وبدأت أدقّق فيه صفحة تلو الأخرى. كان دفتري كما هو متوقّع خالياً من أي نقطة أو خربشة، وكان منظّماً بشكل صارم، وقد وصلت إلى الصفحة الأخيرة دون أن أجد أي دليل ينير ظلمة تلك الساعات المجهولة. لذا حاولت التركيز على ما قبل وما بعد تلك الساعات، وتذكّر جميع التفاصيل التي حصلت حينها، علّني أستطيع الوصول إلى بصيص من النور يبعد عني هذا الاتهام الفظيع. أخذت قلم الرصاص من علبة الأقلام الموجودة بجانب الكمبيوتر وبدأت بتدوين الملاحظات على دفتري، ففي قرابة الساعة الثالثة تلقيت اتصال نزهت، وقبل أن أكمل كتابة بقية الجملة أدركت فداحة الخطأ الذي أرتكبه، فمن الغباء أن أدوّن ملاحظة عن أحداث هذا اليوم والتي قد تُستخدم ضدي، فهذه ليست ملحوظة عن مادة تاريخية يجب دراستها وفهمها، بل هي عن جريمة قتل حقيقية حدّ الألم الذي أشعر به الآن في قلبي. ولكن الوقت فات على الشعور بالندم وعذابات الضمير ولا مبرر لذرف دموع التماسيح. لذا خطر لي في لجّة أفكاري تلك أن أقوم بدراسة الجريمة وفق منهجية علمية ولكن دون اللجوء إلى تدوين أي ملاحظة عنها. أليست الشرطة بدورها لديها منهجية لدراسة الجريمة للوصول إلى الحقيقة؛ وهناك علم مختص بدراسة جرائم القتل criminology علم الجريمة؟..

ويهدف لدراسة السلوك الإنساني والدوافع وراء ارتكاب الجريمة. وأظنني أمتلك حزمة لامتناهية من الأسباب النفسية لارتكاب الجريمة.

"فعلى الرغم من كونه بروفيسوراً ومؤرخاً ينحدر من إحدى أعرق العائلات في إسطنبول والتي وفرت له تلقي أفضل أنواع التعليم، لم يمتلك السيد مشتاق القدرات اللازمة للتواصل الاجتماعي السليم، وقد أثّرت تجربته العاطفية الفاشلة على سلامته الذهنية بشكل واضح وجعلته يعيش أسير الوساوس النفسية وبالتالي قام بارتكاب هذه الجريمة وقتل نزهت أوزجان...".

ولكن ليس هذا ما أعنيه بل أعني المنهجية التي يتّبعها المحقّقون في دراسة الأدلّة وكيفية البحث عن القاتل وكيفية حدوث الجريمة وكل الشروط المادية المحيطة بها. حسناً فمرتكب الجريمة معروف، ولكن كيفية ارتكابه للجريمة ما زال في علم المجهول. حينها تذكرت جملة كان والدي يردّدها باستمرار "من السهل اكتشاف حبكة هذا الفيلم" فقد كان مغرماً بالأفلام والروايات البوليسية وكان يقول لي: "الروايات البوليسية تماماً مثل المسائل الحسابية يا بُني، مع فارق أنّ البشر قد اتُّخِذوا مكان الأرقام، والأحداث اتُّخِذت مكان المعادلات...". ليته كان حيًّا الآن، لتوصّل إلى فكّ طلاسم الجريمة على الفور وساعدني على الخلاص من هذا المأزق. ولكن أحقًّا كان سيفعل ذلك في حين أنني لا أذكر بأنه اهتم بمشاكلي على الإطلاق. ولو بقي حياً، ولو تحلّيت بالجرأة الكافية لإخباره بحقيقة ما جرى لكان عالجني بصفعة من يده الضخمة على ملامح وجهي الهلع، ورفع سماعة الهاتف السوداء القديمة التي تشبه أحذية عالية الكعوب:

"ألو. قسم الشرطة؟... أودّ أن أبلغ عن جريمة قتل..." ولحرص على أن أنال أشدّ عقوبة، فبرأيه لا يمكن لأي خطأ أن يمر من دون عقاب.

"ولو أننا لم نقم بالمهام والواجبات الملقاة على عاتقنا بأكمل وجه، فإن الفوضى الناجمة ستؤدي بنا إلى هلاكنا المحتوم".

وكان حريصاً على ألا تحصل هذه الفوضى في المنزل مطلقاً ويتّبع جميع الوسائل الممكنة لتجنّب هذا العار. ولكن أظنني يجب أن أتوقف عن إقحام والدي في الأمر، فكما تقول شازية: "لو فتحنا هذا الباب على أنفسنا فلن نتمكّن من إغلاقه

ثانية".. ومحاولة حصر حياتنا وجميع الأفعال التي نقوم بها، في إطار نظام محدّد، هو جهد مضنٍ لا طائل منه.

لذا، كان يتعيّن عليّ أن أجد الحل بنفسي وأفكّ طلاسم ذلك الزمن المجهول، ولا أعلم كيف سيقوم مؤرّخ بحل شيفرة جريمة قتل! ولكن ما أعلمه جيداً بأنني إن لم أفعل ذلك، فهناك جهات أخرى ستفعله بكل تأكيد. ففي غرفة التحقيق الباردة وفيما يتراقص الضوء الأصفر المتدلي من السقف فوق رأسي وتنهال عليّ أسئلة المحقّق كسياط أكثر إيلاماً من نشيج الألم في مثانتي الممتلئة، أظنني سأعترف بما فعلته وبما لم أفعلْه أيضاً.

ولكن ما الفرق بين كشف خبايا جريمة قتل، وبين دراسة مادة تاريخية؟ لا أعلم ما هو الفرق ولكنّ حلّ كل مسألة يكمن في طرح الأسئلة المناسبة.

فما الذي دفعَ السلطان مراد الثاني للتخلّي عن السلطة لابنه الصغير؟ هل لأنه بدأ يشعر بالتعب من التزامات السلطة وهو المتعلّق بالحياة وملذّاتها؟ فقد كان رجلاً رحب الصدر مقبلاً على الحياة، ليس كابنه محمد الثاني الذي كان طموحه أكبر من سنّه بكثير، وهذا ما مكّنه من فتح القسطنطينية تلك المدينة العظيمة وهو في بداية العشرينات من عمره. ليست هذه الأسباب وحدها ما دفعت السلطان للتنازل عن العرش، بل أيضاً المكائد والمؤامرات التي تحدث بين أروقة القصر بين حزب الصدر الأعظم تشاندرلي باشا من جهة، والوزير شهاب الدين وزاغنوس باشا من جهة، والسأم من كل تلك المماحكات التي لا تنتهي. ولا ننسى السبب الأهم وهو فقدانه لابنه الشاب علاء الدين علي وهو في ريعان شبابه، والتي شكلت الضربة القاصمة التي دفعته لحسم الأمور والانزواء بعيداً.. حسناً كان هذا تبريراً أكثر من كافٍ للأستاذ طاهر حقي، ولكن ماذا عن المحقّق الذي ستنهال عليّ أسئلته حول هذه الجريمة؟

"لنعدْ إلى تلك النوبة التي تدّعي بأنك تصاب بها، حدّثني ما الذي كنت تفعله قبل تعرّضك للنوبة؟".

"سؤال منطقي حقاً وسأجيبك عليه فوراً، فقد كلمتني نزهت على الهاتف لتدعوني إلى العشاء، وقد قبلت رغم أنني فكرت كثيراً في الأسباب التي دفعتها لدعوتي".

"لِمَ استدعت دعوة على العشاء كل هذا التفكير منك؟".

"في الحقيقة كانت دعوة تلقيتها من حبيبتي التي تركتني منذ سنوات طويلة ولم تسأل عني خلالها ولو لمرة واحدة. وقد اتّصلت بشكل غير متوقّع وطلبت مني الذهاب إلى منزلها وتناول العشاء في اليوم ذاته، وهذا ما دفعني للتفكير بأسباب كل ذلك الاستعجال وما تخفي الدعوة وراءها..".

"وهل توصّلتَ إلى معرفة السبب؟".

"ظننتُ أنني فعلت ذلك، ولا أخفيك بأنني سررتُ كثيراً عندما تلقيتُ اتصالها ظناً مني أنها أخيراً أدركت حقيقة الحب الكبير الذي أكنّه لها، وأنها، رغم مرور كل هذه السنوات، قد قرّرت إصلاح الخطأ الذي اقترفته. ولكن الحقيقة لم تكن كذلك على الإطلاق".

"وما أدراك أنها لم تكن كذلك؟".

"لأنها قامت بدعوة الأستاذ طاهر أيضاً إلى العشاء، وإن شئت الحقّ فهو كان الضيف الأساسي، وقد اتّصلت بي بعد أن دعته. وأنا أعترف بغبائي المطلق، فقد كانت أتخيّل أنّ حبيبتي لم تعد تتحمّل فراقها عني، وقد دعتني إلى منزلها بعد كل هذه السنوات وستعد لي طبق اللازانيا الذي أحبّ. ولكنني كنت مخطئاً، فلم تكن تهدف للعودة إلى تلك الأيام الجميلة...".

"إذاً ما كان هدفها؟".

"لا أعلم، ربما كانت تريد رؤية الأستاذ طاهر، وربما كانت لديها أفكار ومشاريع أخرى تزيد من شهرتها، مشروع يجمع بين التاريخ وعلم النفس، ويمكن أن تسميها دراسة نفسية تاريخية. لا، لا. فلنقلْ دراسة الجانب النفسي لأحد السلاطين، إنه عنوان ملفت أليس كذلك؟... لِمَ لا؟... فبالاعتماد على الدراسة التي أعدّها فرويد عن دوستويفسكي، قد تكون أعدّت دراسة عن قتل الأب.

"أتعني أنّ الضحية كانت تعدّ دراسة حول السلطان محمد ونظرية قتل الأب؟".

"لا أظنها ستركّز كثيراً على مسألة قتل الأب. فعلى الرغم من أنّ السلطان مراد قد أورد في وصيته رغبته في دفنه قرب أعزّ أبنائه وهو علاء الدين علي، وألاّ يدفن بالقرب منهما أي شخص آخر من سلالته، ليترك مع ابنه ينعمان بالسلام الأبدي، وقد

كان هذا الكلام موجّهاً لابنه الشاب محمد الثاني، وبالتأكيد فقد أيقظ مشاعر الغيرة لدى الابن الذي أحسّ على الدوام بأنه محروم من رعاية الأب وعطفه، بل وأنه منبوذ أيضاً. رغم كل ذلك فهي ليست أسباباً كافية للشروع في قتل والده. وأستطيع أن أخبرك من خلال تجربتي الشخصية مدى صعوبة إحساس الطفل بأنه منبوذ من والده وألاّ يحظى ولو لمرة بعطف الأب ورعايته، وخيبة الأمل التي تراكمها السنوات في نفسه لتتحول إلى حقد دفين. ولكن هذا الحقد، وإلى أي مدى بلغ، فلن يكون دافعاً لارتكاب جريمة قتل بحق الأب، ولا أظنّ بأن نزهت كانت لتعتمد في دراسة علمية على مثل هذه الأقاويل، فهي أيضاً مثل الأستاذ طاهر تبني جميع دراساتها على وثائق علمية. ولكنني من جهة أخرى أعتقد بأنها كانت تحاول وضع دراسة نفسية تاريخية لأكثر السلاطين شهرة على وجه الأرض، وكانت ترغب في تأييد الأستاذ طاهر لهذه الدراسة، كونه أكثر المؤرّخين المهتمّين بتلك الحقبة. وهو إلى ذلك يتمتع بمكانة مرموقة في الأوساط العلمية حتى على مستوى العالم...".

"وهل أطلعت الأستاذ على هذا المشروع؟".

"لا أعلم، فلم أناقش الأستاذ في الأمر، كان مجرد حديث عابر على الهاتف، ولكنني أستطيع التوصّل إلى الحقيقة بكل سهولة، طبعاً في حال لو وُجدت هذه الدراسة بالفعل. ولكن يجب أن تكون موجودة، ونزهت لا تقوم بأي شيء دون هدف محدد، وهذا ما أدركته فيما بعد للأسف، وقد تكون ارتبطت بي في ذلك الوقت لغايات أخرى في نفسها. فحينها كنت من ألمع مساعدي الأستاذ طاهر وأكثرهم قرباً منه، وقد استغلت علاقتي بها للتقرّب منه، وبالتالي مساعدتها للسفر وإكمال دراستها في الخارج، وأحيطك علماً بأنني توصلت إلى النتيجة للتوّ ولم تخطر لي من قبل".

"ربما تحاول تشويه صورة الضحية بعد أن هجرتك؟".

أجل، فمن الخطأ أن أفكّر وأتكلّم بهذه الطريقة أثناء الاستجواب، وأن أبوح بمكنونات قلبي أمام المحقّق، فلنوضّح الأمر على النحو التالي.

"لقد كانت نزهت امرأة ذكية، ولو أنها شرعت بالعمل على دراسة كهذه فبالتأكيد سترغب أن يساندها الأستاذ طاهر، وقد يكون هذا سبب دعوتها له على العشاء".

"لو أنّ الأمر كما تدّعي، فلماذا ستقوم بدعوتك أنت أيضاً؟".

"هذا ما لا أعلمه على وجه التحديد. قد تكون رغبت بالاستفادة من أفكاري أنا أيضاً، فقد عكفت على دراسة عصر السلطان محمد الفاتح وشخصيته لسنوات طويلة، وكنت أعتبر من الخبراء في هذا المجال، وكون المعلومات التاريخية لم تتغيّر منذ تلك الأوقات وحتى الآن فأظنني ملمٌ بكلّ جوانب الموضوع".

"ولكنها لم تطلعك على تفاصيل الأمر عندما تحدّثت معك على الهاتف، أليس كذلك؟".

"لم تفعل، ولم تلمّح إلى شيء، ولكن الأطروحة التي أعددتها حول فرمان الفاتح وإباحة قتل الأشقاء.. لحظة، لحظة.. أجل، لقد وجدتها.. إنه فرمان قتل الأشقاء وكان هذا نصه على ما أظن (والابن الذي سيتولى العرش من بعدي، من المسموح له قتل بقية أشقائه من أجل الحفاظ على نظام الدولة واستقرارها. وقد وافق معظم علماء الدين وأجازوا هذا الفرمان والذي سيدخل حيز التطبيق..) بالطبع، فالسلطان الذي أجاز قتل الأشقاء من أجل مصلحة الدولة، وحوّله إلى قانون يعمل به كل من يتولّى العرش من بعده، سيثير كثيراً من الشكوك حوله، ولكن جده السلطان يلدرم بيازيد وبعد أن حقّق نصراً باهراً في حرب كوسوفو، وقبل أن يمر وقت طويل على وفاة والده قام بقتل يعقوب جلبي. كما أنّ جدّ الفاتح بالذات، السلطان محمد الأول، ومن أجل الحفاظ على نظام السلطنة ووحدتها، خاض حرباً دموية ضد أشقائه. ووالده السلطان مراد أمر بقتل شقيقه مصطفى جلبي للسبب ذاته، وذلك بعد دسائس ومكائد كثيرة حيث سلّمه إلى الجلاد بنفسه.. وفي هذه الحال وبدل المخاطرة بوحدة السلطنة واستقرارها أليس من الأجدى تسليم أعناق الأشقاء إلى سيف الجلاد؟.. وعندما أقرّ السلطان محمد هذا الإجراء وأعلنه في فرمان رسمي، لم يكن بالأمر المستهجَن، فقد كان متّبعاً من قبل السلاطين الذين سبقوه وإن كان بشكل غير رسمي.. فمثلاً السلطان يلدرم بيازيد عندما أمر بقتل شقيقه يعقوب جلبي حاول التصرّف بدبلوماسية أكثر ولم يعترف بأنه وراء الجريمة علناً بل أبدى دهشته عندما أخبره الوزير بالخبر. ولكن شخصية السلطان محمد الثاني القوية مكّنته من الإعلان عن الفرمان بشكل رسمي، وهذه هي النقطة الجوهرية في الموضوع؛ شخصية السلطان محمد الفاتح..".

"ولكن هذه المعلومات ليست بالأمر الجديد، فأي شخص يطّلع على التاريخ



العثماني يستطيع الوصول إليها ببساطة. ولكن ما الذي كانت نزهت تحاول الوصول إليه؟..".

"بحسب ما أعرفه عنها، أنها كانت تحول المعلومات والوثائق التي تحصل عليها إلى أطروحة غاية في الغرابة تطرح وجهة نظر جديدة وصادمة.. ولكن ما الغريب في الأمر؟ أليست هذه الطريقة آخر الصيحات الرائجة في عصرنا؟.. الاختلاف، واستخلاص نتائج جديدة من المصادر ذاتها والوثائق ذاتها، وتدوين التاريخ من خلال وجهة نظر مختلفة تماماً.. أي كشف تاريخ التاريخ، والمعنى الكامن في المعنى، للوصول إلى إجابة حول حقيقة السؤال الذي يطرح نفسه: هل حدثت الأحداث كما حدثت بالفعل، أما أنّ ما دُوّن هو وجهة نظر مدوّنيه عن الحدث؟.. هل التاريخ هو الحقيقة التي حصلت في الماضي؟ أم هو التأويلات التي قمنا بإنشائها عن الحدث من خلال ما دوّنه العلماء والمؤرّخون؟.. هذه النظريات الجديدة التي بدأت تسري في الأوساط التاريخية مؤخراً، ولا بدّ أنّ نزهت أيضاً قد تأثّرت بها، خاصة وأنّ الغطاء بدأ يُزاح عن كثير من الأحداث التاريخية والتي كانت تعتبر قبلاً من المحرمات، وبدأ السؤال المربك يُطرح بتواتر: هل المصادفات هي من يصنع التاريخ أم الانتهاكات؟.. وقد اعتمدت نزهت على هذا السؤال الجوهري من أجل البحث في شخصية السلطان محمد الفاتح، وصراحة أنا أهنئها على حدّة ذكائها..".

الآن بتّ متأكداً من أنّ الموضوع الذي كانت تعمل عليه نزهت هو الآثار النفسية التي تركها فرمان قتل الأشقاء على السلاطين. وليس هناك من هو أفضل من الشخصية التي أقرت هذا الفرمان لتكون موضوع أطروحتها، وطالما أنها كانت تعيد قراءة دراسة فرويد عن دوستويفسكي وقتل الأب، فلا بدّ أنها كانت تربطها بالسلطان محمد وقتل الأشقاء فكلمة fratricide تعني قتل الأشقاء. وبالإضافة للروايات التي تقول بقتل السلطان محمد والده، هناك وثائق تثبت بكل تأكيد أنّ السلطان قد أمر بقتل شقيقه الصغير أحمد جلبي وذلك بإغراقه. حتى أنّ الشخص الذي قام بإغراق الطفل اسمه مدوّن بكل وضوح في المصادر التاريخية (إيفرونوس أغلو علي بيك) ولكن بعيداً عن العواطف والمشاعر، فقد كانت تقف خلف هذه الجرائم أسباب اجتماعية واقتصادية وسياسية وعسكرية بالإضافة لمستقبل السلطنة ووحدتها، وكلها مجتمعة

فرضت هذا النوع من القوانين..

حسناً لقد وجدت الحلقة المفقودة الآن، وتمكّنت من معرفة السبب الذي دفعها للاتصال بي بعد كل هذه السنوات ودعوتها لي إلى منزلها، فيما أنا العاشق كنت أهيم في بحر من الآمال الزائفة كما في كل مرة، وكانت معرفتي بانفصالها عن زوجها قد عزّزت هذا الأمل.. وربما قتلتها لهذا السبب بالذات، فبعد أن وصلت إلى مبنى ساهتيان ودخلت منزلها، وحين ذهبت لتعدّ لي الشاي.. ولكن في حال وجود الشاي فلا بدّ من وجود الأكواب أيضاً، وبالتالي بصمات الأصابع.. يا إلهي لم يخطر لي حينها أن أقوم بفحص المطبخ للتأكد من أنني لم أترك دليلاً خلفي هناك، فأنا لا أذكر ما الذي حصل في تلك الساعات التي غبت فيها عن وعيي، ربما دخلت إلى غرفة المكتب أيضاً، ولكني لا أعتقد ذلك، فبعد سنوات الغياب الطويلة هذه لن أتجوّل في منزلها بكل تلك الراحة.. إذاً فما من داعٍ لتضخيم الأوهام، وربما لم تقم بإعداد الشاي.. وأظن أن الرهبة قد سيطرت عليّ أثناء لقائنا، وما أنا متأكد منه هو أنّ هذه المشاعر لم تكن مشتركة بيننا، فهي قد تخلت عني منذ زمن طويل وكل ما كانت ترغب فيه هو الاستفادة من خبرتي ومعلوماتي، فقد كنت مجرّد مؤرّخ ضليع في عمله بالنسبة إليها لا أكثر ولا أقل.. ومن جهة أخرى ربما استقبلتني باهتمام وفرحة وهي تحدثني عن مشروعها الجديد، ولم تدرك سبب خيبة الأمل التي بدأت تظهر على ملامحي.

"سيكون المشروع ذا فائدة بالنسبة إليك أنت أيضاً، فهو سيشهر اسمك في الأوساط العلمية العالمية، وهذا بالطبع رصيد كبير بالنسبة إلى أي مؤرّخ..".

كانت كعادتها تعبّر عمّا يجول في ذهنها بصراحة مطلقة، وربما بدأت أفقد السيطرة على نفسي في تلك اللحظات، فالمرأة التي وهبتها كل عمري، تحاول أن تغريني بالشهرة وببقية التّرهات التي تعشّش في فكرها.. في تلك اللحظة أخذت السكين عن الطاولة، لا لقد كانت السكين في جيبي من قبل، أي أنني كنت مزمعاً على قتلها منذ البداية.

عاد الجرس يرن من جديد، أمن الممكن أن تكون شازية مجدّداً؟ لا، إنه جرس الهاتف الأرضي الذي تجاوزه الزمن مثلي.. ومع كل رنّة جديدة كانت المخاوف

تتصاعد في ذهني.. هل تمّ اكتشاف الجثة؟.. هل من أحد يشك بي ويريد التأكد من وصولي إلى منزلي؟.. هل عليّ أن أجيب أم أتركه يرن حتى يتوقّف؟.. توجّهت نحو الجهاز وأنا أحمل هذه الأفكار على كاهلي كحمل ثقيل ورفعت سماعة الهاتف الثقيلة بيديّ المرتجفتين:

- ألو..
- ألو، مشتاق.

عندما سمعت صوت الأستاذ طاهر أحسست أن قلبي سيتوقف هلعاً:

- أهلاً أستاذ، تفضّل..
- ماذا جرى معك؟.. هل عرفت شيئاً عن نزهت؟.. لقد اتصلت بها مراراً وتكراراً ولكنها لا تجيب على اتصالاتي، وبتّ أخشى عليها حقاً. كان القلق بادياً في نبرة صوته..

وعدت إلى المتاهة ذاتها من جديد، ففي البداية سيقلق الأستاذ، وبعدها سينتقل القلق إلى الآخرين، وحينها ستقوم الشرطة باكتشاف الجثة..

ولكن لا فائدة من إعادة هذه التوقعات المشؤومة، ومن الأفضل التمسّك بأي أمل صغير..

- لا أعتقد ذلك، فما الذي يمكن أن يحصل لها؟ حين اتصلت بي اليوم كان صوتها لا ينم عن وجود مشكلة ما. ربما كان هاتفها معطّلاً أو فرغت بطاريته، وربما حوّلته إلى وضعية الصمت ونسيت الأمر..
- ولكنها كانت تنتظرني على العشاء، أمن المعقول ألاّ تتصل بي لتسألني عن سبب عدم ذهابي؟.. - واصل العجوز استنباط الاستنتاجات بذكائه المعهود- لنفترض أنّ هاتفها الجوال معطّل، فماذا عن الهاتف العادي؟ فهي لا تجيب عليه أيضاً.. لا يا بُني، هناك شيء غير طبيعي في الأمر، ربما هي مريضة، فعندما التقيت بها قبل شهرين، حدثتني عن مشكلة لديها في أوعية القلب، كما أنها انفصلت عن زوجها مؤخّراً، وأخاف أن تكون قد تعرّضت لنوبة قلبية لا سمح الله..
- لا داعي لأن نهوّل الأمور يا أستاذ- خرج صوتي عالي النبرة رغماً عني،

فتداركت الأمر وأنا أكمل بهدوء - ربما لم تتمكّن من الاتصال بك. ربما أضاعت رقم هاتفك. وإن حصل لها أي مكروه فبالتأكيد ستطلب المساعدة من سيزجين الذي يسكن معها في البناء ذاته.

ولكن العجوز لم تبدُ عليه بوادر الاقتناع:

- بالطبع لو أنها امتلكت الوقت الكافي لطلب المساعدة.. فأنت لا تعلم شيئاً عن نوبات القلب يا بُني، فهذه النوبات اللعينة تسلب الإنسان كل قوته ولا تسمح له بأي حركة..

وبقيت أتقمّص دور القاتل البارد الأعصاب ولم أظهر أي إشارة تدل على الخوف:

- أعتقد أنك تبالغ في توجسك يا أستاذ، وسترى كيف ستتصل بك بعد قليل أو غداً صباحاً..

لم يقتنع من جديد ولكنه أكمل:

- المشكلة أنك بعيد عني الآن - وأخيراً اعترف بما كان يحوم حوله كل هذا الوقت، فهو يشعر بمتعة لا تُضاهى في إشغال كل من حوله بسلسلة لامتناهية من المهام - ليتك كنت تسكن بالقرب منها.. - ليس من عادته أن يصرح بمكنونات قلبه مباشرة، ربما بسبب كبريائه الشديد، أو مكره..

"أعتذر منك يا أستاذ، فلا رغبة لديّ بالعودة إلى ذلك المنزل ورؤية جسد حبيبتي النازف مرة أخرى، ولا أحد يستطيع إرغامي على ترك منزلي..".

- ليتني كنت كذلك - حاولت مجاراته - ولكن كما تعلم فقد تأخّر الوقت، ولا أظن أنّ السفن تواصل رحلاتها الآن بسبب الأحوال الجوية. ولكني أؤكد لك أن لا داعيَ لكل هذا القلق..

بعد أن يئس مني، بقي صامتاً للحظات كمن يفكر في وسيلة أخرى..

- حسناً، سأتصل بجتين، وآمل أن يرد عليّ الآن، فقد أخبرني أنه سيشارك في ندوة في تقسيم في مكتبة أتاتورك.. وسأطلب منه الذهاب للاطمئنان على نزهت في حال أنه كان لا يزال هناك.. على الرغم من أنه لا يستلطفها على الإطلاق، فقبل عدة أيام حصلت بينهما مشادة حامية حول السلطان

محمد الفاتح، ولكنني لا أظنه سيرفض طلبي، وربما تكون وسيلة لإصلاح الخلاف الذي جرى بينهما..

كان يتحدث عن أحد مساعديه الشباب، وهو شخص متبجح، ومن خلال ما قاله لي الأستاذ فلا بدّ أن حبيبتي كانت تأتي إلى إسطنبول بشكل متكرّر، ورغم ذلك لم تحاول الاتصال بي ولو لمرة واحدة، وقد فعلت ذلك مؤخّراً لحاجتها إليّ ليس إلا.. ولا بدّ أنّ العجوز يعلم سبب هذه الدعوة..

– أستاذ، أتعلم سبب دعوتها لنا هذا المساء؟..

بقي صامتاً للحظات قبل أن يجيب بسؤال على سؤالي:

– ألم تحدّثك عن الأمر؟..

كان يراوغ من أجل الوصول إلى كل ما يريد معرفته، وكان يتحلّى بدهاء ينافس دهاء وزراء السلاطين ورجالات القصر..

– لا، لقد دعتني إلى العشاء دون أن توضّح لي السبب.

عاد صمت أطول مما سبق ليخيّم علينا قبل أن يتكلّم:

– أيعقل أنها لم تحدّثك رغم العلاقة القوية التي تجمعكما؟

العلاقة القوية؟.. يبدو أنه يظنني على تواصل معها خلال هذه السنوات، ولكنني حاولت المراوغة مثله:

– لم تخبرني بأي شيء، ما الموضوع؟

أجاب بسرعة:

– لا أعلم، يبدو أنه ما من أمر خاص، وقد كان مجرّد دعوة عشاء عادية..

لا مزيد من التوضيح، ولكن حتى هذه الجملة كانت كافية بالنسبة لي، وإن لم أكن مخطئاً فقد طلبت منه أن يكون ضمن مجموعتها التي تعمل على المشروع، وهذا يعني أنه مطلع على فكرته، ومن الواضح أنه ليس مشروعاً عادياً لذا لم يبد رغبة بالتصريح عنه:

– هذا ما أظنّه أيضاً – قلتها حتى لا أشعره بالفضول الذي انتابني – وأنا أيضاً أفكر في دعوتكم جميعاً إلى منزلي، ولكن بعد أن يتحسّن الطقس قليلاً..

– المهم الآن أن تكون نزهت بخير..

- إنها بخير، لا تقلق عليها يا أستاذ.

أحسست براحة عميقة وأنا أعيد سماعة الهاتف إلى مكانها، راحة كتلك التي يشعر بها المرء عند البوح بسر عميق يثقل عليه.. وأخيراً سيتم العثور على الجثة ويبدأ التحقيق، وستقوم الشرطة باستجوابي، وسأفعل ما فعلته مع الأستاذ طاهر ومع شازية تماماً، وسأواصل سرد سلسلة الأكاذيب.. ولو سارت الأمور على ما يرام، ولم يكن هناك في المطبخ أو غرفة المكتب أي دليل يشير إلى تواجدي هناك، فسأنجو من العقاب.. ولكن عينيّ أمي اللتين كانتا تراقبانني بقلق من الصورة المعلقة على الجدار، كانتا تشعرانني بأن لا شيء مما أخطّط له سيسير كما أشاء، وأنّ الرياح ستحطّم كل سفني..

(10)

الأحلام ترفع الغطاء عن عقلنا الباطن

- على عكس توقّعات الجميع فقد كان الأمير طفلاً حسّاساً جدًّا..

قالها الرجل أصلع الرأس ذو اللحية البيضاء، والذي يضع نظّارة طبية ويجلس وراء طاولته المصنوعة من خشب الماهوجني، بلغة تركية واضحة ومفهومة، غير مبالٍ بالرائحة الكريهة التي تنبعث من السيجار الذي يتوسّط إصبعي يده اليمنى:

- فكما تعلم فقد تعرّض لكثيرٍ من الخيانات والمواقف الصعبة وهو لا يزال طفلاً صغيراً، فالحروب التي كان يثيرها الباشوات في القصر بما يتخلّلها من دسائس ومؤامرات قد أثّرت عليه، ولكن هذا النوع من الأحداث طبيعي جداً في دولة بتلك العظمة، تمتد سلطتها على مناطق جغرافية واسعة ومتباينة..

خفّض صوته وهو ينظر إلى باب الغرفة؛ الغرفة التي تملؤها رفوف الكتب كمن يخشى أن يسمعنا أحدنا من الخارج، ومن ثم أكمل:

- تخيّل الأمر، فأنت لا تصارع الرجل الذي يحاول على الدوام أن يبعدك عن أمك ويأخذها منك كما تعتقد، بل أنت تحارب أعظم السلاطين وصاحب السلطة المطلقة في الدولة..

حاولت تذكّر وجهه المألوف كثيراً، ولكن ذاكرتي لم تسعفني، وكان الأكثر غرابة هو هذه الغرفة الغريبة التي تحوّلت ما يشبه عيادة طبية، كنت أتلفّت حولي وأنا أتساءل عما أفعله هنا، هل تعرضت لنوبة لعينة أخرى؟.. هل عادت تلك الساعات المظلمة لتخيّم على حياتي؟..

- نحن الأطفال الذكور حتى لو لم نعترف بذلك؛ نطمح على الدوام إلى أخذ مكان الأب في الأسرة..



لا أعتقد أنني أوافقه الرأي ذاته، فأنا لم أطمح مطلقاً لأخذ مكانة والدي، ولم أكنّ له الإعجاب نهائياً، ولكن الرجل لم يبالِ برأيي كثيراً، وقد أخطأ تفسير نظراتي الحائرة بأنها تأييد لرأيه، لذا أكمل سرد سفسطته دون أن يسمح لي بالكلام:

- فنحن جميعاً نكنّ إعجاباً في دواخلنا تجاه آبائنا حتى لو لم نعترف بذلك، والغريب في الأمر أننا ولهذا السبب بالذات نرغب في احتلال مكانته، ومن هنا ينشأ ذلك الصراع المؤلم في العقل الباطن. والمخيف أننا وفي الوقت الذي نشتهي فيه أخذ مكانة الأب ندرك تماماً أننا سنحصل على الأم. تخيّل فكرة الحصول على الأم وتحوّل العلاقة معها لتصبح مماثلة لعلاقتها مع الأب.. إنها فكرة فظيعة تسبب شعوراً لا يوصف بالذنب، وهي مخاوف تزرع في الذهن الرعب من الخصاء، والتي ستمنعنا من الحصول على دور الأب بشكل مطلق..

ربما كان طبيب أعصاب أو طبيباً نفسياً، وإن كان الأمر كذلك فلا بدّ أنه أكثر زملاء شازية جدارة، حيث إنها لا تثق بأي شخصٍ كان لترسلني إليه:

- في الحقيقة مشاعرنا تجاه الأب والذي يفترض أن يكون أكثر من نثق به، هي خليط من الخوف والإعجاب، الكره والمحبة.. وأميركم هو مثال واضح عن تعايش هذه المتناقضات، فهو لم يكن ينافس والده السلطان للاستحواذ على الأم، بل الاستحواذ على السلطة أيضاً. فقد كان العرش الذي يطمح بالوصول إليه يعود لأكبر الدول في ذلك العصر.

ما الذي يتحدث عنه هذا الرجل؟.. أيعني العثمانيين؟

- ألم تتحوّل معه الدولة إلى إمبراطورية مترامية الأطراف؟.. ولنقل أنّ هذا الأمر حدث بعد فتح القسطنطينية.

يبدو أننا عدنا للتاريخ مرة أخرى، ولكن من هو هذا الرجل؟

- بالطبع إنه السلطان محمد الفاتح والذي حوّل إمارة تركية صغيرة إلى شجرة ضخمة ضربت جذورها في أراضٍ لم تخطر على بال. وكل ذلك تمّ في زمن قياسي؛ فقد قام بفتح القسطنطينية وهو في الحادية والعشرين من عمره.. أي أنه حقّق حلم جده السلطان عثمان، ولكن أحقًّا وُجد هذا

الحلم؟

قالها وهو يرمقني بنظرات ملؤها الشك، ولكنني بقيت صامتاً للحظات قبل أن أجيب، فقد كان سؤاله مباغتاً..

- أعتقد ذلك.. هناك وجهات نظر مختلفة حول هذا الحلم، فهناك من يظن أنّ الجد عثمان رأى الحلم بالفعل، وهناك من يعتقد أن الرواية أُضيفت فيما بعد لتضفي على الدولة جوًّا أسطورياً من السحر والإعجاز..

سحب نَفَساً عميقاً من السيجار وبدأت حلقات الدخان تتوالى بالخروج من فمه وهو يهز رأسه مؤكّداً:

- أعتقد أن الأساطير ضرورية، فحتى في الإمبراطورية الرومانية وُجِدت مثل هذه الأساطير والروايات الخيالية، فإحدى هذه الأساطير تزعم أنّ مؤسسي الإمبراطورية قد رضعوا من حليب الذئاب، وأنّ طائر نقّار الخشب هو من كان يحضر الطعام إليهم. فالأحلام ضرورية أيضاً كما هي الأساطير، فالأحلام ترفع الغطاء عن عقلنا الباطن، وهي تعبّر عن مشاعرنا المكبوتة، ليست الجنسية منها فحسب، بل تلك الرغبات التي نخجل من التعبير عنها، ودوافعنا الخفية.. وربما يكون سلطانكم الأول عثمان – هزّ رأسه وهو يرفع نظارته ويحدق إليّ متفحّصاً – قد استحضر رغباته من خلال هذا الحلم، أليس كذلك؟

لم أشأ الرد فقد بدا الرجل وكأنه يحقّق معي، وما أثار استغرابي أنه بدا على دراية واسعة بالموضوع الذي يشكل مجال عملي، فبدأت أشعر بالضيق ولكنني كنت أحسّني تحت تأثير التنويم المغناطيسي ومجبراً على الرد.

- كانوا يطلقون عليه لقب عثمان بك، طبعاً هذا قبل أن يطلقوا عليه لقب الغازي.

- إذاً دعنا نقول عثمان بيك الغازي، فقد كان سلطانكم الأول هذا يمتلك رؤية مستقبلية مذهلة. هذا الشخص المنحدر من سهول آسيا، كان مطّلعاً بشكل كبير على مآسي الماضي، ولديه اطلاع على الأراضي الجديدة التي يدخلها، وبالتالي كان يدرك أنّ إمبراطورية روما على وشك الانهيار، وهذا

ما دفعه لأن يحلم ببناء إمبراطورية جديدة. ولكن الحديث عن طموح كهذا أمام الآخرين كان يعدّ ضرباً من الخيال أو الجنون بسبب الظروف حينها، فقوتهم كانت محدودة حينها، ورغم كل ذلك كان متأكداً من أنهم سيحقّقون هذا الحلم، وسيمتلكون قدرة منقطعة النظير تخوّلهم التحكّم في العالم القديم برمته، وأنّ ما من أحد سيجرؤ على اتخاذ أي قرار دون موافقة العثمانيين. في تلك الفترة كانت العائلة العثمانية تحكم آسيا الصغرى، أما في أوروبا فعائلة الهابسبورغ ورودولف في النمسا.. وبالطبع لا يمكن فهم أحداث ذلك العصر دون الاطلاع على تاريخ هاتين العائلتين الحاكمتين. أليس كذلك يا سيد مشتاق؟

- معك حق.. فهاتان العائلتان بقيتا لمئات السنين تتنافسان على حكم العالم، ولفهم التاريخ العثماني لا بدّ من الاطلاع على تاريخ عائلة هابسبورغ، والعكس صحيح.. وربما تكون سخرية من القدر، وربما تكون مصادفات غريبة لا رابط بينها، إلا أنّ الحرب العالمية الأولى كانت السبب الحاسم في انهيار العائلتين وانسحابهما من مسرح السلطة.

أومأ برأسه موافقاً وكأنه يماثلني في إبداء الاحترام لحركة التاريخ وسيرورته:

- لكن أميركم لم يتوقع هذه النهاية على الإطلاق– وضع سيجاره على حافة المنفضة – فقد كان ككل الأطفال يعيش صراعاً مريراً نتيجة المشاعر المختلطة التي يكنّها لوالده، ولكن الفكرة الأوضح والأكثر بروزاً في ذهنه هي أن يصبح سلطاناً. أما بالعودة إلى مشاعره الأخرى الأكثر تعقيداً، وهي مشاركة الأم والاستحواذ عليها فقد كانت تقبع في أعماقه السحيقة– ارتسمت ابتسامة مفاجئة على شفتيه وهو يقول– لا أعلم إن كنت تؤيدني في ما أقول، ولكنني أظن أن خطر السلطة أكبر من خطر النساء علينا. وكان الأمير على دراية تامة بخطر السلطة، ولكن في المقابل لا ذنب له في رغبته بالاستيلاء على عرش والده، فقد أنشئ وتمت تربيته على هذه الفكرة، لقد أنشئ ليكون سلطاناً..

تنهّد بعمق برماً وكأن تلك المشاعر المختلطة انتقلت من الأمير إليه وهو يكمل:

- وكانت مخاوفه أكبر من مخاوفنا جميعاً، فإضافة لفكرة الخصاء وما يرافقها من مخاوف كانت هناك مخاوفه من السلطة. حسناً دعنا نناقش مسألة الختان، إنها ضرورة دينية مفروضة على الأطفال الذكور، وليست ضرورة طبية على الإطلاق، إنها إيذان بالتخلّي عن الأم. لا ترمقني بهذه النظرات المستهجنة، أجل فهي مجرد طقوس دينية لا أكثر، ولا بدّ أنك تذكر الحفلة التي أقامها السلطان مراد الثاني بمناسبة ختان ولديه، الأمير محمد الثاني، وشقيقه الأكبر الأمير علاء الدين علي، حيث كان الأمير محمد في السابعة من عمره.. الولادة والختان، هناك تناقض كبير بينهما، ففي الحالة الثانية سيتم اقتطاع جزء من أعضائك - ضحك ضحكة طفولية بريئة - أنا لا أذكر تلك اللحظات على الإطلاق - قالها وهو يطلق تنهيدة ارتياح خفيفة - فنحن اليهود نمارس هذه العملية في عمر صغير جداً قدر المستطاع، فهي تتم في الأسبوع الأول بعد ولادة الطفل، وفي كثير من الأحيان تتم داخل المعبد..

إذاً فالرجل يهودي! ويبدو أنه لاحظ بادرة الاهتمام التي لاحت عليّ أثناء حديثه عن أصوله الدينية، وهذا ما أشعرني بالخجل فبتّ أنكمش في الكرسي الواسع الذي كنت أجلس عليه:

- لا تقلق، تستطيع أن تعبر عن جميع المشاعر التي تنتابك بحرية مطلقة - قالها وهو يرفع سيجاره مرة أخرى - وتستطيع إن شئت أن تظهر كرهك لليهود إذا كنت تمتلك هذه المشاعر.. لقد تعرضتُ إلى كثير من هذه المواقف في سنّ الشباب.

مَنْ هذا الرجل الذي بدأ يسبّب لي الضيق بأسلوبه الفجّ هذا؟ ولكنه أكمل حديثه دون أن يبالي بما يعتمل في ذهني:

- والأكثر غرابة في الأمر أنني اتُّهمت في كثير من الأحيان بالعمل لصالح المنظمات اليهودية - سحب نَفَساً عميقاً من سيجاره ويبدو أنّه شعر بالارتياح، فقد عادت إلى عينيه تلك النظرة الودودة من جديد - وأنت؟ لا تقلق أنا أسأل فقط من باب الفضول لا أكثر، متى تم ختانك؟

يا له من سؤال وقح.. بدأ الغضب يسيطر عليّ وخطر لي أن أجيبه: وما علاقتك بالأمر، ولكنها ظلت فكرة لا أكثر فقد منعتني ابنة خالتي شازية التي أطلّت بنظارتها في مخيلتي وهي ترمقني بحدّة، فإن كانت هي من أرسلني إلى هذا الرجل، فلا بدّ أنّ أسئلته هي جزء من العلاج، ولا داعي للتصرف بصورة وقحة معه.. جيد فقد عاد مشتاق الخنوع ليطفو على السطح.. أي أنه سؤال ضروري ربما..

– بالطبع ضروري.. – نفث الدخان من فمه وهو يكمل – صدقني إنه ضروري جداً..

وصل بي الغيظ إلى أقصى درجاته ولكنني حاولت جاهداً وضع ابتسامة على شفتيّ قبل أن أتحدث:

– أنا أيضاً كنت صغيراً جداً عندما تمّ ختاني، فقد كنت في السابعة من عمري تماماً في عمر السلطان محمد الفاتح.

– مقاربة غريبة – قالها وسحب نَفَساً جديداً من السيجار وهو يتفحّصني بعينيه اللتين لم أتمكّن من تحديد لونهما المتدرّج بين الأزرق والأخضر، وكأنني لقية أثرية اكتشفها للتو – غريبة حقاً.. حسناً، هل تتذكر أنّ والدتك بكت أثناء تلك العملية؟ أقصد أثناء ختانك؟

بدأت عيناي ترمشان رغماً عني، وظهرت نبرة غاضبة في صوتي وأنا أجيبه:

– لا أذكر، لِمَ تسأل؟

لم تؤثر فيه نبرتي الغاضبة بل ظلّ يرمقني متفحّصاً وكأنني جرثومة تحت مجهره، وهو يحاول أن يلحظ أدنى تغيير على قسمات وجهي:

– مجرّد سؤال، حسناً، فلنعد إلى موضوعنا؛ التاريخ.. فأنا أُشبه سلطانكم الفاتح بشخصية هاملت.

– الأمير هاملت، بطل شكسبير المعروف، ابن الملك الدانيماركي التعس والذي قُتِل على يد شقيقه! يا للمقاربة التي لا يجمع شتاتها أي رابط!

– تمهّلْ قليلاً ولا تعقدْ حاجبيك هكذا، فأنا عندما أتحدّث عن محمد الفاتح لا أعني السلطان بل أتحدّث عن الفترة التي سبقت توليه العرش..

– محمد الثاني – صحّحت له – ولكنني أعتقد أن هناك فرقاً كبيراً بين هاملت

والأمير محمد الثاني، فالأمير العثماني لم يقتل والده..

ما إن نطقت بجملتي الأخيرة حتى سحب نَفَساً عميقاً من سيجاره ونفث دخانه في وجهي، عندها أُسقط في يدي، وأدركت من هو هذا الرجل الغامض الذي يجلس أمامي؛ إنه سيغموند فرويد. إذاً فقد استطاعت شازية بطريقة ما أن ترسلني إلى مؤسس الطب النفسي، والأكثر غرابة من ذلك أنّ الرجل الذي مات منذ أكثر من سبعين سنة لم يثر فيّ أي دهشة وأنا أراه يجلس حيًّا أمامي، ولكنني في المقابل وأمام هذا العالم الغربي شعرت بالرغبة في الدفاع عن تاريخ أجدادي.

– كما أنّ مراد الثاني، لم يُقتل على يد شقيقه، فقد مات ميتةً طبيعية.

– أنا متأكد من هذا، فالمؤرخ بيننا هو أنت، وطالما أنك مصر على أنّ السلطان مراد لم يُقتل، فلا بدّ أنها الحقيقة. ولكن ما اسم ذلك الطفل الذي سلّم عنقه إلى الجلاد؟ مصطفى أليس كذلك؟.. لو ظلّ مصطفى حيًّا وبلغ طور الشباب، لربما فعل هو أيضاً كما فعل عم هاملت بقتل شقيقه – وضع السيجار بهدوء على المنفضة قبل أن يكمل – كانت هذه الأحداث أمراً مألوفاً في قصور ملوكنا وقصور سلاطينكم، ولم تكن بالأمر الغريب على الإطلاق، فمع وجود كثير من ورثة العرش، لا مهرب من سفك دماء الأشقاء..

كما خمّنت فهو يحاول التطرّق إلى موضوع فرمان قتل الأشقاء الذي استصدره السلطان الفاتح، وبالتالي سينسب لنا كلّ الأفعال الوحشية والبربرية عبر التاريخ..

– إنّ حوادث قتل الأشقاء كانت تحدث قبل ذلك بوقت طويل – قلتها وأنا أقاطعه، ولا بدّ أنّ كلماتي سبّبت له الضيق لذا فقد لجأ إلى السيجار مرة أخرى، ولكنني واصلت الحديث – وكما تعلم جيداً فعندما قتل قابيل شقيقه هابيل، لم تكن السلطنة العثمانية قد نشأت بعد، ولم يكن الفاتح أو سواه قد أبصروا النور..

أبعد السيجار عن شفتيه وهو يقول بهدوء:

– معك حق، ولكن لا تنسَ أنّ السبب وراء تلك الجريمة الأولى كان السلطة، ورغم عدم وجود عرش حقيقي، فقد كانت هناك الأموال والنساء والعائلة

والثروة والحيوانات وسواها.. إنه تقليد قديم يمتاز به الجنس البشري، فالسلطة تستوجب على الدوام وجود شخص وحيد دون منافس - ابتسم بسخرية قبل أن يكمل - لا أذكر نص المقولة بشكل كامل ولكن المعنى العام لها هو أنّ الدولة هي عروس تمتاز بالعفاف الشديد ولا يمكن لها أن تقبل بعريسين في الآن ذاته، ولكل شجرة نسرها، والشخص الذي يتنطّح لمهمة إنقاذ العالم، سواء كان ملكاً أو صالحاً يكون على الدوام بطلاً وحيداً..

بدأ يعدل الأزرار المزخرفة على ياقة قميصه الأنيق جداً قبل أن يواصل الكلام:

- البطل مجبر أن يكون وحيداً، وبالعودة للأمير هاملت فقد استطاع عمه الملك امتلاك العرش وامتلاك والدته في الوقت ذاته، وهذا كان بداية مأساة هاملت وجنونه، الأم من جهة والعرش من جهة أخرى، وقد أصيب بالجنون المطبق في نهاية المسرحية، وكما تعلم فإن هذا الجنون قاده إلى حتفه وحتف البلاد كلها معه. ولكن أميركم، وبذكائه المعهود، استطاع التنبؤ بهذه النهاية منذ زمن طويل، ربما أثناء تولّيه إمارة مانيسا أو أماسيا، وربما قبل ذلك بوقت طويل، حين كان طفلاً في قصر أدرنة، قبل أن يلتقي الملاّ غوراني، أي قبل اهتمامه بالقراءة والكتابة. لا بدّ أنّ الدسائس والهمسات التي كانت تتردّد في أروقة القصر قادته إلى هذه الحقيقة.

حقاً إنه أمر يدعو للغرابة! فهذا العجوز الذي أرسلتني شازية إليه يعلم كثيراً عن السلطان محمد الفاتح. حينها أدركت مدى غبائي، فسيغموند لا يهدف إلى مساعدتي من خلال هذه الأسئلة بل إنه مثل نزهت يلاحق السلطان الفاتح عبر مجاهل التاريخ، ويريد مثلها الاستفادة من معلوماتي. فبعد الدراسة التي أعدها عن دوستويفسكي وقتل الأب، ربما تحوّل اهتمامه الآن إلى السلطان محمد.

- في تلك الأزمنة لم يخمّن أحد أنّ الطفل ذا الروح الحرة والقامة الممشوقة سيصبح من أهم شخصيات العصور الوسطى، وربما هو أيضاً لم يكن يعلم ذلك. فكل ما كان يشغل اهتمامه حينها هو ذلك الخوف الذي يكبر يوماً بعد يوم في داخله، والذي لم يشعر به الأمير هاملت، ولا والده الذي لم

يتوقّع يوماً أن يسمّمه شقيقه، لذا لم يكن يتوخّى كثيراً الحذر حين يكون في قصره. لكن الأمير محمد كان مطّلعاً أكثر على تلك الأحداث الدموية، فقد كان يعلم أنّ جده عثمان قد قتل عمه دوندار بيك - عاد ذلك البريق الذي يثير حنقي، يلتمع في عينيه مجدّداً ولكنني بقيت محافظاً على صمتي - وتلك كانت الحادثة الأولى التي يتم فيها سفك الدماء بين الأقرباء داخل السلالة العثمانية، ولكنها للأسف لم تكن الأخيرة. فقد استمر المرشّحون لتولّي العرش بسفك دماء أقربائهم، وقبل أن يتحوّل الأمير إلى سلطان، كانت المخاوف تنتابه. فقد كان هناك شقيقه الأكبر علاء الدين والذي من الممكن أن يقتله، ولكن والده المعروف بطيبة قلبه ورحابة صدره كان لا يزال حياً، ولكن المخيف بالنسبة إليه، أنّ هذا الأب سيموت يوماً ما.

لم أعد قادراً على تحمّل كلمات هذا الطبيب المشهور وأخذت أتحدّث والغضب يتملّكني:

- لا أعلم ما الذي تريد الوصول إليه، أتلمّح إلى أنّ الأمير محمد الثاني قتل والده وشقيقه علاء الدين علي من أجل أن يضمن الاستيلاء على العرش؟

بقي محافظاً على لباقته وهدوئه:

- لا، لا - قالها وهو يهزّ يده في الهواء كمن يبعد عني هذه الأفكار - لا أعلم من أين جئت بهذه الفكرة، فموضوعنا ليس الأمير محمد كما تتصوّر، ولست من المهتمين به.

- ولكن موضوع قتل الأب..

لم يسمح لي بإتمام جملتي.

- أجل، تعني تلك الدراسة التي قمت بإعدادها عن دوستويفسكي.. في الحقيقة من الصعب القيام بدراسة موثوقة وعلمية حول سلطانكم أيضاً بل أعتقد أنها مستحيلة. فأنا أعترف أنّ السلطان كان شخصية متميزة جداً، ولكن علم النفس تماماً كالتاريخ يحتاج إلى وثائق ومصادر كثيرة للقيام بأي دراسة. وللأسف ليست هناك معلومات كافية حول سلطانكم معقوف الأنف كمنقار الصقر. على النقيض من المسكين دوستويفسكي الذي

استطعنا أن نفكّك شخصيته ونعيد ترتيبها، وذلك بفضل الأعمال الوفيرة التي تركها لنا. فكل رواية من رواياته تعتبر موضوعاً متكاملاً لدراسة نفسية.

- إذاً، لِمَ كل هذا الحديث عن السلطان محمد الفاتح؟

قبل أن يرد على سؤالي وضع السيجار الذي بدأ يتقلّص بشكل ملحوظ على طرف المنفضة.

- برأيك ما هو السبب؟ – رمقني بجرأة واضحة.
- أتعني بسببي؟ – لم ألمح حينها في عينيه أي بريق.
- أجل من أجلك أنت، وفهم سبب اهتمامك الزائد بالسلطان الفاتح.. لِمَ ينشغل عقلك الباطن بهذا السلطان إلى هذه الدرجة الكبيرة؟ أهناك علاقة بين هذا الهوس ومرضك النفسي؟

هذا الرجل الذي توفي قبل أكثر من سبعين سنة، يجلس أمامي الآن وقد خلت قسمات وجهه من أي تعبير يرشدني إلى ما يرمي إليه. كان هناك خواء عميق أشعرني بالفزع وأنا أواصل النظر إليه رغماً عني.

- مرضي؟.. أتعني الشرود النفسي؟

تساءلت والهلع يحبس أنفاسي:

- الشرود النفسي.. أنت تتحدث عن البدايات وعن المرحلة الأولى من المرض، ولكنه أصبح جزءاً من الماضي، فحالياً لدينا مشاكل أكثر خطورة.
- مشاكل؟.. – بدأ الحنق الذي أشعر به نحو طبيب المجانين هذا يزداد مع إصراره مواصلة الحديث بهذه الطريقة الغامضة. وبدأت أتساءل عن سبب اهتمامه بمشاكلي وخطر لي أن أبادر بالقول عليك التخلّص أولاً من مشكلتك، هذا السيجار ذي الرائحة الكريهة قبل أن تُصاب بسرطان الرئة، ولكنني اكتفيت بالقول:
- وما هي هذه المشاكل؟
- فصام جنون العظمة..

كان يتكلّم بهدوء وكأنه يخبرني بأنني مصاب بنوبة زكام:

- في الحقيقة الشرود النفسي، أي نوبات فقدان الذاكرة التي تتعرض لها لا

علاقة بفصام الشخصية. ولكن لسوء حظك فقد اجتمع لديك المرضان في الوقت ذاته. اعذرني على صراحتي ولكنها أمر مفيد ليواجه المريض الحقيقة ويبدأ بالعلاج. للأسف سيد مشتاق، أنت مصاب بفصام جنون العظمة.

بدأت بالدفاع عن نفسي وكأنني ارتكبت ذنباً ما، فأنا لست مصاباً بهذا المرض الذي يتحدث عنه، لأنني لا ألقي اللوم في ما أفعله على الآخرين بل أتحمّل الوزر وأعترف بذنوبي كلها، ولكن جنون العظمة..

حينها أطلق قهقهة صغيرة ولم يمهلني سرد بقية أفكاري، بل بدا وكأنه قادر على قراءتها:

- إذاً فلديك معلومات حول علم النفس أيضاً؟..- وبعد لحظات من الصمت- لماذا قتلت نزهت؟ كيف فعلت ذلك وأنت تدّعي أن شعور الذنب يلازمك على الدوام؟..

كان يتحدث بنبرة بالغة الجدية وهو يوجّه إليّ هذا الاتهام الخطير. وأكمل بعد أن بقيت صامتاً دون جواب:

- لقد قتلت أملك الوحيد في هذه الحياة.. حين قتلت المرأة التي أحببتها كل هذه السنوات، قتلت الدافع الذي يبقيك حياً يوماً بعد يوم..
- كذبٌ- صرختُ- كذب، فأنا لم أقتلها. لقد قُتلت قبل أن أصل إلى منزلها.

بقي محافظاً على هدوئه المعهود:

- أتعني أنّ أحداً آخر قتلها؟

لم أستطع إبداء الموافقة، وذلك بسبب تعليمات والدي التي تتشبّث بذاكرتي، وبسبب الصراحة التي أجبرني على الالتزام بها "الأشخاص الذين لا يُعاقبون على أخطائهم يشكّلون الأسباب الرئيسية للفوضى والمصائب التي تحل بشعبنا"..

- حسناً..- قالها طبيب المجانين عندما لاحظ أنني بقيت محافظاً على صمتي- ربما لم تفعل ذلك، بل الرجل الآخر الذي رأيت وجهه الحانق في مرآة حمامك..

أثار اطلاعه الواسع على تفاصيل حياتي دهشتي وحنقي في الحين ذاته، ولم



تستطع نظرات أمي الحانية ولا توجيهات والدي الصارمة أن تكبح الغضب الذي بدأ يتصاعد ويمزّق كل شيء إلى شظايا متناثرة، وبدأت قبضتا يديّ تتشنّجان دون إرادة مني، وأخذت نظراتي تتجول على سطح الطاولة لتستقر على علبة الأقلام، فلمحت نصل السكين الفضية التي نُقش عليها ختم السلطان محمد الفاتح، تلك السكين التي غرزتها في عنق نزهت. بدت وكأنها تخاطبني: "ما الذي تنتظره؟ أمسكْ بي واغرزْني عميقاً في عنق هذا العجوز الخرف الذي أطاحت تخيّلاته الجنسية بعقله، طبيب المجانين الذي يتشدّق طوال هذا الوقت.. هيّا ما الذي تنتظره؟.." مددت يدي نحو العلبة وأنا ألبي نداء السكين، ولكن العجوز تصرّف بخفة لا تتناسب مع سنّه، وتمكّن من سحب العلبة نحوه قبل أن أصل إليها..

– لا، لا.. لن تتمكّن من قتلنا جميعاً..

وحمل الجرس الذهبي الصغير القريب منه وبدأ يهزه "رن رن رن" وكأنهم كانوا بانتظار هذه الإشارة لاقتحام الغرفة. تلفتُّ لأرى من الداخل، فوجدت مساعدي الأستاذ طاهر؛ جتين وإرول، عندها انتابتني الراحة وبدأت بالتوضيح لهم:

– أنا بريء مما يقوله.. لا تصدّقوا كلمات هذا الرجل.

– حسناً أستاذ مشتاق، اهدأ قليلاً.

حاول إرول أن يهدأ من روعي وقد بدا عليه الأسى. لقد كنت على الدوام أميل لهذا الشاب وأستلطفه على عكس الآخر، جتين، الذي كان يرمقني بعداوة واضحة ويراقب حركاتي، ومن ثم اقترب مني وهو يقول:

– تستطيع أن توضّح ذلك للطبيب الذي سيفحصك في السجن – أعلن حكمه القاسي ضدي وهو يكمل بنبرة آمرة – والآن عليك أن تأتي معنا..

أدركت حينها أن لا أمل منه فاتجهت نحو إرول:

– لا تصدّقوا كلمات هذا العجوز الخرف، فهو يضمر لي الشر وينوي أن يحجر عليّ في مستشفى للأمراض العقلية..

لم يصدق الشاب الآخر كلمة مما أقوله ولكنه بقي محافظاً على لباقته وهو يتحدث:

– هذا أفضل الحلول يا أستاذ، ولا تقلق فسنظل نزورك باستمرار.

- مستحيل – قلتها صارخاً وأنا أركض نحو الباب، ولكنهما تمكّنا من الإمساك بي – اتركاني، اتركاني – بدأت بالصراخ – اتركاني أيها الوقحان وإلا سأخبر الأستاذ طاهر عن وقاحتكما هذه.

كان إرول الذي يمسك ساعدي يحاول أن يبرر لي بأكبر قدر من الهدوء ما يفعلانه:

- اهدأ أستاذ مشتاق، أرجوك اهدأ ولا تخف..

كان صوته يتغيّر مع كل كلمة ليتحول إلى صوت امرأة:

- سيد مشتاق.. سيد مشتاق..

عندما فتحت عيني بدأ شكل الغرفة أيضاً يتغيّر أمامي، وأصبحت الغرفة التي كان يجلس فيها سيغموند فرويد تتحوّل شيئاً فشيئاً إلى غرفتي المملّة الرتيبة الشكل. ورأيت وجه سيدة يظهر من الباب المفتوح على مصراعيه. لقد كانت كديفة ترمقني قلقلة وهي توضح:

- أعتذر سيد مشتاق لأنني أيقظتك، ولكنْ هناك رجلان على الباب وقد أخبراني أنهما من الشرطة ويريدان التحدث إليك..

(11)

الذين لا يحملون الحياة على محمل الجِدّ
تبادلهم الحياة بالمثل

يبدو أنني استغرقت في نوم عميق تحت تأثير حبّة المنوّم التي أخذتها بعد منتصف الليل، ولم أستيقظ بعد ذلك سوى على صوت السيدة كديفة وهي تنبئني بالخبر المشؤوم، فأدركت حينها أنّ طبول الحرب قد قرعت وأنّ العدو قد أصبح على الباب. كانت مشاهد الحلم الذي رأيته طازجة في ذهني وهي تخلط بين الحقيقة والوهم وتؤكد هول المصيبة التي تنتظرني:

- يقولون إنهم من الشرطة..

على الرغم من إدراكي التام بأن الشرطة ستصل إلى بابي عاجلا أم آجلاً، فهو أمر لا يمكن تداركه، كما لا يمكن تدارك الشمس التي تشرق بسطوع بعد انجلاء العاصفة. ورغم أنني كنت مزمعاً على تصنّع الفزع لدى سماع الخبر، ووضع قناعٍ من الألم والدهشة على وجهي، ولكن الحياة تغيّر كل مخططاتنا على الدوام.

ويحق لي إبداء الدهشة لمجرد رؤية الشرطة على بابي، فأنا شخص محترم ومعروف بحسن خُلُقه، وسليل عائلة مرموقة، ولم يرتكب جريمة قتل في حياته..

أنا، ذلك المخلوق المخادع الذي يظن الجميع أنه لا يستطيع ارتكاب أي خطأ، المعروف بدماثة خلقه والذي لا يتدخّل في شؤون غيره مطلقاً.. ومن المستحيل أن أقوم بقتل التي أحببتها أكثر من أي شخصٍ آخر، ذلك أنني لست بارعاً في أي شيء. وبالكاد قادر على مواصلة عملي.. رجل بمثل هذه الشخصية الضعيفة من المستحيل أن تكون لديه أسرار دامية.

عندما لاحظت السيدة كديفة الخوف الذي بدا في عينيّ، انتقل إليها الخوف ولكنها لم تجرؤ على طلب توضيح ما.



- ماذا؟.. الشرطة؟..

سأتبنّى انطباع الدهشة كلما ضاقت بي السبل، وسأختبئ وراء قناع من المكر والخداع، وسأبدأ بسرد الأكاذيب كأي قاتل محترف.. سأتّبع كل الأساليب الملتوية لإنقاذ نفسي..

- عجباً.. ما الذي يريدانه في هذا الوقت الباكر؟..

بدأت أفرك عينيّ بكل هدوء، مبدياً الانزعاج لمجيئهما في هذا الوقت المبكر من الصباح، وعلى الفور اختفى الخوف من وجهها وبدأت توضح لي:

- ربما قدما من أجل السرقة التي حصلت قبل أيام عدة في الحي، ففي الأسبوع الماضي قام بعض اللصوص بمحاولة سرقة منازل عدة مجاورة.. ألا تذكر حين حاولوا فتح باب البناء أيضاً.

المسكينة تعتبر أنّ أكبر الذنوب المرتكبة في العالم هي السرقة، ذلك لأن هذه التهمة قد بقيت عالقة في ذهنها إثر اتهام خالتي المتكرر لها.. وأعتقد أنّ البداية كانت مع اختفاء عقد (عين الياقوت) الذي ورثته عن جدتي.. كنت حينها مساعداً للأستاذ طاهر، وكانت هي امرأة في مقتبل العمر.. وعلاقتي مع نزهت كانت في أوجها، وقد احتل هذا العقد مكانة مميّزة لدى جدتي وقد أهدته إليها جدتها بعد ولادة أول أبنائها.. تلك المرأة التي كانت تكنّ لها كثيراً من الحب والاحترام والتي أطلقت اسمها على اسم إحدى بناتها؛ شاهيستة. لكن خالتي لم ترث عن الجدة أيّا من صفاتها ودماثة خُلُقها، فقد كانت سليطة اللسان ذات طبع حادّ..

"صدقيني سيدتي، أنا لم آخذ العقد، أقسم لك بحياة أبنائي الصغار..".

كان عقداً من الذهب تتخلّله أحجار من الياقوت، وكان لهذه الأحجار أسماء عدة.. عين الياقوت.. العين الصامتة.. وكانت تُشبّه بعين الحبيب المحمرة بسبب دموع الفراق.. وكان لهذا العقد قرطان بحجري ياقوت أصغر حجماً. وقمت بإهدائه مع قرطيه إلى سلطانة قلبي فيما بعد، فقد كان من السهل عليّ إغداق الهدايا على حبيبتي، ولكنني كنت أتكبّد مشقة كبيرة في التعبير عن مشاعري من خلال الكلمات.. إنهما صفتان متناقضتان ورثتهما عن والدي.. من جهة هناك الكرم اللامتناهي الذي اتّصفت به والدتي، ومن جهة أخرى هناك التكتم على المشاعر وإخفاؤها، وهما ما

برع فيه والدي.. وأحمد الله أنني لم أرث عن خالتي شاهيستة أي شيء. وخاصة ميلها للافتراء على كل من حولها، تلك الخصلة المؤذية التي جعلتها تتّهم الخادمة المسكينة على الفور وهي تصرخ بوجهها:

"هيّا أخرجي العقد.. أين خبّأته؟..".

ويبدو أنّ المسكينة منذ تلك اللحظة يتنابها ذعر شديد من تهمة السرقة، والتي كانت وصمة عار في سجلها الخدمي النظيف.. ولكنها لم تكن تدرك فداحة ارتكاب جريمة قتل، فالسيد مشتاق؛ سليل العائلة المحترمة، والذي كان يسكن قصر جده وهو أحد أعيان منطقة بهرية، قد قام بقتل أحدهم.. أحدهم؟.. كيف تحولت نزهت إلى أحدهم وقد كان الكل فيما مضى يعتبرها كنّة القصر؟ وحتى السيدة كديفة كانت تردّد على الدوام أننا أكثر العشّاق ملاءمة أحدنا للآخر، وتبتهل لنا بالدعوات لحمايتنا من أعين الحساد.. ولكنني تسلّلت إلى منزلها كأي مجرم محترف بعد واحد وعشرين عاماً وقتلتها دون أن يراني أحد.. ولكن في حال لم يَرَني أحد بالفعل، ما الذي تفعله الشرطة أمام بابي؟

ولكن من المستحيل أن تكتشف الشرطة، فقد مسحت بصمات أصابعي عن غلاف المجلة وأوراقها، وعن الستائر ومفتاح الكهرباء وكل مكان لامسته خلا غرفة المكتب والمطبخ، فقد كان جرس الهاتف الذي بدأ بالرنين في منزلها منعني من إتمام مهمتي القذرة، وخانتني الجرأة، ولذت بالفرار من ذلك البيت المشؤوم.. على أي حال لن يطول الأمر حتى أعرف الحقيقة، لذا عليّ التحلّي بأقصى درجات الهدوء.. وفيما تتوالى الأفكار والذكريات في ذهني كانت كديفة لا تزال واقفة عند الباب تنتظر ما سأقوله لها، وكان عليّ التصرف سريعاً فلن أستطيع مهما فعلت التهرّب من المواجهة..

– حسناً.. اطلبي منهما الدخول وسأذهب لرؤيتهما بعد لحظات..

اختفت كديفة حتى قبل أن أكمل كلماتي، ودون أن تلقي بالاً لما يعتمل في صدري من مخاوف. وأدركت بأنني يجب أن أتصرّف سريعاً، فنهضت من السرير وارتديت بنطال الأمس دون أن أهتمّ إن كان مكويًّا بشكل جيد، وهذا ما لا أفعله مطلقاً، ولكن الضرورات تبيح كل شيء على ما يبدو.. ثم ارتديت القميص وبدأت

أزرّره بأصابع مرتجفة، فيما تناهى إلى مسامعي صوت أشبه بجرس إنذار:

- أحقاً تظن أنك تستطيع أن تخدعهم؟

كان صوت الرجل الحانق الذي ظهر في مرآة الحمام، وكان يطل هذه المرة من مرآة باب الخزانة:

- ستجد رجال الشرطة يلاحقونك في كل مكان، في المنزل والجامعة والشارع.. أما زلت مصراً على اعتقادك بإمكانية خداعهم؟

واصلت ارتداء ملابسي متصنّعاً اللامبالاة..

- واجهني أيها الجبان – قالها بنبرة حادة – فتصنّعك اللامبالاة لن ينقذك من هذه الكارثة..

استمدّ مجنون المرآة جرأة أكثر من بقائي صامتاً، وبدأ صوته يتحول إلى توبيخ وهو يكمل:

"لا تخدع نفسك، فلن تستطيع النجاح في الأمر. فكلانا يعرف مدى ضعفك، ولا تنسَ المشاكل النفسية التي تعاني منها"..

وفيما كان يواصل توبيخه كانت نبرة صوته تقترب شيئاً فشيئاً من نبرة صوت والدي وأظنني بدأتِ أرتجف بالفعل.

"أبهذه الشخصية الضعيفة ستواجه السلطة؟.. ستواجه شرطتها وموظفيها وأنت مرتعد الفرائص؟.. لقد مرّ عليّ الكثير من الأفّاقين والمخادعين أثناء ممارستي لوظيفتي، ولا أذكر أنّ أيّا منهم كان بمثل غبائك وضعف شخصيتك، ولكنهم جميعاً نالوا الجزاء الذي يستحقون في نهاية المطاف.. كُنْ منطقياً ولو لمرة واحدة واذهبْ إليهم واعترفْ بجريمتك، وأخبرْهم أنك ألقيت بأداة الجريمة في قعر البحر"..

بدأ مجنون المرآة يضحك مقهقهاً، كانت ضحكة ملؤها السخرية والاحتقار.. حينها أدركت أنه من المستحيل أن يكون والدي، فهو ما كان ليسخر من أحد على الإطلاق.. "الحياة أمر جِديّ، والذين لا يحملون الحياة على محمل الجِد تبادلهم الحياة بالمثل.. واللامبالاة هي أسوأ ما يمكن أن يُبتلى به الشخص..".

لقد كان والدي محقاً، فهذا الرجل الذي لا يحملني على محمل الجد، ويسخر مني متهماً إياي بالضعف، وهو يرميني بأخطائي ككرات ملتهبة.. ما هو إلا مسكين

يحاول مواراة ضعفه. إنه مسخ يتفوق عليّ بأمراضه بمراحل متقدمة..

- لا.. – قلتها لرجل المرآة المخادع – لن أستسلم ولن أعترف بشيء، وإن استطاعوا فليجبروني على الاعتراف.

"أيها المسكين.. أنت بهذا ستثير غضبهم وحنقهم، وحينها ستسوء الأمور أكثر بالنسبة إليك.." وفجأة ارتفع صوته وبدأ بالصراخ" أيها الغبي، ألا تدرك أنك تسير إلى حتفك بقدميك؟"..

على الرغم من أنّ حديثه بدأ يتحوّل تحقيراً، لكنني لم أبالِ به، لأنني كنت مدركاً تماماً أنه مهما حاول فلن يتحوّل إلى والدي، فما هو إلا جبان يحاول أن يغطي على خوفه بالصراخ، وقد انتابتني رغبة بمصارحته برأيي بل وحتى شتمه والشجار معه علّه يتركني وشأني، ولكنني كنت أذكى من أن أرتكب حماقة كهذه والشرطة تقبع رابضة في منزلي. لذا فقد أدرت ظهري للمرآة وأنا أدمدم بأننا سنتواجه لاحقاً، وقد نجح الأمر، فذلك الدعيّ الذي كان ينعتني بالخوف والضعف اختفى كما ظهر. حينها وقعت نظراتي على صورة جدتي وهي تتوسّط بناتها جالسة، وقد ارتدت وشاحها الفضي..

"مشتاق لا يستطيع أن يكذب بتاتاً".. لم يكن صوت مجنون المرآة هذه المرة، ولكن من منهن كانت تتحدث؟ جدتي أم والدتي؟..

"ذلك لأنه طفل مجبول على الصدق".. كان هذا صوت والدتي المفعم بالحب والشفقة على الدوام، فيما كانت خالتي تحكّ أنفها وهي تهمس في أذن جدتي "لأنه غبي.." وقد تجاهلت والدتي التي سمعت الجملة مثلي بوضوح تام وأدارت وجهها إلى الجهة الأخرى. ولكن الغريب أنّ جدتي التي كانت تجلس على أريكتها المفضّلة شعرت بالغضب من كلام خالتي وقالت وهي ترمق الحوض الموجود في الحديقة بنظرات حانقة:

"الغبية هي أنتِ.. ذلك أنك لم تعرفي كيف تحافظين على زوجك..".

لكن خالتي ضحكت بكل وقاحة ولامبالاة..

"وحفيدك أيضاً يماثلني الغباء في هذه النقطة، فقد أضاع تلك الفتاة الجميلة، حيث تركته وفرّت هاربة إلى أميركا، لقد تركت حفيدك الأحمق هذا لأنها فتاة ذكية

تعرف ما تفعله"..

لا لم تحدث هذه المناقشة مطلقاً، ففي تلك الأوقات كنت صغيراً، ولم أكن أعرف نزهت بطبيعة الحال، ولكن جدتي ظلّت تواصل التحديق إلى الحوض، ويبدو أنها شاهدتني وأنا أقبّل شازية، وبدأت نظرات التأنيب والخجل في عيون النساء الثلاث في الصورة المعلقة على حائط غرفتي..

"ولكنها مثل أختك"..

أدرت وجهي بسرعة والتقيت من جديد مجنون المرآة الذي كان يضحك بخبث. ولكنني مصرّ على ألاّ أستسلم، سأتعلم الكذب الذي يمارسه الجميع ببساطة وإتقان، فلم أعدْ ذلك الطفل المجبول على الصدق. أنا الآن رجل مخادع ارتكب جريمة قتل، ويريد امتهان الكذب للنجاة بنفسه.. أنا الطفل الذي لا يكتب واجباته المدرسية رغم كل تحذيرات والده، أنا المؤرخ الذي لا يبالي بقواعد العلم وهو يمارس مهنته، أنا المجرم الذي يرتكب جريمة قتل بكل بساطة، والطفل الذي تجرأ على تقبيل الفتاة التي كانت بمنزلة أخته.. أهناك ما هو أسوأ من كل هذا؟

(12)

كل الدماء التي أُريقت على الأرض اختلطت بدمائك

غسلت وجهي على عجل وتوجهت إلى غرفة المكتب لأجد رجلي الشرطة بانتظاري. كان أكبرهما سناً مربوع القامة خطّ الشيب رأسه، وقد سمح لنفسه أن يقف وراء طاولة مكتبي دون إذن مني وكان يتفحّص بفضول النسخة التركية التي نسيتها أمس على الطاولة من كتاب (عصر السلطان محمد الفاتح) لبيبينغير. أما الآخر فقد كان شاباً يقف أمام المكتبة، والمصيبة أنه كان يقف أمام الرف الذي صُفّت عليه كتب تولستوي، وقد وضع سبابته على كتاب السلم والحرب. وقد أفزعتني فكرة أن يخرج (سوناتا لكروتزر) ليواجهني قائلاً "حسناً سيد مشتاق، علمنا أنك كنت تقرأ البارحة هذا الكتاب وذلك قبل حدوث الجريمة.." ولكنني على الفور أدركت تفاهة الفكرة، فكيف لهم أن يعلموا ما كنت أقرأه؟ وكيف لقراءة كتاب أن تصبح دليلاً على تورّطي في الجريمة؟.. على أي حال حاولت التخلص من هذه الوساوس رغم أن الضيق لم يزايلني بسبب رؤيتهم في مكتبي، وهو غباء من كديفة التي سمحت لهم بدخول غرفة مكتبي، في حين أنها كانت تستطيع إبقائهم في غرفة الجلوس. أيعقل أنني من طلب منها ذلك خلال تلك اللحظات العصيبة حيث كانت حدود الواقع والحلم تختلط في ذهني؟ ولكن لا فائدة من الندم بعد أن وقع المحظور.

- صباح الخير.

ابتسم الأشيب عندما رآني وتوجّه نحوي دون أن يترك الكتاب من يده:

- أعتذر لأنني تفحّصت الكتب الموجودة على طاولتك – ثم أكمل وهو يشير إلى الكتاب الذي يحمله – السلطان الفاتح هو أكثر السلاطين الذين يثيرون اهتمامي، وعندما رأيت كتاب بيبينغير لم أتمالك نفسي من تفحّصه، فقد أنهيت قراءته منذ بضعة أشهر..



بالطبع لم أصدّق روايته السمجة حول اهتمامه بالتاريخ، وتحديداً بالسلطان الفاتح، فلا بدّ أنها محاولة لاستدراجي..

- لا عليك - حاولت أن أبدي أقصى ما لديّ من اللباقة ورحابة الصدر - إذاً فأنت تحب التاريخ..

وضع الكتاب على الطاولة بهدوء وهو يقول:

- أحب التاريخ بشدة، وأحترم المؤرّخين على وجه الخصوص، فقد كانت والدتي مدرسة لمادة التاريخ - وتخلّلت صوته نبرة دافئة وهو يتحدث عنها - بالطبع لم تكن في مثل مستواك العلمي فبعد تخرجها من الجامعة عملت في التدريس مباشرة..

- لا أرجوك، لا تقل ذلك فهناك الكثير من مدرسي مادة التاريخ الذين يفوقون أهم المؤرّخين علماً وتبحّراً ومعرفة..

لا بدّ أنّ كلماتي قد راقت له، لتتسع الابتسامة على وجهه فتقدم نحوي خطوات أخرى وهو يمدّ يده مصافحاً..

- أنا نفزت، المحقّق نفزت وزميلي علي.

- المحقّق علي - أضاف الشاب ذو النظرات القاسية - لديك مكتبة كبيرة جداً، وهي أكبر من المكتبة الموجودة في منزل سيادة المحقّق بكثير..

اصطنعت ابتسامة تماثل ابتسامة المحقق الكهل على وجهي وأنا أخاطب الشاب:

- أتحب الكتب؟

بدت علامات الحرج على وجهه وهو يوضح:

- في الحقيقة أحبها - وتوجه بنظراته نحو رئيسه في العمل مردفاً - ولكننا لا نملك الكثير من الوقت - وأشار إلى كتاب تولستوي الحرب والسلم - لم أقرأ شيئاً لهذا الكاتب ولكنني قرأت كتاباً آخر لدوستويفسكي، سيدي أنت من أعطيتني إياه، ذلك الكتاب الذي يتحدث عن شاب يدرس الحقوق على ما أظن ويقوم بقتل امرأة مرابية من أجل النقود، ولكنه لا يتحمّل عذاب الضمير ويقوم بتسليم نفسه للشرطة..

ضحك نفزت وهو يقول:



- كيف لك أن تنسى كتاباً بهذه الشهرة، إنه الجريمة والعقاب وهو يشكل جوهرة أعمال دوستويفسكي..

عاد الأمر بنا مرة أخرى إلى دوستويفسكي وبيبينغير والسلطان الفاتح، كما كانوا موجودين جميعاً في غرفة نوم نزهت ولا شك أنّ فرويد أيضاً سيحضر بعد قليل بسيجاره الكريه، والأسوأ من كل ذلك أنني كنت مضطراً للمشاركة مجدّداً في كل هذا الهرج..

- إنها راوية مدهشة، فراسكولنيكوف شخصية متفرّدة جداً..

بدا الاهتمام على وجه علي وهو يقول:

- أجل، أجل. ذاك كان اسمه، ولكنني لا أظنه بطلاً بل شاب ذو شخصية ضعيفة..

- بل ذو ضمير حي – أضاف الكهل وهو يرمقني. أكان يوحي لي للاعتراف بجريمتي؟ وقد شاركه علي تلك النظرات المدقّقة التي صوّباها نحوي، كمن ينتظران ما ستؤول إليه هذه المحادثة.

وبالتأكيد كانت محاولة منهما لدفعي من أجل الاعتراف، كما يحدث في الأفلام الأميركية حيث هناك الشرطي الجيد والشرطي السيئ، ولكنّ هذين يتّبعان لعبة أكثر تعقيداً وإثارة على ما يبدو.. إلا أنّ مشتاق سرهزين لن يكون ذلك الفأر المسكين الذي تتلاعب به القطة وعليهم أن يدركوا ذلك..

- أن يكون الإنسان ذا ضمير حي هو ألاّ يستطيع الاستمرار في الحياة مع وزر الجريمة التي ارتكبها. فكيف لأحدٍ أن يكمل حياته ويداه ملطّختان بالدماء – أكملت فيما بقي الاثنان يرمقانني بصمت – كيف لي أن أساعدكم؟.. أأتيتم من أجل حادثة السرقة التي حصلت؟

لمع بريق فضولي في عيني نفزت، كصياد اشتم رائحة فريسة:

- أي سرقة؟

- حدثت بعض حوادث السرقة في حيّنا منذ فترة، فقد قام بعض اللصوص بعدة سرقات حتى أنهم حاولوا اقتحام المبنى الذي نقطنه.. – تمهلت للحظات قبل أن أردف – ولكن يبدو أنكم لا تهتمون بهذا النوع من الجرائم.

- لا – أجابني الأشيب – نحن من فرع التحقيق الجنائي..

كان يقف في مواجهتي ليراقب أدنى تغيير يبدو علي، بينما كان مساعده يرمقني بنظرات جانبية متفحّصة ليلحظ ما قد يفوت المحقق نفزت. كانا كصيادين محترفين يحومان حولي، منتظرين أدنى هفوة للانقضاض، وأحسست بأن قواي بدأت تخور..

"كلانا يعرف أنك ضعيف الشخصية..".

كنت على وشك الاستسلام فلن أستطيع التنصّل من أمر بهذه الخطورة، وكنت قاب قوسين من الاعتراف حين سمعت أحدهم يصرخ "لاااا.. عليك أن تريهم قدراتك الحقيقية".. قد يكون ذلك البطل الذي يقبع في أعماقي والذي لم يسعفني الحظ لسماع صوته إلا في لحظات نادرة من حياتي، أو الشيطان الساكن في ظلمات روحي والذي لم تكن علاقتنا على خير ما يُرام قبل أن أتلقّى ذلك الاتصال المشؤوم البارحة.. أيًا كان صاحب الصوت، فقد راقتني فكرة تقمّص دور الشرير..

- فرع التحقيق الجنائي – قلتها وقد اتّسعت عيناي دهشة – هل من مكروهٍ ما؟..

أشار إليّ المحقّق نفزت بخبرته الواسعة كي أجلس على الكرسي:

- تفضّل بالجلوس يا أستاذ..

عظيم! يبدو أنهما يصدّقان ما قلته، وقد شعر المحقق بالخوف من تأثير الصدمة عليّ..

- ولِمَ سأجلس – حدّقت إلى وجهيهما كمن يتلهّف وجلاً لسماع الخبر – ما الذي يحصل؟

- نزهت.. هل تعرف نزهت أوزجان؟

سألني الشاب بكل برود دون أن تكون لديه أدنى فكرة عن العواصف التي تعتمل في روحي.

فرمشت عيناي بتواتر وأنا أجيب:

- بالطبع أعرفها – وأجبت في الحين ذاته عن السؤال الذي يدور في ذهنيهما – لقد اتصلت بي البارحة، وقد اتّفقنا على أن نلتقي اليوم..

يا لك من غبي ثرثار، لِمَ تفوّهت بكذبة كهذه؟.. ما كان عليّ الاندماج بالدور

إلى هذه الدرجة، فماذا لو سألاني عن سبب لقائنا اليوم؟

- وما الذي تحدّثتما عنه الأمس..

تنهّدت مرتاحاً لأنهم لم يقفوا كثيراً عند كذبتي، ولكن لا، لن أجيب على هذا السؤال، بل سأبدأ أنا باستدراجهما إلى الكلام مبدياً الحيرة والخوف:

- لِمَ تسألان؟.. ما الذي جرى؟

لكن المحقّق الحذق أشاح بنظره عني للحظات قصيرة، وعندما عاود الحديث بدأ يحدق إليّ مجدّداً ليراقب كل تحرّك يبدر مني وهو ينبئني بالخبر المشؤوم.

- آسف سيد مشتاق.. لكن السيدة نزهت قد ماتت..

رفعت رأسي قليلاً بمباغتة مدروسة وبدأت نظراتي تنتقل بينهما، فيما بقيت صامتاً للحظات، وكأن الكلمات لا تعرف طريقها للخروج. وأخيراً سألته:

- ماتت؟.. ما الذي تعنيه؟..

- لقد تم طعنها بأداة حادة في عنقها – أوضح لي علي وكأنه يتحدث عن أكثر الأمور اعتيادية في الحياة، وكأنه يخبرني أنها ارتدت معطفها الأخضر وخرجت للتنزّه في الجوار – يبدو أنّ أحد المعاتيه قد طعنها بواسطة سكين في عنقها، وكانت الضربة قاصمة بحيث..

عندما كنّا صغاراً كانت جدتي تروي لنا قصة الأمير الذي يذهب لقتل التنين ذي الرؤوس السبعة، ومن أجل قتله كان يغرز سيفه الحاد في عنقه، ولكن التنين كان يترجّاه قائلاً: "أنا أتألّم كثيراً، اطعنّي مرة أخرى لكي أتخلّص من هذا الألم المضني، اقتلني لكي أرتاح من هذا العذاب.." ولكن الأمير كان يدرك جيداً أنه ما إن يطعن التنين مرة ثانية، فإن أثر الضربة الأولى سيشفى، لذا لم يكن لينخدع بابتهالات التنين..

ربما كان عليّ أن أخالف مسيرة الأمير، وأعاود طعنها ثانية علّها تعود إلى الحياة مجدّداً.

- يبدو أنّ المسكينة لم تتمكّن من إصدار أيّ صوت.. فقد فارقت الحياة على الفور وبقيت جالسة على كرسيها دون أن تغير من وضعيتها، ويبدو أنّ المجرم كان محترفاً جداً، فقد غرس السكين في مقتلٍ، حتى أنّ العقد الذي كان حول جيدها بقي على حاله ولم ينقطع..

عقد؟.. لا أذكر أنها كانت تضع عقداً.. ولكنني لست متأكداً من شيء الآن، كل ما أذكره هو ذلك البريق الذي كان ينعكس على عنقها؟.. أكان انعكاس الضوء الصادر من الشارع على السكين المغروسة في عنقها؟.. لا لا، لا أذكر أنها كانت تضع أي عقد.. إذاً لا بدّ أنّ الشخص الذي أتى من بعدي هو من وضع العقد.. أي شخصٍ هذا؟

لو لم يتمكّن نفزت من الإمساك بي لكنت سقطت أرضاً، فقد انتابتني نوبة دوار حادة جعلتني أترنّح أمامهما:

– سيد مشتاق انتبه..

ولا بدّ أنني كنت شاحباً جداً، حتى أنّ ذلك الشاب اللامبالي تخلّى عن بروده وهبّ لنجدتي..

– حسناً، لقد أمسكت به سيدي، دعنا نجلسه على الكرسي.

ورغم ذلك كنت أشعر بتناقض غريب فأنا كنت مجرماً بين ساعدي اثنين من المحقّقين اللذين يساعدانه مشفقين على حاله.. وبعد لحظات وصلتني أصوات الفزع التي أصدرتها كديفة..

– يا إلهي!.. سيد مشتاق.. ما الذي حصل لك؟...

ولكن متى دخلت إلى الغرفة؟.. هل بقيت غائباً عن الوعي لفترة طويلة؟.. هل تفوّهت بشيء أثناء ذلك؟.. لكن صوت نفزت المطمئن جعلني أستعيد بعضاً من رباطة جأشي..

– أحضري كأساً من الماء...

عادت الأمور لتتّضح في ذهني وبدأت ملامح وجهيهما المختلطة تعود إلى أماكنها.. الأشياء والكتب والصور وغرفة مكتبي التي استولى عليها الأعداء عادت لتأخذ شكلها المعهود.. الأعداء؟.. ولكن نفزت لا يبدو عدواً على الإطلاق، بل يتعامل معي كصديق يعرفني منذ أربعين سنة.. يا لعقلي المسكين الذي يبحث عن أي بارقة أمل، عليّ ألاّ أنسى أنه شرطي جاء ليحقق معي في جريمة قتلت اقترفتها. ولكنني لن أنكر أنه كان لطيفاً معي..

– النافذة.. افتح النافذة يا علي..



الضوء المنسكب من النافذة ونسمة الهواء المنعشة التي هبّت علينا جعلتني أشعر ببعض الانتعاش..

– تنفّس بعمق أستاذ مشتاق.. تنفّس بعمق..

يبدو أنّ الشرطي الكهل بدأ يحبني بالفعل ويعاملني باحترام واضح، ولكنني أدركت خطورة هذا الرابط العاطفي الذي بدأت أنشئه في ذهني. "آخر من يجب أن يثق بهم القاتل هم رجال الشرطة".. عاد أبي وعادت تّرهاته التي كان يستخلصها من الروايات البوليسية.. "لكن الشرطة بشكل عام تتصرف بغباء، والشخص الذي يجب أن يخاف منه القاتل هو المحقّق الخاص وليس هؤلاء الحمقى".. وما داما ليسا محقّقين خاصّين فيجب عليّ ألاّ أخاف..

ولكنها هذيانات والدي الذي لم يسبق له، ولو لمرة واحدة، أن تورّط مع الشرطة أو أدرك خطورة التعامل معهم. ليس عليّ أن أصدقه، فرجال الشرطة ليسوا بحمقى على الإطلاق، ولكن أولئك الروائيين الأدعياء يصورنهم حمقى ويخترعون شخصيّات لمحققين سريين، لكي تجسد أفكارهم وغرورهم، ليظهروا أنهم أكثر ذكاء من رجال الشرطة..

– كيف تشعر الآن يا أستاذ مشتاق، لقد غادر الشحوب وجهك قليلاً..

لن تخدعني كلمات والدي، وبالمقابل لن يخدعني اللطف الذي يبديه هذان المحقّقان، وعليّ التصرّف بحذر قدر الإمكان..

– اشرب قليلاً من الماء..

أخذت الكأس من يد كديفة التي وقفت فوق رأسي مجدّداً، وشربت رشفة من الماء الذي نزل كحجر ثقيل على معدتي التي بقيت فارغة طوال كل هذه الساعات، وأحسست بالغثيان لذا أبعدت الكأس.. حينها أدركت سبب الدوار الذي انتابني وهو الجوع، ولكنني بالطبع لن أستطيع إخبارهم بأنني لم أتناول شيئاً منذ ظهيرة الأمس..

– أنا بخير.. شكراً جزيلاً..

وتوجّهت نحو كديفة وأنا أبحث عن ذريعة للتخلّص منها فلو علمت بما حصل لنزهت ستبدأ بسرد الأحداث من تلقاء نفسها، بل وستحكي لهم قصة حياتي كلها..

"آه يا سيدي، لقد كانت جذوة الحب التي تجمعهما أقوى من جذوة النيران التي

تشتعل في قصور أكسراي.. كانت قصة حب لا مثيل لها..".

لذا كان عليّ أن أبعدها عن مسرح الأحداث قدر المستطاع، لذا توجّهت نحوها بنبرة آمرة:

– ألن تقدمي شيئاً لضيفينا؟..

شعرت بحرج بالغ وتمتمت متلعثمة:

– كنت أنوي ذلك يا سيدي، لكن دوارك المفاجئ قد منعني..

– أنا بخير الآن – والتفت نحو المحقّقين وأنا أسألهما – ماذا تودان أن تشربا؟

تصرّف نفزت بلباقة:

– شكراً.. لا داعيَ لذلك؟

– لِمَ لا، فأنا أيضاً لم أشرب قهوتي بعد..

– حسناً، أنا أشربها دون سكر.

أما المحقّق الشاب فلم يجد حرجاً في سرد طلباته:

– أنا سأشرب النسكافيه، ويفضّل لو مزجتِها مع بعض الحليب وكثير من السكر..

– حاضر، على الفور.

توجّهت نحو الباب، لكنني استدركت قائلاً:

– فليكنْ فنجان قهوتي حلواً..

نظرت إليّ المرأة المسكينة دون أن تعي سبب كل ما يجري من حولها. فبعد كل هذه السنوات من مواظبتي على القهوة المرة، ها أنا ذا أغيّر رأيي فجأة بعد نوبة دوار وبرفقة اثنين من محققي الجرائم.. إنها تعقيدات أكبر من أن يحتملها ذهنها المعتاد على الرتابة حتى الملل. ومن جهة أخرى لم يفتها الضيق الذي بدا عليّ، لذا فقد خرجت على الفور دون أن تنبس بكلمة، وحاولت بدوري أن أستجمع قواي..

– ولكن متى حدث هذا؟.. أعني نزهت..

– البارحة مساءً بين الساعة السابعة والثامنة..

سحب نفزت الكرسيّ وجلس قبالتي وبدأ بالتحقيق:

– في أي ساعة اتصلت بك؟



تمهّلت للحظات كمن يحاول التذكّر قبل أن أجيب:

- ربما حوالى الساعة الثالثة أو الرابعة.. لنقل في الثالثة والنصف من بعد ظهر أمس..
- الثالثة والنصف؟.. - أعاد الكهل جملتي وكأنها شيء على قدر كبير من الخطورة - أهي اتصلت بك أم أنت اتصلت بها؟
- هي التي اتصلت.

بالطبع كان مطّلعاً على الحديث الذي دار بيننا، فلا بدّ أنّ الأستاذ طاهر قد أخبره بتفاصيل الحديث كله، ولكنه كان ينوي توريطي.

- لِمَ اتّصلت؟
- دعتني على العشاء، كما دعت الأستاذ طاهر أيضاً.

بدت الحيرة على وجهه وهو يسأل:

- أتقصد الأستاذ طاهر حقي بانتلي؛ ذلك البروفيسور المشهور؟

ولكن ما هذا التناقض؟ أيعقل أنه لم يتحدث مع الأستاذ قبل مجيئه إليّ؟.. إذاً لا بدّ أنهما يمتلكان أدلّة قوية على تورّطي، لذا فقد أتيا إليّ قبل الجميع..

- قد يكون صاحب الرقم الثاني الذي وجدناه في سجل اتصالات هاتف الضحية - أوضح الشاب الذي بدأت أستلطفه أيضاً، والذي كانت كلماته منجاة لي من وساوسي - اتصلنا بذلك الرقم، ولكن أحداً لم يرد علينا. إنه الرقم ذاته الذي قُيّد على اسم امرأة يا سيدي.
- إنه على اسم السيدة بيرين زوجة الأستاذ طاهر..

فليتغمدْها الله برحمته. فقد كانت متفانية في خدمة زوجها، ومن أجل إتاحة الوقت له للتفرغ لعمله، كانت تتحمّل أعباء المنزل بكل تفاصيله ابتداءً من فواتير الهواتف والكهرباء وليس انتهاء بشراء كل الحاجيات.. ولكنني بالطبع لن أخوض حديثاً كهذا مع هذين المحققين، فقد كان عليّ الآن سرد ما سيعرفانه بعد قليل، بكل تأكيد..

- لقد اتصل بي الأستاذ البارحة مساء، حوالى الساعة الثامنة والنصف أو ربما قبل ذلك بقليل، وأخبرني أنه يريد التحدث مع نزهت وهي لا ترد على

مكالمته، ولكن، ولأنني لم أكن أعلم بهول ما حصل بررت الأمر بطريقة مبسطة..

التمعت عينا نفزت ببريق من الاهتمام، ظناً منه أننا وصلنا إلى نقطة مفصلية:

– لِمَ كان يريد التحدث مع السيدة نزهت؟

– ليخبرها بأنه لن يتمكن من تلبية دعوتها..

بدأ علي أيضاً يتابع الحديث باهتمام واضح:

– هل قامت بدعوتكما إلى منزلها البارحة مساءً؟..

– أجل فقد دعتنا نحن الاثنين لتناول العشاء، ولكن الأستاذ، وظناً منه أنني لبيت دعوتها طلب مني..

قاطعني نفزت:

– ألم تذهبْ أنت أيضاً؟

– في الحقيقة لم أستطع ذلك، فقد اتصلت في وقت متأخّر نوعاً ما لتدعوني. ولكنني، وبسبب سوء الأحوال الجوية، أخبرتها بأنني لن أتمكّن من تلبية دعوتها..

– إذاً فقد كانت كل تلك التحضيرات التي أعدت في المطبخ من أجل هذه الدعوة – كان يسند ظهره إلى المكتبة وهو يتحدث – ليتك ذهبت يا أستاذ – ها قد بدأ ينادي بالأستاذ هو أيضاً، وكان كل هذا القدر من اللطافة يسبب لي بلبلة كبيرة، إلا أنّ الشاب واصل ثرثرته – لقد أعدت السيدة نزهت وليمة رائعة خلا الفاكهة وأنواع الشراب والحلويات..

– لكنها وليمة لم تكتمل – تدخّل نفزت – فأحدهم قد أنهى كل شيء.

أحدهم؟.. أهو أنا يا تُرى؟.. أم أن أحداً أتى من بعدي، وترك العقد على عنقها.. أحقاً هناك أحد آخر سواي؟..

– من الذي وجد جثتها؟..

خرجت هذه الكلمات دون إرادتي، لكنهما لم يباليا كثيراً بالمعنى الكامن وراءها.

– ابن أخيها سيزجين، والذي نزل حوالى التاسعة إليها من أجل أن توقّع على

بعض الأوراق، فكما تعلم إنه يسكن في البناء ذاته في الطابق العلوي، وحينها شاهد باب المنزل مفتوحاً.

ولكن كيف؟ أظنني أغلقته ورائي بإحكام، أم أنني أتوهم ما لم يحدث نتيجة تشوّش ذهني في تلك الساعات العصيبة.. فربما كانت مرتدية العقد منذ البداية ولم ألحظه، وربما خرجتُ وتركت الباب ورائي.

- وقد رنّ الجرس وعندما لم يجبه أحد دخل ووجد جثة عمته - عاد ليحدجني بإصرار - بالمناسبة أتعرف السيد سيزجين؟

- منذ أن كان طفلاً صغيراً - كان طفلاً جميلاً جداً وكنت أرغب بأن تنجب لي نزهت ابناً مثله ولكنني لم أفصح لها عن رغبتي ولو لمرة واحدة - نزهت أيضاً كانت تحبه كثيراً عندما كان طفلاً، ولكنها البارحة أخبرتني أشياء مغايرة عنه، فقد كانت تشتكي من طمعه وإصراره على بيع البناء الذي يقطنانه..

من الواضح أنّ كلماتي قد أثارت اهتمامهما بشكل كبير، وخاصة علي الذي بادر بالقول:

- هل لدى السيدة نزهت ورثة آخرون سواه؟

كنت أعلم أنّ الحديث عن حياتها الشخصية وعن أقربائها وعلاقاتها سيصل في نقطة محددة إلى علاقتنا، ولكنني كنت سعيداً لأن الشبهات بدأت تدور حول سيزجين.

- لا أظن أنّ لديها أقرباء سواه يحق لهم أن يرثوها..

- أتعني أن البناء برمّته سيصبح من نصيب سيزجين؟

- ليس فقط البناء - أوضحت وأنا أضفي بعض الغموض على صوتي - هناك المنزل الذي في بيه أوغلو أيضاً.

حينها بدأت أتأكد أنّ صرخة الـ (لا) تلك التي سمعتها تخرج من أعماقي كانت صوت الشيطان الذي بدأت ملامحه تتضح مع كل كلمة جديدة أتفوّه بها.

- غريب - قالها نفزت وهو يتوجّه نحو الشاب - لم يحدّثنا سيزجين عن أيٍّ من هذا..



لم أشأ تفويت الفرصة:

- أتعتقدان أنه من قام بارتكاب الجريمة؟

ولكن نفزت لم يكن بالشخص الذي يصرح بمكنونات صدره:

- لا نعلم بعد أستاذ مشتاق، ولكن الحقيقة ستظهر قريباً. دعْنا نعدْ إلى أحداث البارحة، هل قامت نزهت بدعوة أحد سواك أنت والأستاذ طاهر؟

كان أحد الأسئلة النادرة التي لم أضطر للكذب بشأنها.

- لا أظن أنها دعت أحداً سوانا، فقد حدثتني عن الأستاذ طاهر فقط..

- لا بدّ أن معرفتك بها قديمة؟

أعاد سؤال الشاب فتح صفحات الماضي..

- أكانت علاقتكما وطيدة؟

وطيدة؟.. لقد كانت محور حياتي وسلطانة قلبي، والنفس الذي أسحبه في كل لحظة، وكل خفقة قلب ورمشة عين كانت من أجلها هي.. ولكنني اعتبرت سؤال المحقق لا يخص نزهت التي ما زالت تجلس على عرش قلبي، بل تلك العجوز التي جمعتنا جثتها اليوم معاً.

- بالطبع كانت كذلك، كما أننا نعرف الأستاذ طاهر منذ زمن طويل، وهو من شجعني على مواصلة دراستي بعد أن أنهيت الجامعة، فقد أخبرني بأنني أملك ذاكرة فيل، وهو الشرط الأساسي ليصبح المرء مؤرّخاً. ولكن للأسف لم يبق أيّ أثر من تلك الذاكرة القوية الآن..

- وماذا عن السيدة نزهت- كان الشاب يرمقني بإصرار ويواصل طرح أسئلته- متى تعرّفت إليها؟

لقد كانت موجودة على الدوام، ولا أذكر متى تعرفت إليها.. فنزهت والحياة شيئان لا يمكن الفصل بينهما، لقد عرفتها منذ زمن سحيق، حتى قبل أن ألتقي بها..

- كنت أعرفها من قبل، ولكن عندما عرض علينا الأستاذ أن نصبح مساعديه، توطّدت علاقتنا أكثر، وقد كانت باحثة ممتازة وصديقة جيدة. على أي حال فسفرها إلى أميركا جعلها تصبح من أهم المؤرّخين في الوسط العلمي، وكانت مصدر فخر لنا جميعاً..

حاولت إبداء الصدق والتأثر في نبرة صوتي قدر المستطاع، إلا أنّ المحقق علي بدا غير مبال على الإطلاق.

- وهذا ما يثير حيرتي – قالها وهو يخرج يده من جيب المعطف – فمؤرّخة مثل السيدة نزهت وعلى هذا القدر من الشهرة، من الذي سيفكر في قتلها؟

بالطبع أنا، فهي كما وصفت كانت من أهم المؤرّخين ولكنها من حطم حياتي، وكان عليّ أن أردّ لها الصاع صاعين:

- لا أعتقد أنّ الجريمة لها علاقة بمهنتها..

يبدو أنّ عقلي لم يعد يسيطر على الكلمات التي تخرج من تلقاء نفسها. ربما لم أعد أتحمّل عذاب الضمير تماماً مثل راسكولنيكوف، وسينتهي بي المطاف وأنا أعترف بجريمتي البشعة أمامهما.. حاولت لملمة شتات أفكاري عندما لاحظت أنّ المحققين ينظران إليّ ببالغ الدهشة.

- ذلك لأن علاقتها جيدة مع جميع زملائها، والكل يكنّ الإعجاب لها.
- الإعجاب؟.. – تدخل نفزت – أحياناً تقود كثرة الإعجاب إلى الغيرة وهو سبب أكثر من كافٍ لارتكاب جريمة قتل.. هل تعرف أحداً من زملائها الذين يشعرون بالغيرة من نجاحاتها؟

أظنه وبسبب لباقته الزائدة لم يتّهمني بالغيرة منها، وأختار أن يسألني بهذه الطريقة الملتوية.

- معك حق، فحتى في أوساطنا العلمية يحدث هذا النوع من المشاكل وأعني الغيرة المتبادلة بين المؤرّخين.. ولكنها لم تكن السبب في قتل أي من أساتذتنا ومؤرخينا من قبل..
- أتعني أنه لم يكن هناك أحد يخالفها وجهات النظر التي تتبناها مثلاً ويناقض آراءها؟

رغم محاولاته توريطي في الحديث لم أقع في الفخ وأنا أراقب أصابعه التي تتجوّل على ذقنه. بدا وكأنه يحاول صياغة سؤاله بطريقة لا تثير شبهاتي.

- على حد علمي، فالتاريخ حمّال أوجه، وهذا ما كانت تقوله والدتي. فعلى الرغم من أهمية الوثائق والمخطوطات التاريخية، إلا أنّ المؤرخين يتبنون

في كثير من الأحيان وجهات نظر مختلفة حول الحدث ذاته، خاصة أنّ هناك العديد من المواضيع والأحداث التي تمتاز بحساسية معينة.

- حساسية؟

كان يشعر بالارتباك، كتلميذ يحاول شرح وجهة نظره أمام معلم.

- ما أودّ قوله هو أنّ هناك بعض السلاطين الذين يحتلون في ذاكرتنا الجمعية مكانة مقدسة.
- كالسلطان محمد الفاتح مثلاً.. - تدخل علي وهو يختصر الطريق على رئيسه - فهذا السلطان العظيم هو مصدر فخر لنا.

وهنا عاد الكهل ليستلم دفة الحديث موضحاً:

- أجل، ولكن أرجو أن تصحح لنا إن كانت معلوماتنا خاطئة، فقد علمنا أنّ السيدة نزهت كانت من المؤرّخين الذين يمتلكون وجهات نظر غريبة ومغايرة، وكانت تسعى إلى تحطيم المسلّمات بطريقة استفزازية، ويبدو أنها كانت تستلذ بإثارة غضب الآخرين.. أليس كذلك؟..
- أنت محق تماماً في ما تقوله سيد نفزت، وأنا معجب بقدرتك على التوصّل إلى فهم حقيقي لمسار الأمور في هذه الفترة القصيرة.. حقاً إنه أمر يدعو للإعجاب..

بدا عليه الزهو كطالب نجح في الامتحان بتفوّق، وأكمل بعد لحظات:

- في غرفة نوم نزهت، وجدنا الكتاب ذاته، قالها وهو يشير إلى كتاب بيبينغير.

أومأت برأسي موافقاً دون إبداء أي استغراب وأنا أقول:

- إنه أمر طبيعي فنزهت أيضاً كانت مثلي مختصصة بدراسة العصر العثماني الكلاسيكي، ويعتبر السلطان محمد الفاتح من أكثر سلاطين ذلك العصر تميّزاً، ورغم أنّ هذا الكتاب يتبنّى وجهة نظر استشراقية بعض الشيء، لكنه يبقى من أهم الكتب التي تتحدّث عن الفاتح..
- أنت محق، ولكن كان بالقرب من الكتاب عدد لمجلة قديمة..

شيء لا يُصدّق، فقد استطاع هذا الشرطي التوصّل إلى الاستنتاج الذي أدركته أنا، وهذا يعني أنّ الأسئلة ذاتها تشغل ذهنينا، وكان عليّ التحلّي بالصبر لمعرفة ما

يضمره حقاً.

- أتعني مجلة تاريخية؟
- لا، وهذا ما أثار اهتمامنا.. كانت مجلة أدبية..

نظرت إليه كمن يقول: وما الغريب في الأمر.

- وهذا أمر طبيعي فهي كانت تهتم بالأدب كثيراً..
- ولكنها لم تكن مجلة معاصرة بل عدد يعود إلى ثلاثين سنة خلت، ويبدو أنها كانت تبحث عن مقالة محدّدة، وقد كان فيها بالفعل مقالة تثير الاستغراب.
- أكانت تتعلق بالفاتح؟ فقد كان السلطان مهتماً بالشعر كما تعلم، وكان يدون الشعر باسم مستعار هو (عوني).

وأعتقد أنني بالغت كثيراً حين ألقيت على مسامعهما بيتاً يعود للسلطان:

كل الدماء التي أُريقت على الأرض اختلطت بدمائك

وكل روح ترمي بها في مجاهل الموت هي روحك

لم يدركا حقيقة معنى هذا البيت الجميل، فما يشغلهما الآن ليست مواهب الفاتح بل المقالة الموجودة في المجلة..

- جميل.. – أثنى المحقّق اللبق ولكنه أعاد الحديث إلى ما يشغل اهتمامه – ولكن المقال الذي كانت تقرأه نزهت كان عن دوستويفسكي.

تصنّعت اللامبالاة مرة أخرى:

- ولِمَ لا، فقد كانت تحب هذه الأديب وخاصة رواية الأبله..

يبدو أنّ لامبالاتي قد أثارت ضيقه.

- ولكن المقالة تتحدث عن قتل الأب.

فأوضحت له اطلاعي على الأمر وأنه لا داعيَ للاستغراب:

- الأخوة كارامازوف، فتلك الرواية كما تعلمون تتطرق إلى موضوع الأب.
- لا – قالها وهو ينفي الفكرة بحركة من رأسه – فلم تكن المقالة تتحدث عن رواية الأخوة كارامازوف بل عن جميع أعماله وعن شخصيته، والمثير للاهتمام أنّ من كتب المقالة هو سيغموند فرويد.

أظن بأنّ الوقت قد حان لأبدي دهشتي:



- ولكن ما علاقة كل ذلك بقتل نزهت؟..

تمهّل للحظات كمن يبحث عن الكلمات المناسبة قبل أن يجيب:

- لا أعلم إن كانت وجهة نظري هذه منطقية أو فيها بعض المغالاة، ولكن فلننظر إلى الأمر من هذه الناحية: دوستويفسكي وقتل الأب، والفاتح وقتل الأب.
- حسناً.. - قلتها وأنا أبدي دهشة عميقة - ولكن ما الذي دفعك إلى عقد مقاربة من هذا النوع؟
- كانت هناك قصاصة من الورق بين أوراق المجلة وتحديداً في صفحة المقالة وقد كتب عليها ثلاث كلمات هي edicirtarf ,edicilif ,edicirtap قتل الأخ، قتل الابن، قتل الأب.. هذا ما تعنيه الكلمات الثلاث..

تابعت حديثه بهزة من رأسي فيما واصل كلامه وهو يشير نحو كتاب بيبينغير مجدّداً:

- كما أنها وضعت جملاً محدّدة من هذا الكتاب بين قوسين..

حينها أصابتني دهشة حقيقية، فأنا لم ألحظ وجود هذه الأقواس التي يتحدث عنها، ربما لأنني لم أتفحّص الكتاب جيداً..

- وهذه الجمل تتحدّث عن علاقة السلطان الفاتح بوالده مراد الثاني، وعن علاقته بشقيقيه الأمير علاء الدين علي والأمير أحمد، وعن عدم وجود فرصة حينها ليتولى الأمير السلطة. والملفت للنظر أنه يتحدّث عن موت الأخ الأكبر علاء الدين، الذي كان المفضّل لدى والده السلطان، ثم عن بقائه الوريث الوحيد للعرش.

شيء لا يصدق، يبدو وكأن هذا المحقق مطلع على جميع الأفكار التي في رأسي ويكرّرها أمامي بصوته هو، ورغم ذلك أردت مغالطته:

- أنت مخطئ، فمحمد الثاني لم يقتل والده، ولا علاقة له بقتل أخويه. وتوريط السلطان في مؤامرة من هذا النوع هي وجهة نظر خاطئة وسيئة بشكل كبير.

لكن هاوي التاريخ هذا لم يستسلم ببساطة:

- لقد اطّلعت على أحداث تلك الحقبة نوعاً ما، فعصر السلطان محمد الثاني كانت شائكاً بعض الشيء، فكان هناك مجموعتان متناحرتان في القصر، من جهة تشاندرلي باشا ومن جهة ساروجا باشا.. أي رجال الدولة المنحدرين من أصول تركية، والمنحدرين من أصول مختلطة.. وما يثير التساؤلات هو دور الفريق الثاني في قتل الأمير علاء الدين علي الذي ينحدر من أصول تركية صافية حيث كانت والدته أميرة تركية الأصل، ليحل محله أمير آخر تنحدر والدته من أصول مختلطة.
- لا.. - اعترضت بصوت مرتفع أثار استغرابي قبل استغرابهم - فلا ساروجا باشا، ولا زاغنوس باشا كانا يملكان الجرأة لارتكاب جريمة كهذه. وأنا أوافقك الرأي بانقسام القصر تكتّلين متناحرين، ولكل منهما نقاط قوة يعتمد عليها في مواجهة الطرف الآخر. ولكن فكرة قتل الأمير علاء الدين المفضّل لدى والده السلطان لم تكن واردة على الإطلاق، فهؤلاء الباشوات ما كانوا يجرؤون على خوض مغامرة من هذا النوع ليس خوفاً من السلطان فحسب، بل أيضاً لأنهم كانوا يخاطرون بدخول مواجهة مباشرة مع أقوى رجال الدولة حينها؛ وهو تشاندرلي خليل باشا وكانت لتكون النتائج وخيمة عليهم.. لذا فأنا أستبعد هذا الافتراض.

إلا أنّ المحقّق الكهل ظلّ يذكّرني بعناد:

- ولكنّ أحدهم فعل ذلك، وقتل الأمير المسكين داخل قصره بشكل وحشي..

كان عليّ أن أقدّم تفسيراً مقبولاً:

- لقد قام كارا خضر باشا بخنقه.
- أجل كان هو من فعل ذلك - أومأ برأسه موافقاً - وقد تم القبض على المجرم ولكن الأشخاص الذين دفعوه لارتكاب جريمة كهذه ظلّوا مجهولين، فكيف يتجرأ شخص مثله على قتل الأمير الذي كان يُعتبر وريث العرش الشرعي؟

حينها بدأت بأخذ هذا المحقّق الذي يجلس أمامي ويناقشني كضليع في شؤون التاريخ على محمل الجِد، وبدأت أناقشه كزميل في المهنة:

- ولكنْ هناك من ينسب هذه الجريمة إلى كارجا بيك أيضاً.
- أجل أنت محق، حتى لو اعتبرناه من يقف وراء هذه الجريمة لكن أسبابها ظلت غامضة. ورغم مرور خمسة قرون على ارتكابها إلا أنها ظلت مجهولة الدوافع..
- إذاً علينا أن نتوجّه نحو الأشخاص الذين استفادوا من هذه الجريمة – أدلى الشاب الذي بقي صامتاً كل هذا الوقت بدلوه – فحتى لو لم نتأكّد من هوية الأشخاص الذي وقفوا وراء الجريمة والذين لم يتركوا وراءهم أي دليل يشير إليهم، فلا بدّ أنّ أحد الأطراف كان المستفيد الأكبر من ارتكاب الجريمة وعلينا أن نتوجّه بأنظارنا نحوه، ففي معظم الأحيان يكون المتّهم الحقيقي هو أكثر المستفيدين من حدوث الجريمة.
- المستفيد الأكبر من هذه الجريمة كان الأمير محمد، والأكثر غرابة أنّ السلطان محمد الثاني وبعد فتح القسطنطينية، كان أول عمل قام به هو التخلّص من الصدر الأعظم تشاندرلي خليل باشا، وبالتالي فقد انتهت المواجهات الدموية في القصر لصالح الوزراء المنحدرين من أصول مختلطة.
- الأمر ليس بهذه البساطة – اعترضتُ بحدّة لم أندم عليها، لأنّهم يردّدون ترّهات وحماقات دون أدلّة حقيقية – الخلاف الناشئ بين السلطان الفاتح والصدر الأعظم يعود إلى زمن توليه العرش للمرة الأولى وإلى مشاكل حدثت أثناء حصار القسطنطينية.. وأعتقد أنّ هذا الموضوع شائك جداً للبت فيه.

بدأ المحقّق نفزت يضحك وهو يقول:

- أتعني أنّ الفريق الثاني من الوزراء لا علاقة لهم بكل ما حدث؟

بدأت هذه المناقشة السخيفة تثير حنقي.

- بالطبع، لقد استفادوا مما حصل، ولكننا لا نستطيع بناء فرضية علمية على مجموعة تخمينات وتقوّلات، وبافتراض صحة رأيك بضلوعهم في جريمة قتل الأمير، فذلك لا يغيّر من حقيقة الأمر، ولا يُنقص من مكانة السلطان

الفاتح الذي كان أكثر السلاطين هيبة لدى ملوك وأمراء العالم الغربي، وعندما تم قتل السلطان محمد الفاتح..

- تم قتله؟ قاطعني الكهل وقد رمقني كلاهما مندهشاً.

أدركت أنني تورطت في سرد الترّهات أيضاً:

- أعني أنه حين مات.. احتفلت روما لمدة ثلاثة أيام، لذا فإن تبني وجهة النظر التي كان يردّدها العالم الغربي عن السلطان الفاتح ستكون خطأً تاريخياً فادحاً.

- لم أقصد شيئاً كهذا - بدأ المحقّق بالتراجع - كل ما أعنيه أنّ في الأمر مؤامرة ما، ليست كتلك التي كان يحوكها أمراء البندقية، ولكنني أقول أنها قد تكون مؤامرة دنيئة حاكها الفريق الثاني من الوزراء ذوي الأصول المختلطة، ولا أنكر في الوقت نفسه مكانتهم الكبيرة وأفضالهم على الدولة العثمانية.

على الدوام يقع أولئك الأدعياء الذين لا يمتلكون أسساً علمية في مناقشتهم في الخطأ ذاته في ترديد السفاسف والترّهات التي لا حقيقة لها، ومع ذلك حاولت الحفاظ على لباقتي قدر المستطاع:

- أعي تماماً ما تقوله، ولكن لا يمكن فهم الأحداث التاريخية وتحليلها بطريقة مماثلة لدراسة جرائم القتل. فالتاريخ علم متشابك بصورة تثير الدهشة.

ابتسم المحقّق ابتسامة شقيّة وهو يقول:

- بالطبع فإن فك طلاسم جريمة جماعية أكثر تعقيداً بكثير من جريمة قتل عادية..

لقد تجاوز هذا الأحمق كل الخطوط الحمراء.

- يبدو أنك لا تفهم ما أرمي إليه - قاطعته بحدّة - فلإطلاق تهمة كهذه عليك امتلاك الوثائق اللازمة.

وكأنّ هذا المحقّق الخبير كان بانتظار هذه الكلمات ليصرح بما يكنّه:

- ربما كانت السيدة نزهت تبحث عن هذه الوثائق وربما وجدتها بالفعل.. ولأنها اكتشفت هذه الحقيقة فقد تم..



لم يكمل جملته، ولكن هل يعني أنّ نزهت قُتِلت لأنها اتهمت السلطان الفاتح بقتل أبيه؟ عادت الأفكار لتختلط مجدّداً في ذهني، وشعرت برغبة كبيرة في التقيؤ بالكاد استطعت كبحها، فقد كان هذا المحقّق المتأنّق الذي يفاخر ببعض المعلومات التي استقاها من والدته، وهذا الشاب الوقح يثيران حنقي كثيراً.

- ترّهات – صرخت قائلاً وأنا أكمل – أعتذر عن صراحتي، ولكن ما تردّدانه هو مجرد ترّهات وسفاسف.
- لقد أثرت غضبك إذاً – قالها وهو يشبك يديه على صدره وينظر إليّ بطريقة ملغزة – لا تغضب مني، فأنا آخر من يحق له أن يطلق حكماً من هذا النوع، كما أنني أكنّ احتراماً كبيراً للسلطان الفاتح، وأوافقك الرأي أنّ هذه النظرية أكثر من غبية، وأودّ أن أصارحك بأنّ كل ما قلته كان مجرّد لعبة..

صمت للحظات ليمكّنني من فهم كلماته.

- أجل كانت لعبة مني لأجعلك تدرك نقطة مهمة؛ فالسيدة نزهت قد تكون ضحية غضب وحنق أحد زملائك الذين يفكّرون مثلك تماماً..

(13)

أي أسرار يخفيها من يحاول كشف أسرار الآخرين؟..

وصلت إلى الجامعة بعد الظهيرة بقليل ووقفت أمام المصعد القديم الذي كان معطّلاً مرة أخرى، واضطررت لصعود الدرجات لاهثاً وأنا أفكر في اللعبة الذكية التي ورّطني فيها ذاك المحقق زائف اللباقة، ليلمّح بطريقة غير مباشرة إلى أنني ضمن دائرة الشبهات، خاصة وأنه تمكّن من إشعال غضبي. وفيما كانا يشربان قهوتهما ويواصلان طرح الأسئلة حول حدوث مشادات من هذا النوع بيني وبين نزهت من قبل أو بينها وبين أحد زملائها المؤرّخين، كانت الفكرة الأساسية التي تشغل ذهني تلك اللحظات، هي احتمال قيامي بارتكاب الجريمة بسبب أطروحة نزهت التي اعتبرتها خطأً فادحاً بحق السلطان الفاتح.. ولكن المرجّح أنني فعلت ذلك لدوافع شخصية وبسبب أنانية نزهت لا أكثر.. وأعترف بأنني ارتكبت خطأً جسيماً عندما خضت تلك المناقشة مع نفزت وجعلت الشكوك تحوم حولي.. يا لحماقتي! أمن المعقول أن يتم القبض عليّ بسبب رغبتي السخيفة في الدفاع عن رأيٍ تاريخي؟.. ولكن الكارثة الحقيقية ستقع حين يكتشف العلاقة التي كانت تجمعني بنزهت، ولا بدّ أنّ الأصفاد ستوضع في معصمي قريباً.

"لقد حامت شبهاتنا حولك عندما أخفيت عنّا أمر هذه العلاقة سيد مشتاق، فما كان لك أن تخفي عنا شيئاً بهذه الأهمية..".

لا أظن أنهم يستطيعون إلقاء القبض عليّ لأمر كهذا، ففي ظل عدم وجود شاهد أو أداة ارتكاب الجريمة، وفي ظل معرفة الجميع أنّ علاقتي بها انتهت منذ سنين طوال.. فهذا الاحتمال بعيد الحدوث، ولا أعتقد أنّ إخفائي الأمر يحتل تلك المكانة المهمة.. وتلك اللعبة السمجة التي حاول المحقّق المتأنّق توريطي فيها، ليست سوى مجرّد تّرهات سيطلق من يسمعها القهقهات عندما يدرك أنه يبني دوافع

ارتكاب الجريمة عليها..

عندما توقّفت لاهث الأنفاس لم أعلم الطابق الذي بلغته، ولكنني أذكر تماماً المرة الأولى التي دخلت فيها هذا المبنى مع والدي وكيف كنت أقطع الدرجات مثنى وثلاث كجديٍ تملأه الحماسة والإثارة.. ولكن لا، لا أعتقد الأمر تم على هذا النحو فقد كنت شاباً خجولاً أحتمي بظل والدي مرغماً والعرق يبلّل ثيابي، فيما يواصل إلقاء الأوامر والتوجيهات لتبلغ به الحماسة ترديد الأشعار أيضاً:

ارتفعْ واسمُ قليلاً فمكانك ليس القاع

تحلَّ بالذكاء والمهارة لتتمكّن من الارتفاع

وها قد ارتفعت، فالجامعة التي انتسبت إليها طالباً أصبحت بروفيسوراً فيها، أهناك ما هو أسمى من ذلك؟.. أجل، هناك أن أصبح مثل نزهت.. أن أصبح بروفيسوراً لامعاً ومؤرّخاً تعرفه كل الجامعات وأتسلق سلالم المجد فيها كجديٍ عنيد لبلوغ أعلى قمة فيها، وللوصول إلى القمة عليّ المخاطرة بكثير من الأشياء، بل وحتى مواجهة الموت أيضاً.. ولكن لا، لا أظن الأمر بلغ هذا الحدّ، فمن له مصلحة في قتل نزهت؟ لا أدري بالضبط من له مصلحة في ارتكاب جريمة قتل بسبب دوافع مهنية، ولكن ما أنا متأكد منه هو امتلاكي سلسلة لامتناهية من الأسباب الشخصية التي تدفعني لقتلها.. ولا أستطيع الاقتناع بوجود شخص يبلغ من الحماقة ما يخوله قتل أحدهم من أجل أطروحة حول السلطان الفاتح.. عدنا إلى المتاهة ذاتها والأشخاص ذاتهم، ولكنني مصرّ على رأيي؛ فالسلطان محمد الثاني، أو الأمير محمد الثاني لم يرتكب هذه الجريمة.. إلا أنني لن أنكر أنّ هذه الفكرة بدأت تشغل بالي أنا أيضاً، وبخاصة نظرية المؤامرة حول مقتل الأمراء..

"فلنحطّمْ تلك المؤامرات التي وضعها الغرب عن تاريخنا ودولتنا"..

عدت إلى الواقع مرة أخرى عندما رأيتني أقف أمام إحدى اللوحات التي علّقها الطلاب على حائط المبنى، وانتظمت أنفاسي اللاهثة التي سببها الدرج الذي تراءى أمام عيني قبل قليل كأهرام مصر، وأكملت الصعود..

ارتفعْ واسمُ قليلاً فمكانك ليس القاع

كنت أحاول الارتفاع قدر المستطاع ولكنني كنت أتمسك بدرابزون الدرج كي



لا أقع.

"تفتخر الأكاديمية الملكية السويدية للعلوم بمنح جائزة نوبل للدكتورة البروفيسور نزهت أوزجان وذلك عن أطروحتها التي حملت اسم (الفاتح وقتل الأب)، هذه الدراسة التي طرحت وجهة نظر مغايرة تماماً لما كان سائداً من قبل، وأوضحت حقائق..".

مهلاً مهلاً.. أظن أنّ جائزة نوبل لا تُمنح للمؤرخين، ولست متأكداً حتى الآن من أنها كانت تعد أطروحة بهذا العنوان، ولكنني متأكد من عملها في مشروع يحمل من الجدل والاختلاف، فحبيبتي أذكى من أن تعدّ دراسة حول موضوع قد تمت مناقشته من قبل آلاف المرات حتى أصبح الحديث فيه يحمل الابتذال.. ولكن لا بدّ أنها اكتشفت نقطة أكثر إثارة حول قتل سلطان ما، ولكن أي سلطان؟..

– الدلائل التي وجدناها في المنزل تشير مرة أخرى إلى السلطان مراد الثاني..

فحتى شخص هاوٍ كذلك المحقق استطاع ملاحظة الأمر، ولا أظنها تورّطت في العمل على أطروحة تستند إلى الروايات والأقاويل..

عاد صوت مجنون المرآة ليتردّد في مسامعي وأنا أصعد:

"إلى متى ستستمر في نكران الأمر والتهرب من جريمتك أيها الأحمق؟ فقد قتلت حبيبتك نزهت.. تلك المؤرّخة التي تردّد أهم الجامعات اسمها، وبالتالي لن تمرّ جريمة قتلها مرور الكرام بل ستثير كثيراً من الضجّة والاهتمام، وحتى في ظلّ عدم وجود شهود أو أداة القتل فأنت المشتبه به الأساسي في الجريمة، ذلك أنّ المحقق نفزت جعلك تصرّح عن مكنونات صدرك والتعبير عن حنقك أمامه.. لذا تخلّص من هذا العبء الذي يثقل كاهلك واعترف بذنبك.. فقد لاحظ المحقق الخبير ضعف شخصيتك منذ اللحظة الأولى وخوفك الذي كنت تحاول عبثاً إخفاءه، لذا فقد جرّك إلى هذه اللعبة السمجة التي وقعت في أحابيلها كالأحمق..

– لا..

صرخت في وجه الرجل الذي يحاول منذ الأمس أن يقودني نحو حتفي، والذي أشعل معركة ضارية في ذهني المشتّت:

– لا.. لا..



ويبدو أنني كنت ألوّح بيدي في الهواء لمحاولة إبعاده عن ذهني، حيث انتبه الطالب الذي يقف في الرواق مع صديقته وقال:

- عفواً أستاذ، أكنت تخاطبني.
- لا يا بُني، فقد كنت أفكر بصوت مرتفع. حاولت التبرير حتى لا يظن أنني أُصبت بجنون.

حافظ الطالب على لباقته وهو يبتسم في وجهي بلطف وبدأ نزول الدرج مع صديقته، تماماً مثلي أنا ونزهت قبل سنوات طوال.. ولكن لا داعيَ لخداع نفسي، ففي تلك الأزمنة لم أكن بجرأة هذا الشاب، ولم أكن لأمسك بيدها أمام الآخرين.. ولكن لحظة فقد بدا وجه الشاب مألوفاً لي، أتمنى ألاّ يكون أحد طلاّبي وألاّ ينتشر خبر جنوني في أروقة الجامعة. وفيما كانت مخاوفي تتصاعد اكتشفت أنني بلغت الطابق الذي يقع فيه مكتبي..

ارتفعْ واسمُ قليلاً فمكانك ليس القاع

يبدو أنني وصلت إلى نهاية الارتفاع، ولكن يجب ألاّ أسمح لصراعي النفسي بأن يغيّبني عن الواقع، ولكن هل من الممكن فعل ذلك؟.. هل يستطيع الإنسان البقاء دون تفكير؟..

"ليس المهم هو التفكير بل الإرادة هي الأهم، والأشخاص الذي يمتلكون إرادة حديدية يتمكّنون من تسجيل اسمهم على صفحات التاريخ..".

أكانت كلمات والدي أم الأستاذ طاهر؟.. في السابق كنت أتمكن من تذكّر أي مقولة وتذكّر صاحبها ولكنني الآن أصبحت مجرد عجوز خرف يتكلم مع نفسه أمام الطلبة.. مجرد مجنون يخشى إشهار جنونه.. ورغم ذلك عليّ السيطرة على مخاوفي حتى لا أنحدر إلى الدرك الأسفل.. ربما عليّ أن أطلب من شازية دواء مهدئاً يخفّف من آثار الذعر، ولكنني أخشى أن تكتشف الحقيقة إن علمت ما أعانيه. أعتقد أنها ستفعل ذلك حين تقرأ الخبر على صفحات الجرائد ومحطات التلفاز قبل أن يكشفني طلب الدواء.

"لقد أتيت لرؤيتك يا مشتاق واتصلت بك كثيراً لكنك لم تكن في المنزل، أين اختفيت طوال تلك الساعات..".

فالكذبة التي اخترعتها بالأمس حول رغبتي التجوّلَ قليلاً لن تجدي نفعاً الآن، لذا أظن أنه من الأصوب مكاشفتها بالحقيقة، فقد بدأت الشكوك تراودني حول قدرتي على التصرف بشكل سليم، وعلى إدراكي الوقائع التي تحصل أمامي.. حتى أنني لم ألحظ العقد الذي كان حول عنق نزهت البارحة، وأيضاً هناك مشكلة الباب المفتوح.. ماذا لو كنت مخطئاً؟.. ماذا لو جاء أحدهم من بعدي وكان يملك مفاتيح المنزل، شخص قام بقتلها قبل أن أصل إلى هناك بوقت طويل؟.. شخص أخذ العقد من رقبتها، ولكن لأسباب لا أعرفها عاد مجدّداً ليعيد العقد إلى جيدها؟.. أيعقل أن يكون سيزجين من قام بقتل عمته؟ كما أنّ المحقق قد أخذ هذا الاحتمال على محمل الجد فسيزجين وريثها الوحيد، وربما كان يعاني من مأزق مالي، وربما كان مديوناً لأحدهم بمبلغ كبير أو متورّطاً مع إحدى العصابات.. ولا بدّ أنه يتحلى بالطموح الذي كانت العمة تتحلّى به بل والجشع ومحاولة الوصول إلى أكثر مما يستحقونه. فعندما لم توافق على بيع المبنى حمل تلك السكين.. إنه احتمال وارد جداً، فمثل هذه الجرائم تتكرر بشكل يومي وتنشر المجلات والجرائد تفاصيلها المروعة باستمرار.. ولكنني لا أظن أن قتل إنسان أمر بهذه البساطة، إذاً كيف استطعت أنا قتلها؟.. ولكن أحقاً أنا من قتلها؟..

في تلك اللحظة مرّ أحدهم بسرعة البرق بجانبي ولا أدري من أين خرج بالضبط، ولكنه ارتطم بكتفي بقوة فسقطت أنا والحقيبة.

– انتبه يا هذا.

ولكنه اختفى في الحال وبالسرعة التي ظهر فيها، تلفّت حولي ولم أجد أحداً في الممر المعتم، وقد هبّ رمزي وهو أحد موظفي أمن الجامعة لنجدتي عندما سمع صراخي..

– أستاذ مشتاق ما الذي حصل؟

– أحد الأغبياء – قلتها وأنا أنهض متلفتاً حولي – اصطدم بي وتوجه في ذلك الاتجاه.. نحو المطبخ.. كان على عجلة من أمره..

أعاد إليّ رمزي حقيبتي وهو يغلقها:

– اعذرني يا أستاذ على صراحتي، ولكن هذا الجيل الجديد يفتقر للاحترام

بشكل كبير..

أكان أحد الطلاب من اصطدم بي؟ لست متأكّداً من الحقيقة.. لكن رمزي لديه خبرة في مشاكل الطلبة فقبل فترة كاد أن يتلقى طعنة مميتة حين حصلت مشاجرة بين فريقين من الطلبة ينتمي كل منهما لحزب سياسي مختلف وتطورت المشاجرة إلى عراك بالسكاكين.

- في السابق كان الأمر يقتصر على المشادة الكلامية بينهم، ولكنهم الآن لا يتوانون عن أن يطعنوا بعضهم بعضاً، وكثير منهم يأتون وهم يحملون سكاكين على الدوام.

لا بدّ أنّه قد ضاق ذرعاً بمشاكل الطلبة حتى ينسب إليهم كل سوء يحصل، ولكنني أظنه مجرد حادث غير مقصود.. مددت يدي لآخذ منه الحقيبة وأذهب إلى مكتبي.

- سأحملها عنك أستاذ مشتاق – أبدى لباقة ولطفاً شديدين – تبدو متعباً بعض الشيء..

- شكراً، ولكن حقيبتي ليست بهذا الثقل..

ففيها بعض الملاحظات عن الدروس التي لا أعلم لِمَ لا أزال أحتفظ بها، وشطيرة صغيرة أعدتها كديفة.. اتّجهت نحو مكتبي وأنا أشعر بالألم في قدمي اليمنى نتيجة السقطة وخفت أن يتحوّل الأمر مشكلةً جديةً، فيما توجه رمزي إلى الجهة الأخرى من الممر باحثاً عن الشخص الذي ارتطم بي علّه يجده.. ولحسن الحظ بدأ الألم يخفّ مع كل خطوة أخطوها ولكن ما أثار مخاوفي هو مقولة شازية التشاؤمية والتي تردّدها على مسامعي على الدوام:

"علينا أن نكثر من تناول الكالسيوم والفيتامين (دي) والتعرض لأشعة الشمس بشكل متكرّر، فنحن نعاني من ضعف وراثي في عظامنا، وأي ضربة صغيرة قد تسبّب لنا كسراً.

وقد تكون محقة في مخاوفها فالمسكينة جدتي توفيت نتيجة كسر عظم الحوض الذي تعرضت له. وفيما أنا منشغل بقدمي انتبهت إلى أنّ باب مكتبي، الذي هو بلون عسلي قميء كلون باب منزل نزهت، موارب قليلاً مثله.. أيعقل أن تكون هناك

جثة في مكتبي أيضاً؟.. تأكدت أنّ الأوهام التي كنت أزمع السيطرة عليها قبل قليل تتحول إلى وساوس ومخاوف لن تزايلني بهذه السهولة.. ولكن ربما كان رمزي ينظف المكتب وخرج مسرعاً عندما سمع صراخي، فالمسكين تكاثرت أخطاؤه مؤخراً.. إلا أنني بدأت أتمالك نفسي وأنا أتذكر أنني لم أفقد وعيي منذ تلك النوبة المشؤومة البارحة، وبالتالي فلا احتمال لارتكابي جريمة جديدة. قد يكون رمزي أو أحد المكلفين بالتنظيف قد خرج ونسي إغلاق الباب، تماماً كما حصل البارحة عندما نسيت إغلاق باب نزهت بعد أن أتممت مهمتي.. أنهيت هذا الجدال وفتحت الباب بوجل خفي، ولم أجد جثة لحسن الحظ، وقبل أن أطلق تنهيدة ارتياح انتبهت للأوراق المبعثرة على سطح طاولتي، حينها عاد الذعر ليتملكني، فمن المستحيل أن أخرج من مكتبي وأترك هذه الفوضى ورائي..

بدأت أقترب من الطاولة وحينها زاد غضبي عند مشاهدتي جميع الأوراق والملفات الموجودة في الخزانة وفي الأدراج مبعثرة في كل مكان، وتأكدت أنّ أحدهم دخل إلى مكتبي بحثاً عن شيء ما، ولكن من هو؟.. أصابني الرعب عندما أدركت حقيقة ما حصل، لا بدّ أنه الشخص الذي ارتطم بي منذ قليل.. وقد حرص على ألاّ أرى وجهه وهو يمر بسرعة البرق، إذاً قد يكون شخصاً أعرفه؟ وقد يكون رمزي متواطئاً ومتعاوناً مع الشرطة للبحث عما يثبت تورطي في الجريمة.. ولكنه احتمال بعيد، فلو شاءت الشرطة تفتيش المكان لفعلت ذلك بنفسها، كما أنّ رمزي شخص موثوق ولا أظنه يوافق على شيء كهذا.. وفيما كنت أفكر لفت انتباهي الملف الذي تركت أوراقه مفتوحة على طاولتي؛ وهي الأطروحة التي أعددتها مؤخراً بعد سنوات من الركود المهني، الأطروحة التي قالت عنها نزهت أنه عمل ممتاز وهي بعنوان (فرمان قتل الأشقاء).. ولكن ما الذي يريدونه مني بالضبط، وما الذي يبحثون عنه، تركت الحقيبة التي كانت في يدي على الكرسي واتجهت نحو الملف لقراءة بعض السطور التي خطتها يداي قبل سنوات عدة..

"من أجل فهم القانون الذي سنّه السلطان محمد الفاتح، وهو القانون القاضي بإجازة قتل الأشقاء كإجراء تنظيمي عند استلام العرش، لا بدّ لنا من الاطّلاع وبشكل كامل على تاريخ العائلات التي كانت تحكم هذه المنطقة قبل نشوء السلطنة العثمانية،

والعلاقات القائمة بين أفراد السلالات الحاكمة حينها كالحثيين مثلاً وأباطرة روما.. لنجد أنّه تم سفك دماء الأشقاء وفي أكثر من مناسبة نتيجة الخلافات الحاصلة بينهم من أجل الاستيلاء على العرش..".

لم تكن الأطروحة شيئاً سرياً بل إنها نُشرت في كثير من المجلات وتمت مناقشتها في مؤتمرات متعدّدة، وما كنت لأخفيها عن أحد، بل على العكس لو طلبها أحد مني لأعطيته نسخة عنها بكل سرور، فهي منسوخة على كمبيوتري أيضاً.. حينها انتبهت إلى شاشة الكمبيوتر لألاحظ الملف المفتوح، كانت صفحة بيضاء خُطّت عليها بعض الكلمات..

لقد أشارت عليّ شازية في أكثر من مناسبة أن أضع كلمة سر للكمبيوتر الخاص بي، حتى لا يتمكن أي كان من تشغلي ولكنني لم أبالِ بملاحظتها، فأنا رجل علم ومؤرّخ وليس لديّ أسرار أخفيها، على الأقل هذا ما كنت عليه حتى ما بعد ظهيرة الأمس.. أجل فأنا مؤرّخ يحاول فك طلاسم التاريخ ومعرفة أسراره، ولكن أي أسرار يخفيها من يحاول كشف أسرار الآخرين؟..

وعندما اقتربت من الشاشة قرأت ما كُتِب على الصفحة مذهولاً:

"في كانون الثاني من العام ألف وأربعمئة وثمانية وأربعين أنجبت جارية تدعى كولبهار ابناً من محمد الثاني أطلق عليه بيازيد الثاني تيمّناً بالجد الذي لم يفقد غروره رغم هزيمة جيوشه أمام تيمورلنك، وقد استلم هذا الأمير العرش بعد وفاة والده السلطان محمد الفاتح".

يا للغرابة فما الذي أقحم بيازيد الثاني في الأمر؟.. أهي صلته بالسِلطان محمد الفاتح، أهي طريقة من أجل تهديدي؟..

"ونحن نعلم أنك قتلت نزهت بواسطة سكين فتح الرسائل التي نقش عليها ختم السلطان الفاتح..".

ولكن معرفتهم بأمر كهذا مستحيلة، لأنني دفنت تلك السكين في غياهب بحر مرمرة..

لحظة، لحظة. قد يكون هؤلاء الأشخاص الذين بعثروا مكتبي بهذا الشكل رأوني في منزلها حين كنت تحت تأثير نوبة فقدان الذاكرة، وبالتالي فقد شاهدوا

السكين مغروزة في عنقها.. حينها لاحظت أنّ باب المكتب ما زال مفتوحاً تماماً كما حصل في منزلها، وسيطر عليّ الرعب ذاته مرة أخرى، وقبل أن أهمّ بإغلاقه خطر لي إخبار إدارة الجامعة والشرطة بما حصل، فقد يتطلب الموضوع إجراء تحقيق..

"بالطبع لن تفعل ذلك أيها الأحمق، فأنت رجل تحوطه الأسرار وهي كفيلة بإيداعك السجن طيلة ما بقي من حياتك، فاصمت وأغلق الباب..".

لم أعترض على كلامه هذه المرة، وبدأت ألملم الأوراق وأعيد ترتيبها في أماكنها، وبقي ذهني مشغولاً ببيازيد الثاني، وكيف انتقلت الأمور من مراد الثاني إلى بيازيد الثاني أكبر أبناء الفاتح.. فما الذي يريده هؤلاء الأشخاص؟

"ليسوا أشخاصاً.." صحّح لي مجنون المرآة.

ولكن من هو؟

"أنسيت بهذه السرعة؟ إنه سيزجين ومن سواه..".

حسناً أنه احتمال وارد، ولكن لو رآني هذا الجشع وأنا ارتكب الجريمة لذهب لإخبار الشرطة على الفور، فلِمَ ينتظر حتى الآن ويقتحم مكتبي بهذا الشكل وما الذي يبحث عنه؟.. لم أجد مبرّراً منطقياً لكل هذه المشقّة التي يتكلّف عناءها.

"لا توجد جريمة بسيطة بالقدر الذي تبدو عليه ظاهرياً..".

لم يكن صوت مجنون المرآة بل صوت والدي المعشّش في ذهني، والذي اتّخذ من مصيبتي ذريعة مناسبة لسرد تّرهاته ومعارفه المزيفة عن الجرائم.

"ومهمة المحقق الأساسية هي البحث عن الأسباب المعقّدة الكامنة خلف المظاهر البسيطة للجريمة، لذا عليه دراسة كل التفاصيل دون استثناء..".

طردت مجنون المرآة ووالدي من ذهني، وحاولت ألا أسمع هلوساتهما معتمداً على البقية الباقية من المنطق في ذهني. ووضعت الحقيبة على الأرض لأجلس مكانها، وبدأت بالضغط على أزرار لوحة المفاتيح والشروع في أول خطوة مفيدة منذ الأمس. كان عليّ أن أجد ما أرادوا البحث عنه في كمبيوتري، فضغطت على الزر لإيجاد آخر الملفات التي تم فتحها وبدأت بالظهور الواحد تلو الآخر.. الملف الأول كان عن السلطان محمد الفاتح، والثاني عن الصدر الأعظم تشاندرلي خليل باشا، والثالث كان عن شهاب الدين باشا، أما الرابع فقد كان عن زاغنوس باشا والخامس

عن السلطان بيازيد الثاني، والسادس عن السلطان جيم.. هذا كل ما هنالك.. إنهم يبحثون عن شيء متعلق بالسلطان محمد الفاتح ولكن الغريب أنه ما من شيء حول السلطان مراد الثاني، فإن كان من اقتحم مكتبي يريد الاطّلاع على ما يتعلّق بأطروحة نزهت حول فرضية قتله لوالده، فلما لم أجد اسم السلطان مراد الثاني وهو أحد أهم المعنيين بالموضوع؟.. أغلقت الكمبيوتر وبدأت بلملمة الأوراق ولكن ذهني كان في أكثر حالاته فوضوية وقد تبعثرت أفكاره في اتجاهات لن أستطيع لملمتها، وأنا أسعى لتفسير منطقي لكل ما يجري حولي..

قد تكون مجرد حادثة سرقة عادية، كالحوادث التي حصلت في حيي مؤخراً.. ولكن أي شيء يغري بالسرقة في مكتب رجل مثلي، فراتبي لا يغري بالسرقة على الإطلاق، ولكن من جهة أخرى هناك كثيرون يعتقدون أنني وكوريث لعائلة سرهزين لديّ ثروات مخبّأة، فقبل زمن ليس ببعيد جداً، كانت عائلتي تملك كثيراً من العقارات والأراضي بالإضافة إلى القصر الفخم الذي كنا نسكنه، وكون هذه العائلة المرموقة لم تترك سوى وريثَين أنا أحدهما، فمن الطبيعي أن أشكل مصدر إغواء لكثير من ذوي النفوس الضعيفة..

"أتعلم أنّ الأستاذ مشتاق يخفي مجوهرات عائلته الثمينة في غرفة مكتبه في الجامعة؟..".

هل من أحد سيصدق سخافة كهذه حقاً؟.. ربما رمزي مثلاً فلديه ثلاثة أبناء ومرتبه بالكاد يكفيه ليعيل خمسة أفراد..

يا إلهي أي درك وصلت إليه؟.. فقد بدأت أتحوّل إلى خالتي شاهيستة التي كانت سهام اتهاماتها تتّجه نحو من هم في خدمتها على الدوام، وهنا تذكّرت مقولة رائعة لجدتي كانت تردّدها على مسامعنا:

"إن كنت تملك ثروة أكبر من الآخرين فهذا لا يخوّلك أن تتهمهم..".

لن أدع هذه الأفكار السوداء تحتل حيزاً في ذهني المشوّش أصلاً، فاللصوص لا يهتمون بالسلطان الفاتح وليسوا بالغباء الذي يدفعهم للظن بأن هناك ثروة مخبّأة في مكتبي.. ولكن ما أنا متأكد منه أنّ أحدهم يحاول أن يوقع بي في حبائل مؤامرة دموية قذرة، وأنا أسير كالأحمق بقدمي نحو ما يرمون إليه.. هل يتعلق الأمر بمقتل

نزهت؟.. لا أعلم، ولكن الأكيد في الأمر أنهم استفادوا من قتلي لها بطريقة ما.. بالطبع لو كنت أنا الفاعل.. فقبل قليل كنت متأكداً من قيامي بارتكاب الجريمة، ولكن كلام نفزت عن العقد الذي قال إنه كان في عنقها والباب الذي كان مفتوحاً، كلها أمور تخالف ما شاهدته وفعلته البارحة.. فالمحقّق حدّثني عن عقد لم أرَه، وعن باب مفتوح أغلقته ورائي.. أعترف أن نوبة الشرود التي تصيبني تفقدني ذاكرتي، ولكنني أتذكر بالمقابل ما فعلته حين استعدت وعيي رغم أنني كنت في حالة ذعر شديدة حينها.. لذا فأنا أعتقد بوجود آخر في المنزل جاء قبلي أو بعدي، وبالتأكيد هو من اقتحم مكتبي أيضاً..

"إذاً فهذا الشخص يعرفني سيادة المحقق..".

سيادة المحقّق؟.. بالطبع ففي هذه الحالة عليّ إخباره بكل ما حصل..

"ولكن ماذا لو كان المحقق يريد الإيقاع بك، ماذا لو لم يكن هناك عقد وباب مفتوح؟..".

أحقاً سيفعل أمراً كهذا؟..

كانت هذه الأفكار تشغلني عن الواقع الذي أعادني إليه صوت الباب، حيث انتابتني رعشة من رأسي حتى أخمص قدمي. أمن المعقول أنهم عادوا مجدّداً وهذه المرة يريدون إيذائي؟.. وقبل أن أطلب منه الدخول تحرك مقبض الباب، ورأيت وجه إرول الوسيم الذي قام بإلقاء القبض عليّ في عيادة فرويد البارحة مساء، دخل وهو يحاول الابتسام..

- مرحباً أستاذ - كان صوته مرتعشاً - هل سمعت بالخبر؟

بالتأكيد كان يتحدث عن نزهت..

- سمعت. سمعت.. إنه لأمر فظيع..

اقترب من طاولتي دون أن أدعوه:

- لقد صُدِمت بما جرى، فمن له مصلحة في قتلها؟.. - حاول أن يضفي الغموض على صوته وهو يكمل - كنا معاً منذ بضعة أيام، فقد دعتني إلى منزلها؟

هل هذا الفتى أيضاً كان مدعواً على العشاء البارحة؟..



- ومتى قامت بدعوتك؟..

هز كتفيه:

- أنا أتكلم بشكلٍ عام.. فقد طلبت مني أن أزورها في منزلها.. كانت امرأة ودودة، وقد حزن الأستاذ طاهر لما جرى، وغضب أيضاً.. وقبل أن نذهب إلى المؤتمر قام بتقريعنا بشدّة، وخاصة جتين..

- لِمَ جتين؟

- لأنه كان قد أغلق جواله البارحة ولم يتمكّن الأستاذ من الاتصال به.. فقد كان يريد إرساله إلى منزلها، ولكنه اختفى وقت الحاجة..

حينها سألته السؤال الذي يراودني منذ البارحة مساءً:

- أحقاً أنّ جتين ونزهت حدث بينهما جدال ما؟..

حاولت عيناه البنيّتان التهرّب من نظراتي:

- لا علم لي بأمر كهذا..

من الواضح أنه كان يكذب عليّ ويعلم الكثير ويخفيه، ولهذا السبب بالذات غيّر وجهة الحديث:

- ولكن الحمد لله أنه تم إلقاء القبض على القاتل..

كانت المفاجأة التي لم أتوقع حصولها مطلقاً:

- تم إلقاء القبض عليه؟.. ولكن من هو؟

- ابن أخيها.. لقد قتلها ابن أخيها يا أستاذ، فهذا ما سمعناه، وربما فعل ذلك طمعاً بالميراث.. ولكن هل كنت تعرفه؟..

لم أكن أعلم إن كان عليّ أن أفرح أو أحزن، ولكن كان عليّ التأكّد من الأمر في جميع الأحوال..

- أتعني أنهم قاموا باعتقال سيزجين؟

- أجل سيزجين.. لقد أخبروا الأستاذ طاهر بهذا.

- من الذي أخبره؟..

- الشرطة..

يا للغرابة.. إذاً فقد التقوا الأستاذ طاهر!.. على الرغم من أنّ نفزت لم يلمّح إلى

الأمر مطلقاً.. ولكن ما الذي سألوه عنه يا تُرى؟.. لا بدّ أنهم تطرقوا إليّ في الحديث.. إذاً لِمَ افتعل ذلك المحقّق الحذق الدهشة حين ذكرتُ اسم الأستاذ طاهر حقي؟.. الجواب واضح، ذلك لأنه يشك بشخص آخر غير ابن أخيها؛ وهذا الشخص هو أنا.. وربما كان مطلعاً على علاقتي بنزهت أيضاً.. لقد قام باستدراجي إلى لعبته تلك منذ بداية حديثنا.. ولكن ليتني أعلم ما الذي تحدّث فيه مع الأستاذ.

– هل ذهبوا إلى منزل الأستاذ طاهر؟

– لا، تحدثوا إليه على الهاتف قبل ساعة من الآن، وقد كنت حينها برفقته. فقد اصطحبته من منزله إلى قاعة المؤتمر، وحين كنا في السيارة اتصلوا به وأخبروه.

كنت مخطئاً واتهمت سيزجين دون مبرر.. فمن الواضح أنهم اتصلوا بالأستاذ حقي بعد أن أتوا إلى منزلي، وبالطبع فقد تم إلقاء القبض على سيزجين استناداً إلى المعلومات التي أعطيتهم إياها.. حسناً، ولكنني لم أكذب، ولم أقل لهم صراحة إنّ سيزجين هو القاتل.. ولكن ما الفرق؟ فهناك شخص بريء يقبع في السجن الآن نتيجة الجريمة التي ارتكبتها، وها أنا بكل صفاقة ألقي اللوم على نفزت لأنه يبحث عن الحقيقة..

– بالطبع هم لا يتّهمون الأستاذ فقد أوضحتَ لهم سبب عدم ذهابه إلى الدعوة، كل ما هناك أنهم أرادوا التحدث معه، وقد اتفقوا على التحدث بعد انتهاء المؤتمر.

– أي مؤتمر؟.. هل سيتحدث الأستاذ عن إحدى معارك السلطان الفاتح؟

ابتسم بلطف بالغ:

– سيلقي هذه المحاضرة في الغد، فطاقات الأستاذ ونشاطاته لا حدود لها كما تعلم، ولكن موضوع هذا المؤتمر عن اعتلاء السلطان محمد الثاني للعرش للمرة الثانية.

إنه الموضوع ذاته الذي عملت عليه لفترة طويلة والذي ربما أدى إلى مقتل نزهت أيضاً.. ذلك أنها لو قامت باتهام الفاتح بقتل والده، فهي مضطرة لإجراء بحث تاريخي عن كل أحداث تلك الحقبة، وكان توارد هذا الكم الكبير من المصادفات

شيئاً لا يحتمل..

- متى تم إقرار موضوع هذا المؤتمر؟

لم يربط إرول سؤالي هذا بالحديث السابق، لذا نظر إليّ مستغرباً:

- لا أدري، ربما منذ مدة قصيرة.. ولكن لِمَ تسأل؟
- لا لشيء – قطعتُ الحديث، فمن الأفضل أن أغير الموضوع – هل ستأتي الشرطة إلى الجامعة؟ أعني من أجل التحدّث مع الأستاذ طاهر.
- أجل، فقد أخبرهم الأستاذ أنه لا يستطيع أن يلغي المؤتمر، لذا طلب منه المحقق ألاّ يتكلّف مشقّة عناء الذهاب إليهم، فهم سيأتون لرؤيته، ولهذا أرسلني الأستاذ إليك، وكلّفني أن أطلب إليك الذهاب إليه بعد انتهاء المؤتمر، لتخبره عمّا سألتك الشرطة عنه في تحقيق اليوم..

(14)

مولاي الأمير، أنت ما زلت وردة يانعة

كما في كل المحاضرات التي يلقيها الأستاذ فقد كانت الصالة مليئة عن آخرها. فكل محاضرة له تشكل ظاهرة تستدعي حضور الطلاب والمدرسين والموظفين وحتى هواة التاريخ من خارج الجامعة، لسماع المعلومات القيمة التي يطرحها.. وكما في كل مرة فقد كان في كامل أناقته، يرتدي بدلة فضية اللون، وقميصاً أرزق فاتح اللون، ويضع حول عنقه وشاحاً أحمر.. وعلى الرغم من الصدمة التي تلقاها بموت نزهت إلا أنه كان يبذل قصارى جهده ليبدأ المحاضرة وينهيها كالمعتاد.. كما كانت تلك الجملة التي يستخدمها البريطانيون في هذا الخصوص show must go on (العرض يجب أن يستمر)..

عندما وصلت كانت القاعة ممتلئة تماماً وكان كثيرون واقفين بأحذية مبلّلة نتيجة الثلج، وقد لاحظني أحد طلابي فأظهر لباقة كبيرة بأن أعطاني مقعده، فيما كان طاهر حقي يواصل إلقاء المحاضرة..

– لو لخّصنا كيفية استلام السلطان محمد الثاني العرش..

لقد كان من عادة الأستاذ إعادة طرح الأفكار الرئيسية والعناوين التي تطرّق إليها في محاضرته عند الانتهاء.. "التكرار هو صديق الذاكرة.. كرّر يا مشتاق حتى لا تعطي مجالاً لذاكرتك أن تسلك دروب الحماقة".. لم تكن بالطبع كلمات الأستاذ طاهر بل كلمات والدي الذي كان كعادته يوضح كل نقطة يطرحها بالتفصيل.. "لا تخلط بين التكرار والحفظ؛ فالحفظ يحوّل الإنسان إلى مجرد ببغاء أما التكرار فهو يساعد الذاكرة على الاحتفاظ بالمعلومة والرجوع إليها وقت الحاجة.." وعلى الرغم من أنّ الأستاذ طاهر لم يسمع ملاحظات والدي هذه إلا أنه كان أيضاً يركز على التكرار ويدرك أهميته، وهذا ما كان يفعله في هذه اللحظة بالذات، وهو يشير إلى الأسماء



التي تظهر على الشاشة الواحد تلو الآخر، ليوضح الفكرة الأساسية المرتبطة بكل اسم.

- المرة الأولى التي اعتلى فيها السلطان الفاتح العرش، كانت في صيف العام ألف وأربعمئة وأربع وأربعين غالباً.. وكان السلطان مراد الثاني الذي تنازل عن العرش في الأربعين من عمره، بينما كان السلطان الشاب في الثانية عشرة من عمره، وهنا يتبادر إلى الذهن السؤال التالي: لِمَ؟..

وكأنه كان يمتحن الحضور بسؤاله هذا وهو ينظر إليهم الواحد تلو الآخر منتظراً الجواب..

- لِمَ يتنازل سلطان قوي في مقتبل العمر عن سلطته وعرشه لأمير عديم التجربة تقريباً ويُعتبر طفلاً، ويقرّر أن ينزوي في ركن قصيّ؟

بدأت الهمهمات تعلو في القاعة وأخذ الحضور يتبادلون الأفكار والأجوبة..

- لأنه هُزِم أمام الصليبيين.. - كانت امرأة في الأربعينات من عمرها تجلس في المقاعد الأمامية - فالصرب والمجر الذين أعلنوا اتحادهم وشكلوا جيشاً، اجتازوا نهر التونا وكادوا يصلون إلى العاصمة أدرنة ويقتحموها..

- بسبب موت ابنه المحبوب والمفضّل الأمير علاء الدين علي.. فالسلطان لم يتمكّن من تحمّل هذا الألم. كان رجلاً لم أتمكّن من رؤية وجهه.

ضحك الأستاذ طاهر:

- أود توضيح بعض النقاط: فأولاً السلطان مراد لم يُهزم أمام الجيش الموحد يا سيدتي، واستطاع أن يستعيد مدينة صوفيا، كما استطاع أن يوقف الأعداء وإن بصعوبة بالغة ويعقد معهم اتفاقاً في سيزجادن.. ولكن هذه الحرب رفعت من معنويات الصرب والمجر وجعلتهم متيقّنين من قدرتهم على هزيمة العثمانيين.. وكان الأسوأ بالنسبة إلى مراد الثاني الخلافات التي نشبت بين محاربي روميلي وجنوده.. أي أنّ الخلافات الداخلية في الدولة بدأت تُظهر نفسها..

وأشار بيده إلى الحضور كمن يبحث عن أحدهم وهو يقول:

- أما بالنسبة إلى السيد الآخر الذي اقترح الجواب فأنا أؤيده. فموت الأمير

علاء الدين علي جعله ينهار، ويتنازل عن العرش لوريثه الوحيد محمد الثاني الذي لم يكن قد بلغ الثانية عشرة من عمره، وقد كان يهدف إلى إنهاء الخلافات بين باشاواته ووزرائه ورجال دولته، وتجهيز هذا الأمير ليتولّى أمور السلطنة.. ولهذا السبب بالذات قام بتوقيع اتفاقية الصلح التي ذكرتها، قبل أن يتنازل عن العرش من أجل ضمان استقرار البلاد. فلم يكن يريد للسلطان الصغير القليل الخبرة أن يجابه أعداءً متمرّسين في العداوة والقتال، وكان يريد له أن يتلقى الخبرة والتدريب مع رجل مثل تشاندرلي خليل باشا المعروف بذكائه وسعة خبرته وتجاربه..

– ولكنه استعاد العرش للمرة الثانية..

اتّجهت جميع الرؤوس نحو صاحب هذا الصوت الجهوري الذي أعرفه جيداً، فقد كان أحد أبطال الأحداث التي حصلت في غرفة فرويد ليلة البارحة في الحلم. ذلك الشاب الذي تصرف معي بوقاحة، جتين، وهو أكثر مساعدي الأستاذ جلافة، ولكنه كان يتعامل مع أستاذه باحترام بالغ، فلم يفعل ما فعله المتحدثان اللذان سبقاه، فقد نهض وهو يحدث الأستاذ ويدلي بمداخلته.

– لقد كان تصرّف مراد الثاني يوضّح خيبة أمله في الأمير الشاب لذا فقد عاد لاستلام العرش مرة أخرى.

اهتزّ حاجبا الأستاذ الكثان كما في كل مرة ينزعج فيها، ولكنني لم أعرف ما الذي أزعجه على وجه التحديد؛ أهو سؤال جتين أم غضبه من الشاب لأنه لم يذهب لتفقّد نزهت مساء البارحة؟ لذا فقد تمهّل قليلاً قبل أن يجيب وشرب بقية كأس الماء الموضوعة أمامه..

– كن منصفاً يا جتين.. – قالها وهو يزم شفتيه، وكانت المرة الأولى التي أراه فيها ينهر أحد طلابه وسط كل هذه الجموع، فعادة وفي ومواقف مماثلة يحاول أن يصحّح الفكرة المطروحة مازجاً بين الجد والمزاح حتى لا يحرج صاحبها، ولكن الأمر على ما يبدو يحمل قدراً مهماً من الجدية بالنسبة إليه، فمؤرخ لا ضمير لديه أسوأ من قاضٍ عديم الضمير كما يردد على الدوام – ولكن كلامك يحمل جانباً من الحقيقة أيضاً، فمراد الثاني قد

وقع في التناقض الذي خلقه بنفسه، ولكنني لا أعتقد بوجود حاكم أو قائد عبر التاريخ لم يقع ضحية التناقضات التي خلقها.. فقد اتخذ هذا القرار في ظروف معينة، ولكن عندما اختلفت الظروف كان عليه أن يغيّر قراره..

غريب فقد كان جتين يملك الجرأة ليقاطع كلام أستاذه:

- كان مراد الثاني أحد السلاطين المولعين بالشرب والمتع الدنيوية، فبحسب وثيقة تعود إلى ذلك العصر فإن السلطان كان مشغولاً على الدوام بالجواري ومجالس الأنس والطرب، وكان يقضي معظم وقته بصحبتهم.. وإذا أخذنا هذه النقطة بعين الاعتبار، فإننا نصل لنتيجة مفادها وجود ضعف في شخصية السلطان.

هزّ السلطان رأسه موافقاً وهو يجيب:

- لم يكن الأب مراد فقط، بل أيضاً السلطان محمد الفاتح كان مشهوراً بحبه للهو، وقد جاء في كتاب (وجيز الكلام في الذود على دول الإسلام) لمؤلفه السخاوي، أنه ورث عن والده حب اللهو، ولكنه خطأ كبير أن نقيّم شخصاً ما بحسب حياته الخاصة.. وهذا ليس عملنا فنحن لا نقيّم أحداً، بل يقتصر عملنا على تقديم المواد التاريخية كما هي وإثبات صحتها من عدمه. وبالطبع فنحن حين نقوم بنقل هذه الوقائع والأحداث ربما ننحاز ضمناً لجهة ما، ولكننا ملزمون بالحيادية في طرح الفكرة وتفسيرها دون تقييم أو إطلاق أحكام معينة.. - وهنا التفت نحو جتين ليوجه إليه نظراته الغاضبة ويكلمه بشكل مباشر - برأيي لم يظهر مراد الثاني ضعفاً، بل ربما اضطر للتخلّي عن العرش، ولكن يبقى الأمر المؤكد أنّ هذا السلطان لم يكن مولعاً بالحكم والسلطة كبقية السلاطين، وفي هذه الحالة كان من السهولة أن يتخلى عن عرشه متذرّعاً بكثير من الأسباب..

بدا وكأن جتين سيعترض مرة أخرى ولكنه لم يفعل، ولم أرَ متى جلس في مقعده، ولكن الأستاذ بدا منزعجاً وتجلّى ذلك من خلال الرعشة التي تخلّلت صوته، وهذا ما سبب جوًّا من الصمت ساد القاعة برمتها باستثناء بعض الأشخاص الذين لم يتمكّنوا من حبس سعالهم أو عطاسهم..

- وفوق كل ذلك - أكمل الأستاذ- وبعد أن لبّى السلطان دعوة الصدر الأعظم تشاندرلي خليل واستلم العرش مرة أخرى لم يفكر بالعودة إلى العاصمة.

شاهدت ارتفاع يد نحيلة متردّدة من الصفوف الأمامية، وقد لاحظها هو أيضاً بحدة بصر الصقر التي يمتلكها، رغم مرور السنوات.

- أجل سيبيل - قالها وهو يومئ إلى الفتاة وبدا صوته حادًّا بوضوح - تكلّمي، ما هو سؤالك؟

كانت إحدى الطالبات اللواتي أعرفهن، شابة نحيلة ويبدو ذلك واضحاً رغم ارتدائها معطفاً سميكاً جداً، وقد كانت صديقة جتين ومن الطلاب المتابعين لحقبة السلطان محمد الثاني بشكل خاص، ولقد كان الموضوع حساساً.. فبلادنا تظهر ردود فعل مبالغ فيها تجاه الأشخاص الذين يشكّلون رموزاً وأيقونات.. وبسبب وجود الكثير الكثير منها في تاريخنا وحاضرنا، فإن أسباب الاقتتال والمشاحنات لا تنضب بين الفرقاء على اختلاف انتماءاتهم، وفي هذه الحالة تفقد الحقيقة معناها، وتبتعد الحياة عن صيرورتها الطبيعية، ولكن ما من آذان صاغية للأسف، وقد تجادلت معي سيبيل أكثر من مرة. فقد كانت تتحلّى بالتعصّب والتزمّت الكافيين لتجر شخصاً هادئ الطباع رحب الصدر مثلي إلى الجدال.. وبالطبع من حق كل شخص أن تكون له مثله وقيمه ولكنها يجب ألاّ تكون عائقاً أمام مناقشة الحقائق ورؤية أبعادها المختلفة ومصادرة حق الآخرين في إبداء رأيهم.. ولكنها كانت ترى السبيل الأنسب للدفاع عن رأيها والتمسك به هو تزمّتها المطلق، حتى أنّ ملامح وجهها كانت تشي بما يعتمل في صدرها النحيل الضامر، فحين تحتدّ المناقشة تحمرّ وجنتاها وتقدح عيناها الخضراوان شرراً.. والغريب في الأمر أنها، وفي تلك اللحظات القصيرة، كانت تحوطها هالة من الجاذبية لتمنحها مسحة جمال تفتقر إليها في حالتها الطبيعية. وحين تكلمت لاحظت أنها كانت بالانفعال ذاته بل تبدو أكثر تمسكاً برأيها من المرات السابقة..

- أستاذ، لقد اعترضت على كلام جتين. ولكن السلطان مراد الثاني بعد تنازله عن العرش، بثلاثة أو أربعة أشهر، عاد إلى العاصمة مجدّداً.

ما الذي يحصل هنا؟ فمعظم هؤلاء الطلبة كانوا يتفانون في خدمة الأستاذ على كل الأصعدة، وكانت الجملة التي غالباً ما يرددونها أمامه "لا تشغل نفسك بهذا الأمر يا أستاذ، فنحن ستتكفّل به.." ما الذي زرع هذا الجفاء كله بينهم؟ أهو موضوع نزهت؟ ورغم مناقضة جتين لرأيه وهو أمر غير مألوف ولكنه لا يستدعي بالمقابل كل هذه الحدّة، لا بدّ من وجود أسباب أخرى دفعته إلى أن يفقد السيطرة على نفسه وهو المعروف بدماثته وسعة صدره أمام الأسئلة. ربما جريمة قتل مثلاً.. ولكن هل قام هؤلاء الطلبة بقتل نزهت؟.. لا، فأنا من قام بذلك على الرغم من أنّ سيزجين هو المشتبه به الأساسي والذي تم اعتقاله.. أيعقل أنّ هؤلاء المؤرخين الشباب المتطرفين لتاريخهم؟.. وهنا لمع خاطر كالبرق في ذهني؛ أيعقل أنّ الأشخاص الذين دخلوا إلى مكتبي هم هؤلاء الشباب، ولكن لِمَ؟ فإن قاموا بقتل نزهت وإيقاف مشروعها فما الذي يريدونه مني الآن؟.. وبدت تلك الفتاة النحيلة القوام والتي كنت أراها مجرد شابة عادية، بدت لي كشخص متوحّشٍ قادرٍ على ارتكاب أكبر الفظائع، ولكنني لا أعتقد أنّ الأستاذ طاهر يفكر مثلي، فقد نظر إلى الفتاة بهدوء وأشار لها بيده أن تجلس وهو يهز رأسه كمن يقول: فهمت ما ترمين إليه.

- ما تقوله سيبيل صحيح – وأشار مجدّداً إلى العام ألف وأربعمئة وأربعين المدوّن على شاشة العرض الرقمية، ويبدو أنّ أسئلتهما استفزّته وأوقدت روح التحدي التي يشتهر بها، فبلع ريقه قبل أن يردف – أجل، فمراد الثاني عاد مرة أخرى في تشرين الثاني إلى أدرنة، على الرغم من أنه جمع باشواته ورجالات دولته وقال لهم من قبل: "اسمعوني جيداً، لقد كنت سلطانكم، ولكن من الآن فصاعداً السلطان هو ابني، وقد تنازلت له عن العرش والسلطة ومقاليد الحكم، ليصبح سلطان هذه الدولة العظيمة.." هذا ما قاله أمام الجميع.. – أمسك بالطاولة الخشبية أمامه تعباً، ولكنه لم يكن ينوي الاستسلام ببساطة، فهذا أمر لم يفعله من قبل – بالطبع سيستمر هذا البحث الشيّق عبر صفحات التاريخ المغبرة حتى يغيبنا الموت – ولكن لا بدّ أن التعب نال منه هذه المرة بشكل كبير ليعاود الجلوس مرة أخرى قبل أن يكمل – ما الذي يدفع سلطاناً تخلّى عن العرش على رؤوس الأشهاد،

للعودة إلى العاصمة التي تركها؟.. هل هي رغبته في استلام مقاليد السلطة من جديد، أم لإدراكه أنه أخطأ التقدير بتسليم العرش لفتى صغير؟.. – كان كنسر عجوز يشرف بعينيه الحادتين على الجمهور من علٍ وقد استشرى اللغط بينهم، دون أن يجيب أحدهم على أسئلته – كما نوهتُ في بداية المحاضرة؛ الجواب ليس أيّاً من هذا الأسباب، فقد نقض ملك المجر العقد المبرم من طرف واحد دون إخطار السلطان، وقد أعلنوا الحرب على الدولة العثمانية ما إن سمعوا أنّ سلطاناً صغيراً قد استلم العرش، وكانوا ينوون أن ينجحوا خريف هذا العام في تحقيق ما فشلوا فيه شتاء العام المنصرم.. – بدا الأستاذ منحني الظهر وكأنه يشعر بالعبء الذي تكبد السلطان الأب مشقته في عودته الثانية وهو يكمل – من خلال هذه الحادثة يمكننا تقييم السلطان مراد، فقد أدرك الخطأ الذي ارتكبه بعد تسليم مقاليد حكم دولة بهذا الحجم إلى سلطان صغير قليل التجربة، وسيعود من مانيسا مثقلاً بهذه المشاعر، رغم أنّ السلطان محمد الثاني أخبر وزراءه بقدرته على قيادة الحرب وحل المشكلة دون ضرورة إزعاج السلطان الأب وتكبيده مشقة العودة إلى العاصمة، فقد كان يملك الثقة الكافية بنفسه لمواجهة الأعداء حتى وهو في هذه السن.. وهذه النقطة لها أهمية خاصة، فكما ذكرت في السابق، السلطان مراد لم يعد لاستلام العرش، بل يمكن أن نسمي الرتبة التي عاد بها حسب مسميات عصرنا رتبة وزير الدفاع لقيادة الحرب، ولم تكن لديه نية في أن يسلب ابنه الشاب عرشه.

عاد إصبع سيبيل النحيل ليرتفع مرة أخرى وظهر جسدها الغارق في معطفها الأحمر.

– ما تقوله صحيح أستاذ، ولكن معركة فارنا الشهيرة التي مكّنت العثمانيين من إحكام قبضتهم على أجزاء واسعة من أوروبا، أفقدت من جهة أخرى السلطان الشاب هيبته أمام الآخرين..

وأخيراً انفجر الأستاذ:

– أستميحك عذراً يا ابنتي، ولكن هل كان السلطان مراد الثاني عالماً بالغيب

ليعرف إن كان سيكسب هذه المعركة أم سيخسرها؟ أتعلمون ما الذي كان سيحصل لو أنه خسر هذه المعركة؟.. حسناً، سأخبركم بذلك؛ كان السلطان الشاب سيُعفى من مسؤولية الهزيمة ويتحمّل وزرها السلطان الأب- نظر إليها بإصرار وربما رأى لمعة التحدي تلك في عينيها حين يحتد النقاش بينها وبين أحد- ومن أجل أن ندرك التاريخ إدراكاً صحيحاً علينا وضع الاحتمالات المختلفة والتفكير فيها..- صمت قليلاً وظننته يستجمع أفكاره، ولكن ظهر على عينيه تعبير خالٍ من أي اهتمام على خلاف عادته، ويبدو أنّ الأفكار تختلط في ذهنه المشوّش.

هذا الارتباك الذي ظهر على أستاذي الذي يتمتع على الدوام بذاكرة حديدية وذكاء حاد أثار حزني، لذا نهضت دون أعلم ما الذي سأقوله تحديداً، وبالطبع فلا يمكن له ألا يلحظني لضخامة جثتي، أشرق وجهه مرة أخرى، وظهر بريق جذّاب في عينيه بدل الضيق الذي كان يغيّم عليهما..

- حتى أنت يا مشتاق؟.. إذاً على الأستاذ طاهر حقي أن يستسلم.

لقد كانت مقاربة للجملة التي قالها سيزر وهو يرى بروتوس بين أولئك الذين طعنوه، وهذه المواربة الذكية سببت موجة ضحك عمّت القاعة برمتها وانتقلت إليّ أنا أيضاً.

- لا أستاذ، أستغفر الله.. أنا فقط.. كنت أود أن أسألك عن المدة التي بقي فيها مراد الثاني في قصر أدرنة بعد أن كسب معركة فارنا؟

- إنه يحاول مساعدتي - نظر إليّ بود - على الرغم من أنه يعلم جيداً أنّ السلطان مراد انسحب إلى مانيسا بعد تحقيق النصر مباشرة، فمشتاق لديه ذاكرة فيل.. وكل كلمة يقرأها تترسّخ في ذهنه ليستعيدها وقتما يشاء..

للأسف يا أستاذ فطالبك المعروف بذاكرة الفيل، قد تعرّض إلى نكسة عاطفية سببت ليس فقط نسيان ما كان قد قرأه عن أحداث التاريخ الغابر، بل أيضاً نسيان ما قام به البارحة مساء. كانت هذه الأفكار تثير شفقتي على نفسي فيما واصل الأستاذ إتمام المحاضرة وقد استعاد حماسه المعهود:

- لا أنكر أنّ زملاءنا الذين اعترضوا على الأمر محقّون أيضاً - قالها وهو ينظر



إليّ مجدّداً- ولو عدنا بذاكرتنا إلى الأحداث التي حصلت قبيل المعركة حيث استدعى السلطان محمد الثاني وزيره تشاندرلي خليل، حين علم أن الأخير قام باستدعاء السلطان الأب ليترأس الحملة، وسأنقل الحديث الذي دار بينهما كما دوّنته لنا الوثائق- وضع نظّارته ليتمكّن من القراءة وأخذ كتاباً عن الطاولة وبدأ بتقليب صفحاته- أجل، إنها هنا- رفع رأسه ونظر من وراء نظارته إلى الجمهور- سأقرأ المقطع المتعلق بهذه الحادثة كما هو في الكتاب: (لقد كان السلطان الشاب ذا إرادة قوية رغم اعتلائه العرش منذ فترة قصيرة، وقد استدعى الصدر الأعظم تشاندرلي خليل لكي يمثل أمامه وقال له: "بأي حق تقوم باستدعاء والدنا السلطان إلى أدرنة، فقد أخبرتكم أنني سأتولى قيادة الحملة بنفسي؟.." ولكن الوزير كان رجلاً داهية لم يشأ الاصطدام بالسلطان الشاب فبرّر تصرفه بالقول: "مولاي أنت ما زلت وردة يانعة، ولا أريد لأي ريح أن تضرّ بعودك الطري، وأنا واثق من قدرتك على قيادتنا نحو النصر يا مولاي، ولكن الحمد لله، فقد تكرّم علينا السلطان مراد الثاني بقيادة المعركة بنفسه، خاصة أنّ هذا العدو غادر ومن الأفضل أن نمتثل جميعاً لرغبة سلطاننا ونتحرك وفق توجيهاته"..

عندما رفع رأسه عن صفحات الكتاب ظننته لوهلة تشاندرلي خليل، فهو يماثله في الخبرة وسعة الاطلاع والمقدرة على إخفاء رغباته أمام الآخرين، على الرغم من أنني كنت قبلاً أشبّهه بآك شمس الدين، فيما كانت نزهت تعقد مقارنة بينه وبين الملاّ غوراني، وكنا حينها نتناقش في أمر هذا الملاّ كثيراً، فقد كان السلطان طفلاً عنيداً لا ينصاع لأوامر شيوخه ومعلميه.. "ذلك لأنه لم يعرف حنان الأب وعطفه" هذا ما كانت نزهت تبرر به تصرّفات الأمير.. على أي حال لم يكن محمد الثاني ميّالاً للدراسة وخاصة حفظ القرآن الكريم الذي كان يجد صعوبة في حفظه على الدوام.. وعندما أدرك السلطان مراد أنّ الأساتذة لا يستطيعون السيطرة على الأمير وتعليمه بشكل صحيح، أرسل إليه الملاّ غوراني ذا اللحية الحمراء والشخصية القوية جداً، وفي أول درس له أحضر معه بالإضافة للكتب عصا من الخيزران، وعندما سأله الأمير عنها، أجابه الملاّ غوراني بكل ثقة:

- إنها لأجلك يا سمو الأمير..
- وما الذي سأفعله بها؟
- سأقوم بضربك بناء على أوامر من السلطان ما لم تلتزم بحفظ دروسك..

إلا أنّ الأمير لم يبالِ بتهديدات الملاّ، وعاد إلى استهتاره المعهود، ولكن الملاّ لم يمهله ليتمادى أكثر، وقام على الفور بضربه بشدة، ومنذ تلك اللحظة بدأ الأمير بحفظ القرآن الكريم وتلاوته بشكل رائع.. ولكن هذه الأحداث تعود إلى عهد قديم جداً حين كان السلطان طفلاً صغيراً في مانيسا أو أماسيا ربما، ولم يكن السلطان مراد قد تنازل له عن العرش بعد، ولم تكن تلك المطامح والرغبات الكبيرة قد استيقظت في نفسه لتدفعه إلى فتح أعظم مدن العالم..

- لا شيء يحدث في التاريخ من تلقاء نفسه - أعادني صوت الأستاذ مرة أخرى إلى القاعة - لقد كان السلطان الشاب محمد يفكر بطريقة منطقية جداً، وببعد نظر يتجاوز سنوات عمره القليلة، فلو استطاع أن ينتصر في معركة فارنا سيتمكّن حينها من تثبيت سلطته، ليس فقط داخل القصر، بل على الدولة كلها. ولكن لو قام والده بترؤس الحملة وتحقيق النصر، فإنه سيواجه احتمالاتٍ خطرةً جداً.

وفي هذه المرة رأيت إرول وهو يرفع يده وكان يجلس بالقرب من سيبيل، ولكن ما الذي دفع جتين للجلوس بعيداً عنهما؟ أهناك خلاف ما بينهم؟.. لا أعتقد ذلك فعلاقتهم قوية. ربما وحدها المصادفة من دفعتهم للجلوس متباعدين بعضهم عن بعض.

- أجل يا بُني - خاطب الأستاذ طاهر المؤرخ الشاب الذي أكنّ له كثيراً من الود والذي وقف من أجل طرح سؤاله.
- ولكن يا أستاذ ليس السلطان محمد الثاني من كان يتّخذ هذه القرارات ويفكّر بهذه الطريقة، بل شهاب الدين باشا وزاغنوس باشا كانا من يوجّهانه على الأغلب.
- أجل أنت محق، فقد كان القصر منقسماً إلى حزبين: فحزب تشاندرلي خليل كان يريد عودة السلطان مراد إلى العرش، أما حزب شهاب الدين

باشا فقد كان يؤيد السلطان الشاب - توجه بنظراته إلى الزاوية التي يجلس فيها جتين وهو يكمل - وهذا ما كنت أرمي إليه منذ البداية. فعلى الرغم من جميع محاولات تشاندرلي فقد بقي السلطان مراد مصراً على عدم العودة إلى استلام العرش.

- ولكنه رضخ في النهاية - قالها جتين من مكانه دون أن يكلف نفسه عناء الوقوف هذه المرة - فبعد انتصاره في معركة فارنا، عاد إلى أدرنة التي تركها منذ سنتين ليستلم العرش، عاد مجدّداً إلى القصر ومؤامراته، حيث وقع عصيان بوجوك تبي..

لم يكن أمام الأستاذ من خيار سوى رفع رايات الاستسلام ببطء ليعترف بهزيمته.

- معك حق، فقد استطاع تشاندرلي خليل أن يقوم بتحريض الانكشاريين ليقوموا بعصيان كبير، ويستهدفوا شهاب الدين باشا الذي لم يتمكّن من النجاة سوى بلجوئه إلى قصر السلطان. وبالطبع فقد كانت التغييرات المترتبة على انتصار فارنا تُظهر نفسها على الساحة السياسية بهذه الطريقة، لهذا السبب فقد اعتلى السلطان الثاني العرش من جديد للمحافظة على استقرار الدولة وضمان وحدتها.. - وعاد الأستاذ ليشير إلى التاريخ المدوّن وهو شهر آب/ أغسطس من العام ألف وأربعمئة وستة وأربعين وهو يكمل - في هذا التاريخ قام تشاندرلي خليل بإرسال السلطان الشاب للصيد، وعندما عاد إلى أدرنة وجد والده جالساً على العرش، وعلينا الاعتراف بأنها كانت خدعة قذرة من الصدر الأعظم، ولكن لو لم تسر الأمور على ذلك النحو لساءت على نحوٍ كبيرٍ واختلطت الأحداث بالدماء..

بدأ الموضوع يصل إلى النقطة التي تشغل تفكيري أي إلى موضوع قتل الأب، لذا رفعت يدي مرة أخرى ولكن ليس من أجل دعم الأستاذ، بل من أجل طرح ما يجول في ذهني.

- أستاذ طاهر، بالنسبة إلى وصية السلطان مراد المعروفة، ألم تكتب في العام ألف وأربعمئة وستة وأربعين؟ أي قبل أن يتجه إلى أدرنة بفترة قصيرة.. ولكن ما سبب كتابتها في ذلك الوقت تحديداً؟ أكان يخاف من أن يقوم

ابنه بقتله مثلا؟..- لم أحفل بنظرات جتين وسيبيل وإرول الحادة التي يوجهونها نحوي، وأكملت تفصيل ما كنت أنوي الوصول إليه - فبالعودة إلى وثائق تلك الحقبة نجد أنّ مراد الثاني الذي كان في الثانية والأربعين من عمره، لم يكن يعاني من أي مشاكل صحية، أم أنني مخطئ؟

أومأ الأستاذ من مكانه موافقاً على كلامي وهو يجيب:

- لست مخطئاً يا مشتاق، فقد كان مراد الثاني يدرك أن لعبة السلطة دموية وخطرة جداً، وهذا ما استوحاه من تجاربه الشخصية، فعندما يتعلّق الأمر بالسلطة والعرش، تفقد الروابط الشخصية بين الآباء والأبناء والأشقاء قيمتها، فالكل يصبحون مستعدين لسفك الدماء.. لذا كان يريد أن يكون جاهزاً لكل الاحتمالات.

في هذه المحاضرة التي تحوّلت جلسة حوار مفتوحة جاء التعليق الأخير فيها من قبل جتين:

- ولكن مخاوف مراد لم تتحقّق. فعلى الرغم من الخدعة القذرة التي قاموا بها من أجل إبعاد السلطان محمد الثاني عن العرش، لم يقم بتحدي والده، بل انصاع للأوامر وعاد مجدّداً إلى مانيسا.

قام الأستاذ بتأييد المؤرخ الشاب مجبراً، ولكنه لم ينسَ أن يدسّ الشك في كلماته وهو يقول:

- هذا ما حدث بالفعل، ولكن أهو بسبب الشروط التي لم تكن في صالح الشاب؟ أم حقاً أنّ الشاب لم يشأ أن يلوّث يديه بدماء والده لذا فضّل الانسحاب؟ بالطبع لن نتمكّن من معرفة الجواب..

كنت أظن أنّ جتين أو أحد أصدقائه سيعترض كما هو متوقّع، ولكن السؤال جاء من شخص لم يخطر ببالي مطلقاً: المحقق نفزت.

- حسناً يا أستاذ، هذا الشاب الذي أُبعد عن القصر نتيجة المؤامرات والدسائس التي حيكت بين جدرانه، هل تُعتبر عودته للمرة الثانية إلى العرش أيضاً نتيجة إحدى هذه المؤامرات التي كانت تعتاش على رغبات السلطة والطموح؟

كان يقف في أحد المقاعد الخلفية وبجانبه مساعده المحقق الشاب علي، ولكن متى دخلا القاعة؟.. وما الذي كان يرمي إليه من تدخّله هذا؟

نظر الأستاذ إلى هذا الرجل الذي لا يعرفه متفحّصاً قبل أن يجيب:

- هل تشير إلى موت مراد الثاني؟ - سأل بضيق واضح - ذلك الموت اللامتوقّع؟

- أمتأكد من أنه كان موتاً طبيعياً؟ - قالها المحقق الذي كان لا يزال واقفاً في مكانه بثقة - ألم تؤدّ المعارك والمؤامرات التي كانت تحدث بين الفرق المتنافرة داخل القصر إلى قتل السلطان مراد مثلاً؟

عادت الحدّة لتخيّم على صوت الأستاذ ونظراته من جديد:

- عفواً، ولكنني لا أعتقد أنني أعرفك من قبل، إلى أي جامعة تنتسب؟

هزّ المحقق رأسه وهو يبتسم:

- لست جامعياً يا أستاذ طاهر.. لقد اتصلت بك اليوم.. أنا المحقّق نفزت..

وعلى الفور شحب لون الأستاذ ولاحظت ارتباكاً دام لثوانٍ معدودة، ولكنه عاد ليتمالك نفسه مرة أخرى بل ونجح في زرع ابتسامة على وجهه قبل أن يجيب:

- إذاً فأنت المحقّق نفزت - قالها وهو يغلق الكتب ويلملم الأوراق الموضوعة أمامه - لم أعلم أنك مهتم بالتاريخ!

- الاهتمام كلمة كبيرة بعض الشيء، فلنقل إنني أحب القراءة..

ومن خلف نظراته رمق هذا المحقّقَ المحبَّ للمطالعة بنظرات ملؤها الشك.

- لا تتواضع، فمن الواضح أنك مطلع على مجريات التاريخ بشكل جيد.. أجل هناك كثير من الأقاويل التي تدعي أنّ السلطان مراد مات مسموماً، وهناك بعض من يتّهمون السلطان محمد الفاتح ويجدونه متورطاً في هذه الجريمة المزعومة، ولكنه مجرد ادعاء وهو يماثل ادعاء آخر يقول إن مؤيدي السلطان قد قاموا من قبل بقتل الأمير علاء الدين علي لفتح الطريق أمام شقيقه الأصغر محمد الثاني لاستلام العرش. ولكن كما ذكرت، فهي ادعاءات لا تستند إلى أي وثائق أو دلائل تثبت صحتها. وأنا شخصياً أجزم أنها مجرد أقاويل، لأنه لا يمكن لأحد أن يقدم على إيذاء علاء الدين الذي

كان يحظى بحماية شخصية من أقوى رجال الدولة وهو تشاندرلي خليل الذي كان المؤيد الأكبر له لاستلام العرش بعد والده، فمواجهة شخص كتشاندرلي خليل كانت تعني مخاطرة قد تودي إلى الهلاك..

- لِمَ؟..

هذا التساؤل الذي طرحه نفزت سبّب كثيراً من الهمهمات واللغط الذي بدأ يعلو في القاعة، فما غاية المحقّق من طرح سؤال إشكالي كهذا؟ ومن هو ليتجرّأ على اتّهام أعظم السلاطين بجريمة كهذه؟ وحينها خطرت لي الفكرة، أيعقل أنّ نزهت وبسبب تطاولها على أعظم السلاطين تعرّضت للقتل على يد كل من جتين الوقح وسيبيل المهووسة وإرول؟.. ولكن ماذا عنّي؟.. ما الذي كنت أفعله في مكان الجريمة وفي ساعة حدوثها؟.. ما الذي أخذني إلى ذلك المكان المشؤوم؟..

- لأنّنا لا نملك أي وثائق أو أدلة تثبت حدوث عملية اغتيال أو تسميمٍ للسلطان – قالها بصوت هادئ على عكس الغضب الذي اجتاح الموجودين في القاعة – فهل تستطيعون اتهام أحد بجريمة قتل في حال عدم وجود شهود أو أدلة؟.. وفي حال اتهامك للأمير محمد بقتل والده فيجب أن تكون بحوزتك وثائق تثبت ما تقول أو أن يكون لديك شهود يؤكدون وقوع الأمر، أليس هذا هو المفروض؟

لم يجد ما يرد به على الأستاذ المحنّك، ولن يجد.. فهو لا يناقش مشتاق الأخرق، بل أستاذ الأساتذة طاهر حقي، لذا فقد جلس بهدوء دون مزيد من النقاش الذي حسمت نتيجته. وعاد الأستاذ ليكمل محاضرته:

- هذه الآراء التي تُطرح في كثير من الأحيان بحسن نية أو بسوء نية، لا جدوى منها سوى نبش لحظات معتمة وغامضة من التاريخ، فهي تقوم فقط بالتركيز على الأحداث الدموية وغير المثبتة وغير المؤرّخة بشكل موثوق، وإن شئت رأيي الشخصي فلا أظن أنّ الأمير محمد الثاني الذي سيصبح السلطان الفاتح فيما بعد له أي علاقة بموت والده..

سكت مرة أخرى وتجولت نظراته على القاعة التي سادها صمت عميق وأنهى محاضرته بهذه الكلمات:



- ونتيجة لكل ما تم ذكره سابقاً، وكل هذه المناقشات، فتلك الأحداث كانت لصالح السلطنة العثمانية، فبعد الانتصار الذي حققه الأب مراد في فارنا، وإجباره الأوروبيين على الاعتراف بقوة دولته وقدرتها، قام الابن الذي استلم العرش فيما بعد بتحقيق أكبر نصر تاريخي للسلطنة، فقد كانت فارنا سبيلاً إلى انتصار أكبر وهو فتح القسطنطينية والذي حوّل الدولة العثمانية إلى إمبراطورية عظيمة حكمت العالم سنوات طويلة..

(15)

هذا الطفل يضمر في قلبه الخبث

بعد أنّ انتهى المؤتمر لم يخرج الأستاذ طاهر بسهولة، فكما هي العادة اجتمع حوله كثير من المهتمين، طلبة يريدون عرض أطروحاتهم عليه لأخذ رأيه، أو موفودون من جامعات يعرضون عليه إلقاء محاضرة فيها، وبعضهم يريدون منه إلقاء محاضرة على موقع إلكتروني أو لقاءً تلفزيونياً، وآخرون كانوا يطلبون منه رسائل تزكية. وقد لفتت انتباهي مجموعة من الطلاب الشباب المتحمسين لآرائه الذين يمطرونه بطلباتهم وأسئلتهم..

بالنسبة إلى الأستاذ العجوز لم تكن هناك من مشكلة، ولكن الأمر كان مغايراً بالنسبة للمحقّقين اللذين وقفا حائرين يبحثان عن وسيلة لاختراق هذا الجدار البشري، وربما لوجودهم، في حرم الجامعة أو ربما نتيجة الاهتمام الكبير الذي أبداه الجميع نحو الأستاذ، تجنّبا التصرّف وفق ما تمليه عليهما صلاحياتهما وبقيا يتلفتان حولهما بحيرة، فاقتربت منهما بكل هدوء قائلاً:

- إن لم تتصرّفا على الفور، فستضطران للبقاء طويلاً حتى ينجلي هذا الحشد.

ارتسمت ابتسامة ودية على وجهي المحققين وهما يلتفان إليّ.

- أهلاً أستاذ مشتاق، سعيدٌ لأننا التقينا من جديد. رحب بي نفزت.

كانت هذه بادرة جيدة، ودليلاً على أنني لست في مرمى الشكوك حتى الآن، وتلك اللعبة التي استدرجاني إليها اليوم صباحاً لم تترك انطباعاً سيئاً لديهما.. بل ربما يشعران بالامتنان لأنني قدّمت لهما سيزجين على طبق من ذهب.. عظيم! أتمنى أن تسير الأمور على هذا النحو، لذا أردت أن أبدي الود ذاته تجاههما.

- مرحباً.. أنا أحاول ألاّ أفوت أي محاضرة من محاضرات الأستاذ. ومددت يدي مصافحاً..



- حقاً ألا تملون من سماع المعلومات والكلمات في كل مرة ذاتها، فكل ما قيل في هذه المحاضرة أظنك على اطّلاع عليه من قبل، وربما سمعت هذه الكلمات مئات المرات.. كان نفزت يتساءل بحيرة صادقة لا أظنها تقود إلى لعبة جديدة.
- لا.. - حاولت أن أوضح له الأمر - فالأستاذ طاهر ليس من ذاك النوع الذي يكرر معلوماته، وفي كل محاضرة يلقيها يقدم معلومة جديدة. فالتاريخ ليس حديقة من الماضي تجولنا في كل أروقتها، بل على العكس فهي مليئة بالخبايا والدروب التي لم نسلكها من قبل وتفاجئنا على الدوام. والحكام ليسوا جثثاً يتم فحصها بمبضع الطبيب الشرعي كما يحدث في الجرائم عادةً. فعلى الرغم من تطور وسائلنا وأدوات بحثنا، فكل وثيقة جديدة نحصل عليها وكل معلومة مؤكدة نتمكّن من الوصول إليها تقودنا إلى وجهة نظر جديدة ورؤية جانب آخر من الحقيقة.. أي أنّ معلوماتنا في تغيّر مستمر.

على الرغم من عدم ضرورة هذا الشرح المكرور والكلاسيكي والذي بات معروفاً لنا نحن المؤرّخين، إلا أنّ كلماتي حازت اهتمام المحقّق الذي بدأ يرمقني بفضول وهو يقول:

- تعني أنه لا يمكن الحديث عن حقيقة مطلقة في التاريخ؟
- ليس في التاريخ فحسب، فلا يمكن الحديث عن حقيقة مطلقة في عصرنا الحالي في أي مجال، فبالعودة إلى مقتل نزهت، ما هي الحقيقة ومن هو القاتل؟.. ومن له مصلحة في قتل مؤرخة وباحثة مثلها؟..

لقد أدرك الخطأ الذي ارتكبت فيما كانت الكلمات تتدفق من فمي بغباء مطلق، ولكن فات الوقت على الانسحاب وأدركت أنّ لساني يودّ توريطي رغماً عن إرادتي، فما الداعي لأن أتحدث عن حبيبتي السابقة وأقحمها في هذا النقاش. على أي حال فقد وقع المحظور وبات الرجوع ضرباً من المستحيل..

- فما أودّ قوله يا سيد نفزت هو أنّ الحقائق تتغير.

نظر إليّ المحقّق غير مقتنع، وكان صمته فقط من أجل البحث عن إجابة مناسبة،



وبعد لحظات رمقني قائلاً:

- ربما هذه الفرضية تنطبق على التاريخ - كان يتحدث بجدية بالغة - ولكن في حالة الجريمة هناك حقيقة لا تتغير، فالمجرم شخص محدّد لا يتغيّر مع تغيّر الظروف والأفكار، والذنب الذي ارتكبه واضح جداً، فهو قام بسلب شخصٍ ما حياته، وفي حال حدوث أي خطأ أو التباس حول معلومة تاريخية معينة، قد يقوم أحد زملائك بتصحيح الخطأ وإعادة الأمور إلى نصابها الصحيح، ولكن كل جهود العالم لن تفلح في إعادة ضحية ما إلى الحياة. فحتى الآن لم يتمكن أحد من تحقيق أمر كهذا، وأعتقد أنّه احتمال ضعيف التحقّق في المستقبل..

معه حق، ولكنني لم أشأ أن أستسلم بسهولة.

- ولكن هناك جرائم معينة على الرغم من مخالفتها القانون إلا أننا في دواخلنا نجدها عادلة ونستحسن حدوثها أليس كذلك؟ ألم يحدث أن فكرت من قبل عن أحد المقتولين أنه استحق هذا المصير من قبل؟

- يحدث أن يفكر المرء بهذه الطريقة، ويحدث أن يسره وقوع جريمة ما، ويقول لنفسه إنّ العالم تخلّص من أحد أنذاله. ولكنه بالطبع أمر خاطئ، فكفاحنا ضد الجريمة أمر مختلف تماماً عن وجهة نظرنا تجاه المجرم، فأكبر الذنوب هو قتل إنسان آخر، وكما أردّد دوماً فالقتل هو الذنب الذي لا يمكن الرجوع عنه مطلقاً أو تداركه..

- أتعني يا أستاذ مشتاق - تدخّل المحقق علي ليختلط حوار الجريمة مع حوار التاريخ - أنك تشجع القتل في حال وجود مبررات مناسبة؟..

لا بدّ لي من تهنئة نفسي على التطوّر الذي بلغته حماقتي، فقد نجحت مرة أخرى في إيقاظ الشكوك من حولي دون وجود أيّ مبرر لذلك.. "هذا الطفل يبقى صامتاً ولكنه ما إن يفتح فمه حتى يُفسد فوراً ما قمنا ببنائه دهراً.." كانت الخالة شاهيستة محقة في كلماتها، فما أتفوّه به الآن لهو أكبر دليل على ذلك..

- بالطبع لا حضرة المحقق، فمن أنا لأقوم بارتكاب جريمة قتل؟

رمقني الشاب بنظرات صارمة قبل أن يقول:

- لا أتهمك بارتكاب جريمة، فقط كنت أتساءل إن كنت تؤيد قيام أحدهم بارتكاب جريمة ما.

بدا جوابه أقرب إلى التوبيخ منه إلى التوضيح، ومن الواضح أنه لا يتحلّى باللباقة التي يتحلّى بها المحقّق نفزت، وكانت كلماته كافية لاستدعاء اضطرابي الذي أحاول طمسه في الأعماق، لذا بدأت أتنفّس بعمق حتى لا أسمح لمعالمه بالظهور، وكل هذه الصراعات التي كنت أكابدها كانت تحظى بمراقبة صارمة من المحقّقين اللذين كانا يراقبان أدنى خلجاتي، ولا أعتقد أنهما اقتنعا بما سقته من مبررات، ولكن كان عليّ أن أجرّب كل الحيل التي في جعبتي أملاً في النجاة.

- وهذا ما أقصده أنا أيضاً.. فقتل أحدهم ليس فعلاً مقبولاً مهما كانت المسوّغات.. ولكن.. - والتفتّ إلى المحقق بحثاً عن خشبة خلاص - فأنا أوافق المحقق فيما قاله.. القتل خطأ لا يمكن الرجوع عنه..

كنت أثرثر بادي الاضطراب، وأرتعد من فكرة إمساكهما بي وإجباري على الاعتراف.

- سؤالك كان غريباً!

نظرت إلى المحقّق باستغراب.

- عفواً؟..

- أعني السؤال الذي سألته للأستاذ طاهر حقي حول الوصية التي كتبها مراد الثاني بعد اعتلائه العرش للمرة الثانية.

لقد هبّ لنجدتي في الوقت المناسب.

- أجل، فهذا الموضوع يدعو إلى الاستغراب نوعاً ما - وتعمّدت إطالة الشرح قدر الإمكان - فلا بدّ أنّ السلطان مراد الثاني قد شعر بالخوف من السلطان الشاب، وإلا فما الذي يدفعه لكتابة وصيته وهو في كامل قواه وصحته؟

- على ما يبدو أنّ موت مراد المبكر قد بدأ يثير لديك أيضاً الشكوك والتساؤلات.

عدنا إلى موضوع قتل الأب، وأدركت أنّ أي بلبلة في طرح أفكاري ستودي بي إلى مهالك أحاول تجنّبها قدر الإمكان..



- ليس موته، بل شكوكه.. فمراد الثاني وحال عودته لاستلام العرش مرة أخرى وكتابته لوصيته، يوقظ الكثير من الشكوك والتساؤلات. فهل كان يخاف من مطامع ابنه التي قد توقظها السلطة، أم كان يخاف من المؤامرات والدسائس التي تُحاك في أروقة القصر من حوله؟.. وربما كان يستعد للموت كأمر محتوم يأتي في أي لحظة ولهذا السبب باشر في كتابة وصيته.. فنحن المؤرخين مجبرون على دراسة الحادثة التاريخية من مختلف وجهات النظر والجوانب، وهذا هو المنهج الوحيد من أجل بلوغ الحقيقة. وبالعودة إلى مثالنا عن السلطان مراد وبالرغم من وجود شكوك كثيرة وتساؤلات حول الأمر، إلا أنه ما من إثبات بأن السلطان الشاب قام بقتل والده.. ولكن ما الذي تثبته هذه الشكوك؟.. حسناً، سأخبرك. إنها تثبت أنّ توارث العرش كان على الأغلب مصحوباً بسفك الدماء بين أفراد الأسرة الواحدة، وفي أحسن الأحوال كان هذا الانتقال مصحوباً بكثير من المشاكل والخلافات. وكما نوّه الأستاذ طاهر فلا علاقة للسلطان محمد الثاني بموت أبيه، ربما كان قدراً محتوماً أو موتاً طبيعياً، وإن كنت مصراً على وجود قاتل، ذلك أنه وبحسب ما تنص عليه مصادر التاريخ فسادس السلاطين العثمانيين قد مات ميتةً طبيعية..

بقي يرمقني بنظراته التي ملؤها الشك.

- أظنك تردّد هذه الكلمات دونَ اقتناع مطلق - وقبل أن يسمح لي بالدفاع عن نفسي أردف - ولكن كما تشاء.

يبدو أنّ نفزت لا ينوي التخلّي بسهولة عن هذا الدليل الذي وجده. وأشار بيده نحو باب القاعة حيث كان المؤرخون الشباب الثلاثة جتين وإرول وسيبيل الذين كانوا يتجادلون بصوت منخفض ربما حول الموضوع نفسه.

- من هؤلاء الشباب؟

من الواضح أنّ هذا المحقّق المحنّك قد لاحظ اختلاف وجهات النظر بين الأستاذ وطلبته من خلال تراشق الأفكار الذي حصل قبل قليل. ومن الجلي أنه لا يضيّع أصغر التفاصيل وأنني أواجه رجلاً ذا خبرة واسعة في مجال عمله..

- إنهم معيدون في الجامعة - قلتها مبدياً اللامبالاة - في الماضي كانوا يُسمّون مساعدي الأساتذة ولكن اللقب تغير منذ مدة، وقد بقوا يخدمون الأستاذ.

بدا الشك في عينيه وهو يسألني:

- ألم يتقاعد الأستاذ حتى الآن؟

- أجل، لقد تقاعد منذ مدة طويلة، ولكنه مؤرخ عاشق للتاريخ - ضحكت - وقد أوضح في إحدى المرات" لن أتخلى عن التاريخ حتى أصبح من التاريخ".. وهؤلاء الشباب ما زالوا يعملون مساعدين له بصفة غير رسمية.

ظل يرمقهم وهو يطرح مزيداً من الأسئلة.

- ولكن من الواضح أنهم لا يتّفقون مع آراء أستاذهم..

إنها المرة الثانية التي تُتاح لي الفرصة للتلاعب بالأمر، ومن المؤسف ألا أستغلها كما يجب.. "هذا الطفل يضمر في قلبه الخبث.. فهو ليس بريئاً كما يحاول أن يبدو".. هكذا وصفني أبي.. بريء؟.. أنا بريء بقدر ما يكون أي قاتل بريئاً من دم ضحيته.. وفي تلك اللحظة أدركت أنني مقتنع بتقبل فكرة قيامي بالجريمة وسهولة إصباغ هذه الصفة على نفسي على الرغم من عدم تأكيد الأمر حتى الآن. فهؤلاء الشباب الذي كانوا مستائين من نزهت نتيجة الاتهامات التي وجهتها إلى السلطان الفاتح قد يكونون هم القتلة.. ولكن هل يعني هذا أنهم أقدموا على قتل أحد أساتذتهم نتيجة اتهامات وُجهت نحو سلطان مات منذ خمسمئة عام؟.. إلا أنّ ما حدث منذ قليل والحدّة التي أظهروها أثناء النقاش والتي أراها للمرة الأولى ولّدت في ذهني كثيراً من الاحتمالات. وقد حاولت نقل أفكاري إلى المحققين.

- على العكس فهؤلاء الشبان يعاملون الأستاذ على الدوام باحترام مطلق.. - وحين أدركت أنّ مستمعي يترقّبان كل كلمة أتفوّه بها بلهفة بدأت بدس السم في كلماتي بهدوء شديد - ولكن حدث خلاف صغير بين الأستاذ وجتين قبل المحاضرة بقليل، وقد وبّخهم الأستاذ جميعاً، ربما لهذا السبب ساد نوع من التوتر بينهم.. وأظن أنّ الخلاف كان متعلقاً بالمرحومة نزهت.

المرحومة نزهت؟.. على الرغم من عدم مرور يوم كامل على موتها، بدأت أطلق عليها لقب المرحومة. تلك المرأة التي كانت محور دوران عمري، كيف أصبحت مرحومة بهذه السهولة؟.. وذلك العشق الذي استمر إحدى وعشرين سنة، كيف تم نسيانه في إحدى وعشرين ساعة؟.. يا لك من عاشق وفيّ يا مشتاق!.. لكن سؤال المحقّق نفزت قد أوقف سيل التأنيب الذي كان ينوي اجتياح روحي المهزوزة..

- أكانوا يعرفون الضحية؟

توجّهت إليه بنظراتي متصنّعاً الدهشة وكأنني أسمع أكثر الأسئلة غرابة في حياتي.

- أهناك مؤرّخ لا يعرف نزهت؟.. ومن الواضح أنهم تقابلوا بصورة شخصية أيضاً، فهناك حديث يدور عن خلاف نشب بين جتين ونزهت منذ مدة.
- أتعني ذاك البدين - أشار برأسه نحو مجموعتهم - يبدو عصبي المزاج بعض الشيء.

نظرت إليه بتواطؤ خفي.

- عصبي المزاج؟ - كان عليّ أن أواصل اللعبة التي بدأتها وأؤيد المحقق الشاب - معك حق حضرة المحقّق فهو حادّ الطبع نوعاً ما.

سكتت للحظات لأمكّن كلماتي من الترسّخ في ذهنيهما، ولكن المحقّق نفزت بدا منزعجاً من تشعب الحديث، تماماً مثل والدي الذي كان ينزعج من أسلوبي هذا في إطالة الحديث والمراوغة دون الوصول إلى جوهر ما أبغيه.. "اختصر، اختصر.. حاول أن تتعلّم هذه الخصلة يا مشتاق.. هذا الولد لا يستطيع التخلص من هذه الثرثرة التي لا طائل منها"..

ذلك لأنني كنت خائفاً من رد فعله، وهذا ما كنت أتمنى قوله له عندما ينهرني. ولكنني الآن أيضاً أحاول استعمال هذه الخدعة المزعجة لتشتيت انتباههما، إلا أنّ المحقق نفزت لم يسمح بمزيد من إضاعة الوقت.

- لماذا تجادل مع السيدة نزهت؟

كان كمساعده الشاب يوجه نظرات حادة نحو جتين وهو يتحدث، ويبدو أنّ الأمور تسير على خير ما يرام ووفق ما أخطّط له، فتوقّفت عن مزيد من التوضيح.

- لا أعلم – وتصنّعت أكثر حالتيَ براءة – تستطيعان أن تسألا الأستاذ وهو سيوضح لكما.
- ما الذي سيوضحه؟

عندما أدرت رأسي واجهني الأستاذ بنظراته الصارمة. ولكن متى تمكّن من التخلّص من الحشد المحيط به ومنذ متى وهو يستمع إلى حديثنا؟

- أنا.. أستاذ. كنا نتحدّث عن جتين..

عاد حاجباه الكثّان يهتزان باستياء.

- ما به جتين؟ سألني بحدة لم تخف عليّ، وكأنه خمّن حقيقة نواياي.

"لا شيء يا أستاذ سوى أنني أحاول أن أوضح لهما الجريمة التي ارتكبها مساعدوك المتطرّفون الثلاث، والنجاة بنفسي من المشنقة".. بالطبع هذا ما لم أقله بشكل صريح للأستاذ، بل بدأت عوضاً عن ذلك أبحث عن طريقة لأنجو بها من شكوكه، فهب المحقّق نفزت لمساعدتي للمرة الثانية.

- لما كانوا مصرين على تفنيد آرائك يا أستاذ؟

تمهّل العجوز للحظات ولجأ إلى تقنية الهجوم للدفاع عن نفسه.. "لن تتعلّم الهجوم يا مشتاق، وستبقى جباناً هكذا طوال عمرك".. من الذي نعتني بهذا الوصف؟.. أبي؟ أمي؟ أم خالتي؟.. ولكن صاحب هذه المقولة محق بكل تأكيد، فقد كنت أتعرّض للضرب من أطفال الحي على الدوام دون أن أتجرّأ على الدفاع عن نفسي، وكنت أعود معظم الأحيان إلى المنزل باكياً، على الرغم من رغبتي الشديدة في ضربهم حتى رؤية دمائهم تسيل، وكنت أسمع سخرياتهم باكياً صامتاً أتجرّع مرارة خوفي وجبني، وسأظل جباناً ما تبقّى من عمري. ولكنني الآن محظوظ بوجود المحقّق نفزت الذي يحميني من هجوم الأستاذ طاهر.

- من قال لك إنهم كانوا محتدّين؟ – حاول أن يصبغ الحنو على صوته وهو يتحدث عنهم – فنحن دوماً نتناقش بهذه الطريقة، سيد نفزت، وليس من الضروري أن يوافق جميع زملائي على ما أطرحه من أفكار، بل العكس فوجود وجهات نظرة مختلفة هو السبيل لتطوير أفكارنا بالاتجاه الصحيح، وفي كل تقييم جديد تتّضح الأحداث بصورة أكثر منطقية وقرباً من الواقع..

كان الأستاذ يكذب بكل صفاقة، فبحسب ما كان يردّده على الدوام، فإن العلم لا يتقبّل الإفراط في الديمقراطية، ويجب ألا يفقد الأساتذة قدرة التحكّم في المعلومة والسيطرة عليها.. "الانضباط العلمي هو أحد أهم المناهج التي يجب المحافظة عليها واحترامها في أي بحث علمي تقوم به، وهو من أهم مميزات النجاح، ومن أهم الأدوات التي يجب أن يستعين بها الباحثون.." ولكن من غير المنصف اتهام الأستاذ بأنه طاغية، إلا أنه في الوقت ذاته لا يعير آراء الأشخاص الذين يعمل معهم تلك الأهمية الزائدة.. لكن المفارقة تكمن في تحوّل رأيه المفاجئ أمام هذين المحقّقين. لا بدّ أنه يخفي شيئاً ما ويحاول أن يحمي طلبته من أمر على جانب كبير من الخطورة. وبدأ الفضول ينتابني أكثر من المحقّق حول حقيقة ما يخفيه الأستاذ وسبب الجدال الذي حدث بين نزهت وجتين.. ولم تقنع أساليبُه في المراوغة المحقّقَ الذي بادره بالسؤال مباشرة.

– لقد سمعت بالجدال الذي دار بينك وبين جتين، ويبدو أنك وبّخته بشدّة حول أمرٍ ما..

نظر إليّ الأستاذ بحنق كمن يتهمني بخيانة، وبدل الاعتراف بذنبي تحت ثقل هذه النظرات الرهيبة اتجهت لوسيلة دفاعية أخرى وهي الاختباء خلف قناع البراءة، وطمر رأسي كالنعامة في الرمال. هذه الاستراتيجية التي تعلمتها من والدتي والتي أثبتت فعاليتها في كثير من الحالات، ويبدو أنني أتقنت لعب الدور حتى انتابت الحيرةُ العجوزَ وهو ينظر إليّ غير متأكد من أنني أنا النّمام الخائن بينهم، ولحسن الحظ فهو لم يكن يملك وقتاً للتفكير في الأمر خاصة وأنّ المحقّق ينتظر رده.

– أجل لقد تجادلنا.. – بلع ريقه وتنحنح قبل أن يكمل – فقد أثاروا غضبي لأنهم أرادوا إلغاء المؤتمر دون إخطاري بالأمر، وأنا أكره أن يقرر عني أحد أمراً يتعلّق بي.

كذبة جديدة، ومرة أخرى حاول أن يحمي طلابه.. ولكن ما الذي يحاول أن يخفيه ولماذا؟.. أيعقل أن يكون هو أيضاً متورّطاً في الأمر؟.. كيف؟.. هل يمكن للأستاذ طاهر التورّط في جريمة قتل؟.. لِمَ لا؟.. ربما يكون هو من خطط للجريمة برمتها، لأنه يملك ذكاءً حادًّا، وقد يكون هو صاحبَ فكرة توريطي في الجريمة..

مستحيل.. فالأستاذ طاهر يحبني أكثر من جميع طلبته وأكثر من نزهت بكل تأكيد.. ولكن لا علاقة لهذه الجريمة بالمشاعر والحب، بل هي مهمة علمية بحتة بالنسبة إليه، فكما قال من قبل: "لا تسلبوا هذا الشعب المسكين مصادر فخره وتحرموه منها"..

أيكون اعتزازنا بانتصارات الماضي والقدسية التي نضفيها على شخصيات التاريخ والفخر الذي نشعر به تجاههم هي الأسباب الكامنة وراء قتل نزهت بتلك السكين التي تحمل ختم أعظم السلاطين؟.. لو كان الأمر على هذا النحو فلِمَ هو حانق على جتين إلى هذه الدرجة؟.. بالطبع لأنه لم يقم بمهمته كما يجب، وأنت أيها الأحمق ذهبت بقدميك إلى مسرح الجريمة، وفوق ذلك أخذت معك أداة الجريمة لترميها في قاع البحر. ربما كانت الخطة تقتضي أن يتصلوا بالشرطة خلال وجودي في مسرح الجريمة ليتم القبض عليّ.. ربما هذا ما خطّط له الأستاذ، ولكن هؤلاء الطلبة الذين يفشلون في كثير من الأحيان في المهمات الموكلة إليهم جلبوا على أنفسهم غضب العجوز..

- فهمت - أعادني صوت نفزت وهو يتلفّت حوله قبل أن يكمل - ألا يوجد مكان أفضل وأكثر هدوءاً نستطيع فيه إتمام حديثنا؟

كنت أراقب العجوز وهو بادي الارتباك أمام هذين المحقّقين على الرغم من محاولته إخفاء الأمر. حينها شعرت بالشفقة عليه وأدركت أنه من المستحيل أن يكون أستاذي العزيز متورّطاً في شيء بهذا السوء، ومهما قيل فرجل كهذا لن يتحوّل قاتلاً. لذا فقد أحسست بالخجل من الأفكار التي كانت تراودني قبل قليل حوله، وربما بدافع من هذا الإحساس اقترحت عليهم.

- إن شئتم تفضّلوا إلى مكتبي وتستطيعون إتمام حديثكم هناك.

رفض المحقّق نفزت عرضي هذا بلباقة ولكن بحسم لا يقبل النقاش.

- شكراً أستاذ مشتاق، ولكننا نرغب في التحدّث مع الأستاذ بمفردنا.

أحسسته يقول لي: لا تفرح كثيراً لأنك لست بعيداً عن دائرة الشبهات، كما أنّ الأستاذ رفض الفكرة بدوره.

- في جميع الأحوال فأنا لا أستطيع تسلّق الدرج للصعود إلى مكتبك - ثم أشار بيده إلى باب القاعة - هناك غرفة للزوار في مدخل القاعة، أن شئتم

يمكننا أن نجلس هناك فقد تركت معطفي وقبعتي فيها – وبينما كان يغادر متوسطاً المحقّقين خاطبني آمراً دون أن يلتفت إليّ – ابقَ هنا يا مشتاق فأنا أودّ التحدث إليك..

(16)

من أنت لتجرؤ على قتل أحدهم

لقد وصل بي اليأس إلى الدرك الأسفل ودفعني لتمني القبض على أشخاص أبرياء نتيجة الجريمة التي ارتكبتها، والأسوأ من ذلك أنني لم أبالِ بتوريط أستاذي العزيز في هذه التهمة، فكل ما كان يهمني حينها أن أتمكّن من التنصّل من العقاب.."أناني.. هذا الطفل أناني جداً.. فلم لا يسمح لشازية أن تشاركه ألوانه المائية؟.." لأنها لا تعيد ترتيبها كما يجب عند الانتهاء وتخلط الألوان بعضها ببعض وتلوث المكان برمته، ليقع عليّ عبء التنظيف.. لذا لم أكن أرغب أن أشاركها الرسم بألواني..

أجل لقد كنت طفلاً أنانياً وأرفض أن يقترب أحدٌ من كتبي ودفاتري، وخاصة ألواني المائية.. تماماً كما حصل فيما بعد حين رفضت أن يشاركني أحدٌ حبي لنزهت.. "انظري كيف مزّق الأوراق ورماها لكي لا تتمكّن شازية من اللعب بها، هذا الطفل خبيث وهناك كثير من السوء يعتمل في قلبه.." أحقاً كنت سيئاً إلى هذا الحد؟.. ألهذا السبب قتلت نزهت، ولهذا السبب بالذات ورّطت زملائي في الجريمة محاولاً أن أخلط الأمور بعضها ببعض وأجد مبررات سخيفة من التاريخ؟.. ولكن الأمر ليس بهذه البساطة، فنزهت تناولت بالفعل موضوع قتل الأب من قبل، كما أنني لا أسعى إلى توريط أحدٍ، حيث أنني لست متأكداً حتى الآن من قيامي بالأمر..

عاد مجنون المرآة ليحدق بي ويرشقني باتهاماته.

- إذاً لِمَ هربت من مسرح الجريمة ومسحت بصماتك عن المكان ورميت أداة الجريمة في قعر البوسفور؟..

لأنني خفت وأصابني الهلع، وكان هذا أول ما خطر لي للنجاة.

- دعْكَ من كل هذه المبرّرات الواهية، فنحن بمفردنا الآن ولا مانع من اعترافك بالحقيقة، فقد كنت متيقناً من أنك قتلت نزهت حينها، ولم يخطر



في بالك أي احتمال آخر.

كيف لي أن أفكر بطريقة مغايرة وذاكرتي لا تنوي الإفصاح عما قمت به في تلك الساعات المظلمة، ولكنني الآن لم أعد متيقناً من تورّطي، فشخص مثلي لا يستطيع أن يؤذي نملة..

- كل هذا الكلام لا يهمّ الآن. فحتى في حال عدم ارتكابك للجريمة، من الصعب جداً إثبات براءتك خاصة أنك أكثر من تشك في نفسك.

لا، على العكس. فأنا أعتقد جازماً بأنني بريء من التهمة، ويبدو أنني بالغت في تهويل مشكلة الشرود النفسي التي أعاني منها، ولا يوجد إثبات على أنّ الأشخاص الذين يعانون من هذا المرض قادرون على ارتكاب جريمة.

- ولكن فرويد قال إنك تعاني من مشاكل نفسية أعمق بكثير من مجرد فقدان الذاكرة، فأنت تعاني من الفصام ألا تذكر؟ ولا تنسَ جنون العظمة أيضاً.. وهذا يعني أنك شخص تعاني من كثير من أعراض الجنون، وبالتالي لا يوجد ما يعيقك عن ارتكاب جريمة قتل..

كفّ عن الترهات فقد كان مجرّد حلم، وقد تقمّص عقلي الباطن دور فرويد، وربما تكون أنت من تقمّص دوره، فأنت الوحيد الذي يريد أن يودي بي إلى أعتاب الجنون؛ أنت جانبي المريض والمظلم والبشع..

- بالطبع، فلا أسهل عليك من اتهامي وهي وسيلتك المتّبعة على الدوام.. فأنت كنت تفعل ذلك منذ زمن طويل، منذ أن كنت طفلاً صغيراً. ففي الليالي التي كنت تتبوّل فيها على نفسك وتستمتع بذلك الدفء الذي يغمرك أثناء فعلتك المشينة، لم تكن تشاركني تلك المتعة. ولكن في الصباحات حين كنت تستيقظ وأنت مغطّى بعارك ورائحتك النتنة، كنت توجّه إصبع الاتهام نحو المرآة حين تسألك والدتك عن سبب قيامك بالأمر، وتقول "هو من فعل ذلك".. "من هو؟".. "ذلك الطفل الواقف في المرآة".. في حين كانت خالتك شازية تصب عليك قهقهات سخريتها كلعنات يتردّد صداها في أذنيكِ طيلة النهار. كنت دائماً ذلك الولد المدلّل الذي يفوح برائحة العطر، البريء الذي لا يقوى على ارتكاب أي سوء، في حين أنني كنت مصدر

الشرور والقذارات كلها، وكانت دموعك تعزّز تصديق الآخرين لبراءتك التي كنت ترتديها كقناعٍ دائم.. ولكن الأمور تغيّرت وعليك أن تتعلّم كيف تتحمّل مسؤولية أعمالك وتتعلّم كيفية محاسبة نفسك. وما من أحد تخاف منه بعد الآن، فوالدك توفي منذ زمن طويل، ولا خوف من أن تسبّب الحزن لوالدتك التي لحقت بزوجها وأراحتنا منها منذ زمن طويل..

لا أسمح لك بالتحدث عن والدتي بهذه الطريقة، فهي الوحيدة التي كانت تحبني.

- تعني أنها كانت تحميك. الحب شيء والحماية شيء آخر. وربما محاولاتها الزائدة لحمايتك قد أبعدتك عن مواجهة مشاكل الحياة واكتشاف قسوتها والتمرّس على عيشها بالصورة الصحيحة..

ليست والدتي المذنبة، بل والدي هو المذنب..

- حسناً، لقد كان والدك شخصاً جلفاً، كان نموذجاً غبياً لموظفي الدولة. ولكن الأمر لم يتوقف عليه وحده، فهذا البله لا يعود فقط إلى طريقة تعامله معك، بل هو شيء متأصّل في روحك. ولا أنكر أنّ تصرفاته كانت تستفزني في معظم الأحيان، ولولا محاولات والدتي لتحسين العلاقة بيننا لدفعته بكل ما أملك من قوة ليرتطم رأسه الضخم بحافة حوض الاستحمام المرمري..

لا، توقّف. فقد كان موت والدي مجرّد حادث..

- أيّا كان الأمر، عليك الاعتراف أنك لم تتمكّن من التنفّس براحة سوى بعد موته. حاولْ أن تتحلّى بالشجاعة ولو لمرة واحدة واعترفْ أن بقاءه على قيد الحياة، كان يسبب لك كثيراً من الألم والضيق. وهذه الرقة التي تغمر روحك في بعض الأحيان لا تعود إلا لوجود امرأة حانية مثل والدتك في حياتك.. ولكنها للأسف قد زرعت فيك خجلاً مفرطاً نتيجة تصوّرها الغبي أنك طفل ضعيف تحتاج إلى من يتكلم عنك، ومن يدافع عنك، فقد كانت تحميك من والدك وخالتك وأطفال الحي القساة.. لا تزم شفتيك هكذا، فلمَ تظن أنك تحمّلت كل ذلك الضرب من ثلة الأطفال الذين كانوا يعتدون

عليك في كل مرة يصادفونك فيها؟.. سأخبرك بالسبب: أتذكر حين ضربت أحدهم بحجر على رأسه وبدأ ينزف، حينها تدخّلت والدتك بغباء وبدأت تنهرك "كيف استطعت أن تفعل ذلك يا بُني؟.. فولد مؤدب مثلك لا يليق به أن يتصرف بهذه الطريقة مع أحد.." كان تفكيرها الساذج يدفعها إلى الظن بأن تنشئتك كولد لطيف مهذب لا يقوى على إيذاء أحد هو السبيل الأنسب، وبالتالي كان عليّ أن أُدفن في أعمق أعماقك وأراقب ما يجري بصمت على الرغم من معرفتي مدى حاجتك إليّ في تلك الأوقات..

لا، لم أحتجك يوماً ما. فأنت عدائي سريع الغضب ولا أريد أن أكون مثلك.

- ليتك تستطيع - كان يتكلّم بصوت عالٍ والغضب يلتمع كبروق حادة في عينيه اللتين بلون العسل، ويبدو صادقاً في تفجّعه على بنائي الهش - ليتك تستطيع، فربما تمكّنت من نسيان تلك المرأة الأنانية بكل سهولة، ولربما استطعت أن تصبح مؤرّخاً أكثر شهرة منها.. ولكنك لا تفهم كلماتي أيها الأبله المسكين.. فأنا إله الحرب في روحك التي أثقلها التعرّض لطعنات الآخرين؛ الإله الذي لم تسمح له الخروج من معبده، كنتُ الحامي القادر على مواجهة الحياة وتحدياتها ورد الصاع صاعين لكل من يؤذيك..

المنتقم؟.. أتكون أنت؟.. أأنت من قتلها؟..

لم يبدُ عليه الغضب كما كنت أتوقّع، ولكنّه سألني بكل هدوء سؤالاً يشغل ذهنه منذ مدة طويلة.

- لِمَ تتهمني على الدوام؟.. - واجتاحت وجهه غمامة حزن - لا أعلم إن كنتُ قد قتلتها أم لا، فهذا المرض اللعين الذي يسمونه انفصاماً أو شروداً أو جنوناً.. يؤثر فيّ أيضاً ويمنعني من التذكّر. ولكن إن شئت الحق، فقد كنت راغباً على الدوام بقتل تلك الخائنة، ليس بسكين الرسائل اللعينة تلك بل بيديّ العاريتين، كنت أود خنقها حتى يفارقها آخر نفس..

ها هو يعترف بجريمته بكل صراحة، لذا بدأت أصرخ فيه: لقد اعترفت جهاراً بأنك قتلتها، لقد خرجت من تلك الأعماق المظلمة التي تختبئ فيها وقمت..

- أي أعماق يا بُني؟.. - اختفى على الفور مجنون المرآة من شاشة الكمبيوتر،

ليعيدني صوت أستاذي الحاد وهو يلحّ في السؤال غاضباً - عمّ تتكلم يا مشتاق؟

كان يقف أمام باب المكتب، وخلفه اثنان من طلبته الذين يحبهم كثيراً، أم عليّ أن أقول اثنان من شركائه في الجريمة؟ ذلك الحذق جتين الذي ترتسم على شفتيه دائماً ابتسامة متعالية صفراء، وإرول الذي لم أعد واثقاً، كما في السابق، من حسن نواياه. ولكن أين تلك الفتاة النحيلة التي يسهل إشعال فتيل غضبها؟.. أين سيبيل؟.. لا بدّ أنها تحيك مؤامرة جديدة.. على كلٍّ كان عليّ الآن التخلّص من هذه المؤامرة التي ينوون توريطي فيها قبل التفكير في مؤامرات سيبيل الجديدة. لذا ارتديت قناع الأستاذ مشتاق اللطيف المبتسم..

- يبدو أنني كنت أفكّر بصوت عالٍ - نهضت من مكاني خلف الطاولة وأنا أشير إلى أحد المقاعد الخالية - تفضّل بالجلوس أستاذ.. لقد سررت بأنك غيّرت رأيك.

جلس بتثاقل وهو ينظر إليّ بحيرة.

- حول أي شيء؟
- ألم تخبر المحقّقين قبل قليل بأنك لا تملك القدرة على الصعود إلى مكتبي؟.. ولكن أين هما؟..

حرصت على التحديق إلى وجهي الشابين وأنا أسأله، ولاحظت الضيق الذي بدا في نظراتهما المتهربة.

- لقد ذهبا - وقد بدا التعب واضحاً عليه خلافَ النشاط الذي كان يتمتع به قليلاً في المحاضرة، وأكمل برماً - لا أعلم سبب اهتمام المحقق نفزت الزائد بالسلطان محمد الفاتح!

كان يحاول لعب دور الساذج لكي يستدرجني، ولكن يا أستاذي ما كان يجب عليك أن تعتمد على هؤلاء الفاشلين لكي يساعدوك فيما كنت ترمي إليه. وقد ذكّرني منظر هذين الشابين اللذين يقف أحدهما على يمين الأستاذ فيما الآخر على يساره بشهاب الدين باشا وزاغنوس باشا. ولكن الفرق الوحيد أنّ السلطان كان يصغره بعقود..

- والأكثر غرابة هو أنه يملك كمّاً كبيراً من المعلومات حول السلطان مراد الثاني ومحمد الثاني ومجريات تلك الحقبة وكأنه ليس محقّقاً بل مؤرخ ذو باع طويل. ولكن بدل الاهتمام بعمله يبدو أنّ السلاطين قد أخذوا بعقله..

- كانت نظرات الاتهام موجّهة نحوي بالطبع - كيف تمكّن من الحصول على كل هذه المعلومات؟ لا بدّ أنّ أحداً ما يطلعه عليها..

أحدٌ ما؟.. بالتأكيد هو يعنيني، ويتهمني بزرع فكرة الربط بين هذه الجريمة والسلطان الفاتح في رأسه. لذا لجأت إلى وسيلتي المعهودة، وارتديت قناع براءتي..

- لا أعلم.. فقد سألني أنا أيضاً - تمهّلت للحظات وكأنني أحاول التذكّر قبل أن أكمل - أظنهم يعتقدون بوجود علاقة بين قتل نزهت والسلطان محمد الفاتح..

تململ أستاذي في كرسيّه قبل أن يتحدث.

- لم أستطع أن أصل إلى إجابة مؤكدة على الرغم من أنهم أخبروني باعتقالهم لسيزجين ابن أخيها، لا بدّ أنك تعرفه؟.. فقد كان شخصاً وضيعاً.. ولكن ما رأيك أنت يا مشتاق؟ من وراء قتل المسكينة نزهت؟

حلّت الكآبة على وجهي فجأة وتعمّدت إظهار الحزن الشديد الذي يتطلّبه الموقف.

- لا أعلم يا أستاذ، فصحيح أنها لم تكن على وفاق مع سيزجين من أجل بعض المشاكل المالية، ولكن هل هذا مبرر كافٍ لارتكابه الجريمة بهذه الوحشية؟

- متى رأيت المرحومة آخر مرة يا أستاذ؟

طرح جتين السؤال الأساسي الذي لم يطرحه المحقّق نفزت علي. إذاً لا بدّ أنه يحتاط ويريد أن يستدرجني ليلصق بي التهمة في حال أثبت سيزجين براءته. ولكن ألست من قام بقتلها حقاً؟.. إذاً فما سبب اهتمام هؤلاء العثمانيين الثلاثة بنبش تفاصيل علاقتي بنزهت؟.. حسناً، بتّ متأكداً من أنّ الأستاذ ومرافقيه على علاقة بطريقة أو بأخرى بالجريمة.

- لقد اتّصلت بي البارحة - حاولت أن أوضح الأمر بحياد وكأنني أتحدّث

عن أيّ شخص آخر – فقد دعتني على العشاء وأخبرتُها بأنني لا أستطيع الذهاب.

- وهل حدّثتك عن مشروعها؟

وأخيراً أفرغ الأستاذ ما في جعبته وأفصح عما حاول أن يداريه كل هذا الوقت.. "السلطان الفاتح وقتل الأب".. إذاً فقد كان فرويد محقاً، أي فرويد هذا؟ إنه أنا..

- أيّ مشروع؟

الفصل الرابع، المشهد الثالث، من مسرحية البلهاء التي يلعب دور البطولة فيها مشتاق سرهزين، فيما كان جمهوري عبارة عن ست عيون تراقب أدنى حركة تبدو مني، وثلاثة عقول وجريمة غامضة يحاول الثلاثة توريطي فيها..

- أنا أيضاً لا أعلم بالضبط ما هو موضوع مشروعها.. – تكلّم أكثر الثلاثة ذكاءً وهو الأستاذ العجوز – ولكن في السنتين المنصرمتين باتت زياراتها إلى تركيا أكثر من المعتاد..

إذاً فحبيبتي الخائنة التي كانت تزور تركيا منذ سنتين لم يخطر ببالها أن تتصل بي أو تراني سوى البارحة. لِمَ انتظرت كل هذه المدة؟.. لأنني لم أكن أعني لها شيئاً بالطبع، وقد مسحتني منذ زمن طويل من أرشيف ذاكرتها.. إذاً لماذا اتصلت بعد سنتين؟.. ليس بعد سنتين أيها الأحمق، بل بعد إحدى وعشرين سنة.. ما الذي تغيّر الآن؟.. بالتأكيد ليست مشاعرها تجاهي..

- بالتأكيد كانت تتّصل بك أثناء زياراتها هذه، فصداقتكما تمتد إلى زمن قديم، وعلاقتكما لها طابع خاص – عندما لاحظ الأستاذ الضيق الذي اعتراني غمزني وهو يكمل – لا تقلق لم أخبرهم شيئاً عن علاقتكما القديمة، ولم أشأ توريطك مع ذلك المحقّق الحذق دون سبب، فنحن هنا عائلة واحدة وعلينا أن نحافظ على بعض الأسرار بيننا..

وأخيراً ضمّني أستاذي إلى عصبة المجرمين التي يترأسها وأسبغ عليّ شرف عضويّتها..

"أجل حضرة القاضي، فبسبب اعتقادهم أنّ السيدة نزهت أوزجان والتي تعتبر من أهم مؤرخي العصر الحديث قد قامت بالإساءة للسلطان محمد الفاتح الذي يشكل

رمزاً من رموز تاريخ أمتنا ومعلماً من معالم فخرها، بسبب اعتقادهم أنها تجاوزت حدودها واستغلت التاريخ وقامت بتشويهه لبلوغ الشهرة في المحافل والجامعات العالمية، قام هؤلاء الأربعة عامدين متعمّدين بقتلها بصورة وحشة، وأكثرهم إجراماً في هذه العصبة هو مشتاق سرهزين الذي كان حبيبها فيما مضى..".

– هل أخبرتك نزهت سبب زياراتها المتكررة في الآونة الأخيرة إلى تركيا؟

عاد الأستاذ ليأخذ مكان القاضي ويرشقني بأسئلته التي بات الهدف منها واضحاً. ولكنني أحسست بإهانة كبيرة عندما طرح عليّ هذا السؤال، فهو كان على علم أن مشاعري تجاه نزهت لم تتغيّر على الإطلاق، فبالرغم من خيانتها وبالرغم من عدم جدارتها بكل ذلك الحب الكبير.. هو يعلم تمام العلم أنني أحبها.. أي حبّ؟ بل أنا مجنون نزهت.. كان الأستاذ يعلم كل هذه الحقائق وهو يطرح عليّ سؤاله المؤلم، وما لم يكن يعلمه أنها هي من مسحتني من ذاكرتها وأخرجتني من قلبها منذ زمن بعيد، لذا أجبته بطريقة مبهمة لا تدل على التأكيد أو النفي.

– لم تخبرني بشيء يا أستاذ، وكما تعلم فلم أكن ألتقيه كثيراً – وتريّثت للحظات وكأنني أحاول التذكّر قبل أن أكمل – لحظة، لحظة. أظنها حدثتني مرة عن موضوع قتل الأب.

– أتعني edicirtap؟ – تساءل الأستاذ على الفور – ولكن من هو السلطان الذي قتل والده؟

كان يريد استدراجي في الكلام، لذا أردت أن أكتشف رد فعله فأجبته دون مواربة:

– السلطان محمد الثاني.

ولكن الدهشة التي استولت عليه لم تكن بأقل من الدهشة التي استولت على تلميذيه، وكأنهم يحاولون السخرية مني وهم يفتحون عيونهم على اتساعها ويرمقونني غير مصدّقين.. وبعد لحظات من الصمت عاد الأستاذ ليسألني:

– أتعني أنّ نزهت كانت تعمل على أطروحة تتعلّق بافتراض قتل السلطان محمد الثاني والده؟

لقد خرجت الكذبة بصوت مسموع وأصبحت واقعاً لا أملك أمامه سوى تثبيته

ببعض التفاصيل. وكما قالت لي حبيبتي منذ زمن بعيد "أنت موهوب جداً، لماذا لا تحاول البدء في الكتابة".. وعلى الرغم من تأخري كل هذه السنوات فها أنا ذا ألبّي رغبتك وأؤلف مزيداً من القصص حولك يا عزيزتي..

- هذا ما أظنه يا أستاذ، فقد كانت تهتم بمقالة لفرويد حول قتل دوستويفسكي والده..

حينها لاحظت بريق الذكاء الذي يلتمع في عيني العجوز اللتين حافظتا على شبابهما رغم مرور ثمانين عاماً عليهما..

- أجل، فقد حدثني المحقّق أيضاً عن هذه المقالة، ولكنني لم أجد رابطاً بين الموضوعين..

حينها جلست في مقعدي مرتاحاً وموقناً من إمساكي بخيوط اللعبة من جديد، أو أنّ هذا ما كنت أظنه كما حصل هذا الصباح مع المحقّقين وأودى بي إلى الفخ.. ولكن هناك حلقة مفقودة، فإن كان طاهر وعصبته الصغيرة غير مطلعين على مشروعها، لماذا قتلوها؟.. ولمعرفة الجواب كان عليّ سرد مزيد من الأكاذيب.

- أنت تعرف نزهت يا أستاذ، فهي شغوفة بتقديم أفكار غير اعتيادية، ولأجل لفت الانتباه فهي على استعداد لفعل أي شيء - كنت أدرك حينها أنني أجور على حبيبتي بهذه الكلمات، ولكنني كنت مضطراً لفعل ذلك حتى أنجو من فعلتي - فهي كانت تريد تحليل شخصية الفاتح انطلاقاً من موضوع قتل الأب، وهي دراسة لم يقم أحد من قبل بإجرائها، لا مؤرخو الغرب الذين يستغلون أدنى فرصة للتقليل من شأن السلطان الفاتح، ولا مؤرّخونا الذين، وعلى العكس تماماً، يحاولون استغلال أي دراسة أو وثيقة من أجل المبالغة في مدح السلطان وخلق هالة من القداسة حوله.. أظنها كانت لتبلغ مستوى كتاب بيبينغير من حيث القيمة العلمية.. وبالإضافة لذلك فهي كانت ستطرح تحليلاً نفسياً لشخصية السلطان، وكما تعرف يا أستاذ فشخصية الفاتح المعقّدة والمتعدّدة الجوانب قد لفتت انتباه، ليس المؤرخين فحسب، بل المحللين النفسيين أيضاً، وأظنها استلهمت الفكرة من مقالة فرويد التي تدور حول احتمالية قتل كاتب كبير مثل دوستويفسكي

والده، فاستعاضت عن الكاتب الكبير بسلطان عظيم الشأن..

كانت تعابير وجوههم تتدرّج بين الصدمة والدهشة مع كل كلمة تخرج من فمي، وعلى الرغم من أنّ جتين بقي يراقبني وظلال من الشك ترتسم في عينيه، فقد كان إرول على النقيض تماماً مأخوذاً بحديثي وقد تدلى فكه دهشة وهو ينظر إليّ متّسع العينين..

أكانوا يمثلون عليّ كما أفعل أنا؟.. ولكن كيف لثلاثتهم معاً أن يبدوا رد الفعل ذاته؟.. أيمكن أن تصل بهم موهبة التمثيل والخداع إلى تقمّص الحالة النفسية ذاتها وفي الوقت عينه؟.. لو أنّ الأمر كذلك فأعتقد جازماً أنّ عصبة الإجرام هذه تملك، بالإضافة لمزاياها الإجرامية، مواهب عظيمة في التمثيل..

- الآن بدأت أفهم – حاول الأستاذ لملمة أفكاره – إذاً فهذا هو السبب الذي دفعها للاهتمام بطفولة السلطان محمد.

تأكدت حينها بأن العجوز يمثل باحترافية بالغة، فقد زايلت الدهشة ملامح وجهه وعاد إلى طبيعته الرزينة، ولاحظت التماعة سرور بدت في عينيه، في حين أنّ موقفاً كهذا يجب أن يسبّب له الإزعاج.. فلم يكونوا مبالين بمعرفتي السبب الذي دفعهم لقتل نزهت، فلا الأستاذ ولا طالباه بدت عليهما ملامح الخوف أو القلق، وهذا ما شتّت أفكاري أكثر، ألم تكن نزهت تعمل على مشروع كهذا؟ أيعقل أنني اخترعت الكذبة وصدّقتها؟.. ولكن في حال عدم وجود مشروع كهذا، ما الذي دفعهم ثلاثتهم للمجيء إلى مكتبي؟.. ومن الذي دخل المكتب ونبش بين أوراقي؟ أيعقل أن يكون أحد هؤلاء الثلاثة؟.. بالطبع الأستاذ طاهر لن يكون من ضمنهم..

نظرت بتمعّن إلى جسد جتين الضخم، أهو من ارتطم بي في الرواق هذا الصباح؟.. ذلك أنني لم أرَ وجهه؟.. فقد تعمّد إخفاء وجهه وهو يمر بسرعة البرق ليختفي في الظلام.. حينها رأيت ذلك الإصرار الذي بدأ يلتمع في عيون الثلاثة، والذي ذكّرني بالإصرار الذي يتحلّى به الجنود أثناء لحظة الحسم، والتصميم على خوض المعركة مهما كان الثمن دون أدنى نيّة في التراجع.. لقد بتّ متأكداً أنهم من اقتحم مكتبي، فمن أكثر منهم اطّلاعاً على مواعيد ذهابي وإيابي ومكان مفاتيح الأبواب والملفات الموجودة في خزانتي؟.. ولكن ما الذي يبحثون عنه؟.. وما الذي

كانوا يتوقّعون العثور عليه؟.. أكانوا يريدون الحصول على معلومات عن مشروع نزهت الجديد؟..

- من الواضح أنّ نزهت كانت تأمل الحصول على وثيقة تثبت تهمة قتل الأب على السلطان الفاتح - أكمل الأستاذ طاهر سرد أفكاره وقد أغمض عينيه نصف إغماضة وكان يثبت لي مع كل كلمة جديدة أنه خبير في الكذب أكثر مني - الآن بتّ أفهم سبب كل تلك الأسئلة حول موت السلطان مراد الثاني - وأدار رأسه نحو جتين - وهذا كان سبب الجدال الذي نشب بينكما.

التفت إليه جتين عابساً ليزيد من دمامة وجهه.

- ماذا؟.. ما الذي قلته يا أستاذ؟..

يبدو أنّ هذا العجوز الماكر يتلاعب بنا جميعاً.

- ألا تذكر حين دار الحديث عن شخصية السلطان الفاتح؟..

أخيراً أدرك ذلك الأحمق ما يرمي إليه الأستاذ.

- أجل فقد كنا نتحدّث عن مشكلة القتل التي كان يتّبعها الحكام..

- ليست مشكلة قتل.. بل الحق في القتل، وذلك من أجل استقرار الدولة وأمان الشعب ومستقبل الدولة والقضاء على رؤوس الفتنة الذين يحيكون الدسائس والمؤامرات، فقتل هؤلاء الأشخاص ليس حقًّا مشروعاً فحسب، بل هو واجب أيضاً، خاصة أنّ عمليات القتل والتي تسمونها جرائم كانت تحول دون قتل مزيدٍ من الناس. وقد كانت المرحومة نزهت تعترض على هذه النقطة كثيراً - واصطنع الحزن قبل أن يكمل - معك حق يا مشتاق فهي على الدوام كانت تبحث عن المواضيع التي تثير زوبعة من الاهتمام والضجيج، ولا أنكر أنها كانت نشيطة وذكية في عملها، ولكنها بالمقابل كانت تسعى لتحويل كل حادثة تاريخية إلى لغز تنسب فك أسراره وطلاسمه إلى نفسها، وكانت تأمل أن تثير كل مقالة تكتبها عاصفة من الإعجاب.. وقد نبّهتها من قبل إلى عواقب هذا الأمر..

نبهتَها من قبل؟.. هذا يعني أنه كان يهدّد نزهت..

- لكنها لم تصغِ إلى كلماتي، وكانت لا تهتم بأخلاقيات العلم، وقد أخبرتني



أكثر من مرة أنّها مجرد قيود تحول دون اكتشاف مزيد، ولم تكن تبالي بأي أحدٍ أو أيّ معايير.." فالمهم هو خلق وجهة نظر جديدة" كما كانت تصرح.. ولكنني أظن أن المهم كان النسبة إليها هو تردد اسمها في المحافل العلمية باستمرار دون اعتبار حقيقي للعلم أو أخلاقياته..

- لم يكن الأمر يقتصر على ذلك يا أستاذ – أكمل جتين سرد النميمة التي بدأها العجوز وقد راقه الأمر وبدأ يتكلّم بحماس حتى أنّ رذاذ لعابه المتناثر بدأ يصل إليّ. وقد يكون هو من غرز تلك السكين في عنق حبيبتي بسبب الحقد الذي يكنه اتجاهها – لم تكن تبالي بالقيم والرموز الوطنية. ألم تسمع ما قالته عن السلطان محمد الفاتح حينها؟..

لم يكن الأستاذ محتدًّا مثله، وقد بدا راغباً في إغلاق هذا الموضوع المزعج، فقد تأكدوا من أنّ الأحمق مشتاق مطلع على تفاصيل المشروع.. ما كان ذلك المثل الذي يصف حالتي؟.. "دعِ المغفل غارقاً في سبات غبائه"..

- على أي حال، دعْنا لا نبخس نزهت حقها – عاد ليتقمص دور الحزين.. "فبعد التخلّص من الجثة ودفنها، لا ضير من بعض الأدعية".. – لقد كانت باحثة علمية متميزة، ومؤرخة مهمة، وفوق كل ذلك كانت صديقة مقرّبة لي أنا ولمشتاق.

كنت سأقول له: تلك الصديقة التي لم نتوانَ عن قتلها في أول فرصة أتيحت لنا، ولكنني تذكرت عيني حبيبتي الزرقاوين اللتين لم أكن أملّ من النظر إليهما في زمن ما، وكيف غادرهما البريق البارحة، وغمرتني رائحة حزن البنفسج.. وتمنيت أن أمتلك القوة الكافية لخنق هذا العجوز الماكر، والتخلّص من هذين الأحمقين اللذين يقفان خلفه، والإطاحة بجثثهم القذرة من أعلى درج المبنى حتى أسفل قاع الجحيم.. ولكن كما في كل مرة كنت أقف عاجزاً عن تحقيق ما أشتهيه، وكان صوت ذلك المأفون بداخلي يردّد متشفياً "من أنت لتجرؤ على قتل أحدهم؟" لا بدّ أنّ الحزن من عدم تمكّني من تنفيذ هذه الرغبة انعكس على وجهي ليدفع بالأستاذ لمواساتي.

- لا تحزن يا مشتاق – قالها وقد فسّر حزني بصورة خاطئة – علينا أن نتقبّل كلنا حقيقة موت نزهت..

أجل لقد ماتت، فقد قتلناها جميعاً.. ربما قتلتُها لأنها لم تكن تستحق حبي، وربما الأستاذ طاهر الذي شعر أنها تنوي الإساءة إلى سلطانه المقدس.. ربما أنا كنت أنوي الانتقام لمشاعري، وهو يريد الحفاظ على قدسيّة رموز التاريخ.. ولكن الأسباب لم تعد تهم الآن، فنحن الاثنين نملك كثيراً من الدناءة، ولكن مَنْ منّا يملك الدناءة التي تخوّله ارتكاب جريمة قتل؟ هذا ما كنت لا أعلمه..

مكتبة أحمد

(17)

الحضارة تُبنى على حطام الإمبراطوريات الزائلة

ما إن غابت شمس الظهيرة حتى عادت بقايا الثلوج لتشكّل طبقة من الصقيع مرة أخرى، حيث كنت في الشارع ذاته الذي سار عليه أباطرة روما، ومن بعدهم سار عليه سلاطين آل عثمان بكل فخر، فيما تقف حشود الشعب في كلا الجانبين على الأرصفة التي لم تعد الآن بالأبّهة القديمة ذاتها في شارع أوردو.. وكانت تنتابني المشاعر ذاتها التي انتابت الصدر الأعظم تشاندرلي خليل باشا حين سار على هذا الطريق بعد أن طلبه السلطان. القلق والخوف والشكوك والسؤال الذي يتردد بتواتر محموم: تُرى كيف ستنتهي الأمور؟

لا شك أنّ تشاندرلي قد خمّن ما سيحدث له، فمنذ سبع سنين وهو يحاول ألاّ يستلم هذا الشاب العرش، وقد حاك جميع أنواع المؤامرات والدسائس، وكان يترأس الحزب المعارض له في القصر، ولكنه - ولسوء حظ الوزير - اعتلى العرش للمرة الثانية. وعلى الرغم من اقتناعه التام بأنّ كل ما فعله كان من أجل مصلحة الدولة العثمانية العليّة، وأنّ هذه السياسة التي اتّبعها كان نصر فارنا أحد ثمارها، إلا أنّ الظروف تغيّرت الآن، وخيوط اللعبة أصبحت في يد ألدّ أعدائه ومنافسيه، وقد قاربت شمسه على الغروب، لتشرق شمس شهاب الدين باشا، الذي كانت لديه سلسلة لامتناهية من الأسباب لإقناع السلطان بجزّ عنقه..

وهناك أسباب مماثلة لزجّي في السجن أيضاً، فقد كنت أتجوّل في مسرح الجريمة فاقد الذاكرة لا أعلم شيئاً مما اقترفته يداي حينها. ولم أكتفِ بذلك بل تصرّفت بعد استرداد وعيي كقاتل محترف وقمت بإزالة الأدلة كلها، والأسوأ أنني كذبت على المحقّق، ولا أعلم إن كان هاوي التاريخ ذاك قد صدّقني أم أنّه يضمر غير ما يظهر..



من جهة أخرى هناك الأستاذ طاهر وعصبته، ولأسباب لا أعرفها يقومون بحياكة مؤامرة دنيئة ويحاولون بكل مكر توريطي في هذه الجريمة.. ولكن ما يزيد الأمور تعقيداً أنني، وحتى الآن، لا أعلم إن كنت قد قتلت حبيبتي بالفعل..

وتماماً كالصدر الأعظم كنت أنتظر بكل وقار القرار الذي سيصدر بحقي.. ولكن أحقًّا كان يتوقّع موته المحتوم؟ أم أنه كان يعتمد على علاقته القوية بالانكشاريين والسلطة التي كان يمارسها عليهم، وربما كان يعتمد على أصوله التركية على خلاف كثير من منافسيه ويظن أنها ستشكل امتيازاً له. ربما كان اجتماع هذه الأسباب معاً يولّد لديه الأمل بالنجاة. وفي الحقيقة فهو كان ينحدر من إحدى أعرق العائلات التي كان أفرادها منذ أيام السلطان أورهان غازي يتبوأون أهم المراكز في الدولة، أي منذ أكثر من مئة وخمسين عاماً، وكان جده كرا خليل باشا من أهم الأشخاص الذين قاموا بتأسيس الجيش الانكشاري ووضع القوانين التي ستساعد على بقاء الدولة العثمانية واستمرارها.. وربما كان يظن أنّ ذلك الشاب الذي لم يستطع أن يحبه ويتقبّل سلطته، قد يعفو عنه إن هو استطاع إقناعه بدهائه المعهود.. ومن جهة أخرى ربما لم يكن بهذه السذاجة، فهذا الثعلب الأربعيني الماكر الذي كان مطّلعاً على تاريخ قاتم من المؤامرات والدسائس وضليعاً فيها، ما كان ليسمح لهذه الأفكار أن تجول في رأسه القابع بوقار تحت عمامته الكبيرة، وأن تزيّف له الواقع. فأول قانون تعلم أن يتّبعه هو ألاّ يكون ساذجاً لكي لا يكون ضحيةً سهلة؛ فالسذّج هم الضحايا دائماً وهم من الأوائل الذي يُقدَّمون قرابين على مذبح الطمع والمصالح، وإن كان الصدر الأعظم للدولة العثمانية شخصاً ساذجاً فلا فرصة له بالبقاء، ولكن الأمل ربما كان يراوده في أنّ السلطان، حتى لو لم يبقِه وزيراً أعظم، فقد يحتفظ به في بطانته للاستفادة من خبرته الواسعة.. ومن جهة أخرى فكلما تذكّر المؤامرات التي حاكها ضد السلطان كان الكدر يغمر روحه وينعكس على وجهه الملتحي، وكان يتخيّل رائحة أنفاس الجلاد القذرة كآخر ما يمكن الإحساس به قبل الموت. وككل رجل قدير فقد كان عليه القيام بواجبه وإطاعة أوامر سلطانه حتى آخر لحظة ولو مرغماً، كما فعل تماماً بعد موت السلطان مراد الثاني، حيث أرسل بنفسه رسالة يستدعي فيها الأمير الشاب محمد الثاني من مانيسا ليستلم العرش. ولكنها كلها مجرد تخمينات لا يعلم أحد منا

على وجه اليقين بما كان يفكر الرجل وهو يسير إلى حتفه.

وأنا أيضاً يتوجّب عليّ القيام بالأمر على أتمّ وجه، ولكن ما الذي يتوجّب عليه فعله؟.. ليتني أعلم. فهذا هو الفرق بين رجل دولة خبير وبين مؤرخ وبروفيسور أحمق مثلي. ليس بروفيسوراً بل مجرم.. لعلّ الأصح أن أقول مجرد مسكين يظن نفسه مجرماً، وساذجاً لم يستطع فهم الحياة حتى بعد أن بلغ خريف العمر.. ولكن قد تكون كل هذه المخاوف لا مبرّر لها، وقد يكون ذاك الجشع سيزجين هو من عمته من أجل المال.. وهي جرائم كثيرة الحدوث في كل مكان وزمان، فيما أحاول كل أن أنسب الجريمة إلى نفسي نتيجة تلك الوساوس التي تنخر ذهني.. ليست وساوس بل هي انفصام في الشخصية وجنون عظمة.. على أي حال مهما تكن تسميتها اللعينة فهي تدفعني إلى الإحساس بالذنب تجاه أي خطأ يقترفه أحدهم حتى لو كان في مجاهل الأمازون، لأعيش بكل غباء حالة من الخوف والهلع من العقاب على الدوام. ذاك الهلع الذي كان يسيطر على تشاندرلي خليل في ذاك اليوم المشؤوم..

ولكن لا، فالصدر الأعظم كانت لديه أسباب حقيقية ليشعر بالخوف، فبعد وفاة السلطان مراد الثاني، انطلق الأمير الشاب من مانيسا على صهوة جواده العربي الأصيل ليصل الليل بالنهار ويصل العاصمة بعد ثلاثة عشر يوماً، وقد قال حينها جملته المشهورة "من يحبني فليتبعْني".. وبالطبع لم يكن الصدر الأعظم ممن يحبونه على الإطلاق، ولم يتّبع كلاهما الطريق ذاته أبداً.. ولكن السلطان الشاب لم يصطدم بالصدر الأعظم بداية استلامه العرش، فقد كان مدركاً أنّ المشكلة بينهما ليست انتقاماً شخصياً بل مشكلة سياسية يجب حلها في الزمان والمكان المناسبين. وكان أهم ما يميز هذا الشاب الطموح أنه لم يمكّن رغبته في الانتقام من أن تهزمه، رغم أنّ الصدر الأعظم، وأثناء توليه العرش للمرة الأولى، قد بذل كل ما بوسعه، ليثبت للسلطان الأب وللشعب أيضاً أنه لا يستحق الكرسي الذي يجلس عليه.. لكن محمد الثاني لم يتلقَّ تعليمه على يد العلماء والشيوخ فقط بل من خلال الدسائس والمؤامرات التي كانت تُحاك في أروقة القصر ومن التجارب الشخصية التي مرّ بها والتي كانت أقساها هي طرده من قصر أدرنة نتيجة لعبة قذرة من تشاندرلي نفسه، لذا كان مصراً على التصرّف بدهاء يفوق سنواته التسع عشرة، فهو يعلم أنّ الباب

المفتوح على الكره يؤدي إلى الضعف أيضاً، وأنّ الغضب هو ذلك القبر الذي يقبع تحت كرسي العرش فاغراً فاه ينتظر أدنى غلطة من السلطان ليبتلعه، وبالمقابل فإن الحنكة والحكمة ستخلّدان اسمه في التاريخ بحروف من ذهب. وكان يعلم أنه يجب التخلّص من تشاندرلي خليل ليس لأسباب شخصية بل لأنه يشكل خطراً على وحدة الدولة، ولكن عليه انتظار الوقت المناسب. وقد حانت تلك اللحظة حين نال لقب الفاتح العظيم وفتح القسطنطينية. تلك اللحظة التي ركع فيها أمامه وزرائه ورجالاته وقادة الجيش الانكشاري وعلماء الدولة.. "علم الانتظار هو أسمى المعارف التي يملكها الإنسان".. من قائل هذه الكلمات، أهو الملاّ غوراني المعرفة الواسعة؟ أم الملاّ خوسرف المعروف بسعة صدره؟ أم الشيخ المتصوّف آك شمس الدين؟.. ربما ذكرها ثلاثتهم في أوقات مختلفة وبتعابير مختلفة، ولكن المعنى بقي واحداً على الدوام وحُفر في ذهن السلطان الشاب الذي أتقن هذا العلم حتى النهاية. ولهذا السبب بالذات قام باستدعاء وزيره تشاندرلي خليل يوم اعتلائه العرش، والذي اختار البقاء بعيداً على خلاف بقية وزرائه الذين كانوا يحتفلون.. "لِمَ تقف بعيداً عنّا يا حضرة الوزير؟".. ومدّ يده ليقبّلها الوزير دلالة الرضا والقبول ويمهله فرصة البقاء حياً لمدة سنتين ونصف، لكن الصدر الأعظم المحنّك كان يخمّن المصير المشؤوم الذي ينتظره، وفي كل يوم وكل لحظة خلال تلك السنتين كان يرى موته في عيني مولاه، وكانت كل حركة وكل صوت أثناء الليل تزيد من خوفه ورعبه.. لقد كانت سنتان ونصف من انتظار الموت، تماماً مثلي وأنا أنتظر مصيري المجهول.. وعلى الرغم من ذلك لم يستسلم ولم يختر طريق المهادنة أملاً بالخلاص، وظل يتحدّى شهاب الدين باشا وأعوانه دون هوادة.. وأظن أنّ هذا ما عليّ فعله، وهو عدم الاستسلام، ومواصلة المحاولات حتى النهاية.

وإن كانت دماء السرهزينيين التي تسري في عروقي لا تكفي لمنحي القوة اللازمة لمواصلة هذا النضال، عليّ اتخاذ الصدر الأعظم قدوةً لي، ذلك الوزير التعس الذي، وفي سبيل محاولة إنقاذ السلطنة كما كان يظن، وضع عنقه تحت سيف الجلاد..

"مشتاق يقتدي بالمهزومين على الدوام".. من قال هذه الكلمات؟.. من ستكون سوى تلك المشعوذة خالتي ساهيستة، ولكن من المعيب التحدّث عن خالتي بهذه

الطريقة، خاصة أنها محقّة، فأنا لا أذكر أنني وقفت في صف الرابحين ولو لمرة واحدة، فالفريق الذي اختاره لا يصل إلى البطولة مطلقاً، والحزب الذي أمنحه صوتي لا يصل إلى سدّة الحكم..

يبدو أنني عدت إلى الترّهات من جديد.. فما من إمبراطورية استمرت إلى الأبد وكلها كانت إلى زوال وانهارت، فالحضارة تُبنى على أنقاض الإمبراطوريات الزائلة، ولكنني لن أنكر أنّ البقاء معي يورث الهم والفشل، فلو أنّ نزهت رضيت بي زوجاً وعاشت معي، لما نالت الشهرة والنجاح بلغتهما، ولعانت كثيراً بسببي، ولكنها بالمقابل ما كانت لتتعرض لهذا المصير المأساوي ولبقيت على قيد الحياة.. لا أظن ذلك فالمسكينة قد قُتِلت بعد الاتصال بي بساعات قليلة، وأظنني مصدر هذا الشؤوم، وقد كانت يداي ملطّختين بدمائها.. حينها بدأت أتفحّص يديّ بإمعان وكأنني سأرى آثار دمائها عليهما، وعندما رفعت رأسي واجهني وجه سيبيل النحيل وهي ترمقني بغرابة.

إنها مرشحة أخرى لارتكاب الجريمة والصديقة الصدوقة لذلك الحذق جتين. كانت تبدو عليلة شاحبة وكأن الدماء لا تسير في عروق بشرتها، ورغم ذلك لم أجد بريق التحدي الذي يظهر في عينيها معظم الأحيان، بل كانت تبدو هادئة وتميل إلى اللطف أكثر من أي وقت مضى..

– لقد ناديتك كثيراً يا أستاذ ولكنك لم تكن تسمعني..

تلفّتَ حولي باستغراب ووجدتنا نقف أمام باب مكتبة الجامعة.

– اعذريني فقد كنت شارداً بعض الشيء، هل أرسلك الأستاذ طاهر؟

التمعت عيناها الخضراوان.

– لا، رأيتك خارجاً فلحقت بك.

هل تعبت من هذه اللعبة الدامية وتريد النجاة بنفسها والاعتراف بكل شيء؟

– مساعد السيدة نزهت..

نزهت؟.. لم أكن مخطئاً فهذه الفتاة الغريبة الأطوار تريد التحدث معي حول نزهت.. وتركتها تكمل كلامها.

– أنت تعرفه يا أستاذ، فقد عملتم معاً لفترة، وأظنك تقابله حتى الآن..

لا لم تكن تنوي الاعتراف، بل كانوا يخطّطون لمكيدة جديدة، ولكن ما الذي تريده مني الآن؟.. كان عليّ استدراجها في الكلام علّ هذا الغموض ينجلي.

- عمّن تتحدّثين؟.. ومن الذي كنت أعمل معه؟

- أكين، أكين جوتكان.

إنها تتحدث عن أكين وقد عملت بالفعل معه لمدة عامين. كان شاباً حاد الذكاء، ولكنه سافر فيما بعد إلى جامعة أوكسفورد حيث حصل على منحة دراسية من قسم التاريخ المعاصر.

- ما به أكين؟

رفعت يديها النحيلتين دلالة عدم المعرفة.

- أنا أيضاً لا أعلم، فأنا أحاول الاتصال به منذ البارحة ولكنه لا يرد على جوّاله الذي يرنِ دون طائل، كان مع السيدة نزهت حين حضروا إلى الكلية..

دمدمت بقلق:

- أيكون هو أيضاً؟..

لاح في عينيها تعبير غامض وهي تكمل.

- لا لا، لا أظن أن مكروهاً أصابه ولكنه لا يجيب على اتصالاتي، فخطر لي أن ألجأ إليك لربما تعرف عنه شيئاً.

يبدو أنهم مقتنعون بأنني كنت أعمل مع نزهت، وكل ما يريدونه الآن هو الحصول على تلك الأطروحة المشؤومة التي كانتَ تعمل عليها.

- ومن أين لي أن أعرف؟ فأنا لم أره منذ أكثر من سنتين، ولكن ما الذي تريدينه من أكين؟

- نحن زملاء وقد ساعدني من أجل الحصول على منحة دراسية في إحدى جامعات لندن في (معهد الدراسات الاستشراقية والأفريقية)، كما أنه خبير في الإجراءات والشروط المتّبعة من أجل القبول.

تبدو صادقة في ما تقوله، وربما كانت تنوي التخلّص من جتين لتبدأ من جديد، تماماً كما فعلت بي نزهت منذ واحد وعشرين عاماً، ولكن يبدو جتين أذكى مني بكثير فقد ورّطها في جريمة قتل حتى لا تتمكّن من الهرب.. وفيما بقيت تواصل الحديث

أدركت أن هذه الأفكار اللعينة التي تغزو ذهني بدأت تفصلني عن الواقع لفترات أطول، لذا حاولت التركيز على ما تقوله بكل جهد وأنا أسألها:

- ولكن ما العلاقة بين نزهت وأكين؟
- لا أعلم بالضبط، فقد أخبرني مرة أنه يعمل مساعداً لها بعد أن ترك دراسته في لندن، فبعد سنة دراسية عاد بسبب قصة حب فاشلة.. - قالتها وقد ارتسمت ابتسامة ملغزة على وجهها وأردفت - ولا بدّ أنك تعلم بميول أكين؛ إنه مثليّ، وقد أحب بروفيسوراً هندي الأصل، ولكن الرجل كان متزوجاً وزوجته تعمل معه في أكسفورد، وتعلم كيف تنتهي هذه القصص..

ومن أين لي أن أعلم كيف تنتهي هذه القصص؟.. ما الذي تلمّح إليه هذه النحيلة الوقحة، فأنا لم أهتم يوماً بميول أكين الجنسية ولا رغبة لي على الإطلاق في سماع آخر أخباره العاطفية الآن. كل ما أريد أن أعرفه، هو العلاقة التي تجمعه بحبيبتي السابقة.

- أتعنين أنّ أكين كان يساعدها في مشروعها الجديد؟
- أعتقد أنه كان يفعل شيئاً من هذا القبيل، ولكنه لم يكن سعيداً على الإطلاق، فقد أخبرني أنّ العمل معها صعب كثيراً.
- إذاً لِمَ رضي بالأمر؟
- لأن السيدة نزهت كان ستضمن له وظيفة جيدة في جامعة شيكاغو.. فقد أخبرني ذلك بنفسه.

كانت الفرصة التي أبحث عنها تلوح أمامي ولم أشأ أن أضيّعها.

- ولكن ما المشروع الذي كانا يعملان عليه؟

بقيت صامتة للحظات ولاح التوجّس على وجهها النحيل.

- ألا تعلم؟

حينها أدركت سبب هذا اللقاء الذي تعمّدت إظهاره كمصادفة بريئة. فالأستاذ طاهر ومريداه الإثنان يريدان التحقّق بشكل دقيق من المعلومات التي أملكها، لذا أرسلوا إليّ هذه النحيلة لكي تستدرجني، ولا أستغرب إنْ كانت هذه الفتاة المتطرّفة في آرائها ودفاعها عن التاريخ العثماني، قد قامت بارتكاب الجريمة بيديها هاتين.

- لا، لا علم لديّ - قطعت عليها محاولاتها - فقد كانت نزهت إنسانة كتومة ولم يكن من عادتها إشراك الآخرين في أعمالها مهما كانت علاقتها بهم، ولكنني أظن أن أكين قد أطلعك على الموضوع ما دمتما صديقين مقرّبين.

لاحظت الارتباك الذي بدا عليها وأدركت بأنني أسير على الطريق الصحيح، لذا قررت مواصلة السير حتى النهاية.

- أليس كذلك؟ لا بدّ أنه أخبرك بما تعمل عليه نزهت.. عمّ كان المشروع؟

التمع في عينيها بريق وحشي ورفعت رأسها كمن يتحدّاني.

- لا أعلم، فأكين لم يخبرني بشيء.

يبدو أنّ الستارة قد أُنزلت والمسرحية انتهت وحان الوقت لنزع الأقنعة والكشف عن حقيقتنا.

- ألم تحاولي أن تسأليه؟

- كلا لم أفعل.. - اختفى ذلك الاحترام الذي يبديه الطلبة عند التحدث إليّ - فالمشروع لم يكن لي، لذا لم أشعر بالرغبة في الاطّلاع عليه - ثم لاحت نظرة ملغزة في عينيها وهي تكمل - فأنا لا أتدخّل في الأمور التي لا تعنيني ولم أقابله سوى مرة واحدة.

أدركت أنّ جملتها الأخيرة تحتوي على تهديد مبطن، وكأنها تلمّح لي بأنني أتدخّل في ما لا يعنيني، ولكنني قلّبت الأمر في ذهني، فلم أجد نفسي متورّطاً في شيء، ولا متدخّلاً في شيء لا يخصّني. كل ما هنالك هو أنهم يحاولون توريطي في جريمة؛ طبعاً لو ثَبُت أنني لست بالفعل من ارتكبها..

رمقتها بحدّة وهي تقف أمامي بوقاحة وتبادلني النظرات ذاتها، وحينها أدركت أنّ السبب الذي يدفع طاهر حقي وعصبة الإجرام التي تحيط به لتوريطي في الجريمة، ما هو إلا توكيد لبراءتي. وللمرة الأولى منذ البارحة أحسست بارتياح عميق، فقد بات من المرجّح أنني لم أرتكب الجريمة، ولكن عليّ إثبات ذلك، وأول شيء عليّ معرفته هو مشروع نزهت الذي لم يطلعني عليه أحد، ولكن كيف؟.. أجل إنه أكين؛ مساعدي القديم، فهو أكثر من يستطيع مساعدتي.

- منذ متى وأنت تحاولين الاتصال به؟ حاولت التحدث معها بلطف هذه

المرة، ذلك الميراث الوحيد الذي بقي لي من والدتي، وحمداً لله أنني كنت أتقن لعبة التراجع ببراعة شديدة، وأعلم كيف أستقدم هذه الميزة في الوقت المناسب، وقد نجح الأمر حين أجابتني الفتاة:

- منذ البارحة مساءً.. ربما كانت الساعة الثامنة عندما اتصلت به للمرة الأولى وربما أكثر بقليل..

تذكّرت حينها أن نزهت كانت قد قُتِلت في تلك الأثناء.. أيكون أكين من قام بارتكاب الجريمة؟ ولكن لِمَ؟.. ألم تخبرني منذ قليل بأنه كان يشتكي من العمل معها؟.. يبدو أنّ المشتكين منها كُثُر. ولكن لا فأكين ليس من النوع الذي يمكن أن يقوم بإيذاء أحد، فقد كان شخصاً رقيقاً على الدوام "في هذا الجسد الرجولي تكمن روح امرأة يا أستاذ". ولكن ألا ترتكب النساء أيضاً جرائم قتل.. على أي حال لا فائدة من تشتيت ذهني باحتمالات بعيدة..

إذاً فهم يبحثون عن أكين الذي أحسّ باقتراب الخطر منه أيضاً عند سماعه بالجريمة فقرر الاختفاء، لكنهم مصرّون على ملاحقته..

- ربما لم يسمع رنين الجوال، أو ربما نسيه في مكان ما.. - حاولت أن أبتسم وأنا أغمزها قبل أن أكمل - ربما.. ربما وجد أحداً ينسيه بروفيسوره الهندي..

لكن النحيلة لم تتأثر بدعابتي على الإطلاق.

- وأنا أيضاً خطر لي الأمر ذاته، ولكن أيعقل أنه لم يسمع بموت السيدة نزهت حتى الآن؟ فمحطات التلفاز كلها أعلنت الخبر منذ الصباح وهي تكرّره على مدار الساعة.

معها حق فاحتمال عدم سماعه بالخبر ضعيف جداً، ولكنه قد يكون مختبئاً بعد سماعه الخبر. عليّ أن أجده بأسرع وقت، فربما هو أيضاً يبحث عني الآن؟.. إلا أنه يعلم رقم هاتفي وعنواني.. ولكن ماذا لو لم يتمكّن من الاتصال.

- معك حق - بدتْ وكأنها تجاريني وتصنّعت اللطف وهي تكمل - لا أظنه برفقة صديق خاص، ولكن ربما يكون غارقاً في العمل ولم يتنبّه لجوّاله ولا لأخبار التلفاز، وإن أعطيتني عنوان منزله فسأذهب للاطمئنان عليه..

لا بدّ أنّ هذه الفتاة بلغت مستوى لا بأس به من المكر، ولكنها لن تستطيع خداعي بهذه الكلمات، فلن أسمح لهم بالذهاب إلى منزله وقتله كما فعلوا بنزهت.

- لا أعرف عنوانه، فقبل ذهابه إلى لندن، كان يسكن في شقة في بشكتاش، ولكنه ترك ذلك المنزل ولم نتقابل بعد عودته..

بدا عليها الضيق.

- وما الحل؟.. كيف سأتصل به وأطمئن عليه؟

- ربما يقوم هو بالاتصال بك – قلتها وأنا أستعد للمغادرة – فلن يبقى حبيس العمل والمنزل طوال الوقت.

بدا في عينيها قلق زائف.

- أتمنّى أن يتّصل قبل أن تنتهي مدة المنحة.

وما دمنا نواصل التمثيل، فقد ارتديت قناع الأستاذ العطوف.

- أتمنّى ألا يفوتك الوقت.. أراك لاحقاً..

ولكنها لم تكن تنوي أن تتركني بسهولة.

- إذا اتّصل بك..

أكملت جملتها وأنا أبتعد.

- لا تقلقي سأخبره أن يكلمك على الفور..

ابتعدت عنها مسرعاً.. ورغم أنها بقيت واقفة خلفي إلا أنني شعرت بثقل نظراتها الغريبة وهي ترمقني..

(18)

الحب الكبير في كثير من الأحيان
هو عمرٌ ضاع منثوراً

ترجّلت من سيارة الأجرة في منطقة آكاريتلار حيث على يميني سبيل الماء الذي أنشأه السلطان عبد المجيد من أجل والدته بازمي فاليدة المحبة لأعمال الخير وقد أطلق عليه اسمها أيضاً، وذلك بعد ما يقارب الثلاثمئة عام على وفاة السلطان الفاتح. هذا السبيل محظوظ لأنه على خلاف كثير من المنشآت التاريخية بقي محافظاً على حاله في حين نالت يد الدهر والإهمال والجهل من الكثير من تلك الأعمال الجميلة القيمة. لذا اقتربت لكي أقرأ الأشعار التي نُحِتت على رخامه ولكن الظلام حال دون ذلك..

"ظلام شتاء إسطنبول يخيّم عليها سريعاً كخبر مشؤوم.." كانت جدتي تردّد هذه المقولة على الدوام، وقد علمت السبب فيما بعد، فقد وصلها خبر موت جدي في يوم شتائي غمره الظلام باكراً، وكانت تجلس على الدوام أمام نافذة غرفتها وهي تقول.. "أشعلوا جميع أضواء القصر"..

ورغم عدم إضاءة المصابيح حتى الآن إلا أنّ الليلة كانت منيرة تسمح لي برؤية الطريق والنجاة من مخاطر الانزلاق على طبقة الجليد التي كانت تغزو كل زاوية ببطء شديد ولكن بإصرار.. خلف شجرة البطم الكبيرة التي كانت تقف بجلال في بداية الشارع الصغير، يقع البناء الذي يسكنه أكين. وقد ورث المنزل عن والدته التي توفيت قبل ثلاث سنوات بسرطان الرئة. كانت شقة صغيرة في الطابق الثاني من هذا المبنى، مرتبة ونظيفة، ولكنها محشُوَّة بالأثاث كصندوق قديم. وبعد الجنازة بستة أشهر دعاني مساعدي مرة أخرى إلى منزله، لحضور الحفلة التي أقامها في أواسط حزيران/ يونيو، ولا أدري كيف تمكّن من إقناعي بأمر كهذا، حيث أنني وقبل أن أخطو نحو الداخل

خطوة واحدة أدركت فداحة الخطأ الذي ارتكبته، حيث الموسيقى الصاخبة تصدح والشبان والفتيات يتجوّلون على غير هدى في المكان، ربما بتأثير الشراب أو مواد أخرى يتعاطونها. كان هناك بعض الأجانب: أميركيون، ألمان، إسبان؛ بل كان هناك شابان جزائريان طويلا القامة شديدا السمرة بجدائل طويلة ومفتولة. ورغم أن معظم الحضور من الأتراك إلا أنني لم أعرف أحداً منهم.. وما زلت حتى الآن أتساءل عن السبب الذي دفعه لدعوتي إلى تلك الحفلة التي لا تناسبني على الإطلاق، ربما كان يشفق عليّ ويريد أن يخرجني من عزلتي التي أحياها.. ورغم أنني لم أكن أشارك أيًّا من الحضور، لا ثقافتهم ولا أسلوب حياتهم، لم يبدُ عليهم الاستغراب لرؤيتي بينهم، وأحسست نفسي قادماً من إسطنبول أخرى ومن زمن آخر.. كنت عينة لشريحة من الناس الذين بدأوا بالانقراض.. على كل حال فقد كانت هناك تشكيلة متنوعة من الناس وربما لم أكن سوى إضافة أخرى إلى هذا التنوع.. وما إن دخلت حتى اقترب مني شاب يرتدي بنطال جينز ويضع أشياء غريبة وبرّاقة على شعره الطويل الملوّن بأصباغ تلمع حتى في الضوء الخافت، وقد قدم لي كأساً مملوءة بشراب ما، إلا أنني رفضته على الفور فليس من عادتي شرب شيء لا أدري كنهه. ضحك وهو يفتح ذراعيه وينظر إليّ بمودة ويقول:

– أهلاً بك بيننا يا أستاذ.

لو لم أسمع صوته لما عرفته؛ فقد كان أكين. وتراجعت خطوة إلى الوراء على الفور مصدوماً بهذا التحوّل الغريب الذي أصابه. اختلجت عيناه وأخذ يرمش بتواتر حزين وهو ينظر إليّ وقد أصابته خيبة أمل.

– لِمَ استغربت يا أستاذ – سألني بطريقة عادية جداً كوني أعرف ميوله الجنسية والتي لم يحرص على إخفائها عن أحد.. "في هذا الجسد الرجولي تكمن روح امرأة يا أستاذ"..

ولكنه لم يكن أمراً يتقبّله كثير من الأشخاص المحافظين الذي يملؤون أرجاء الكلية "أنا أميل إلى الرجال.." هذا التصريح كان يحتاج إلى شجاعة كبيرة جداً، وحتى شخص مثل الأستاذ طاهر حقي الذي يتبجّح على الدوام بأنه منفتح على كل الاختلافات؛ كان يقول لي بين الحين والآخر "أخبر ذلك الأخرق أكين ألاّ يختال مثل

الفتيات في أروقة الكلية".. على الرغم من أنني لم ألحظ عليه شيئاً من هذا القبيل سوى في تلك الحفلة في منزله. فهو لم يكن يختال في مشيته ولا يتصنع النعومة في تصرفاته وصوته، بل على العكس تماماً فحين يدرك أنه على صواب في أمر ما، يظهر شجاعة وجرأة كبيرتين في الدفاع عن رأيه لا يبديها كثير من المفتخرين بفحولتهم. وقد واجه ذات مرة الأستاذ حقي نفسه.." إن لم نتحدث عن الحياة الجنسية بكل أبعادها في قصور السلاطين فسيبقى تاريخنا ناقصاً بشكل كبير.." والغريب أنّ الأستاذ بقي صامتاً ولم يجد رداً مناسباً على كلام هذا الطالب الغريب الأطوار، ولو لم يكن شخصاً مجتهداً ذكياً لما استطاع البقاء في أروقة الكلية ولو للحظة واحدة، ورغم ذلك لم ينجح في الاستمرار، فقد اجتاح الذعر من مثليي الجنسية هذا البلد، وأخذ كل واحد يحاول نفي التهمة عن نفسه بصورة مبالغ فيها، وحتى أنا لم أنجُ من هذه الحمّى الغبية، فعندما أراد طالبي المسكين أن يحتضنني بكل براءة للترحيب في منزله، تراجعت عنه كمن يبتعد عن شيء دنس.. حسناً، ولكنه لو لم يكن يضع ذلك الشعر المستعار البرتقالي اللون على رأسه، ويرتدي ذلك البنطال القصير المزيّن بأزهار ملونة، لربما خفت حدّة دهشتي.. ولكن مهما تكن الأسباب فهذا لا يبرر لي التصرّف معه بكل تلك الفظاظة.

استمر أكين ينظر إليّ معاتباً وهو يعيد طرح السؤال ذاته.

- لماذا أنت مستغرب أستاذ مشتاق؟

وكأنه يريد القول لماذا التعجّب وقد صارحتك بحقيقتي من قبل.. أيعقل أنّ رد فعلي المبالغ فيه، كانت لكبت روح المرأة التي ترقد في جسدي الضخم أيضاً؟.. لا، فما أنا متأكد منه تماماً أنّني لا أملك أي ميول من هذا النوع.

في إحدى المرات وعندما كنت نائماً قامت شازية بطلاء أظفاري بالطلاء الخاص بها، حينها أذكر أنّ والدي قد نهرني بعنف دون أن يكون لي أي ذنب، والتفت إلى البقية بغضب وهو يقول "ما هذا؟ أتريدون تحويل ابني إلى مخنث؟.." لذا فقد أظهرت حرصاً خاصاً منذ ذلك الحين على تجنّب كل ما هو غريب.. وقد كانت حبيبتي تقول لي على الدوام "في هذا الجسد الضخم تختبئ روح طفل بريء".. ذاك الطفل الذي لم يتوانَ عن ارتكاب جريمة قتل حين شاءت الأقدار..

وبالعودة إلى تلك الحفلة، لم يدم الاستغراب الذي اعتراني إزاء رؤية أكين على تلك الحالة سوى لحظات قصيرة، واستطعت تمالك نفسي بسرعة.

- ألا يوجد لديك شيء سوى هذا الشراب الغريب؟ - وأشرت إلى الكأس التي كان يرفعها بيده وأنا أكمل - يا له من خليط متنوّع..

ولكن كلماتي لم تستطع أن تزيل خيبة الأمل التي بدت على وجهه، وحينها أدركت كم كان يثق بي هذا الشاب الغريب الأطوار، وكم كان يعاني من الوحدة.. ربما كانت تلك المرة الأولى التي خطرت له فيها فكرة الرحيل ومغادرة إسطنبول، ولكنه لم يظهر شيئاً مما يعتمل في صدره.

- أجل - وبدأ يتلفّت حوله - هناك كثير من المشروبات إن شئت - ثم أكمل بعد أن أشار بيده إلى الحضور - نحن نجتمع بين الحين والآخر.. وقد ارتأيت أن أرتدي زي المخنثين هذا، ليس كل من تراهم هنا مثليي الجنس، ولكنهم جميعاً يعانون من ضغوط معيّنة. وفي هذه الحفلات نحاول التخلّص من القيود والضغوط التي تأسر أرواحنا، ونحاول أن نظهر حقيقة ما نحن عليه.. إنها حفلة تذكّرنا بما نحن عليه حقاً يا أستاذ..

حقاً من نحن؟.. نحن أبناء شعب قدم من سهوب آسيا الوسطى واختلطنا بحضارات كانت موجودة على هذه الأرض، لننشئ إمبراطوريتنا، لتندمج وتضيع هويتنا الخاصة في هذا المزيج؟.. ولكن ما كانت طبيعة هويتنا الخاصة تلك؟.. أكانت خصائصنا العرقية؟ أم معتقداتنا الدينية؟.. أم أخلاقنا وقيمنا؟.. أم تجاربنا وطريقة تفكيرنا؟.. أم ذاكرتنا؟.. إنه شرود ذاكرة نفسي جماعي.. فهذا المجتمع قد فقد جزءاً من ذاكرته بشكل مؤقّت.. ولكنني لست متأكداً من أنه فقدان مؤقّت.. وإلا أنّ الأكيد هو أنه فقد جزءاً من ذاكرته الجمعية.. ذلك أنّ كل سلطان وكل مؤرّخ وكل حاكم كان يسجل الوقائع والأحداث وفقاً لرؤاه الخاصة ويعيد كتابة ما ألّفه الآخرون حسب ما يشاء.. وبالطبع فالتاريخ المكتوب حسب المصالح الشخصية لا علاقة له أبداً بالحقائق.. ولقد بتنا بحاجة ماسة لإعادة كتابة التاريخ بواقعية بعيداً عن الرؤى والمصالح الشخصية التي أدت إلى تجيير الأحداث وفق الأهواء أثناء تسجيلها "فحفلة تذكّر ما نحن عليه" بالطبع لن تكون حفلة مسلّية كالتي دعاني إليها أكين،

ولكننا بحاجة إلى هذا النوع من المواجهات من أجل معرفة أنفسنا بصورة أفضل.. ويجب أن نخصّص أعياداً لتعريفنا بحقيقة هويتنا القومية بالإضافة إلى الأعياد الوطنية والدينية.. وفي تلك الأعياد يستطيع الجميع أن يرتدوا ما يشاؤون ويأكلوا ما يشاؤون، ويؤمنوا بالدين الذي يرغبون، ويتكلموا اللغة التي يحبون، ويظهروا حقيقة ذاتهم.. ولكن ما الذي يعنيه إظهار حقيقة أنفسنا وإبداء ما نحن عليه؟..

على أي حال بعد خروجي من تلك الحفلة لم أعد إلى هذا المنزل سوى الآن. وعندما بلغت الطابق الثاني وأنا أصعد الدرجات الضيّقة والمرتفعة بشكل ملحوظ، وقفت أمام الباب لاهث الأنفاس.. "لِمَ لا تفحص قلبك؟".. خيّل لي أنني أسمع صوت شازية في فراغ المبنى.. وفيما كانت مخاوف ابنة خالتي تتجوّل في ذهني، ضغطت على جرس الباب، إلا أنني لم أسمع أي حركة من الداخل، فضغطت مرة أخرى بإصرار أكثر وظل الصمت سائداً، يبدو أنّ أكين ليس في المنزل.. أيعقل أنه تعرض لمكروه ما؟.. وفي المرة الأخيرة التي ضغطت فيها على الجرس تهيّأ لي سماع صوت من الداخل، ولكنني بعد لحظات أدركت أنه قادم من خلفي، وعندما التفتّ وجدت وجه امرأة عجوز بادي الشحوب يطل من فتحة الباب، كانت تتكلم بخفوت لم يمكّنني من سماعها، وعندما اقتربت منها همّت بإغلاق الباب..

- أرجوكِ انتظري.. أنا أستاذ أكين من الجامعة، ونحن نتصل به منذ البارحة مساء ولكنه لا يرد على مكالماتنا..

كانت تتفحّصني بنظراتها وهي حائرة فيما يجب عليها فعله.

- أرجوك لا تغلقي الباب - حاولت أن أكلمها بأكثر النبرات لطفاً - لا نية سيئة لديّ.. كما أنني أتيت لأعزّي أكين عندما توفيت السيدة بديعة، وأظننا التقينا أثناء الجنازة.

في الحقيقة لم أكن أتذكّرها على الإطلاق، وما دامت قلقةً على أكين، فلا بدّ أنها امرأة لطيفة..

- أجل.. أجل.. - هزّت رأسها وبدا ذلك الشريان الذي يقسم جبهتها من المنتصف تماماً يتحرك وفق تغضّنات بشرتها - أنت ذلك البروفيسور الذي ساعد أكين ووقف إلى جانبه.

هل هي ذاكرة فيل حقيقية، وليس ذاكرتي التي حصلت على اللقب دون استحقاق، فهذه العجوز التي تجاوزت أعتاب الثمانين تتذكر أحداثاً لا تمسّها بصورة شخصية، على النقيض مني، حيث لا أتذكّر ما حصل لي البارحة مساء..

- أنت بروفيسورة من الجامعة.. لقد كانت السيدة بديعة تتحدث عنك بامتنان بالغ على الدوام.. وأعتقد أن اسمك موفّق.
- مشتاق.. - صحّحت لها - مشتاق سرهزين.
- أجل سرهزين.. وقد استغربت حينها أيضاً عندما سمعت اسم عائلتك للمرة الأولى، أرجو المعذرة، ولكن اسم عائلتك غريب بعض الشيء سيد موفّق..

موفّق؟.. يبدو أنّ هذا الاسم أعجبها أكثر، لذا لم أحاول تصحيحه مرة أخرى، فحتّى ذاكرة بهذه الجودة قد تتخلّلها بعض الثغرات، ولكن الاسم الذي اختارته لم يكن يليق بي على الإطلاق، فما الذي وُفِّقت فيه طوال هذه السنوات؟.. هل تمكّنت من تأسيس عائلة مثلاً؟.. أم أنني حقّقت نجاحاً مميزاً ومكانة مرموقة في عملي؟.. هل نجحت في عقد صداقة متينة مع أحدهم؟.. هل عشت قصة حب رائعة مثلاً؟.. ولكن لا.. لن أبخس نفسي حقّها إلى هذا الحد، فقد عشت أجمل قصة حب.. فأي رجل يستطيع انتظار امرأة سافرت دون أن تكلّف نفسها عناء توديعه طوال واحد وعشرين عاماً؟.. لأنّ الحب الكبير في كثير من الأحيان هو عمرٌ ضاع منثوراً.. لأنّ الحب الحقيقي هو نبات طفيلي لا رحمة لديه، يلتف حول الشجرة التي يختار بكل قسوة، يضمها بين ذراعيه ليمتص منها الحياة ببطء، ولا يسمح لأي نبات من النمو حولها.. الحب الصادق لا يسمح سوى للمشاعر التي تعبّر عنه أن تعيش ويقتل كل ما سواها، ولا مكان فيه للسعادة ولا للرحمة ولا للنجاة.. إنه ذلك الحزن الجميل الذي يودي بالشجرة والنبتة التي التفت حولها معاً.. ولهذا السبب فإن نهايات قصص الحب العظيمة تكون في معظمها مأساوية. وكانت قصتي أكثرها مأساوية على ما يبدو، وقد حرصت على إنهائها بأكثر الطرق بذخاً في الألم: بالدماء..

ولكي تنجلي الحقيقة وأتأكد من قيامي بالفعل بقتلها، ها أنا ذا هنا، وعليّ الاطمئنان بسرعة على مصير مساعدي القديم، وأرجو أن تكون كل هذه الأفكار

مجرّد أوهام.

- صدقني سيد موفّق – كانت الجارة العجوز تواصل حديثها – فالسيدة بديعة كانت تدعو لك على الدوام بالخير والتوفيق وذلك بسبب المساعدات التي كنت تقدّمها لابنها حين كان في الجامعة..

لا أظنني فعلت شيئاً يستحق كل هذا التقدير، فقد جمعتني أسباب مختلفة مع أكين، فأنا كنت أحد الأساتذة الذين لا يمتلكون القدر الكافي من الطموح والتألق لجذب المساعدين الشباب والذين كانوا يتجنّبون العمل معي. أما أكين ولأسباب مختلفة تماماً كان الأساتذة يتجنّبون العمل معه.. ولا أنكر أنه كان شاباً ذكياً جداً، وكان يتقيّد في عمله بنظام يروق لي، وبالمقابل كنت أعامله بطريقة لطيفة.. ولم أهتمّ على الإطلاق باختلاف ميوله الجنسية وأظنني قد أحببته نوعاً ما..

- كانت تكن لك الكثير من التقدير.. – كانت تواصل التحدّث من فتحة الباب فيما تلتمع عيناها بحزن على ذكرى جارتها – فقد كانت المسكينة قلقة جداً على أكين – وهنا بدأت فتحة الباب تتّسع أكثر ويبدو أنها تخلّصت من شكوكها تجاهي.. – فأنت تعلم وضع أكين.. فالمسكين ما هو برجل وما هو بامرأة.. أتمنى ألاّ يُبتلى أحد بهذا البلاء العظيم، والمسكينة لم تكن تعلم ما الذي يتوجّب عليها فعله لمساعدته.. – عادت لتغلق الباب بعض الشيء، وكأنها أدركت أنّ الموضوع وصل إلى نقطة حساسة – لم يرزقني الله بطفل، وهذا ما أشعرني على الدوام بحزن كبير، ولكن عندما كنت أرى أكين.. لا أدري، ولكن ألا تظن أنّ ميوله هذه كانت سيئة، فالإنسان إما أن يكون رجلاً أو امرأة.. أيعقل أن يكون شيئا بين الاثنين؟

ربما كانت تعتقد أنني أملك الميول ذاتها كوني أعامل أكين بلطف..

- لا يمكن – حاولت أن أبعد عنها الشكوك وعن نفسي الشبهات، وأن أصل إلى ما أبتغيه – ولكن أكين لا يرد منذ البارحة على هاتفه، ويبدو أنه ليس في المنزل أيضاً.. فهل رأيتهِ اليوم؟

بدا القلق على وجهها وهي توضّح لي:

- البارحة مساء حدث شجار كبير وقد وصلت الصرخات الحانقة مسامعي.

إذاً فقد كانت سيبيل محقّة في مخاوفها.

- ومع مَنْ كان يتشاجر؟
- لا أعلم.. لم أميّز الأصوات، على الرغم من أنّ جدران منازلنا رقيقة جداً، فلو عطس أحد الجيران ستتمكّن من سماع الصوت.. إلا أنّ سمعي بدأ ينال منه الزمن، وفي البداية ظننته يتشاجر مع السيد تيومان؟
- ومن تيومان؟

رمقتني باستغراب:

- ألا تعرفه؟
- لا، لا أعرفه.

ظلت صامتة ترمقني بالاستغراب ذاته، لذا كان عليّ أن أبدّد دهشتها:

- فأنا لم أرَ أكين منذ فترة طويلة، هل تيومان هذا أحد زملائه في الجامعة؟

بدت العجوز راغبة في الثرثرة وإطالة الحديث، لذا بدأت بسردها المفصل:

- لا، فقد أنهى الجامعة منذ مدة طويلة، فهو مهندس معماري يعمل في ديكورات المنازل وسواها.. وأظنهم يطلقون على عمله اسم العمارة الداخلية، ولديه مكتب في منطقة بشكتاش، وأؤكد لك أنني لا أريد إثقال كاهلي بذنوب جديدة، فأنا لم أرَ أي تصرف مشين يصدر عنه، ولكنهم يقولون إنه مثل أكين أيضاً.. أي أنه كما تعلم..

قالتها بتردّد خوفاً من أن يسمعها الشاب، ولكنها بعد لحظات واصلت حديثها بتوجّس أقل حين تذكّرت أنه غير موجود في المنزل.

- يقولون إنهما تزوّجا.. أستغفر الله.. فقد أخبرتني إحدى جاراتي أنهما يملكان الميول نفسها، أي أنهما مثل النساء.. وقد سكن تيومان هنا بعد أن سافر أكين، ومنذ ذلك الحين وهو هنا..

لقد كانت نميمتها تبعدنا عما أود معرفته.

- أتعنين أنه لم يكن يتشاجر مع تيومان؟

نظرت إليّ بضيق لأنني قاطعتها، وقد شعرت بالخوف من أنها لن تواصل سرد الحديث، ولكنها بعد لحظات عادت إلى الكلام.

- لا لم يكن هو، فلم أسمعهما يتشاجران ولو لمرة واحدة، وأؤكد لك أنه شاب مهذّب وقد أهداني مرة ستائر لنوافذ المطبخ، تلك الستائر التي يتم تعليقها من أعلى الحائط وحتى الأرض، كما أنّ أكين يأتي إليّ لتناول الفطور في بعض الأحيان، وقد أحضر معه تيومان أيضاً ذات مرة، كان يبدو مغروراً بعض الشيء، ولكن..

ضاع طرف الخيط بين ذكريات العجوز وأقاويلها وكان عليّ أن أبحث عنه مرة أخرى.

- وهل أنتِ متأكدة من نشوب شجار البارحة مساء؟

لم تتردّد هذه المرة وهي تجيب:

- متأكّدة، فقد كانت الأصوات والصرخات تصلني، وقد سمعت صوت ارتطام شيء بالأرض.. وليس من عادتهما إحداث كل هذا الضجيج.. لا أظنه تيومان، فالصوت الذي كان يأتيني بدا لي غير مألوف.

سألتها بفضول:

- وهل استطعت سماع ما يقولانه؟
- لا، لم أسمع شيئاً. فقد كانت صرخات غير مفهومة.
- ألم يكن هناك أحد آخر؟.. أعني أحداً غير صاحب الصوت؟
- كان أكين، ورغم أنني لم أفهم ما كان يقوله، إلا أنني ميّزت صوته بوضوح - بدت العجوز منفعلة وهي تعيد سرد أحداث البارحة وكأنها تعيشها الآن - كان الرجل الآخر غاضباً، ولم يكن يتحدث بل كان يصرخ طوال الوقت، لذا لم أستطع فهم ما كان يقوله.
- وما الذي حدث بعد ذلك؟
- انقطعت الأصوات وساد صمت غير متوقّع كصمت القبور - سكتت لبرهة، وكأنها تذكّرت الموت الذي بات قريباً من أبوابها - فلينجّنا الله من عذاب القبر - وكأنها تطرد بهذه الكلمات فكرة الموت - أجل، ما الذي كنت أقوله؟
- الصمت.



- أجل الصمت.. لم أعد أسمع أيّ صوت من الطرف الآخر، ولا أدري كم مضى على ذلك، فقد ذهبت إلى السرير من أجل النوم.. - وأشارت بيدها المتغضّنة كأمواج بحر نحو بابه - وفجأة سمعت صوت الباب يغلق بهدوء تام، كمن يريد أن يخرج من المنزل دون أن يسمعه أحد.. أجل أُغلق بهدوء وحذر شديدين.. ولكنه باب ثقيل، فالمرحوم رفعت هو من صنعه بيده، وبالمناسبة إن رفعت هو زوجي، كان يعمل سائق قطار على الخطوط الداخلية، وقد توفي قبل أربعة أعوام.. ولكن السيد نافذ زوج السيد بديعة توفي قبل زمن أطول بكثير.. لم نكن فقط جيراناً، بل كنا عائلة واحدة، ومن الصعب أن تجد أشخاصاً بهذه الطيبة الآن، كما أنّ السيد نافذ كان يساعد زوجي أيضاً في أعماله، وهذان البابان هما من صنع رفعت، وهما قويان جداً وقد استطاعا الصمود طوال هذه السنوات على الرغم من أنّ تقادم الزمن جعلهما ينتفخان بعض الشيء، فهذه طبيعة الخشب كما تعلم، ومهما حاولت فلن تستطيع إغلاقهما دون إصدار صوت مسموع، لذا ميّزت إطباق الباب البارحة مساء على الفور، ولكنني بالكاد سمعت صوت خطوات في الخارج، فكما أخبرتك منذ قليل، كان حريصاً على الخروج بصمت..

وعلى الرغم من يقيني بأنها لم تضيّع الفرصة على نفسها، لكنني أردت التحقّق من الأمر.

- ألم تحاولي النظر من النافذة لكي تشاهديه وهو يخرج؟
- رغبت في ذلك بشدّة يا سيد موفّق، ولكنك لا تعلم ما تفعله السنون بنا، فمجرد السير بضع خطوات يتطلب جهداً لا أقوى على بذله في كثير من الأحيان، كما أن سريري بعيد جداً عن النافذة.
- ألم تسمعي أحداً آخر يدخل المنزل أو يخرج منه؟

نظرت إليّ وبدت أسنانها التي تشبه أسنان الصغار في ذلك الكهف العجوز:

- لم أسمع، فكما أخبرتك سمعي أصبح ضعيفاً جداً، وأحياناً تختلط عليّ الأصوات.

وهذا ما كنت أخشاه، أن يضيع تفصيل مهم في زحمة الذكريات المشوّشة في ذهن العجوز، لذا أعدت السؤال بإلحاح:

– وبعد ذلك، ألم تسمعي أحداً في الصباح مثلاً؟.. أكين أو تيومان أو سواهما؟..

هزّت رأسها نافية، وقد لاحظت أنها جمعت شعرها الأشيب في الخلف كما فعلت نزهت البارحة.

– لا، ربما خرج أكين باكراً ولم أسمعه..

وربما حصل ما كنت أخشاه وتمكّن الأستاذ وعصبته من النيل من هذا المسكين، أو شخص آخر لن أستطيع تخمينه، بواسطة سكين عليها ختم الفاتح. ولكن لا فهذا هو المستحيل بعينه، لأنني دفنت تلك السكين في قعر بحر مرمرة المظلم. يبدو أنني عدت للترّهات مرة أخرى.. وتذكّرت الجملة التي كنت أسمعها على الدوام من والدي.. "ادخل في لبّ الموضوع يا بُني.. اختصرْ ولا تماطلْ"..

– ومتى يعود السيد تيومان من عمله؟

نظرت إليّ بخيبة قط أضاع الفأر من يديه وهي تقول:

– في المساء، أظن أنّ عودته باتت قريبة، بالطبع إن لم يذهب إلى مكان آخر، فكما تعلم أنّ الشباب يملون من البقاء في المنزل وقتاً طويلاً.

– ألديكِ رقم هاتفه؟

رفعت كتفيها وهي تقول لي:

– لا، ولكن أحمد أفندي لديه الرقم، وتستطيع أن تجده في القبو، فهو بوّاب البناء.

أحسست نفسي محقّقاً سريًا وأنا أستجوب هذه المرأة.. "هذا الطفل لديه ميول محقّق واضحة.." بالطبع لم يمدحني أحدٌ بكلام كهذا، رغم أنني كنت أتمنى أن يمدحني والدي ولو لمرة واحدة.

"عدت للخطأ من جديد يا مشتاق، فأول سؤال عليك أن تسأله، متى عاد أكين إلى المنزل البارحة؟.. كان عليك التأكد من هذه المعلومة قبل كل هذا الحديث الذي لا طائل من ورائه". أنا متأكد من أنّ والدي كان سيقول هذا الكلام، ليثبت كم هو

شخص ذكي وأنني على النقيض أفشل في كل ما أقوم به، لذا اتبعت نصيحته على الفور.

- البارحة قبل الشجار، هل تذكرين متى عاد أكين إلى المنزل؟..

زادت تغضّنات جبينها وهي تحاول التذكّر، ولكن وجهها أضاء فجأة وهي تقول لي:

- قبل هذا المسلسل.. الذي يتحدّث عن مجموعة من السائقين الذين يعملون في مكتب للسيارات، والمواقف التي يتعرّضون لها، فقد عاد أكين إلى المنزل قبل المسلسل مباشرة، أي حوالى الساعة الخامسة تقريباً.
- هل استطعتِ أن تعرفي إن كان بمفرده أم لا؟
- أظنه كان برفقة أحد ما، ولكنني لا أعرف من يكون لأنني لم أَرَه..

كان صوتها ضعيفاً، وقد شعرت بالارتباك لإحساسها أنها لم تسعفني بالمعلومات التي أحتاجها، وهذا ما زاد من شفقتي عليها، فمددت يدي مصافحاً وأنا أقول:

- شكراً جزيلاً فقد ساعدتِني بشكل كبير - كانت يداها باردتين وجلدهما جافاً وخشناً كلحاء شجرة قديمة.
- أنا أيضاً بدأت أقلق على هذا المسكين.
- لا تقلقي - قلتها وأنا أضع ابتسامة على فمي لأطمئنها - وإن عرفتُ أي شيء فسأخبرك على الفور.

نظرت إليّ وكأنها تحاول التصديق، ولكنني لم أسمعها تغلق الباب الثقيل الذي ورثته عن زوجها حتى وصولي الطابق الأرضي.

(19)

غُمر بدمائه كأضحية مقدّسة

ظل تيومان محافظاً على هدوئه الذي يثير الأعصاب وهو يدخل المفتاح في قفل الباب القديم، وعلى عكس أكين فقد كان ممتلئ الجسم، وأصغر مما توقّعت، كان في بداية الثلاثينات، ذا رأس ضخم يغطيه بقبعة صوفية يدوية الصنع، وينتعل جزمة متعدّدة الألوان ومعطفاً سميكاً من الفرو الأبيض.. وصلنا بابَ المنزل بداية حلول المساء، وقد ملأت رائحة الربيع أروقة المبنى كله..

حين رآني واقفاً أمام باب البناء انتظره رمقني باستعلاء وهو يرى رجلاً في خريف العمر يرتدي ثياباً قديمة الطراز.

- لا بدّ أنك السيد مشتاق – قالها بنبرة بادية الضيق – فقد رأيت صورتك وقد حدثني أكين عنك أكثر من مرة..

أهذا كل ما في الأمر؟ فحين حدّثته على الهاتف أخبرته بما جرى لنزهت واختفاء أكين منذ البارحة. فكيف لا يشاركني الخوف على صديقه وقد أخبرتني الجارة العجوز بوجود علاقة بينهما؟.. ربما يعتبرني مجرد عجوز تنتابه الوساوس، وربما غيّر اتصالي به مخطّطاته لهذا المساء لذا فقد انزعج مني، وربما لم يخطر له أنّ شخصاً مثل أكين يمكن أن يتعرض لسوء.. التفت إليّ فيما نحن نصعد الدرج بوجهه الممتلئ، وكلانا نلهث، وهو يتكلم بطريقة لامبالية.

- البارحة مساء لم أكن في المنزل، ولا علم لي بما يفعله أكين..

كان يلمّح بأنه ليس مربية خاصة لشريكه في السكن، وإزاء بروده هذا انتابتني الحيرة. أيعقل أنني أبالغ في مخاوفي؟.. فربما كان عدم رده على الاتصالات والشجار الذي حدث البارحة ليس سوى مصادفات لا تشير إلى حدوث مكروه ما، وقد يكون صوت الباب الذي سمعته العجوز هو بسبب خروج أكين من المنزل، والذي ربما



يكون الآن يلهو في مكان بعيد.. لا بدّ أنني ارتكبت خطأً فادحاً حين صدقت كلمات تلك النحيلة سيبيل.. كانت الظلمة التي تخيف جدتي وهي تخيّم على مدينتها، تخيّم على ذهني أيضاً وتبلبل أفكاري. فمن الممكن أن تكون لعبة جديدة من أجل الوصول إلى منزل أكين، وهناك احتمال كبير بأنهم يراقبونني منذ خروجي من الجامعة، وأنا كالأحمق ركبت سيارة الأجرة من أمام جامع السلطان أحمد دون أن أنتبه للأمر.. ولكن لِمَ لم يأخذوا عنوانه من ملفه الموجود في الجامعة؟.. لِمَ يتكبدون كل هذا العناء؟.. الجواب واضح فأكين لم يدوّن عنوانه الصحيح في ملفاته بسبب تخلّفه عن خدمة العلم، وقد استطاع فيما بعد التخلّص من هذه المشكلة حين أثبت لهم بواسطة تلك الصورة المخزية التي أخذها إلى شعبة التجنيد حقيقة ميوله.. "لقد كان موقفاً يا أستاذ، فقد طلبوا مني صورة أثناء ممارسة العلاقة، كان أكبر ذلّ تعرضت له في حياتي، ولكنه يبقى أفضل من المصير الذي سألاقيه لو زجّوا بي وسط أولئك الذكور الأجلاف.." أجل لم يكن عنوانه مدوّناً في سجلات الجامعة، لذلك فقد أرسلوا إليّ تلك الخبيثة لتعرف مني عنوانه.. أحقًّا كانت بكل هذا السوء؟ لا أعلم، فأنا أبالغ في تضخيم كل شيء.. ولكن ما أنا متأكد منه أنّ تلك العصبة تحوم حولي وتستخدم كل الوسائل لاستخلاص المعلومات عن مشروع نزهت.

وفيما كنت أصعد الدرج مع هذا البدين الصامت كانت هذه الأفكار تصعد بذهني وتهبط به على سلالم الاحتمالات التي تودي صعوداً وهبوطاً إلى الضياع.

ما إن وُضِع المفتاح في الباب حتى فُتِح لأنه لم يكن مقفلاً من الداخل، وقبل أن يدخل نظر إليّ كمن يقول: أرأيت أيها العجوز أنّ وساوسك لا مبرّر لها، وأنك كبّدتني كل هذه المشقّة من أجل لا شيء.. وكأن نظراته لم تكن تكفي ليكمل عليها بالقول:

– لو أنّ أكين في المنزل لكان قد أقفل الباب ووضع السلسلة الحديدية مكانها – كان يتحدث وهو يرفع أحد حاجبيه اللذين نظّفهما بالملقط كأي فتاة ليتخلّص من كثافة الرجولة فيهما – فهو يفعل ذلك كل مساء ولا ينسى الأمر على الإطلاق مهما كان ما يفعله..

كان يناقض نفسه بهذا الحديث.

– أعتذر سيد تيومان – حاولت التحلّي بأقصى لطف ممكن إزاء فظاظته هذه

- ولهذا السبب بالذات أيضاً سيقفل الباب قبل خروجه من المنزل، ولكن الباب لم يكن مقفلاً.

لم يبدُ عليه التأثر بكلماتي.

- قد يكون على عجلة من أمره حين خرج ونسي إقفاله..

لم أشأ إطالة النقاش أكثر.

- أتمنّى أن يكون هذا ما جرى، ولكنني قلق عليه.. ولديّ أسباب جدية لذلك.. فمنذ أربع وعشرين ساعة لم يَرَه أحد ولم يرد على مكالماتنا كلنا، فأين هو؟

وكأنني غير موجود، وكأن كلماتي لا تطرق مسامعه، فقد أخرج المفتاح من القفل ودفع الباب بكلتا يديه وهو يفتحه.

- إنه أثقل من جثة حمار، أي أحمق صنعه؟

هناك كثير من الحمقى في الجوار، فهناك الأحمق الذي استدعاه من مكتبه، والأحمق الذي صنع الباب بكل هذا الثقل، والعجوز الحمقاء التي خُيل لها سماع أصوات شجار.. ولكنني سررت لأنها لم تفتح الباب، حتى لا تسمع ما يقوله هذا الوقح عن زوجها رفعت..

وما أن فُتِح الباب حتى تراجع البدين خطوة إلى الوراء وهو يشير لي بيده للدخول في حركة لبقة تناقض الضيق البادي على وجهه.

- تفضل سيد مشتاق - قالها كمن يوبّخني - لقد فتحت الباب، فتفضّل وابحث عن أكين؟

كان يحتقرني ويعاملني كعجوز أحمق، وللحظة زايلني التهذيب وخطر لي أنّ أنهال على وجهه الأمرد بكفي الغليظة. وليقيني بأنني لا أقوى على تنفيذ هذه الفكرة، فقد أبعدتها من ذهني على الفور وحاولت التحدّث بلباقة.

- أعلم أنني أحضرتك من مكتبك على عجل وسبّبت لك الضيق والتعب ولكن خوفي على أكين..

إلا أنه قاطعني بعد أن عجز عن كبت غضبه أكثر من ذلك.

- أجل لقد أتعبتني.. بل لقد فوّتت عليّ فرصة عمل مهمة، فقد كنت على

موعد مع مدير أحد أكبر الفنادق في المدينة، وكانوا سيكلفونني بإعادة تصميم الديكورات في الفندق برمته، ولكنني اضطررت لترك كل ذلك نتيجة إصرارك عليّ بالمجيء..

ولكنه سكت فجأة وبدا على وجهه قلق لم أفهم سببه في البداية، وأشار بيده نحو الداخل وتكلّم بصوتٍ خافتٍ زايلته تلك العنجهية:

– أتسمع؟

– ما الذي تعنيه؟

اقترب برأسه أكثر من الباب المفتوح وهو يقول بعد لحظات.

– أتسمع؟.. أظنه أنين شخص ما من الداخل

لم أكن في وضع يسمح لي بالشماتة لأنني كنت محقًّا في مخاوفي، وحين أصخت السمع بدا لي أنني أسمع أنيناً ما، ولكنه كان خافتاً.. ربما كنا متوهّمين.. ولكن كان عليّ التأكد قبل أن أجيب فأنا لا أريد سماع مزيد من توبيخاته.

– علينا أن نتأكّد – تهربت من نظراته وأنا أدخل – من الأفضل أن ندخل.

ولكن كلماتي أصابته بالهلع.

– أتعني أنّ أكين؟.. أيمكن أن يكون أحدهم؟.. – وأخيراً بدأ يقتنع بكلامي واتسعت عيناه وهما تنتقلان بخوف بيني وبين الباب – أنا.. سيكون من الأفضل ألاّ أدخل.. أعني قد لا أحتمل رؤية منظر الدماء..

إن شئت الحق فأنا أيضاً لست من هواة رؤية الدماء والجثث، خاصة أنه لم تمضِ أربع وعشرون ساعة على آخر جثة رأيتها.. ولكن لحظة، فنحن لم نتأكد بعد من وجود جثة ما، أو حتى أنّ أكين أصيب بمكروه.. يبدو أن حادثة البارحة قد زادت من وساوسي.. ولو كان ما نسمعه أنيناً بالفعل فهذا يعني أنّ أكين لا يزال حياً رغم جميع تخميناتنا السيئة، ولكن إن بقينا واقفين هنا قد يسوء الأمر أكثر.. دفعت الباب الذي كان بالفعل أثقل من جثة حمار.

– انتظرني هنا – قلتها وأنا أخطو نحو الداخل – سألقي نظرة، ولكن لا تبتعد كثيراً فقد أحتاجك.

– حسناً، حسناً.. ما رأيك أن نتصل بالشرطة؟



تذكّرت على الفور المحقّق نفزت فنفيت بحركة من رأسي.

– لا داعيَ لأن نتورّط مع الشرطة دون أن نتأكّد..

– حسناً، كما تشاء. زايلت تلك العنجهية صوته وتكلم بخنوع مطلق.

وما إن خطوت أولى خطواتي نحو الداخل حتى فتحت الجارة العجوز الباب، فأكملت سيري تحت وطأة نظراتهما القلقة..

كانت ردهة واسعة رغم أنني توقعت مدخلاً صغيراً، لا فذلك كان في منزل نزهت، وأحسست بنعومة السجادة تحت قدميّ، وكانت بلون غامق.. وعلى الرغم من أنّ الأضواء بمعظمها كانت مطفأة، إلا أنّ ضوءاً خافتاً يصدر من مكان بزاوية توجيه صحيحة نحو الأرائك الواسعة والطاولات الزجاجية وتلك الطاولة الصغيرة الموضوعة عند النافذة مع كراسيّها والمكتبة التي تحتل أكثر من نصف الجدار، كان يمكّنني من الرؤية، ولكنه لم يكن كافياً.. لذا بحثت عن مفتاح النور فناديت تيومان أسأله عن مكانه، وقبل أن يصلني صوت المعماري سمعت الأنين يعلو، وتأكّدت من وجود أحد ما. كان الصوت صادراً من الممر.

– عند الباب – أوضح لي تيومان بصوته القلق – مفاتيح النور تقع على الجدار الذي وُضِعت بالقرب منه طاولة الهاتف.

أي خلفي مباشرة، وعندما ضغطت عليها غمر ضوء زهري اللون المنزل، وحينها بدأ الأنين يصلني بتواتر أكبر..

لا بدّ أنّه أدرك دخول أحدهم إلى المنزل، لذا توجّهت نحو الممر.. أكان أكين صاحب هذا الأنين؟.. ومن سواه.. حينها شاهدت جسده الملقى على الأرض، وكان الضوء الصادر من غرفة الجلوس يسقط على الجانب الأيمن منه.. كان منهكاً جداً فبعد آخر أنين أصدره بقي صامتاً لا يتحرّك، وظننته قد مات.. وخفت من الاقتراب، بدا وكأنه استشعر بما انتابني لذا حرك جسده ليصدر أنيناً أعمق.

– آآآه..

كان عليّ الاقتراب منه على الفور وطمأنته، ولكن هول المنظر الذي قد ينتظرني حال دون ذلك. ورغم معرفتي بأهمية كل لحظة تمر، وحاجته إلى التصرّف بسرعة لم أجد في نفسي الجرأة على الاقتراب منه، وأحسست بفراغ عميق يحيط بي، فراغ لا

نهاية له، عميق القرار وحالك أخذ يبتلعني.. فبت أشعر أنّ هذا الأنين الذي يصلني وهذا الجسد الملقى على الأرض وذلك الشاب الذي ينتظرني على الباب لا يعنون لي شيئاً.. شعرت بكل ما في هذا المنزل يثقل كاهلي ورغبت بالهرب كما فعلت البارحة في منزل نزهت.. "بالطبع فمشتاق بارع في التسلّل حين تضيق به السبل.." كانت خالتي محقة في كلماتها فأنا جبان لا أملك الجرأة، ولهذا السبب لم أستطع الهرب كما فعلت البارحة لأنني لن أنجو ببساطة من الورطة التي أوقعت نفسي فيها، وكنت أعلم أنّ أكين لن يكف عن اللحاق بي كما تفعل نزهت.. كما أنني عندما وصلت إلى منزل حبيبتي كانت قد فارقت الحياة منذ مدة، ولكن مساعدي الشاب ما زال حياً، ولا أظن أنّ بإمكان أحد آخر مساعدته سواي.. تمكّنت من التغلّب على مخاوفي قليلاً، والاقتراب أكثر منه.

– آآآ..

يبدو أنه يتعذّب كثيراً، وبعد بضع خطوات تأكدت أنّ هذا الجسد الملقى على الأرض يعود لأكين، فلو رأيت هذا الشعر الأجعد في أي مكان آخر سأتعرّف إلى صاحبه.

– أكين.. أكين.. هل أنت بخير؟.. يبدو أنّ صوتي كان أعلى مما يجب، وفي الحقيقة كنت أمدّ نفسي قبله بجرعة من الشجاعة وأنا أرفع صوتي فوق مستوى مخاوفي، وشعرت براحة خفيفة لأنه كان لا يزال حياً، ولكن الصوت الوحيد الصادر عنه كان مزيداً من التأوهات، فاقتربت منه بطمأنينة أكبر.

– لا تقلق يا بُني.. لا تقلق..

في البداية اجتاحت أنفي رائحة تشبه رائحة الصدأ ولكنها مألوفة، ولم أدرك ما هي حتى دست على تلك المادة اللزجة.. فقد كانت البقعة التي يسند رأسه عليها حمراء قانية.. "غُمر بدمائه كأضحية مقدسة".. أين قرأت هذه الجملة؟.. لا فدوستويفكسي لا يستخدم عبارات بهذا السوء، ولكنه يصف الجرائم بمتعة خاصة، وكأنه من قام بارتكابها.. فهو يغدق على التفاصيل كمية وافرة من الدماء.. فمع كل ضربات الفأس التي انهال بها راسكولنيكوف على جسد المرابية العجوز لم تكن

هناك تلك الكمية الكبيرة من الدماء حسب وصفه.. وحتى في غرفة منزل نزهت حيث كانت جثتها مستندة إلى الأريكة لم أجد كل هذا القدر من الدماء، ربما لأنها جفت وربما لم أنتبه كثيراً للأمر بسبب هلعي.. على أي حال فحين اكتشفت جسد حبيبتي كنت عاجزاً عن مساعدتها على عكس مساعدي الشاب..

بدأت أقترب من أكين الغارق بدمائه بوجل، وكان يحاول التحدّث، ولكنه كلما حاول فتح فمه تندلق كمية أخرى من الدماء على أرضية الممر العارية كما جسد مساعدي العاري.. كان يكوّر ساعديه في بطنه في وضعية جنينية ربما لشعوره بالبرد، أو ربما لتفادي الضربات التي انهالت عليه.. "تلك اللحظات العصيبة التي يكابدها الجنين أثناء خروجه من رحم والدته، وذلك التغيير المفاجئ والقاسي في الظروف المحيطة به، يشكل أول صدمة يتعرض لها الإنسان.".. لم أسمح لكلمات شازية بأن تواصل تشتيت ذهني أكثر.. واقتربت من أكين لأتفحّصه عن قرب، وأتأكّد من أنه ما زال حياً، كانت يده اليمنى تتدلى كغصن مكسور لا يقدر على تحريكها، وكانت بقع بنفسجية أكثر قتامة من لون وشاح صديقه المعماري تغطي جسده، وخيط الدم المناسب من جسده يصل إلى آخر الممر، والبقعة المتجمّعة حوله داكنة وكأنها بدأت بالتجلّط وقد صبغت أرضية الخشب بلون يقارب السواد.. لا بدّ أنهم اعتدوا عليه بالضرب وهو على السرير وقد تركوه على هذه الحال ظناً منهم أنه قد مات، ولكن أكين كان أكثر قوة من توقّعاتهم، وقد اعتمد على الرمق الأخير من القوة التي يملكها للوصول إلى الباب الرئيسي، ومن الواضح أنه فعل أقصى ما بوسعه للبقاء على قيد الحياة.. غمرتني موجة عجز جديدة وأنا لا أعلم ما عليّ فعله، وأحسست بنفسي أكثر بؤساً من مساعدي الملقى على الأرض بجسده العاري الدامي، وبدأت أشعر بالدوار وبدأ العرق يتفصّد من جسدي بكثافة. أهي نوبة جديدة؟..

لا، لن أسمح لها أن تعصف بي الآن، فهذا الشاب المسكين بحاجة إليّ.

- آآآه..

أعادني أنينه إلى الواقع، وسحبت نفساً عميقاً، وحاولت أن أظهر له بأنني معه علّه يتمسّك بالحياة أكثر.. ولأنه لم يكن يستطيع أن يحرك عنقه باتجاهي، فلم يتمكّن من معرفة هوية هذا الشخص الذي يتجوّل من حوله، وأدركت بأنه يجب أن يراني

ليشعر بثقة أكبر، وفيما كنت أتّجه نحوه شعرت بجسم معدني تحت قدمي.. كانت سكيناً عادية من تلك التي نستخدمها لتقطيع الخبز، ولم تكن سكين فتح الرسائل..

وأخيراً تمكّن مساعدي من رؤيتي ولكنه بدا مستغرباً جداً، ومع كل أنين جديد كانت الدماء تزداد تدفّقاً، وحينها لاحظت أن جرحه في فمه وشاهدت قطعة لحم تتدلى هناك في تلك المغارة الدامية، يبدو أنهم جرحوا لسانه، وقد كانت كل تلك الدماء تتدفّق من ذلك الجرح.. راعني ذلك المنظر الرهيب والوحشية الدامية، وانتابت جسدي رعشة لم أستطع كبتها رغم محاولتي.. فمن يستطيع ارتكاب فظاعة كهذه.. وعلى الفور خرج مجنون المرآة من أعماق المغارة القابعة داخلي.

"لا أفهم سبب استغرابك.. فمن غرز تلك السكين في عنق نزهت، لن يردعه شيء عن ارتكاب جريمة أشد فظاعة..".

ولكنه اعتداء وحشي..

"وما الذي كنت تتوقّعه؟.. صفعة خفيفة مثلاً؟.. يا لك من أحمق يا مشتاق؟.. ألم تدرك حقيقة ما يجري حتى الآن؟.. ألم تدرك أنّ القوة هي معيار الحياة.. وأن الأقوى هو القائد وأن أهم لغة يتقنها البشر هي لغة العنف".

لم أعد قادراً على سماع ترّهات هذا المجنون الذي يطل برأسه كلّما سنحت له الفرصة، لذا أعدته إلى قعر مغارته، فلن أسمح له بالخروج متى شاء، ووضعت غطاءً محكماً على فم تلك المغارة..

وعندما رفعت رأسي هذه المرة التقيت بالفاتح، ولكني لم أستغرب؛ كانت لوحة زيتية يُقال إن الرسام الإيطالي بيليني هو من رسمها، وتُدعى بالسلطان محمد وابنه. والشاب الذي معه في اللوحة يقال إنه ابنه الأمير جيم.. قُتلت نزهت بسكين نُقِش عليها ختم السلطان، وها هي صورته مع ابنه تعلو جسد مساعدها الدامي.. لوحة الآباء والأبناء، أهي إحدى روايات دوستويفسكي؟.. لا أظن ولكنها تبدو لي عنواناً لرواية روسية ما..

"أحمق – نهرني والدي – فأنت تضيع الدليل الأهم.. فلا أهمية لرواية كهذه، المهم الآن أنّ الجريمة الثانية أيضاً ترتبط بشكل ما بالسلطان الفاتح"..

لقد كان والدي محقاً كما في كل مرة، فما سبب وجود السلطان محمد الفاتح

في مسرحي جريمتين مختلفتين؟.. أيعقل أن يكون صدفة؟.. أم أنّ هؤلاء الذين ارتكبوا هذه الجريمة الوحشية يحاولون إيصال رسالة ما؟.. ولكن لمن؟.. بالطبع لي، فمن أرسلني إلى هذا المنزل؟.. إنها تلك النحيلة الخبيثة التي كانت رسولاً من قبل عصبتها المجرمة.. كانوا يريدون مني رؤية هذه الوحشية كلها..

- آآآه..

ترافق صوته مع دفقة جديدة من الدماء، لذا كان عليّ التخلّي عن كل هذه الأفكار والتصرّف بشكل سريع.

- حسناً، حسناً يا بُني.. سنتّصل بالإسعاف فوراً. وأخرجت جوّالي.

- لقد اتّصلت بهم وسيصلون عمّا قريب..

أدرت رأسي لأجد تيومان واقفاً على بعد خطوات مني، وقد بدا الندم يلوح في عينيه. ولكن من الجيّد أنه تغلّب على خوفه واستطاع التصرّف بسرعة..

(20)

آخر السلاطين الذين دُفِنوا في بورصا

- أَلِموت تلك المرأة علاقة بهذا الاعتداء؟

كنّا جالسين أنا وتيومان على أحد المقاعد في ممرات مستشفى الأطفال، وقد التصقت ركبتاه وهو يكوّر القبعة في يده بعصبية واضحة.

- حين أخبرتني بذلك على الهاتف.. أعني مقتل السيدة نزهت.. أيمكن أن يكون من قام بقتلها هو نفسه من اعتدى على أكين؟

راعني سماع كلماتي من فم شخص آخر، ليس لأنني غير متأكّد، ولكن لأنه ما كان لي أن أعلن عن أمر بهذه الخطورة. فلا يهمني كثيراً ما يظنه هذا الشاب الجالس بالقرب مني، ولكن ما يثير مخاوفي هو ما ستفكر فيه الشرطة. فعدم وجود أي دليل سوى ظنوني التي قادتني إلى منزل الشاب ستعتبر مصادفة غريبة من قبل الشرطة... المهم أنني استطعت الوصول إليه قبل أن يناله مصير نزهت..

- سيد مشتاق – كان تيومان يلحّ عليّ بالسؤال – أتظنّ أن من اعتدى على أكين، هو من قام بقتل السيدة نزهت؟

لم يكن يتحدّث بتلك العنجهية التي حدّثني بها عند لقائنا أول مرة، ولكن بعد زوال آثار الصدمة عنه، عاد شيء من التعجرف ليتسلّل إلى صوته. يبدو أنه عاد إلى طبيعته.

- في الحقيقة لست متأكّداً – أجبت وأنا أنظر إلى الباب وكأن مساعدي اللطيف سيقبل علينا وعلى فمه ابتسامته المعهودة – لا أحد يستطيع إخبارنا الحقيقة سوى أكين.

لم يطمئنه جوابي المتهرّب وبدأ يحك رأسه الكبير كمن يحاول التركيز على ما سيقوله.



- ولكن الحادثتين قد وقعتا في المساء ذاته – وفجأة أدرك أنه لم يسألني السؤال الأكثر أهمية – ولكن كيف عرفت أن أكين تعرّض لسوء ما؟

كان سؤالاً دقيقاً جداً.

- خمّنت.. – سكتت لبرهة لأعطي صدقيّة لكلماتي – كل ذلك كان مجرد تخمينات.. فعندما علمت بموت نزهت اتصلت بأكين للحصول على بعض المعلومات، ولكنه لم يرد على مكالماتي وهنا بدأت أشعر بالقلق، وواصلت الاتصال طوال الوقت دون أن يرد علي، لذا بدأت أشعر بالخوف، وخطر لي الذهاب إلى منزله..

- لماذا لم تذهب إلى الشرطة؟

نظر إليّ وعيناه غارقتان في الشك وكأنه يقول ما الذي تخبئه أيها العجوز وما دورك في كل ما يجري، وربما هذا ما خُيّل لي.. فقد كانت الريبة في كل ما حولي تتسلّل كخيط من السم إلى ذهني.." الخونة تعصف بهم الشكوك".. ولكن ما علاقة الخيانة بالأمر؟.. فأنا لست خائناً، كما أن التطورات الأخيرة ترجّح عدم تورّطي في مقتل نزهت، ولكنني لم أكن في وضع يسمح لي بالتحدث صراحة مع المحقّق نفزت ولا مع هذا الشاب المعماري الذي كان محقًّا في شكوكه، لذا حاولت المراوغة..

- لم يكن هناك فول لنتقاسم المحصول – قلتها ببراءة وأنا أرفع كتفي – لو ذهبت إلى الشرطة لما صدقوني، وكما أظن في هذا النوع من الشكاوى لا تستجيب الشرطة إلا بعد مرور وقت محدّد أظنه يومين..

يبدو أنه صدق، لذا أخفض بصره وأخذ يتفحّص جزمته الملوّنة، وقد انعكس الضوء على صلعته البرّاقة.

- أرجو ألاّ يموت أكين..

بدا صوته مهموماً وكأنه على وشك البكاء..

- لن يموت – تعمّدت أن أتحدّث بنبرة قاسية بعض الشيء وكأنني أنهره، فقد قرأت في مكان ما أن الحزم في مواقف كهذه أفضل من الضعف – لقد سمعت الطبيب يقول أن لا خطر على حياته. سيقومون بخياطة جرح لسانه، ويعالجون كسر يده، أما الضربات الباقية فهي مجرد كدمات ستُشفى خلال

وقت قصير..

بدت كلماتي تزيد من ألمه وأخذ وجهه يتقلّص.

- سيخيّطون لسانه؟ عندما سمعت هذه الكلمات من الطبيب أحسست بقشعريرة تجتاح كل بدني، يا له من أمر رهيب حقاً..

وجدتني مضطراً لمواساة هذا الشاب المسكين.

- لن يؤثر عليه الأمر. ربما سيشعر ببعض الألم، ولكنه سيشفى تماماً مع مرور الوقت.
- وماذا عن النزيف الداخلي؟ يبدو واضحاً أنه لم ينل نصيبه من التفاؤل وها هو يجلس كبومة تحصي محصولها من الفجائع بتلذّذ مازوشي.
- إنه تحت مراقبة الأطباء وإشرافهم، وإن حصل مكروه ما سيتصرّفون على الفور.

بدا وكأنه يودّ التصديق.

- سيفعلون ذلك بالتأكيد - كان ينظر إليّ وهو بحاجةٍ لجرعةٍ أخرى من التطمين - فأنا أخاف المستشفيات كثيراً، بسبب الحوادث والأخطاء المرعبة التي تحصل فيها أحياناً..
- الحوادث والأخطاء المرعبة تحدث في كل مجال، فنحن نسمع أخباراً مرعبة عن المؤرخين والسياسيين وأفراد الجيش وعن مهندسين معماريين.. لا توجد مجموعة بشرية لا نسمع عنها أخباراً مرعبة، ولا يوجد تجمع سياسي أو اجتماعي لا يثير الفضائح بين الحين والآخر.. لذا لا يوجد باليد حيلة سوى التحمّل والتأقلم مع الوضع، والوسيلة الأنجع لتحقيق ذلك هي التفكير الإيجابي والتفاؤل..

حاولت مواساة الشاب غير مقتنع بكلماتي وأنا أفكر بوجود فلسفة حول هذا النوع من الخزعبلات الفكرية.. "تفاءلْ بالخير تجدْه".. فلو افترضنا أنني تفاءلت فهل ستعود حبيبتي إلى الحياة مجدّداً؟.. هل سينتهي الجوع والفقر في العالم؟.. هل ستنتهي مآسي البشرية؟.. ولكن هناك الكثير من الأشخاص الذين يفكرون بهذه الطريقة ويؤمنون بها، والغريب أنها تجدي نفعاً، فهي تساعدهم على البقاء سعداء

رغم كل شيء.. ولا أجد ضيراً من اللجوء إليها الآن لإسكات الشاب الجالس بقربي.

- لم أسمع شيئاً من هذا القبيل حول هذا المستشفى، وعلينا أن نكون ممتنين لأننا استطعنا الوصول إليه قبل أن يقع الأسوأ.. فماذا لو تأخّرنا في الوصول؟.. ماذا لو كانت حالته أسوأ بكثير؟..
- أرجوك لا أريد أن أفكر على هذا النحو.. - قالها وهو يكور القبّعة في يده بتوتّر ظاهر - كل ما أرجوه أن يُشفى أكين بسرعة..

لم يستطع أن يكمل فقد خنقته العبرات ومنعته من الحديث.. وكان آخر ما أتمناه هو أن يبدأ بالبكاء الآن. ويبدو أنّ نميمة الجارة العجوز كانت في محلها، فهناك رابط عاطفي بينهما، وقد تكون مجرد صداقة.. على أي حال ليس هذا بالأمر المهم..

نظر إليّ وقد اغرورقت عيناه بالدموع وهو يقول:

- شكراً لك، فأنت شخص طيّب القلب. قالها وهو يمسك بيدي.

أخشى بأنك مخطئ في هذه النقطة يا عزيزي، فلو كنت بالفعل شخصاً طيب القلب، لكنت اتصلت بمساعدي القديم ولو لمرة واحدة قبل تورطه في كل هذه المشاكل.. فأنا أعلم أنني لم أكلّف نفسي عناء الاهتمام به على الإطلاق، ولم أكن الشخص الذي تتخيّله السيدة بديعة وجارتها العجوز، وقد كانت مساعدتي اليوم لأكين مجرد مصادفة، ففيما كنت أحاول النجاة بنفسي تعثّرت بجسده الدامي..

- أكين شاب لطيف - سحبت يدي بهدوء - وأنت أيضاً كذلك، فمجيئك إلى هنا معه دليل على طيبة قلبك..

سقطت دمعة يتيمة على ظاهر يده وهو يقول:

- لا أهمية لذلك، فأنا مستعد لفعل أي شيء من أجل أكين.. أتعلم بأنني لا أدفع له إيجار المنزل منذ أكثر من عام، فقد فتحت مكتبي مؤخراً والعمل ما زال في بدايته.. وحتى عندما عاد من بريطانيا لم يطلب مني أن أترك المنزل، وأخبرني أننا يمكننا البقاء سوية - بدا وكأنه يستعيد شريط الذكريات ويواسي نفسه بمواصلة الحديث عن أكين بهذه الطريقة - كان ينوي الذهاب إلى أميركا بعد أشهر عدة، فقد وعدته السيدة نزهت بأن تؤمن له وظيفة في جامعة شيكاغو، على الرغم من أنه كان يفضل العيش في سان

فرانسيسكو، التي وكما تعلم، تعتبر جنة للمثليين جنسياً بالمقارنة مع غيرها، وقد أخبرني أكثر من مرة بأن الحياة في سان فرانسيسكو لا تُقارن بالحياة في شيكاغو أو سواها، كما أنّ لديه كثيراً من الأصدقاء الأتراك هناك وقد أنشأوا مجتمعاً خاصاً بهم، ولكنه كان يواسي نفسه بحفلات موسيقى الجاز التي تقام في شيكاغو على الدوام، فقد كان يعلم أسماء جميع العازفين الذين يعزفون في الحفلات السنوية، كان مغرماً بموسيقى الجاز ويشعر بالأسى لأنه لم يتقن العزف على آلة موسيقية..

- لقد حاول.. كان صوتي ضعيفاً وحزيناً بشكل ملحوظ.
- عفواً؟..
- أعني أنّ أكين حاول العزف على الترومبيت وقد خضع لدورة تدريبية لعدة أشهر، ولكنه كان يقول لي "لا أملك الموهبة الكافية يا أستاذ، ولا داعي لإرهاق نفسي بإصرار لا طائل من ورائه.." وأظنه ترك الاهتمام بالأمر منذ ذلك الحين.
- لا، فلديه آلتا ترومبيت في المنزل، حتى أنه قبل يومين ظل يعزف حتى ساعة متأخرة من الليل ويصدر تلك الأصوات المزعجة التي لا تشي بلحن ما، ولكنني أظنه سينجح في النهاية، ومن يعلم فربما كان سيصبح فناناً لو لم يصرّ والده الطاغية على دراسة التاريخ، فقد كان الأب سمساراً ولا علاقة له من قريب أو بعيد بالتاريخ.. لا بدّ أنه أخبرك بكل هذا من قبل.

لا، لم يخبرني شيئاً، ولم أكن مهتماً لا بأكين ولا بوالده السمسار، ذلك لأنني شخص أناني، وأستاذ سيئ وصديق أسوأ لا يهتم سوى بأموره الخاصة.

- أظنّه حدّثني عن الأمر - دمدمت متعثّراً - فأنا أتذكّر شيئاً من هذا القبيل.
- أنا متأكد من أنه حدّثك عن الأمر، فقد كان والده يمارس عليه ضغوطاً هائلة - ضحك بخفوت قبل أن يكمل - والمفارقة أن أول شخص مارس معه الجنس كان مدرس التاريخ الخصوصي.. فالرجل سلم ابنه للشخص الذي سيعلمه تاريخ أجدادنا المجيد، ولكنه اتجه به في منحى آخر تماماً..
- وفجأة سكت وقد أدرك أنه تجاوز حدود اللياقة بكثير - أعتذر منك سيد

مشتاق، أعتذر كثيراً. فأنا لا أعني كل أساتذة التاريخ بكلامي هذا..

حينها تذكرت نيفين بشعرها الأحمر الأجعد وعينيها الواسعتين وشفتيها الشهيتين وصدرها المكتنز وتلك البشرة الناعمة التي كانت تسبب لي تخيّلات مجرحة.." أحقاً فارق العمر مهم إلى هذه الدرجة يا أستاذ؟.." قالتها دون أي نظرة ماجنة في عينيها.. فقد عادت من ألمانيا منذ عامين وكانت تلميذة مهتمة بالتاريخ بشكل جدي، ومنذ الجلسة الثالثة بدأت تشعرني بأنني أروق لها، رغم أنني لم أفهم ما الذي يجذبها إلى شخص يكبرها بعددٍ لا يُستهان به من السنين، ويبدو فاقداً الرغبة في كل شيء، ربما هي رغبتها في إعادتي إلى الحياة مرة أخرى؟.. على أي حال فقد كانت صريحة في إبداء إعجابها بي، بينما كنت أصفرّ وأخضرّ كلما رأيتها، إلا أنّ خجلي هذا لم يشكل عائقاً أمامها، وأخيرا لم تجد بُدّاً من الإفصاح عن رغبتها بكل صراحة.. "لا رغبة لي بهذه الأشياء يا نيفين..".. تكلّمت بخجل شديد وكأنني أنا من يصغرها بخمس وعشرين عاماً.. "وما هي الأشياء التي ترغب فيها يا أستاذ؟.." لم تكن تسخر مني أو تحاول استدراجي إلى الاعتراف.. "تلك الأشياء التي تلمّحين إليها، أظنك تفهمين ما أعني".. وأكملت وأنا أشدد على كل كلمة أقولها.. "أنا راضٍ تماماً عن حياتي ولا أريد ارتباطاً من أي نوع..".. ولكن ليتني كنت راغباً، وليتني لم أصدّ رغبتها، فربما كان مسار حياتي برمته تغير، ولما كنت أجلس الآن في ممر المستشفى الكئيب أواسي شاباً تعرّفت إليه للتو، وأبعد عن ذهنه فكرت ارتباط ما حصل لصديقه، بجريمة قتل حبيبتي.. ربما لو تزوجت من نيفين وأنجبت منها أطفالاً، لنجحت عائلتي الصغيرة في إعادتي إلى الحياة مجدّداً، لكنني لم أكن أستطيع تقبّلها كحبيبة، وأظنني فعلت الصواب بابتعادي عنها.. "على الرغم من كل شيء فهذا الطفل يتمتع ببعض من طيبة القلب".. بالطبع كنت كذلك، ولهذا السبب أدركت عواقب ارتباطي بفتاة مثلها، فليس فارق العمر فحسب كان ليخلق مشاكل بيننا، بل نظرتنا للحياة وأسلوبنا في عيشها.. فأنا كنت خريفاً حزيناً وهي الربيع، ولا أمل في أن نلتقي معاً..

– على الرغم من أنّ أفلاطون أيضاً كان تلميذ سقراط..

كان تيومان يواصل إصلاح خطئه.

– وكان سقراط يعلّمه مبادئ التاريخ والحب في الوقت ذاته.

- الفلسفة – صحّحت له – لم يكن سقراط مؤرخاً بل فيلسوفاً..

احمر وجهه الدائري الممتلئ خجلاً.

- آآه – تلعثم قبل أن يكمل – لا بدّ أن هذه الحادثة شوشت أفكاري، على أي حال، ما أريد قوله هو أنّ هذا النوع من العلاقات كان يعتبر شيئاً طبيعياً في أزمنة أخرى..

ما الذي كان يريد الوصول إليه من كل هذا الحديث؟.. هل كان يتحرّش بي بطريقة خفية؟.. لا، لا أظن ذلك.. لحظة، لحظة.. فتلك النظرات الملغزة في عينيه لا تبشر بالخير مطلقاً، فهل كان هذا المعتوه يظن بوجود علاقة بيني وبين أكين مثلاً؟.. لا، لا أعتقد أنّ أكين سيخفي عنه أمراً كهذا لو حدث بالفعل.. لقد كان يواصل الثرثرة التي بدأت تثير توتري وتزيد من الصداع الذي ينتابني لذا حاولت قطع الطريق عليه.

- إنّ العلاقة الفكرية بين سقراط وأفلاطون والأفكار التي تمكّنا من اكتشافها والتي أسست للفلسفة كعلم قائم بذاته كانت أهم من أي علاقة أخرى بينهما، كما أنّ ميولهما الجنسية لا تعنيني على الإطلاق..

لا بدّ أنه أدرك ما أرمي إليه لذا بقي صامتاً للحظات، ولكنه يبدو غير قادر عن الكف عن الثرثرة في اللحظات التي يكون فيها بعيداً عن عجرفته..

- هذه المرأة التي ماتت.. أعني السيدة نزهت.. أكانت من أقربائك؟

لا أستطيع إنكار الأمر، فأكين الثرثار قد أخبره بالتأكيد بقصة حبنا التي تردّدت الأقاويل حولها لسنوات طويلة في أروقة الكلية. ولكنني لم أشأ من جهة أخرى التورّط في إجابة تفتح عليّ أبواباً من الثرثرة.

- لقد كانت صديقة مقرّبة – حاولت اختيار أقل الإجابة خطراً – وقد عملنا معاً لفترة طويلة. ليرحمها الله فقد كانت امرأة طيبة القلب، ومؤرخة بارعة – أجل كانت كذلك بالفعل، حينها أدركت أنني يجب ألاّ أضيّع الفرصة من يدي وحاولت الإمساك بطرف الخيط – بالمناسبة سيد تيومان، ألم يخبرك أكين عن المشروع الذي يعمل عليه، أعني المشروع الذي يساعد نزهت فيه؟

- لا، لم نكن نتكلم عن العمل كثيراً في البيت، لأننا نادراً ما نلتقي.. – التمع

بريق لعوب في عينيه وهو يكمل - فأنا أحب السهر وقضاء معظم وقتي خارج المنزل، لذا لم يتسنَّ لنا البقاء معاً سوى في صباحات أيام العطل، ولم نكن حينها نتحدث عن العمل. ولن أخفي عليك سراً بأنني لا أميل إلى التاريخ كثيراً - تمهّل للحظات قبل أن يكمل - ولكنني أذكر شيئاً متعلّقاً بمقبرة ما.

أصابتني القشعريرة وأنا أسمع هذه الكلمة.

- مقبرة؟

- أعني قبر أحدهم، فقد كانوا ينوون فتح القبر، ولكنهم كانوا بحاجة إلى موافقة من دائرة الآثار، وكان أكين ينوي الذهاب إلى بورصا.

لقد كان قبر مراد الثاني هناك، في باحة الكلية المرادية.. ولقد ذهبنا أنا ونزهت إلى هناك ذات مرة، حيث ترقد القبور بسكينة تحت الأشجار التي تضرب جذورها في عمق التاريخ.. كان يوماً خريفياً مثالياً حيث تغطي الأرض طبقة من الأوراق التي بدلت بخضرتها حمرة ذهبية، وتهب نسائم رطبة على المكان، وكانت أسراب الحمام تتناوب في التحليق فوق الفسقية التي في باحة الجامع، .. وكانت عينا نزهت تفيضان سعادة رغم أنني استشعرت الكآبة تلف المكان برمته، فقد كان صمت الهجران يخيم عليه. فبعد كل ذلك المجد ومظاهر الحياة العامرة بالصخب والأحداث كان صمت القبور هو ما يسود الآن، ليشير إلى الحقيقة التي نتجنّبها على الدوام، وهي أنّ كل شيء إلى زوال، وأنّ كل أولئك الأشخاص الذين عاشوا قمة المجد، وغيروا من مجريات التاريخ يرقدون الآن تحت التراب لتمتزج أجسادهم مع التراب والماء والهواء الذي نتنفس، وأنّ اللحظات المفصلية التي مروا بها في حياتهم تحوّلت مجرد سطور نقرأها في كتب التاريخ.. لم يكن السلطان مراد فقط من يرقد هناك، بل أيضاً ابنه المفضّل علاء الدين علي، وقد حرص السلطان محمد الفاتح على تنفيذ وصية والده "فليكن قبري بجانب قبر ابني علاء الدين علي، وليسوّر قبرانا بأربعة جدران، وليبقَ سطح القبر مفتوحاً لكي تغدق علينا السماء أمطارها، ولا أريد أن يُدفن أحد بالقرب مني أنا وابني، دعونا نرقد هناك بسلام..".. وقد دُفنت هنا شخصيات أخرى من التاريخ العثماني، كالسلطانة هُمّا خاتون والدة السلطان الفاتح، والأمير مصطفى،

والسلطان جيم الذي عاش حياة بائسة.. وكان السلطان مراد الثاني آخر السلاطين العثمانيين الذين دفنوا في بورصا عاصمة الدولة السابقة.

إذاً فقد كان القبر الذي تهتم به نزهت هو قبر السلطان، ومن الواضح أنهم كانوا ينوون فحص بقايا عظامه. ولكن الأستاذ لم يكن مقتنعاً بأنّ هذا هو جوهر الأطروحة التي تعمل عليها نزهت. وكلمات تيومان تثبت تورطها في هذا المشروع.. وأتمنى أن يتمكّن أكين من التحدث بأسرع وقت ممكن..

حينها أدركت مدى وضاعة نفسي، فبدل من أن أتمنى له الشفاء، أحاول انتهاز الفرصة التي منحني إياها صديقه تيومان.

- ولكن لماذا كانوا ينوون فتح القبر؟.. هل حدّثك أكين عن الأمر؟
- بالطبع حدثني.. فقد كانوا يبحثون عن شقيقي الأصغر.
- كيف؟ ما العلاقة بين شقيقه وسادس السلاطين العثمانيين.
- شقيقي تيكين طبيب شرعي- أوضح لي وهو يكمل- وكانوا يريدون الاستعانة به وطرح بعض الأسئلة عليه.
- عن أي شيء؟
- عن الطريقة التي مات بها صاحب القبر.
- ولكن من هو؟
- هذا ما لا أعرفه، ولكنني أظنه أحد شخصيات التاريخ.

لم يبدُ متأكداً، أيُعقل ألا تكون ظنوني في محلها؟

- بالطبع هو كذلك؟.. - واصلت سرد أفكاري بصوت مرتفع - فلمَ سيهتم مؤرخان بقبرٍ ما، لو لم يكن له علاقة بالتاريخ؟ ولكن ألم يذكروا أي أسماء أمامك مثل مراد الثاني أو محمد الثاني؟..

نظر إليّ ببراءة وهو يجيب:

- لا أذكر ذلك، فقد كانوا مهتمين بالناحية التقنية..
- ما الذي تعنيه بالناحية التقنية؟.. أتعني تاريخ الوفاة ومكان القبر؟..
- لا لا، كانوا مهتمين بطريقة الوفاة إن كانت طبيعية أم أنه مات مسموماً.. ولكن ما كان اسم ذلك العلم الذي أخبرني به أكين.. - تريث للحظات قبل

أن يكمل – أجل التوكسيكلوجيا، أو ربما شيئاً من هذا القبيل..

- أتعني علم السموم؟.. وهل تأكدوا من أنّ صاحب القبر مات مسموماً؟
- لا أعلم فكما أخبرتك لم أكن مهتمًا بالأمر كثيراً.

أحسستني عدت لتقمّص دور المحقق، وقد ورثت هذا الهوس عن والدي. ولمّا كنت أخوض غمار جريمة حقيقية فلا بدّ لي من فك لغزها بشكل صحيح.. ولكنني أدركت أنني أبالغ في الاعتماد على قدراتي، فأنا لم أتمكن حتى الآن من فك لغز ساعات الظلام في ذاكرتي بعد، لأتمكّن من فك لغز جريمة بهذا التعقيد، وعدت إلى متابعة الأسئلة علّني أصل إلى بصيص نور.

- وهل يعلم شقيقك من هو صاحب القبر الذي ينوون فحص عظامه؟

عاد للصمت للحظات قبل أن يجيب:

- لا أظن ذلك، فقد كنت موجوداً حين تحدّث مع أخي عبر الهاتف، ولو ذكر اسم أحد السلاطين لبقي الأمر معلقاً بذهني..
- حسناً، وهل تتذكّر ما الذي تحدّثوا عنه بالضبط؟

بدأ يرمقني بفضول ينتابه الشك.

- لِمَ تسألني كل هذه الأسئلة؟.. هل الأمر متعلق بالاعتداء الذي تعرض له أكين؟

هيا أيها المحقق الحذق أخرج من هذه الورطة إن استطعت.. ولكن صوت والدي أسعفني هذا المرة وهو يأتي من خلف خبايا الذاكرة "لا تنسَ أنّ أنسب الأجوبة هو أبسطها، بحيث لا يسبب التشوّش ولا يثير الشكوك، ولا يفضي إلى أسئلة جديدة.

- ربما.. – قلتها وأنا أتصنّع التفكير العميق والتفجّع على ما يحصل – فأنا أحاول إيجاد أجوبة لكل هذه الألغاز.
- فهمت.. لقد سأله أكين عن إمكانية التأكد من الطريقة التي مات بها صاحب القبر إن كانت طبيعية أم عن طريق السم، وقد أجابه أخي بأن الأمر يتوقّف على بقايا الجثة المتوفرة، أي بقايا الشعر والعظام والأظفار.. هذا ما فهمته من الحديث.

وفيما هو يتكلم أوقع قبعته على الأرض فرفعها بضيق وهو يقول:



- اللعنة.. – وبعد لحظات أدرك أنني ما زلت أنتظر بقية الحديث فأكمل وكأنه تلميذ ارتكب خطأً أمام أستاذه – عفواً.. ولكن بحسب ما أذكر فهم لم يتمكّنوا من فتح القبر ولم يعاودوا الاتصال بتيكين مرة أخرى، وربما تخلوا عن الفكرة برمتها – ولكنه لم يكن متأكداً فرفع كتفيه دلالة الحيرة – لست متأكداً سيد مشتاق، والشخص الوحيد الذي من الممكن أن يجيبنا على هذا السؤال هو أكين..

(21)

أهناك أسوأ من روح أسيرة؟..

عندما خرجت من مستشفى الأطفال لسعتني رياح باردة جداً كسوط، وبت أخشى أن يتساقط الثلج من جديد. ولكن، حمداً لله، فالرياح الجنوب شرقية التي تهب كانت تمنع الغيوم من التكتل، لتفرقها بعضها عن بعض وتهدينا قبة سماء مرصعة بالنجوم. ولم نكن بحاجة سوى لهطول زخّة مطر غزيرة لتهدأ هذه الرياح التي تعصف بعظامنا.. ومع ذلك فقد كانت هذه الرياح أفضل من الثلج وقد كانت خير علاج لتنفض عن روحي الكرب الذي تلبّسني في المستشفى حيث بذل تيومان تضحية لم أتوقّعها وهو يقول:

– اذهب أنت سيد مشتاق وسأبقى أنا هنا وأطمئنك عنه..

ولكنني لم أستطع المغادرة قبل انتهاء العملية، وفي تلك الأثناء كان لا بدّ لنا من الإجابة عن أسئلة الشرطة حول ملابسات الحادث، وحرصت على عدم التطرق إلى مقتل نزهت، وفي اتفاق غير معلن بيننا سار تيومان على خطاي ولم يخبرهم شيئاً عن الأمر.. ولكن كيف سأواجه نفزت عندما يعلم أنني تعمّدت إخفاء الأمر عنه؟.. "هذا اللعين مشتاق لديه مقدرة خارقة على إخفاء ما في ذهنه ولا يثق بأحد على الإطلاق.." أياً كان صاحب هذا المدح فهو محق، فكيف لي أن أثق بالناس وأكثر شخص أحببته في حياتي قد صوّب نحوي أكثر السهام قتلاً، فيما يحاول الأستاذ طاهر الذي اعتبرته بمنزلة والدي طوال هذه السنوات توريطي في الجريمة من خلال مؤامرة قذرة.. الكل يسعى وراء مصالحه الخاصة.. إلا أنّ المحقق نفزت يبدو رجلاً لا بأس به.. أحقاً هو كذلك؟.. ما الذي أعرفه عنه؟.. عليّ ألا أثق إلا بنفسي.. وبعيداً عن الدروس التي استخلصتها من الحياة، كان عليّ التفكير في ما سأقوله للشرطة حين تربط بين الجريمتين، خاصة وأنّه مساعد نزهت. على أي حال أظن الشرطة لا تعلم بعد أنه

كان مساعداً لها وإلا لكانت حققت معه كما فعلت معي.. ولكن لا مهرب من الأمر فالمحقق نفزت سيعرف عاجلاً أم آجلاً كما سيعرف أنني أول من وجد أكين وأنه كان مساعدي كما كان مساعد نزهت.. يا إلهي كلما تراكمت الأشياء التي أخفيها عنه زادت الشبهات ضدي.. أنا أبحر في قارب مثقوب من جميع الجهات وما لم أجد طريقة لسدِّها سأغرق قريباً بكل تأكيد..

كان يوماً خريفياً وكنا على شاطئ جزيرة بيوك أدا (جزيرة الأميرات) والبحر يتماوج على وقع النسائم.. كنا جالسين في قارب استأجرناه أنا وهي، وكنا ننوي صيد السمك ولكن القارب كان مثقوباً وقد وصل ارتفاع الماء فيه مقدار أصبعين، ولم نكن نعلم مكان الثقب، فعدنا بسرعة إلى الشاطئ دون اصطياد أي سمكة، وقد انتابنا خوف وذعر كبيران حتى وصلنا الشاطئ.. ولكن ما حصل حينها يعتبر مجرد دعابة مقارنة بالرعب الذي ينتابني حيث الدماء تغرق قاربي بدل الماء، وفي كل لحظة تنفتح ثقوب جديدة ومن الواضح أنني بعيد عن الشاطئ بعداً مرعباً.. خرج الطبيب من غرفة العمليات وعلامات البشر على وجهه حيث أخبرنا أنّ جرح اللسان ليس عميقاً كما خُيِّل لنا، وهناك كسر واحد في ضلعه بالإضافة لكسر يده، وأما الطعنات التي تعرض لها في وركه والتي لم ننتبه لها في حينه فقد تمت خياطتها وستشفى خلال فترة قصيرة، حينها أحسست بأنها إشارة قدرية تدعوني للتفاؤل فبعد كل تلك الطعنات والدماء هناك أمل بالشفاء، وأرجو أن أخرج أنا أيضاً معافى من هذه المصيبة. وبدأت تراودني الآمال بمعرفة حقيقة ما حصل حين يسترد أكين عافيته ويتمكّن من التحدث ويخبرنا عن الفاعل وعن المشروع الذي كانت تعمل عليه نزهت..

بدا لي والدي بجسده الضخم في واجهة أحد المحلات التي تعرض ثياب شارلوك هولمز حين مررت قربها، وكان يواصل سرد تعليماته كما على الدوام:

"انتبه، فهذه نقطة مهمة يا مشتاق، فإن علمنا سبب حدوث الجريمة سنصل للمجرمين بكل سهولة..".

كنت أود تصديقه واعتبار كل كلمة يقولها دستوراً مقدساً، وتذكرت نفسي قبل أربع وعشرين ساعة وأنا أسير لاهثاً على الطرقات ذاتها التي غطاها الثلج، أتعثّر بين الفينة والأخرى، وأنا أحاول الابتعاد بأقصى سرعة عن منزلها.. وها أنا ذا الآن أسير

بثقة أكبر، فلست من قام بالاعتداء على أكين، وأكثر من ذلك لست من قام بارتكاب الجريمة أيضاً.. ومن يعلم فربما قام ذهني المشوّش بالحب ونوبات الظلام وعذابات الضمير بحياكة قصة يتداخل فيها التاريخ بالحاضر والسلطان الفاتح مع عودة حبيبتي القديمة، لأبعد عن نفسي الجريمة التي ارتكبتها لأسباب عاطفية بحتة، كأي جريمة اعتيادية مكرورة حتى الغثيان.. ولكن لماذا يحاول المحقّق نفزت أيضاً البحث في موضوع المشروع الذي كانت تعمل عليه؟..

"أتعتقد أنّ السيدة نزهت استطاعت الربط بين قتل الأب والسلطان الفاتح أستاذ مشتاق؟.. برأيك هل توصلت إلى دليل يثير غيرة كل زملائها حول حقيقة الفرضية التي كانت تنوي طرحها؟..".

لا أعلم ذلك ولكن لو قمت أنا بقتل نزهت فمن اعتدى على أكين؟..

"بالطبع أنت.. فلا أحد سواك المذنب في حال حدوث أي خطأ..".

من كان يردّد على مسامعي هذه الكلمات الثقيلة؟ أهي خالتي؟

"أنت المذنب، فلو لم تدفع شازية لما أسقطت من يدها كأس عصير الكرز القاني على غطاء الأريكة الأبيض الدانتيل أيها الشقي..".

ولاحت أمام ناظري وذاكرتي يدان صغيران ترتجفان وعينان زاد الرعب من اتساعهما وجسد صغير لطفل يحاول الاختباء في حضن والدته التي بدت عليها خيبة الأمل:

"لماذا دفعت شازية يا مشتاق؟..".

لا أعلم ذلك، ربما لأنني طفل صغير وربما اصطدمت بها حين كنت ألعب، ربما كان مجرد حادث..

"ما زال يحاول تبرير فعلته الشنيعة بعد أن أتلف أغطية الأريكة كلها..".

أجل كانت تلك الأغطية اللعينة موروثة عن جدة من جداتها وكانت خالتي الشمطاء مصرّة على معاقبتي أشد العقاب بسبب تلك الحادثة..

"لا تفعلوا ذلك حباً بالآلهة، فالعقوبة لا تعلّم الطفل شيئاً ولكنها تروّضه فقط..".

لم تكن هذه المقولة لوالدتي أو جدتي. إنه فريدريك نيتشه، ذاك الرجل ذو الشارب الكث والذي كان يعاني من مشاكل نفسية مثلي، بل من مشاكل عقلية أيضاً،

ولكن ما الفرق فكلها تودي إلى الجنون.. ويبدو أن كل من يهتم بسبر أغوار روحه سيواجه مشاكل نفسية بكل تأكيد كفرويد وستيفان زويغ ونيتشه وسواهم.. ففي سبيل التخلّص من مخاوفهم أصابتهم لوثة عقلية.. أجل المخاوف، فالخوف يحوّل الإنسان مخلوقاً غريباً والأكثر فظاعة أنه يجعله حبيس جدران يصنعها هذا الخوف بالذات.. أهناك ما هو أسوأ من روح أسيرة؟.. فتلك العيون التي عاشرت الرعب كل لحظة، ورجفة اليدين لدى كل حركة والجسد المحاط بأسوار الخوف.. ذلك الطفل الذي نشأ وهو يخاف من الشارع والناس وحتى الهواء.. كان هو آخر أحفاد السرهزينيين ولهذا السبب...

- ولهذا السبب اتُّهمت.. لأنك جبان..

لم يكن والدي بل رجل يرتدي عمامة وجبة سوداوين، ويقف تحت الإشارة الضوئية..

معه حق، فمخاوفي تمنعني من أداء واجباتي تجاه الحياة التي تتطلّب القوة والجرأة اللتين أفتقد لهما، ولهذا السبب فالجبناء أول المتهمين، وهم يحاولون إخفاء كل شيء، وإلا فما الذي دفعني لإخفاء الأدلة التي وجدتها في بيت نزهت، ولم أتحلَّ بالجرأة للاتصال بالشرطة ولا بالثقة لإبعاد التهمة عن نفسي. وإن لم أُسجن بسبب ارتكابي للجريمة فسأُسجن بسبب خوفي الذي ورّطني في ملابسات أنا في غنى عنها..

رجل الجبة السوداء محق وأنا جبان حقاً ولا أستطيع إبعاد هذه التهمة عن نفسي، وأما تهمة القتل فهذا حديث آخر، وأظنني سأحاول المستحيل حتى أثبت براءتي، فأنا لا أنوي دخول السجن بدل شخص آخر، ولكن من هو هذا الشخص الآخر؟.. أهو سيزجين؟ لا أستطيع أن أتخيّل أن ذلك الطفل البدين ذا الشعر الأجعد الجميل قد تحول إلى مجرم وقتل أقرب الناس إليه، وها هو الآن يقبع في إحدى غرف السجن الباردة.. كيف لم يخطر لي أن أسأل المحقّق نفزت عن سير التحقيق معه؟.. ولكن، يا لغبائي فبالتأكيد لن يخبرني بذلك. فحتى في حديث عادي مع الأستاذ طاهر طلب مني الابتعاد، فكيف بأمر على هذا القدر من الأهمية.. وفي حال ثبتت براءته سأكون المتهم به الثاني في هذه الجريمة. ولكن لا، فهناك الأستاذ وعصبته الذين يحتلون

المركز الثاني في القائمة السوداء.. ولو كنت محققاً في الشرطة لأدركت أنّ الأدلة تشير إليهم فأنا أملك منها ما يكفي لتجريمهم بكل بساطة..

"اسمع سيادة المحقّق، ربما لم يكن الأستاذ متورّطاً في الجريمة لكن مساعديه متورّطون، رغم أنني أؤكد لك أن لا نية سيئة لديهم فكل ما فعلوه من أجل حماية تاريخنا ورموزه العظيمة من التدنيس.. تماماً كما فعل نامق كمال بسرده الرومانسي لوقائع التاريخ وإضفائه هالة من القداسة على شخصياته والتعامي عن الأخطاء قدر المستطاع وعدم الحديث عنها وإخفائها تحت شتى الذرائع في محاولة لترسيخ المشاعر القومية، وهذا بالضبط ما دفعهم للتخلّص من نزهت..".

بدأت أشك في تورّط الأستاذ في الجريمة فهو أكثر من ساعدنا ولا يزال، ولكن مساعديه الثلاثة: جتين بسحنته البشعة، وإرول بلطفه الزائف، وتلك النحيلة بنظرات الأفعى التي تراقب بها الجميع والتي كانت السبب في اكتشافي لما أصاب أكين.. هؤلاء الثلاثة ربما كانوا وراء هذه الجريمة الوحشية التي أتخبّط في أوحالها منذ البارحة.. ولكن روح الإنسان مغارة عميقة يختلط فيها الخير والقسوة والرحمة والحب والكره.. فربما أوحت لي الفتاة بإنقاذ أكين وربما كانت تحاول تهديدي أيضاً.. ولكنها كما البقية وخاصة الأستاذ طاهر يعرفون جيداً طبيعتي المسالمة وبقائي بعيداً عن المشاكل على الدوام، وهناك احتمال أن يكون العجوز قد فقد زمام الأمور وقرر هؤلاء الثلاثة سحقي دون رحمة، لذا أعتقد أنه آن الأوان لمصارحة العجوز بكل ما أعرفه والبحث عن مخرج في حال لم يكن متورطاً. أعلم بأنني أخاطر بلف حبل المشنقة حول عنقي.. ولكن جميع الاحتمالات أفضل من هذا الصمت المريب الذي يلفني كالعماء.. عليّ أن أتحدث إليه وأصارحه بشكوك المحقّق تجاه جتين، خاصة بعد الذي جرى لأكين، حيث لن يتأخر الخبر في الوصول إليه.. أخرجت جوّالي وضغطت على رقم الأستاذ ولكن ما من مجيب، وكنت على وشك أن أقفل الهاتف عندما وصلني صوت واهن.

- أجل، تفضّل.
- مرحبا أستاذ، أنا مشتاق..
- أهذا أنت يا مشتاق؟ لقد غفوت على الأريكة.. كان يوماً سيئاً جداً؟..

لم يكن بالتأكيد يشير إلى المحاضرة التي ألقاها فهو لا يشتكي من عمله على الإطلاق، بل كان يعني التحقيق والسر الكبير الذي يثقل كاهله..

- أعتذر يا أستاذ، لم أكن أعلم أنك نائم..
- لا عليك، حسن أنك اتصلت الآن، لأن عنقي بات يؤلمني بشدة من نومي جالساً بهذه الوضعية، وأنت تعلم كم أتألم عندما أصاب بإحدى نوبات تشنّج الرقبة، حتى المرحوم والدي كان يعاني من هذه المشكلة، إنّه تصلّب موروث على ما أظن..

لو تركته فسيواصل سرد مشاكله الصحية دون انقطاع.

- أستاذ – قاطعته بأدب – أعلم أنني اتصلت في وقت غير مناسب ولكن..

– كنت أبحث عن الكلمات المناسبة، ولكنه فسر الأمر على نحو مغاير واعتبره اعتذاراً.

- لا تقل ذلك يا بُني فالوقت ليس متأخّراً، ويحق لك الاتصال حين تشاء، فليس عندي أقرب منك في هذه الحياة.

أهو صادق في ما يقوله؟.. إذاً لماذا يريد إيذائي؟.. ولكن المسكين لم يتعرّض لي بسوء طوال هذه السنوات، فهو على الدوام يعاملني بلطف وحتى أثناء علاقتي بنزهت كان باستمرار يقف إلى جانبي؟.. ولكن الوضع قد اختلف الآن.

- متى ستتم مراسم الدفن؟

أطاحت كلمة الدفن كل أفكاري، ولكنه واصل سرد حديثه.

- أتمنى ألا يكون في الغد، حيث لدينا جولة بمناسبة ذكرى فتح إسطنبول..

لا يريد أن يفوته أي نشاط، وهذا يعني أنّ موتها لم يؤثّر فيه مطلقاً، رغم أنها كانت إحدى طالباته المفضّلات في فترة ما.. ربما يتجنّب التفكير في الموت، فعقل الإنسان لديه تلك الميزة الرائعة على العمل حتى دون وجود أوامر مباشرة، والعجوز يتجنّب التفكير في الموت، فكما كان يقول والدي على الدوام "الوعي هو وسيلة الأجيال لبناء مجتمعاتها والاستمرار، فالأجيال التي تعي واجباتها وتقوم بها على أكمل وجه، تسمح باستمرار الأمة..".

لقد كان الجيل المؤسس للدولة يختلف عنّا في طريقة التفكير وترتيب الأولويات



كثيراً..

- فأنا أرغب حضور الجنازة بشدة - أعادني صوته إلى حديثنا - فعلى الرغم من أنني لم أكن أتفق معها في كثير من آرائها إلا أنني كنت أكنّ لها محبة كبيرة..
- لا تقلق يا أستاذ فلا أظن الجنازة ستقام غداً، فهناك تشريح الجثة..

صمت للحظات قبل أن يدمدم متسائلاً:

- تشريح الجثة؟.. ألأنها جريمة قتل؟

وعلى الفور أخرج ذلك المحقّق رأسه من الأعماق وهو يجيب:

- طبعاً، يجب التأكد من أسباب الموت..
- أوَليست واضحة؟ فكما أخبرني المحقق طُعِنت بواسطة سكين..

كنت سأجيبه أجل بواسطة سكين فتح الرسائل التي نُقش عليها ختم السلطان الفاتح، وأنّ أحدهم اقتحم مكتبي ليبحث عن أمر متعلّق بالسلطان ذاته، وأنّ أكين الذي وجدته غارقاً في الدماء، كانت لوحة السلطان معلّقة فوق رأسه، وكنت متشوقاً لمعرفة رأيه حين أخبره بكل هذه الجرائم والاعتداءات التي توالت وعلاقتها بالسلطان ولكنني لم أجرؤ على ذلك.

- أجل لقد تمّ طعنها بالسكين، ويقولون إنّ الضربة جاءت في عنقها..
- شيء رهيب.. البشر مخلوقات قاسية جداً يا بُني، فكيف استطاع الإقدام على هذه الجريمة الوحشية وقتل عمته من أجل النقود.. يا للمصير المأساوي! فبعد كل هذه السنوات من الاغتراب تعود لتُطعن على يد أقرب الناس إليها - صمت للحظات قبل أن يكمل - ولكن هل من تطوّرات جديدة؟.. أعني هل اعترف بجريمته؟

ليته يعترف وتصبح الأمور أسهل بالنسبة إلينا جميعاً، ولكن حتى الآن ليس من المؤكد أنه الفاعل الحقيقي.. عدت إلى غاية حديثي معه متجنّباً كل هذا الشتات.

- لا أعلم يا أستاذ ولكن اليوم حدث أمر رهيب آخر. فأنت تعرف أكين بكل تأكيد..
- أكين؟.. من هو؟..



رغم حديثنا عن نزهت فهو يدّعي أنه لا يعرف مساعدها الذي يعمل معها.. هذا العجوز الماكر يخفي أشياء كثيرة ولا يمكن الوثوق به.

- أكين جوتاكان..
- أجل ذاك الشاب.. الغريب الأطوار.. كان مساعد نزهت أليس كذلك؟
- نعم كان يعمل معها في مشروعها الأخير – شدّدت على كلماتي قبل أن أكمل – وكان ينوي السفر معها إلى شيكاغو.
- لقد سمعت شيئاً من هذا القبيل، ولكن ما به أكين؟..

بدا القلق واضحاً على صوته.

- لقد تعرّض البارحة مساء لاعتداء؟
- ماذا؟.. وهل مات؟ كانت دهشته وخوفه حقيقيين.
- لا، فلحسن الحظ ما زال حياً وسيتعافى ولكن الاعتداء كان وحشياً جداً، وقد حاولوا قطع لسانه حتى لا يتمكن من الكلام في حال نجاته.
- آآآه – كانت تنهيدة عميقة من الأستاذ الذي صدمه الخبر – متوحّشون! ولكن من الذي فعل ذلك؟
- لم يتضح الأمر بعد. قد يكونون الأشخاص أنفسهم الذين اعتدوا على نزهت.
- الأشخاص أنفسهم؟.. – صمت للحظات صمتاً مشؤوماً – لا أعتقد ذلك.. فأنت تعلم ميول ذلك الشاب، وربما للأمر علاقة بمشاكله الشخصية.

وجد العجوز الماكر مبرّراً على الفور لإبعاد الفكرة عن ذهني.

- ربما، ولكنني مشوّش الذهن يا أستاذ وأود أن أراك وأتحدّث إليك.
- عن أي شيء؟ فقد صوته الدفء المعتاد.
- عن الأحداث التي جرت مؤخراً، فلديّ ما أخبرك به..
- أخبرني الآن.. كان محتداً وبادي الانفعال.
- لا أريد التحدث على الهاتف.
- هل ما ستقوله مهم إلى هذه الدرجة؟
- أجل، مهم جداً.. وأود الاستعانة برأيك علّك تساعدني في الوصول إلى

قرار ما.

- بالطبع سأفعل إن استطعت - صمت للحظات قبل أن يكمل - فكما تعلم أنا أكنّ لك محبّة خاصة ولكن الأمر يتعلق بجريمة قتل ونحن لا علاقة لنا بهذه المواضيع..
- نزهت أيضاً لم يكن لها علاقة ولكنهم قتلوها.

استغربت من مقدرتي على مواصلة الحديث بهذه الطريقة المنطقية ويبدو أنّ أثر كلماتي كان أكبر من المتوقَّع.

- أنت تخيفني يا بُني، فما الذي تعنيه بكلماتك هذه؟
- أعتذر لأنني سببت لك القلق يا أستاذ ولكن يجب أن نتحدث، إن شئت سآتي إليك الآن.

بدا صوته مرتعشاً وهو يتحدث.

- ماذا؟.. الآن.. أعتذر ولكنني متعب جداً اليوم..

استغربت رغبته في التهرّب، ولكن ربما يودّ الاجتماع مع أفراد عصبته للتشاور معهم. وحينها انتبهت إلى أنني ورّطت نفسي في مخاطرة كبيرة، وقد يعتدون عليّ الليلة كما فعلوا مع أكين..

- غداً صباحاً لديّ جولة مع مجموعة من المهتمّين بالتاريخ حول فتح إسطنبول.. لذا عليّ أن أنام باكراً الليلة.. وحتى لو وافقت على مجيئك سأكون مستغرقاً في النوم حين تصل، لذا فلنؤجل الموضوع إلى صباح الغد.

انتابني بعض الارتياح عندما تذكّرت الجولة وبدأت أميل إلى تصديقه مجدّداً، ولكن خيبة أمل لا أعلم مصدرها أخذت تخيم عليّ.

- حسناً، كما تشاء يا أستاذ.
- إذاً غداً صباحاً تعالَ إلى تلك الكافيتريا التي نرتادها على الدوام في هيصار حوالى الثامنة صباحاً، وسيكون لدينا الوقت للتحدّث قبل بدء الجولة في التاسعة.
- شكراً جزيلاً أستاذ، سأوافيك هناك في الثامنة.



- جيّد.. تصبح على خير يا بُني..

كان علينا أن نخرج ما في جعبتنا وأن نظهر الحقائق التي نحاول إخفاءها، والكف عن محاولة الاختباء وراء الأكاذيب، ليتم القبض على القتلة الحقيقيين وإلا سيتم زجي في السجن بدلاً منهم.. وما إن أنهيت المكالمة حتى بدأت أحس براحة عميقة، بل وبدأت أدندن بحبورٍ لحناً ما.. وفي تلك اللحظة بالذات عبرت خيالي صورة جسد نزهت العاري والمستلقي الآن في المشرحة، ولكنه لم يكن جسد حبيبتي بل تلك العجوز التي شاهدتها جالسة بنظراتها الجليدية على الأريكة البارحة، فأشحت ذاكرة الألم التي تحاول التنغيص عليّ في كل فرصة وأبعدت عني تلك الصور، وبدأت أزرّر معطفي ووضعت يدي في جيوبي واتجهت نحو الشارع الرئيسي لأستقل سيارة أجرة توصلني إلى منزلي في كادي كوي.

(22)

هذا الطفل به مسٌّ من الجنون

كادي كويو، هذا ما كانت تقوله جدتي وما اعتدنا على قوله، فهذه الأراضي وبعد فتح القسطنطينية تم منحها من قِبَل السلطان محمد الفاتح لأول قاضٍ للمدينة هو خضر جلبي (تعني كلمة كادي كويو حرفياً قرية القاضي)، وقد اكتسبت اسمها ابتداءً من ذلك الوقت وكادي كوي هو تحريف خاطئ للاسم.. على أي حال فهذه المنطقة بمنازلها الجميلة التي كانت تحوطها الحدائق الخضر وقاطنيها الذين يعرفون بعضهم بعضاً، تغيرت كثيراً مع مرور الوقت بسبب زحف الأبنية الإسمنتية البشعة والعالية وابتلاعها تلك البيوت الرائعة، حيث بات الجيران لا يعرفون بعضهم بعضاً.. فكادي كويو تختلف في مخيّلتنا عما آلت إليه المنطقة الآن، ولكنني لا أنوي بثّ روح التفرقة بين الشعب التركي الواحد الذي يعتبر كل اختلاف لديه تنوعاً وليس خلافاً؛ ولا أنوي التصغير من شأن أحد كما أنني لست حانقاً على فئة معينة.. فنتيجة شروط الاقتصاد الاجتماعي الجديد تغيّرت بلادنا الجميلة ومدينتنا الجميلة والتي تحمل كل زاوية فيها مدلولاً وبعداً تاريخياً.. حتى أنّني ساهمت بنفسي في ضياع قصر جدي شوقي باشا، ذلك القصر الذي تم توارثه لأجيال متواصلة واستبدلت به هذا البناء البشع دون غضاضة في ذلك الوقت.. لذلك ليس من حقي توجيه الاتهام إلى أحد فكلنا متّهمون وعاجزون في الوقت ذاته.. ونتيجة لكل ذلك قمنا بخنق هذه المنطقة الجميلة وأضعنا روح المكان، كما ضاعت أرواحنا في زحمة الحياة.. ولا أدري مدى تأثير المكان في ذاكرة الإنسان وروحه، ولكنني متأكد من أنّ كادي كويو هي أحد الأسباب التي تمنحني الحياة.. ورغم تغيّر ملامح المنطقة بشكل كبير إلا أنّ عبق التاريخ لا يزال يفوح من أزقتها وزواياها الجميلة.. حقاً لقد كان إجحافاً تاريخياً حين تمت تسمية المكان تلّة العميان، وذلك في عهد المهاجرين اليونانيين الذي قدموا من

(ميغارا) واستقروا هنا، فهم لم يكونوا عمياناً على الإطلاق بل كانوا يقدرون الجمال الحقيقي؛ فعندما رأوا الأرض التي تبدو كقطعة من الجنة والتي تمتد من رأس مودا بسكون نحو البحر قرّروا للسكن هنا عوضاً عن صراي بورنو.

حين نزلت من الباخرة كانت الساعة قد تجاوزت التاسعة منذ وقت طويل، ولأنني لم أجد في نفسي رغبة إعداد العشاء في المنزل خطر لي التوجّه إلى أقدم مطاعم منطقة كادي كويو؛ وهو مطعم يا ليالي فهمي، حيث تناولت صحناً من شوربة الخُضَر مع صحن من الكراث مع زيت الزيتون وأنهيت وجبتي بصحن من حلوى القرع اللذيذة مخاطراً بخوض ليلة من الكوابيس بعد هذا العشاء الثقيل. وحين عدت إلى المنزل كانت تنتظرني مفاجأة، تماماً كما في مساء البارحة، امرأة جالسة في عمق الظلام..

تخيّلوا أنكم تعودون إلى المنزل بعد يوم مليء بالخوف والتعب، وتحلمون بالراحة والنوم لبضع ساعات وترك كل متاعب العالم خارج الباب، وحين تتّجهون إلى غرفة الجلوس ترون ذلك المشهد المرعب يتكرّر للمرة الثانية، والكارثة أنه الآن يحدث في منزلك بالذات.. أهو شبح نزهت الذي يتجوّل في أنحاء المنزل منذ أعوام طويلة؟.. لا فشكله لا يدل على أنه شبح، فمن خلال ضوء الشارع الذي يسقط على الغرفة استطعت بصعوبة تمييز جسدها المكوّم على الأريكة، كانت امرأة أخرى تجلس هناك بصمت مطبق. ولم أجرؤ على التفوّه بكلمة واحدة قبل أن أعرف من تكون فتوجهت إلى مفتاح النور على الفور، ولحسن الحظ لم تواجهني تلك النظرة الجليدية في عينين غابت عنهما الحياة كما في الأمس، بل نظرات ابنة خالتي الصارمة وهي ترمقني بغضب واتهام.. كانت جالسة في مكانها دون أن تتحرّك ودون أن ترف بعينيها تماماً كما نزهت، أتكون هي أيضاً قُتِلت؟.. بحثت في عنقها الذي لم تنل منه السنون كعنق حبيبتي عن تلك السكين المشؤومة وتنفست الصعداء حين لم أجدها. فقط كان هناك عقد من حبات الكهرمان في جيدها..

- إذاً فقد أعطيتها عقد عين الياقوت؟ - كانت تحرّك شفتيها دون أي حركة من جسدها - من منحك هذا الحق؟ عن أي حقوق تتحدّث؟
- العقد الذي كان في عنق نزهت - وأشارت بيدها إلى صورةٍ في الجريدة

التي تحملها وهي تكمل بغضب – كيف تعطيها إرثاً عائلياً يخصّنا جميعاً؟

كان عنوان الجريدة قد كُتِب بخط كبيرٍ وواضح (البروفيسور والمؤرخة العالمية نزهت أوزجان قُتِلت في منزلها) وعلى الرغم من معرفتي بالمأساة ورؤيتي لجسدها القتيل ربما قبل الجميع، إلا أنّ قراءة الخبر بهذا الشكل سبب لي الأسى، وأنا أشاهد صورة امرأة عجوز جالسة على الأريكة ذاتها حيث تم إخفاء وجهها إلا أنني تعرفت على جسدها. ولم أستغرب الصورة قدر استغرابي رؤية عقد عين الياقوت والذي لم أَرَه البارحة، والأكثر غرابة هو الغضب الذي اعترى شازية وهي ترى العقد في جيدها. فبدل أنّ تشك بارتكابي هذه الجريمة ها هي تحاسبني على جرم آخر ارتكبته منذ عشرات السنين.. وقد راق لي الأمر صراحة، فهذا يعني أنّ احتمال ارتكابي الجريمة لم يخطر ببالها على الإطلاق، وقد حاولت قدر المستطاع أن أبعدها عن المخاوف التي تعتمل في ذهني.

– كنت أظنك تعرفين.. – أخذت الجريدة من يدها – فقد أهدت جدتي ذلك العقد لوالدتي.

بدت عليها الحيرة وهي ترد:

– لا أذكر شيئاً من هذا القبيل..

وضعت نظارة القراءة وأنا أقول لها:

– تذكّري جيداً يا عزيزتي، فقد أخذت المرحومة خالتي كل زينة جدتي ومجوهراتها دون استثناء – نظرت في عينيها بتحدٍّ وأنا أكمل – أخذتها كلها ولم تترك سوى هذا العقد لوالدتي.

لم تظهر التجاعيد المفترضة على جبينها وهي تحاول التذكّر بفضل البوتوكس الذي تحقن به وجهها، ولكنها كانت واثقة من صحة الجزء الأول من ردّي، فمعظم المجوهرات التي لديها تعود لجدتي. وقد نبهني المحقّق نفزت هذا الصباح إلى موضوع العقد ولكنني ظننته يستدرجني في الحديث، ويبدو أنه كان موجوداً بالفعل ولم ألحظه البارحة.. كيف لم ألحظ الأمر وأنا أخرج السكين من عنقها، خاصة أنه ليس بعقد عادي بل هو عين الياقوت الذي أهديتها إياه، والغريب أنها تزيّنت به في اليوم الذي دعتني فيه إلى منزلها بعد كل هذه السنوات! أتكون دلالة على حبها لي رغم

هذا الغياب الطويل أم دلالة الندم؟.. ولكن ليس عليّ الآن تشتيت ذهني لذا عدت إلى فحص الصورة وأنا أحاول التأكّد إن كانت تضع الأقراط أيضاً ولكن الصورة لم تكن واضحة إلى هذه الدرجة. اعتصرت ذهني ولكنني لا أذكر أنها كانت ترتدي زينة ليلة البارحة أو ربما لم أنتبه للأمر نتيجة الصدمة، فكيف لي أن ألحظ القرط حيث لم ألحظ العقد؟.. وقد كانت شازية محقة في نقطة واحدة، وهي عين الياقوت، فما من أحد كان يعرف أنني أهديتها تلك الذكرى العائلية، بسبب عدم جرأتي على إخبارهم، وحتى آخر أيام حياتها ظلت أمي تبحث عنه في أدراجها وبين الثياب، ولأنها لم تكن ظالمة في أحكامها مثل خالتي شاهيستة فقد كانت تعتقد أنها أضاعته، ولم تشك ولو للحظة واحدة في ضلوعي في الأمر.. "مشتاق هو أكثر الأطفال استقامة وأمانة".. ولكنه الحب؛ هذا الإحساس الذي يُذهب بعقل الإنسان ويدفعه للقيام بكل ما لا يخطر له القيام به، فأنا لم أكن أنوي إهداءه العقد على الإطلاق بل كان مجرد مصادفة حين شاهدته في أحد الأيام حيث جاءت لزيارتي في القصر عند غياب الجميع، وقد أعجبها كثيراً لأنه وبحق تحفة، وفي محاولة لإظهار كرمي الشديد بادرت على الفور بالقول" إنه لك.." ولأكون منصفاً فإن نزهت كانت عفيفة النفس ولم تقبل به إلا بعد إصراري الأحمق الشديد، أنا أمير البلهاء وسلطان الحمقى الذي أهديت امرأة لم تصبح لي عقداً لم يكن ملكي.

- ظننته ضاع بالفعل، حيث كانت خالتي تبحث عنه في كل مكان، وأذكر أيضاً أنني ساعدتها في البحث – وبدت نظرة اتهام في عينيها وهي ترمقني – أكانت أمك على علم بأنك أهديت العقد لنزهت؟
- بالطبع كانت تعلم، أيعقل أن أفعل شيئاً كهذا دون أن أخبر أمي؟

خلعت نظارتي وأنا أحدق إلى عينيها بعد أن احترفت الكذب بل أصبحت شيخ الكذابين خلال هذين اليومين.

- ولِمَ لم تخبرنا أنك أهديتها العقد؟

رفعت كتفيّ وأنا أجيب:

- لو كان الأمر بيدي لفعلت ذلك بكل تأكيد، ولكن أمي طلبت مني إخفاء الأمر لخوفها من رد فعل خالتي..

كانت تنظر إليّ بتمعّنٍ علّها تكتشف ما يشير إلى صدق حديثي.

- أتعني أنّ كل تلك المحاولات في البحث عنه كانت مجرد تمثيل؟

رسمت ابتسامة صغيرة على فمي متصنعاً الخجل من هذه المؤامرة الصغيرة التي صنعتها مع والدتي كما أزعم.

- لقد كانت فكرتي، فكما تعلمين أن والدتي لا يمكن أن يخطر لها أمر مماثل.. وكنا مجبرين على القيام بذلك تجنّباً لغضب خالتي العاصف.

يبدو أنها بدأت تصدّق قصتي هذه.

- أجل، لقد كانت والدتي حادة الطباع بالفعل، وكنا جميعاً نخشاها..

حاولت مواساتها ظناً مني أنني آذيتها بهذا الكلام.

- لا تقولي ذلك، فقد عاشت المسكينة ظروفاً صعبة، واضطرت لتحمل مسؤوليتك وأنتِ صغيرة بعد أن تخلّى عنها والدك، وحتى لا يسيء رجل غريب معاملتك فضلت البقاء دون زواج.

ارتسمت ابتسامة هزء على وجهها وهي تقول:

- شكراً على تعاطفك يا عزيزي، ولكنني متأكدة من أنها لو وجدت الزوج المناسب لما فكرت بي على الإطلاق.

كانت شازية على الدوام أكثر تعلقاً بوالدها، وعندما تخلى عن والدتها لم تلمه كثيراً بل تلقي اللوم على والدتها التي ضيقت عليه الخناق وحولت حياته إلى جحيم حقيقي فاضطر لترك كل شيء والهرب. ولأكون منصفاً فقد سمعت أكثر من مرة أنّ كثيراً من الرجال وبعضاً منهم كان مناسباً جداً، قد تقدموا لخطبة خالتي بعد طلاقها ولكنها بقيت مصرّة على التفرّغ لتربية ابنتها.

- أظنك تجورين عليها بهذه الكلمات، فلا أعتقد أنها كانت لتتركك حتى لو جاء الشخص المناسب.. فقط حاولي أن تضعي نفسكِ في مكانها: مطلّقة في ريعان شبابها تخلّى عنها زوجها..

غامت عيناها في حزن قديم، ورأيت رعشة خفيفة تمرّ بذقنها فظننتها ستبكي ولكن شازية القوية لم تكن لتستلم بهذه البساطة لسيل مشاعرها.

- حسناً، وما الذي حصل؟.. أعني لِمَ قُتلت؟



أحسست براحة عندما عدنا إلى الموضوع الأساسي، فقد كانت في ذهني بعض الأسئلة التي أودّ طرحها عليها.

- لم يتّضح الأمر بعد – أوضحت لها – فالشرطة تشك في ابن أخيها، وأعتقد بأنك قد قابلته في منزل نزهت حين كان طفلاً.

هزّت رأسها نافية.

- لا فأنا لم أذهب إلى منزل أهلها على الإطلاق..
- على أي حال، اسمه سيزجين وهو وريثها الوحيد وقد كانا على خلاف مؤخراً، هذا ما قالته الشرطة.
- الشرطة – بدا عليها القلق – هل قاموا بالتحقيق معك أنت أيضاً؟

من الواضح أنها لم تقابل السيدة كديفة وإلا لكانت أخبرتها بكل تفاصيل الحدث.

- ألم تعلمي بذلك؟ – قلتها وأنا أتصنّع البراءة – فقد أتوا إلى هنا هذا الصباح.
- أتعني إلى منزلك؟

زاد صمتي من مخاوفها.

- هل يشكّون بارتكابك الجريمة؟

وأخيراً خطر ببالها احتمال ارتكابي الجريمة رغم أنّ المنطق يفرض عليها الشك بي منذ اللحظة التي علمت بها بالأمر. ولكن يبدو أنّ محبتها لي منعتها من التفكير بهذه الطريقة، وهذا كان لصالحي.

- لا – حاولت أن أهدئ من روعها – ولِمَ سيشكون بي. لكنهم جاؤوا لأخذ بعض المعلومات لا أكثر.

يبدو أن كلماتي لم تزل مخاوفها.

- وهل يعلمون بشأن علاقتك معها؟
- بالطبع كانوا يعلمون أننا كنا على علاقة في الماضي.

أرجعت نظارتها نحو الخلف في حركة تركيز أعرفها، وأشارت إلى المقعد الذي بجوارها وهي تقول:

- اجلسْ من فضلك، فلا أستطيع التركيز وأنا تقف هكذا فوق رأسي.

إنها مصيبة لو ركّزت أكثر، فهذا يعني أنّ هناك مشكلة تود حلّها. ولكنني أذعنت لأوامرها دون اعتراض، وبدأت هي تستجوبني.

- البارحة.. حين خرجت لتتمشى قليلاً، أعني حين أتيتُ ولم أجدك في المنزل وأوضحت أنك نزلت للسير تحت الثلج قليلاً وقد كانت أقدامك مبلّلة تماماً..

كانت تسرد الأمر بتفاصيله، ويبدو أن ذهنها الذي يعمل كساعة سويسرية دقيقة بدأ يربط الأمور بعضها ببعض..

- لم يحدث لك شيء غريب أثناء تنزّهك؟..

حاولت إبداء علامات الدهشة على وجهي.

- ما الذي تعنينه بشيء غريب؟

"ألك علاقة بموت نزهت؟..".

بالطبع لم تسألني هذا السؤال، ولكن هذا ما كانت تعنيه وتود طرحه بكل تأكيد. وعوضاً عن ذلك استمرت في المراوغة

- أعني هل كنت بكامل وعيك حينها؟ هل تذكر ما فعلته بالضبط؟

تجاهلت ما تومئ إليه.

- بالطبع أتذكّر، فقد سرت قليلاً وكان هناك بعض الفتية يتراشقون بالثلج في الشارع، وقد تعرّضت لبضع هجمات صغيرة منهم.. وبعدها توجّهت إلى منطقة (مودا) حيث هناك كثير من أمثالي الذين راودتهم الرغبة في السير تحت الثلج فبقيت أتفرّج عليهم قليلاً- توقفت للحظات وكأنني لم أدرك ما ترمي إليه إلا للتو- شازية.. لماذا تسألينني كل هذه الأسئلة؟.. هل؟.. هل تعتقدين أنني قتلت نزهت؟

- لا تكن أحمق فأنت لا تستطيع أن تؤذي نملة..- رغم كلماتها المطمئنة إلا أنّ الشك بدا واضحاً في صوتها ونظراتها وهي تكمل- كل ما في الأمر أنك كنت غريب الأطوار البارحة مساءً.. بالإضافة إلى اتصالك بي قبل ذلك بقليل..- بدأت تهزّ رأسها كمن يريد أن يشتّت هذه الأفكار ويبعدها عن ذهنه- لا أعلم حقاً.. لقد سألتك البارحة أيضاً ولكنني مضطرة لإعادة

السؤال ذاته.. - مرّت لحظة صمت وهي ترمقني قبل أن تسأل - ألم تتعرّض لنوبة جديدة البارحة؟

رغم تأخرها لكنها، كما في كل مرة، قد تمكنت من الوصول إلى ما أخفيه عنها وكنت أعلم تماماً أنني لن أستطيع أن أخفي عنها الأمر مطوّلاً، ومع ذلك واصلت الإنكار.

- أتعنين نوبة النسيان تلك؟.. لا، فباستثناء قيلولة ما بعد الغداء فأنا أتذكّر كل ما فعلته، وأذكر أيضاً أنني لم أحلم أحلاماً غريبة أو كوابيس في قيلولتي تلك؟

- كوابيس!- بدت الريبة في صوتها وهي تكمل - لِمَ قلت هذه الكلمة؟

أيها الأحمق من أنت لتظن نفسك تستطيع مواصلة كذبة لخمس دقائق، كان عليك التقيّد بملاحظة والدك التي يردّدها دوماً على مسامعك "تكلّم باختصار ولا تلجأ للثرثرة دون طائل، فكل كلمة تتفوّه بها تغرقك في محنتك أكثر..".

- لا أعلم - حاولت تدارك الأمر - أعني أنني نمت قرير العين.. - وحاولت الهجوم بدل الدفاع - ما الذي تلمّحين إليه شازية؟.. ماذا ترمين إليه من وراء هذه الأسئلة؟.. أتعنين أنني تعرضت لنوبة أثناء تلك الساعات المظلمة وقتلت نزهت؟..

- لا لا.. - بدا صوتها أكثر حنوًّا - كل ما أحاول فعله هو فهم ما يجري. لم تكن تقابل نزهت مؤخّراً، أليس كذلك؟

- لا، لم أقابلها - وأدركت أنّ قليلاً من الغضب سيساعدني على التملّص منها - لِمَ لا تتكلمين صراحة؟.. - وواجهت نظراتها بإصرار وأنا أكمل - لِمَ لا تسألين إن كنتُ قد قتلتُها؟

- لأنني أعلم أنك لم تقتلها - كانت واثقة من براءتي على عكسي أنا المليء بالشكوك - فمرضى شرود الذاكرة النفسي لا يميلون إلى قتل الأشخاص الذي تربطهم بهم علاقة ما - تمهّلت قبل أن تكمل - ذلك لأنّ الدماغ يفصل تواصله عن الواقع نتيجة عدم قدرته على التحكّم فيه والسيطرة على الأحداث ومواجهتها.. أي أنك تهرب من الحياة التي تخلق لك المشاكل

وتحجبها الذاكرة عنك بساعات من النسيان، لذلك فاحتمال ارتكابك لجريمة قتل أثناء تلك النوبة احتمال ضعيف جداً.

- احتمال؟.. لِمَ لا تكون ضرباً من المستحيل؟

لم تقنعني كلماتها خاصة أنّ هناك احتمالاً ضعيفاً يرخي بظلاله القاتمة على المؤكد المنشود. وهي تعتمد في تطميناتها على معتقدات مجموعة علماء أجروا دراسات على الدماغ البشري الذي لم تُعرف خارطته بعد. وهناك كثير من المناطق المجهولة فيه.. بل هي خارطة الروح تلك المجهولة والتي لا شيء مما يجول في أعماقها يمكن أن يخرج إلى العلن.. ليتها قالت لي أيها الأحمق أنت لا تقوى على ارتكاب جريمة.. ليتها ربطت الأمر بغبائي المعهود، ولكنها لجأت إلى مبررات نفسية مكرّرة لتطمئنني وتطمئن نفسها وتبعد هذا الاحتمال الرهيب عن ذهنها.

- إذاً لِمَ تسألين؟.. - لقد كان صوتي أكثر حدّة مما أردته، ولم أحدّثها بهذا الأسلوب منذ سنوات طويلة وقد لا أكون فعلتها على الإطلاق - طالما أنك مقتنعة بعدم قيامي بالجريمة لِمَ تقومين باستجوابي كالمجرمين؟

بدت مرتبكة وهي تبرر متمتمة:

- أعتذر، لم أكن أقصد اتهامك، ولكنني أحاول فهم ما حدث - ولم يسعفها ذهنها على غير العادة في سرد منطقي لمبرراتها - أعلم مقدار حبك لها.. ولكن.. حسناً، لا أهمية لكل ذلك، أعني أنّ ما حصل بينكما كان في الماضي..

ولم تستطع الإكمال تحت وطأة نظراتي الجليدية، فخبطت على الطاولة وهي تقول:

- اللعنة، لقد بدأت أهذي..

استغربت استسلام تلك العنيدة بكل هذه السهولة.

- أعلم أنني تجاوزت حدودي بهذا الكلام السخيف، ولكن صدقني كل ما في الأمر أنني قلقة عليك، ولا أدري كيف خطرت لي هذه الفكرة الغبية، أعتذر..

والغريب أنني لم أهتم بكل اعتذاراتها قدر سعادتي وأنا أشاهدها تتخبّط في



حيرتها وضعفها بهذا الشكل، رغم أنها كانت محقّة في كل شكوكها.. وأنا متأكّد أنّ غايتها الأساسية هي حمايتي.. وكنت أنا المنافق الذي يكذب ويتلاعب بها.. "البشر مخلوقات من الصعب فهمها يا مشتاق.." أثبتت هذه الكلمات التي كان يردّدها الأستاذ طاهر على الدوام صحتها، فقد استطاع شخص أحمق مثلي أن يتلاعب بشخص ضليع في علم النفس وأن يشتت أفكاره..

- اعذريني على صراحتي ولكنها بالفعل كانت فكرة غبية.. يبدو أنك عانيت من يوم عصيب، وقد يكون هذا سبب تشتت أفكارك بهذا الشكل.
- لا، لقد أخطأتَ فهمي..

لم أفسح لها المجال لتكمل حديثها.

- ما الذي تعنين؟.. فقد وجّهت إليّ منذ قليل تهمة السرقة..
- السرقة؟..
- أجل، قمت باستجوابي حول العقد الذي أهديته لنزهت وكأنني سرقته منك تحديداً!

احمرّ وجهها وبدأت يداها ترتجفان وهي تتلعثم بكلماتها.

- أجل، أعتذر، ولكنني لم أكن أعلم ذلك، فقد كنت أظن..

كان ذلك الوحش الذي في أعماقي يستمد قوته من ضعفها، لا بدّ أنّ مجنون المرآة قد وجد طريقة للخروج من مغارته ليسيطر عليّ مرة أخرى، فلا يمكن سوى للمجانين من أمثالي إيذاء أحبتهم بهذه الطريقة.. ولكن القدرة على إيذاء الآخرين تمنحني القوة والراحة.

- إذاً لِمَ كنت تجلسين في منزلي تنتظرين مجيئي؟.. وكأنها مداهمة للشرطة!

كانت المسكينة جالسة تنظر إليّ بحيرة فهي لم تتوقّع كل هذه القسوة.. بالطبع كانت تستطيع إيقافي بحجة منطقية، ذلك أنني من أعطاها مفاتيح المنزل وسمح لها بالدخول والخروج متى شاءت، ولكن يبدو أنّ حدّتي قد فاجأتها وفسّرتِ الأمر على أنه بوادر تمرّد على انصياعي المستمر لها.. رغم أنني كنت راضياً عن هذه العلاقة، فبعد وفاة والدتي كنت أبحث عمّن يقوم بحمايتي وتوجيهي على الدوام، ولكن مجنون المرآة كان مستمتعاً باضطهاد الشخص الوحيد الذي يهتم لأمري في

هذه الحياة.. "هذا الطفل به مسٌّ من الجنون..".

- معكَ حق - قالتها بهدوء - ما كان عليّ أن أدخل منزلك دون إذنك.

لا أصدّق أنّ امرأة بقوة شخصيتها وسلامة تفكيرها استسلمت أمام مجنون مثلي بهذه السهولة، وبدا واضحاً أنها تبكي حين أخرجت مفاتيح المنزل من جيبها ووضعتها على الطاولة.

- أظنك يجب أن تستردها، فأنا لم أعطك مفاتيح منزلي..

حينها تذكرت تلك الفتاة الصغيرة التي قبّلتها تحت شجرة المنوليا في حديقة القصر، وكيف أنها لم تعترض حينها. تماماً كعدم اعتراضها الآن على قيامي بإذلالها بهذا الشكل.. كنا طفلين نعيش في ذلك القصر القديم تحت نظرات جدتي الخاوية ووجه والدتي المبتسم دوماً، ولسان خالتي السليط، وانتقادات والدي وتوجيهاته التي لا تنتهي. حينها أدركت كم أنا مثير للشفقة، وأنّ عليّ الكف عن مواصلة هذه اللعبة المقيتة.

- دعك من هذا.

حدث الانهيار في ثوانٍ وبدأت أنتحب وأنا أغطي وجهي بيدي الاثنتين وأردّد:

- أرجوكِ لا تفعلي ذلك بي.. - ربما كنت أعني نزهت بهذه الكلمات - أرجوكِ لا تفعلي ذلك بي.. لا تتركيني وتذهبي..

"لا تسبّبي لي كل هذا الألم.. لا تسمحي لي بقتلك، وترمي بي في متاهة الجنون الفظيعة هذه..".

لا أعلم كم بقيت من الوقت على هذه الحال، ولكنني بدأت أتمالك نفسي رويداً رويداً وأنا أشعر بأصابع شازية الحانية وهي تمسّد شعري، كانت تحتضن رأسي الذي أسندته على صدرها بيديها الاثنتين ورائحة الفانيليا تفوح من كنزتها، فيما يغمرني دفء صدرها المكتنز الذي يعلو ويهبط بلطف شديد.. حينها أحسست بإحساس غريب واحتضنتها بدوري. ويبدو أنّ والدتي قد أدركت النوايا الخبيثة التي تعتمل في صدري حتى وصلني صوتها من مكان ما:

"يا له من أمر مشين، فهي مثل أختك..".

وعلى الفور سحبت يدي التي تحتضنها ورفعت رأسي عن صدرها.



- أعتذر.
- لا عليك. قالتها وهي تمسح دموعي..

وبدأت أشعر بعار شديد، بسبب تصرفي السيئ معها منذ قليل. وفيما كانت المسكينة تسمعني بصمت وعجز كان مجنون المرآة يتضخّم ليتحوّل وحشاً يسحق كل شيء أمامه، رغم أنني لا أملك أحداً سواها في هذه الحياة اللعينة.. لذا شعرت بالخجل الشديد من مواجهتها والنظر في عينيها.. ويبدو أنها خمّنت ما أفكر فيه فاحتضنت وجهي بيديها الاثنتين وهي تديره نحوها، ولكنني لم أتمكن من رؤيتها بوضوح بسبب الدموع التي تغشى عيني، ورغم ذلك استطعت استشعار ذلك الدفء والأمان المعتادين في صوتها.

- أنا من يجب أن يعتذر منك، فقد تماديت كثيراً وأثقلت بكلماتي عليك..

حينها تمكّنت من رؤيتها بشكل أفضل بعد أن مسحت عينيّ. كانت عيناها أيضاً مبلّلتين وآثار الدموع على خدّيها.

- أعتذر حقاً، فقد نسيت لبرهة مكانة نزهت الحقيقية لديك..

(23)

لن تستطيع التحكم في الحياة

من الطبيعي أن تنسى شازية، فمنذ سنوات طويلة لم أحدّثها عن نزهت، ولكن عمّ كنا نتحدث في الأوقات النادرة التي كنت أقابلها فيها؟.. عن مشاكل العمل، وتأخّر المستأجرين في دفع إيجارات البيوت، وعن نوبات الشقيقة التي تنتابها ومرض عرق الناس الذي ابتليتُ به. والموضوع الوحيد الذي نستمتع به كلانا هو استحضار ذكرياتنا والأوقات التي قضيناها في قصر شوقي باشا..

إنّ مرور السنين يضفي لمسة من الجمال على الماضي، وكأن ذاكرتنا الانتقائية لا تترك لنا سوى اللحظات المبهجة فنحن نتذكّر تلك الأيام برومانسية حالمة ونظنها الأقرب إلى قلوبنا.. ونادراً ما شعرنا كلانا بالعلاقة القوية التي تجمعنا كما في هذه الليلة، رغم أنني كنت أكذب عليها وأخفي الكثير وربما كانت هي أيضاً تفعل ذلك.. وهي أيضاً تصرفتْ بأنانية وحِدّة لا مبرر لهما في بداية حديثنا حول مشكلة العقد، أيعقل أنها كانت تغار منها طوال هذه السنوات؟.. ولكنني لا أذكر أي موقف يدل على غيرتها، فهي كانت شابة واثقة من نفسها بقدر نزهت وأكثر، كيف لا، ومعظم شباب منطقة بهرية كانوا يحومون حولها كالفراشات حول النار، فقد كانت شابة جميلة وما زالت كذلك، ولم يكن لديها أي سبب لتغار من نزهت.. إلا أنّها شعرت بالغضب عندما شاهدت العقد الذي تعتبره ذكرى عائلية في جيدها، ولكنها كانت مناسبة جيدة لنشعر بقوة العلاقة التي تجمعنا أحدنا بالآخر..

ليتني أخبرتها الحقيقة بكل تفاصيلها واستوضحت منها بمزيد من الصراحة حول حقيقة قدرتي على ارتكاب جريمة قتل أثناء النوبة، فهي تحدثت عن وجود احتمال ما، كما أنّه لا مبرر لمخاوفي فهي لن تخبر الشرطة بل ستبحث عن مخرج لي من هذه المصيبة، ولكن هل هناك من مخرج؟.. عدت للوقوف أمام الطاولة وأنا



أتكلّم بصوت مرتفع وكأنني أخاطب شخصاً حقيقياً، أهو انفصام الشخصية أم جنون العظمة أم الشرود النفسي؟.. لا أدري بالضبط أي لعنة هو ولكنني أسير على طريق الجنون، وهذا ما أخبرني به فرويد، أو ذلك التجسّد الذي أرسله لي عقلي الباطن ليُنبئني بخطورة وضعي.. فشخص مات منذ أكثر من سبعين سنة لن يكلّف نفسه عناء العودة من أجل أيّ كان، ولكنني لست أيًّا كان..

ها قد بدأت بوادر جنون العظمة أيضاً تظهر.. أظنني يجب أن أوقف سيل هذه الأفكار المتخبّطة.. وهنا بدأت أتساءل عن سبب وقوفي أمام الطاولة بعد أن ذهبت شازية، ما الذي أعادني إلى الغرفة مجدّداً؟ بدأت أقلب زوايا ذهني المشتّت لأجد الجواب، وأخيراً عرفت عندما وقعت عيناي على الجريدة حيث كنت أنوي فحص صورة نزهت من جديد علّني أصل إلى شيء يفيدني لم أنتبه إليه البارحة، كانت الغرفة أكثر إنارة من البارحة ويبدو أنّ السبب يعود إلى أضواء آلة التصوير.. لم يكن هناك أي تغيير في وضعية جلوس حبيبتي منذ شاهدتها آخر مرة حتى كأس الماء بقيت على حالها فوق الطاولة، حتى تلك البقعة الداكنة التي لوّثت قميصها وستائر الغرفة المغلقة بقيت على حالها، خلا عقد عين الياقوت في جيدها، كما أنّ وضعية يديها تغيرت، فقد كانت إحدى يديها متدلية وكأنها تشير إلى بقعة الدماء التي تشكّلت على الأرض.

يبدو أنّ المحقق نفزت حرص على إبقاء مسرح الجريمة كما هو، وإطاعةً لأوامر والدي عدت للتدقيق في الصورة أكثر من مرة ولكن لم يتغير شيء منذ البارحة باستثناء عقد عين الياقوت، وما زلت أتساءل كيف لم أره البارحة.. "إنّ مرضى الشرود النفسي وبعد انجلاء النوبة لا يستطيعون التدقيق كثيراً في تفاصيل المكان.." قد يكون هذا هو السبب، وربما هناك من ذهب إلى مسرح الجريمة بعد خروجي وهو من ألبسها ذلك العقد.. ولو لم أرمِ تلك السكين في قاع مرمرة لعرفت من يكون من خلال بصمات أصابعه، ولكن ماذا لو كانت بصماتي أنا بالذات، وأظنها سكيني فقد بحثت عنها البارحة ولم أجدها في مكانها، إلا أنه كان بحثاً عابراً ذلك أنني كنت متأكداً حينها من أنني القاتل وأنّ تلك السكينة لي، والآن لو تمكّنت من إيجاد السكين فسأثبت براءتي، لذا توجهت على الفور إلى غرفة المكتب. فلو لم تكن معي ليلة الحادثة فلا

بدّ أنّ تكون في مكان ما هنا، فأنا المهووس بالترتيب والنظام أعيد كل شيء إلى مكانه الصحيح تماماً، والجيد أنني لم أكن مضطرباً وخائفاً كما في البارحة لذا فإن عملية البحث ستكون أكثر دقة.

أشعلت ضوء الثريا التي ورثتها ضمن مجموعة الأشياء الثمينة من القصر القديم، وقد أنارت الغرفة وكأنها تبشرني بما سينير ظلام ذهني.. عدت للبحث عنها في علبة الأقلام، كان هناك قلم الباركر الذي أهدته لي والدتي بعد حصولي على شهادة الثانوية والذي يحتوي على ثلاثة ألوان هي الأزرق والأسود والأحمر، دزينة مشابك الأوراق المعدنية، ممحاتان قديمتان اسودت أطرافهما من كثرة الاستعمال وأشياء أخرى لم تكن السكين من بينها، حتى أنني فتشت تحت الغطاء الشفاف الذي يغطي لوحة مفاتيح الكمبيوتر ولكن عبثاً..

توجهت نحو الكتب المصطفة على الطاولة فبدأت بالبحث بين أوراق كتاب بابينغر وأكملت مع بقية الكتب دون جدوى، ثم أخرجت أدراج المكتب من مكانها وأفرغت محتوياتها وجلست أمامها أفتش بينها بتروٍّ، كانت هناك فواتير الكهرباء والغاز وإيصالات باستلام آجارات المنازل كل حسب ترتيبه الزمني، ومفكّرات تعود للسنوات الثلاث المنصرمة، غطاء قلم أصفر، علبة حبر فارغة لا أدري لِمَ لم أشأ رميها، خرَازة أوراق، ثلاث سجائر لا أذكر من أهداني إياها، وأقراص كمبيوتر قديمة لم تعد صالحة للاستعمال الآن، ومكبّرة والدي الضخمة حيث كان يستخدمها ليس بسبب ضعف النظر، فحتى آخر أيام حياته كانت حدّة نظره أقوى من نظر الصقر، ولكنه كان يستخدم المكبرة حين كان يريد أن يريني مقاطع أو صوراً مفضّلة لديه في بعض الكتب، ويبدو أنها بقيت منسية هنا طوال هذه السنوات. لكن سكين فتح الرسائل تلك لم تكن موجودة في أي مكان..

تركت الأغراض مكوّمة هناك وسط الغرفة وبدأت بفحص رفوف الكتب المصطفة من الأرض وحتى السقف، علّني أجد فراغاً أو تباعداً بين صفحات أحد الكتب، فربما وضعت السكين دون أن أنتبه بين صفحات أحد الكتب التي أقرأها، حينها لفت نظري التباعد بين صفحات كتاب محمد نشري (خارطة العالم)، ولكنها كانت مجرد قطعة ورق مقوى أضعها بين الصفحات حيث بلغت القراءة.. رغم ذلك

لم يثنني الأمر عن استمرار البحث عن تلك السكين اللعينة التي ستثبت براءتي، خطر لي أنها ربما كانت موضوعة بين صفحات الكتب الموجودة في غرفة نومي، ولكنني أدركت أنني لا أفتح الرسائل سوى في غرفة المكتب حصراً.. "مشتاق مهووس بتكرار الأشياء ذاتها وبالطريقة ذاتها.." أجل وهي خصلة جيدة ورثتها عن والدي، ففي هذا العالم المجنون الذي تسوده الفوضى لا بأس بقليل من النظام في مكان ما.. "لن تستطيع التحكّم في الحياة يا مشتاق.." أعلم ذلك ولكنني أحاول أن أنظّم حياتي، فالرسائل التي أتلقّاها تخضع لنظام صارم، حيث يجب أن أفتحها بالسكين ذاتها التي تكون عادة موضوعة أمامي على طاولتي.. ولكن متى كانت آخر مرة تلقيت فيها رسالة؟.. بالطبع كانت قبل واحد وعشرين وعاماً في الثالث عشر من أيلول، كان يوماً خريفياً مشمساً حولته تلك الرسالة إلى نكبة حياتي.. وقد وضعتها نزهت في صندوق بريد شيشلي قبل ثلاثة أيام من ذلك اليوم.." أعتذر مشتاق فعلاقتنا لا يمكن أن تستمر.. صدّقني حاولت كثيراً ولكنني لم أنجح، كما حاولت إخبارك من قبل كثيراً ولكنني لم أجرؤ، لذا اخترت أن أبعث لك برسالة قبل سفري إلى شيكاغو..".

وباستثناء اتصالها البارحة كان ذلك آخر تواصل بيننا، فهي لم تكلّف نفسها عناء الرد على رسائلي أو الاطمئنان عليّ، لذا طعنتها في عنقها بالسكين ذاتها التي فتحت بها رسالتها وسلبتها الحياة كما سلبتني إياها منذ واحد وعشرين عاماً.. إلا أنني استلمت كثيراً من الرسائل منذ ذلك الوقت، فمؤخراً تلقيت رسالة من إحدى جامعات إسرائيل من أجل إلقاء محاضرة فيها، وفتحت الرسالة بالسكين ذاتها، ولكنها مختفية منذ البارحة مساءً، أهذا يعني أنني من قام بطعنها حقاً؟.. على أي حال يجب ألا أستسلم بهذه السرعة، لذا توجّهت إلى غرفة النوم علّني أجدها هناك، فبالقرب من الطاولة بجانب السرير الذي تفوح أغطيته برائحة البنفسج المعتادة، كان هناك كتاب رسائل الغريب الذي لا أمل من قراءته. أما الثاني فهو كتاب دوغان كوبان (إسطنبول مدينة تاريخية) وهو كتاب مهم..

قلّبت صفحات الكتابين بدقة ولكنّ تلك السكين الضخمة لا يمكن أن تختفي بين صفحات الكتب، حتى أنني نفضتهما في محاولة يائسة ولكنها لم تظهر، فجلست على طرف السرير محبطاً. أيعقل أنني قمت باتهام سيزجين والأستاذ طاهر وطلبته زوراً؟..

أيعقل أنني من قام بارتكاب الجريمة حقاً؟.. لا أعتقد ذلك، فاختفاء السكين لا يعني أنني مجرم.. ولكن يجب ألا أنسى لعنة الشرود النفسية تلك، إلا أنّ تلك الساعات المظلمة والتي تحمل في طياتها كل الاحتمالات قد تحوي أيضاً احتمال براءتي من التهمة وهذه نقطة لصالحي يجب ألا أغفلها. فربما كنت أتجوّل على غير هدى في شوارع شيشلي تحت الثلوج، غير مدرك لكل ما يجري من حولي، .. ولنفترض أنني قتلتها، فمن اعتدى على أكين إذاً؟.. حينها قطع ارتعاش الجوّال الذي في جيبي تسلسل أفكاري، نظرت إلى الشاشة فلم يظهر عليها اسم، إذاً فالرقم ليس محفوظاً لديّ..

– ألو، تفضّل!..

– مساء الخير أستاذ.

كان الصوت مألوفاً لكنّني لم أتمكّن من معرفة صاحبه.

– يبدو أنك لم تعرفني، أنا جتين مساعد الأستاذ طاهر.

لِمَ يتصل بي هذا المأفون؟ حاولت أن أبدو لطيفاً قدر المستطاع.

– خيراً يا بُني، هل حدث مكروه ما؟

– لا، لا. ولكنني كنت أتحدث مع الأستاذ منذ قليل..

كما خمّنت فقد اتصل الأستاذ بأحد شركائه من أجل استشارته.

– ستذهبون إلى المضيق..

أصابتني القشعريرة وأنا أظنه يتحدث عن السكين التي رميتها البارحة هناك.

– أعني أنّ الأستاذ لديه جولة بمناسبة الفتح..

إذاً فهو يتحدث عن لقائي بالأستاذ في صباح الغد.

– وقد أخبرني بأنك ستنضم إليه في الجولة التاريخية المزمعة، وقد طلب منك أن أقلّك بسيارتي..

ما الذي كانوا يخطّطون له؟ هل كان العجوز ينوي التخلّص مني؟.. ولكنني لا أظنهم سيقومون بالأمر في وضح النهار.. ربما تكون فرصة بالنسبة لي من أجل استدراج هذا الأحمق وأخذ بعض المعلومات منه، وبالتالي سأعرف تماماً كمّ المعلومات التي يجب أن أفصح عنها أمام العجوز، ورغم ذلك يجب ألا أوافق على الفور.

- شكراً لك يا جتين. لا داعي أن تعذّب نفسك، أستطيع الذهاب بمفردي.

لكنه واصل دور التلميذ المؤدّب وهو يكمل:

- لا عليك يا أستاذ، فأنا أيضاً أسكن بالقرب منك في كزيل تيبي، وسأوصلك قبل ذهابي إلى الجامعة فلا أحد معي غداً في السيارة..

إذاً هذا يعني أنه لن يصطحب شريكيه معه في الجريمة.

- طالما أنك مصرّ فلا ضير من ذلك، ما رأيك أن نلتقي غداً في السابعة صباحاً على الطريق السادس، عند تمثال الثور هناك..

- لا داعي لأن تتكبّد هذه المشقة، سأمر عليك وآخذك من أمام المنزل.

لا بدّ أنه يريد أخذ العنوان، ولكنني أدركت أنها فكرة سخيفة. فلو شاء ذلك لأخذ العنوان من الأستاذ الذي زارني مئات المرات.. ورغم ذلك لم أشأ أن أعطي هذا المجرم عنوان منزلي بنفسي.

- لا، لا داعيَ لذلك.. فقط انتظرني صباحاً أمام التمثال..

لم يبالغ في الإصرار.

- إذاً نلتقي غداً صباحاً يا أستاذ، تصبح على خير..

بقيت السماعة في يدي فيما تعصف بي الأفكار، فقد ذهب اليأس الذي شعرت به بعد أن فشلت في العثور على السكين، وبدأ الأمل يراودني من جديد، فلا يمكن أن يكون اهتمام الأستاذ وعصبته مجرد مصادفة بحتة، فهم يسعون وراء أمرٍ ما.. إذاً ربما أوقعت السكين في مكانٍ ما في هذا المنزل الكبير أو نسيتها في زاوية لا تخطر ببالي الآن.. على أي حال فتورّط الأستاذ وطلبته في جريمة كهذه بات يسبّب لي الرعب، فإذا وصل بهم الأمر لقتل نزهت والاعتداء على أكين، فالتخلّص مني ليس سوى مسألة وقت لا أكثر.. وعندما رفعت رأسي وجدت مجنون المرآة وهو يرمقني بحنق مرة أخرى من خلال مرآة الخزانة.

"لقد غرقت في القذارة حتى رأسك، وكل ما تستطيع فعله الآن هو أن تقاوم هؤلاء القتلة – نظر إليّ بازدراء وهو يكمل – بالطبع إن نجحت في ذلك.. ربما الاعتراف هو أفضل الحلول، اتصل بالمحقّق الآن وأخبره بكل شيء فربما يصدّقك..".

كيف سيصدّقني وكل الدلائل تشير إليّ، أظنه سيأمر بسجني على الفور ولن

أستطيع الخروج من هناك حياً، بينما يتجول القتلة بكل حرية.

"إذاً عليك أن تواصل المواجهة – وأشار إلى الدرج الصغير أسفل الخزانة – افتح الدرج حيث مسدس والدك القديم، أتذكر حين أخذك مرة إلى نادي الرماية وأصابك الهلع من أصوات الرصاص – قالها وابتسامة ساخرة على فمه – إنه هناك خُذه معك..".

ما الذي يتفوّه به هذا الأحمق.

"لا تقلق فإن لم تكن قادراً على حمل السلاح والدفاع عن نفسك سأفعل ذلك بدلاً عنك..".

لم أكن بحاجة إلى مساعدته.

"ولكن يجب أن تستعد لكل الاحتمالات حتى لا تلقى مصير نزهت".

لا، فالأستاذ لن يسمح لهم بإيذائي.

هزّ رأسه ساخراً وهو يقول:

"بالطبع، فأنت تحاول فعل المستحيل من أجل سجن رجل تجاوز الثمانين وفوق ذلك هو أستاذك.. وبالمقابل تنتظر منه الرحمة".

أنا لا أنوي إيذاء أحد. كل ما أفعله هو حماية نفسي، فالكل يفعل ذلك.

"ولكنك تقوم بتوريط أحد آخر بالمقابل، ولنكن دقيقين أكثر، فأنت تنوي توريط أربعة أشخاص أحدهم رجل علم ومؤرّخ مرموق أما الثلاثة الآخرون فهم من ألمع المؤرخين الشباب، والذين ينتظرهم مستقبل مهني باهر.. وإن خيّرت أي شخص بين رجل لا نفع منه وبين هؤلاء الأربعة فتأكد أن الخيار لن يكون لصالحك..".

ولكنهم مجرمون..

"وهذا ما أحاول أن أفهمك إياه، فقد قتلوا نزهت دون رحمة واعتدوا على أكين بوحشية، والشخص الذي خطا على طريق الدم لن يتوانى كثيراً عن ارتكاب مزيدٍ من الجرائم..".

ضقت ذرعاً بترّهات هذا الحاقد وحذاقته السمجة، وتصنّعه المعرفة حول كل أمر بما فيه القتل.

"ربما كنت كذلك.. – وبدا بريق يلتمع في عينيه وهو يكمل بعد لحظات من



الصمت – ربما حقاً قتلتُ أحدهم، فكلانا لا يعلم ما حدث خلال تلك الساعات المظلمة البارحة..".

هذا المجنون بدأ يهذي حقاً.

"أيها الأحمق، كل ما أفعله هو من أجل مصلحتك.. – قالها صارخاً– انسَ شازية فهي لم تهتم بك عندما كنتما شابين ولن تفعل ذلك الآن، فأنت ما زلت تشعر بالذنب جراء قبلة بريئة طفولية، فيما لم تتوانَ هي عن توزيع القبلات على معظم شباب بهرية في كادي كوي. وكفّ عن استخدام الاسم المنقرض منذ عصور فهي ليست كادي كويو كما تزعم.. لذلك دعنا من التاريخ وقصصه ولنفكر فيما سنفعله ولتنقشع غيوم البلادة عن ذهنك، فلست تملك أحداً سواي يهتم لأمرك، كما أنني الوحيد القادر على مساعدتك والمالك الوحيد لوعيك وإرادتك..".

تعني أنك الوحيد الذي يطلب مني ارتكاب جريمة قتل وأنا بكامل وعيي، بعد أن اتهمتني بقتل نزهت.

"لا أملك حلاً سواه، وهذا كل ما أستطيع تقديمه. ولو كنت أملك أي دليل على براءتك لتمسكت به بكل قوتي – وقد أخفض صوته هذه المرة وكأنه يخشى أن يسمعه أحد – فكر في الأمر ففي مواجهة العجوز طاهر شيخ الدجالين يتوجب عليك استخدام كافة الأسلحة، لذا اطعنّي وخذ المسدس معك حيطةً..

أحقاً أنا مضطر لأخذ المسدس، ولكنني قد أقتل شخصاً آخر للدفاع عن نفسي وهذا ما لن أستطيع فعله على الإطلاق، نهضت مبتعداً عن الدرج على الفور وأنا أشيح هذه الفكرة البغيضة عني.

"توقّف، دعني أشرح لك الأمر..".

كان صوته أقرب للرجاء ولكنني بقيت مصراً على الابتعاد.

"إنك تهرب من جديد..".

لم ألقِ بالاً لصرخاته.

"عدتَ لتفعل ما اعتدت عليه وتخفي رأسك في الرمال، ولكن صوتي سيبقى يرن في أذنيك، وجسدي اللامرئي هذا سيرافقك كظلٍّ غيمة، وسأبقى الوحيد القادر على مساعدتك ولن تتمكّن من الهروب مني..".

(24)

مدينة التلال السبعة لن يفتحها سوى سابعُ السلاطين

- أكنت تظن أنّ سلطتي لن تطالك؟

لم يكن صوت مجنون المرآة المتسلّط البغيض، بل صوت أكثر حضوراً لشخص واثقٍ من نفسه إلى أقصى الحدود.

- أكنت تظن أننا لن نعلم بما فعلته؟..

كان صوتاً لم أسمعه قبل الآن رغم أنني أعرف صاحبه جيداً، إنه محور الأحداث الغريبة التي تعصف بي منذ يومين، إنه سلطان البرّين وخاقان البحرين وفاتح القسطنطينية، والسلطان الذي حوّل السلطنة العثمانية إلى إمبراطورية عالمية؛ محمد بن مراد بن محمد بن بيازيد بن مراد بن أورهان..

لم أستغرب على الإطلاق سماع صوته ومعرفة من يكون، ولكنني كنت قلقاً، بل كانت فرائصي ترتعد من الخوف، حيث كنت راكعاً على ركبتيّ على سجادة جميلة نُقشت عليها أزهار القرنفل والزنبق والتوليب بمختلف ألوانها، ورائحة عطر خفيف تفوح من المكان برمته. هذا الصمت والرائحة كانا يضاعفان من مخاوفي، ولم أكن أستطيع أن أرى سوى رأس حذائين من الجلد الأحمر أمامي. لا شيء مألوف هنا، وكأنه عالم آخر موغلٌ في القدم والفخامة.. ورغم أنّ الوقت كان الظهر إلا أنّ أشعة الشمس كانت تتلألأ بصورة غريبة، وكأن هالة قدسيّة تحيط بالمكان حيث تنساب أشعة الشمس من خلال غلالة شفّافة.

- تكلّم يا رجل، لِمَ أنت صامت؟ هل قاموا بقطع لسانك أنت أيضاً؟

لا بدّ أنه يشير إلى حادثة أكين، فقد كانت رسالة مبطنة بأنه يعلم كل ما يحدث في عالمي، دون أن أعرف كيف تصله الأخبار، ولكنّ صوته بدا لجوجاً يغلفه التهديد

وبدا وكأنه يتنبأ بما أفكر فيه أيضاً، إلا أنني بقيت مطأطئ الرأس خوفاً من تفسير الأمر على أنه قلة احترام.

- ما الذي تريدني أن أتحدّث عنه جلالة السلطان المعظّم؟

- انظر إلى وجهي، أي نوع من رجال العلم أنت؟..

ولكن الرعب الذي كان يتتابني كان أكبر من أن يسمح لي بالنهوض فوراً، لذا بدأت قهقهته تتردّد في أرجاء المكان وهو يقول:

- علماء هذا العصر أشخاص خجولون جداً على عكس الملا غوراني الجليل الذي لم يكن يأبه لسلطان أو أمير..

شاركه الموجودون الضحك ولكن بأدب جم، وأمدّني هذه الضحك ببعض الجرأة لذا رفعت رأسي. كان شاباً في مقتبل العمر يجلس على عرش مذهّب لا يمكن وصف روعته، كان مشذّب اللحية تماماً كالبورتريه الذي على غلاف كتاب بيبينغير، وقد جلس باسترخاء على عرشه، يرتدي ثوباً طويلاً حتى كاحليه وفوقه قفطان من الفرو الأزرق ويعتمر عمامة بيضاء مزيّنة بخيوط ملونة لم تكن لتخفي جبينه الواسع الذي ينتهي بحاجبين عابسين، ومع ذلك فقد كان ظل نظرة عابثة يرتسم في عينيه السوداوين ويمتزج بالفضول وهو يرمق وجهي الذي يتلون بين درجات الخوف والجزع والرهبة.. كان ظل أنفه المعقوف كمنقار صقر يسقط على شاربه المشذب بعناية فائقة وهو يتراقص بتوازن وهدوء مع حركة شفتيه.

- إنّ الشيخ الجليل الملاّ غوراني والذي نرجو أن يتغمده الله بعفوه ورحمته، لم ينحنِ أمامي ولو لمرة واحدة وكذلك الملاّ خسرف. هكذا يجب أن يكون رجال العلم الحقيقيون، فالعلم يعلو على السلطة وهو أطول عمراً منها، وتاريخنا حافل بالحكماء الذين لم يعرفوا قيمة العلم ورجاله فغابت أسماؤهم فيما خلّد التاريخ أسماء العلماء..

شعرت ببعض الراحة بعد مقدمته المشجعة هذه وزادت جرعة الجسارة التي تملكتني وأدركت أنني أستطيع التحدث براحة أكبر.

- معك حق يا مولاي، والكل يدرك المكانة الكبيرة التي أوليتها للعلم والعلماء، فقد شرفتهم بعنايتك الغامرة، حتى أننا نعلم أنك، وفي إحدى

المناسبات، كنت تجلس متوسطاً الملاّ خسرف عن يسارك والملاّ غوراني عن يمينك، والذي انتابته الغيرة من مكانة خسرف لديك، وقد تجرّأ على مخاصمتك..

اهتزّ حاجباه بغضب وهو يقول:

- هذه الحكايات السمجة لا يصدقها سوى الحمقى.

ساد هدوء حذر في قاعة العرش ولم ينبس أحد ببنت شفة، وقد كسر الصمت الذي خلّفه وهو يكمل:

- فشيخانا المبجّلان كانا زاهدين في أمور الدنيا، دعك من الجلوس بقربي في هذه الدعوات فقد كانا يرفضان حضور معظمها رغم إصراري الكبير - ثم رمقني من أخمص قدمي وحتى الرأس - ولو أنّ علماء عصرك جميعاً مثلك يعتمدون الروايات الزائفة بدل الحقائق، فهذا لا يبشر بالخير..

أدركت مرة أخرى أنني نسفت بكلماتي ما بنيته دهراً وعادت إلى مسامعي قاعدة والدي الذهبية "اختصر يا مشتاق، فكّرْ كثيراً وتكلّمْ قليلاً وكُفَّ عن الثرثرة.." إن كان والدي قد ضاق ذرعاً بثرثرتي فكيف بأعظم سلاطين الأرض.

- مولاي وسلطاني الرحيم - قلتها وأنا أميل بعنقي متذلّلاً - أرجوك أن تغفر لي إن كنت تفوّهت بما لا يليق في حضورك.. ولكننا نقرأ ما تركته لنا كتب التاريخ التي تخلط بين الخيال والواقع، وإلا فليس لديّ أيّ نية للإساءة إلى شيوخ كانوا من أهم رجال العلم والفقه في تاريخنا..

يبدو أنّ كلماتي لم تؤثّر فيه كثيراً فقاطعني بحدّة:

- دعنا نعدْ إلى موضوعنا، فمن هي تلك المرأة التي تتهّمنا بقتل والدنا السلطان؟..

كان حارساه اللذان يقفان على طرفي كرسي العرش بجدائلهما السوداء الطويلة ينظران إليّ بقسوة جعلتني أتخيّل أنّ عنقي سيجز بلمح البصر، وأخذ الدم يتجمّد في عروقي من جديد، وبدأت أحاول أن أصلح الموقف وأنا أرتعد ذعراً.

- مولاي وسلطاني العظيم، من الواضح أنّ لا شيء يخفى عن مرآة قلبكم، ولن أنكر أنّ بعض ضعاف النفوس يؤثرون مصلحتهم على مصلحة

المجتمع، ويستغلون أي أمر من أجل النيل من سمعتكم ومجد السلالة العثمانية الموقرة. ولكني أؤكّد لك أنّ هناك كثيرين ممن يتصدون لهم، بمن فيهم عبدكم الفقير الواقف أمامكم ولا أحد يصدق هذه الافتراءات البعيدة عن الصحة.

رغم أنّ صوتي كان يرتعد من الرعب، ولكن يبدو أنّ مديحي قد راق له فانقشعت غيوم الغضب عن وجهه وبدا شبح ابتسامة صغيرة يرتسم على زاوية فمه.

- أيها العالم - قالها بحدّة كمن يرش الملح على ذلك الجبل الثلجي من المديح الذي بنيته للتو - ألم تكن أنت أيضاً تتساءل عن حقيقة هذا الادعاء؟ أتظننا لم نكن نشاهدك وأنت تقلّب صفحات الكتب بحثاً عن إجابة لهذا الافتراء؟..

حينها أدركت أنني قاب قوسين أو أدنى من هلاكي المحتوم، ولكنها كانت فرصتي الأخيرة لأثبت براءتي وأنجو بنفسي، واتّبعت نصيحة ابنة خالتي شازية "تعلم كيفية التقاط الفرص..".

- مولاي وسلطاني الرحيم..

ولكنه قاطعني بحدّة واختفت تلك الابتسامة عن وجهه.

- كفى يا رجل، توقف عن ذلك وتصرف كرجل علم وقور، وليكن لديك بعض الكبرياء.. كفَّ عن المداهنة والتملّق وحدّثنا عن حقيقة هذا الأمر وما الذي يتّهموننا به على وجه التحديد؟..

كانت ركبتاي ترتعدان مع كل كلمة ينطق بها وتزداد الرعشة كلما حاولت كبحها، لذا حاولت التركيز على ما سأقوله.

- يا سلطان العالم، كما تعلمون فإن هذه السيدة التي كانت مقيمة في بلاد أجنبية قد أكملت دراستها هناك، وقد اتصفت على الدوام بأفكارها المختلفة، ولها وجهات نظر غريبة بعض الشيء حولكم يا مولاي وحول والدكم المغفور له السلطان مراد الثاني..

توقّفت عن الكلام رغماً عني فكيف سأخبر سلطاناً عظيماً كالفاتح بأنه متّهم بقتل والده؟ دعكم مني أنا الذي كنت أرتعد في حضوره فحتى أقوى رجال دولته لن

يقوى على مصارحته باتهام كهذا..

- هيّا أكملْ أيها العالم، لماذا سكتت؟..

- كما تشاؤون يا مولاي الذي معرفته أوسع من بحار الأرض ورحمته باتساع السماء.. إنّ هذه السيدة التي درست في بلاد الكفرة كانت تبحث عن إمكانية وقوع حدث كهذا..

لكن السلطان الذي معرفته أوسع من بحار الأرض ورحمته باتساع السماء ثار كبركان هائج في وجهي.

- أتعني أنّ هذه المرأة ناقصة العقل تتهمنا بقتل والدنا؟

تداخل حاجباه والتمع أنفه المعقوف كنصل خنجرٍ دمشقي..

- أستغفر الله يا مولاي فلا توجد أي وثقة أو دليل يثبت صحة هذا الادعاء.

لكن صوته بقي يتردّد كهزيم الرعد في أرجاء القاعة.

- أليست المرأة ذاتها التي كانت فيما مضى عشيقتك؟..

أدركت حينها ما أحسّه المسكين تشاندرلي خليل وهو يرتعد أمام جبروته الطاغي.

- يا مولاي العطوف يا ذا الرحمة والشفقة - تنحنحت قليلاً قبل أن أكمل - معك حق، كانت تجمعنا علاقة فيما مضى ولكنني قطعت كل علاقتي بها منذ واحد وعشرين عاماً وأؤكد لك..

لكنه قاطعني ولم يمنحني فرصة لأكمل.

- إذاً ما الذي ستستفيده من اتهامها لي بقتل والدي؟

شعرت بأن غضبه قد خفّت حدّته قليلاً وهذا ما منحني جرعة من الشجاعة، وتأكّدت مما كان يردّده أستاذ الأساتذة طاهر حقي" الفاتح كان يروقه الأشخاص الذين ينافسونه جرأةً وذكاءً وتهوراً..".

- اعذرني على ما سأقوله يا مولاي، ولكن ربما تكون غايتها الحقيقية هي أنّ تجعل العالم يدرك جانباً مختلفاً من شخصيتكم، كما فعل إيمروزلو كريتوفولوس في كتاب المتعلق بفتحكم القسطنطينية.

- ولكن لا تنسَ أيها العالم أنّ عبدنا إيمروزلو لم يلمّح مجرد تلميح باتهام

كهذا، على عكس عشيقتك القديمة التي تتّهمني بقتل والدي أثناء وجودي في مانيسا ودون أن تكون لديّ أي نيّة من هذا القبيل..

ورغم كلماته هذه إلا أنني لمحت ظلاً عابثاً على وجهه وأحسست ببعض السخرية في صوته، ولكن من الصعب أن يفهم شخص مثلي رجلاً غامضاً كالفاتح وهو يتجوّل على سلّم العبث والجِد نزولاً وصعوداً دون إنذار مسبق..

- يا مولاي الذي يعلم ما تكنّ الصدور، ربما تحاول هذه السيدة أن تنفي عن جلالتكم التهمة رغم محاولات البحث الجارية..

هذه المرة كانت الابتسامة الماكرة واضحة على وجهه وبدأت غيوم الغضب بالانقشاع، وبدا أصغر سناً وأكثر ودًّا. رفع يده اليمنى ليمسّد شاربه ولكنها توقفت في منتصف الطريق.

- لحظة أيها العالم الجليل - قالها وهو بادي الانشراح - حباً بالله أن تقول الصدق ولا تخفي الأمر عنا، أكنت تحبها كل هذا الحب؟..

كنت أودّ أن أقول له إنّ حبي لها مجرّد ماضٍ وأصبحت أكرهها الآن، ولكنني خشيت من مزاجه المتقلّب الذي لا أعلم أي كلمة من كلماتي يمكن أن توقظ عواصف غضبه.

- لا أعلم يا مولاي. حقًّا لا أعلم.. فلو سألتني قبل ثلاثة أيام لكنت أكدّت الأمر لك، ولكنني الآن لا أعلم.. إلا أنني سواء أحببتها أم لا فأنا متأكّد من حسن نواياها تجاهكم يا مولاي، وأنها لم تكن تنوي النيل من سمعتكم العطرة مطلقاً..

ارتسمت على وجهه ابتسامة محبّبة وهو يسألني:

- ألا يمكن أن تكون تلك النيران التي تعتمل في قلبك تعمي بصيرتك أيضاً؟

لم يكن هناك تهديد في صوته، بل بدا وكأنه يميل إلى الشفقة وهو يسألني:

- يا حامي العشاق وسلطاني المعظم، لو كانت هناك ذرّة من الشكّ حول الأمر لاستأصلت قلبي بيدي هاتين..

لقد كانت كلماتي تملّقاً سمجاً يجافي الحقيقة، وكنت أتوقع بين لحظة وأخرى أن يتّهمني السلطان بالنفاق لتكون نهايتي على يد الشخص الأثير لديّ، إلا أنّ نظراته

كانت مليئة بالعطف وهذا ما شجّعني على مواصلة الحديث.

- فأنا لا أدافع عن هذه المرأة يا مولاي بعد كل ما فعلته بي ولكنني أحاول أن أكون حياديًا في هذه المسألة قدر المستطاع وصادقاً أمام جلالتكم.. فالدراسات التي قدّمتها في الجامعات الأجنبية والمحاضرات التي ألقيتها في مختلف المؤتمرات وفي كل بقاع العالم قد أظهرت عظمتكم وعظمة التاريخ العثماني. وأعترف أنّ الأطروحة التي تعمل عليها هي تصرّف خاطئ ولكنها تتّصف بهوس البحث والتدقيق في الموضوع من كل زواياه حتى رفع الحجاب عن آخر الشكوك والأسرار.

نزلت يده اليمنى كحدّ سيفٍ قاطعٍ لكلماتي وجرأتي المتواضعة.

- قد يكون كلامك صحيحاً أيها العالم الجليل ولكن من جهة أخرى قد يكون هدفها التشهير بنا من أجل بلوغ الشهرة والمجد. فحتى ألدّ أعدائي الصدر الأعظم تشاندرلي خليل والذي لم يفوّت فرصة للإيقاع بي، لم يجرؤ على توجيه تهمة كهذه لي. ذلك لأنه مهما كان خائناً وحاقداً فلم يكن بالأحمق، وكان يدرك أنّ حياة والدي السلطان أهم لديّ من عروش الدنيا كلها، ويدرك أيضاً أنّ كل من يحاول أن يمسه بسوء فسأحرقه ولو اختبأ في قلب جهنم، لذا فهذه الفكرة هي فتنة شيطانية. وبغض النظر عن صاحبها فهي لا تهدف لشيء سوى الإساءة إلينا، ولكنني علمت أنّ تلك السيدة قد نالت عقابها أيضاً.. ولأنني أعلم أنك رجل علم ووقور أعلن براءتك من هذه التهمة.

عند سماع هذه الكلمات شعرت براحة عميقة تغمرني، وانتابتني سعادة المحكوم بالموت والذي ظهرت براءته في آخر لحظة.. حاولت أن أشكره ولكنني تلعثمت وخرجت الكلمات على غير ما أشتهي.

- أيها السلطان المبجّل الذي تنير شمس عدالته الكون برمته – كنت أنوي أن أكمل سرد سلسلة المدائح إلا أنّ يده التي ارتفعت كسيفٍ قاطعٍ مرة أخرى ألزمتني الصمت.

- لكنك لست بريئاً تماماً كما يُخيّل إليك، فما الذي دفع عالماً جليلاً مثلك إلى تصديق هواجس امرأة أتت من وراء البحار، لماذا لمْ تأتِ إليّ حين

بدأت الشكوك تراودك حول احتمال تورطي في جريمة كهذه لتستوضح مني حقيقة الأمر؟

كنت سأخبره بأنني لم أتخيّل ولو للحظة إمكانية اللقاء بك وسؤالك عن أمر كهذا، إلا أنني لم أتجرأ على البوح بذلك بل دمدمت بوجل:

– لم أكن أملك تلك الجرأة يا مولاي.. فكيف لشخص مثلي أن يحلم بالمثول أمام جلالتكم..

– ولكنك حصلت على فرصتك الآن – قالها وهو يتنهّد بعمق – فقد انتهى حكمنا في هذا العالم ولم يعد هذا العرش العظيم ملكاً لي.. لقد انتهت صولاتي وجولاتي على ظهر جوادي العربي الأصيل، وانتهت آهات الحروب وسكت صليل السيوف وهدير المدافع، وتلك الأراضي التي سقيناها بدماء جنودنا الأبطال قد أصبحت ملكاً لغيرنا.. هذه الحياة التي هي أقسى وأشدّ جوراً من أعتى الحكام والملوك قد أنهت دوري كما فعلت مع كل من سبقني. لذا فقد حان الآن وقت الكلام وتصحيح الافتراءات التي تدور عنّا ووضع الأمور في نصابها الصحيح..

بدأ صوت السلطان العظيم ينخفض مع الأسى الذي يعتريه وبدأت تلك الهالة التي كانت تحيط بالمكان تخبو شيئاً فشيئاً، وبدا مضطراً لرفع صوته أكثر حتى تصلني كلماته، وظهرت التجاعيد على جبينه الواسع، كما أنّ الشيب أصبح يخطّ لحيته كثلج يتساقط في غير أوانه، وأحسست أن قوامه الرشيق بدا يميل للبدانة، وتحوّل ذاك الشاب الذي تشع الحيوية من وجهه إلى رجل في منتصف العمر، وحين رآني وقد تملّكتني الحيرة نبّهني قائلاً:

– لا تستغربْ أيها العالم الجليل ولا تتعجبْ، فنحن المحكومين بالموت المنتظرين يوم الحساب العظيم لا نستطيع التفكير في شيء قدر تفكيرنا في انتظارنا الطويل. وعلى أي حال ستعيش ما أعيشه وستمر بما يمرّ به كل مخلوق فانٍ على سطح هذه الأرض. والمهم هو هذه اللحظة، لذا أصغْ السمع لكلماتي.. فها أنا السلطان العظيم أمنحك الفرصة التي لم أمنحها لأحدٍ من قبل، فاسأل ما شاء لك، وسأجيب عن كل ما يدور في ذهنك

ويشغله..

لقد كانت أروع لحظة يمكن لمؤرّخ أن يعيشها، فأعظم سلاطين الأرض يجلس أمامي ويعطيني الحق بأن أسأله ما أشاء. ولكن ما الذي عليّ أن أسأله؟ فالأفكار التي تجول في ذهني تحتاج لشجاعة كبيرة للبوح بها، وأعترف بأنني لم أكن أجرؤ على العودة لموضوع قتل الأب مطلقاً، ولكنني أستطيع سؤاله عن تشاندرلي خليل فالغموض الذي أحاط بتلك الحادثة يولّد كثيراً من الأسئلة والاحتمالات والروايات، وكان سماع الحقيقة من فم السلطان فرصة لا تُعوّض، كما أنه تطرق للموضوع بنفسه قبل قليل..

- لو سمحتم لي يا مولاي فهناك سؤال يدور في ذهني حول الصدر الأعظم السابق تشاندرلي خليل باشا، فسليل هذه العائلة التي تخدم الدولة العلية منذ أيام جدكم المعظم أورهان غازي، أحقاً كان خائناً يا مولاي؟

أشار بيده لي وكأنه يكابد مشقة في رؤيتي بوضوح وهو يقول:

- اقتربْ أيها العالم، اقتربْ.. أريد أن أرى وجهك حين تحدّثني.

اقتربت من كرسي العرش وأنا أجثو على ركبتيّ، ثم رأيته يشير إلى بطانته.

- اتركونا وحدنا.

وعلى الفور انصاع الجميع لأوامر السلطان ولم يبقَ أحد سوانا في القاعة أنا وأعظم سلاطين الأرض، فتذكّرت إحدى المنمنمات في مكتبة آيا صوفيا، تمثل عالم الفلك الكبير علي كوشتجو وهو يقدم أحد كتبه للسلطان الفاتح، وكان يجثو على ركبتيه بالقرب من كرسي العرش محافظاً على مسافة محدّدة حاولت التقيّد بها وأنا أجثو بالقرب من عرشه.

- لكلّ حدث وجهان، وفي قلب الخير تكمن بذور الشر وفي قلب الشر تكمن بذور الخير. وكما ذكرتَ قبل قليل فقد خدمت عائلة تشاندرلي الدولة العليّة أكثر من مئة وخمسين عاماً، ولكن رجالها في المقابل، وبعد استحواذهم على السلطة والمال بدأوا يتصرفون وكأنهم حكام السلطنة الفعليون، وكانوا يستغلون نفوذهم ويتصرفون دون حسيب أو رقيب.. وقد بدأت المشكلة حين قام جدنا يلدرم بيازيد بهزيمة تيمور، فعمَّ هذا الخائن

والمدعو علي باشا وقف ضد جدّنا العظيم محمد خان، ليساند ذلك السكير الأمير سليمان متحدياً السلطان بكل جرأة ووقاحة..

- أرجو المعذرة يا مولاي، ألم يكن والد خليل وهو إبراهيم باشا الذي وقف في وجه أخيه وقام بمساعدة جدك الشجاع محمد جلبي، وكان له فضل عظيم على الدولة وتفانى في خدمتها حتى وفاته.

أومأ ببطء موافقاً.

- معك حق، ولكن أبناء هذه العائلة يتّصفون بالمكر وبعد النظر، ويدركون جيداً من هو الباقي المنتصر ومن هو المهزوم الزائل، ولذلك تخلّى والده عن الأمير موسى جلبي والتحق بخدمة السلطان محمد خان، لا تفانياً وإخلاصاً بل لأنه يدرك أن الأمير الذي كان يخدمه سيئ الحظ ولا فرصة لديه في بلوغ المجد والسلطة.. فهم يميلون كما تميل الريح ويحتمون بالأقوى على الدوام. ولن أنكر أنّ والدي السلطان مراد غازي خان كان لديه ثقة مطلقة بعلي باشا ثم بابنه خليل باشا، وكان على الدوام يبقيهما بالقرب منه. وقد حاول هؤلاء الوزراء أن يتلاعبوا بالسلاطين ويتحكّموا فيهم كيفما يشاؤون وهذا ما كان يفعله تشاندرلي خليل باشا وكان ينوي أن يكمل هذه المسيرة معي.. أي أنه كان ينوي التلاعب بمصير الدولة على هواه، وكان والدي المغفور له سمح الطباع وهذا ما منحه فرصة التحكّم فيه، وقد اضطر في النهاية لترك العرش ليبتعد عن كل هذه المؤامرات، وتنازل لي عن هذه المسؤولية العظيمة. وحين اعتليت العرش بدأ هذا الملعون يحوك من حولي المؤامرات ليوقع بي، وقد حاول في البداية تشويه سمعتي أمام والدي وأن يقلل من قدراتي، ولم يترك وسيلة إلا واتّبعها وتمكّن في النهاية من إقناعه بإرسالي إلى مانيسا مرة أخرى وإبعادي عن العرش، حتى أنه لم يتوانَ عن الاتصال بالكفرة أثناء حصار القسطنطينية لمنعنا من تحقيق هذا النصر العظيم.

تنهّد بعمق ولكن تلك التجاعيد على جبينه وتلك النظرة الحادّة بدأت تنقشع، وبدأ النور يعود مجدّداً إلى غرفة العرش، وعادت ملامح الشباب إليه، ليبدو في الثامنة

عشرة من عمره وهو يواصل حديثه:

- لقد قام هذا المنافق بمؤامرة قذرة في أول جلوس لي على العرش - وهنا عادت إليه ملامح فتى في الثانية عشرة من العمر عندما استلم العرش في صيف العام ألف وأربعمئة وأربع وأربعين - وقد ورّطني في لعبة قذرة جداً ما كان لأحد يجرؤ على التفكير فيها - والتهبت عيناه قبل أن يكمل - لم يمضِ على جلوسي على العرش وقت طويل حين سمعت عن أحد الدراويش المتصوّفين الذين بدأ الناس يردّدون أحاديثه وأقواله بين مصدق ومكذب. كان يتحدّث بطريقة مختلفة عن أمور الدين والدنيا، وينظر للأمور من زاوية أخرى، وقد طلبت أن يمثل هذا الرجل أمامي لأسمع بنفسي ما يقوله. وقد تحققت رغبتي فمثل الرجل أمامي بكل تواضع واحترام. كان نحيلاً كعود الخيزران ولكنّ عينيه تقدحان شرراً وتشيان بجذوة الإيمان التي تتّقد في صدره، وما إن وقع نظره عليّ حتى بدأ يرتعش وبدأ بالدوران حول نفسه.. وأخذ صوته المبارك يصلني وكأنه آت من عالم آخر.. "ستُفتح القسطنطينية بكل تأكيد، فنعم الأمير أميرها ونعم الجيش ذلك الجيش.. وحمداً لله لأنك أنت ذلك الأمير المقصود، وحمداً لله لأنك من تشير إليه النبوءات.. أنت سابع سلاطين سلالة آل عثمان، ومدينة التلال السبعة لن يفتحها سوى سابعُ السلاطين، فهذا الرقم المبارك يحمل عظمة الكلمات الإلهية (قُلْ كُنْ فيكون).. ولأن هذا الرقم هو رمز الكمال، فهو إشارة للمستقبل ولا شك بأنك المستقبل المضيء وذلك الأمير الميمون الذي تحدث عنه رسولنا الكريم، فليكن فتحك مباركاً..".

كان لوزراء ورجال الدولة الذين يحيطون بي وحضروا هذه الحادثة وجهات نظر مختلفة، فسروجي باشا وزاغنوس باشا أكّدا أنّ هذه الكلمات تنطوي على معنى عميق، وقد تكون النبوءة صادقة؛ إلا أنّ تشاندرلي خليل باشا، الذي لم يتقبّل للحظة اعتلائي العرش وظل يحاول الإيقاع بي وكان يعتبرني على الدوام مجرد فتى صغير، لم يصرّح بما يضمره حينها وبقي ساكتاً، وبدأ بمؤامرة قذرة ستكون نتيجتها موت المتصوّف المسكين وتوريطي في موقف وحشي وقذر، أنا الطفل البريء حيث لم

تكن لديّ الخبرة الكافية لأدرك ما يعتمل في صدر الرجال من خبث ورياء، ولم أكن مطلعاً بشكل كافٍ على المؤامرات والدسائس التي يحوكها الأعداء والطامعون من حولي، فقد كنت مجرد فتى يحاول أن يثبت جدارته بالمسؤولية العظيمة التي كلفه بها والده السلطان، وكان تشاندرلي خليل يدرك كل ذلك، فقام بدعوة الدرويش المسكين إلى منزله، وقام بدعوة المفتي فخر الدين وطلب منه التواري خلف ستارة حيث سيبدأ الدرويش بسرد آرائه ومواعظه.. وما إن دخل الدرويش حتى استدرجه تشاندرلي الماكر للحديث في أمور ومسائل حساسة ولم تكن آراؤه توافق هوى المفتي الذي لم يعد قادراً على الاحتمال فخرج ليهجم على الدرويش المسكين، واستطاع هذا الأخير النجاة بصعوبة وعندما خرج إلى الشارع وجده الحراس وأحضروه لقصري ملتجئاً باكياً وهو غير مصدّق كيف استطاع النجاة من موت محتوم.

وهنا نضجت مؤامرة خليل القذرة، فقد بدأ بسرد الأقاويل بأنني آويت أحد الكفرة والزنادقة في قصري، في حين أنّ قصر السلطان، قصر الدولة العثمانية، هو المكان الذي يلجأ إليه كل ضعيف ومحتاج وواجب السلطان حمايتهم أيًا كانوا، إلا أنني كنت فتىً غرًّا قليل الخبرة سليم الطوية وقد اضطررت أن أسلم الدرويش المسكين إلى أولئك المجرمين بعد أن تردّدت الأقاويل والاتهامات حولي. وكانت الصدمة الكبرى التي تلقيتها في تلك الحادثة أنهم قاموا بإحراق المتصوف المسكين مع مريديه السبعة أحياء، ونصبوا مشاعل حرقهم حول القصر حيث كانت أصوات صرخاتهم تلهب أعماقي، وكان هدفه من هذه اللعبة القذرة هي زرع الخوف في قلبي. والمفارقة أنّ تلك النيران التي أشعلها فخر الدين بيديه انتقلت إلى ذقنه وكادت أن تودي بحياته.

- في تلك المحرقة التي نصبها الماكر أمام قصري، لم يحرق أولئك المساكين السبعة فقط، بل أحرق كبريائي وبراءتي، وجعلني أشعر بالخزي لأنني لم أستطع إنقاذهم.. وفي تلك اللحظة أدركت وأنا انظر إلى تلك المشاعل البشرية، أنّ هذا الملعون تشاندرلي ما هو إلا أحد رجال إبليس وعليّ التخلّص منه عندما تسنح الفرصة، وقد أثبتت الأحداث التالية صحة اعتقادي، ولكن والدي السلطان المعروف بسعة صدره سامح الوزير ولم

يحاسبه، ذلك أنه كان يعتبره سليل عائلة قدّمت لأجدادنا خدمات كبيرة، ولكنه وفي إحدى المرات التي دعوته فيه إلى قصري تصرّف بطريقة بعيدة عن دهائه المعروف، ما عزّز رغبتي في التخلّص منه..

وفيما كان يواصل الحديث عاد ليصبح ذلك الشاب الذي فتح أعظم مدن العالم، ذلك السلطان المهيب الذي تشي سحنته بذكاء وشجاعة قلّ نظيرهما..

– حين حصار القسطنطينية في تلك الليالي التي كنت أقع فيها أسير الأرق، استدعيت خليل باشا من أجل مزاعم زاغنوس باشا وسروجي باشا حول علاقته بإمبراطور القسطنطينية والمؤامرات التي يحوكها لمنعنا من تحقيق النصر، وقد خاف من استدعائي له في وقت متأخّر كهذا، فدخل عليّ وهو يحمل صرّة مليئة بالذهب وعندما سألته عن الأمر أجابني دون خجل وهو ينظر إليّ بمكر "لم أشأ أن ألبي دعوة مولانا خالي الوفاض كما أنّ هذا الذهب يعود إلى جلالتكم، وقد بقي كل هذا الوقت أمانة عندي لأسلّمها في اللحظة المناسبة لجلالتكم.." في اللحظات التي كنت أنوي فيها تحقيق حلم جدنا العظيم عثمان غازي وفتح أعظم مدن الأرض كان هو منشغلاً ببعض القطع الذهبية، فقلت له "إن ساعدتني في نيل مرادي فسأمنحك أضعاف هذا الذهب، وأشرت إلى زاوية الخيمة حيث سريري وقلت: أترى، فأنا لم أضع رأسي على وسادتي منذ بضعة أيام ولم أنم قرير العين، لأنني أبذل كل جهدي من أجل التخلّص من الخطر المحدق بدولتنا وفتح هذه المدينة، وبإذن الله سيكون فتحها على يدي أنا وجيشي، وكما أشرت من قبل فأنا بحاجة لمساعدتك.. بدا عليه الانشراح فقد ظنّ أنه استرد ذهبه وتخلّص من شبح الموت في آن وأخذ يعيد تلك الكلمات المكرورة المخادعة "أنا على الدوام مستعد لخدمتكم وفعل المستحيل إرضاء لأوامركم..".

بالرغم من غرابة الموقف، فالمثول أمام أعظم سلطان على الإطلاق وهو يروي لي حادثة قتل وزيره لم يكن بالأمر السهل، لكن روح المؤرخ في داخلي دفعتني لطرح مزيدٍ من الأسئلة وإشباع فضولي.

– لا شك يا مولاي أنك أكثر الناس عدالة، ولكنني وكمؤرخ عليّ التزام

الحيادية وطرح وجهات النظر الأخرى التي يردّدها بعض المناصرين لتشاندرلي خليل في هذه القضية. فهناك كثيرون يعتبرون أنّ الصدر الأعظم كان يواصل اتباع سياسة والدكم السلطان في تجنّب الحروب قدر المستطاع والعيش في سلام مع دول الجوار. وأصارحك بأنّني كنت أميل لهذا الرأي في البداية..

ولكن السلطان قاطعني:

– للأسف لا يوجد شيء اسمه سلام، لا على وجه الأرض ولا حتى في عمق البحار. فكما لكل دولة حاكم مطلق، فالعالم أيضاً يجب أن يكون له حاكم مطلق لا ينافسه على سلطته أحد، كما الإسكندر العظيم والقياصرة، ولا شك أنّ كل حاكم أو ملك أو سلطان يعتبر نفسه الأحق بهذه السلطة. وأما الذين يمتلكون القدرة والجرأة فإنهم يصرحون بهذه الرغبة دون مواربة، وأما الجبناء فإنهم يتستّرون وراء أسباب ومبرّرات أخرى.. ولو أننا لم نهجم على أعدائنا لفعلوا هم ذلك، ولو لم نقم بغزو قلاعهم لقاموا هم بغزو قلاعنا. كما أنّ أحداث التاريخ القديم والأحداث التي عاصرناها وما سيحدث في المستقبل تؤكد هذه المقولة.. فهذا هو القانون الذي يحكم العالم منذ الأزل، ولا مناص من أن يُكتب هذا القانون بحروف من الدماء، لأنّ نوازع الشر أكثر بكثير من الخير الذي نحمله في صدورنا. ففي الوقت الذي تحاول بناء حضارة وتوفير الحياة الكريمة لجميع أبناء شعبك فإن أعدائك يستمرون في حبك الدسائس والإيقاع بك عند أول فرصة، لذلك فالسلام الأبدي وهم لا سبيل لتحقيقه.. كما أنّ السلطان مراد الثاني لم يكن أبداً غافلاً عن هذه الحقيقة فالانتصارات التي حقّقها تثبت للصديق قبل العدو أنه كان شخصاً حكيماً يعي تماماً ما يدور من حوله، لكن ذلك اللعين تشاندرلي خليل كانت له مآرب أخرى، ولا مجال هنا للمقارنة بينه وبين المرحوم والدي على الإطلاق. كما أنّ الجميع على اختلاف ميولهم ومِلَلهم كانوا متفقين على أنّ هذا الخائن يستحق الموت منذ زمن طويل..

وما إن أنهى السلطان كلماته حتى بدأنا نسمع ضجة من حولنا وسقطت الستارة

المطرّزة بخيوط من ذهب والتي عُلّقت خلف كرسي العرش كبحر قماشي وأخذت الأرض تزلزل وتتشقّق تحت قدمي، حتى السجادة بدأت تتمزّق.. إلا أنّ السلطان الفاتح الذي كان يرى كل ما حوله ينهار لم يبدُ عليه الخوف أو الاستغراب وكان يتكلم بكل هدوء.

- لقد أزف الوقت أيها العالم الجليل، وإن لم يكن لديك سؤال آخر أظننا يجب أن نودع أحدنا الآخر..

سؤال أخير؟.. ما الذي يمكن أن أسأله وكل شيء يتداعى من حولي؟.. حجب الخوف كل الأفكار عن ذهني وبدأت أرتعش على وقع الزلازل من حولي، وبدأ العرش أيضاً ينهار ويتفتت. وكنت أراقب كل ذلك وأنا أتوسّل ذهني علّه يسعفني بسؤال، ويبدو أنّ السلطان أدرك حيرتي فبادر بالكلام:

- يبدو أنك استنفذت فرصك بالكلام أيها العالم وقد حان دوري لأسألك. منذ لحظة وفاتي وهناك سؤال يشغل ذهني، هل سمعت عن شخص يموت بمرض النقرس؟..

انتهى ذلك السحر الذي أحاط بنا مع آخر كلمات السلطان الذي وقع أرضاً مع انهيار عرشه، وحين مددت يدي لأساعده بدأت يدي أيضاً تتفتّت وأخذت أصرخ هلعاً:

- لا.. لا..

وعندما فتحت عينيّ وجدتني على أريكة غرفة الجلوس متدثّراً بلحاف يفوح برائحة البنفسج وبقربي كتاب رشاد أكرم كوجو (السلطان محمد الفاتح) وعدت أسمع تلك الضجة وكأنّ أحدهم يدق الباب بقوة، وتساءلت إن كنت لا أزال أواصل الحلم أم أنّ أحدهم يطرق بابي بالفعل؟..

(25)

أتذهب لمقابلة القتلة بيد خاوية ودون سلاح؟..

لم أتأكّد من استيقاظي تماماً حين فتحت الباب ووجدت ذلك الملعون يقف أمامي، كان رأسي ثقيلاً وعيناي محمّرتين، وكنت لا أزال أهيم بين الحلم والواقع. كان يرتدي معطفاً رمادياً وقد رفع الوشاح الذي يحيط بعنقه ليغطي جزءاً من وجهه الكريه.

- صباح الخير أستاذ.

انتشلني صوت جتين من ذلك الحلم ليؤكد لي أنني استيقظت بالفعل.

- جتين؟..

كانت مخاوفي تتحقّق، لا بدّ أنّ الدور قد بلغني. وعلى الفور نظرت إلى يديه اللتين رغم خلوّهما من السلاح إلا أنّ شكل قفازه الأسود أثار مخاوفي أكثر، وقد لاحظ الاضطراب الذي اعتراني فبدأ بالتوضيح.

- أعتذر على إزعاجك، ولكنني انتظرتك أكثر من ربع ساعة ولم تحضر.

وإزاء نظراتي الخاوية من أي فهم زاد في التوضيح.

- ألم نتفق أن أقلّك بالقرب من تمثال الثور يا أستاذ؟

حينها تذكرت موعدنا وأدركت أنني تأخرت عليه، فيما كان يواصل حديثه متصنّعاً اللباقة.

- وكنت سأُخالَف من قِبَل شرطي المرور لأنني ركنت سيارتي في الطريق كل هذا الوقت، وقد تكبّدت مشقة كبيرة لإقناعه بتركي وشأني..

لم أبالِ بما حصل معه، ولا بأنني قد تخلّفت عن الموعد الذي اتّفقنا عليه، بل كان هناك سؤال واحد يدور في ذهني.

- كيف استطعت الوصول إلى هنا؟ سألته قلقاً.



رسم ابتسامة بريئة على وجهه وهو يجيب:

- ألا تذكر يا أستاذ حين عدنا من الجنازة وأوصلتك إلى منزلك بسيارتي؟

ما الذي يتحدث عنه هذا الأحمق.

- أي جنازة؟

- جنازة السيدة بيرين زوجة الأستاذ طاهر، وكان معنا الأستاذ إندر أيضاً؛ أستاذ عصور ما قبل التاريخ، وقد أوصلناه إلى منزله في منطقة أيتوني زاده ثم قمت بإيصالك إلى منزلك، وقد أخبرتني حينها.

ولكنني قاطعته:

- حسناً حسناً، كان يوماً شديد الحرارة أليس كذلك؟ - أعترف بأنني غريب الأطوار بما يكفي لإطلاق تهمة الجنون عليّ، فأنا لا أذكر ما حدث معي البارحة، ولكنني أذكر طقس يوم ما قبل سنتين، يبدو أنّ ذاكرة الفيل التي عُرفت بها تتحول إلى ذاكرة سمكة في بعض الأحيان..

- أجل، وقد قمنا بوضع مكيّف السيارة على أدنى درجة ومع ذلك لم تخفّ وطأة الحرارة.. - تمهّل قليلاً وقد بدا الشك على قسمات وجهه - هل ارتكبت خطأً بالمجيء إلى هنا؟

بالطبع لقد ارتكب خطأً فادحاً، فأنا لم أكن راغباً في أن يقترب قاتل مثله، ليس من منزلي فحسب بل من الحي الذي أقطنه.

- لا عليك - عدت لارتداء قناع اللباقة - ولكنني أسفت لأنك قد تكبدت كل هذه المشقة وأتيت إلى هنا.

يبدو أنه لم يصدّق.

- لم أكن أنوي إزعاجك أستاذ، وقد اتصلت بك على هاتفك الجوّال ولكنك لم تجب، واضطررت للاتصال بالأستاذ طاهر الذي شعر بالقلق وطلب مني بإلحاح أن آتي إلى منزلك..

كان يتصنّع البراءة وكأنه بالفعل جاء للاطمئنان عليّ، ولكنني لم أكن لأُخدع بهذه المظاهر الكاذبة. ولو أردت البقاء حياً وسط هذه الشبكة العنكبوتية التي يحوكونها من حولي لتوجّب عليّ الحذر من كل كلمة يتفوّه بها هو وشركاؤه عندها تناهى إلى

مسامعي صوت والدي وهو يقول:

"لا بقاء لأمة ما لم يكن شرفاؤها أكثر جسارة من الخونة..".

عاد صوت جتين ليطغى على صوت والدي.

- حقاً أستاذ، ما الذي أخاف الأستاذ طاهر حقي.. أعني لِمَ هو قلق عليك إلى هذا الحد؟

بدا سؤاله واضحاً وكأنه يتخلّى عن استراتيجية المراوغة، وكأنه يتحدّاني بطريقة ما، وقبل أن يمنحني الفرصة لجمع أفكاري بادرني بالسؤال الثاني:

- هل للأمر علاقة بمقتل السيدة نزهت؟

اعتبرتها فرصة مناسبة لاستدراجه للكلام، ولكن ليس هنا. كما أنني لن أدعوه إلى دخول المنزل.

- لست متأكداً، سنتكلم عن الأمر في الطريق، ولكنني أعتذر - قلتها وأنا أشير نحو الداخل - كنت أريد دعوتك ولكن إحدى صديقاتي في الداخل والفوضى تعمّ المكان..

لم يُبْدِ أيّ إصرار على الدخول، وهذا ما أثار استغرابي.

- لا عليك يا أستاذ، ولكن هل ستأتي معي؟

حينها عادت مخاوفي وشكوكي، أكان عليّ الانسحاب، ولكن لا خيار أمامي سوى إكمال هذا الطريق، كما أنني من طلب من الأستاذ ملاقاته من أجل الحديث. وحتى لو كان هذا الأرعن مُرسَلاً من قِبَله للتخلّص مني فلن أنسحب الآن، كما أنها فرصة لاستدراجه إلى الكلام.

- بالطبع سآتي، ولكنني بحاجة إلى بعض الوقت.

بدا متفهّماً وقال بلباقة:

- حسناً يا أستاذ، لا مشكلة، سأنتظرك في السيارة.

أحسست أنّ غيمة انقشعت عن سماء رؤيتي بعد أن ذهب جتين. ولكنني بدل الإسراع في ارتداء ثيابي بقيت واقفاً للحظات أفكر، وأدركت بأنني يجب أن أحكم إغلاق الباب تحسّباً لأي طارئ، ولم أكتفِ بإقفال الباب بل أغلقته بالسلسلة الحديدية أيضاً، فقد كان الحذر حكمة في ظل ما يجري.. كانت أسرع حلاقة ذقن قمت بها

في كل حياتي، وعندما توجّهت إلى غرفتي وفتحت الخزانة لارتداء أحد قمصاني الزرق التي يختلف بعضها عن بعض في تفاوت درجة اللون فحسب. وفيما كنت أزرّر القميص سمعت صوته:

"ألن تأخذ معك سلاحاً؟..".

عاد ذلك الرجل الخطير إلى الظهور.

"أتذهب لمقابلة القتلة بيد خاوية ودون سلاح؟"..

حاولت تصنع اللامبالاة فيما كان يكمل حديثه:

"لا تخشَ شيئاً فقريباً لن تضطر لدفن رأسك في الرمال - كان يرمقني بتحدٍّ وسخرية - حيث سيتم دفن جسدك بأكمله تحت التراب.

لم أنجرّ إلى لعبته الاستفزازية وبقيت صامتاً.

"سيتم دفنك في مقبرة كارجا أحمد حيث دُفِن والداك وستصبح مجرد كومة من العظام كما أصبحا..".

لم أعد قادراً على تحمّل مزيدٍ فصحت قائلاً: كفّ عن تسميم روحي، فأنا رجل علم ولست مجرماً، والأسلحة للقتلة وليست لأمثالي..

وحينها بدأت أسمع قهقهةً تتردّد في أرجاء الغرفة.

"أنت بذلك تسيء إلى والدك وتتّهمه بالإجرام..".

ما تقوله غير صحيح فوالدي كان مولعاً بجمع الأسلحة واقتنائها، لكنه لم يشهر سلاحه في وجه أحد على الإطلاق. كانت مجرد هواية غريبة بعض الشيء. كما أنّ عائلتنا لا يمكن أن يكون أحد أفرادها مجرماً.

"حقاً؟..".

كان الاستهزاء واضحاً في صوته وهو يقرّب وجهه من وجهي، وبتّ أرى بوضوح عينيه العسليتين اللتين أعرفهما جيداً.

"أمتأكد أنّ أحداً من عائلتكم لم يقترف جريمة قتل؟..".

بالطبع، وإن كان يعني قاتل نزهت فليذهب وليواجه ذلك المجرم الذي يجلس في سيارته الآن بانتظاري.

"وهذا ما أعنيه.. - كان بادي الانفعال هذه المرة - فلو كان دميم السحنة ذاك



هو القاتل، فعليك أن تأخذ المسدس معك بكل تأكيد..".

يبدو أنّ مجنون المرآة هذا يفعل المستحيل من أجل دفعي لارتكاب جريمة قتل. لذا فقد عدت إلى لعبة اللامبالاة، وأكملت ارتداء ثيابي بصمت فيما كان يواصل حديثه:

"أنسيت الهلع الذي انتابك عندما رأيته واقفاً على بابك؟.. كما أنه لا فرق بين إقفال بابك بإحكام وبين أخذ المسدس معك، فكلاهما وسيلة وقائية لا أكثر..".

رفعت إبزيم سحاب البنطال.

"تخيل لو رشّ على وجهك رذاذاً مخدراً وأنت معه في السيارة، أو أفقدك الوعي بضربة مفاجئة على رأسك، لتجد نفسك بعد استعادة وعيك في مكان مقفر وأنت مقيّد لا تقوى على الحركة، هذا إن بقيت حياً حتى ذلك الوقت..".

وأشار بيده كسكين على عنقه وهو يحذّرني من الموت.

"فاحتمال قتلك ورمي جثتك في مكان ناءٍ وأنت غائب عن الوعي أكبر بكثير، وإن كنت قادراً على مواجهة مصيرٍ كهذا فاذهبْ خالي الوفاض..".

كنت أحاول أن أتجاهله، ولكن عندما فتحت باب الخزانة لأخرج سترتي اختفى للحظات، وعاد للظهور مرة أخرى ما إن أغلقت الباب، وهو يواصل تسميم نفسي بالخوف.

"كيف تتأكد من أن لا أحد معه في السيارة؟..".

لقد أخبرني هو بالأمر، ولكن هذا الجواب الضمني الذي عبر ذهني كان كافياً ليثبت له اهتمامي بما يقول فاستغل الفرصة على الفور.

"هذا ما قاله لك البارحة، ولكنه لم يقل ذلك عندما كان واقفاً ببابك منذ قليل – وأشار بيده نحو النافذة وهو يكمل – ما رأيك أن تتأكد، فلن تخسر شيئاً؟..".

في الحقيقة لم أكن أريد الردّ عليه، ولكن ماذا لو كان محقاً؟.. أليس من الغباء تعريض نفسي لخطر كهذا بسبب العناد لا أكثر؟.. وظلّ المجنون يواصل شحن مخاوفي ووساوسي.

"هيا، لا تفصلك عن النافذة سوى خطوتين، تحقّق من صحة كلامه علّك تنجو بنفسك..".



حسناً، حسناً... اتّجهت نحو النافذة متبرّماً، كانت السماء صافية وخالية من الغيوم، وأصوات قطرات المياه المتساقطة إثر ذوبان الثلج تضفي على الأجواء نغمة خاصة. وسيارة جتين الجولف الزرقاء تقف أمام البناء، ولكنني لم أتمكن من مشاهدة من بداخلها بشكل واضح، وبدا لي وكأن أحداً يجلس بالقرب من السائق. أخرجت رأسي من النافذة أكثر ولكنني لم أستطع التحقّق، فعدت إلى الداخل وأنا أقول: لا أحد معه في السيارة.

"ولكن علينا أن نحتاط للأمر. خُذِ السلاح معك..".

عادت نظراتي كما البارحة نحو الدرج الذي يقبع فيه المسدّس، كان مسدّساً من ماركة كولت ذا مقبض خشبي يتسع مخزنه لست طلقات.. كان سلاحاً يختفي في قبضة والدي الضخمة، وعندما كان يطلق النار كنا نسمع صوتاً أشبه بصوت مدفع وأذكر أنه حين اصطحبني إلى نادي الرماية كنت في الرابعة عشرة من عمري.

"لا تكذب. كنتَ في الخامسة عشرة، وقد أخذك معه بعد عيد ميلادك بيوم واحد، فقد كان المسكين يريد الاحتفال بابنه الذي بلغ مبلغ الرجال، ولكن للأسف خاب ظنّه..".

انتبه لما تقوله.

"أنا أتكلم بصراحة، وفي المقابل كان السلطان محمد الفاتح الذي لم يبلغ الثانية عشرة من عمره يتمنّى قيادة الجيش ومحاربة أعدائه فيما تخاف أنت من أخذ مسدّس قديم معك للدفاع عن نفسك..".

أولاً، لم يكن اسمه حينها الفاتح، بل كان السلطان محمد الثاني. وثانياً، كان سيرافقه رجالات الدولة ووزراؤها وقادة الجيوش بالإضافة إلى آلاف الجنود الذين كانوا سيحاربون عنه..

"ولو خسر تلك المعركة لكانت المسؤولية كلها ستقع على عاتقه، وكان سيُحاسب هو على هذه الخسارة. أنا فقط أود أن أشير إلى الشجاعة التي تفتقر إليها، على النقيض من الفاتح الذي كانت يتصف، ليس بالشجاعة فحسب بل بإرادة حديدية. ولو كنت في مكانه لكنت اختبأت خلف ثوب أمك مذعوراً..".

لا تحاول، فلن تقنعني بأخذ ذلك السلاح معي ولن تجعل مني قاتلاً، "ذلك أنّ



السلاح الذي بحوزتك لا بدّ أن يطلق رصاصة.." أعتقد أنّ قائل هذه الكلمات هو دوستويفسكي..

"لا أيها الأحمق، إنه تشيخوف. وقد قال على وجه التحديد" إنّ البندقية المعلّقة على الجدار لا بدّ أن تطلق رصاصة.." على أي حال لا أهمية لذلك الآن، فالمهم هو من سيخرّ صريعاً جراء تلك الرصاصة. وإن كنت لا تريد أن تصبح الضحية الجديدة فخُذْ ذلك السلاح اللعين معك..".



(26)

عليك أن تنهال عليهم بالضرب
ثلاث مرات في اليوم يا أستاذ..

أزعجه جلوسي في المقعد الخلفي للسيارة وهو ينظر إليّ بتوجّس، على عكس اللباقة التي أظهرها قبل قليل حيث قرّب السيارة من مدخل البناء حين رآني. يبدو أنه كان متأكّداً من أنني سأجلس بالقرب منه لذا فتح الباب الأمامي للسيارة، إلا أنني كنت مشغولاً بفحص السيارة وخلوّها من أحد آخر سواه.. إذاً فقد أخطأ مجنون المرآة في تخميناته مرة أخرى، كان جتين وحده، ولكن لا ضير في اصطحاب هذا الشيء الذي أعطاني دفقاً من الأمان. ومع ذلك لم أشأ الجلوس بالقرب من مجرم كهذا. فأغلقت الباب الأمامي للسيارة بلطف وجلست في المقعد الخلفي وأنا أقول لجتين:

- أعتذر، ولكن الجلوس في المقعد الأمامي يصيبني بالغثيان.

بالتأكيد لم يرق له الأمر ولكنه كان يرمقني بصبر بالغ، وعندما تحركت السيارة بادر بالسؤال:

- هل هذا يحدث معك على الدوام يا أستاذ، أم أنه شيء مستجد؟

أكان سؤالاً بريئاً أم أنه كان يريد التأكد من نواياي؟

- في الحقيقة أنا أخاف الجلوس في المقعد الأمامي منذ الصغر، ومع بلوغي هذه السن ازداد الأمر سوءاً، فمنظومة الإنسان العصبية يتخلّلها الضعف، وكما تعلم أنا على مشارف الستين وهو ليس بالأمر الهين خاصة أننا شهدنا أحداثاً مؤسفة مؤخّراً.

لا أعلم إن صدّق ما أقوله ولكن بدت عليه الراحة.

- على رسلك يا أستاذ فأنت تُعتبر شاباً مقارنة بالأستاذ طاهر حقي الذي تجاوز الثمانين وما زال بكامل قواه..



كنت أتابع حديثه ويدي داخل محفظتي تمسك بمقبض المسدس، وقد أطلقت قهقهة صغيرة لأثبت له متابعتي لحديثه. ساد بعدها صمت ثقيل وحذر أصابني بالتوتّر فكسرته معلّقاً على حديثه السابق.

- إنهم كأشجار عتيقة دائمة الخضرة، ويخيل لي أنه يتغذّى على طاقة الشباب من أمثالك..

حدّق إليّ من المرآة الأمامية كمن يتساءل عمّا أرمي فبادرت بالتوضيح:

- حماسكم للعمل ينتقل بدوره إلى الأستاذ ويشجعه على مواصلة المؤتمرات والدراسات والجولات التاريخية.. ورغم تقاعده فمن الواضح أنه لن يترك العمل حتى آخر لحظة..

ابتسم وهو يتابع الطريق وأحسست بتوتّر مشحون بيننا، وكأننا في اختبار للقدرة حول استدراج الطرف الآخر للحديث والحصول على ما يبتغيه من أجوبة. بدأ هو بالحديث ولكنه لم يتكلم عن أكين كما كنت أتوقع.

- علينا اجتياز الجسر الثاني - كان صوته برماً - أتمنى ألا يكون مزدحماً الآن، ومن المؤكد أننا سنتأخر عن موعدنا فقد شارفت الساعة على الثامنة ولكنني أخبرت الأستاذ بتأخّرنا..

لم يكن في صوته ما يشير إلى اللوم، ولكنني كعادتي ألقيت اللوم على نفسي وشعرت بوجوب تبرير الأمر.

- أعتذر كثيراً يا جتين.. فقد بقيت أقرأ كتاب أكرم كوج حتى ساعة متأخرة، لكي أرتب بعض الأفكار عن الجولة التي سأقوم بها مع الأستاذ. لذا لم أستيقظ على صوت المنبّه صباحاً..

- أكنت تقرأ الكتاب مع صديقتك؟

لكنني للأسف كنت قد نسيت كذبة الصباح.

- صديقتي؟

- ألم تخبرني أنّ لديك ضيفة؟

أظنني كنت مخطئاً حين استخففت بذكائه وقدرته، لذا بدأت أعتصر ذهني باحثاً عن مخرج آمن.

- أتعني فريحة؟

من هي فريحة يا ترى؟.. لم تدخل امرأة بهذا الاسم حياتي مطلقاً، ولكن عليّ إتمام كذبتي حتى النهاية.

- في الحقيقة لا يستهويها التاريخ كثيراً، ولكنها مولعة بالأزهار ونباتات الزينة وخاصة الأزهار النادرة التي لم نُرَ لها مثيلاً من قبل - وبدأت بذكر بعض أسماء الأزهار النادرة التي علقت في ذهني - كزهرة لوثوريوس كارسيانوس والتي لا تنمو إلا في مناطق محدّدة، ولا يقتصر اهتمامها على النباتات فقط، فهي تهتم بجميع المخلوقات. وحسب رأيها لا يحق لمخلوق سلب الآخر حياته مهما كانت الأسباب.

ابتسم وهو يقول:

- إذاً فمن الطبيعي ألا يستهويها التاريخ، فهو حافل بالاغتيالات والحروب والمعارك التي لا تقتصر فيها لائحة الضحايا على البشر وحدهم بل تشمل جميع المخلوقات الأخرى..

بدأ الحديث يسير حسب الوجهة التي أريد.

- خاصة إن كان هناك نزاع على عرش ما مثلاً.. - حاولت أن أصيب أقرب نقطة ممكنة من الهدف، وما إن سمع كلمة العرش حتى فقد اهتمامه بالحديث وغرق في صمت غريب، إلا أنني لم أكن أريد أن أتركه ببساطة - حقاً، ما كان رأي نزهت في هذا الموضوع؟..

وبدل أن أسمع صوته يجيبني، سمعت صوتاً حادًّا لاحتكاك الدواليب على الطريق نتيجة الضغط على المكابح فجأة لتتوقّف سيارتنا بشكل مفاجئ، وبالكاد استطعت حماية وجهي من الارتطام بالكرسي الأمامي.

- يا إلهي..

قالها صارخاً وهو ينظر إلى شاحنة كبيرة كجبل وقفت على بعد سنتيمترات قليلة منا، وشمّر عن ساعديه واستعد كنمر متوحّش لمعركة ضارية وهو يشتم بصوت عالٍ:

- قذر ملعون.. لم يكلّف نفسه عناء تنبيهنا والضغط على زمور السيارة، لا بدّ أن ألقنه درساً عن القيادة..

وأخيرا أظهر وجهه الحقيقي وكشّر عن أنيابه، فكل محاولات اللباقة التي كان يحاول ادّعاءها منذ الصباح تبخّرت أمام هذا الموقف الذي جرّده من أقنعته..

- دعه وشأنه - حاولت تهدئته - فشوارعنا تفيض بأمثاله..

ولكن كلماتي زات من حدة غضبه:

- ألم تَرَه يا أستاذ؟.. ألم تَرَ كيف انتصبت الشاحنة أمامي فجأة؟.. لو تأخّرت في الضغط على المكابح لثانية أخرى لكنّا الآن ممزقين تحت دواليب هذه الشاحنة..

كان محتدًّا أكثر مما يقتضيه الموقف، ولكنني لم أتفاجأ لأنني أعرف حدّة طباعه.

- لا عليك، فلنحمد الله أنّ الأمر مرّ بسلام.. هيّا فلنكملْ طريقنا..

يبدو أنّ سائق الشاحنة لم ينتبه لما حصل، وقد عاد جتين للقيادة مرة أخرى على الرغم من أنه كان بادي الانزعاج، وبعد حوالى عشرة أمتار استطاعت الشاحنة أن تجتاز المنعطف وتسير باستقامة وهنا صرخ جتين بحدّة:

- وأخيراً أدرك هذا الأحمق كيف يجب أن يقود..

حينها انتبه سائق الشاحنة إلى جتين وهو يصرخ شاتماً فأدرك الأمر، ولكنه كان أسوأ من جتين فأخرج نصف جسده من نافذة الشاحنة وتبادل الاثنان أقذع الشتائم، والأسوأ أنّ جتين بدا وكأنه سيوقف السيارة ليعارك السائق.

- أتنوي حقاً أن تتشاجر مع أرعن كهذا؟.. أنه لأمر معيب بالفعل..

حينها لاحظت الحقد الذي في عينيه وهو يرمق السائق، فأدركت أننا مقبلون على ورطة كبيرة ما لم أتدخّل.

- هيا يا جتين هيا.. فقد تأخّرنا كثيراً..

كان يحاول قدر المستطاع السيطرة على غضبه وهو يقول:

- لو لم تكن معي يا أستاذ لما سكتت عن تصرّف كهذا..

من الواضح أنّه يفقد السيطرة على نفسه بسهولة، أيعقل لشخص عصبي المزاج كهذا أن يكون مجرماً بارد الأعصاب؟.. لا أظنه من خطّط لهذه الجريمة، ولكن قد يكون هو من نفّذها. كما أنني لست متأكداً حتى الآن من أنها كانت ضحية جريمة خُطِّط لها من قبل. ربما تكون الأحداث قد توالت بصورة أدّت لحدوث الجريمة

دون قصد، وذلك في حال أنّ جتين فقد السيطرة على نفسه كما حدث منذ لحظات.. أما مهمة الأستاذ طاهر فهي حماية تلميذه الأثير. ولكن ما الذي كان يفعله جتين في بيتها؟.. ربما كان هو أيضاً مدعوًا على العشاء مثلنا رغم أنهما قد تجادلا من قبل.. والمثير للريبة قيامها بدعوة أحد المساعدين في الوقت الذي لم تقم فيه بدعوة مساعدها الشخصي.. ربما فعلت ذلك وكان هذا سبب ما تعرض له أكين.. حينها تذكّرت أنني لم أسأله أي سؤال عن أكين؟.. أيعقل ألاّ يخبره الأستاذ عن حادثة الاعتداء التي تعرّض لها؟.. ولكن لِمَ سيخبره بأمر يعلمه جتين جيداً..

- عليك أن تنهال عليهم بالضرب ثلاث مرات في اليوم يا أستاذ.. فهؤلاء الأشخاص لا يفقهون سوى لغة العنف.

ولكنه نسي أن يضيف بأنه يجب أن نقص ألسنتهم ونتركهم غرقى في دمائهم حتى يفارقوا الحياة.. أجل لم يعد لديّ أي شك أن جتين لديه استعداد لارتكاب جريمة قتل بكل بساطة، خاصة إن ساعده إرول وتلك الفتاة المحتالة. وبالطبع فإن طاهر حقي هو العقل المدبّر لكل ذلك..

- حدث أمر مماثل منذ مدة قريبة.. وكنا نجتاز طريق بربروس حيث كان الأستاذ طاهر أيضاً معنا، وقد خرجت حافلة صفراء اللون من منعطف ما وقطعت عليّ الطريق. تلك الحافلات التي تنقل الموظفين والطلبة، ولو لم أتمكّن من التوقّف في اللحظة المناسبة لكانت الحافلة سترتطم بالجهة التي يجلس فيها الأستاذ.. تخيّل أنّ أحد أهم مؤرخي تركيا ورجال العلم فيها، كان سيموت بسبب تهوّر أحد الحمقى.. لذا أؤكد لك بأن لا مجال للشفقة مع هؤلاء الأغبياء، فالحمقى الذين لا يفهمون القوانين ليس عليك أن تعاملهم وفقها..

وبالطبع فإن المؤرخين الذين لا يتفقون معك في وجهات نظرهم، والمساعدين الذي لا يروقون لك، هؤلاء أيضاً يحق لك قتلهم.. بدأ هذا المجرم الذي يجلس أمامي يفضي بما يعتمل في صدره من أحقاد..

- أحياناً يخطر لي أن أحمل معي بندقية يتسع مخزنها لست طلقات، وكلما اعترض سبيلي أحد هؤلاء الحمقى أقوم بالتصويب نحو رأسه وتنظيف

العالم من أحمق آخر..

انتابني الهلع لأنّ ما يتحدث عنه جتين كنت أفعله حقاً، فأنا أحمل مسدس والدي الذي يتسع مخزنه لست طلقات أيضاً، أحقاً أن كل المؤرّخين لديهم استعداد لارتكاب جريمة قتل؟.. ولكن لا، فأنا اصطحبت المسدس معي للدفاع عن نفسي، أما هذا الأحمق فيريد قتل كل من يعترض سبيله ولا يروق له..

– إنهم لا يستحقون الشفقة يا أستاذ، لذا عليك أن تكون حازماً ولا تتردّد..

بدأ الحديث يثير امتعاضي ولا يبدو أنه يريد السكوت، وبدا وكأنه يريد أن يفرّغ كل الأحقاد التي في جعبته.

– أظنك تبالغ قليلاً.. إنه مجرد حادث سير لا أكثر، ولحسن الحظ لم يصبنا أي أذىً، وقد تكون هناك سيارة أخرى أجبرته على الإسراع بهذا الشكل وقطع الطريق علينا..

– لم يكن هناك من أحد أمامه. قالها وقد بدا أكثر هدوءاً..

عندما لاحظت خفوت غضبه بدأت أواصل الحديث بثقة أكبر:

– ليس من الجيد أن تحتد بهذه الصورة، وحتى لو شاجرته فماذا ستكون النتيجة؟.. كما أننا رجال علم ولا يليق بنا أن نتصرّف كالرعاع وننجر إلى العنف..

لم يعترض على كلامي وبدا وكأنه لا ينفر من النصح..

– لا يليق بك ذلك يا بنّي.. ففي حال دخلت في شجار وكان الشخص الآخر مسلحاً فما الذي سيحصل حينها؟

لوّح بيده باستخفاف:

– لا أظنهم يجرؤون على حمل الأسلحة معهم، فهؤلاء يخافون من الشرطة..

الشرطة؟.. حينها انتابتني قشعريرة مفاجأة، وكأن أحدهم سكب عليّ دلو مياه مثلجة، فقد أدركت الخطر الذي أوقعت نفسي فيه. فلو وقع الشجار بالفعل وأتت الشرطة إثر ذلك لتصطحبنا جميعاً للمخفر، فما الذي كان سيحدث حينها؟.. كان أول شيء سيلفت انتباههم هو هذا المسدس الذي أحمله في حقيبتي.. ولكانت زادت سلسلة جرائمي.. "فمشتاق سرهزين الذي قام بطعن حبيبته حتى الموت، قد تم إلقاء

القبض عليه وبحوزته مسدس كان ينوي أن يقتل به بقية زملائه المؤرخين..".. وتخيلت صورتي تحتل أولى صفحات الجرائد وأنا أحمل مسدس والدي تماماً كصور جيمس بوند.. اللعنة.. أي هراء دفعني لأخذ المسدس معي، وكيف صدّقت كلمات مجنون المرآة، والأسوأ من ذلك أنني لا أعرف استخدام هذه الكتلة المعدنية..

"كانت مجرد نصيحة يا بُني..".

تناهى إليّ صوت والدتي الحنون وهي تكمل:

"لا تلمس هذا السلاح مطلقاً فقد تُصاب بأذىً ومن الأفضل أنِ نعطيه لأحد للتخلّص منه..".

كان ذلك بالطبع أفضل الحلول. ولكنني، كما في كل مرة، أذعنت لحماقاتي وفضّلت الاحتفاظ به.. عليّ أن أنتهز الفرصة وأرميه في أقرب حاوية.. ولكن لا فهذا ذكرى من المرحوم والدي. والأمر الآخر أنني قد أضطر للدفاع عن نفسي بالفعل وأنا في صحبة هذه العصبة طوال الوقت..

- ربما تظنني بالغت في رد فعلي يا أستاذ – أعادني صوت جتين إلى الواقع – ولا أنكر أنك محق، إلا أنّ هؤلاء الحمقى يدفعون أيوب للتخلي عن صبره الأسطوري، ولكنني أعتذر على ما بدر مني أمامك يا أستاذ..

ربّتت كتفه بهدوء وودّ وأنا أقول:

- لا عليك، لا عليك.. فكل ما في الأمر أنني لم أشأ أن تورّط نفسك في المتاعب..

- أعلم يا أستاذ، وأشكرك على ذلك..

ولأول مرة ساد بيننا جو من الود. وكنت أظنه سيستغل الفرصة ويسألني عن أكين، ولكن عاد ذلك الصمت الحذر ليسيطر علينا من جديد. وعندما وصلنا إلى تقاطع جسر فنار باهتشي لم أعد أطيق البقاء صامتاً..

- ما الذي كنا نتحدث عنه قبل وقوع هذه المشكلة يا بُني؟..

بدا لي وكأنني أيقظته من سبات عميق..

- عفواً..

أيُعقل أنه نسي موضوعاً بهذه الأهمية، أم أنه يحاول خداعي؟



- أعني قبل أن تقطع علينا الشاحنة الطريق..

حاولت تذكيره ولكن عبثاً، فقد واصل التحديق إليّ من مرآته الأمامية بعينين فارغتين.

- أكنّا نتحدث عن الأستاذ طاهر؟

إما أنّ له ذاكرة سمكة بالفعل، وإما أنه يجيد التمثيل أكثر مني بمراحل..

- لا، ليس عن الأستاذ.. - صمتت للحظات كمن يحاول التذكّر قبل أن أردف - أجل، أجل.. كنا نتحدث عن نزهت وعن الخلاف الذي نشب بينكما.. ولكن حقاً ما سبب خلافكما؟

بدأ جبينه يتغضّن وعندها خفت أن يحاول خداعي، لكنني كنت مخطئاً..

- في الحقيقة إن الأستاذ طاهر هو من بدأ الجدال، فقد كان يهاجم المؤرّخين الذين يميلون لتبني وجهة نظر استشراقية ولم يذكر اسمها. ولكن كان من الواضح أنها معنية بهذا الاتهام، وقد كان محقاً بكل تأكيد.

حاولت تصنّع الحيرة وأنا أقول:

- رغم أنّ الأستاذ طاهر كان يحبها كثيراً..

- ولكن السيدة نزهت كانت تتفوّه بالحماقات يا أستاذ وقد اصطحبت معها مساعدها المخنّث أيضاً..

- أتعني أكين؟..

- أجل هو.. كان سيحصل على منحة دراسية في إحدى جامعات أميركا، وهذا ما دفعه إلى أن يوافق على كل ما تقوله، وكانت تبالغ كثيراً في اتهاماتها، فمن جهة كانت تتهم المؤرخين الأتراك بأنهم لا يعملون على أسس علمية حقيقية، ومن جهة أخرى كانت تقول إن عمل المؤرخين لا يقتصر على جمع الوثائق فحسب، وكانت تتهمنا بأننا نحاول التغطية على الحقائق ونحرفها..

كان يتكلّم بأسلوب وقح عن حبيبتي السابقة، فهو عادة يتحدث باستعلاء عن كل من لا يوافقه آراءه وميوله..

- وهل كانت توجّه الاتهام نحو مؤرّخينا المعاصرين أيضاً؟



- كانت اتهاماتها تشمل الجميع بدءاً من الأستاذ طورسون ونشيري وبدليس وكمال باشا زاده.. كانت تتّهم الجميع.. وكانت تعتبرهم صورة هزيلة وكاريكاتورية عن المؤرخين الحقيقيين وكانت تقول إننا لن نجد سطراً واحداً عن حقائق الأمور وكيفية حدوثها بشكل واقعي في كتاباتهم، فكل ما يكتبونه كان مسيّساً يخدم مصالح الأمراء والسلاطين، وكانت تتّهمنا أيضاً بأننا نخون تراث أجدادنا العثمانيين عندما نخفي الحقائق ونغطّي عليها.. أجل، أجل.. هذا ما كانت تقوله تماماً. كانت تقول إننا نخون الحقيقة، وإننا نطبّق الرقابة الذاتية على أنفسنا وعلى الآخرين..

كنت أعلم أنّ وجهة نظرها تغيّرت بعد ذهابها إلى شيكاغو، وكان هذا التغيير واضحاً في جميع دراساتها ومقالاتها، حيث كانت تعتبر أنّ معظم زملائها في تركيا مجموعة كتّاب رومانسيين للتاريخ لا أكثر، وأنّ انهيار السلطنة العثمانية والأثر الذي خلفته على تركيا ولّد لدى هؤلاء المؤرّخين الرغبة في الدفاع عن هذا التاريخ متجنّبين التحدّث عن أخطائه. وبالنسبة إليها فإن معظم المؤرخين قد اقتصرت مهمتهم على جمع وثائق التاريخ والتهرّب من محاولة شرحها وتفسيرها بصورة علمية. والقسم الآخر يحاول طرح وجهة نظر ملائمة للميول السائدة وتجنّب طرح الوقائع كما حدثت بالفعل. وبالتالي فهم يدوّنون تاريخاً لا يمتُّ إلى الواقع بصلة.. فهي ترى أنّ المؤرخ سواء كان تركياً أو أميركياً أو صينياً أو هندياً.. عليه التخلّص من التأثيرات الدينية والاجتماعية، وعليه طرح الحقائق بحيادية وجرأة دون محاولة تجميلها أو طمس وقائعها.. ولكن المشكلة الآن قد تجاوزت وجهة نظر نزهت حول التاريخ والمؤرخين وتحولت إلى دافع لارتكاب جريمة قتل..

- ولكن كيف وصل الحديث إلى مسألة قانون القتل؟..

كنت أحاول بهذا السؤال الوصول إلى الجريمة التي حصلت منذ يومين. وقد لاحظت أنه يتململ في مقعده وهو يجيب..

- أي قتل تعني؟

أظنه أدرك غايتي من الحديث.

- قانون قتل الأشقاء الذي يبيح للأمراء قتل منافسيهم على العرش. كما أنّ

الأستاذ طاهر تحدّث عنه أثناء المؤتمر.. وقد تجادلتم حول هذا القانون بالذات - أخذت نَفَساً عميقاً قبل أن أكمل - والمرحومة نزهت كانت لديها أفكار غريبة بعض الشيء عن هذا القانون وعن السلطان الفاتح أيضاً..

حاول التهرّب من نظراتي التي كنت أصوّبها نحو المرآة الأمامية بإصرار، فيما كان يحاول التأكد من غايتي الحقيقية من كل هذا الحديث..

- وهل حدثتك أنت أيضاً عن تلك الأمور الغريبة؟..
- أي أمور غريبة تعني؟..

كان يتكلم ببرود ثلجي وقد أصبح أكثر حذراً لكل كلمة يتفوّه بها. وأعتقد أنّ الأستاذ أحسن الصنع عندما طلب منه اصطحابي، فقد اتضحت لي الكثير من الأمور. ورغم أنني أدركت وجوب عدم التمادي كثيراً ولكن الأوان قد فات على ذلك.

- لا أعلم، ولكن مسألة قتل الأب تلك..
- قتل أب من على وجه التحديد؟.. - سألني بالحذر والشك ذاته..
- ومن سيكون سوى السلطان الفاتح. فقد تحدثنا البارحة في مكتبي حول الأمر، كما أنّ الأستاذ طاهر أخبرني بأنّ الجدال الذي نشب بينك أنت ونزهت كانت مرده إلى هذا الموضوع بالذات.
- أجل، فأطروحتها حول احتمال مقتل السلطان مراد الثاني - كان يتخبط في الأكاذيب، فأنا أول من تحدث عن هذا الأمر، ومن الواضح أنّ ذاكرته تخونه بالفعل، ولكنه بدا مصراً على مواصلة أكاذيبه حتى النهاية - كانت السيدة نزهت تتهم الفاتح بكثير من الأمور، فقد كانت تعتبر أنّ السلطنة وبدل أن تتبع العرف الذي كانت تتعبه الإمبراطورية الرومانية في اختيار وريث العرش من بين مجموعة من الورثة، أقرّت قانون القتل بين الأشقاء من أجل القضاء على المنافسين، وكمثال على هذا الأمر كانت تستشهد بالقانون الذي أقرّه السلطان الفاتح..

يبدو أنّه لا يكذب فقد كانت هذه أفكار نزهت بالفعل.

- وقد اعترض الأستاذ طاهر على وجهة نظرها. وكان قد أخبرها أنّ قتل الأشخاص الذين يقومون بافتعال الفتن والمشاكل ويشكلون خطراً على

استقرار الدولة ووحدتها، ليس بالأمر المستهجَن على الإطلاق. ولكنها كانت مصرة على خلط الحقائق بعضها ببعض، ما أثار حنقي وهذا ما دفعني للصراخ أثناء النقاش ودافعت عن قانون قتل الأشقاء بأنه كان ضرورة تاريخية- والتفت إليّ فجأة قبل أن يكمل- كما أنك أيضاً قمت بوضع دراسة عن هذا القانون بالذات من قبل يا أستاذ، وقد استعنتُ بالذرائع التي أوردتَها في دراستك تلك..

أحقاً هذا ما قمت به؟.. حاولت التذكّر.. "فالسلطان محمد الثاني ولدى اعتلائه العرش للمرة الثانية كان شقيقه الأمير أحمد لم يتجاوز عمره الثمانية أشهر، وبالتالي كان بعيداً كل البعد عن السياسة ومنافسته على العرش، إلا أنّ الوزير تشاندرلي خليل، الذي يقف أمامه كجبل راسخ يعيق تقدمه ويزلزل أركان عرشه، لم يترك له خياراً آخر سوى اتباع هذا القانون.." ولأنني خجول في الحياة الاعتيادية وأتجنّب قول الحقيقة مراعاةً لمشاعر الآخرين فقد كنت أتّبع هذا الأسلوب في كتاباتي أيضاً، وكنت أحاول إرضاء أتباع النبي موسى وعيسى وبالطبع رسولنا الكريم (ص) دون إثارة حفيظة أحد منهم، لذا فقد كنت أطرح الحقيقة بأكثر الأساليب لطفاً. وقد كان جتين محقاً فقد وردت هذه الدوافع في الأطروحة التي قدمتها لذا بقيت صامتاً.. وقد بدا الهدوء عليه هو أيضاً على عكس توقعاتي، ولم يحاول مواصلة الحديث، وهذا ما حدث البارحة أيضاً فبعد مجيئهم إلى مكتبي لاستدراجي في الحديث عن طبيعة مشروع نزهت الجديد حين بحت لهم بكل شكوكي وتحدثت عما أظنّه الفكرة الأساسية لأطروحتها، زايلهم القلق كما حدث الآن مع جتين الذي ركن للهدوء بشكل مفاجئ..

بدأت أشكّ بأنّ أطروحتها لا علاقة لها بقتل الأب، أي أنّ مقالة فرويد وكتاب بيبينغر وتلك القصاصة التي دُونت عليها تلك الكلمات لا ترابط بينها، ولكن من جهة أخرى فقد توصل المحقّق أيضاً إلى النتيجة التي توصّلت إليها، ولا مصلحة له في الكذب في موضوع بهذه الأهمية.. عادت نظراتي مجدّداً إلى جتين الذي كان يواصل سرد حديثه وأنا أستغرب تقلب مزاجه المفاجئ.. فحتى لو افترضنا أنه مجرد شاب نزق يثور لأتفه الأسباب ويهدأ بعد لحظات، ماذا عن الأستاذ والهدوء الذي

خيّم عليه بعد حديثنا البارحة حول موضوع الأطروحة والذي افترضتُ أنّ نزهت تعمل عليها؟.. إذاً لا بدّ أنها تعمل على مشروع آخر وهذا ما كان يثير قلق عصبة المجرمين هذه، وربما كان هذا الدافع لقتلها. ولكن ما هو هذا المشروع، وما الذي يعرفه هذا الشاب ولا أعرفه أنا؟.. وقد ترسّخت قناعتي بأنّ سيزجين ليس القاتل وبأنّ المحقّق نفزت سيدرك الحقيقة عاجلاً أم آجلاً، وأنّ الأستاذ الذي سأقابله بعد قليل لن يخبرني بشيء، ولكن الأهم من كل ذلك أنهم لم يدركوا حتى الآن أنني قد توصّلت إلى الحقيقة..



(27)

حب السُّلطة يجري في عروقه

كانت الساعة قد تجاوزت الثامنة صباحاً بكثير حين وصلنا إلى (روملي هيصار)، الذي ينتصب بشموخ على شاطئ البحر والذي صبغته شمس الشتاء الخجولة بلون فيروزي يذهب بهموم القلب مع أمواجه المتراقصة بخفّة. وكما تتوقّعون فقد تأخرت عن موعدي كثيراً، ولا بدّ أنّ الأستاذ طاهر مستاء جداً مني. "إن كان لديك موعد فعليك الخروج قبل الوقت المحدّد بيوم كامل"، ولا أذكر أنه تأخّر عن موعدٍ طوال هذه السنوات ولو لمرة واحدة.

نزلت من سيارة جتين على الشارع الأسفلتي الذي يمتد كأفعى فضية ملتوية تحاذي البحر، والذي كانت أمواجه فيما مضى تقبّل جدران الحصن القديم جيئة وذهاباً على وقع تموّجات الريح.

- أرجو أن تبلّغ الأستاذ طاهر سلامي، لو كنت أملك الوقت الكافي لذهبت معك، ولكن لديّ محاضرة.

ودّعت هذا الشاب الغضوب، الذي لا يتورّع عن ارتكاب جريمة قتل من أجل مخالفة سير، شاكراً، وساءني أنني لم أتمكّن من استخلاص معلومة مفيدة منه. ولا أدري إن كان السبب يعود إلى خرقي أم إلى ذكائه وميله للكتمان، ولكن الغريب أن جتين لم يحاول أن يسألني أي شيء عن أكين. ألم يشعر بحاجة لمعرفة مصير مساعدي السابق بعد ما تعرّض له؟ ليس هذا فحسب بل إنه لم يلح عليّ مطلقاً لمعرفة جواب السؤال الذي طرحه هو بنفسه حول عدم رغبتي في الجلوس في المقعد الأمامي، "كل هذا بسبب مقتل الأستاذة نزهت أليس كذلك؟" وترك سؤاله معلقاً دون أن أعطيه أي إجابة. أيعقل أنه نسي شيئاً بهذه الأهمية على الرغم من أن حديثنا في معظمه كان يدور حول هذا الأمر؟ أيعقل ألاّ ينتابه الهلع أو الفضول حول



مصير الرجل الذي، إن تكلم فقد يودي به إلى السجن؟ إنه احتمال وارد بالطبع ما لم يكن هو المجرم.. أمن الممكن ألا يكون قد تورّط في هذه الجرائم؟.. في الحقيقة لا أملك أي أدلة تثبت الأمر أو تنفيه، لذا عاد سيزجين إلى مسرح الأحداث في ذهني مجدّداً، وبتّ أتساءل إن كان قد ارتكب الجريمة بالفعل من أجل الحصول على ثروة عمته.. لِمَ لا، خاصة أنّ المحقّق نفزت لم يظهر حتى الآن ليدحض هذا الاحتمال، ومن الممكن أنّ سيزجين قد اعترف بجريمته، ولكن من الذي تهجّم على أكين إذاً؟.. قد يكون بسبب خلاف عاطفي كما قال الأستاذ طاهر، ولِمَ لا وقد أصبح هذا النوع من المشاكل من الأمور الاعتيادية التي نصادفها كل يوم في أروقة المحاكم.

ولكن ماذا لو كانوا يفعلون كل ذلك لدفعي في هذا الاتجاه من التفكير؟ ماذا لو كانت لعبة خبيثة من الأستاذ وعصبته لكي أسير في الاتجاه الخاطئ؟ ولكن إلى متى سيتمكّنون من إخفاء الأدلة وخداعنا؟.. فأكين سيخبرنا الحقيقة ما إن يستعيد رشده، هذا بالطبع إن تمكن من ذلك.. تسمرت في مكاني حينها، وأدركت أنني غفلت عن الأمر الوحيد الذي عليّ أن أهتم به فهو مفتاح نجاتي في هذه اللُّجَّة، كنت أتبع الترّهات وأبتعد عن الموضوع الأساسي، فقد أوديت بالمسكين إلى فم السبع عندما أخبرت الأستاذ عما ألّم به، أجل لقد كنت أسوقه إلى الهاوية بنفسي. وعلى الفور أخرجت هاتفي النقال واتصلت بأكين، لكن الرنين كان يتواصل دون أن يرد عليّ أحد من الطرف الآخر، وهذا ما جعل مخاوفي تتعاظم لتتناوب في ذهني أسوأ الاحتمالات. وأخيراً أجابني صوت ضعيف:

– ألو.. ألو تفضّل إنه هاتف أكين جوتاكان..

إنه صوت المعماري الوفي.

– ألو صباح الخير سيد تيومان.. أنا مشتاق..

– أهذا أنت أستاذ مشتاق؟.. صباح النور..

– أعتذر إن كنت قد أيقظتك من النوم..

– لا عليك فقد استيقظت باكراً بفضل الممرضات اللواتي اجتحن الغرفة منذ الفجر، وأعقبهن فوج من الأطباء..

سألته بجزع:

- هل أكين بخير؟..
- كان يتألم مساء البارحة كثيراً ولم يتمكّن من النوم إلا بعد أن أعطاه الطبيب مسكّناً قوياً، والآن هو بخير على ما أظن، لكن الأطباء يقولون أنه بحاجة لمزيد من الوقت ليتماثل للشفاء.. - وبعد صمت قصير - لو تمكّنتَ من المجيء قليلاً يا أستاذ لتبقى برفقته ريثما أذهب إلى المنزل لأبدل ثيابي وأعود.. كنت سأطلب ذلك من أحد الأصدقاء، إلا أنني لا أرغب أن يعلم أحد بالحادث..
- أستطيع المجيء بعد الظهر، أهذا يناسبك؟
- حسناً، يناسبني الأمر.. شكراً جزيلاً..

عادت الأفكار تشتّتني مرة أخرى بعد أن أنهيت المكالمة. فها هو أكين بخير ولم يتعرّض لاعتداء جديد وسيتماثل للشفاء قريباً، أكانت كل الفرضيات السابقة مجرد أوهام لا أكثر؟ أحقًّا لا علاقة للأستاذ طاهر وعصبته بهذا الاعتداء؟.. انتابني فرح خفي وأنا أركن إلى هذه الاحتمال، متمنياً أن يكون الأمر برمته مجرد سوء تقدير لا أكثر.. حسناً ولكن من هو المجرم في حال براءة الأستاذ وتلاميذه؟.. بالطبع سيزجين، ومن سواه.. وفيما كنت أجتاز باب روميلي هيصار، اختفى الفرح الذي انتابني فجأة كظهوره المفاجئ. وبدأت الأمواج تحمل إليّ صوتاً قادماً من مكان ما، "ماذا لو كان ابن أخيها بريئاً، والأستاذ وتلاميذه كذلك، حينها من الذي ستجتمع حوله الشكوك سواك؟.." ولكن لِمَ ستجتمع الشكوك حولي أنا بالذات والشرطة لا تملك أي أدلة أو شهود يثبتون تورّطي؟ كما أنهم لم يطلقوا سراح سيزجين حتى الآن..

- سيدي.. سيدي..

بدأت تلك التمتمة القادمة من البحر، تتحول إلى صوت مرتفع يلاحقني، التفتّ إلى الخلف وكأنني بالفعل سأتمكّن من رؤية صاحب التمتمة إن فعلت ذلك، ولكني لم أشاهد أحداً..

- سيدي، لحظة من فضلك..

من هذا الذي يناديني بإصرار؟.. لعله ذاك الشاب الأسمر الفارع الطول، الذي رأيته منذ لحظات يقف عند الباب.

- لم تأخذ بطاقة – نبهني قائلاً – عليك أن تشتري بطاقة لتتمكن من الدخول..

كان الشاب محقاً، فعليّ أن أشتري بطاقة لكي أتمكّن من الدخول إلى قلب الحصن.

- أعتذر، ولكنني تأخرت على موعد الجولة..

زايل الضيق سحنته.

- هل أنت ضمن فريق الأستاذ طاهر حقي؟

ما من أحد لا يعرف الأستاذ حقي، فقد كان يقول لي على الدوام، إن كنت تنوي العمل فعليك أن تعمل على أرض الواقع، فالعمل في الأروقة المعتمة، وتقليب الصفحات القديمة، والجلوس لساعات طويلة في الأرشيف والاكتفاء بتخيّل الأحداث لن يكون كافياً لفهم ما جرى. "منذ أكثر من خمسة وعشرين عاماً وأنا أتجول في هذه القصور والقلاع والمتاحف، أفحص كل حجر وزاوية، وأعرف كل الموظفين الذين يعملون هناك، وإن شئت الصدق هناك أشخاص تذهلني معارفهم أكثر من أهم المؤرّخين"..

بعد أن دفعت له ثمن البطاقة دخلت الحصن، وما إن صعدت أولى الدرجات حتى تناهى إلى مسامعي صوت الأستاذ، في البداية لم أتمكن من سماع كلماته بوضوح، ولكن بعد اجتياز بضع درجات إضافية، باتت كلماته واضحة تماماً.

- لم يحدث شيء في التاريخ دون سبب ما، وهذه القلعة أيضاً لم يتم بناؤها عبثاً، سُميت بالقلعة الجديدة أو الهيصار الجديد، وعُرِفت فيما بعد بروميلي هيصار، وقد كانت جزءاً من الأحداث العظيمة التي ستلي بناءها بفترة وجيزة.

سكت للحظات قصيرة من أجل ترسيخ كلماته في أذهان مستمعيه، وعندما شعر بالترقّب لسماع مزيدٍ عاد ليكمل:

- أجل كانت جزءاً من الأحداث العظيمة، ولكن ما هي هذه الأحداث؟

وهنا صدرت همهمة من الحضور وهي تردّد باغتباط الكلمات نفسها:

- الفتح.. فتح إسطنبول..

- لم تكن إسطنبول، بل كانت كونستانتينوبولس.

صحّح لهم البروفيسور العجوز جذلاً، وعاد ليكمل حديثه بمزاج رائق، وقد سرني أن تأخري عن موعدنا المزمع لم يترك أدنى أثر لديه، وعدت بدوري أتسلّق بقية الدرجات..

- أو كما كان يسميها العثمانيون حينها: القسطنطينية.. ما زال الوقت باكراً على تحوّل اسم المدينة إلى إسطنبول، فالفتح لم يبدأ، كما أننا لم نكمل بناء الحصن بعد يا أصدقائي.

تناهت أصوات ضحكات قصيرة تناقلت صداها الأبراج التي ما زال الثلج يغطّي بعضاً من أجزائها، وعاد الأستاذ إلى حديثه:

- ولكن دعونا أولاً نتذكر أسباب فتح القسطنطينية..

حينها تمكّنت من رؤية الأستاذ العجوز واقفاً وسط ساحة القلعة، على المنصة التي تُستخدم في الحفلات الصيفية. كان يرتدي معطفه الأسود والرمادي، ويضع في عنقه لفاحاً رمادياً، ويعتمر قبعة من اللون ذاته، وعلى الرغم من تحدثه عن العثمانيين، إلا أن مظهره كان أقرب إلى سفير أوروبي. لا أدري ما الذي دفعني إلى هذا التصور، قد تكون الثقة التي يتحدث بها وقدرته الخطابية العالية، وقد تكون المهابة التي تحيط به.. معظم الحاضرين والذين يتراوح عددهم بين الثلاثين والأربعين كانوا من النساء، وكان يستمعون إليه واقفين على المدرجات الإسمنتية التي أُنشئت ليجلس عليها الجمهور في الحفلات الصيفية، وذلك لأنها لا تزال مبلّلة وقد تناثرت عليها كتل ملوّثة من الثلج، ولم تفلح الشمس التي غطت البرج الذي أنشأه تشاندرلي خليل، في إذابتها بعد.

كان الحضور مثقلين بمعاطفهم الشتوية، وتغطي النظارات الشمسية، السوداء في معظمها، أعينهم، ولكن الزجاج الأسود لم يخفِ الرضا الذي كانوا يشعرون به جراء انضمامهم إلى هذا الاحتفال، ولأن الأستاذ كان يدير ظهره لبرج تشاندرلي وهو يتحدث، فلم يكن بحاجة لوضع نظارته.

- أيوجد هنا من حضر مؤتمر البارحة؟

ارتفعت أيدي معظم الحضور بمن فيهم أنا، حينها شاهدني الصقر العجوز من بين الحضور وبدأ للحظات يحدجني بنظرات فارغة ومن ثم هزّ رأسه كمن يؤنّبني

وهو يقول:

- كأسان من الشاي، وصحن بيض مقلي، وقطعة جبن بيضاء خالية من الدهون، وقطعتا خبز، وساعة من عمري الذي لم يبقَ منه كثير لأضيّعه في الانتظار.. هذا ما أنت مدين به لي يا مشتاق..

أظن أنّ وجهي قد اصطبغ بحمرة قانية، خجلاً من تخلّفي عن موعدي، ومن النظرات الكثيرة التي بدأت ترمقني. كنت أمسك الحقيبة وبداخلها مسدس والدي العتيق بإحكام، وأتلفّت حولي بغباء مطبق، ولكن الأستاذ لم يكن يريد أن يتركني ببساطة.

- مشتاق من أهم المؤرّخين – قدّمني إلى الحضور وهو يكمل – وكان فيما مضى أحد أفضل تلاميذي..

ما الذي دفعه ليمدحني الآن؟ مديحه هذا جعلني أتذكّر الجملة التي قالها ماركوس أنطونيوس في نعي صديقه "لم آت إلى هنا لمدح يوليوس قيصر بل لدفنه"، وقد أكمل خطبته الرائعة وأسبغ على القتيل كل صفات الكمال، وعلى القتلة كل شرور الكون، ما دفع الجماهير إلى ثورة عارمة.

أكان الأستاذ ينوي أن يعقب المدح بالذم، وينسب لي كل شرور العالم كما فعل صديق القيصر القتيل؟ أكان سيخبرهم عن الحب الذي حوّل أفضل التلاميذ إلى مجرد أحمق فقدَ كل طموح ورغبة، وبات يراوح مكانه كحشرة حوصرت في قعر إناء عميق؟.. ولكنه لم يفعل ذلك.

- وقد أصبح بروفيسوراً فيما بعد – أكمل مواصلة المديح – والآن هو أقرب أصدقائي، ولكنه ابتُلي بصفة سيئة مؤخراً، فهو يتأخر عن مواعيده. وقد جعل هذا العجوز الواقف أمامكم ينتظره هذا الصباح بالذات لأكثر من ساعة..

- أعتذر كثيراً يا أستاذ – تمتمت متلعثماً بخجلي – معك حق في كل ما تقوله..

- لن أقول شيئاً – وأكمل بنبرة أمر مصطنعة – أنت من سيخبر ضيوفنا يا أستاذ مشتاق عن الأسباب التي دفعت السلطان للقيام بهذا الفتح العظيم؟

تململت في مكاني متردّداً للحظات وأنا لا أدري ما الذي عليّ فعله، ولكنه لم يمنحني فرصة إضاعة مزيدٍ من الوقت وهو يشير لي بيده أن أذهب إليه.

- تعالَ إلى هنا، ما بالك لا تزال واقفاً مكانك؟ تعال لكي يراك الجميع بوضوح أكبر، كما أن الوقوف هنا سيمنحك شعوراً رائعاً. قالها مازحاً..
- ولكن بوجودك يا أستاذ فأنا..
- لا تحاول التملّص بعبارات التهذيب والتملّق. تعال إلى هنا على الفور، عليك أن تدفع ثمن غلطتك هذا الصباح..

لم أجد مهرباً من تنفيذ الأمر، فتوجّهت نحو الأستاذ الذي كان يقف مزهوًّا منشرح الصدر في مكانه، وهو يوزع ابتساماته على الحضور، حينها أدركت استحالة أن يكون هذا الرجل مجرماً. فهو لن يقدم على قتل أحد، وأكثر من ذلك فهو لن يشترك في أمر كهذا. وأدركت أيضاً أنّني شخص خبيث لا يتوانى عن اتهام أفضل أصدقائه بأفظع الجرائم، شخصٌ أغرقته أوهامه في وحل من الأنانية والجحود. فقد اقترفتُ الخطأ ذاته مع شازية أيضاً البارحة مساءً. "هذا الطفل يحمل بذور الشر في قلبه". لقد كانت خالتي شاهيستة محقة، أعترف أنني كنت طفلاً واشياً نمّاماً يملأ الشر قلبه، لدرجة أنني اتهمت الشخص الوحيد الذي يحبني بصدق، بأفظع الجرائم.. وبأنه يترأس عصبة، ويخطّط لتوريطي.. ويتطرّف في الدفاع عن أحداث الماضي القديم لدرجة الإقدام على القتل..

ولأنه لم يتخيّل ولو للحظة الفظائع التي تتزاحم في ذهني وتثقل وجداني، فقد عزا تردّدي إلى خجلي المعتاد.

- كما أنّ مشتاق خجول جداً.. وأظنه يتلوّى خجلاً الآن وهو مضطر لأن يتحدّث أمامكم..

وما أن وصلت إليه حتى مدّ يده مصافحاً بحرارة، فوضعت الحقيبة على الأرض، وصافحت أستاذي بقوة وسياط التأنيب تسفع قلبي..

- على رسلك يا رجل... تمهّلْ – رفع يده في الهواء بعد أن أفلتها من قبضتي – من الأفضل ألا تسلّموا أيديكم ببساطة إلى رجل بهذه القوة..

قالها وهو يواصل هزّ يده، فيما أصدر الحاضرون ضحكات خفيفة.

- أجل، تفضّل أستاذ مشتاق، نحن نسمعك.. ما الذي دفع السلطان الفاتح لفتح القسطنطينية؟

تنفّست بعمق وأنا أحسّ أنّ الهواء الجليدي يحرق صدري، ولأغطي على خجلي وارتباكي حاولت الاستعانة بأسلوب الأستاذ المفضّل من خلال تصحيح المعلومة.

- أعتذر يا أستاذ، ولكنني أريد تصحيح خطأ صغير، فقد قلتَ ما هي أسبابُ الفاتح لفتح القسطنطينية، ولكن كما تفضّلتَ قبل ذلك بقليل، نحن ما زلنا نبني قلعة هيصار، ولم تُفتح المدينة بعد ليُسبغ على السلطان لقب الفاتح..

ردّ على تشدّقي بقهقهة صغيرة..

- لا يسعني سوى تأييدك.. معك حق، ولكن أخبرنا بداية كم كان عمر السلطان محمد الثاني حين قام ببناء قلعة هيصار؟

انتقلت إليّ عدوى نشاطه.

- كان يبلغ ثلث عمري..
- أي أنه كان يبلغ ربع عمري الآن..

لم ترق عملياتنا الحسابية لمعجبات البروفيسور العجوز، فاعترضت إحدى الواقفات في الصف الأمامي وهي ترمقه معاتبة:

- لاااا.. لا أظنك عجوزاً إلى هذا الحد..

وأيّدتها أخرى:

- لا أصدّق ذلك..
- لا يبدو عليك العمر.. تبدو أصغر من ذلك بكثير..

على الرغم من أنّ هذه الإطراءات راقت للعجوز، ولكن أستاذي الذي أعرفه لا يستسلم بسهولة لكلمات وإطراءات المعجبات، ولم يخيّبْ ظنّي هذه المرة أيضاً.

- شكراً على إطراءاتكن التي لن أنكر أنها سرّتني كثيراً. ولكن التاريخ يعتمد على الحقائق ولا تعنيه الكلمات المعسولة والجمل المنمّقة..

والتفت إليّ على الفور قاطعاً محاولة إطالة هذا الحديث، كمن يقول ما الذي تنتظره حتى الآن؟ أنقذني من هذه الورطة يا مشتاق.

- حسناً، كنا نقول إن السلطان محمد الفاتح كان في العشرين من عمره حين



قرر بناء قلعة هيصار – عدت إلى الشرح مرة أخرى – ويقال إنّ البناء بدأ في شهر نيسان/ أبريل من العام ألف وأربعمئة واثنين وخمسين، أي بعد اعتلاء السلطان الشاب العرش بسنة واحدة.. طبعاً نحن نتحدّث عن اعتلائه الثاني للعرش.. ولكن حلمه في فتح القسطنطينية كان يعود إلى زمن أقدم بكثير، وإن شئتم الحق فوالد السلطان مراد الثاني، والأمير موسى جلبي، وجدّهما يلدرم بيازيد الذي بنى قلعة أناضول هيصار على الطرف المقابل لهذه القلعة.. كلهم كان يراودهم الحلم ذاته في فتح هذه المدينة.. ليسوا هم وحدهم بل سبقتهم إلى ذلك أمم وشعوب كثيرة حاولت السيطرة على هذه المدينة العظيمة.. كالعجم والعرب، الفايكينغ، الهون وسواهم.. ومن بين جميع هؤلاء استطاع الأوروبيون (اللاتينيون) دخول المدينة في العام ألف ومئتين وأربعة..

– في الحملة الصليبية الرابعة حيث كانوا يتّجهون لتخليص مدينة القدس كما كانوا يدّعون – عاد الأستاذ للتدخل مجدّداً – ولكن ثروات القسطنطينية الدنيوية كانت أكثر إغراءً من غاياتهم السماوية المقدسة.. وقد استمر الاحتلال أكثر من خمسين عاماً بقليل.. أليس كذلك يا مشتاق؟.. فقد استمر من العام ألف ومئتين وأربعة وحتى العام ألف ومئتين وواحد وستين.. وكانت أسوأ حقبة مرت على تاريخ هذه المدينة، فقد قاموا بسرقة أثمن مجوهرات الملكة، واستولوا على أندر تحف المدينة ومقتنياتها، ولكن البيزنطيين أو الرومان إن شئتم الدقة، تمكنوا في نهاية من المطاف من دحرهم – حينها انتبه إلى تراجعي البطيء عن المنصة فأمرني بالعودة على الفور – لا تبتعد هكذا، فلن تتمكن من الهرب، لذا عُدْ وأكملْ حديثك..

– تفضّل بالاستمرار أستاذ، فشرحك رائع.

نفى بحركة حاسمة من رأسه، وأشار بيده نحوي وهو يخاطب جمهوره الصغير:

– أجل بروفيسور مشتاق، كنت تتحدّث عن موجبات الفتح..

أدركت أن لا مهرب من الأمر..

– حسناً، فلنكمل إذاً.. كانت القسطنطينية بالنسبة إلى العثمانيين تحتل مكانة

مختلفة عمّا تحمله لدى الصليبيين، ولم تكن غايتهم الوحيدة هي السيطرة على المدينة من أجل كنوزها وغناها، فقد كان فتح المدينة يعني التغلّب على أهم العقبات التي تعترض سبيلهم، خاصة في عصر السلطان محمد الثاني، حيث كانت المنطقة بمعظمها خاضعة لسلطة العثمانيين، وبقيت القسطنطينية المدينة الوحيدةَ الخارجة عن هذه السيطرة تقريباً. وكان السلطان الذي يريد توسيع سلطنته لتتحوّل إلى إمبراطورية تحكم العالم برمته، ويخشى من هذه المدينة التي يشكل بقاؤها خارج نفوذه، خنجر غدرٍ قد يُغرز في خاصرته في أي لحظة، لذا أدرك أنّ عليه السيطرة على جزيرة الأعداء هذه بأسرع وقت، وأدرك أيضاً أنّ انتصاراته العظيمة لن تتحقّق مالم تصبح هذه المدينة شعلة تنطلق منها فتوحاته الكبرى..

وهنا ارتفع صوت ناعم وسط الحشد:

- أعتذر سيد مشتاق - كانت سيدة في منتصف العمر، تعتمر قبعة حمراء اللون، وبالكاد يُلحظ المكياج على وجهها - أعتذر مرة أخرى لأنني قطعت حديثك، ولكن لديّ سؤال يتعلّق بهذا الموضوع - توجّهت نحو الأستاذ طاهر وهي ترمقه بإعجاب واضح - لقد حضرت محاضرتك البارحة، وقد قلت فيها إن السلطان محمد الثاني كانت لديه أسباب شخصية لفتح مدينة القسطنطينية. فالسلطان الشاب لم يكن راغباً بالبقاء مثقلاً بانتصار والده في معركة فارنا، لذا وجد نفسه مرغماً على تحقيق انتصار أكبر، فتوجّهت أنظاره نحو هذه المدينة، وإلا فإن مستقبله في البقاء على العرش كان مهدّداً، خاصة ونحن نعلم مدى العداء الذي يكنّه له تشاندرلي خليل وحلفاؤه.. وسؤالي هو: لو أن السلطان مراد الثاني لم يعد حينها إلى أدرنة، ولو أنّه كلّف ابنه بقيادة المعركة، ولم يعترض تشاندرلي خليل، وحقّق السلطان الشاب النصر، هل كان سيندفع بكل هذا الإصرار لفتح القسطنطينية؟ أهو الخوف مَنْ دفعه نحو فتح هذه المدينة؟

ارتسمت ابتسامة غامضة على وجه الأستاذ وهو يقول:

- سؤال جميل سيدة جالة.



إذاً فاسمها جالة وهو على معرفة بها من قبل! وعلى الرغم من تهرّب الأستاذ قبل قليل من إطراءات بقية النسوة، إلا أنني لم أفوّت الابتسامة الخاصة التي أغدقها على هذه السيدة دون سواها. أهناك علاقة ما بين العجوز والسيدة؟ ولِمَ لا؟.. أتظن الجميع عاجزين وحمقى مثلك، يهدرون عمراً بأكمله في انتظار امرأة؟

- أجل تفضّل مشتاق - أعادني صوته إلى القلعة - ماذا لديك لترد به على سؤال السيدة جالة؟ برأيك كيف كان للسلطان الشاب أن يتصرف وفق هذا الاحتمال؟

- بالطبع كان سيبذل قصارى جهده - قلتها وأنا لا أزال أشعر بالشفقة على نفسي - فالعثمانيون كانوا مرغمين على فتح القسطنطينية - نظرت إلى الجمهور وأنا أكمل الشرح - فقد كان أمراً لا مفر منه، ولكنني لا أريد أن يُفهم من كلامي بأنني أعترض على فرضية الأستاذ، فأنا أعتقد أن كلا السببين تضافرا لتحقيق النصر. فكما أن بقاء الحكومات في وقتنا المعاصر يتطلب نجاح السياستين الداخلية والخارجية، كان الأمر ذاته ينطبق على الدول القديمة أيضاً، وبالطبع لو لم تكن الظروف ملائمة حينها لما تمكن السلطان من فتح المدينة والحصول على لقب الفاتح. ومن جهة أخرى، لو لم تكن شخصية السلطان بهذه القوة وبهذه المميزات الاستثنائية، لكان الفتح قد تأخر سنوات إضافية..

نظرت إلى الأستاذ لأرى إن كان هناك ما يود إضافته.

- أوافق على كلماتك هذه، بل وأذيّلها بتوقيعي - أكّد الأستاذ - وأستطيع القول إن التاريخ يصنعه قادة يملكون الكاريزما اللازمة لقيادة شعوبهم في طريق طموحاتهم، ولكن هذا لا يتحقّق وقتما يشاؤون وبصورة اعتباطية، فالتاريخ له منطقه المحدّد والزمن له روحه الخاصة..

- والأشخاص القادرون على فهم هذه المعادلة وحدهم الناجحون عبر التاريخ، ولقد كان السلطان محمد الثاني أحد هؤلاء الأشخاص - صمت للحظات وأحسست أن عينيه تفيضان بسائل رقيق، لم أدرِ إن كان بسبب البرد، أم بسبب انفعاله وهو يتحدث عن الفاتح، حيث شهدت أكثر من

مناسبة لم يستطع فيها العجوز إخفاء تأثره الكبير وانفعاله حين يذكر مناقب هذا السلطان العظيم. توجهت نظراته الدامعة نحو كتل الثلج على الأبراج وهو يكمل– ربما علينا التوسّع في حديثنا عن شخصية الفاتح.

نظر إليّ كمن يطلب الإذن.

– بالطبع أستاذ، تفضّل..

ربّت كتفي بمودة، ثم اتجه نحو الحشد الصغير ليشرح:

– كما تعلمون فإن أقدار الأمراء كانت تُخطّ وهم في طور الطفولة معظم الأحيان، وكانت تتم تنشئتهم ليصبحوا سلاطين سواء شاؤوا ذلك أم أبوا، دون أن يؤثر عدد الأشقاء على هذه القاعدة. وبالطبع كان منهم من لا يصلح لهذه المهمة ولا يملك المؤهلات الكافية، ومنهم من لم تكن عنده رغبة في استلام السلطة، ولكنهم جميعاً لم تكن لديهم أي فرصة للتنصّل من أقدارهم..

– ولكن محمد الثاني أُنشئ ليصبح قائداً قوياً، وكان حب السلطة يجري في عروقه، وكما أوضحت في الأمس فعلى الرغم من أنّه كان فقط في الثانية عشرة من عمره، إلا أنّه كان يعتبر نفسه مؤهلاً لحكم البلاد العثمانية المترامية الأطراف. كانت ثقته بنفسه وجرأته لا حدود لهما.. وبالطبع فإن التعليم الذي تلقّاه كان له دور كبير في صقل شخصيته. وجلوسه الأول على العرش والخيانات التي تعرض لها عزّزا خبراته وأكسباه ذاك الحزم والقوة اللذين يجب أن يتصف بهما أي قائد استثنائي مثله. كل ذلك زاد من توسيع مداركه، وكان كفيلاً بتعلّمه كيفية قيادة دفة الأمور وتولّي زمام المبادرة في استلامه الثاني للعرش.

– ولكنه كان بالإضافة إلى ذلك ذكيًا وحازماً وجريئاً وطموحاً. والأهم من ذلك كله أنه كان يتحلّى بصبر جليدي، ولا ينساق وراء غضب مؤقت ولا يسمح لمشاعره أن تتحكّم في عقله. وكان ينتظر الوقت المناسب بدقة لينقضّ على أعدائه، وهناك حادثة تلقي الضوء على ما أقوله وتعزّزه.

– عندما أرسل كونستانتينوس باليولوك رسله إلى السلطان محمد الثاني لم

يكتف بطلب الفدية السنوية وهي ثلاثمئة ألف (أقجة) ليرة عثمانية، وهو المبلغ المتّفق عليه من أجل الإبقاء على الأمير أورهان سليل آل عثمان المأسور لديهم حياً، بل أخبروه بأن الفدية تمت مضاعفتها بسبب التأخر في دفعها، وأنه في حال لم تتم الموافقة على دفع المبلغ المطلوب بالسرعة القصوى، فإن إمبراطور القسطنطينية لن يكتفي فقط بفك أسر الأمير بل سيساعده في مطامحه بالمطالبة بالعرش. استمع السلطان إليهم بكل هدوء وردّ بكل لباقة بأنه سيحل الأمر ما إن يصل إلى قصره في أدرنة دون أي انفعال. ذلك لأنه كان في تلك الأثناء في إحدى حملاته على الأناضول للقضاء على واحدة من تمردات عائلة كارمان أوغلو التي لا تنتهي. وعندما تمكّن من إخماد الفتنة، حينها فقط بادر بالرد من خلال الهجوم على قرى البيزنطيين الخاضعة لسيطرة الإمبراطور، وأرسل سكانها إلى القسطنطينية، أي أنه لم يعد يخفي هدفه الأكبر وكانت الخطوة الثانية هي بناء هذا الحصن.

وفجأة التفت إليّ:

- هل ستتركني أتحدّث بمفردي يا مشتاق، تفضّل لتكمل أنت.

ولكني رفضت عرضه هذه المرة.

- لقد أوضحت أسباب الفتح كما طلبت مني يا أستاذ..

لوّح بيديه معترضاً وهو يقول:

- لن تتمكّن من النجاة بهذه السهولة، عليك أن تحدّثنا عن بناء الحصن..

- ولكن..

أحسست من تراشق الحديث بيننا أنّ الأستاذ العجوز يعاملني كتلميذ في المدرسة، ويتّخذ هو دور المعلم. وعلى الرغم من بلوغي هذه السن إلا أنّ الأمر بدأ يروق لي أيضاً، وبدأت أجاريه في لعبته هذه.

- لن أقبل أي اعتراض منك. كان الأستاذ يرمي من وراء هذه اللعبة إلى شد انتباه الحشد الذي جاء لحضور الجولة، والابتعاد عن أجواء المحاضرات الرتيبة على ما يبدو، وبذلك تحوّل سؤال عادي عن أسباب بناء هذا الحصن إلى لعبة صغيرة مسلية بيني وبين أستاذي..

- كما تشاء يا أستاذ.. أجل يا أعزائي، فقد كان بناء الحصن إعلاناً عن رغبة السلطان وبداية حصار القسطنطينية، حيث سيتم قطع كل الطرق بين المدينة والبحر الأسود، وكان الهدف جلياً وهو منع وصول السلاح والجنود والإمدادات الغذائية إلى المدينة - عدت إلى الوراء بضع خطوات وأنا أشير إلى ما وراء أسوار الحصن - وبالطبع لم يكن بناء السلطان يلدرم بيازيد لحصن الأناضول في الجهة المقابلة تماماً محض صدفة، ذلك لأن هذا المكان هو أضيق نقطة على امتداد البوسفور، ويقال إن داريوس ملك الفرس قد عبر من هذا المكان إلى أوروبا قبل مئات السنين - عدت إلى الحشد ثانية وأنا أشير هذه المرة إلى داخل أسوار الحصن - كانت هناك كنيسة في هذا المكان من قبل، كنيسة القديس مايكل، وبالطبع فقد تمّ هدمها - وأشرت نحو عمود ينتصب بين حجارة الحصن وأنا أقول - انظروا قد يكون ذاك العمود من بقايا الكنيسة القديمة، وقد دفع هدم الكنيسة بالسكان المحليين من البيزنطيين إلى ثورة غضب عارمة وحدثت صراعات دامية. ولكن الدولة العثمانية كانت قوية جداً، لذا لم يكن أمام السكان سوى الإذعان لسلطتهم. أما الإمبراطور قسطنطين فقد أرسل رسله مجدّداً إلى السلطان محمد الثاني يبلغه فيها أنّ بناء الحصن مخالف للاتفاقيات المبرمة بينهما، ويطلب منه التوقف عن بنائه في الحال. لكن السلطان الشاب أجابهم بكل هدوء "أنا أحمي مصالح بلادي الخاصة. كما أن هذه الأراضي تعود ملكيتها لنا، فقد كانت طريقنا منذ القدم من آسيا إلى أوروبا، ولا يحق لكم التدخل في هذا الشأن، وإن كنتم تريدون سلبنا حق العبور من هنا، حينها سنضطر إلى أخذ حقنا بحد السيف، لذا لا تتجاوزا حدودكم ونحن بدورنا لن نخلّ بالاتفاقيات المبرمة بيننا".
- عاد الرسل خائبين إلى القسطنطينية، فيما أثقلت الأخبار كاهل المدينة - وساد الرعب الأجواء وبدأ الجميع يترقب بهلع الفاجعة وهي تزحف نحوهم ببطء كغيمة سوداء، واتجهوا نحو الكنائس يتضرّعون إلى مريم العذراء وابنها عيسى لكي يحمياهم من هذه المصيبة..

- في تلك الأثناء كان بناء الحصن يتم بسرعة قياسية، ويقال إن السلطان الشاب قد أشرف بنفسه على تخطيطه، وقد كان المهندس المكلّف ببنائها معمارياً يدعى مصلح الدين، ولكن السلطان كان يولي بناء هذا الحصن أهمية قصوى، لذا لم يترك المهندس وحده ليتولّى البناء. وقد أعلن ما يشبه النفير العام، فقد كان هناك حوالى خمسة آلاف عامل ومهندس يقومون بالعمل، حتى أنه كلف وزراءه تشاندرلي خليل باشا وزاغنوس باشا وساروجا باشا بمهام إضافية، حيث وكّل كلاً منهم ببناء برج من أبراج القلعة، وكما ترون فالبرج الذي خلفي أشرف على بنائه تشاندرلي، وذلك البرج في الأعلى أشرف على بنائه زاغنوس باشا، أما البرج الذي على اليمين فقد أشرف على بنائه ساروجا باشا. وأظنكم قد لاحظتم أنّ الحصن بُني كمثلّث تحاذي جدرانه البحر، وقد كان له دور كبير في حماية الجيش العثماني. والعمل الذي بدأ في شهر آذار انتهى على أكمل وجه في شهر آب، وتم بناء الأبراج والأبواب المحصنة والأسوار بدقة متناهية.
- بحديثك عن الأبراج تذكرت القصيدة التي كتبها تورسون بيك – عاد الأستاذ ليستلم دفة الحديث – أتتذكّر أبياتها؟

ذهني الأخرق الذي يعجز عن تذكّر ما حدث في تلك الساعات الغامضة خلال اليومين المنصرمين، والذي يمكن أن يودي بي عجزه هذا إلى غياهب السجن، لا يُفترض به أن يتذكّر أبياتاً كُتبت قبل أكثر من خمسمئة عام، ولكنه كان يتعمد إغاظتي وهو يتذكّرها بكل وضوح:

السيوف والحراب والمدافع وسواعد الأبطال
خلقت من الحجارة أبراج الحصار
هنا سترتبض العنقاء وتبني عشّها
ومن هنا سيبدأ الانتصار

ردّدت جدران الحصن صدى تصفيق الأستاذ وهو يقول:

- كيف تدّعي أنك كبرت، وذاكرتك لا زالت ذاكرة فيل؟..

أخذ الحضور يتّجهون بأنظارهم نحو أبراج الحصن، وكأنهم سيتمكّنون بالفعل



من رؤية أعشاش العنقاء هناك. فيما عاد الأستاذ لإتمام حديثه وهو بادي الرضا:

- القلعة الجديدة أو هيصار الجديدة أو روميلي هيصار.. تستطيعون أن تسمّوها ما تشاؤون، لكن هذا الحصن المنيع كان دعامة الفتح. وكما ذكر الشاعر تورسون بيك فقد كانت تتوزّع على أبراج الحصن وجدرانه المدافع والرماح ورماة السهام وسواها من أسلحة ذلك العصر، وعندما انتهى بناء القلعة عيّن السلطان الشاب فيروز آغا ليستلم قيادة الحصن وترك تحت إمرته أربعمئة من خيرة الجنود. وهكذا تم الاستيلاء على المضيق بوجود هذا الحصن وحصن الأناضول في الجهة المقابلة. ولم تتمكّن سفينة تجارية أو حربية من عبور هذا الطريق المائي دون موافقة العثمانيين. ليعود بعدها السلطان محمد الثاني إلى أدرنة وهو مطمئن، ويبدأ بتجهيز الخطوات القادمة لفتح المدينة التي ستسبغ عليه لقب: الفاتح العظيم.

(28)

لم أسمع بأحد مات جراء مرض النقرس

- ترك الأستاذ طاهر حقي، الذي أرسل السلطان محمد الثاني إلى قصر أدرنة ليكمل باقي تحضيرات الفتح، الحشدَ الصغير ليقوم بجولة تستغرق نصف ساعة في أروقة الحصن وأبراجه. ولم أستطع تحديد سبب رغبته في البقاء معي، أهو تجنبه الصعود والهبوط على سلالم الحصن، أم استغلال الوقت لكي نتحدث عما فاتنا صباح هذا اليوم. وأنا أيضاً لم تكن عندي رغبة في تسلّق سلالم هذا الحصن، فقد بت تيساً عجوزاً لا يقوى على صعود مرتفعات الأمس، كما أنني سررت بدوري لهذه الفرصة التي سنحت لي لتبادل الحديث مع الأستاذ، ولم أشأ أن أترك موقعي الذي تحصّنت فيه، تماماً كما فعل جنودنا قبل ذلك حين كانوا يشاهدون سفن البندقية وسواها تقترب من الحصن للاستيلاء عليه، وبالعزيمة ذاتها توجّهت نحو أستاذي العجوز علّني أصل إلى بصيص أمل ينير دربي وأنا أقول:
- أعتذر مرة أخرى يا أستاذ لأنني تأخّرت عليك.

وفيما كنت أستعد لإتمام بقية المناورة قاطعني:

- لم يأتِ جتين أليس كذلك، لا بدّ أنّ هذا ما جعلك تتأخّر؟ دمدم بضيق.

لقد اختفى المؤرخ المرح الذي كان يتحدث قبل قليل، وحلّ مكانه عجوز نزق متذمّر، ولكن الأغرب من ذلك أنه بدأ يلوم أحد شركائه ويتهمه بأنه السبب في تأخّري. وبالعودة إلى النقاش الذي دار بينهم البارحة في المؤتمر، فمن الواضح أنّ خلافاً ما وقع ولكن حول أي شيء؟ ربما كان الأستاذ سيحدثني عن الأمر، ولكنني كنت مضطراً للدفاع عن جتين، فلن أستطيع الافتراء عليه في موقف كهذا.

- لا يا أستاذ، فالمسكين قد ذهب إلى المكان المتفق عليه في الوقت المحدّد



وانتظرني، لكن الذنب ذنبي، فلم أتمكّن من الاستيقاظ باكراً.

بدا غير مصدّق.

- ولكن ليس من عادتك أن تتأخر مطلقاً!

- هذا ما حصل يا أستاذ.. فقد سهرت البارحة مساءً حتى وقت متأخر، ولم أتمكن من الاستيقاظ باكراً اليوم..

ولكنه لم ينزعج، وبدا وكأنه يفكر في شيء آخر.

- وكيف تمكّنت من المجيء؟

- أوصلني جتين، لقد أتى إلى المنزل وأقلني..

بدا على وجهه الضيق مرة أخرى.

- وكيف عرف عنوان منزلك؟

على الرغم من أنني لا أكنّ ذرة ودّ تجاه ذاك الحذق، لئيم السحنة، ولكنني بدأت أشفق عليه من تهجّم الأستاذ، وكان من الواضح أنه لن يدعه وشأنه ببساطة، إلا أنّ الأغرب من ذلك هو القلق الذي بدا عليه حين علم أن جتين جاء إلى منزلي؟ مِمّ كان يخشى هذا العجوز؟ ولمعرفة ذلك كان يجب عليّ أن أجيب على سؤاله.

- لقد جاء إلى منزلي من قبل.

- حقاً؟ ومتى كان ذلك؟

كنت أشير إلى يوم جنازة زوجته حين أوصلني جتين إلى المنزل.

- قبل سنتين على ما أظن..

ولكن القلق لم يزايله.

- أي أنك تتذكّر؟..

بدا لي وكأنه سيرتاح لو أخبرته بأنني أتذكر، ولكن ما الذي كان يجول في ذهن العجوز؟ أحقاً كان يشك مثلي بأن هذا الشاب الغضوب الذي يثور لأتفه الأسباب قد قام بقتل نزهت هو وبقية زملائه؟ ولكن لو كان الأمر كذلك لماذا سيقوم بإرسال شخص تدور حوله الشبهات إلى منزلي؟.. أكان ينوي أن يجعلني طعماً للوصول إلى الحقيقة؟.. عادت الأفكار تختلط في رأسي وتتخبّط آرائي حول العجوز من جديد.. وبدأت أضيق ذرعاً بتقلباتي النفسية وحيرتي التي كانت كل موجة تغيير فيها ترهق

روحي المعذّبة أكثر فأكثر.. فمنذ قليل كنت أعتبره قاتلاً يتزعم عصبة إجرامية، وبعد دقائق تراءى لي ملاكاً للطيبة.. "إدراك الحقائق بصورة ملتوية، وتفسير الوقائع بشكل مغلوط.. إنها بداية المشاكل النفسية يا عزيزي" لقد كانت شازية محقة في سفسطاتها هذه المرة أيضاً.. فأنا أعاني كل هذه الأعراض وأكثر، وكل تقييماتي للأحداث خاطئة.

– ما بك يا بُني؟ هل أنت بخير؟

أخرجني صوته من حفرة الجنون العميقة تلك وأعادني إلى الحصن.

– بخير يا أستاذ، بخير.. ولكنني أحاول التذكّر.. فجتين محق، لا بدّ أنه أتى إلى منزلي من قبل، ولكنني أعجز عن تذكر الحادثة..

دمدم بضيق:

– إذاً فأنت لا تتذكّر.. وكانت عيناه تفيضانِ بالحيرة.

– هل الموضوع يهمك إلى هذه الدرجة يا أستاذ؟ – حاولت استدراجه قليلاً – أعني لماذا أنت مهتم بمعرفة جتين عنوان منزلي؟ هل من مشكلة في ذلك؟

تهرّب من نظراتي.

– لا، لا مشكلة في الأمر..

لم أشأ أن أضيّع الفرصة من يدي طالما أن مخاوفه بدأت تظهر.

– لا سبب يدفعه إلى الكذب، وطالما أخبرني بأنه أتى إلى منزلي من قبل، فلا بدّ أنه قد فعل ذلك.

هزّ رأسه بهدوء وهو يقول:

– بالطبع.. لا سبب يدفعه إلى الكذب ولكن..

كان يتحدّث دون أن ينظر في عيني مباشرة، ذلك لأن جتين ليس لديه سبب واحد للكذب، بل مجموعة مخيفة منها، فقيامه بقتل نزهت، ثم اعتداؤه على أكين بتلك الصورة الوحشية، وأخيراً خطته القذرة للإيقاع بي أنا أيضاً من أجل قتلي.. "مشتاق هو الضحية التي ستلي نزهت.. فكل من يتجرأ على المساس بتاريخنا العظيم ورموزه، كل من تسوّل له نفسه تشويه تلك الأمجاد الغابرة.." ولكنني لم أقم بأمر كهذا على الإطلاق..

– وماذا عن أكين – أعادتني كلماته مرة أخرى من لجّة الأفكار التي تنتهز أدنى

الفرص للإطاحة بي بعيداً عن الواقع – من الذي تهجم عليه؟

يبدو أنّ العجوز أيضاً يميل إلى الكشف عن جميع الأوراق وإعلان الأسرار المخبّأة. ولكنه شخص ماكر لا يقوم بالخطوة الأولى على الإطلاق، بل ينتظر الآخرين ليكشفوا عن أوراقهم أولاً، كما أنه لا يريد أن يتهم طلبته صراحة بجريمة كهذه، ويتوقع أن تكون المبادرة مني.

لو حدث هذا الحديث البارحة مساءً، لما تردّدت للحظة واحدة في البوح بمكنونات صدري، والشكوك التي تعتمل في ذهني. ولكنني الآن لست متأكّداً.. فتقلّبات مزاج العجوز والطريقة التي كان يسألني بها عن جتين من جهة، وتقلّب انطباعاتي النفسية من جهة أخرى، كانت تعصف بي إلى دروب من الحيرة لا أدري أيها أسلك. أكان يريد التأكّد من معلوماتي؟ أم كان يتهمّ أحد طلبته بشكل غير مباشر ويحذّرني منه؟.. لذا فضّلت التريث وعدم توجيه الاتهام إلى جتين.

– لا نعلم حتى الآن من الذي اعتدى على أكين، أو من هم، ذلك لأنه لا يستطيع التحدث حالياً، ولكن الحقيقة ستظهر خلال فترة قصيرة ما إن يتمكّن من الكلام..

تنهّد بضيق وبدا واضحاً أنه يشك بتورّط جتين في هذا الهجوم، وفي حال ثبت الأمر فإن المشاكل ستطاله هو أيضاً. ولا بدّ أن سبب اهتمامه بي وأسئلته الغامضة عن معرفة جتين عنوان بيتي هو خوفه على نفسه لا أكثر. "أجل سيادة القاضي.. تستطيع أن تسأل البروفيسور الدكتور مشتاق سرهزين، فقد صارحته أكثر من مرة عن مخاوفي والشكوك التي كانت تراودني تجاه جتين وزملائه..".

إنها لعبة رجال السياسة المعروفة، ففي حال التخوّف من وقوع شركائهم، يقومون بعقد التحالفات مع عدة أطراف من أجل ضمان سلامتهم، وها هو يفعل الشيء ذاته، بعقد اتفاق غير مباشر مع طرف آخر، تخوفاً من وقوع طلبته في يدي الشرطة. وبالطبع فلن يجد من هو أكثر حمقاً مني من أجل أن يعقد معه اتفاقاً للنجاة بنفسه..

– أهناك أحد تشك فيه؟

وكما توقعت، فهو لن يكفّ عن محاولة استدراجي في الكلام وها هو يطلب



مني إجابة محدّدة. ولكنني لن أكون الغبي الذي يتفوّه بكل ما يجول في ذهنه فيما البقية يخطّطون ويتآمرون..

- لا أعلم يا أستاذ.. ولكنني البارحة مساء أخبرتك بشكوكي التي لم توافق عليها.. فأنا أظن أنّ لهذا الاعتداء علاقة بجريمة قتل نزهت..

بدأ يحك ذقنه بيده التي كانت عروقها الزرق واضحة ومتشعّبة كجذور شجرة عتيقة.

- قتل نزهت؟.. - كان المكر يتخلّل عينيه اللتين بدتا أفتح من المعتاد بسبب الضوء - أجل لقد تحدّثنا البارحة في الأمر، ولكنك لم تكن مرتاحاً بوجود البقية.. أعني جتين وإرول، فكما تعلم أن لديهما نظرة رومانسية إلى تاريخنا، وخاصة عندما يتعلّق الأمر بالسلطان محمد الفاتح.. ربما هذا ما دفعك لعدم التصريح عن شكوك أمامهما.. - لا يزال يراوغ بمهارة ويتجنّب البوح بما يجول في ذهنه صراحة - وعندما أخبرتني أنك تريد التحدث معي مساء البارحة، تأكدت أن لديك شكوكاً ما.. - كان العجوز الماكر يستخدم كلماتي من أجل الإيقاع بي - حسناً يا مشتاق؛ برأيك من الذي قام بقتل نزهت؟

كان صريحاً في أسئلته، يصل إلى لب الموضوع بشكل مباشر على عكس أجوبته المراوغة، وكان ينتظر مني جواباً مباشراً كأن أقول له إنني أشك بجتين وزملائه، وسيتصنّع الدهشة والاستغراب في البداية، ويسألني عن الأسباب التي دفعتني إلى هذه النتيجة، وبالطبع سيتحتّم عليّ أن أشرح له تسلسل الأحداث المنطقي والشبهات التي بدأت تدور حولهم، وأسبابهم في الإقدام على هذه الجريمة. وسيواصل تصنّع استغرابه بمكر، ليخبرني أنه لم يتمكّن من ربط الأحداث بهذه الصورة المنطقية. وفي النهاية سيوافقني على اتهاماتي، وهذا يعني بأنه سيدفع شركاءه السابقين إلى حتفهم لينجو بنفسه..

- لماذا سكتت يا مشتاق؟

بالطبع لأنني أحاول المراوغة مثله والتنصّل من قول الحقيقة، والبحث عن حجة مقبولة أبرّر بها رغبتي في التحدث إليه مساء البارحة..

- أفكر يا أستاذ - حينها التقت نظراتنا، كان كلانا ينظر إلى الآخر بمكر يتخلّله الاحترام، ليس كصديقين بل كغريمين، في صراع قد تودي زلة لسان واحدة فيه بالطرف الخاسر إلى السجن - وللأسف لست مقتنعاً أن من قتل نزهت هو ابن أخيها.

زادت كلماتي من الضيق الذي بدا في عينيه، واكفهرّت قسمات وجهه بصورة جلية.

- فالأسئلة لا تكف عن التناوب في ذهني يا أستاذ.. في البداية أنا أيضاً اعتقدت أنّ سيزجين هو من قام بقتل عمته، خاصة أنها أخبرتني عن المشاكل التي حدثت بينهما مؤخراً. كما أنني من أخبر المحقّق نفزت عن هذا الخلاف، وأظن أنّ هذا ما دفعهم للقبض عليه، ولكن الأمر ليس بهذه البساطة يا أستاذ، ليس كذلك على الإطلاق.. فالاعتداء الذي تعرّض له أكين، لم يكن في رأيي سوى محاولة قتل جديدة، وحادثة لها علاقة وثيقة بجريمة قتل نزهت، وأظنها قد حدثت في وقت قريب من وقت وقوع الجريمة، بل ربما حدثتا في الوقت ذاته من قبل مجموعة نفّذت الاعتداءين بصورة متزامنة.. ولو تحقّق صدق هذه التخمينات فهذا يعني أن سيزجين بريء من جريمة قتل نزهت..

لم أستطع تحديد سبب انفعاله الظاهر بهذا الشكل، أهو الخوف والقلق، أم الدهشة لهذه النتيجة المرّوعة، وسألني على الفور:

- إذاً من هو؟ أو من هم هؤلاء القتلة؟

لا أيها العجوز، لن أتفوّه بالحقيقة مهما راوغت وناورت معي.

- أشخاص كانوا على خلاف مع نزهت وأكين. قلتها بكل هدوء.

وسمعت صوت والدي يهمس في أذني مادحاً:

"أهنئك يا بُني، فحتى المحقّق البارع هيركل بوارو الذي أدهشني بذكائه وبراعته في كشف الجرائم التي تفيض بها قصص أجاثا كريستي، لم يمتلك هذه القدرة على المراوغة والدهاء، ولم يستطع التصرف والتحكّم في نفسه لهذه الدرجة..".

لم ألتفت كثيراً لإطراءات والدي، لأن المعركة لم تكن قد انتهت بعد، وعليّ



المتابعة. لذا توجّهت نحو الأستاذ العجوز مرة أخرى.

- أجل إنهم أشخاص يكنّون العداء لكليهما معاً.
- كفّ عن التحدث بالألغاز يا مشتاق - وبّخني أستاذي العجوز - من هؤلاء الأشخاص؟ ولماذا يكنّون عداءً مشتركاً لأكين ونزهت؟

سرّني أنه بدأ يفقد صبره، ووجدتها فرصة للضغط عليه وإثارته.

- مَنْ برأيك يا أستاذ؟.. تذكّر أنّ نزهت وأكين كانا يعملان معاً على مشروع محدّد..

خرجت الكلمات من بين شفتيه رغماً عنه، وكأنه يلقي بنبوءة مريعة.

- أطروحة نزهت؟..

أصبتُ الهدف تماماً.

- هذا ما أعنيه، فلا شيء يجمع بين الاثنين سوى هذه الأطروحة..
- فرضية قتل السلطان؟ - رمشت عيناه بتواتر محموم، وبدأ يتكلم بسرعة مضطربة - أتعني أن نزهت قُتِلت بسبب عملها على هذا المشروع؟..

أيها العجوز المحتال، ما زلت تواصل المراوغة ومحاولة التلاعب بي، وتوجيهي في الاتجاه الخاطئ عمداً.

- لم أعُدْ متأكّداً من الأمر الآن - قلتها وابتسامة ملغزة ترتسم على فمي - ربما كانت نزهت تعمل على مشروع آخر.

بدا القلق الجدي يرتسم في نظراته الحادّة:

- مشروع من أي نوع؟
- لا أعلم، فهي لم تحدّثني عن الأمر مطلقاً، وما دامت لقاءاتكما قد زادت في الآونة الأخيرة، فلا بدّ أنها حدّثتك عن الأمر..

ولكنه قاطعني قبل أن أكمل كلماتي:

- لا، لم تحدّثني عن شيء.

كنت متأكّداً الآن أنه يكذب، واستحضرت جملة قالها السلطان محمد الفاتح حول طبعه الكتوم "لو أن شعرة من لحيتي أطّلعت على ما أنوي فعله، لاقتلعتها على الفور وأحرقتها".. وبالطبع كان محقاً في الاستعانة بالكتمان لبلوغ أهدافه، فقد كان

يقود إمبراطورية مترامية الأطراف، ولكن ما بال هذا العجوز يتكتّم على الأمر ما لم يكن متورطاً فيه!

ربما أدرك أن كلماته لم تقنعني، فاستدرك قائلاً:

– ما الذي دفعك للتفكير بأن نزهت كانت تعمل على مشروع آخر غير قتل السلطان مراد الثاني؟ فالمقال الذي وُجِد في منزلها عن قتل الأب، والذي يتعلّق بدوستويفسكي، على ما أظن، يشير للأمر. وكما تعلم فإن نزهت كان يروق لها كثيراً الخلط بين التاريخ والأدب، وعلى الرغم من عدم وجود إثبات علمي لديها، فهي لم تكن لتمانع أن تبني فرضية وتنشأ رواية حول تسميم السلطان مراد الثاني – تصنّع ابتسامة على وجهه الكالح بفعل القلق وهو يضيف – ولكن لماذا أعيد كلماتك، فأنت من طرح هذه الفكرة بالأمس؟.. لم تخبرني ما الذي دفعك لتغيير رأيك يا مشتاق؟

بسبب تصرّفاتك الغريبة يا أستاذ، لأنك عندما سمعت حديثي عن الأطروحة لم تقنعني دهشتك المزيّفة التي تلاشت بعد ثوانٍ قليلة، ولكنني بالطبع لم أخبره بما يعتمل في ذهني.

– لأنني أعدت قراءة الأحداث المتعلقة بموت مراد الثاني، ولم أجد أدنى دليل يشير إلى موته مسموماً، أغلب الظن أنه مات نتيجة نوبة قلبية حادّة، أو نزيف داخلي..

ابتسم بسخرية وهو يقول:

– أراك بدأت تهتم بالطب أيضاً يا بُني..

– ليس الأمر كما تظن يا أستاذ، ولكن بعد قراءة النصوص المتعلقة به، ترسخت لديّ هذه القناعة، فكما تعلم أنّ نوعية الطعام التي كان يفضّلها السلاطين والتي اشتهرت بها مطابخ القصر، كانت مليئة بالدهون وكانت دسمة كثيراً، لذا فإن معظم السلاطين كانوا مصابين بداء النقرس..

نظر إليّ بتمعن قبل أن يقول:

– لم أسمع عن أحد مات جرّاء مرض النقرس...

لقد سمعت هذه الكلمات من قبل، ولكن متى؟.. أجل، لقد قالها السلطان

محمد الفاتح في حلمي البارحة.. يا للمصادفة الغريبة! فقبل انقضاء أربع وعشرين ساعة أسمع الجملة ذاتها مرتين.. ولكنني أظن أن للأمر أسبابه المنطقية أيضاً. فالابن والأب أُصيبا بالمرض ذاته، كما أنّ الشخص الذي رأيته في الحلم لم يكن السلطان الفاتح، بل كان أحد إرهاصات عقلي الباطن..

- وأنت - أضاف الأستاذ طاهر - أسمعت عن أحد مات جراء هذا المرض؟..
- لم أسمع شيئاً من هذا القبيل، ولكن المشكلة أن هذا المرض له مضاعفات كثيرة، ويتسبّب في تلف الأوعية الدموية، وقد يتسبّب في حدوث نوبة قلبية أو دماغية، أو نزف داخلي.. وليس هذا ما جعلني أغيّر رأيي فحسب، فقد دخل أحدهم البارحة إلى مكتبي، ومن الواضح أنه كان يبحث عن شيء ما..

عاد القلق يخيّم على نظراته ولاحظت رعشة خفيفة في ذقنه.

- هل أنت متأكّد؟ ربما يكون أحد العمال المكلّفين بتنظيف المكاتب..
- متأكّد، فقد كان المكتب غارقاً في الفوضى كما أنهم أجروا بحثاً في كمبيوتري الخاص أيضاً..
- ولماذا لم تخبزني من قبل؟ لماذا لم تتّصل بالشرطة؟

بدا قلقه ومخاوفه حقيقيين، ولكنني لم أصدّقه بالطبع.

- لم أعتقد أن للأمر علاقة بمقتل نزهت، ولم أربط الأحداث بعضها ببعض إلا بعد الحادث الذي تعرض له أكين.. وبالطبع سأخبر الشرطة بالأمر.. على أي حال فإنهم كانوا يبحثون عن نص ما أو أطروحة على الكمبيوتر. ومن الواضح أنهم فتشوا الأدراج والملفات بحثاً عن مبتغاهم، وعندما لم يجدوا شيئاً توجّهوا إلى الكمبيوتر، وقد كانوا يبحثون عن ستة أشخاص عاصروا السلطان محمد الثاني: الشخص الأول بالطبع هو السلطان، والثاني هو الصدر الأعظم تشاندرلي خليل باشا، والثالث هو شهاب الدين باشا، الرابع هو زاغنوس باشا، والخامس هو بيازيد الثاني، أما السادس فهو السلطان جيم، ولكن السلطان مراد الثاني لم يكن ضمن القائمة..

هزّ كتفيه:

- ولكن هذا لا يعني شيئاً، أي أن عدم بحثهم عن مراد الثاني لا يؤكد أن أطروحة نزهت لا تتعلّق بموته..
- بالطبع، لا يؤكد الأمر، ولكن لو افترضنا أنّ من اقتحموا مكتبي، هم من قاموا بارتكاب الجريمة- وصراحة لا أستطيع سوى الركون إلى هذا الاحتمال في الوقت الراهن- فلماذا سيتجنّبون البحث عن شخصية الأطروحة الأساسية وهو مراد الثاني، ويهتمون بالبحث عن وزراء السلطان محمد الثاني وأفراد عائلته؟.. ألا يدعو الأمر للغرابة؟..

وعندما لم يجد ما يرد به، عاد لتكرار كلماتي:

- حقاً غريب..

لم يواصل الحديث لأنه بدا مشوّش الذهن كثيراً، أحقاً لم تكن له علاقة بكل ما يجري؟ لم أستطع الاقتناع بهذه الفكرة حتى النهاية، فأنا متأكّد أنه يخفي عني أمراً مهماً.

إن كان ظني صحيحاً، فهذا يعني أنّ خلاصي من هذا الكابوس الذي أعانيه منذ يومين يتوقّف عليه، ولكنه ربما لا يودّ التصريح بشكوكه حتى يتأكد من الأمر بشكل تام، وهذا ما دفعه إلى محاولة استدراجي في الحديث. وفي هذه الحالة ربما أخطأت في إخفاء الحقيقة عنه وعدم البوح بأسماء القتلة صراحة أمامه، ربما كان عليّ أن أخبره أنّ جتين وزميليه هم المتورّطون في هاتين الجريمتين. فلن أخسر شيئاً لو كنت مخطئاً في ظنوني، ولكن لو أصبت فهذا يعني إثبات براءتي من هذه الجريمة الملعونة.

- في الحقيقة يا أستاذ..
- هل لي بصورة تجمعنا نحن الثلاثة يا أستاذ؟- قاطعني صوت ما عن مواصلة الحديث، وقبل أن تنتظر موافقتنا، انتصبت بيننا نحن الاثنين امرأة بدينة، كانت إحدى المعجبات بالأستاذ اللواتي اعترضن على تصريحه عن عمره الحقيقي- لقد فوّتت فرصة التنزّه في بقية أرجاء القلعة من أجل التقاط صورة معك يا أستاذ- لم تكن كلماتها موجهة إليّ بالتأكيد- ففرصة التصوّر معك أثمن بكثير من التنزّه في القلعة.

ثم توجّهت إلى الرجل الذي كان يقف أمامنا ويبتسم ببلاهة وهو يحمل بيده آلة التصوير وهي تقول:

- هيّا يا بيامي التقط الصورة، ما الذي تنتظره؟

(29)

كانت الخسارة من نصيبنا مجدّداً

"الفرق بيننا وبين الحيوانات هو تطوّر منظومة الوعي لدينا، كالمشاعر وطرائق التفكير والذاكرة وبقية العمليات النفسية والعقلية التي يسيطر عليها الوعي. أما بقية الكائنات فلم تبلغ هذا الغنى والتطور النفسي، ورغم ذلك فنحن في كثير من الأحيان نميل إلى التصرّف وفق نوازعنا الحيوانية".

مرّت كلمات شازية أمام ناظري كشريط إخباري وأنا أقف وسط حصن روميلي، وأشاهد بقية الحشد ينضمّون إلى السيدة البدينة التي حشرت نفسها بيننا دون استئذان لالتقاط الصور، ما حرّك رغبة التجمّع لدى بقية زملائها رجالاً ونساءً ودفعهم إلى التسابق من أجل التقاط الصور معنا، لتومض أضواء الكاميرات عشرات المرات. لم يكن الأمر ليضايقني لولا أنّ الحديث بيني وبين الأستاذ كان يقترب من نقطة حساسة جداً، والأسوأ من ذلك أنّ كل محاولاتي للانتحاء بعيداً عن هذه الحشود المتحمّسة ذهبت هباءً، فالأستاذ الذي لم يتعكّر مزاجه مثلي على ما يبدو - ولسبب لا أعلمه كان مصراً في كل مرة على جرّي معه، لأظهر رغماً عني في كل صورة يتم التقاطها. لِمَ لا يدعني وشأني ويستمتع باهتمام الناس وإعجابهم؟.. فالوقوف وسط هذا الحصن الذي يعود بناؤه لأكثر من خمسمئة عام، وأنا أحمل في حقيبتي مسدس والدي القديم، وفي رأسي آلاف الأسئلة والمخاوف عن جريمة قتل، ومع ذلك اضطراري لتصنّع ابتسامة مهذّبة أمام عدسات الكاميرات التي أومضت أكثر من ثلاثين مرة، لم يكن بالأمر المريح على الإطلاق.

ولكن لم تكن باليد حيلة، فقد كنت مجبراً على إظهار أقصى درجات التهذيب أمام هؤلاء الناس المتحمّسين للتصوير، على أمل أن ينتهي هذا الهرج قريباً وأتمكن أنا والأستاذ من معاودة الحديث الذي قُطع مرة أخرى، وذلك أثناء رحلة العودة في



الحافلة، حيث، وكما أعتقد، لا بدّ أنّه أيضاً يود أن نتابع حديثنا ونتبادل المعلومات التي لدينا، وبالتالي سأطلب منه أن نجلس في المقعد ذاته علّنا نستطيع التحدث. ولكن يبدو أنّ لباقتي الزائدة وحماقتي ستوجّهان الأمر في منحى آخر..

وأخيراً انتهت حمّى التصوير تلك، وكفّ الحشد عن مضايقتنا، واتجهنا نحو الحافلة استعداداً للعودة، وقد أُتيحت لي الفرصة للتقرّب من الأستاذ والهمس في أذنه برغبتي في الجلوس قربه علّنا نستطيع التحدث، وقد وافق على الأمر فوراً.

كان العجوز أول من صعد الحافلة، حيث كان يقف في المقدمة ولم يرغب أحد أن يقف أمامه احتراماً، وبالتالي فقد جلس في المقعد الذي يلي مقعد السائق، وكنت أستطيع بكل سهولة الصعود خلفه مباشرة والجلوس إلى جانبه دون أن يعترض أحد على ذلك.

كانت الأمور تسير على خير ما يُرام، وقبل أن أصعد أولى درجات الباب الأمامي أوقفني صوت قوي، لرجل في عمر الأستاذ تقريباً، ذي شعر فضي وأناقة ظاهرة، يضع نظّارة شمسية وهو يقول:

- كان شرحك ممتازاً يا أستاذ – وعلى الرغم من عدم تمكني من رؤية عينيه، إلا أنّ صوته بدا صادقاً – حتى أنك تفوّقت على الأستاذ طاهر حقي..
- الأستاذ طاهر أستاذنا جميعاً، ولا يمكن لتلميذ التفوّق على أستاذه..
- جميل أنك تتصف بالتواضع – كان يتكلّم دون تكلّف ويبتسم بود ظاهر وكأننا أصدقاء، ومن ثم مد يده مصافحاً – أنا بحري.
- تشرّفت بمعرفتك. حاولت التخلّص منه والصعود إلى الحافلة، وعندها لاحظت أنّ السيدة جالة تقف خلفي.. لا أدري أي شياطين أيقظت اللباقة والتملّق فيّ لألحّ على هذه السيدة التي لم تكن تملك أي ميزة إضافية لديّ سوى أنها السيدة التي بدا أستاذي معجباً بها قبل قليل، فخاطبتها:
- تفضّلي سيدة جالة.

لكن السيدة كانت تقف ورائي بكل هدوء وتنتظر دورها وقد رفضت عرضي هذا بأدب جمّ:

- شكراً أستاذ مشتاق، تفضّل أنت بالصعود.



ولكن أمام إصراري الأحمق، وبسبب انتظار البقية دورهم في الصعود، وافقت السيدة على عرضي بابتسامة لطيفة وصعدت لتجلس قرب الأستاذ طاهر، فيما تناهى إلى مسامعي صوت والدتي وهي تمدحني كما في كل مرة "أحسنت يا بُني، فسليل عائلة سرهزين العريقة، لا يليق به سوى التصرف بهذه الطريقة الراقية"، لكن كلمات والدتي لم تستطع محو الندم الذي شعرت به على الفور، وأنا أجلس خلف الأستاذ وصديقته دون أن أتجرأ على النظر إليه، لأنني أعلم أنه سيرمقني مؤنّباً بكل تأكيد على حماقتي.

لم تكن السيدة جالة تريد أن تفوّت هذه الفرصة، وعلى الفور بدأت بالحديث:

– كان شرحك رائعاً يا أستاذ، وقد جعلتنا كلماتك نتصوّر الأحداث وكأنها تجري أمام ناظرينا.

لكن الأستاذ لم يكن في مزاج رائق على ما يبدو، فردّ ببرود:

– شكراً لك سيدتي، ولكنك تبالغين..

كان واضحاً أنه لا يميل كثيراً إلى التحدّث معها، وبدا مشغول الذهن، وأظن أنّ حديثنا قبل قليل قد ترك عليه أثراً واضحاً، وكان يرغب في متابعته. ولكنه بالطبع لن يطلب من السيدة أن تغيّر مقعدها وتسمح لي بالجلوس مكانها، فهو ليس مضطراً لتجشّم عناء الظهور بمظهر الجلف نتيجة تصرّفي الغبي.

– ولكن هناك سؤالاً يشغل بالي يا أستاذ – كانت المرأة تواصل الحديث دون أن تعرف ما يعتمل في صدر العجوز، وتحاول الاستفادة من هذه الفرصة قدر المستطاع – ما كان مصير السفن التي كانت تعبر المضيق بعد بناء روميلي هيصار؟

لم يجبها على الفور، فقد كانت الأحداث التي حصلت في اليومين المنصرمين، وليس تلك التي حدثت قبل خمسمئة عام، هي ما يشغل ذهنه العجوز.

– عفواً؟..

– كنت أسألك عن الحصن يا أستاذ، ومصير السفن التي كانت تعبر المضيق ذهاباً وإياباً بعد بنائه.

عاد ليلعب دور المؤرخ والأستاذ الودود الذي لا يشبع من التحدث عن أمجاد



تاريخنا، تنحنح وحاول وضع ابتسامة لطيفة على وجهه قبل أن يجيب:

- في الحقيقة سيدة جالة، هناك مئات الكتب والروايات التي تحدثت عن الأمر، وكل منها يلقي الضوء على حدث معين.. - وبدا وكأنه اندمج في الدور وعاد إليه مزاجه الرائق - ففي ذلك العام، أي في خريف العام ألف وأربعمئة واثنين وخمسين، حاولت ثلاث سفن من البندقية أن تعبر المضيق.

- لا يجوز أن تفعل ذلك - سمعنا صوتاً نسائياً معترضاً.

وعندما نظرت خلفي شاهدت المرأة البدينة التي كانت السبب في هرج التصوير قبل قليل، وهي تنظر إلينا معترضة:

- فنحن لا نسمع صوتك يا أستاذ، ولا نرغب في أن نفوّت فرصة الاستماع إليك - ولكزت زوجها الجالس قربها بابتسامة ساكنة وهي تكمل - أليس كذلك يا بيامي؟ - ولكن سؤالها لم يكن بأي حالٍ من الأحوال يعني السماح له بالتحدث، ويبدو أنه أدرك هذه الحقيقة منذ وقت طويل، لذا اكتفى بأن وسّع من مساحة ابتسامته.

وهنا بدأت الأصوات تتعالى من الحافلة:

- هل يتحدث الأستاذ عن فتح إسطنبول؟

- نحن أيضاً نريد سماع ما يقوله..

- أرجو أن تتحدث من خلال الميكروفون يا أستاذ..

وعندما شاهد السائق رغبة جميع الركاب في أن يتحدث الأستاذ إليهم عبر الميكروفون، نهض من مكانه بحركة رشيقة، لم أتخيّل جسده الضخم قادراً على الإتيان بها، وتناول الميكروفون من مكانه، وقدمه باحترام بالغ إلى أستاذ الأساتذة:

- تفضّل أستاذ، تستطيع التحدث عبر هذا الميكروفون..

تناول الأستاذ الميكروفون بثقة واضحة، وعلى الفور اختفى ذلك الشخص القلق الذي كانه قبل لحظات، وحل مكانه الأستاذ والمؤرخ المحب لعمله، والذي يسره على الدوام إغداق معلوماته التاريخية أمام مستمعين مهتمين كهؤلاء. وبدا مرتاحاً، أو هذا ما كان يحاول إظهاره، وهو ينفخ في الميكروفون من رئتيه القديمتين، ليتردّد صوت تنفسه في أرجاء الحافلة.

- هل تسمعون الصوت؟.. حسناً، فقد كنا نتحدث عن عبور السفن للمضيق بعد بناء الحصن الذي اكتمل نهاية الصيف، والأحداث التي رافقت ذلك..

ففي شهر تشرين الثاني/نوفمبر عبرت سفينتان من البندقية المضيق، وعلى الأرجح كانتا محملتين بالمؤن القادمة من القرم إلى القسطنطينية. وعندما شاهد حراس الحصن ذلك، رفعوا لهم رايات تشير إلى وجوب توقفهم على الفور، ولكن السفينتين لم تلقيا بالاً لإنذارات الحرس، وتابعتا إبحارهما مستغلتين سرعة الريح، حينها أدرك الحراس أنّ السفينتين لن تذعنا لأمر التوقف، فما كان منهم إلا أن أمطروهما بوابل من طلقات المدافع، والتي انهالت عليهما بالمئات.

عندها أدرك البنادقة الخطأ الفادح الذي ارتكبوه وعلى الفور أمروا البحارة بإنزال الأشرعة إيذاناً بالرسو، ولكن الذعر الذي ساد الأجواء جعل المجذفين على الرغم من إنزال البحارة لبعض الأشرعة، يستمرون في التجذيف بكل قوتهم، وبمساعدة الريح والبحر الذي كانت أمواجه تتوالى بسرعة، نجت السفينتان وابتعدتا عن مرمى المدافع والنيران، فيما حراس الحصن يراقبونهما ويحصون الخسائر التي تعرضوا لها في أسى.

ولكن بعد أسبوعين من هذه الحادثة تكرر الأمر مع سفينة إيطالية أخرى، كانت تنوي التملّص بالطريقة ذاتها وعدم الانصياع لإنذارات الحراس، وكان يقودها قبطان ذو خبرة واسعة هو أنطونيو إريزو، وكانت هذه السفينة أيضاً كسابقتها محملة بالمؤن وتتجه نحو القسطنطينية..

قام الأستاذ من مقعده وأشار بيده من خلال نافذة الحافلة إلى مياه البحر الفيروزية اللون التي تمتد أمامنا وهو يضيف:

- انظروا.. أترون تلك البقعة قبالة حصن الأناضول، أغلب الظن أنّ السفينة وصلت إلى هناك عندما بدأت تتلقى الإنذارات بإنزال الأشرعة والبدء بالرسو، ولكن القبطان لم يلق بالاً لها، وكان يعتمد على سرعة الريح من أجل الابتعاد بسرعة عن مرمى المدافع، ولا بدّ أنه سمع بحادثة السفينتين اللتين تمكنتا من النجاة قبل مدة والوصول إلى القسطنطينية سالمتين، وهذا ما زاد من جرأته، وبدل أن يأمر رجاله بإنزال الأشرعة، أمرهم بزيادة

السرعة إلى أقصاها، ولكن تجري الرياح بما لا تشتهي السفن. وقد أدرك قائد الحصن ما ينويه قبطان السفينة وعلى الفور أمر رجاله بإطلاق نيران المدافع نحوه، وقد حالفهم الحظ هذه المرة، وكانت إحدى الطلقات مصيبة ومدمرة، وتسبّبت على الفور بغرق سفينة التعس أنطونيو بكل ما فيها لترسو في قعر المضيق.. غرق من غرق، ومن استطاع النجاة والسباحة حتى الشاطئ تم إلقاء القبض عليه من قبل الحراس الذين كانوا ينتظرونهم هناك ليصطادوهم واحداً تلو الآخر بمن فيهم أنطونيو نفسه. ولكي يصبح عبرة لسواه، وحتى لا تتكرر هذه المحاولات مرة أخرى، فقد تم إعدامه مع من نجا من رجاله..

- دون أن تتم محاكمتهم؟

تساءلت السيدة جالة وقد تملكتها الحيرة، ولكن الأستاذ نهرها كما ينهر معلم أحد تلاميذه:

- لم تتم محاكمتهم بالطبع سيدة جالة – وأكمل بنبرة واثقة – نحن نتحدث عن عصر كانت لغة القوة وليست لغة الحقوق هي السائدة بين الدول، وكان الأقوى هو من يفرض قوانينه ويبقى.. عصرٍ كان حدّ السيف هو من يغير أقدار الدول والناس أيضاً..

- أليس هذا ما يحصل في عصرنا الحالي أيضاً؟.. كان صوتاً نسائياً جميلاً وعندما استدرت نحو مصدر الصوت، رأيت شابة محجّبة جميلة ذات عيون رائعة وهي تكمل – فأميركا التي ادّعت أنها ستجلب الديموقراطية إلى العراق، تسببت بقتل أكثر من مليون شخص، وانهيار بلد برمته..

ارتفعت من الخلف همهمات وأصوات معترضة على مداخلة الشابة الجميلة، فهم كانوا يرغبون سماع أحداث التاريخ، وليس الدخول في سجال سياسي عن أحداث معاصرة، وهنا رفع قبطان الحافلة يده لإسكات الجميع:

- نحن لا نتحدث الآن عن الأحداث السياسية المعاصرة – أنهى الموضوع بصوت جليدي حاسم – إذاً فلنعدْ إلى حيث كنّا.

على الفور توقفت الهمهمات وساد سكون مطبق الحافلة.



- والآن أريد أن أسألكم سؤالاً.

ولكن قبل أن يطرح سؤاله واجهته نظرات سائق الحافلة وهي تسأله عن موافقته على البدء بالانطلاق، فأبعد الميكروفون عن فمه، وهمس في أذن السائق أن يتريث قليلاً:

- أجل كما أخبرتكم منذ قليل فقد غرقت سفينة القبطان أنطونيو نتيجة قذيفة مدفع، ولكن هل تعرفون اسم الشخص الذي رمى هذه القذيفة؟

خيّم صمت عميق على الجميع.

- ما من أحد يعلم؟

وبعد لحظات وصلنا صوت ضعيف ومتردد وهو يقول:

- أهو أوربان؟

توجّه الأستاذ بحماس نحو الصوت وهو يكرر ويسأل:

- من؟

كان شاباً ملتحياً يجلس في آخر مقعد وقد بدا منحشراً بين بقية زملائه وزميلاته. أعاد الجواب هذه المرة ولكن بصوت أكثر قوة وثقة:

- كان أوربان المجري من أصاب السفينة.

- أهنئك – قالها الأستاذ بحبور – أرجو أن تصفقوا بحرارة لصديقنا الشاب..

تلاشى الضيق والتوتر الذي ساد قبل قليل وانساب عبر الأكف التي تضاربت بنشاط بناء على رغبة الأستاذ، ولكنه اضطر ليتدخل مرة أخرى لإسكات الصيحات التي أطلقتها زميلات الشاب الجالسات بالقرب منه:

- يتّفق معظم المؤرخين على أنّ أوربان المجري كان من أصاب السفينة، وكما تعلمونَ فهذا الشاب كان من أهم الأشخاص الذين صنعوا المدفع الشهير (بالمدفع السلطاني)، والذي كان له دور حاسم في سقوط القسطنطينية فيما بعد. وبحسب رواية المؤرخ دوكاس فقد ذهب أوربان إلى القسطنطينية، ويقال إنه قابل الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر، ولكن هذه المدينة القديمة والمنهكة لم تكن تملك المال الكافي لدفع المبلغ الذي طلبه المجري لصنع مدفعه. وحينها توجّه ليطرق باب السلطان محمد الثاني،

وقد كان السلطان الشاب شغوفاً بالعلوم ويوليها اهتماماً كبيراً، لذا فقد لاقى عرض المهندس المجري لديه أعظم القبول، وأغدق عليه المال لصنع ذلك المدفع الضخم الذي سيدّك أسوار القسطنطينية.

وقد قال له السلطان حينها "صارحني يا أوربان، هل تضمن أنَّ المدفع الذي تنوي صنعه سيهدم أسوار القسطنطينية حقاً؟".

فأجابه الشاب بكل ثقة "أضمن لك أنّ مدفعي يستطيع هدّ أسوار بابل العظيمة لو بُنيت من جديد، ولكن ما لا أستطيع تخمينه على وجه الدقة، هو المدى الذي ستبلغه طلقات المدفع يا مولاي".

فقال له السلطان "قم أنت بصنع المدفع واترك مسألة تحديد مدى الطلقات لي".

وهكذا صنع أوربان المجري مدفعه العظيم والذي سيدّك أسوار المدينة عند الفتح.

- أعتذر يا أستاذ – عاد صوت جالة ليقطع حديث الأستاذ بسؤال جديد– ولكن ألم يكن أوربان أيضاً نصرانياً مثل سكان القسطنطينية، فكيف رضي أن يساعد السلطان المسلم؟

بدا على وجه الأستاذ ألم خفي وعميق وهو يشرح لها:

- الإنسان مخلوق غريب يا سيدة جالة، فالدين والخبز يتبادلان لديه المكانة على الدوام بحسب الأولوية والحاجة. فعندما يكون جائعاً، تكون معدته هي أقدس قبلة لديه، وحين يلبي احتياجاته الدنيوية ويشبع، حينها فقط يلتفت إلى العالم الآخر. بالطبع لا ينطبق هذا الكلام على جميع الناس، ولكنها قاعدة عامة على وجه التقريب، وأوربان المجري لم يحد عن هذه القاعدة بدوره، كما أن جيش السلطان كان يضم أعداداً كبيرة من النصارى الذين كانوا يطمعون في السلب والنهب والحصول على الغنائم بعد فتح المدينة، وكانت هذه المطامع الدنيوية تحتل لديهم مكانة أهم من ولائهم لنبيهم عيسى ابن مريم..

تنطّحتُ بالتدخل وكأنه أمر ضروري جداً:

- ولكن لا تنسَ يا أستاذ الخلافات المذهبية بينهم.



نظر إليّ بطرف عينيه، وقد ظننتُ بأنه سيبتسم في البداية ولكنه لم يفعل، بل ارتسمت في عينيه نظرة تقول لي وما الداعي لذكر هذه التفاصيل التي لا طائل منها الآن. حينها أدركت أنّ الأستاذ يشعر بالسأم، بل بالملل الشديد، وأنه قد أخذ يضيق ذرعاً بهذا النوع من الأنشطة بعد أن بلغ من العمر ما بلغه، ولكنه يخفي الأمر خلف قناع المؤرخ الشغوف بعمله، والمهتم باطلاع الآخرين على ما يودون معرفته.. قد أكون مخطئاً، قد يكون موت نزهت والحديث الذي دار بيننا منذ قليل هو سبب البرم الذي يشعر به.. على أي حال، ومهما كانت الأسباب فمن الواضح أنّ العجوز برِم جداً، ولكنه مع ذلك مصرّ على إخفاء الأمر عن الآخرين، والحفاظ على الصورة المألوفة عنه، ربما لأنه لم يعد يملك ما يربطه بالحياة سوى هذه الصورة.

– كما ذكر مشتاق – حاول أن يزيل ذلك التعبير عن وجهه – فالخلافات بين الأورثوذوكس والكاثوليك لعبت دوراً مهماً لجعل الأمور تسير في صالح المسلمين وبالتالي فتح القسطنطينية.

عادت نظرات الأستاذ إلى قدري سائق الحافلة الذي كان من الواضح أنه يتململ في مكانه، ويريد أن ينطلق في رحلته دون المزيد من التلكّؤ.

– أجل يا أصدقائي، لقد انتهت جولتنا في حصن روميلي هيصار، والسائق ينتظر جلوسي في مقعدي من أجل الانطلاق.

مرة أخرى ارتفعت أصوات ركاب الحافلة معترضين على اقتراح الأستاذ:

– حسناً، حسناً.. لن نتوقف عن الحديث والشرح، فأنا سأقوم بسرد الوقائع التي حصلت في المعسكر العثماني في أواخر شهر آب/أغسطس من العام ألف وأربعمئة واثنين وخمسين وحتى السادس من نيسان للعام ألف وأربعمئة وثلاثة وخمسين أي تاريخ بدء الحصار، فيما سيقوم صديقي مشتاق بشرح ما كان يجري داخل أسوار المدينة في تلك الأثناء، أي سيحدثنا عن سكان القسطنطينية ومدافعيها.

يا للسخرية، فقد كانت الخسارة من نصيبنا مجدداً، تملكني الاضطراب فكيف سأشرح لهم ما كان يحدث داخل أسوار مدينة توشك على السقوط، ولِمَ أوكل إليّ الأستاذ طاهر بهذه المهمة الشاقة؟ الجواب واضح؛ فتاريخ المهزومين حتماً سيرويه

شخص اجترع الهزيمة، ومن أفضل من مشتاق سرهزين ليروي تاريخ سقوط عاصمة الإمبراطورية البيزنطية الشرقية؟..

- اتّفقنا؟ - جلس البروفيسور العجوز في كرسيه بعد أن تأكّد من موافقة الجميع - حسناً..

بالطبع لم يكن يوجه سؤاله نحوي، كان يخاطب الآخرين، فأنا لم أملك رفاهية الرفض ولو لمرة واحدة، ولن تتغير هذه القاعدة الآن.

- حسناً، اتفقنا.. - ارتفعت الهمهمات وأصوات الموافقة من أرجاء الحافلة..
- إذاً سنبدأ من عند الأستاذ مشتاق - مدّ لي الميكروفون وعادت نظرة السأم تلك تتجلّى في عينيه.
- هيّا يا مشتاق - كان صوته متعباً ينضح بالضجر - سآخذ قسطاً من الراحة فيما تواصل حديثك..

(30)

أفضّل أن أشاهد عمائم التُرك على القبّعة اللاتينية

هذه القصة تسبّب لي حزناً عميقاً على الدوام، ففي كل مرة يتم فيها ذكر فتح القسطنطينية أحس بأسى خفي يعتمل في مكان سحيق من روحي، وبأن هناك جزءاً مني يتعذب لاستذكار تلك الأحداث. وقد أصابتني هذه الحالة للمرة الأولى حين قرأت كتاب نيقولا باربارو الذي يتحدث فيه عن حصار المدينة. هذا الحصار العظيم الذي امتد من السادس من نيسان/ أبريل من العام ألف وأربعمئة وثلاثة وخمسين وحتى التاسع والعشرين من أيار/ مايو من العام نفسه، والذي استمر اثنين وخمسين يوماً، يثير فيّ رغبة بالبكاء كلما تذكرت أحداثه. "هذا الطفل عاطفي أكثر من المعتاد، فهو يبكي حتى من أجل أعدائه". أكانت إمبراطورية روما عدوتي؟ بالطبع لا، ولكنها كانت عدوة أجدادي، وربما بسبب شعوري بالعار لحزني على أعداء لم أستطع أن أكمل الكتاب الذي يتحدث عن تلك الأيام العصيبة. ولكن إغلاق الكتاب لم يمنع بحال من الأحوال توارد الصور الفظيعة في ذهني، وسماع أصوات صرخات القتلى وأنين الجرحى.. وعلى الرغم من معرفتي الأكيدة أن إمبراطورية روما الشرقية كانت آيلة للسقوط – فلو لم يقم العثمانيون بالسيطرة على المدينة، لقام غيرهم بذلك دون شك – فإنني لا أستطيع أن أسيطر على ذلك الغم الذي لا مبرّر له، والذي يتملّكني كلّما تذكرت الأمر.

أجل لا مبرّر له، فمنطق القوة كان هو الغالب في ذلك العصر، وسواء كان المنتصرون هم العثمانيون أم المغول أم الصليبيون، فقد كانت استباحة المهزوم شرعاً غير قابلة للنقاش، وحقاً من حقوق المنتصر.

كما أنني كنت حفيد هؤلاء المنتصرين، ويعود لهم الفضل في كوني خُلقت في هذه المدينة التي أحبها أكثر من أي مكان آخر. "المؤرخ لا يجوز أن يكون منقاداً



لمشاعره يا مشتاق، عليه أن يكون حيادياً تماماً في طرح الأحداث والمعارك الدموية وما يرافقها من موت أو انتصار.." أجل كانت قاعدة جيدة للعمل، ولكنني لم أستطع السير وفقها في كثير من الأحيان، وهذا كان سبب القلق الذي سيطر علي عندما طلب مني الأستاذ طاهر أن أحدثهم عن أيام حصار المدينة. أصابتني الحيرة ولم أعلم للحظات كيف سأبدأ الحديث، ولكنني استطعت استجماع جسارتي بأسرع مما توقعت، وهذا ما فاجأني.. أكنت أنا أيضاً أتغير دون أن أعلم؟ أكانت أحداث اليومين المنصرمين القاسية هي من أثّر بي إلى هذا الحد وجعلني أتغير؟.. لا أعلم ما هو السبب، ولكن عليّ الآن أن أكفّ عن الانشغال ببلبلة أفكاري التي لا تنتهي، والالتفات لإرضاء فضول هذه القافلة التي تتشوق لسماع مجرى الأحداث.

- أودّ البدء بمصادفة غريبة بعض الشيء – قلت ذلك فيما تنساب الحافلة على الطريق المحاذي للبحر اللازوردي – فقد منح الإمبراطور جايوس فلافيوس فاليريوس والمعروف بقسطنطين العظيم اسمه لمدينة بيزنطة في أبهى فترات تاريخها، ليحولها من مجرد مدينة عادية، إلى عاصمة لإمبراطورية روما الشرقية، وبعد أكثر من ألف عام بقليل كانت نهاية تاريخها كعاصمة بيزنطية في عصر إمبراطور آخر يحمل الاسم ذاته وهو قسطنطين باليولوك الحادي عشر؛ آخر أباطرة روما..
- لقد كان حاكماً شجاعاً دافع عن المدينة حتى آخر لحظة أليس كذلك؟

كان الصوت مألوفاً، وحين التفت إلى الخلف شاهدت الشابة المحجّبة ذات العينين الجميلتين، والتي زاد الفضول من بريق عينيها وهي تنظر إليّ:

- لقد قرأت في أحد الكتب، أنّ السلطان محمد الفاتح أمر بدفنه بشكل يليق بأحد الأباطرة.
- هناك روايات متعدّدة تدور حول هذا الأمر – تدخّلت ممسكاً بزمام الحديث مرة أخرى – ولكن من المبكر الحديث عن موت قسطنطين، فما زلنا في بداية الحصار، وما زالت المدينة تتحصن للدفاع عن نفسها، كما أنّه من المفيد لنا أن نذكر الأحداث وفق تسلسلها الزمني دون استباق الأحداث، وذلك حتى لا تختلط الأمور في أذهاننا.

- أجل، أجل.. ولكننا نريد رؤية وجهك..
- من فضلك تحدّث وأنت واقف.

لهذا السبب أتجنب على الدوام هذا النوع من النشاطات والاختلاط بالناس بهذه الطريقة، فلو رفضت مطالبهم سيتهمونك بالغرور والتكبر، ولو أذعنت لهم فإن مطالبهم لن تنتهي، ولكن ما باليد حيلة، لذا توجّهت مرغماً نحو السائق وأنا أقول:

- ألديك مانع لو تحدثت واقفاً في مكاني؟
- لا مشكلة لديّ على الإطلاق يا أستاذ، ولكن في حال اضطررت للضغط على المكابح بصورة مفاجئة فقد تقع ويصيبك مكروه لا سمح الله..
- في هذه الحالة كُنْ حذراً وأنت تقود- تدخلت السيدة جالة وهي توجه حديثها إلى السائق بنبرة توبيخ فاجأتني- إن تجنبت السرعة الزائدة فلن يحصل أي مكروه.

احتقن وجه السائق على الفور ولم يتمهّل في الرد عليها:

- الأمر ليس بيدي يا سيدتي، فأنا أستطيع أن أخفف السرعة قدر ما أشاء، ولكن المشكلة في بقية السيارات، هل تستطيعين أن تطلبي من الجميع أن يتمهّلوا؟

كان محتدًّا ويتكلّم بغضب، ويرتفع صوته مع كل كلمة جديدة. ولكن لحسن الحظ أن الأستاذ طاهر تدخل، وأنهى هذا الجدال على طريقته:

- حسناً، حسناً.. لا مشكلة يا بُني، كن حذراً وأنت تقود كما أن فرص السرعة على هذا الطريق قليلة، وسيقوم مشتاق بالتشبّث جيداً، ولن تحصل أي مشكلة..

وافق السائق على كلمات الأستاذ دون اقتناع، ولم يعترض بسبب الاحترام البالغ الذي يكنّه له، ومع ذلك لم ينسَ أن يخلي مسؤوليته أمام الجميع:

- حسناً يا أستاذ، كما تشاء. ولكن إن وقع أي مكروه لا سمح الله، فأنا لا علاقة لي بالأمر.

هزّ العجوز رأسه مؤيِّداً كلام السائق واتجه نحوي وهو يقول:

- لن تقع، أليس كذلك يا مشتاق؟



- اطمئنوا فلن أقع.. - قلتها لأنهي هذا النقاش، وتوجهت نحو السائق وأنا أقول - شكراً لتفهمك الأمر سيد قدري.

ولكنه لم يكلّف نفسه عناء الرد علي، وانشغل بالضغط على بعض الأزرار، إلا أن وجهه المحتقن في المرآة كان يظهر مدى استيائه وكأنّ نظراته تقول: فلتذهبوا إلى الجحيم جميعاً.

وقفت على الفور لأنني شعرت بأنّ هذا التوتر الذي خيّم على الحافلة كان بسببي، وكان عليّ إصلاح الموقف وإرضاء المستمعين الذين ينتظرون بفضول. "هذا الطفل يتسبّب بالمشاكل على الدوام" كان وجه جدتي الباسم يرتسم على نافذة الحافلة، فاستدرت بسرعة:

- حسناً - قلتها بأكثر نبرة إيجابية استطعت استحضارها - هل يستطيع الجميع رؤيتي؟

ارتفع صوت تصفيق صاخب من المقعد الأخير:

- ممتاز يا أستاذ..

- أجل.. أجل..

- تفضّل أستاذ، نحن نسمعك..

وحتى لا يفسر السائق هذا الحماس كنوع من التحدي والاستفزاز له، بادرت على الفور بإخماد أصوات المتحمسين:

- حسناً، حسناً.. لا داعي للمبالغة يا أصدقاء..

ولكن ذلك لم يمنعه من أن يضغط على المكابح بصورة مفاجئة عندما توقفنا عند الإشارة الضوئية قرب مقبرة أشيان، بحيث ارتج كل الجالسين فما بالكم بي، ولكنني بالطبع لم أغامر ولو حتى بتوجيه ملاحظة له، فقد تذرعت باحتمال أن الأمر لم يكن مقصوداً، وأنه كان مضطراً لفعل ذلك، لذا تمسكت جيداً بأحد المقاعد وبدأت السرد:

- أجل، لقد كنا نتحدث عن قسطنطين الحادي عشر، آخر أباطرة روما، والذي اعتلى العرش قبل أربع سنوات من الفتح.. وكما يقول أجدادنا "الولد هو أفضل الحظوظ للعرش والحياة"، ولكن حظوظ قسطنطين كانت الأسوأ

على الإطلاق، فبعد اعتلائه العرش بثلاث سنوات التقت أقداره مع أقدار السلطان محمد الثاني الذي اعتلى العرش حينها، والذي سيودي به إلى نهايته المحتومة. وبالطبع كانت بداية هذه النهاية مع بناء حصن روميلي.

وهناك نقطة أخرى أود التحدث عنها فيما بعد، وهي بخصوص الأمير أورهان الذي كان أسير الإمبراطور، ومع ذلك كانت له مطامح في العرش، والتي سنوضحها بشيء من التفصيل بعد قليل. وبالعودة إلى قسطنطين فإن الريح لم تكن تجري لصالحه على الإطلاق، فالسلطان الشاب محمد الثاني، لم يكن يشبه والده مراد الثاني في طبعه الميّال للمهادنة والسلم، بل كان جريئاً وشجاعاً إلى حدّ التهور، وطموحاً إلى أقصى الدرجات، وكانت العقبة الأساسية التي تقف في وجه طموحاته الكبيرة هي القسطنطينية، ولا بدّ أن الإمبراطور الذي أدرك هذه الحقيقة قد ارتعدت فرائصه هلعاً، ومع ذلك لم يكن يائساً في البداية إلى هذا الحدّ، فهناك دعامتان أساسيتان يعتمد عليهما في حماية المدينة.

سكتت للحظات وأنا أرى كل العيون تشخص نحوي بفضول وترقب، حتى ذاك الشاب الذي يجلس في المقعد الأخير كان يستمع بانتباه واضح وقد نسي زميلاته الجالسات إلى جواره، وفغر فاه ينتظر بقية القصة. حينها تذكرت بأنني لم أقم منذ عشر سنوات بإلقاء محاضرة أو أي نشاط علمي يجذب انتباه الناس بهذه الطريقة.

هذا لا يعني بأي حال أنني كنت خطيباً لامعاً وأهم بروفيسورٍ في الكلية قبل أن تتركني نزهت، ولكنني كنت من الأساتذة الذين يستمتع الطلبة بمحاضراتهم، ويواظبون على حضورها بكثافة، ولهذا السبب كنت محط غيرة كثير من زملائي.. ولكن هذا كان في الماضي.. منذ وقت طويل جداً.. وقد تغير كل شيء فيما بعد، تحوّلتُ شخصاً بائساً، وأصبحت كل الأماكن في نظري بما فيها الكلية، تبعث على الضجر، ولا شيء يسترعي اهتمامي على الإطلاق. أصبحت شخصاً لا يرغب أحد في أن يُسْمعه شيئاً، ولا أن يسمعَ منه شيئاً.. ولكن الآن في هذه الحافلة التي تفوح برائحة ملطف جو رخيص، حيث يستمع إليّ رهط غير متجانس على الإطلاق تغيّر الأمر، وبدأتُ أجتذب الاهتمام مرة أخرى.. هل ستعود الأمور إلى سابق عهدها؟.. لِمَ لا وقد غادرت نزهت، وأخذت معها تلك اللوعة التي كانت تعذب روحي كسوط

ملتهب، وانتهت تلك الأحقاد المتراكمة وخمدت النيران.. ولكني أدركت كم كنت مخطئاً حين نظرت إلى وجه الأستاذ الشاحب، ورأيت المخاوف التي تضطرم في روحي وقد انعكست على تعابير وجهه الهرمة.

فأنا ما زلت ذاك الأحمق ولن أتغير بعد مرور كل هذه السنوات، وسبب هذا الاهتمام الزائد بحديثي، لا يعود إلى شخصي بكل تأكيد، بل لأنّ القصة بحد ذاتها مشوقة، كما أنّ الناس يرغبون في الاطلاع على تاريخ مدينتهم، ويعتريهم الفضول لمعرفة تفاصيل حياة الملوك والأمراء والسلاطين الذين مروا بها ليس إلا.. ركنت أفكاري جانباً وعدت للتحدّث مرة أخرى:

- هل يعرف أحدكم ما هما النقطتان الأساسيتان اللتان كانتا تشكلان أهم دعامات الحماية لمدينة القسطنطينية؟..

خيّم صمت مطبق.. وكانت النظرات تترقب بفضول.. ولو أطلت انتظارهم أكثر من ذلك فسيصيبهم الملل.

- الأسوار.. أجل أسوار المدينة التي كانت تحيط بها كعقد متين من الحجارة الهائلة الحجم، وخاصة الأسوار المحيطة بها من جهة البر والتي يبلغ طولها ستة كيلومترات. كانت هذه الأسوار العظيمة التي تمتد من الخليج وحتى ساحل بحر مرمرة وتحيط بالمدينة قبل خمسمئة عام، أي في عصر السلطان محمد الثاني؛ كانت قد بنيت قبل ذلك بنحو ألف عام. وبذلك فقد شكلت حينها أعظم نظام أمني بناه الإنسان لحماية مدينة ما من الغزوات، ولهذا السبب كان الطامعون في السيطرة عليها عبر التاريخ، يقفون عاجزين أمام تلك الأسوار الهائلة ويعودون وهم يجرّون أذيال الخيبة، وفي أغلب الأحيان يتركون معظم رجالهم وأشرس جنودهم جثثاً هامدة أمام تلك الأسوار، ذلك أنهم كانوا يتحولون إلى فريسة سهلة لسهام الرماة وهدفاً لضربات المدافع وغيرها من الأسلحة التي كانت تصطف على طول هذه الأسوار. وبعد قليل سنمرّ من أمامها حيث ما زالت محافظة على عظمتها رغم مرور مئات السنين، وحينها ستدركون ما أعنيه.

كان قسطنطين يعتمد بالدرجة الأولى على هذه الأسوار، ولكنها وبطولها



الإجمالي البالغ عشرين كيلومتراً، كانت تتطلب معدات وجنوداً يتموضعون في كل برج وكل زاوية استراتيجية فيه، وهو ما لم يكن يملكه الإمبراطور حينها..

سكتت للحظات مرة أخرى وأنا أنظر إلى العيون التي كانت ترمقني بترقب، ومن ثم طرحت السؤال:

- برأيكم كم كان عدد جنود قسطنطين؟
- خمسون ألفاً؟

التفت السيدة جالة نحوي وهي تنتظر أن أجيب على سؤالها، ولكن الأستاذ طاهر أجابها قبلي:

- لو كان العدد بهذا الحجم، لكابد السلطان محمد الثاني مشقة كبيرة.

زمّت السيدة جالة شفتيها:

- أكانوا أقل من ذلك؟
- كانوا أقل من ذلك بكثير - أجبتها - فعدد سكان القسطنطينية كلها كان يتراوح بين الخمسين والستين ألف نسمة تقريباً. ولو اعتمدنا على أكثر الأرقام مبالغة فلن يتجاوز عدد جنودها عشرة آلاف محارب، كان نصفهم تقريباً من سكان المدينة والباقون قد جُلِبوا من الخارج، وبذلك كان على الإمبراطور أن يبحث عن وسيلة ما لاستقدام مزيدٍ من المحاربين.
- ولا تنسَ أنهم كانوا بحاجة إلى الجنود ليس فقط لحماية الأسوار، بل وللمحاربة في البحر أيضاً - تدخل الأستاذ مرة أخرى، وعلى الرغم من الضيق الذي بدا عليه قبل قليل، والسنين التي أثقلت كاهله بمرورها الطويل، إلا أنه لم يكن ينوي أن يستسلم بسهولة ويدع جذوة النشاط تغادره.
- معك حق أستاذ - قلتها وأنا أعود إلى الخلف مقترباً منه - فالمدينة التي تحيطها المياه من ثلاث جهات، لا بد لها من الاعتماد على أسطولها البحري أيضاً من أجل حمايتها، ولهذا السبب بالذات قام قسطنطين بوضع سلسلة معدنية في مياه الخليج لمنع الأسطول العثماني من التقدم. على كل دعونا لا نستبق الأحداث. كما ذكرت سابقاً كان الإمبراطور بحاجة إلى مزيدٍ من الجنود لحماية المدينة التي شكلت فيما سبق أعظم قوة، وعاصمة

الإمبراطورية البيزنطية الشرقية، والآن ها هو يبحث عن المدد والعون ممن كانوا تحت حكم بلاده في السابق. وكانت جميع الدول التي يتجه إليها لطلب العون تقع في أوروبا، وهذا يعني أنها كانت ضمن العالم المسيحي، وبذلك اعتمد الإمبراطور على الورقة الدينية من أجل الحصول على الدعم اللازم، وهذه كانت الدعامة الثانية التي يعتمد عليها في دفاعه عن مدينته.

وكانت ورقة رابحة كما يبدو، فهذا السلطان المسلم ينوي الهجوم على مدينة تعتبر إحدى أقدس المدن الدينية، وهو يعتبر اعتداءً صارخاً على الدين المسيحي ومن الواضح أيضاً أنّ توسعاته لن تشمل هذه المدينة فحسب، فما هي إلا باب يعبر منه نحو العالم الأوروبي برمته. ولكن في البداية عليه إقناع البابا نيقولا الخامس، والذي سيعمل بدوره على إقناع رعاياه في بقية الدول الأوروبية لإنشاء جبهة مسيحية موحدة كما حدث أثناء الحملات الصليبية، وحماية هذه المدينة القديمة التي تشكل بوابة الشرق نحو الغرب، وسيعمل الجنود الذين سترسلهم هذه الدول على حماية أسوارها، ووقف الزحف الإسلامي الذي يحاول ابتلاع هذه المدينة منذ أكثر من سبعمئة عام..

- ولكن – وأخيراً سمعت صوت بيامي الذي كان يكتفي حتى الآن بإطاعة أوامر زوجته صامتاً – كان مسيحيو القسطنطينية أورثوذوكساً، فيما كان البابا كاثوليكياً – وسكت فجأة نتيجة تنهيدة أطلقتها زوجته وهي ترمقه باشمئزاز معتبرة كلامه مجرد لغوٍ فارغ، ولكنه أكمل بوجل وبصوت أشبه بطنين بعوضة – أليس كذلك؟ أم أنّ معلوماتي خاطئة؟
- لا فمعلوماتك صحيحة بكل تأكيد – خاطبت السيد بيامي المسكين، في محاولة مني لرفع معنوياته ولو للحظات خاطفة، فيما كانت الزوجة ترمقني شزراً وكأنها تدرك نواياي الخفية. ولم أبال بها بل توجّهت نحو بقية المستمعين من جديد – كما أخبرنا السيد بيامي، فمسيحيو القسطنطينية كانوا أورثوذوكساً، بينما البابا ومسيحيو أوروبا كانوا كاثوليكاً، وبالطبع فإن الإمبراطور كان يدرك هذا الأمر جيداً، ولكن ما من حل آخر لإنقاذ مدينته وعرشه، فالغريق يتعلّق بقشة. ولم تكن تلك الاختلافات المذهبية تشكل

لديه مشكلة كبيرة أمام الخطر الإسلامي الذي يواجهه، فقد كان يعتبر أن الكاثوليك والأورثوذوكس جميعهم مسيحيين في النهاية. ولكن سكان القسطنطينية لم يكونوا يشاركونه الرأي ذاته على ما يبدو، والتعصب الديني الذي كان يسود شوارع المدينة كان بعيداً عن ذهن الإمبراطور المشغول بالأخبار المقلقة التي تُنبئ بأن التجهيزات في قصر أدرنة تسير على قدم وساق وأنّ الحصار قادم لا محالة. لذا لم يشأ إضاعة مزيدٍ من الوقت وأرسل وفداً إلى البابا ليطلعه على الوضع ويطلب المساعدة، وقد شرح له أعضاء الوفد من خلال دموعهم أنّ عاصمة الإمبراطورية البيزنطية منذ ما يقرب من ألف عام على وشك السقوط بيد المسلمين، ليس ذلك فحسب؛ بل إنّ العالم المسيحي برمته مهدد بالخطر في حال سقوط القسطنطينية.

شعر البابا بالحزن لسماعه تلك الأخبار المفجعة، ولكنه لم يهبّ لنجدتهم على الفور، فقد كانت له شروطه، حيث عرض أن تتحد الكنيستان الشرقية والغربية مستغلاً وضع المدينة من أجل فرض مذهبه، وقد وافق الإمبراطور العاجز على هذا العرض رغم عدم اقتناعه بالمذهب الكاثوليكي ولكنه لم يرغب في إضاعة مزيدٍ من الوقت، وبالفعل فقد أرسل البابا الكاردينال إيزيدرو إلى القسطنطينية مع مئتي محارب. وفي الثاني عشر من كانون الثاني/ يناير ترأس الكاردينال قدّاساً احتفالياً أقيم في كنيسة آيا صوفيا، ودعا خلاله إلى توحيد الكنيستين، الأمر الذي دفع رجال الدين المتعصّبين لمذهبهم في القسطنطينية لرفض هذا العرض المخزي برأيهم، وخرج الناس غاضبين إلى الشوارع معترضين على الفكرة. وقد أقسموا على ألاّ يصلّوا مرة أخرى في آيا صوفيا لو تمّ قرار التوحيد هذا. ولم يقتصر هذا الرفض على عامة الشعب، بل إنّ الأرشيدوق نوتاراس الذي كان يعتبر بمثابة رئيس الوزراء في أيامنا، قال حينها جملته التاريخية المشهورة "أفضّل أن أشاهد عمائم الترك في القسطنطينية على رؤية القبعة اللاتينية".

كما أنّ شخصاً آخر له مكانة مهمة في القسطنطينية قد قام بفعل مماثل، وهو القس جيناديوس، حيث علق لافتة كبيرة في كنيسة بانتوكراتور والتي تحولت فيما بعد إلى جامع زيرك، عبّر فيها عن كرهه لمسيحيي الغرب وقد جاء فيها "أيها المؤمنون

اعلموا ما أنتم مقبلون عليه، لأن الرب يعلم. فأنتم لن تكتفوا بالتعرّض لامتحان القدر، بل ستقومون بإهانة الأمانة التي تركها الرب بين أيدي آبائكم وأجدادكم؛ وهو دينكم الذي تنوون التفريط فيه، وهذه إهانة لا تُغتفر، ستحاسَبون عليها يوم القيامة".

وهذا ما زاد من غضب الناس الذين كانوا يهرعون إلى الكنائس متضرعين ومتأملين بأن مريم العذراء لن تسمح لمكروه أن يصيبهم، وقد اعتبروا دخول الكاردينال إيزيدرو كنيسة آيا صوفيا إهانة موجّهة للرب، وغالى بعضهم في تهويل الأمر واعتبروا أنّ الرب قد أرسل إليهم السلطان المسلم عقاباً لهم على هذه الإهانة والتفريط في دينهم. وبهذا انتفت الآمال بمساعدة حقيقية مقدمة من الجانب الأوروبي لهم.

- ألیس هذا ما تنبّأ به رسولنا الكريم – كان هذا الصوت الجهوري عائداً للسيد بحري الذي يجلس قبل المقعد الأخير بكرسيين إلى جهة النافذة، وقد أكمل وهو يمسّد شعره الفضي بيديه – وبأن القائد الذي سيفتح هذه المدينة له مكان في الجنة؟

لم أشأ أن أغالط الرجل الوقور وأنا أجيب:

- أجل معك حق، فقد تنبّأ الرسول الكريم بفتح القسطنطينية، ولكنه لم يحدد مكافأة القائد الفاتح، بل قال "لتفتحنّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش". ولكن الأمر كان مغايراً من وجهة نظر سكان المدينة الذين كانوا يعتبرون الفتح الإسلامي غزواً وتدنيساً لدينهم واعتداءً عليهم، وكان المسلمون بنظرهم هم الكفرة. وكانوا يتمرغون وسط مخاوفهم ورعبهم من القادم.

ومرة أخرى عدت أتوجّه بحديثي إلى بقية الركاب:

- لقد كان الوضع مريعاً حينها بالنسبة لهؤلاء الناس، فقد كانوا يقضون معظم أوقاتهم يصلون في الكنائس والأديرة، متضرعين إلى تماثيل القديسين ومريم العذراء وابنها يسوع، كانت أوقاتاً عصيبة بحق، امتلأت الشوارع بالمتنبئين بقدوم الساعة ونهاية العالم، كما يحصل في كل مكان يتعرض لكارثة تهدد كيانه، ولم يبقَ أمام الناس الهلعين خيط من الأمل ليتمسّكوا

به، وحتى الزلازل التي تعرضت لها المدينة فُسِّرت بهذا الاتجاه، واعتُبِرت غضباً من الرب، وأنّ تماثيل القديسين في آيا صوفيا وتمثال مريم العذراء كلها كانت ترتعد وتبكي حزناً على ما هو آت. كانوا يقولون إن الرب قد تخلّى عنّا لنواجه مصيرنا المحتوم وحدنا، وأنه لن يساعدنا في محنتنا.. خاصة بعد أن أدركوا أنّ جيش التحالف الأوروبي المزمع إرساله إلى المدينة لم يستطع أن يبعد عنهم الخطر. ولا نعلم سبب تقاعس البابا عن نجدة المدينة المنكوبة على وجه التحديد، أهو بسبب الرفض الذي أظهرته القسطنطينية لمذهبه، أم لأنه استخف بالسلطان محمد الثاني الشاب، ولم يدرك حقيقة الخطر الذي يشكله. وحتى بعد أن بدأ الحصار لم ييأس الإمبراطور قسطنطين من مساعدة إخوانه المسيحيين له، ورغم ذلك لم يتلقَّ أي مساعدة جدية.

- وماذا عن البحّار الذي من جنوة، والذي دافع عن المدينة مع جنوده الخمسمئة ببسالة.. ما كان اسمه؟ جوستنياني على ما أظن..

كان صوت بيامي البعوضة ولكنه هذه المرة كان أكثر ثقة بنفسه، ومن الواضح أنه يملك ثقافة تاريخية لا بأس بها. ولكن ما أثار دهشتي أكثر من كل ذلك، هو بريق التحدي الذي لمحته في عينيه، وكنت متأكداً أنه لا يسأل لمجرد السؤال، بل لتحدي زوجته البدينة أيضاً، فحتى طريقة جلوسه في الكرسي كانت تشير لذلك، فقد بدا مرتاحاً في جلسته غير منحشرٍ في الزاوية كبداية صعودنا الحافلة. وقد ولّد التغيير الخفي نسمة فرح في قلبي، فوافقت على كلمات الرجل الثائر بأكثر التعابير ترحيباً:

- السيد بيامي محق فيما يقوله تماماً، فجوستنياني كان بحّاراً شجاعاً وسليل عائلة معروفة، وقد أظهر شجاعة نادرة مع رجاله الذين تتعدّد الروايات حول عددهم الحقيقي، فبحسب البعض كانوا خمسمئة، وبحسب آخرين كانوا سبعمئة.. ولكن أياً كان الرقم، فتوجههم نحو القسطنطينية لنجدتها في هذا الوقت العصيب قد لاقى ترحيباً حاراً من قبل الإمبراطور قسطنطين، وهذا ما دفعه لترقية القبطان إلى رتبة ماريشال. وقد أثبت هذا الرجل من خلال شجاعته وحنكته ومن خلال البطولة التي أبداها مع رجاله في الدفاع



عن المدينة حتى آخر لحظة؛ بأنه استحق هذا اللقب عن جدارة مطلقة.

- ولكن ألم يكن جوستنياني كاثوليكياً يا أستاذ؟ - كان صوت بيامي هذه المرة أكثر ثقة من كل المرات، فيما اكتفت الزوجة بالنظر إلى زوجها شزراً ولكنها لم تتمكن من إسكاته بسبب القبول التي كانت تلقاه تلك الأسئلة لديّ- لماذا يُقدِم رجل كاثوليكي على مساعدة أناس على المذهب الأورثوذوكسي؟

- أهنئك، سؤال جيد مرة أخرى - واصلت دعمي اللامحدود للرجل البعوضة نكاية بزوجته، وقد سرني ذلك الرضا الذي بان عليه. وأكملت شرحي بنشاط - هناك روايات عديدة تتحدث عن حقيقة دوافع هذا الرجل الإيطالي، فمنهم من يدّعي أنه تلقّى مبلغاً ضخماً من الإمبراطور لقاء مساعدته، ومنهم من يرى أنه كان ينوي أن يرسّخ سمعته كقائد وقبطان حربي لا يُعلى عليه، وبعضهم يرى أنه أشفق على هذه المدينة العظيمة التي أدار لها الجميع ظهورهم وتركوها تواجه مصيرها المحتوم وحدها.. وربما تكون هذه الأسباب مجتمعة سبب توجّهه نحو القسطنطينية في الوقت الذي كان كثيرون يهربون منها. وقد كان قائداً محنكاً بحق فمنذ أن وطئ المدينة بدأ بتعزيز دفاعاتها، وقسم الجنود المدافعين عن الأسوار بحسب دولهم، ومن ثم زرع المدافع والمنجنيقات الصغيرة في النقاط الاستراتيجية للسور ورمّم الأجزاء المتضرّرة منه، وكان لمجيئه والترتيبات التي قام بها أعظم الأثر في رفع معنويات سكان المدينة ومحاربيها.

ولكن قدر هذه المدينة القديمة وقدره هو أيضاً سيتغيّران في التاسع والعشرين من نيسان/ أبريل بصورة دراماتيكية وإلى الأبد.

وفيما كنت أتحدث عن جوستنياني رأيت يد الأستاذ العجوز ترتفع في الهواء:

- هذا يكفي يا مشتاق، دع بقية الحديث حتى نبلغ الأسوار.

وفي الحقيقة فقد راقني اقتراحه لأنني بدأت أشعر بالتعب والألم في ظهري وساقي، لذا وافقت على الفور غير مبال بهمهمات الاعتراض التي سمعتها:

- أظنك محقاً يا أستاذ، سنكمل بقية القصة حين نبلغ أسوار القسطنطينية..

(31)

عراك حقيقي، لا مهرب فيه من الموت

- أضعف نقطة بالنسبة إلى القسطنطينية كانت المنطقة المحاذية لوادي نهر ليكوس، أما بالنسبة لنا فقد كانت البحر.

كان الأستاذ طاهر حقي يقف على الرصيف المحاذي لقصر دولما باهتشي حيث مياه البحر تتلون بين تدرجات الفيروزي والأزرق، وتتجوّل فوق رؤوسنا غيوم الشتاء كنسور فضية ولكنها لا تستطيع حجب الشمس التي كانت تشرق بجرأة، أما وجهه فكان يبدو أكثر تعباً من المعتاد وهو يقف في الظل.

في الحقيقة لم يسبق لنا في الجولات السابقة أن مررنا بهذا القصر، وكان الأجدى بنا بعد جولتنا على المضيق أن نعبر الخليج باتجاه الأسوار البرية في أيفانسراي كما كنا نفعل عادة. وأحياناً كنا نتجول على إريكابي أو أدرنة كابي أو توب كابي.. أي في المكان الذي اختاره السلطان ليكون قصر العرش. ذلك لأن أشدّ المعارك قد دارت أثناء الحصار عند هذه الأبواب الثلاثة، وأبدى فيها محاربو الجهتين شجاعة منقطعة النظير، وهنا أيضاً تغيرت أقدار القسطنطينية إلى الأبد. ولكن عند اقترابنا من بشكتاش طلب الأستاذ طاهر من السائق الذي لم يزايله الضيق حتى الآن أن يتجه بنا إلى قصر دولما باهتشي، وقد أطاع الرجل الأمر دون نقاش أو تذمّر أو حتى انطباع.

ولم أجد من داعٍ لإطالة الجولة بهذا الشكل، سوى رغبة الأستاذ بالاستفادة من الوقت الذي سيتجوّل فيه أفراد قافلتنا الصغيرة في أرجاء القصر، ليتمكّن من إتمام الحديث الذي بدأناه سابقاً.. وقد بدا هذا ظاهراً من حركته البطيئة على غير المعتاد والشرود الظاهر في نظرة عينيه، فمن الواضح أنه لم يكف ولو للحظة عن التفكير في نزهت، خاصة بعد أن أدرك تورّط تلاميذه في الأمر، وكان يبحث عن طريقة للنجاة بنفسه وإثبات براءته أمامي، ولكنه في البداية كان يريدني أن أبوحَ بكل ما يعتمل في



ذهني، طبعاً في حال أمهلنا زملاء الرحلة هذه الفرصة.

فمنذ بداية نزولنا من الحافلة لم نتمكّن من التحدث بمفردنا ولو للحظة، وهذه المرة لم يكن الأستاذ رهين الحشد، بل أنا. فبيامي الذي تلقى مني التشجيع على الجرأة التي أبداها في الحافلة، لم يكن ينوي أن يتركني بسلام ولو لبرهة، وكانت أسئلته تتوالى واحداً تلو آخر. كان يريد أن يعرف في أي موقع بالتحديد من المضيق وُضِعت السلاسل الحديدية، وأين تقع الحديقة الجميلة.. وكان عنده عدد لامتناهٍ من التفاصيل والأسئلة التي لم يفارقني حتى أخذ إجابات وافية عنها جميعاً.

التقت نظراتنا أنا والأستاذ أكثر من مرة، ولكن للأسف فإنّ الرجل البعوضة كان مصراً اليوم على التنفيس عن كل الكبت الذي يعانيه والتخلّص من عقدة الخوف لديه، ليحول دون إتاحة الفرصة لنا لنتحدث بمفردنا ولو للحظات. وهكذا أدركنا أنّنا يجب أن نؤجل هذا الحديث إلى وقت آخر.

ابتعد قائد رحلتنا قدر الإمكان عن بيامي وزوجته البدينة، وحاول أن يكمل شرح أحداث العام ألف وأربعمئة وثلاثة وخمسين، ذلك أننا وبعد إتمام الجولة كنا سنأخذ استراحة قصيرة لشرب الشاي. وكان كلانا يأمل أن ينتهي الحديث عن حصار القسطنطينية الصعب بسرعة، لنتفرغ للحديث عن أمر أكثر صعوبة وهو جريمة قتل نزهت. وأظننا يجب أن نتصرف بحزم في حال حاول أحد آخر أن يقطع علينا حديثنا هذه المرة. لذا، ورغبة من الأستاذ في عدم إضاعة مزيد من الوقت، فقد بدأ حديثه على الفور:

- أجل لقد كان البحر نقطة ضعف جيشنا - بدأ حديثه - لذا فقد حرص السلطان الشاب على أن يتفادى هذا الضعف، وأولى أهمية خاصة للحرب البحرية التي سيخوضونها، وأمر بالطا أوغلو سليمان بيك قائد القوات البحرية ببناء أسطول ضخم لا ينافسه آخر.. وتتراوح أعداد السفن من رواية لأخرى، فمنهم من يقول أنها كانت حوالى الثلاثمئة سفينة حربية، ومنهم من يقول إنها ثلاثمئة وخمسون.. على أي حال ففي نهاية شهر نيسان/ أبريل من العام ألف وأربعمئة وثلاثة وخمسين عبر هذا الأسطول العظيم مضيق جاناكالة متجهاً نحو القسطنطينية، وكان الجنود يردّدون أغاني النصر

طوال الرحلة لتصدح أصواتهم القوية وتصل إلى مسامع سكان المناطق التي مروا بها، فمنهم من كان يراقبهم بفخر ومنهم بذعر. فقد كان أسطولاً لم يروا له مثيلاً من حيث الضخامة وحسن التجهيز، لذا لم يخطر للسلطان محمد ولا وزرائه ورجالاته، ولا لبالطا أوغلو سليمان بيك، أنّ أسطولاً بهذه القوة من الممكن أن يتعرض للهزيمة. وفي الثاني عشر من نيسان/ أبريل وصل الأسطول إلى سواحل القسطنطينية وأمر بالطا أوغلو أن يرسو أسطوله في هذه البقعة تقريباً، كان الأسطول من الضخامة بحيث غطّت السفن والقوارب والزوارق وسواها سطح البحر وتحوّل جسراً خشبياً هائلاً. وكان سكان القسطنطينية يراقبونه بهلع بالغ، ويقضون معظم أوقاتهم في الكنائس متضرعين إلى مريم العذراء وابنها يسوع لحمايتهم من هذا الخطر. في الوقت ذاته كان الأسطول يعيش أجواء احتفالية، فقد كانت فرقة موسيقية تتجوّل بين السفن والقوارب وهي تعزف أناشيد النصر لرفع معنويات الجنود وبث العزيمة فيهم.

أخذ القائد بالطا أوغلو قسماً من الأسطول وقام بالهجوم على جزيرة برينكيبوس أي جزيرة (بيوك أدا) كما تُسمى اليوم.

أدار رأسه وهو يشير باتجاه الجزيرة:

- لا أعتقد أنكم ستتمكّنون من رؤيتها من هنا، ولكن بالطا أوغلو استطاع السيطرة على الجزيرة بعد مقاومة عنيفة.

- ألم تخبرنا يا طاهر أنك ستسرد الأحداث بالترتيب.. - كان العجوز ذو الشعر الفضي من قطع حديث الأستاذ، ولا بدّ أنّ البرد ما دفعه لإحاطة عنقه بهذا الإحكام بلفحته البنية. كان يقف في نهاية المجموعة؛ وعلى الرغم من أنّ الساحة التي كنا نقف فيها لم تكن صغيرة، إلا أنّ صوته الجهوري كان يصل بوضوح إلى المقدمة بشكل لا يتناسب مع عمره - لقد اختلطت الأمور كلها في ذهني، فهل كان وصول الأسطول قبل بدء الحصار أم بعده؟

ظننت حينها أنّ الأستاذ سينزعج من العجوز، ولكنه على العكس نظر إليه وابتسامة لطيفة تغطي وجهه المتغضّن:

- ما شاء الله يا بحري، فصوتك لا زال يقصف كالرعد، ولكن يبدو أنّ ذهنك لا يجاريه في الحفاظ على صفائه. ألم تسمعني أقول إنّ الأسطول رسا هنا في الثاني عشر من نيسان/أبريل؟.. متى بدأ الحصار؟.. حسناً، سأذكّرك؛ في السادس من نيسان/أبريل، أي أنّ الأسطول وصل بعد بدء الحصار بحوالى أسبوع، حتى أنّ المدافع كانت قد بدأت وظيفتها منذ أيام الحصار الأولى..

ولكن بحري لم يبالِ بهذا التوضيح:

- وما أدراني، لست مؤرّخاً لأستوعب هذه التفاصيل بسرعة مثلك، لقد أتيت كما طلبت مني، وأيضاً لزيادة معلوماتي التاريخية..

لكن الأستاذ عقّب على كلام صديقه بقهقهة صغيرة وهو يوضح:

- السيد بحري صديق طفولتي، ولا يغرّكم هذا الصوت الجهوري، فهو شخص لطيف جداً..

- لا تراوغ يا طاهر - قالها العجوز ممازحاً - فأنت لا تعرف كيفية إيصال المعلومة بشكل صحيح، كما أنني نسيت التاريخ - وعندما شاهد أنّ بقية أفراد المجموعة ينظرون إليه استمد جرأة إضافية لمواصلة الحديث - أليس من المفروض أن يذكرنا هو بتاريخ الحصار يا أصدقاء؟..

- اللوم يقع عليك يا سيد بحري في هذا الأمر - لم تتمالك السيدة جالة نفسها من التدخل ومناصرة الأستاذ - أما كان بمقدورك قراءة بضعة أسطر حول الموضوع قبل انضمامك إلينا؟

هبت نسائم باردة علينا من جهة البحر، ولم يرقْ لي إطالة النقاش في البرد وفي هذا اليوم بالذات وبدأت أبحث عن مخرج، إلا أنّ أستاذي العجوز كان أسرع مني في التصرف فبادر إلى التدخل والإمساك بخيوط الحوار مرة أخرى:

- إن شئتم الحق، فبحري محق في كلامه - ولكنه لم يهمل أن يثني على السيدة جالة أيضاً - كما أنني أتشكر الأشخاص الذين بذلوا جهداً إضافياً في الاطلاع على بعض المعلومات الأساسية، ولكن لا مشكلة في أنّ الجميع لم يتمكّن من ذلك.. على أي حال، وكما ذكر مشتاق منذ البداية، الأفضل

هو ذكر الأحداث وفق تسلسلها الزمني، وهذا ما كنت أفعله في الحقيقة.. ولهذا السبب أيضاً أردت أن نتوقف قليلاً في هذا القصر؛ حيث إنّ هذه المنطقة بالذات قد شهدت أحداثاً مهمة أثناء الحصار، وفتح المدينة. لذا رغبت أن أشرح الحدث في مكانه الحقيقي..

- نشكرك جزيل الشكر يا أستاذ - كان لا بدّ لها أن تزيد الشكر بالشكر- فنحن مستمتعون جداً بطريقة شرحك واختيارك أماكن الجولة..

رمقها العجوز بحري نظرة العارف بخبايا القلوب، ولكنه لم يعقّب على الأمر سوى بابتسامة ملغزة، وعدنا جميعاً لنتابع كلمات الأستاذ الذي كان قد بدأ بالشرح..

- كما ذكرت سابقاً، فقد انطلق الجيش من قصر أدرنة نحو القسطنطينية، ولكن البحر الذي يمتد خلفي، واعتباراً من الساحل المحاذي لكباتاش وحتى أورتاكوي كان مغطّى بسفن الأسطول العثماني، أي أنّ البحر والبرّ كانا محاصرين.

من جهة أخرى كان سكان المدينة أيضاً يقومون بالتجهيزات اللازمة، فقد رُمِّمت الأسوار واتّخذ الجنود مواقعهم عليها، كما أقفلت الأبواب بإحكام، وتم إنزال تلك السلسلة الحديدية المشهورة في مدخل الخليج، والذي كانت تحرسه السفن الحربية المجهزة بالمدافع، وكان الأسطول البيزنطي يراقب تحركات الأسطول العثماني الذي كان راسياً في هذه المنطقة بذعر شديد. وقبل أن تصل سفن بالطا أوغلو إلى دولما باهتشي، كانت المدافع قد بدأت العمل بإمطار القسطنطينية بمئات الطلقات، حيث كانت سماء المدينة القديمة مغطاة بسحابة رمادية اللون ورائحة الخوف والبارود تسبح في الأجواء، فيما كانت ثقة الجيش العثماني تزداد مع كل قذيفة مدفع جديدة..

كانت الأحداث تجري كما خطّط لها السلطان محمد الثاني، حتى جاء ذلك اليوم المشؤوم؛ يوم العشرين من نيسان/ أبريل. ولكن علينا أولاً التحدث عن الظروف التي سبقت هذا الحدث، فبسبب اطلاع السلطان محمد الثاني على ضعف الحامية البيزنطية المكلفة بحراسة الأسوار، قرر أن يقوم الأسطول باقتحام الخليج وتحقيق نصر يضعف من معنويات القوات المعادية.

وعلى الفور قام بالطا أوغلو بالتحرك بناء على الأمر السلطاني، وبدأت سفنه



تقترب من الخليج، وعندما شاهد الجنود الذين على الأسوار الأسطول العثماني يقترب قاموا بإنذار سفنهم، وبدأ الطرفان يتبادلان طلقات المدافع التي كانت تنهال بالمئات في تبادل دامٍ بينهما، وتحولت مياه البحر ساحة معركة ضارية حيث تلاحم الطرفان، وكان صليل السيوف وصرخات الجنود تختلط مع المدافع الراعدة. كان عراكاً حقيقياً لا مهرب فيه من الموت بين الطرفين اللذين أبدى كل منهما شجاعة منقطعة النظير، فالحياة والفخر هما حصة المنتصر، فيما الموت والذل سيكونان نصيبَ المهزوم. وقد خالطت مياهَ البحر كثير من الدماء في ذلك اليوم.. واستمرت المعركة ساعات طويلة استخدم فيها البيزنطيون كل أنواع الأسلحة من أجل تحطيم السفن العثمانية، ولكن جنودنا الأبطال أظهروا شجاعة منقطعة النظير، ومع ذلك لم تكن الأمور تسير لصالحهم وحالت السلسلة الحديدية في مياه الخليج والسهام المنهالة عليهم بغزارة دون تقدمهم. وأدرك بالطا أوغلو أنّ استمرار القتال يعني مزيداً من الخسارة في صفوف رجاله، فأعطى أمراً بالانسحاب.

سكت الأستاذ طاهر للحظات، وبدا منزعجاً وكأن الهزيمة أُلحقت به شخصياً، ولم يشأ صديق طفولته أن يتركه وحيداً، فتدخل بصوته الجهوري مرة أخرى:

- لقد كانوا بحّارة متمرسين يمتلكون خبرة مئات من السنين – ثم أضاف وقد تخلّلت صوته خيبة من انهزم فريقه المفضّل في المباراة – ونتيجة لذلك هُزمنا أمامهم..

- ولكن السلطان الشاب لم يستسلم بهذه البساطة – أضاف الأستاذ وهو ينظر إلى صديقه – فمحمد الثاني لم يكن من أولئك القادة الذين تزعزع العثرات ثقتهم بنفسهم، لذا فقد انزوى في خيمته السلطانية الحمراء، التي كانت تنتصب أمام أسوار المدينة كنبوءة دامية..

واستدعى كبار قادته ووزرائه لمناقشة أسباب الهزيمة، وقد تبين لهم ضرورة دكّ سفن العدو عن طريق البر، ولن يتم ذلك سوى بمدفعية كبيرة. وكان لا بدّ من وضعها خلف هضاب غالاتا التي يسكنها أهل جنوة وهم من الحلفاء، ولكن يجب لطلقات المدفع أن تكون بعيدة المدى بشكل كافٍ بحيث لا تصيب منطقة غالاتا، وبالفعل تم إطلاق النيران من قبل المدفعية المرابطة على تلال غالاتا، حيث كان مدى

الطلقات يصل إلى مئات الأمتار وعلى الرغم من أنّ أولى الطلقات لم تحرز نتيجة حقيقية - إلا أنّ إحداها استطاعت إصابة سفينة للأعداء، التي غرقت أمام ناظري الجنود المندهشين والذين لم يعرفوا من أين تأتيهم النيران. وعلى الفور انسحبوا من مرمى نيران المدفع وتراجعوا إلى الخلف، وهكذا تأخرت المعركة البحرية التي كانت ستحسم النتيجة في هذا الحصار.

أدار رأسه مرة أخرى وقال وهو يشير بيده إلى مكان قرب ساراي بورنو:

- هناك وقعت معركة أدت إلى نتائج عكسية أثّرت على معنويات الجند بشكل ملحوظ.

والتفت مرة أخرى ليكمل وهو ينظر إلى صديقه بحري:

- كانت خسارة أكبر من تلك التي تعرضوا لها في المرة الأولى..

جالت نظراته على أفراد مجموعتنا وتنفّس بعمق، وخرج الهواء الذي تجول في رئتيه على شكل زفير بخاري:

- وأخيراً أرسل البابا أربع سفن إلى القسطنطينية مدعياً أنّ هناك ثلاثين سفينة حربية أخرى ستلحق بها، ولكن هذه السفن الباقية لم تصل إلى المدينة على الإطلاق. على أي حال فقد اقتربت هذه السفن في صباح العشرين من نيسان/ أبريل من ميناء القسطنطينية، أي بعد بدء الحصار بأربعة عشر يوماً. كان أفراد طواقمها مدجّجين بالسلاح والعتاد. وقد تم استقبالهم بفرحة عارمة واحتفال كبير ظناً من سكان المدينة أنها مقدمة لأسطول كبير سيصل في وقت قريب.

وما إن شاهد الجنود العثمانيون هذا المنظر حتى سارعوا لإخبار السلطان بالأمر، فامتطى حصانه على الفور وبدأ يتجوّل بالقرب من السور في منطقة دولما باهتشي، أي في هذه المنطقة تحديداً حيث كانت في ما مضى مجرد قرية صغيرة.

ومن ثم أشار بيده نحو ملعب إينونو وهو يكمل:

- حينها كان البحر يمتد إلى مسافة أعمق بكثير مما هو عليه الآن. كان السلطان يتجوّل على صهوة حصانه في هذه الأرجاء وهو يفكر في مخرج من هذه المشكلة، وقد استدعى قائد الأسطول بالطا أوغلو وأخبره أن هذه السفن

يجب ألاّ تدخل مياه الخليج مهما كان الثمن، وطلب منه جمع رجاله من أجل إيجاد مخرج ما، لأنه في حال استطاعت هذه السفن الوصول إلى مياه الخليج فستكون العواقب وخيمة بالنسبة إليه أولاً، وقد أدرك قائد الأسطول جدية هذا التحذير.

وعلى وجه السرعة جمع بالطا أوغلو خيرة رجاله وأبحر مع مئة وخمسين سفينة لمنع سفن الأعداء القادمة من دخول مياه الخليج، وما أن أصبح أسطوله في مرمى نيران مدافع البيزنط؛ حتى انهالت عليهم كرات ملتهبة وبدا وكأن السماء تمطر نيراناً، وكانت استراتيجية ناجحة من الأعداء لأن السفن مصنوعة من الخشب، لذا سيسهل حرقها بما فيها ومن عليها. انشغل جنودنا بإطفاء النيران التي باتت تلهتم كل شيء، ومع وقعوهم في الفخ انهالت عليهم كل أنواع الأسلحة من سهام وطلقات مدافع من كل الجهات، وعند التحام الأسطولين أبدى جنودنا شجاعة منقطعة النظير، فقد كانوا يفضلون الموت على العودة بهزيمة جديدة، ولكن أعداءهم لم يكونوا أقل منهم شجاعة وجرأة، فعدا عن كونهم بحارة محنكين، كانوا أيضاً جنوداً منتقين بعناية ولديهم خبرة واسعة في المعارك. وقد استمرت المعركة لساعات طويلة خسر خلالها بالطا أوغلو العشرات من أفضل رجاله.

كان السلطان الشاب يشاهد المعركة البحرية وهو على صهوة جواده، بترقب شديد، وبالكاد يستطيع كبح رغبته في الانضمام إلى جنوده الذين تعلو صرخاتهم وصليل سيوفهم فوق أصوات المدافع. ولكنه لم يكن الوحيد الذي يراقب المعركة بتوتّر وقلق، فقد كان قسطنطين أيضاً وسكان المدينة يراقبون مجريات الأحداث من فوق الأسوار، ويبتهلون أن تكون النتيجة لصالحهم..

كان بالطا أوغلو في مقدمة المحاربين يخوض غمار المعركة ويقوي من عزيمة رجاله على الرغم من تزايد أعداء القتلى في صفوفهم، ويعمل على رفع روحهم المعنوية قدر المستطاع، ولكن الريح لم تكن تجري لصالحهم هذه المرة بل كانت تهب في وجوههم لتعيق تقدمهم بفعل الأمواج العاتية، على عكس أسطول الأعداء الذين كان اتجاه الريح مواتياً لهم تماماً. وعلى الرغم من ذلك كان بالطا أوغلو يعلم أن عليه فعل المستحيل لمنع وصول هذه السفن إلى ميناء القسطنطينية. استفاد

الإيطاليون من اتجاه الريح ومن فعالية خطتهم، ومع حلول الظلام استطاعوا عبور الخليج، فرفع الجنود البيزنطيون المذهولون من هذا النصر الذي كان يبدو مستحيلاً قبل ساعات، السلسلة الحديدية لتنساب السفن الأربع إلى مياه الخليج وترسو في ميناء المدينة وسط استقبال عظيم من الأهالي.

كان الأستاذ يروي تلك الأحداث التي جرت قبل أكثر من خمسمئة عام بانفعال شديد، وكأنها تقع الآن أمام أنظارنا، وكان ينتقل من الانفعال والحماس إلى الضيق حسب تواتر الأحداث. وكان يشعر بنفسه المسؤول عن تلك المعركة، وكأنه السلطان محمد الثاني وهو يروي لنا ما شهده بعينيه قبل بضع سنوات. ولم نكن أقل تأثراً منه ونحن نستمع إلى شرحه بأنفاس مبهورة دون أن ينطق أحدنا بكلمة واحدة، والصوت الوحيد الذي كان يخيم على صمتنا هو ضجيج السيارات القادم من الطريق أو السفن التي تمخر عباب البحر المحاذي لنا..

وكما أن لعبة كرة القدم ليست مجرد اثنين وعشرين لاعباً يجرون خلف كرة في الملعب، كذلك التاريخ ليس أحداثاً جرت في الماضي وطواها الدهر.. التاريخ هو كيف تغيرت هذه الأرض التي نقف عليها الآن، كيف بنينا منازلنا وكيف تغيرت على مر السنين، كيف تم خبز الخبز، كيف استطاعت الأمهات تعلم مئات الوسائل لتربية صغارهن، كيف بدأ التعليم وتطور، وكيف صرّح رجل لامرأة عن حبه أول مرة.. التاريخ هو مجموع تلك الأحداث العظيمة والصغيرة التي تراكمت لتجعل الإنسان على ما هو عليه.. هو الانتصارات العظيمة والهزائم المأساوية، الخيانات والتضحيات، مشاعر الفخر والذل، هو تاريخ الشجعان والجبناء معاً.. ولكن الشعوب التي كانت تمتاز بماضٍ أفضل من الحاضر، تولي التاريخ أهمية أكبر من بقية الشعوب. وهو حالة طبيعية ما لم تنعكس على كتابة التاريخ وتفسيره، حينها تتحول إلى مشكلة جدية. فمثلاً ما نسميه فتحاً، يسميه الغرب غزواً. وبعضنا يعتبرون أنّ نهاية القرون الوسطى وبداية العصر الحديث لم تبدأ بفتح القسطنطينية، بل باكتشاف قارة أميركا.

وأظن أن أكبر تحدٍّ يواجهه التاريخ كعلم؛ هو الموضوعية. وتفسير الأحداث والوقائع بشكل حيادي، ولكن من الذي يملك بوصلة الحقيقة؟ نحن أم هم؟ من الذي يجب الاعتماد على تفسيره للأحداث واعتباره الأكثر واقعية؟ الغرب أم الشرق؟..

والغريب في الأمر أنه وربما بعد مئات السنين - وهذا ما يتكرر حدوثه عبر التاريخ البشري؛ ستتغير نظرة الأجيال القادمة للحضارة البشرية. والقيمُ والرموزُ التاريخية التي لا يتوانى بعض الناس عن قتل بعضهم الآخر من أجلها اليوم، قد تصبح مجردة من زخمها العاطفي، ولا تستدعي رغبة أحد حتى في الحديث عنها. وفي هذه الحالة هل يمكن الاعتماد حقاً على مفهوم التاريخ المعاصر؟ هل يمكن اعتبار نظرياته علماً حقيقياً؟ حينها أدركت بأنني أشتاق لنزهت، ليس كحبيبة بل كزميلة عمل. لأنني كنت معها أستطيع مناقشة أفكاري بكل صراحة وجرأة. كنا نتحدث عن كل المحرمات والمقدسات، متجاوزين الخطوط الحمراء في أي موضوع.. ولا بد أنني لست الوحيد الذي كان يشعر بالأسى على فقدان نزهت، وإن اختلفت الأسباب، فذلك الكدر الذي بدا واضحاً على وجه أستاذ الأساتذة، لم يكن مرده إلى الهزيمة التي مُنينا بها قبل مئات السنين فقط.

انتشلني صوته مجدداً من الحاضر ليضعني مع بقية أفراد قافلتنا هذه على أعتاب الماضي:

- ولكن لكل حدث سلبي جانب إيجابي أيضاً، ونستطيع أن نعتبر الأمر امتحاناً حياتياً يتعرض له القادة والشعوب والأشخاص على حد سواء، وذلك من أجل دفعهم إلى مزيدٍ من التطور وإخراج أفضل الإمكانات لديهم. أجل إنه امتحان ليتمكّن المهزومون فيه من البحث عن طريق آخر للنجاح، وفرصة جديدة لشحذ الهمم والأذهان.. لذا لا يجب الركون إلى اليأس عند الإخفاق..

ضحك هذه المرة ضحكة جذلة وهو يكمل:

- وكما يقول شكسبير، المهم هو أن تكون الخاتمة لصالحنا. وهذه الهزيمة التي تعرض لها أسطولنا، كانت السبب في حدوث تلك المعجزة التي ما زال يتردّد صداها حتى الآن.

صمت للحظات كان يرمقنا فيها الواحد تلو الآخر ليرى إن كنا نعلم ما الذي يعنيه بكلامه هذا:

- أعني نقل السفن عبر اليابسة..



قالها كمن يبشرنا بحدث عظيم سيحدث للتو أمام ناظرينا، ثم أكمل بالحماس ذاته:

- لقد تحدثنا البارحة أيضاً وإن بشكل موجز عن الأمر، هل يتذكّر أحد ذلك؟
- أجل، تطرقت إلى الأمر حين تحدثت عن معركة فارنا- بالطبع كانت صديقته التي تجاهد في مغازلته عبر معلوماتها التاريخية الغزيرة هي من أجابت- فقد كان السلطان الشاب مرغماً على إحراز نصر أكبر بعد النصر الذي حققه والده في فارنا، خاصة أنّ الأقاويل بدأت تتردد عن جدية كفائته وقدراته كحاكم..
- أنت رائعة سيدة جالة.

لقد بلغت حماسة العجوز أقصى مداها، واختفى ذلك الضيق من وجهه الذي أصبح يطفح نشوة وهو يتحدث عن الفاتح، وهذا ما كان يحصل على الدوام عندما يصل الحديث إلى انتصارات سلطانه المفضّل.

- أجل يا أصدقائي فأقدار المحاربين لا تختلف في شيء عن أقدار الأشخاص العاديين، وقد يكون فشل ما سبيلاً إلى أعظم النجاحات، والأشخاص الذين يتمكّنون من رؤية الأمور على هذا النحو وحدهم الذين يخلد التاريخ أسماءهم بحروف من ذهب، وقد كان السلطان محمد الثاني أحد هؤلاء الأشخاص. فهذه الهزيمة البحرية لم تشعره باليأس على الإطلاق، بل دفعته للبحث عن وسيلة أخرى لبلوغ هدفه.
- ولكن يا أستاذ.

تعرض الرجل البعوضة الذي قطع حديث الأستاذ في هذا الجزء الحساس، ليس فقط لنظرات زوجته البدينة المستاءة، بل لنظرات مماثلة من قِبَل الجميع، وعلى الفور زايلته الشجاعة التي تمتع بها لوقت قصير، وعاد لينكمش ويتحدث بطنين، ولكنه لم يتراجع عن مواصلة سؤاله مع ذلك.

- أعتذر لأنني قطعت حديثك يا أستاذ، ولكنني قرأت في أحد كتب التاريخ معلومة تفيد أن السلطان قد ثار لهذه الهزيمة وغضب جداً، حتى أنه خاض البحر على صهوة حصانه عندما شاهد ما جرى.. أهذا صحيح؟



أدركت من نظرات الأستاذ مدى الضيق الذي شعر به لأن أحداً تجرأ على قطع حديثه، ولكنه كان خبيراً في إخفاء مشاعره الحقيقية على الدوام.

- بالطبع شعر بغضب عارم عندما شاهد سفنه تحترق، وخاض البحر على صهوة الحصان حتى ابتلت ثيابه.. وهذا ردّ فعل طبيعي جداً لما جرى. فبعد شهور من العمل الجاد والمضني، وبعد تلك الليالي من السهر على التخطيط لأصغر تفاصيل الحملة، وبعد كل ذلك الجهد والأموال، يتعرض أسطوله لخسارة ما كانت في الحسبان، ليصبح مستقبله كقائد حربي وسلطان مقتدر على المحك. وقد استدعى بالطا أوغلو سليمان في ذروة غضبه هذه وربما كان ينوي إعدامه، ولكنه عندما رأى الرجل واقفاً أمامه بثبات وقد فقد عيناً في المعركة، اكتفى بإقالته من منصبه لا أكثر. وككل رجل دولة محنّك، عرف كيف يتجاوز غضبه وينصرف إلى العمل من أجل تعويض الخسارة، وقد ابتكر أغرب الطرق لنقل أسطوله إلى الجهة الأخرى من السلسلة الحديدية لترسو سفنه بشكل لم يتخيّله أحد أمام ميناء القسطنطينية. لقد قام بنقلها عن طريق اليابسة.

لم نعد نسمع صوت بيامي هذه المرة، فقد كان يستمع إلى الأستاذ بترقب وقد انزوى مرة أخرى وراء ظل زوجته الضخم.

- ربما تم جرّ السفن فوق هذه الهضبة.

التفتنا جميعاً نحو الطريق المنحدر من الملعب نحو البحر.

- بالطبع حينها لم يكن هذا الطريق موجوداً - أوضح الأستاذ - ربما انطلقوا من هذه الحديقة باتجاه الأعلى على الرغم من أنّ الارتفاع كان حادًّا هنا.

ولأن الحديث بدأ يتخذ مساراً أكثر تشويقاً، لم أتمالك نفسي من التدخل:

- كما تعلم يا أستاذ هناك بعض الروايات التاريخية التي تقول إن السفن سلكت طريق توب هانة، وسارت بالقرب من جامع أصمالي لتنحدر نحو منطقة قاسم باشا.

أعاد رأسه نحو الخلف وهو يرمقني بنظرات واثقة:

- لا أظن ذلك. صحيح أنّ الطريق الذي تتحدث عنه أقصر، لكنه لم يكن آمناً



بما فيه الكفاية، لأنه يمر من برج غالاتا الذي كانه يقطنه الجنويون، والذي كان يسمى حينها برج عيسى، وعلى الفور كانوا سيقومون بنقل الأخبار إلى القسطنطينية. ولأن السلطان لم يكن يأمن جانبهم، فمن المرجح أنه اختار هذا الطريق البعيد عن غالاتا لتنفيذ خطته المدهشة. وهناك فرضيات كثيرة في هذا المجال فالبعض يعتبر أنّ السفن لم تقم بهذه الرحلة البرية على الإطلاق.. ولكن لا أدلة تثبت صحة هذه الروايات..

لنعد إلى السلطان وكيف خطط للأمر، فبعد الهزيمة التي تعرض لها الأسطول قام بعزل بالطا أوغلو وعيّن مكانه حمزة بيك قائداً للقوات البحرية، وجمع حوله كل رجالاته وقادته، وطلب منهم إنشاء طريق بري يمتد من هنا إلى قاسم باشا من أجل نقل السفن إلى الطرف الآخر. وقد أوضح لهم أن الطريق ستمهد بألواح خشبية يصب عليها الشحم والزيت لسهولة جرّ السفن، وقد لاقت الفكرة استحسان الجميع، وعلى الفور بدأ الجميع، قادةً وجنوداً، بالعمل لتنفيذ الخطة بأسرع وقت ممكن، فرصفت الطريق بألواح خشبية سُكِبت فوقها كميات كبيرة من الزيوت والشحوم لتحريك السفن بسهولة، وقد قاموا بالاستعانة بالحيوانات التي معهم من أجل دفع السفن، كان العمل يتم بنشاط كبير وهمة عالية جداً، والجميع راغبون في إرضاء السلطان الشاب الذي لاقى طموحه الكبير صدى مماثلاً لدى جنوده ورجاله. وبدأت أولى السفن بالتحرك على الطريق البري بنجاح، وهذا ما رفع من همة الجميع، فاستمر العمل طوال الليل دون التوقف ولو للحظة واحدة، كان القادة خلالها لا يكفون عن العمل وإطلاق الأوامر التي ينفذها الجنود بطاعة مطلقة، كانت أصواتهم تتعالى لتكسر سكون الليل وتمحي أثر الهزيمة من أذهان الجميع.. الكل دون استثناء اندمجوا في كتلة بشرية هائلة لتنفيذ هذا العمل العظيم..

مع كل كلمة جديدة، ومع تقدم السفن نحو عمق اليابسة – كما لم يحصل من قبل عبر التاريخ – كان حماس الأستاذ يزداد وصوته يرتفع أكثر. كان يواصل الحديث وعيناه ترمقان نقطة ما في الأفق بنشوة غريبة، وكأنه انتقل إلى تلك اللحظات لينقل لنا صور الأحداث بكل تفاصيلها.

– كان منظراً رائعاً بحق، أن ترى السفن تسير على اليابسة وكأن البحر اختطّ

له طريقاً صاعداً على البر، وكانت أشرعتها المفتوحة والتي انتفخت بفعل الريح التي كانت تهب في الاتجاه المواتي، تنبأ بأن وراء هذا العمل الفريد نصراً عظيما. بالطبع كان صعود الهضبة شاقاً ولكن ما إن بلغت السفن القمة حتى أصبحت رحلة الهبوط أمراً سهلاً، بل ومسلياً أيضاً وهي تتجه نحو منطقة قاسم باشا. ويقال إن حوالى سبع وستين سفينة من الحجم المتوسط تم نقلها ليلاً خلال أقل من اثنتي عشرة ساعة إلى الطرف المقابل لتلتف حول السلسلة الحديدية وترسو في مياه الخليج في الصباح. وحين استيقظ سكان القسطنطينية في صباح يوم الأحد في الثاني والعشرين من شهر نيسان/ أبريل ورأوا السفن العثمانية راسية أمام أسوار المدينة أصابتهم دهشة بالغة، وذلك الأمل بالخلاص والذي ازداد مع تمكن السفن الإيطالية الأربعة من التغلب على عشرات السفن العثمانية والوصول إلى الخليج قبل يومين، تبخر على الفور مع شمس الصباح التي حملت لهم هذه المفاجأة الكارثية. ولعلهم حينها فقط أدركوا مصيرهم المحتوم، وتأكدوا أنهم خسروا مدينتهم.

(32)

أحمل هذه السكين، وألحق بتلك المرأة واغرزها عميقاً في عنقها

تلك الريح المواتية التي ساعدت سفننا على اجتياز الرحلة البرية بسهولة، انتقلت إلى أفراد مجموعتنا عبر كلمات الأستاذ لتضفي جواً من الحماس والنشاط على الجميع، بمن فيهم الأستاذ نفسه، الذي زايله الضيق وغابت عن ذهنه جريمة قتل نزهت، واحتمال تورط طلابه في الأمر، وبالطبع بحثه عن مخرج يتيح خلاصه الشخصي.. لم أكن أشتكي من الأمر، بل على العكس تماماً فقد سرني أن أرى أستاذي وقد استعاد نشاطه المعهود ومزاجه الرائق، ولكن ما كان يقلقني هو عدم تمكننا من التحدث في الموضوع الأساسي الذي أتيت من أجله. وقد تأكدت أن قلقي لم يكن في محله، فالأشخاص الذين في ذكاء الأستاذ وحنكته لا يدعون الانفعالات تسيطر عليهم وتنسيهم أولوياتهم، فعلى الرغم من الحماسة التي كان يبديها أثناء حديثه قبل قليل فقد توضّح لي أن جزءً آخر من ذهنه كان يبحث عن طريقة ما لإتمام الحديث، وللوصول إلى ما هو أهم. وقد وجد الحل المناسب بالفعل. فقد توجه للجميع بحديثه مازجاً بين الجد والمزاح وهو يقول:

- لنأخذْ استراحة قصيرة ونجلس في المقهى لشرب فنجان قهوة أو كأس شاي، ولي رجاء خاص؛ أتمنى من الجميع أثناء الاستراحة ألاّ يطلبوا منا، أنا والأستاذ مشتاق، أن نتصور معهم، وأن يؤجلوا أسئلتهم حتى انتهاء الاستراحة، ذلك بسبب وجود موضوع مهم نود مناقشته على انفراد.

بالطبع كان بيامي أكثر المتضررين من هذا القرار، وقد سمعت دمدمة اعتراض من الحشد الصغير. ولكن العجوز كان يملك خبرة كبيرة في فن القيادة تؤهله لمنافسة أجداده السلاطين، لذا توجه بلهجة أبوية ولكن حاسمة في الوقت ذاته نحوهم وهو يقول:

- لا أريد سماع اعتراضات يا أصدقاء، فجولتنا ما زالت مستمرة، وسنتوجّه بعد قليل إلى الأسوار، كما سنكمل حديثنا في الحافلة أيضاً، وستتاح الفرصة للجميع لطرح الأسئلة التي يشاؤون، وسنبتسم أمام كاميراتكم قدر ما تريدون.

بهذه البساطة والوضوح استطاع العجوز أن يجد حلاً للقلق الذي كان يعتمل في نفسي منذ ساعات، وتمكّن من بلوغ مرماه دون أن يزعج أحداً من مستمعيه بكلامه. وفيما انصرف الجميع نحو المقهى اقتربت من الأستاذ وأنا أقول:

- أهنئك، فقد استطعت حل الأمر بأفضل الطرائق.

التمع بريق من الزهو في عينيه وهو يجيب:

- كنت مضطراً لفعل ذلك، وإلا لمّا تمكنا من أخذ قسط من الراحة على الإطلاق.. على الرغم من أنني لا ألومهم، فموضوع الفتح شيّق جداً، ويثير الاهتمام بحق..

أمسكت بيده كي لا يقع ونحن نسير فلاحظت أنها ببرودة الثلج:

- ما رأيك أن نشرب شيئاً ساخناً لنحس ببعض الدفء؟

سحب يده على الفور، وقد أحس من كلامي بالإشفاق عليه وهو يقول:

- لا داعي لذلك – وتلفت حوله قلقاً – دعنا نجلس في ركن قصي، ونكمل حديثنا السابق.

- ما رأيك أن نعود للحافلة، فهي أكثر دفأً؟

أشار برأسه نحو قدري الذي كان يدخن سيجارته وينفث دخانه بضيق، وهو يراقب الأجواء:

- لو صعدنا الحافلة فلن يتركنا قدري وشأننا – وأشار نحو القصر وهو يقول – دعنا نتمشى قليلاً فالحركة ستمنحنا بعض الدفء.

أدرنا ظهرينا لقصر توب كابي المتواضع والذي بناه السلطان محمد الفاتح، ويمّمنا شطر قصر دولما باهتشي الفخم الذي أصبح فيما بعد مقر السلاطين في عهدٍ لم يكن الأفضل بالنسبة إلى السلالة العثمانية.

- أجل، لقد كنا نتحدث عن جتين – قالها وهو يتأبّط ذراعي الأيسر – ما الذي



يثير شكوكك في هؤلاء الشباب؟

لا أذكر أنني أخبرته بشكوكي تجاه جتين على الإطلاق، ولكن العجوز الماكر قد حدس ما كنت أرمي إليه من حديثي، وكان يحاول أن يجرني للاعتراف بشكل مباشر دون أن يتورّط هو في مهمة البدء بالحديث. وكان المنطق يقتضي في هذه الحالة ألاّ أنضاع للعبته وأسير نحو الفخ الذي ينصبه لي، ولكن عنادي الأخرق قادني نحو الاتجاه المعاكس تماماً.

– أنت مخطئ يا أستاذ، فلست أنا من يُشك بهم بل أنت.

نظر إليّ والحيرة تغمره:

– كيف!

واصلت سرد الحقائق دون أن ألقي بالاً لحيرته المزيفة.

– كما أنك أخبرتني أنهم ينظرون إلى التاريخ برومانسيّة بعيدة عن الواقع، ويبدون حساسية خاصة تجاه كل ما يتعلّق بالسلطان الفاتح.

وعندما لاحظ أنه لن يستطيع خداعي، سحب يده بهدوء من ذراعي:

– أحقاً هذا ما قلته؟

– أجل، وقد ذكرت هذه الملاحظة حين كنا نتحدث عن مقتل نزهت تحديداً.

لم يكن يتوقع مني كل هذه الجرأة بالطبع، فهو معتاد على مشتاق الأحمق الذي يؤمر فيطيع، ويسيّره الجميع وفق أهوائهم، ولكن لا. فبالنسبة لأمر مصيري كهذه الحادثة لن أقف مكتوف الأيدي وهم يخطّطون لزجي في ظلمات السجن.

ولكنني لم أستطع البقاء على موقفي هذا عندما شاهدت العجز الذي بدا في عينيه، وعلى الفور أحسست بشفقة على أستاذي، وتناهت إلى مسامعي كلمات أمي "مشتاق كان على الدوام طفلاً عطوفاً رقيق المشاعر"، لقد أشفقت على الرجل الذي لم أتأكد حتى الآن من حقيقة نواياه تجاهي.

– ومن الطبيعي أن تفكر بهذه الطريقة – حاولت التخفيف عنه.

بدا وكأنه يستجمع قواه لدى سماع كلماتي هذه، وأدركت أنه بحاجة إلى مزيد من التطمين.

– وأنا أيضاً تنتابني الشكوك حولهم، وخاصة جتين.



بدا الأمل يلتمع في عينيه بوضوح:

- جتين أليس كذلك؟ - تكلم بصوت خافت وكأنه يفصح لي عن سر خطير - وأنا أيضاً بدأت أشك به، فهو يميل إلى العنف، ويثور لأتفه الأسباب..

عاد ليثير حنقي بكلماته هذه:

- إذاً لماذا وافقت على انضمامه إلى سلك التدريس في الجامعة؟ وقد ساعدته بنفسك من أجل أن يتم قبوله، وأذكر أنك طلبت مساعدتي أنا أيضاً حينها.

لم يحاول أن ينفي الأمر:

- لا أعلم، ربما بسبب حماقتي.. لم تكن بيننا معرفة سابقة، ولكن الأستاذ روكنو أثنى عليه، فقد كان أحد طلابه. وهو شخص أثق به كثيراً، لذا فقد وافقت..

كان يبدو واثقاً من تورط جتين في الجريمة، وهذا ما سبب لي مزيداً من الضيق، لذا سألته السؤال الذي يدور في ذهني منذ البارحة:

- ولكن يا أستاذ كيف ترسل شخصاً تشك بتورطه في جريمة قتل إلى منزلي؟

تراقص حاجباه الكثّان وهو يوضح لي الأمر:

- لست متأكداً بعد من تورطه في الجريمة، وأردت أن أرسله إليك لأنني كنت أعرف أنّ شكوكك أيضاً تتجه نحوه، فبعد حديثك البارحة مساءً معي على الهاتف، أدركت حينها أنك تود التحدث معي حول جتين. لذا خطر لي أنك ربما تتوصّل إلى رأي محدد إن بقيتما معاً لفترة من الوقت وبذلك نتأكد، وهكذا طلبت منه أن يقلّك.

كانت فكرة خبيثة لا تليق إلا بماكر مثله:

- نتأكد؟

- أجل نتأكد، فكما تعلم أنا أثق برأيك كثيراً.

كان على وشك إقناعي بمعسول الكلام ولكن جزءاً من ذهني بقي يحذرني مما يضمره، وكان السؤال الأهم ما زال ينتظر في جعبتي:

- وما الذي دفعك للاعتقاد بأن جتين يمكن أن يكون القاتل؟

- لأنه - كان يجد صعوبة في إتمام كلامه - لأنه أخبرني بأنه سيقتل نزهت.

وأخيراً قال الجملة التي أزاحت ذلك العبء الثقيل عن كاهلي واستطعت التنفس براحة مرة أخرى. إذاً فقد كانت كل شكوكي في محلها، ولم تكن مجرد أوهام كما بدا لي في لحظات ضعفي.. إذاً فأنا بريء تماماً من هذه الجريمة.. وحين عقّب الأستاذ على كلامه السابق وأوضح لي قائلاً:

- ولكن هذا لا يثبت أنه من قام بارتكاب الجريمة بالفعل..

لم ألقَ بالاً إليه نهائياً خاصة وأنا أتذكّر نظرات الغضب والكراهية التي كان جتين يرمق بها سائق الشاحنة الذي اعترض طريقنا هذا الصباح، وأخيراً سمعت الحقيقة التي كنت أتخبّط باحثاً عنها منذ يومين، وأنا الذي كنت أتهم نفسي كأحمق بأنني قتلت المرأة التي أحب..

- ربما كانت مجرد كلمات تفوّه بها في ساعة غضب..

كان الأستاذ الذي لاحظ نظرات الإصرار في عيني، من أجل محاسبة جتين على هذه الجريمة يحاول بين الحين والآخر أن يخفّف من هول كلماته.

- متى قال جتين هذه الكلمات؟ - حاولت أن أستوضح منه - في الليلة التي كنا مدعويين فيها إلى منزل نزهت؟

- لا لا.. قبل ذلك بكثير.. كان ذلك بعد الجدال..

في البداية لم أعِ ما الذي يعنيه تماماً:

- أيّ جدال؟

- الجدال الذي نشب بيننا وبين نزهت..

- هاا.. تعني عندما بدأت نزهت تكيل الاتهامات للمؤرّخين الأتراك؟

تجوّلت نظراته المستغربة على وجهي:

- لا أتذكر أنّ حديثاً كهذا دار بيننا، كنا نتجادل حول أمور تتعلق بالسلطان الفاتح، ولكن من أخبرك أنها كانت تكيل الاتهامات لزملائها المؤرخين؟

- جتين أخبرني هذا الصباح عندما كنا معاً.. وقال إنّ نزهت اتهمت المؤرخين بموالاتهم للسلطة..

حينها بدت الحيرة واضحة على معالم وجهه التي كانت تزداد تغضّناً. فمن الواضح أنّ جتين كان يكذب عليّ، ويحاول أن يخفي السبب الحقيقي للجدال الذي جرى.

- هل أخبرك أنّ هذا هو سبب جدالنا مع نزهت؟

حينها أدركت أنّه هو أيضاً يقوم بإخفاء جزء من الحقيقة عني:

- وأعتقد أنكم تطرقتم لمشكلة قتل الأب أيضاً..

من الواضح أنّه لم يكن يصغي إلي، فقد أخذته الأفكار بعيداً جداً، وكانت اللحظة مناسبة للتحقّق من مدى صدقه.

- أعني أطروحتها التي تقوم حول احتمال مقتل السلطان مراد الثاني - بدأت بلعبتي الصغيرة التي استوحيتها من حديث جتين هذا الصباح، حين أعاد عليّ سرد القصة التي اخترعتها قبل ذلك عن موضوع الأطروحة، وادّعى أنّ نزهت كانت تعمل عليها. كنت أخلط كل الأوراق للوصول إلى إجابة شافية من هذا العجوز الماكر - فقد كانت تدّعي بأنّ السلطان محمد الثاني وبمساعدة حلف الوزارة الموالي له في القصر قام بتسميم السلطان مراد الثاني، وقد استولى على العرش بهذه الطريقة. وإثر طرحها لوجهة النظر هذه حدث خلاف بينهما تطوّر إلى ما يشبه الشجار.

بقي صامتاً للحظات وقد أرجع رأسه إلى الوراء قليلاً، وبدا خائفاً من اكتشافي لحقيقة ما يجول في ذهنه. وعندما عاد ليحدق إليّ من جديد كانت نظراته غائمة:

- أجل - عاد ليثبت كلمات جتين التي نفاها قبل قليل وهو يوضح لي - أجل، لقد احتد جتين كثيراً حينها، وأذكر أننا كنا مجتمعين في منزلي. كنا جالسين في غرفة المكتب.. نزهت، أكين، جتين، وأنا.. لا أذكر على وجه التحديد كيف بدأ الشجار، ولكنني أذكر جيداً أنّ نزهت بالغت كثيراً في تصوراتها، وكانت تلمّح إلى تورّط السلطان محمد الثاني في قتل والده.

وفيما كان يواصل سرد حكايته عن الأحداث، تبادر إلى ذهني سؤال محدد؛ لِمَ يكذب عليّ؟ لِمَ يكذب شخص بريء ويخفي الحقيقة؟ أحقاً كان هذا البروفيسور الوقور الذي يقف أمامي ويتكلم بجزع، هو من خطط لهذه الجريمة البشعة؟ وعندما لاحظ أنّ الشكوك يمكن أن تطاله أيضاً، بدأ بإلقاء كل التهم على تلميذه ومساعده والتنصّل من جرمه؟ كنت أواصل التحديق إلى أستاذي، الذي أعرفه منذ عقود، بانتباه شديد فيما كان يكمل سرد الأكاذيب من أجل محاولة إقناعي ببراءته.

- عندما سمع جتين اتهامات نزهت للسلطان وبأنه قد قام بتسميم والده، ثارت ثائرته وبدأ يكيل الإهانات لها، فقد اتهمها بأنها باعت وطنها ومبادئها، وأصبحت تسير وفق أهواء الغربيين. لكن أكين لم يحتمل إساءته وطلب منه أن ينتبه لما يقوله، فهو يتحدث مع بروفيسور كما أنّ نزهت في عمر والدته. حينها خرج جتين عن طوره واتّهمه بأنه مخنّث لا يحق له التدخّل في الأمر.. أجل لقد بالغ في الإساءة كثيراً، فنهض أكين ربما للمغادرة، ولكن جتين فسر الأمر على نحو مغاير وعلى الفور انقض على المسكين ولكمه في وجهه بحيث طرحه على الأريكة التي نهض عنها قبيل لحظات..
- أتعني أنه ضرب أكين؟..
- أجل، للأسف.. قام بضرب أكين، وكان ينوي أن يكمل العراك، ولكنني تدخلت وبالكاد تمكنت من ضبطه، ولن تتخيّل مدى الإحراج الذي شعرت به.. لكن جتين كان يتحين الفرصة لينقض على المسكين مرة أخرى..
- وما الذي فعلته نزهت؟
- لقد تفاجأت من الحدّة التي أبداها جتين، ونهضت لتغادر مع أكين على الرغم من اعتذاري لها، ورجائي ألاّ تغادر منزلي وهي غاضبة، لكنها كانت مصممة وقد غادر كلاهما معاً..

لم يعد قادراً على مواصلة الكلام، فقد بدأ يرتجف بشدة:

- هل أنت بخير يا أستاذ؟
- بخير، بخير.. ولكنني أشعر بالبرد لا أكثر..

ووضع يديه بهدوء في جيوب معطفه.. بالتأكيد لم تكن تلك الرعشة بفعل البرد وحده، بل الخوف من المصيبة التي ورّط نفسه فيها، والتي كان يحاول التملص منها، وإيجاد مخرج آمن بأي وسيلة.

- وقد استمر غضبه حتى بعد مغادرة نزهت وأكين، وكان يقول لي إنّ هؤلاء الأشخاص يدفعون المرء لارتكاب جريمة قتل، واتهمني بأنني أولي نزهت اهتماماً لا تستحقه، واتهمها بأنها ربما تعمل جاسوسة لصالح الأميركيين، وأشار إلى الخنجر الفارسي الذي أهداني إياه البروفيسور ناصر، والذي

أحتفظ به على طاولة المكتب لفتح الرسائل وهو يقول "يخطر لي أن أحمل هذه السكين، وألحق بتلك المرأة لأغرزها عميقاً في عنقها"..

- ماذا – لم أصدق ما سمعته للتو – أهذا ما قاله بالضبط؟ أقال إنه يريد أن يغرز السكين في عنقها؟

انتقلت عدوى الانفعال الذي أصابني إليه أيضاً واختلجت عيناه قبل أن يجيب:

- ربما لم يقل الكلمات كلها على وجه الدقة، ولكنه قال كلاماً بهذا المعنى. والبارحة عندما أخبرني المحقق نفزت، أن نزهت قتلت بسكين في رقبتها، أصابني ذعر لن تتخيله.

- ولِمَ لم تخبر المحقق بهذا الكلام؟

أخرج يديه من جيبي المعطف وأفردهما أمامه دلالة الحيرة:

- كيف سأخبره عن اتهام خطير إلى هذه الدرجة ونحن لسنا متأكدين بعد، ولا أدلة لدينا لإثبات الأمر. إنها مجرد شكوك لا أكثر، كما أن جتين تلميذي..

قبل بضع ساعات كانت مجرد شكوك بالنسبة إليّ، ولكنها الآن أضحت حقيقة دامغة لا تقبل الشك. فقد وصلت إلى أجوبة كل إشارات الاستفهام التي بقيت معلقة في ذهني بعد أن تبين أنّ جتين هو القاتل. خلا السؤال الأهم؛ وهو كيف سأتمكن من مواصلة حياتي بعد رحيل نزهت.

- لهذا أرسلت جتين إليك، كنت أدرك أنك ستستغل فرصة وجودكما معاً طوال الطريق وستحاول استدراجه لتتأكد من حقيقة شكوكك – واصل العجوز حديثه – لأنني لم أتمكن من البتّ في شأنه، وأردت أن أستعين بك..

أما أنا فقد تأكدت تماماً أنّ جتين هو المجرم، وأنّ عليه أن يدفع الثمن ويحاسَب، ولولا الشكوك التي تنتابني حول حقيقة نوايا الأستاذ لكنت صارحته على الفور، ولكنني تردّدت في البوح بما أفكر فيه صراحة:

- وأنا أيضاً لم أتمكن من الوصول إلى قرار نهائي. صحيح أنّ جتين متطرف في آرائه، وصحيح أنّ طباعه حادة بعض الشيء، وإن شئت الحق فهو عنيف جداً.. ولكن كل ذلك لا يثبت تورّطه، نحتاج إلى أدلة أقوى لإثبات الأمر..

بدا متردداً قليلاً قبل أن يردف:

- في الحقيقة هناك شيء آخر..

ما أكثر الأشياء التي يستطيع الناس إخفاءها عني.. حين لاحظ أنني أرمقه بفضول، أخرج ما في جعبته:

- في الليلة التي قُتِلت فيها نزهت.. تذكر أنني اتصلت بك، أليس كذلك؟.. حينها لم نكن على علم بما جرى.. وحاولت الاتصال بجتين من أجل الذهاب والاطمئنان عليها، ولكن جواله كان مغلقاً، حيث ادّعى أنه سينضم إلى ندوة ما في تقسيم، على الرغم من أنّ الندوة كانت قد انتهت منذ وقت طويل.. خطر لي أنه عاد لمنزله، لذا اتصلت به على الهاتف العادي ولكن أحداً لم يجب على اتصالي. وفي صباح اليوم التالي سألته أين كان البارحة مساء بعد انتهاء الندوة، فأخبرني أنه عاد إلى المنزل، وعندما قلت له إنني اتصلت به كثيراً على هاتف المنزل دون أن يردّ عليّ، تذرّع أنه يخفض صوت رنينه في الكثير من الأحيان، ولكن إن شئت الصدق فأنا لم أقتنع بكلامه وشعرت بأنه يخفي عني أمراً ما.
- أتعني أنه أخفى عنك مكان وجوده ساعة حدوث الجريمة؟
- ربما، لا أعلم.. ربما كنت مخطئاً.. وكما ذكرتَ منذ قليل فلا أدلة قاطعة لدينا، إنها مجرد شكوك لا أكثر.. وفي هذه الحالة سيكون إجحافاً من قبلنا لو أخبرنا الشرطة..

ولكنني لن أسمح له أن يفلت من التهمة بهذه البساطة:

- ومع ذلك علينا إخبار المحقّق نفزت بكل ما قلته لي للتو.

اعتراه القلق وهو ينظر إليّ:

- أجل يا أستاذ، فارتكاب جريمة كهذه لا يجب أن يمر دون عقاب – كنت أشدّد على كل كلمة أقولها عامداً – لذا يجب أن نخبر المحقق نفزت بالمعلومات التي لدينا، وربما يمتلك هو معلومات إضافية، وبهذه ستكتمل الصورة النهائية، وحتى لو لم يقم جتين بارتكاب الجريمة، فربما تمكّن معلوماتنا هذه المحقّقين من التوصل إلى المجرم الحقيقي..

- لا أعرف – عاد العجوز للتهرب – حقاً لا أعرف يا مشتاق.. فالشرطة لا رحمة لديها، وقد نتسبّب في إيذاء أشخاص أبرياء..
- أشخاص؟.. أتعني أنّ جتين ليس المتورّط الوحيد؟

انكسر كل تماسكه ولم يعد يبذل أي محاولة لإخفاء جزعه وهو يقول:

- هذا ما أظنه، فمن غير المعقول أن يتمكن من ارتكاب الجريم بمفرده، أم أنّ هذا ممكن؟

تأكدت أنه تخلّى عن كل الأقنعة، ولكنني لم أستطيع أن أحدد سبب كذبه علي بشأن موضوع الجدال.. فقد صرح لي عن شكوكه المتعلّقة بجتين؟ إذاً فما هو الشيء الذي يحاول إخفائه عني، أو من هو الشخص الذي يحميه؟

- أنت مخطئ يا أستاذ، علينا أن نخبر المحقق نفزت بكل ما نعرفه. فلو أنّهم بالفعل متورّطون في الجريمة، فلا بدّ أنهم وراء الاعتداء على أكين أيضاً، وحين يعلمون أنه نجا، قد يعاودون الاعتداء عليه مرة أخرى للتخلّص منه قبل أن يعترف. وقد يطالني الأمر ويطالك أنت أيضاً..

لم يخطر له هذا الاحتمال من قبل، لذا عندما سمع كلماتي بدا كمن تلقى ضربة شديدة على رأسه جعلته يتلوى من الألم الذي ظهر جلياً على قسمات وجهه وهو يقول:

- يطالني أنا؟..

لم أشأ تفويت الفرصة:

- بالطبع.. ألم تدرك أنّ المعلومات التي بحوزتك تجعلك أهم الشهود في هذه القضية؟.. فقد اعترف جتين أمامك برغبته في قتل نزهت.. وعليك أن تخبر القاضي بذلك أثناء المحاكمة..

كانت ضربة قاصمة جعلته يبدو كعجوز فاقد الإرادة والقوة اللتين تمتع بهما على الدوام، ربما كان الأمر بسبب خوفه من الخطر المحدق به، وربما بسبب اضطراره إلى الإدلاء بشهادته في جريمة كهذه أمام القضاة.. ولكن المظاهر لا تشي بالحقيقة على الدوام:

- لا!..



لم أتوقع منه هذا الحسم والقوة في لحظة كهذه، وقد عاد ليكرر كلامه وكأنه يرمي إلى تعزيز ثقته بنفسه أكثر:

- لا.. لا يمكن لجتين أن يرتكب جريمة كهذه..

لم أعرف حقيقة الأسباب التي دعته للدفاع عن تلاميذه. أهو خوفه من الانتقام إن تخلّى عن شركائه وقام بتسليمهم إلى الشرطة؟.. أم لإدراكه أنّ وقوعهم يعني وقوعه هو أيضاً؟.. ولأنني لا أثق بهذا العجوز الماكر فلم أركن إلى سبب محدّد، بل حاولت أن أحافظ على هدوئي علني أصل إلى نتيجة واضحة.

- ولِمَ لا؟ فلو كان بالفعل قد قام بقتل نزهت، فلن يتوانى عن ارتكاب جرائم جديدة من أجل التخلص من الشهود.. فمن تلوثت يداه بالدماء مرة لن يتردد في تلويثهما مرة أخرى..

هز رأسه نافياً بحزم:

- لا، فجتين يحبني..

لكل شخص نقطة ضعف ما، ونقطة ضعف الأستاذ هي اعتقاده الراسخ بمحبة تلاميذه له. على الرغم من صحة المقولة الشائعة التي تقول: احموني من أحبائي، وسأعرف كيف أحمي نفسي من أعدائي..

- ربما هو يحبك يا أستاذ - حاولت إقناعه - ولكنه قد يجد نفسه مضطراً لذلك..

ولكنه ظل يتمسك بعناد تيس عجوز بالفكرة ذاتها:

- لا، من المستحيل أن أتخيّل أن يقوم بإيذائي مهما كانت الأسباب، كما أننا لم نتبين بعد حقيقة تورطه في الجريمة حتى الآن..

لم أشأ أن أستسلم بعد وصولنا هذه المرحلة الحاسمة:

- وماذا لو كان المجرم؟.. ماذا لو توصلت الشرطة إلى الحقيقة، ألن تعتبرنا شركاء في الجريمة كوننا أخفينا كل هذه المعلومات؟.. ما زلتُ مصرًّا على إخبار المحقّق نفزت بكل ما لدينا ولندع الشرطة تتصرف..

تراءى لي وجه والدي وأنا أسمع كلماته المشجعة "أحسنت يا بُني، عليك أن تكون وفياً للقانون على الدوام".

ولكن الأستاذ قطع عليه بقية حديثه:

- لا تفعل ذلك يا مشتاق.. أمنعك من إخبار الشرطة بأي شيء، فأنا لا أريد المخاطرة بمستقبل هؤلاء الشبان دون التثبّت من الأمر..
- ولكن يا أستاذ..

حينها شعرت بالتعب ليس فقط من محاولاتي المستمرة لإقناع العجوز، بل بسبب ثقل الحقيبة التي كنت أحملها بيدي، والتي ربّتها الأستاذ بلطف وقد انتقل إليه الدور لإقناعي:

- أرجوك يا مشتاق.. دعني أحدّث جتين في البداية..

أكان العجوز الخرف يريد أن يضع رأسه تحت سيف الجلاد؟

- لا تفعل ذلك على الإطلاق - نبهته بجدية - ستخاطر بحياتك إن فعلت ذلك..
- لا تقاطعني، فأنا أعلم تماماً ما أنا مقبل عليه.. كما أنني لست أحمق كما يبدو لك.. لن أسأله صراحة، ولكنني سأحاول استدراجه في الكلام حيث سأدعوه اليوم مساء إلى منزلي..

حينها تأكدت أن الخرف بدأ يسيطر عليه بالفعل.

- ستدعوه إلى منزلك؟ أي أنكما ستكونان بمفردكما؟..
- أجل، وما المشكلة؟ فهو قد زارني مئات المرات، حتى أنني أعطيته نسخة احتياطية من مفاتيح المنزل.. - رمقني بهدوء وهو يكمل - أعلم أنك قلق عليّ ولكن اطمئن، فجيتين وسيبل وإرول ليسوا شباناً سيئين كما تظن.. ولا أظنهم متورطين في جريمة كهذه.. وحتى لو افترضنا صحة هذا الاحتمال - ولكنه أعاد رأسه للخلف كمن يحاول إبعاد الفكرة عن ذهنه - حتى لو افترضنا صحة هذا الاحتمال، فلا أظنهم سيفكرون في القيام بأمر يؤذيني. هم أيضاً مثلك يا مشتاق.. هل يعقل أن تقدم على أمر يؤذيني مثلاً؟..

أمسكت بالحقيبة التي تحوي مسدس والدي لأحس بنوع من الأمان وأنا أجيب:

- حسناً، تحدّث مع جتين، ولكنني لن أتركك بمفردك..

نظر إليّ بإصرار قبل أن ينهي النقاش بكلماته الحاسمة:



- لا داعي لذلك، فوجودك سيمنعني من التحدث براحة معه..

(33)

ألم تكن الدولة العثمانية دولة تركية؟

كنت أتأمل شريط الأسوار، الممتد من بلاهيرنيا سراي والتي تحاذي البحر الذي كانت أمواجه الهادئة تغدو وتروح في رتابة، والحيرة تتملّكني، هل عليّ أن أقلق على الأستاذ؟ أم أنّ شكوكي تجاهه صحيحة؟.. فلو كان جتين وزملاؤه هم القتلة بالفعل، فإن العجوز يرمي بنفسه إلى التهلكة.. ولكن طاهر حقي الذي أعرفه ليس شخصاً بهذه السذاجة على الإطلاق، ولا يقدم على أمرٍ ما لم يكن واثقاً من أنّ النتيجة ستكون لصالحه، وهو يحسن الكلام والتصرف في كل الظروف..

- نحن مؤرخون يا مشتاق ومن الخير لنا أن نبقى بعيداً عما لا يعنينا، وألاّ نتدخل في ما لا نفقهه حتى لا ندفع ثمن ما لم نقترفه..

هذا العجوز المحنك، وطوال السنوات التي عرفته فيها، لم يضع نفسه ولو لمرة واحدة في موقف ضعيف، أو خاطر بالتدخل في مسألة غير مأمونة العواقب. ورغم أنّ عمره يكاد يقرب عمر جمهوريتنا الحديثة، ورغم تقلّب الأهواء والأمزجة والحكام في هذا البلد، من انقلابات العسكر ووصولاً إلى عصر رجال السياسة على مختلف انتماءاتهم وتوجهاتهم، لا أذكر أنه تصادم مع أي طرف منهم، بل العكس، كان على الدوام محطّ احترام كل الأطراف، وله علاقات جيدة مع الجميع..

وقد اعتبره بعض من يكنون له العداء، شخصاً وصولياً لا مبادئ لديه، فيما اعتبره الأصدقاء وأنا منهم، شخصاً ذكياً يعرف على الدوام كيف يحافظ على مكانته الشخصية ويفرض احترامه على الآخرين.. ولكن الجميع دون استثناء كانوا يقدرون فضله الكبير في مجال التاريخ، وأعماله التي تعتبر من المراجع الأساسية لأي مؤرخ..

إن الأستاذ الذي استطاع الوقوف صامداً كل هذه السنين، لا أظن أنّ ثلاثة تلاميذ حمقى تورطوا في جريمة لا مبرر لها، سوى ضيق أفقهم الفكري، سيتمكّنون من التغلب على حنكته، أو سيشكلون أي تهديد جدي له.. وعلى الرغم من ذلك فقد يخونه ذكاؤه هذه المرة، خاصة بعد أن بلغ من العمر ما بلغ وربما ستودي به ثقته الزائدة بنفسه، ليكون آخر ضحايا ذلك المجرم جتين.. لكن إخفاءه سبب الجدال الحقيقي الذي نشب بين نزهت وجتين والكذب عليّ، كما فعل جتين، كان يبلبل أفكاري، ويضعه في خانة المشتبه بهم. فحقيقة أن يتقاسم سراً كهذا مع شخص مثل جتين لم يكن بالأمر الذي يطمئن على الإطلاق..

وعندما اجتمعنا أمام الأسوار القديمة التي تشققت بفعل الزمن وتهدمت أجزاء منها، وامتلأت شقوقها بالنباتات وأحياناً ببعض الشجيرات، ولكنها حافظت على هيبتها وعظمتها رغم ذلك، كان هذان الاحتمالان المتناقضان يشغلان ذهني عن التمتع بهذه الجولة..

كنت متأكداً من أنّ الأستاذ لن يغير رأيه بشأن جتين، ولم يشأ إلا أن يكمل الجولة كما كان مقرراً لها دون أن يدفعه نقاشنا السابق إلى العدول، ولم أشأ بدوري بعد وصول سردنا التاريخي إلى مراحله الهامة أن أترك المجموعة، كما أنني كنت أحس بمتعة خفية وأنا أعود إلى الماضي، وأشعر أنني عدت مؤرخاً من جديد..

- "لتفتحنّ القسطنطينية، فلنعم الأمير أميرها ولنعم الجيش ذلك الجيش".

أعاد قائد المجموعة الحديث النبوي الشريف باللغة العربية مرة أخرى، تلك النبوءة التي ذكرها شخص كان يعيش بعيداً جداً عن القسطنطينية والتي تحققت رغم ذلك بعد مئات السنين، وسأل مستمعيه عما تعنيه هذه الكلمات العربية..

وجاء الجواب مرة أخرى من ذلك الشاب الملتحي الأشعث الشعر الذي كان يجلس في الخلف متوسطاً صديقاته المشاكسات:

- إنه يتنبأ بفتح القسطنطينية ويثني على القائد الذي سيفتحها، وعلى جيشه.

لم تكن الدهشة التي تملكتني بأقل من دهشة الأستاذ حول سعة معارف هذا الشاب:

- أحسنت يا بُني - خاطبه الأستاذ - ولكن كيف تعرف العربية؟



لم أتبين إن كانت حمرة خديه خجلاً أم نتيجة الهواء البارد الذي يلفح وجوهنا.

- أنا عربي الأصل يا أستاذ. اسمي جورج، وأنا من فلسطين، أنا عربي نصراني.

تابعه الجميع باهتمام واضح، فيما أشار الشاب إلى صديقاته وهو يكمل:

- نحن من جامعة بوغازيجي من قسم التاريخ، ونعمل الآن على أطروحة تتعلق بالسلطان الفاتح، وهذا سبب انضمامنا إلى الجولة.

وكانت اللكنة الأجنبية تتضح في كلماته عند مواصلته الحديث، وقد اعتبره الأستاذ أحد تلاميذه على الفور، من دون أن يعير انتباهاً لكونه فلسطينياً أو نصرانياً.

- أحسنتم الفعل.

قالها وهو يبتسم بتحبب:

- وكيف وجدتم الجولة؟ هل استفدتم في شيء؟

أبدت أطول الفتيات رغبتها في الكلام وهي تتقدم بضع خطوات، كانت تضع لفاحاً أحمر اللون، ولوّنت شفتيها بحمرة من اللون ذاته. ولكن ما لفت انتباهي على الفور وانهال على روحي المعذبة كضربة سوط، هي رائحة البنفسج التي فاحت مع اقترابها. عادت أمواج الألم لترتفع مرة أخرى وتغرق قلبي، كانت نزهت في مثل عمرها حين كنا ننضم إلى هذا النوع من الجولات، ولم تكن علاقتنا قد بدأت بعد. ولم يكن الأستاذ طاهر قد أصبح على ما هو عليه في تلك الأوقات، كان يحمل حقيبة جلدية سوداء أثقل منه. كنت أعلم مدى ثقلها، لأنني كنت أحملها على الدوام حين كان الأستاذ يتحدث، وكان حينها أكثر حماساً واندفعاً وهو يسرد علينا الوقائع ذاتها. إلا أنّ حقيبته بالتأكيد لم تكن تحوي مسدساً كما حقيبتي الآن. وكان يكثر من ذكر أبيات الشعر التي تتحدث عن الحصار والفتح حينها، كقصيدة يحيى كمال التي كتبها عن الفتح:

أضرب بكل عزم لتُفتح هذه الأسوار

لنسمع أصوات التكبير تختلط مع صلاة الفجر

بل كان على الدوام يفتتح حديثه في الجولات بأبيات من الشعر.

- لقد اطلعنا على المعلومات الذي ذكرتموها - علقت الفتاة - ولكن سماع الأحداث في المكان الذي وقعت فيه بالفعل، يجعلها تتحول إلى تجربة

فريدة.

راقت كلمات الشابة للأستاذ الذي بادر بالقول:

- تجربة فريدة؟ - قالها وأطلق قهقهة صغيرة - إذاً دعونا نكمل تجربتنا الفريدة هذه.

عاد لتقمص دور المؤرخ والأستاذ الودود مرة أخرى بمزاجه الرائق، دون أن يظهر أدنى إشارة لما يعتمل في ذهنه، وكنت أتساءل عن كيفية قدرته على القيام بالأمر على هذا النحو من الإتقان؛ عندما لاحظت أنني أقوم بالأمر ذاته، فأنا أيضاً تنتابني المخاوف والشكوك ذاتها، بل لا شك أنّ مخاوفي وحزني أكبر بكثير، ومع ذلك استطعت أن أسرد حصتي من القصة دون أن أُشعِر أحداً بما يعتمل في ذهني.

"الأدوار يا عزيزي، الأدوار ليست حكراً على الممثلين فقط، فمجتمعاتنا المعاصرة قد فرضت علينا جميعاً عدة أدوار شئنا ذلك أم أبينا. نحن مجبرون على أداء هذه الأدوار حتى اللحظة الأخيرة، وفي كثير من الأحيان لا نستطيع التخلي عن الدور حتى لو كانت سعادتنا الشخصية على المحك، لأننا لو فعلنا ذلك سنخلّ بضوابطنا الشخصية والضوابط المجتمعية في الوقت ذاته".

لم تكن هذه الكلمات التي أيقظتها ذاكرتي لوالدي، بل للعجوز الذي أدار ظهره للبحر، وبدأ الحديث بالحماسة المعهودة، ليعيدنا إلى لحظة مفصلية في تاريخ هذه المدينة:

- أجل يا أصدقائي، فهذا الحديث الشريف يشير إلى رغبة الرسول الكريم في فتح القسطنطينية التي ذاع صيتها ولم تكن هناك من مدينة تنافسها في العظمة والأهمية. وكلنا نعلم محاولات الحصار الكثيرة التي تعرضت لها المدينة من أجل تحقيق هذه النبوءة. ولكن جميعها باءت بالفشل وعادت من حيث جاءت بعد استشهاد العديد من جنودها عند هذه الأسوار، ولكن ذلك الأمير المبارك الذي أشار إليه الحديث النبوي، وذلك الجيش المُنعَم عليه كان منشغلاً بتجهيزات الحصار كما شرحنا في القسم الأول من رحلتنا. والآن من يذكر كيف انتهى حديثنا عندما كنا في قلعة روملي هيصار؟

تجولت نظراته مرة أخرى على الحشد باحثة عن جواب، وعندما أدرك أنّه لن يحصل عليه طمست خيبة الأمل حدة نظراته، ولكنه حاول مرة أخرى:

- لا تقولوا لي أنكم لا تذكرون. لقد تحدثنا مطولاً عن الأمر.

بقي الحشد صامتاً.

- ما بالكم يا أصدقاء، ألا تذكرون إلى أين اتجه السلطان محمد الثاني بعد بناء الحصن؟

- إلى أدرنة - ردّت السيدة جالة - عاد إلى عاصمته.

كان الغرور يفيض من صوتها وهي تتكلم:

- أجل إلى أدرنة، لكي يبدأ بالتجهيز للحصار - وأشار برأسه نحوي - وقد حدثنا مشتاق فيما بعد عن تحضيرات الإمبراطور قسطنطين لتحصين مدينته وعن الدعامتين الأساسيتين اللتين كان يعتمد عليهما.

وقبل أن يكمل الشرح تدخل بيامي الفضولي:

- وهما دعم الدول المسيحية، وهذه الأسوار.

- ممتاز، هذا يعني أنكم تتذكرون ما كنا نتحدث عنه - تدخل الأستاذ قاطعاً على الرجل البعوضة فرصة الإطالة - أظن أنّ الجميع يتذكر، ولكن هناك بعض الأصدقاء ممن يمنعهم الخجل من المشاركة. ولكن أفضل طريقة للفهم هي السؤال، ففي حالة الاستماع تعمل الذاكرة فحسب، أما في حالة طرح الأسئلة فإن الدماغ يتفاعل أكثر. أياً يكن الأمر دعونا نعود إلى موضوعنا، كنا نقول إنّ عاصمة الإمبراطورية البيزنطية كانت على وشك السقوط، ولكن قسطنطين كان يعمد على ركيزتين أساسيتين لدعم مدينته، وكان السلطان محمد الثاني يعرفهما جيداً - لذا فقد كانت استراتيجيته تقوم على هدم هاتين الركيزتين بالذات، فقام بعقد اتفاقيات سلام مع الدول الأوروبية من أجل بقائها على الحياد أثناء الحصار، وقام بإرسال تورهان بيك وأبنائه على رأس حملة متجهة إلى إقليم المورة، حيث كان أساقفة المدينة ديمتري وتوماس أشقاء الإمبراطور قسطنطين، وبذلك سيشغلهم عن مساعدة القسطنطينية.

وأشار بيده نحو الأسوار التي بدت كأفعى هرمة تشقق جلدها وفقدت جبروتها القديم، وهي تتلوى باتجاه أدرنة كابي.

- والآن كان باستطاعة السلطان التوجه نحو هذه الأسوار التي كانت تلف المدينة كحزام حجري محكم، ولكن كيف سيجابه هذه القوة الهائلة؟ صحيح أن جيشه كان أقوى من الجيوش الأوروبية بما لا يقاس، إلا أنّ ذلك لم يكن يكفي لحرب بهذه الضخامة. صحيح أنّ جنوده كانوا أكثر الجنود شجاعة، وكانوا يتجهون إلى الحروب وكأنهم يتجهون إلى عرس حقيقي غير آبهين بالموت، ولكنه لم يكن بحاجة لجنود يموتون عند هذه الأسوار، بل لجيش قادر على دخول المدينة ورفدها بدماء جديدة، وقد قيل له عليك أن تقوم بفتح القسطنطينية وتحويلها إلى جنة حقيقية. ما أريد الوصول إليه هو أنّ السلطان أدرك عدم قدرته على فتح المدينة بقوة الجيش وحده، لذا استدعى إلى قصره أهم مصممي المدافع والأسلحة، وقد تحدثنا عن أحدهم قبل قليل.

وحطت نظراته على جورج منتظرة منه إجابة:

- أوربان - أجاب الشاب الودود مرتبكاً بعض الشيء - أوربان المجري.
- أجل، ولكنه لم يكن الوحيد الخبير في هذا المجال، فالمهندس مصلح الدين أيضاً انخرط في تصميم مدافع تستطيع دك هذه الأسوار السميكة. ومع ذلك لا يجب الاستهانة بأوربان الذي كان يعرف نقاط الضعف والقوة في هذه الأسوار أكثر من سواه. استمرت التحضيرات طوال شتاء أدرنة القاسي، وكان السلطان الشاب يصل الليل بالنهار لكي تنتهي الاستعدادات في الوقت المناسب، كان فتح جوهرة المدن قد تحول لديه إلى هاجس أخذ بعقله وقلبه، وكان يحلم باللحظة التي ستفتح أبوابها العظيمة لتستقبله استقبال الفاتحين.
- ولكن كانت هناك ظروف تجبره، أليس كذلك؟

قطعت السيدة جالة حديثه في اللحظة التي كان يحلق فيها مع سلطانه المحبوب، وفي وقفة انتقالية من تلك التحولات الغاضبة والقليلة التي تنتاب العجوز، نظر إليها

شزراً:

- عفواً؟

حاولت المرأة التي استغربت الحدّة التي ظهرت على هذا العجوز المتسّم باللباقة، حاولت الابتسام وهي تجيب:

- أنت من أخبرتنا بذلك أستاذ طاهر. فبعد انتصار فارنا كان السلطان مجبراً على إحراز نصر أكبر، وإلا سيخسر التحدي الذي بينه وبين تشاندرلي خليل.

تصورته سيتجاوز ملحوظتها كما يفعل في مثل هذه المواقف، ولكنه أفسح الطريق للغضب الذي يقبع في أعماقه لكي يخرج قليلاً:

- ألم نوضح هذه النقطة من قبل؟

خيّم صمت جليدي على الحشد الذي كان يرزح تحت وطأة نظراته الغاضبة، وقد تسمرت السيدة في مكانها لا تدري ما تفعل، ولكنه لم يكتفِ بذلك بل أمعن في إذلال المرأة أكثر:

- لقد تحدثنا في الأمر، وأنت من أجاب عن هذا السؤال أليس كذلك يا مشتاق؟

قالها وهو يحدق إليّ ولكن دون أن يفسح لي الوقت للإجابة، حيث تحول إلى السيدة جالة المغضوب عليها من جديد:

- أرجوكِ سيدتي دعينا نتجاوز مسألة فارنا هذه.

بدأ ذقنها يرتعد، وتسمرت في مكانها لا تجرؤ على التحدث أو الحركة ولكن العجوز لم يبالِ بما ألمّ بها وتابع تعنيفه:

- لقد أوضحت لكم عندما كنا في روملي هيصار بأنّ السلطان محمد الثاني كان شخصية استثنائية، وكان يهدف لتأسيس إمبراطورية عثمانية تحكم العالم برمته تماماً كإمبراطورية روما التي كانت عاصمتها القسطنطينية تماماً كقسطنطين.

استنشق عبير البحر الرطب بعمق وأردف:

- ولكن.



وهنا اجتاحته نوبة سعال حادة لسوء حظه وحسن حظ المرأة. وبدأ يسعل بشكل متتالٍ دون أن يستطيع التوقف.

- يا للحظ.

مدت له زوجة بيامي التي تقف بالقرب منه زجاجة الماء التي تحملها بسرعة.

- تفضل، اشرب القليل سيساعدك على التحسن.

عاد ليكمل حديثه مرة أخرى:

- كنا نتحدث عن قسطنطين.

ولكن يبدو أنّ الماء لم يكن العلاج الناجع، فقد عاد ليسعل ثلاث أو أربع مرات متوالية وهو يحاول الابتسام رغم ذلك.

- ولكن إياكم أن تقارنوه بالإمبراطور قسطنطين.

تنفس بعمق واختفت الحدة من صوته وهو يكمل:

- فكما تعلمون كان قسطنطين آخر أباطرة روما الذي هُزم على يد السلطان محمد الثاني والذي لم يرث من المجد الذي عاشته هذه المدينة منذ أكثر من ألف وخمسمئة عام سوى ظلاله. وكما كانت الإمبراطورية الرومانية تضم العديد من الأقوام والشعوب، كان السلطان أيضاً يهدف إلى جمع لغات وأعراق وديانات مختلفة تحت راية السلطنة العثمانية. كان ينوي تأسيس إمبراطورية شمولية.

سكت للحظات ليتيح لنا المجال لفهم كلماته، وبدا تعباً وشاحباً، فظننته سيتخلى عن مواصلة الكلام، ولكنه لم يفعل ذلك، فهو كوالدي من ذلك الجيل القديم الذي لا يعرف التعب أو التراجع أو الاستسلام، سيكمل دوره حتى آخر رمق. لذا وكإشارة للعودة نظر إلى السيدة جالة نظرة مبتسمة أراد لها أن تكون اعتذاراً:

- لهذا السبب يا عزيزتي جالة.

قال كلمة عزيزتي بنبرة خصها بها وحدها.

- حتى لو يقم تشاندرلي خليل بتحديه، وحتى لو يكن هناك صدر أعظم بهذه الموصفات في عصره، فهو كان سيقدم على فتح المدينة، فقد كان مصمماً على تحقيق حلم جده الأكبر عثمان الغازي بتأسيس إمبراطورية عثمانية.

لم تعرف المسكينة إن كان عليها أن تفرح أم تحزن، لذا دمدمت بخفوت:

- أجل، أردت فقط تذكيركم بالمعلومة.
- أشكرك جزيل الشكر، فقد كان تفاعلك مع الحوار رائعاً – وجال بنظراته على أفراد الحشد – خاصة وأن الغالبية لم يشاركوا في الحوار خجلاً.

ارتبكت الغالبية الخجلة التي كان يرمقها، وحاول كل فرد التواري عن نظراته تماماً كالتلاميذ أمام معلم متسلّط. ولكن لحسن الحظ أن العجوز اكتفى بهذا القدر.

- كنا نتحدث عن تحضيرات السلطان المحمومة من أجل الحصار. ففي أثناء النهار كان يشرف على الأعمال بنفسه، وفي الليل كان يضع أمامه خارطة القسطنطينية التي رسمها، ويتابع أدق التفاصيل مع قادة جيشه ويحدد النقاط التي سترميها المدافع والجهات التي ستعلق عليها السلالم والأماكن التي سيتم حفر الأنفاق فيها. فقد كان السلطان الشاب يعلم جيداً أنّ الجنود والسلاح وحدهما غير كافيين لتحقيق النصر الذي يكون في الغالب من نصيب الأذكياء، وفي حال عدم وجود خطة محكمة للمعركة فسيفقد الكثير من الأرواح وسيطير النصر من بين يديه في ساحة المعركة كطائر هارب من قفصه، ولكن القائد الذكي بالمقابل سيحول دون فقدان الكثير من رجاله، وسيحكم قبضته على النصر كصياد ماهر. فقد كانت هذه النتيجة التي توصل السلطان من الحملة الكبيرة التي قام بها الإسكندر المقدوني على بلاد الهند، ومحاولات قيصر السيطرة على العالم برمته.

عاد إليه حماسه المعتاد، حيث كان ينوي الانتقال في حديثه من تحضيرات الشتاء المضنية، والانتقال إلى الربيع حيث بداية الحصار، ولكن تم قطع حديثه من جديد وهذه المرة من قبل صديقه الجهوري بحري:

- ولكن ألم تكن الدولة العثمانية دولة تركية؟ فيكف يقوم الفاتح بالاقتداء بذلك القائد الذي نسيت اسمه. ذاك الذي توجه نحو الهند. كيف يقتدي به في إنشاء دولة تضم العديد من الأعراق؟

نظر إليه ولسان حاله يقول اللهم ألهمني الصبر.

- لو كنت أعلم اهتمامك بالتاريخ لهذه الدرجة، لكنت دعوتك إلى جميع

محاضراتي! فأنت لا تفوت شيئاً دون أن تصدعَ رؤوسنا بأسئلتك التي لا تنتهي.

اجتاحت الحشد نوبة ضحك أخذت معها التوتر الذي خيم قبل قليل، ولكن العجوز الرمادي الشعر لم يبالِ بكلمات صديقه ولا بضحكات البقية:

– أنت من طلب منا أن نسأل، لأن الاستماع يشغَل الذاكرة فحسب، بينما الأسئلة تنشط الدماغ كله. وهذا ما أحاول القيام به.

وهنا بدأ هو أيضاً يقهقه بالضحك.

– لما تضحك الآن أيها العجوز.

وضع الأستاذ يديه على خاصرته وهو ينظر إلى صديقه، محاولاً قدر الإمكان الحفاظ على جديته حتى لا يتحول النقاش إلى مماحكة بينه وبين صديقه القديم أمام بقية الأفراد:

– لا أعلم، ولكنك أيقظت في ذهني أيام المدرسة. وحين بدأت تنهر مستمعيك تذكرت أستاذ التاريخ. ميهتير ممدوح. تذكره أليس كذلك؟ لم يكن يكلف نفسه عناء شرح الدروس ويكتفي بأن ينهرنا كلما شاء له مزاجه.

نظر إليه صديقه وقد قطب ما بين حاجبيه معاتباً:

– أحقاً تصرفت معكم بهذه الطريقة يا أصدقاء؟ لو سمع أحدٌ كلماته لظن أني أحمل العصا بيدي وأتحدث إليكم.

– على العكس تماماً.

تدخلت زوجة بيامي البدينة لتؤيد الأستاذ:

– فأنت تشرح الأحداث بطريقة رائعة.

– لا لا. لم أقصد ذلك يا صديقي. ولكنني عندما بدأت أضحك وسألتني عن سبب ضحكي.

ولكن الأستاذ اكتفى بهذا الفاصل المنشط:

– حسناً، حسناً. لقد تجمد زملاؤك من البرد.

عاد ليمسك بزمام الأمور:

– كما أنّ حديثنا لم ينتهِ بعد.



نظر إليه بحري معاتباً:

- ألن تجيب عن سؤالي؟

أدرك البروفيسور أن لا مهرب من إلحاح صديقه، لذا أجابه مضطراً:

- حسناً، بالعودة لمسألة الدولة التركية. بالطبع كانت الإمبراطورية العثمانية دولة تركية. ولكن الإمبراطورية كانت أهم من العِرق. فعلى سبيل المثال كان الكارمانيون أيضاً تركاً ولكنهم كانوا على الدوام في صراع مع العثمانيين، وكذلك الحرب التي خاضها الفاتح ضد أوزن حسن حاكم أكويونلو. كما أن جيش السلطان محمد الثاني الذي أتى لحصار المدينة كان يضم بين صفوفه جنوداً من مختلف الأديان والمشارب والأصول، ففي تلك الفترة لم يكن الناس يصنفون بحسب أعراقهم بل بحسب الدول التي ينضوون تحت لوائها.

على الرغم من أنّ صديقه لم يقتنع بهذه الفكرة الغريبة على ما يبدو، لكنه بالمقابل لم يحاول مناقشة الأمر، وبذلك عاد الأستاذ بنا إلى تحضيرات الحصار:

- قبل انطلاق الجيش من أدرنة جمع السلطان كل قادة جيشه ورجاله ووزرائه بمن فيهم الصدر الأعظم، فقد كان يدرك أنّ الخطط الحربية والأسلحة مهما كانت محكمة، فلا يمكن لها أن تحقق شيئاً على أرض الوقائع ما لم يرافقها همة الرجال الأشداء وعزمهم لتحقيق أهدافهم. وهنا أورد بعضاً مما علق بذاكرتي بحسب ما ذكر المؤرخ كريتوفولوس من خطبة السلطان الذي كان يبلغ 12 عاماً أمام رجالات الدولة وقادتها:

"أيها القادة الأبطال، يا رجال الدولة الأوفياء. هذه الدولة التي نحكمها والتي نحميها قد خاضت الكثير من الحروب العظيمة. وقد ورثنا هذه الأرض المباركة عن أجدادنا العظماء. وكبار السن بيننا يذكرون تلك الحروب الدامية والأيام العصيبة التي خاضوها. وأما الشباب فقد سمعوا عنها من آبائهم وأجدادهم. وقد قاموا بمهمتهم على أكمل وجه، والآن حان دورنا، ونحن على أبواب مهمة قاسية وكبيرة؛ وهي فتح القسطنطينية. فالبحر الذي يحيط بالمدينة تحت سيطرتنا، واليابسة كذلك، أي أنّ قبضتنا تحيط بالمدينة

بإحكام، وليس علينا سوى بذل أقصى جهدنا وفتحها، لنثبت للقاصي والداني بأننا خير خلف لخير سلف. وهذا أمر محسوم لا يقبل الجدال أو التراجع عنه.

وسأكون معكم خطوة بخطوة، سأكون مع جنودنا الأبطال في قتالهم لأباركهم، وسأراقب بعين ثاقبة من يتوانى ويضعف لأعاقبه، وسنحقق مرادنا بإذن الله، وسيكون النصر والمجد حليفينا".

كان رجال الدولة وقادة الجيش والعلماء ورجال الدين يستمعون لكلمات السلطان مقتنعين بكل حرف وكل كلمة، وقد وافق الجميع على كلماته من دون اعتراض على الإطلاق.

سكت للحظات، وقد بدت على وجهه العجوز ابتسامة ماكرة قبل أن يسألنا:

- ألستم متشوقين لمعرفة موقف الصدر الأعظم تشاندرلي خليل؟

كان سؤالاً مفاجئاً للجميع:

- فكما تعلمون يقال إنّ الصدر الأعظم كان معترضاً، ولكن هل أبدى اعتراضه هذا أمام السلطان أم بقي محتفظاً بالأمر لنفسه؟

واتجهت نظراته نحو السيدة جالة ولم يكن هذه المرة ينوي أن يؤنبها بل على العكس، ولكنها تحسباً لكل الاحتمالات بقيت صامتة.

- وأنت يا سيدتي؟ ألا يعتريك الفضول لمعرفة ردة فعل الصدر الأعظم الذي يعتبر من أقوى الرجال الذين تولوا هذا المنصب، وقد أبديت اهتماماً خاصاً به أثناء حديثنا؟

- بالطبع يا أستاذ.

- كلنا متشوقون لمعرفة الأمر ولكننا نتقي شرك.

بالطبع كان الشخص الوحيد الذي يمكن له أن يبدي هذه الجرأة في التحدث مع الأستاذ هو العجوز الذي يستمد قوته من ثقل السنين على كاهليه ولونها الفضي الذي يخالط شعره ليحوله إلى قمة جبل جليدي قديم.

ارتسمت ابتسامة واسعة على وجه الأستاذ الذي كان ينوي أن يرد على صديقه ولكن السيدة جالة تصرفت قبله وهي تخاطب السيد بحري:

- أنت تتجنّى على الأستاذ بهذا الكلام يا سيد بحري.

راقت هذه الكذبة الصارخة التي أطلقتها السيدة أمام نظراتنا الدَهِشة لشخص واحد؛ هو الأستاذ ولم تكتفِ بذلك بل أردفت:

- الأستاذ طاهر شخص محترم جداً ولا موجب لكي نخشى التحدث معه بكل راحة.

هذا الشعب الذي خضع لسيطرة أقوى الإمبراطوريات قد استوطن الخضوع لسلطة القوي نفسه في مزيج من الخوف والاحترام، لذا لم يستهجن بحري تصرف السيدة جالة ولم يعترض عليه، وربما لو مرّ بالموقف ذاته لتصرف بالطريقة ذاتها، بل اكتفى برسم ابتسامة ملغزة على وجهه. وعلى الرغم من أنّ الأستاذ حاول إغاظته وهو يقول:

- هل أرضاك الجواب؟

إلا أنّ العجوز ظل محافظاً على صمته، وهذا ما راقني لأننا سنتمكن مرة أخرى من العودة إلى أيام الحصار والأحداث التي جرت خلالها.

- لم يتجرأ تشاندرلي خليل الاعتراض على خطبة السلطان تلك، ولكنه بالمقابل كان معارضاً لفتح القسطنطينية. وكان يتحين اللحظة المناسبة لإبداء رأيه، وعلى الرغم من تداول روايات مغرضة تشير إلى أنه تلقى رشوة من الإمبراطور قسطنطين، ولكنها مجرد روايات لا دليل يؤكدها أو ينفيها، فالصدر الأعظم كان من أهم الرجال الذين اعتمد عليهم السلطان مراد الثاني، وكان بالإضافة إلى ذلك يتشارك مع السلطان الأب في ميله لإتباع سياسة السلام مع دول الجوار، لذا فدخول حرب جديدة من أجل فتح القسطنطينية لم تكن أمراً محبذا بالنسبة إليه. وسنعرض هذا الأمر مفصلاً بعد قليل.

- أوشكت تجهيزات الحصار على الانتهاء، واتجه كاراجا باشا على رأس جيش مؤلف من عشرة آلاف جندي للسيطرة على القلاع الواقعة بين أدرنة والقسطنطينية والخاضعة لسيطرة الإمبراطورية البيزنطية، واستولى عليها واحدة تلو الأخرى. وفي شهر شباط بدأ المسير نحو المدينة وتم

نقل المدافع، ولا تظنوا الأمر سهلاً على الإطلاق، فتلك المدافع الثقيلة الضخمة، ومن دون وسائل النقل الحديثة والتكنولوجيا المعاصرة، كانت تتطلب جهداً جباراً من أجل نقلها، ويقال إنه تم استخدام مئات الثيران في عملية النقل هذه، بالإضافة لمئات الجنود الذين يمسكون بها بإحكام طوال الطريق، وكان يسير أمامهم خمسون مهندساً ومئتا عامل من أجل رصف وترميم الطريق. هذه الرحلة الشاقة بقيادة كاراجا باشا والتي استمرت لأسابيع تمكنت من بلوغ الأسوار دون أي مشاكل.

أما السلطان محمد فقد غادر قصر أدرنة في منتصف شهر آذار تقريباً، وكان هذا إيذاناً ببدء العاصفة التي ستغير ملامح التاريخ إلى الأبد. ويقال إنه مكث لبعض الوقت في جاناكالة بانتظار جيشه القادم من الأناضول.

عاد ليسكت للحظات فيما الكل يترقب باهتمام بالغ بقية الأحداث.

– وقد أخبرنا مشتاق منذ قليل أن عدد أفراد جيش القسطنطينية كان يقارب العشرة آلاف جندي، وقد يكون أكثر من ذلك بقليل، ولكن من يعرف كم كان عدد أفراد جيشنا؟

– ثلاثمئة ألف.

أجاب بيامي الذي لم يستطع الحفاظ على سكوته أكثر:

– لا هذا كثير جداً. إنها روايات مؤرخي الغرب لإضفاء قوة أسطورية على محاربي المدينة ليُظهروا أنّ دحرهم تطلب جيشاً بهذا الحجم.

– خمسون ألف.

أجابت ذات العينين الجميلتين التي لم تسمعنا صوتها منذ مدة:

– وهذا رقم صغير بعض الشيء.

– مئة وخمسون ألفاً.

كانت إجابة السيدة جالة الأقرب إلى الصواب، وخطر لي حينها إن تورط العجوز في علاقة عاطفية مع هذه المرأة، فسيكون عقابه على ما ارتكبه اليوم بحقها وخيماً، فالمرأة لا تنسى أبداً إهانة تلقتها من رجل ما.

– مئة وستون ألفاً.



صحّح لها الأستاذ:

- فبربارو الذي كان شاهداً حياً على الحصار الذي تم خلف هذه الأسوار أورد هذا الرقم. ولكن البعض يعتبر حتى هذا الرقم مبالغاً فيه، ويرى أن العدد الحقيقي لأفراد الجيش كان يتراوح بين الثمانين ألفاً والمئة ألف. وبالطبع لو أضفنا إلى هذا الرقم التجار والعمال والحرفيين على اختلاف مهنهم والذين كانوا يرافقون الجيش وسواهم من المدنيين فالعدد سيزداد قليلاً.

وهنا اتجه نحو الأسوار وهو يرفع رأسه بشموخ، وكأنه سيصدر الأمر بالهجوم للتو:

- وأخيراً وصل السلطان مع جيشه العظيم واستقر أمام الأسوار في الخامس من نيسان.

اتجهت الأنظار نحو الأسوار وكأنها سترى السلطان على صهوة جواده الأبيض هناك:

- لا لا. - نبههم الأستاذ وهو يقول - لم يأتِ محمد إلى هنا، بل نصب خيمته السلطانية الحمراء التي كان يتلألأ قماشها الأطلسي مع اثني عشر ألف من خيرة الجنود الانكشاريين، وثلاثة آلاف من الجنود المنتقين بعناية، أمام هضبة أوتاغتيبي المقابلة لأيوس رومانوس أو ما يعرف اليوم بقصر توب كابي - وألقى نظر خاطفة على الأسوار - تخيلوا حال أولئك المساكين داخل الأسوار، فقد امتد الجيش العثماني من هنا وحتى يديكولى أي على مساحة تزيد على سبعة كيلومترات. وقد وصف المرحوم رشاد أكرم كوج ذلك المنظر المهيب بطريقة أدبية جميلة: "أصوات طبول الحرب وأناشيد النصر، والمارشات العسكرية، والجنود المدججين بالسلاح من رؤوسهم وحتى أخمص أقدامهم، والذين أتوا للقتل أو الموت، كلها كانت تشكل تلك الكتلة المرعبة والهادرة بصخب لا يتوقف، والتي كانت تبث هلعاً لا يوصف في قلوب أولئك المساكين المطلين عليهم من فوق الأسوار". أما السلطان الشاب فقد اجتمع فور وصوله مع قادة الجيش ووزرائه ليتأكد من

الأثر الذي تركه جيشه العرمرم في نفوس البيزنطيين.

وبحركة رشيقة لا يُتوقع أن يكون جسد هذا الثمانيني قادراً على القيام بها، التفت نحو البحر وهو يشير للجهة الأخرى من الشاطئ:

- سلّم السلطان وزيره زاغنوس باشا الأراضي الممتدة في الجهة المقابلة، وذلك لغايتين أن يبقى الخليج تحت مراقبته على الدوام والأخرى لبقاء سكان غالاتا من الجنويين والمشكوك في ولائهم تحت ناظريه. وكما تذكرون فقد حدثتكم عندما كنا في قصر دولما باهتشي أنّ زاغنوس باشا بذل جهوداً جبارة لإتمام مهمة نقل السفن براً بنجاح. وقد وفق أوامر من السلطان بناء جسر من البراميل الخشبية يربط بين هذه الجهة والشاطئ وكان يتسع لمسير خمسة أشخاص ومن القوة بحيث يتحمل ضربات الأسلحة الخفيفة.

توقف للحظات وكأنه نسي تفصيلا هاماً، وحين رفع رأسه متوجهاً بنظراته نحونا أدركت أنّ ذاكرته قد أسعفته:

- هناك حادثة أودّ نقلها لكم عن معركة بحرية صغيرة وسيكون حديثنا ناقصاً دون ذكرها. فكما تعلمون تم نقل السفن في الثاني عشر من نيسان إلى قبالة ميناء القسطنطينية مسببة هلعاً ودهشة كبيرة لدى المدافعين، ورغم أنها كانت ثابتة في مواقعها لا تقوم بأي هجوم أو تحرك، إلا أنّ الجميع كان يعرف حق المعرفة بأنها ستقوم بدورها على أكمل وجه في اللحظة الحاسمة. لذلك أراد المدافعون القيام بهجوم استباقي على سفننا، وفي الثامن والعشرين من نيسان وقبل الفجر بساعات قليلة باشرت سفينتان بالتحرك بصمت مستغلة حلكة الليل التي غاب عنها القمر، وكانت هناك أربع سفن إضافية تتبعهما للحماية، حيث تحركت من هذه الجهة للطرف المقابل. ولو تمكنوا هذه المرة أيضاً من إحراق السفن العثمانية فسيربحون الحرب النفسية ضد الأسطول العثماني وسيكسرون شوكته. وقد كانوا واثقين من النصر لدرجة كبيرة حتى أنّ قبطان السفينتين جاكوم كوكو غامر بالاقتراب ليصبح في مرمى مدافعنا، وكان يريد الحصول على شرف حرق

الأسطول العثماني. كانت السفينتان تقتربان بسرعة وصمت من سفننا، وفجأة ودون أن يعرف القبطان الجريء ما يحصل سقطت قذيفة مدفع على مقدمة السفينة وزرعت الهلع والبلبلة بين طاقمها، وقبل أن تتاح لهم الفرصة الابتعاد سقطت عليهم القذيفة الثانية وكانت القاضية حيث استقرت السفينة بكامل طاقمها في قعر البحر، وبعدها انهالت القذائف على السفينة الأخرى التي أصيبت بأضرار بالغة ولكنها استطاعت أن تبتعد عن مرمى مدافعنا وتولي الأدبار وهي حطام مهلهل وتعود من حيث أتت، أما السفن المكلفة بحمايتهما فقد هرعت بالالتفاف والهرب منذ أن سمعت صوت القذيفة الأولى. كانت هذه المعركة الصغيرة سبباً في رفع معنويات جيشنا بصورة كبيرة، وإنذاراً جدياً للمدافعين بأنّ أسطولنا ليس لقمة سائغة كما تراءى لهم.

على الرغم من توقفه عن الحديث إلا أنّ أنظار الجميع كانت متجهة نحو الخليج، حيث كانت المعركة تتجسد في مخيلة كل منهم بحسب ما يشاء.

- كما أخبرتكم منذ قليل فقد كانت الهضاب المطلة على الخليج تحت مسؤولية زاغنوس باشا.

عاد الأستاذ طاهر حقي يتجه بناظريه نحو الأسوار:

- أما هذه المنطقة.

وأشار بيده نحو بقعة الأرض ذات التضاريس المتنوعة والتي غطتها طبقة ثلج رقيقة أمام السد الحجري:

- فقد كانت من نصيب حاكم روملي كاراجا باشا؛ أي المنطقة الممتدة من أيفانسراي وحتى إريكابي، وكان يعسكر مع جيشه في هذه الهضبة المطلة علينا. أما القسم الممتد من إريكابي وحتى توب كابي فقد كانت تحت قيادة السلطان الشخصية، وهناك جرت أقسى المعارك وأشدها. ولأنّه كان يشك بوجود اتصالات بين الصدر الأعظم تشاندرلي باشا وحكام القسطنطينية فقد كان حريصاً أن يبقيه قريباً منه على الدوام.

أما المنطقة الممتدة من توب كابي وحتى يديكولى فقد كانت من نصيب كل من



حاكم الأناضول إسحاق باشا، ومحمود باشا والذي سيلعب فيما بعد دوراً تراجيدياً هاماً في حياة السلطان محمد الفاتح.

أما البحر الممتد من يديكولي وحتى مدخل الخليج فقد كان تحت سيطرة بالطا أوغلو سليمان مع أسطوله، وقد تحدثنا عن المعارك الدموية التي شهدتها هذه المياه بين الفريقين.

كانت هذه القلعة التي تشكل مركز استقطاب في العصور الوسطى ستحاصر لآخر مرة من قبل الجيش العثماني. ولكن قبل رمي قذيفة واحدة من قبل جيشنا أرسل السلطان السفراء إلى القسطنطينية وعرضوا على الإمبراطور تسليم المدينة من دون إراقة نقطة دماء واحدة وتعهد بحماية السكان وأموالهم وممتلكاتهم. وإخراج الإمبراطور مع حاشيته وأهله ليتم نقله إلى المكان الذي يختار وأكّد له بأن الشعب سيواصل العيش كما في السابق. ولكن لا الإمبراطور ولا سكان القسطنطينية كانوا أناساً جبناء، وأملاً بالدعم الأوروبي الذي سيصلهم ربما، أخبروه بأنهم يفضلون الموت على تسليم المدينة. وهكذا لم يجد السلطان الشاب أمامه حلاً سوى إعلان الحرب.

(34)

من يجهل تاريخه، يجهل نفسه

كان السلطان الشاب يتجول معظم الأحيان بين جنوده المجتمعين حول نيران المواقد، ويراقب باستمرار أولئك الحراس الذين يقفون بجسارة في الصفوف الأمامية بشواربهم المعقوفة الكثة التي يحرصون على تشذيبها باهتمام واضح، ويتجاذب الأحاديث مع الدراويش ورجال الدين الذي أعلنوا هذا الفتح جهاداً مقدساً لينضم الآلاف من كافة أصقاع البلاد إلى هذا الجيش ويلبوا نداء السلطان في التوجه نحو المدينة المنشودة. بالطبع، لم يكن يعرف أسماء معظم هؤلاء الرجال، ولكن ما كان يعرفه جيداً أنّ حياته وأقدار الدولة برمتها مرهونة بعزيمة هؤلاء الأبطال، وأنّ الحلم الذي كان يراود أجداده منذ قرن ونصف يوشك أنّ يتحقق. كانت الآمال والمخاوف تتناوب في ذهن السلطان وهو يرى جيشه الممتد أمامه، هل سيدخل ظافراً المدينة ويكون سلطان العالم كما كان يحلم، أم أنّ هذه الأسوار الجبارة ستقف سداً منعياً دون تحقيق أحلامه، لتجعل من أجساد جنوده جثثاً هامدة عند أعتابها؟ هل سيثبت قدرته كحاكم قوي، أم أنّه سيعود خائباً وربما يخسر عرشه للمرة الثانية. لا بدّ أن هذه الأفكار كانت تعصف به عندما وقف في إحدى الليالي المظلمة وهو يخاطب المدينة "أيتها المدينة التي يتمنى العالم كله امتلاكها، إما ستكونين لي أو سأكون لك".

انتابتني القشعريرة ليس من الهواء الذي بدأت برودته تزداد بصورة ملحوظة، بل من كلمات السلطان المؤثرة التي كررها الأستاذ على مسامعنا بهيبة. وتملكني إحساس غريب ليس بسبب الفخر الذي أكنّه لأجدادنا فحسب، بل لأننا كنا نقف في المكان الذي شهد أحداثاً غيرت مسار التاريخ بشكل كبير، وفي الوقت ذاته كان مسرحاً لآلام شعب سيخسر الكثير. في المكان الذي عاش أعظم الأمجاد وأكبر المآسي.



كانت قافلتنا الصغيرة في الحديقة الثقافية التي تتيح أفضل مشاهدة للأسوار الواقعة بين توب كابي وميفلانا كابي. لقد اختفت شمس الصباح الخجولة خلف السحب الرمادية الثقيلة التي كانت تزحف على سماء المدينة، وترسل إلينا ندفاً من الثلج والكثير من الهواء البارد الذي يلسع وجوهنا، ولكن الأستاذ لم يكن ليبالي بهذه العوائق، بل كان مستمراً في سرد مجريات الحصار التي حوّلها إلى رواية مشوقة الأحداث وكان يضيف إليها بين الحين والآخر مؤثرات عاطفية تعتمل في صدره المفعم بالحماس.

فداخل الأسوار كان المدافعون الذين حملوا جميع أنواع الأسلحة من سهام وسيوف وفؤوس ورماح ومدافع لحماية مدينة، وخارجها ذلك السلطان الطموح مع جيشه العظيم والمصر على الحصول على المدينة مهما كان الثمن.

وقد كان الطرفان بحاجة لأسلحة أخرى: الأمل والإيمان، العقل والقوة، النار والحديد، الشجاعة والتضحية، ولا بأس بالقليل من الحظ أيضاً. وكان كلاهما يتجهان بصلواتهما إلى الإله ذاته وإن بطرق مختلفة: احمي مدينتا أيها الرب العظيم. اجعل النصر من نصيبنا يا إلهي. ولكن كان هناك 54 يوماً قبل أنّ يتبين أي الطرفين اختاره الله ليكون معه.

في ليلة السادس من نيسان التي كان يتجول فيها السلطان الشاب بين جيشه، عاد إلى خيمته راضياً عما رآه- أكمل الأستاذ العجوز حديثه وهو ينظر إلى الأسوار- فقد كان هذا الحشد الذي يضم عشرات الآلاف يخضع لسلطته المطلقة، وكان قادة جيشه يتصفون بالعزيمة ورجال الدين بإيمان مطلق، وجنوده بشجاعة منقطة النظير.

- أعتذر يا أستاذ، يبدو أنني تأخرت قليلاً في طرح السؤال ولكن...

كان شاباً لم ألحظه من قبل، يعتمر قبعة بلون الغيوم التي تسبح فوقنا، وكانت عيناه السوداوان الواحدة أصغر من الأخرى، وتختلج بوضوح عند تحدثه:

- قبل قليل ذكرت بأنّ فتح القسطنطينية كان مسألة حياة أو موت بالنسبة إلى السلطان، ولكن وفي ظل عدم وجود شقيق آخر للسلطان، كيف يشعر بأنّ عرشه مهدد؟

نظر الأستاذ إليه بإمعان واضح لم أعرف سببه الحقيقي، أكان شعوره بالضيق



من سؤال الشاب، أم لأن السؤال بالفعل استرعى اهتمامه.

- هل أنت أيضاً من طلبة التاريخ؟
- لا يا أستاذ.

ازداد الاختلاج في عينه الصغرى:

- أنا فقط مهتم بالتاريخ، وبخاصة التاريخ العثماني. وقد ورثت هذا الاهتمام عن المرحوم والدي، والذي كان يردد على الدوام من يجهل تاريخه يجهل نفسه. ومن يريد معرفة حاضره يجب أن يعرف تاريخ هذه الأرض التي يحيا عليها. فمن يجهل تاريخه يجهل واجباته أيضاً.

يبدو أنّ هناك الكثير من نسخ والدي بين الجيل الأسبق، وفي الحقيقة كان تركيزهم على زرع المسؤولية ودفعنا للقيام بواجباتنا نقطة إيجابية. لذا شعرت بالتضامن مع هذا الشاب، وتمنيت ألاّ يكون والده قد زعزع ثقته بنفسه كما فعل والدي.

- لا أعلم مدى صحة معلوماتي يا أستاذ، ولكن بحسب قراءاتي فمن يستلم العرش يجب أن يكون من السلالة العثمانية. وفي ظل عدم وجود أمير آخر.
- هل أنت متأكد من عدم وجود أمير آخر؟

ارتسمت على وجه العجوز تلك الابتسامة الملغزة المحببة أثناء طرح أسئلة إشكالية من هذا النوع.

- ولكنني أعلم بأنّ جميع أشقاء محمد الثاني قد ماتوا.
- لا يشترط أن يكون الأمير العثماني شقيق محمد لينافسه على العرش.

وعندما شاهد نظرات الشاب الحائرة أكمل الشرح:

- صحيح، فقد مات جميع أشقاء محمد، ولكن كان هناك أمير آخر، وقد تحدثنا عنه هذا الصباح.
- الأمير أورهان

أردف بيامي:

- وكان يقيم في القسطنطينية.
- أجل الأمير أورهان. وبحسب البعض فهو ابن الأمير سليمان؛ أي حفيد

شقيق محمد الأول جد محمد الثاني، وبحسب آخرين هو عم السلطان محمد الثاني. ولكن ما لا يمكن إنكاره هو أنه من السلالة العثمانية، وبالتالي فهو يستطيع الاستيلاء على العرش بدلا من محمد الثاني. وبالتالي لو عاد السلطان خائباً، فلن تقتصر الخسارة على المعركة وحدها بل قد تطال عرشه أيضاً. ولن يتوانى تشاندرلي عن فعل أي شيء ليسلم العرش للأمير أورهان حينها.

ارتفعت همهمات الغضب والاعتراض من الحشد، وكأن عرش محمد المهدد مشكلة معاصرة يخشاها الشعب، لذا رفع الأستاذ العجوز يده ليسكت الحشد المعترض:

- لا أؤكد أنّ هذا ما كان سيحدث، ولكنه بالطبع كان أحد الاحتمالات الواردة. وإلا فما الذي يجبر دولة بقوة الدولة العثمانية لدفع فدية سنوية للقسطنطينية للحفاظ على حياة الأمير. ولا تنسوا أن الصدر الأعظم علي باشا والذي كان عم تشاندرلي قد ساند الأمير سليمان والذي كان الشخص المنافس لجد السلطان محمد الفاتح في معركة الاستيلاء على العرش. وكما أنّ الحروب الحقيقية أكثر وحشية من التحدث عنها بعد مرور كل هذه السنين، فالسياسة أيضاً كانت ولا تزال لعبة وحشية قذرة رغم مرور كل هذه السنين.

وكان السلطان الشاب على دراية تامة بخطورة الوضع الذي هو مقبل عليه، وكان يعلم أنه يواجه عدوين شرسين؛ الأول هو قسطنطين الحادي عشر إمبراطور القسطنطينية، وأما الثاني فهو أقرب رجال الدولة وأعظمهم شأناً؛ الصدر الأعظم تشاندرلي خليل باشا. وكان تحدياً كبيراً، ولكن السلطان محمد الثاني كان كفؤاً لمثل هذه التحديات فكما ذكرنا سابقاً كانت السُلطة تجري في عروقه، كما أنه قد اكتسب خبرة واسعة من المؤامرات التي تعرض لها لإبعاده عن العرش حين كان يافعاً.

نظر الأستاذ إلى الشاب النحيل وهو يكمل:

- هل توضح الأمر لديك الأمر، وأدركت أنّ السلطان الشاب كان محقاً في مخاوفه من الأخطار التي تهدد عرشه؟

وقبل أن يختفي الشاب النحيل وسط الحشد مجدداً هز رأسه بامتنان وهو يخاطب الأستاذ:

- شكراً يا أستاذ، لقد توضح الأمر.

بدأ الثلج يتساقط الآن بكثافة أكبر فاتجهت أنظار العجوز نحو السماء المثقلة بحملها، فيما كانت الندف تتساقط على قبعته الرمادية اللون لتذوب بعد لحظات.

- يبدو أنّ تساقط الثلج يزداد مع الوقت، علينا أن نسرع قدر المستطاع ونختصر جولتنا.

ولكن همهمات الاعتراض ارتفعت مجدداً من الحشد الصغير:

- لا، نحن لا مشكلة لدينا يا أستاذ.
- لا نشعر بالبرد.
- نحن مستمتعون بسماعك، أرجوك ألاّ تختصر الأحداث.

على الرغم من أنّ كبار السن كبحري وحتى السيدة جالة لم يرحبوا بهذا الحماس، لكنهم بالمقابل لم يبدوا اعتراضاً عليه.

- يتهمون التاريخ بأنه قصص مملة من الماضي، ولكن هل ترى يا مشتاق كيف يستمتع الناس بسماع أحداثه؟

ولم يظهر على العجوز الذي ارتفع الأدرينالين في جسده نتيجة حماسه، وتشجيع الحشد له، أنه يشعر بالبرد على الإطلاق، بل واصل سرد قصته بنشاط:

- على الرغم من أنّ الطقس لم يكن بهذه البرودة حين عسكر السلطان وجيشه العظيم أمام هذه الأسوار في شهر نيسان من العام ألف وأربعمئة وثلاثة وخمسين، إلا أنّ الربيع جاء متأخراً كما يقال، وكان المطر ينهمر بتواصل على الخيم المنصوبة في العراء، وقد تسبب بأضرار للحيوانات التي كانت ترافق الحملة. أياً يكن الأمر، فقد قام جنودنا بنصب المنجنيقات والمدافع في مواقعها المحددة ابتداء من صباح السادس من نيسان، وحددوا الأبراج التي ستتم مهاجمتها، والأماكن التي ستعلّق عليها السلالم في المساحة الممتدة من ساحل الخليج وحتى ساحل بحر مرمرة. ولكن المدافع لم تكن قد أطلقت نيرانها والسيوف لم تكن قد أخرجت من أغمادها بعد.

- ولكن يا أستاذ هناك بعض المؤرخين ممن يتحدثون عن هجوم قام به محاربو المدينة على المحاصرين.

كان هذا صوت الشاب العربي الأصل جورج يتكلم بثقل ملحوظ ولكنة واضحة:

- صحيح.

أيده الأستاذ:

- ففي بداية الحصار قامت ثلة من الجنود المتحمسين بالهجوم على الأسوار، وعندما لاحظ المدافعون أنّ الفرصة سانحة للتغلب عليهم، قاموا بفتح الأبواب وتمكنوا من التغلب عليهم، ولكنه مجرد حدث بسيط لا يقارن بأي حال مع جدية الحصار ولم يؤثر على مجريات الأحداث. والمعركة الحقيقية بدأت في الحادي عشر من نيسان أي في اليوم الخامس من الحصار حيث تم الانتهاء من نصب جميع المدافع في موقعها المحددة. تذكرون قصر بلاهيرنيا سراي، وقد رأينا أطلاله ونحن نغادر الخليج، حيث كان مقر إقامة الإمبراطور، هناك نصبت ثلاثة مدافع في مواجهته، وثلاثة في مواجهة سيليفريكابي، واثنان في مواجهة أدرنة كابي، وأربعة مدافع ضخمة في مواجهة أضعف نقطة في الأسوار - وأشار إلى نقطة في الجهة اليسرى من الأسوار - أي بوابة رومانوس والتي تقابل توب كابي. كانت قذائف المدافع تزن حوالى الخمسمئة كيلوغرام. وفي الحادي عشر من نيسان بدأت المدافع بإطلاق قذائفها الثقيلة هذه. ولا بدّ أنّ البقعة التي نقف عليها الآن قد غُمرت برائحة البارود الكثيفة، كما أنّ الجنود المكلفين بهذه المهمة كانت تغطيهم طبقة سميكة من السخام. كانت المدينة التي لم تهزها سوى الزلازل من قبل، تهتز الآن بفعل الأسلحة التي صنعها البشر. ولم ينقطع هذا الهدير المتواصل لأصوات المدافع الذي يصم الآذان حتى منتصف ليلة الثامن والعشرين من أيار بحسب روايات المؤرخين. وكانت هذه خطة السلطان محمد الثاني، وهي دكّ الأسوار من أجل فتح ثغرات فيها يدخل من خلالها جنوده المدينة. ولكنها لم تكن مهمة سهلة على الإطلاق، فهذه الأسوار التي كانت ترتفع أمامهم كجبال شاهقة لم تكن

تنوي الرضوخ بسهولة. ولا زالت الآثار ظاهرة للعيان حتى الآن.

واتجهت الرؤوس من تحت القبعات واللفاعات نحو الأسوار على الفور.

– هناك خندق أمام الأسوار وقد تحول إلى بساتين الآن. وإن شئتم الصدق فإن أشهى خضار إسطنبول تنمو في هذا الخندق بالذات. النعناع والبقدونس والطماطم التي تفوح منها رائحة شهية. أياً يكن الأمر، ففي نهاية ذلك الخندق تبدأ الأسوار الخارجية، وبعد مسافة قليلة تبدأ الأسوار الداخلية. أي أن جنود السلطان سيهاجمون الأسوار الخارجية في البداية ليهزموا المدافعين عنه، وبعدها سيجتازون تلك المسافة الفاصلة ليهاجموا الأسوار الداخلية. وقد كان عملاً يتطلب شجاعة كبيرة وجرأة منقطعة النظير. ولكن العدو قبل الصديق يشهد بأن جنودنا قاموا بهذه المهمة على أكمل وجه. فقد أورد نيقولا باربارو في مذكراته ما يلي:

"كان جنود السلطان يقتربون من الأسوار بجرأة كبيرة لا يخشون الموت، ويقاتلون كالأسود. وفي حال قتل أحدهم كان أصدقاؤه يهبون لأخذه وحمله فوق ظهورهم من أمام الأسوار مهما كان قريباً منها دون أن يبالوا بالسهام والنيران التي كان جنودنا يصوبونها نحوهم من فوق، وأحياناً كان يُقتل من يحمل الجثة أيضاً فيهب آخرون لحمل الجثتين، فقد كانوا يفضلون الموت على عار ترك جثث رفاقهم أمام أسوارنا".

أجل، كان هؤلاء الأبطال من يعسكرون أمام الأسوار، ولكن ماذا عمن كان يعيش داخلها؟

التفت جميع الرؤوس نحوي دون استثناء عندما طرح الأستاذ سؤاله:

– لا تنظر إليّ بامتعاض يا مشتاق، ففي العام ألف وأربعمئة وثلاثة وخمسين لم يكن هناك تلفاز لنقل الأحداث، وليس هناك أحد سوانا نحن الاثنين لنرويها.

في الحقيقة لم أكن مستاءً بل على العكس تماماً، ولكنني لم أشأ أن أظهر حماستي أمامهم.

– ولكن لما عليّ أن أتحدث عن الطرف المهزوم؟



تذمرت معترضاً:

– لما لا يحق لي أن أروي مآثر الجيش العثماني العظيم وانتصاراته؟

– لأن حس التعاطف لديك أعلى بكثير مما لديّ– التفت نحو الحشد– مشتاق يشعر بالحزن على المهزومين دائماً، وهو متسامح لدرجة أنه يظهر العطف حتى على أعدائه.

بدا وكأنه سيتوقف، ولكنه واصل حديثه كي لا يتيح الفرصة لهؤلاء الغرباء أن يظنوا بي الظنون:

– لذا فأنا لن أتحدث عن معاناة المحَاصرين

– حسناً يا أستاذ، كما تشاء.

يبدو أن موافقتي راقت له حتى بادر بالقول:

– لا يغرنكم كلامي، فمشتاق يعد من بين أفضل المؤرخين في سعة اطلاعه على هذا الموضوع بالذات.

– حسناً يا أستاذ يكفي مديحاً، ودعنا نعود لحديثنا.

ولكنه أضاف ببوح جدي هذه المرة:

– إن شئت الصدق يا بُني، فقد تعبت بصورة واضحة.

وكان هذا ظاهراً على صوته.

– إن أردت سأشرح أحداث كلا الطرفين يا أستاذ.

لكنه أجاب متصنعاً الغضب:

– لن أسمح لك بالاستيلاء على حصتي من الحكاية يا مشتاق، فلا تحاول.

صدرت قهقهات صغيرة من أفراد قافلتنا الذين جعلهم البرد والثلج المتساقط يقتربون من بعضهم بصورة أكبر:

– حسناً، لنعد إلى القسطنطينية حيث كنا نقول بأن الإمبراطور قسطنطين كان ينتظر الأسطول المسيحي المزمع إرساله. ولكن ورغم إحكام الحصار كطوق حديدي حول المدينة لم يظهر أثر للأسطول المزعوم، ومع ذلك لم يفقد المدافعون حتى آخر اللحظات أملهم في وصوله. لكن الإمبراطور أدرك في وقت أبكر من ذلك أنّ عليه الاعتماد على إمكاناته الخاصة من

أجل حماية مدينته والدفاع عنها. فقبل وصول الجيش العثماني قام بإنزال السلسلة الحديدية المعروفة تلك في مياه الخليج وذلك في الثاني من نيسان، وبدأ بعدها بإعادة حفر الخنادق المحيطة بالمدينة والتي ردمت بفعل الزمن، فآخر حصار شهدته المدينة كان في زمن السلطان مراد الثاني، أي قبل ما يزيد عن الثلاثين عاماً. وقد اشترك في العمل كل من يستطيع حمل معول، وبعد انتهاء هذه المهمة الشاقة قام بتوزيع الجنود في مواقعهم على الأسوار.

كان الأستاذ يراقبني صامتاً وقد وضع كلتا يديه في جيبي معطفه السميك.

- وكما أوضح أستاذنا قبل قليل وشرح لنا كيف تم اقتسام الأراضي المحيطة بالمدينة وتوزيعها على القادة والأمراء والوزراء، سأشرح لكم بدوري بالمقابل التقسيم داخل الأسوار. كانت مجموعة من أشد الفرسان تحرس منطقة كسيلوبورتا المحاذية للخليج، أما فوق، أي منطقة قصر بلاهيرنيا فكانت تحت حماية السفير جيرالومو مينوتو ورجاله، وبالفعل أظهروا بطولة نادرة، وأبقوا علم الإمبراطور الأحمر مرفرفاً فوق قصره حتى آخر لحظة من المعركة. أمام باب كاليغارايا الذي نسميه إريكابي والأسوار المحيطة به فقد كانت تحت قيادة ثيودور كاريستوس البندقي والمهندس الألماني جوهانس غرانت الذي كان له دور هام في حفر الأنفاق أثناء الحصار. أما المنطقة الممتدة حتى أدرنة كابي فقد كانت تحت سيطرة الأخوة بوكواردي، كان الأشقاء الثلاثة الذين ينحدرون من أصول راقية قد تكفلوا بتسليح فرسانهم وتأمين كافة مستلزماتهم طيلة فترة الحصار على نفقتهم الشخصية. أما جيوفاني جوستنياني والذي أبدى شجاعة نادرة في الحقيقة أثناء الدفاع عن المدينة فقد أوكلت إليه مهمة حماية أكثر المناطق أهمية، أي منطقة توب كابي، والتي شهدت كما ذكرنا سابقاً أشد المعارك وطأة وكانت نتيجتها حاسمة في تغيير أقدار المدينة.

وأشرت نحو الأسوار التي تمتد حتى ساحل بحر مرمرة:

- أما تلك الجهة فقد كانت تحت قيادة أهم شخصيات الجالية البندقية وهما

كاتارين كونتاريني وأندرونيك كانتاكوزينوس. أما الدوق لوكاس نوتوراس فقد كان على أهبة الاستعداد مع قوة متحركة من مئة فارس مجهزين لنجدة المناطق التي بحاجة لمساعدة.

- وماذا عن الأمير أورهان؟ يقال إنه انضم للمدافعين للمدينة، فهل هذا الكلام صحيح؟

كانت الشابة المحجبة التي لسع الهواء البارد خديها ليزيد من حمرتهما، تنظر إليّ بعينيها الجميلتين، ومن الواضح أنها لم تشأ أن تصدق أنّ شخصاً تجري في عروقه دماء عثمانية يضطلع بعمل كهذا ضد أبناء جلدته.

- للأسف هذا ما حصل، فقد كان يدافع عن منطقة ساماتيا مع فرسانه، فيما تركت المنطقة التي تليها تحت حماية الرهبان والقساوسة ورجال الدين لحمايتها.

- وكما لاحظتم فالأشخاص الذين ذكرتهم قبل قليل لم يكونوا بمعظمهم من البيزنطيين، وهذا يعني أنّ جيش المدافعين كما الجيش العثماني كان متعدد الأعراق، وكانت معركة بين شعوب من مشارب مختلفة، أليس كذلك يا أستاذ؟

- بالطبع نستطيع قول شيء من هذا القبيل، ولكن المعركة الحقيقية كانت بين الأتراك والروم البيزنطيين.

- ولكن بما أنّ الجيش العثماني كان متعدد الأعراق.

تدخل جورج ليؤيدني:

- فهل يصح أن نقول إنها كانت معركة بين الأتراك والبيزنطيين فقط؟

- ما الذي تقولونه؟

لم يكن الأستاذ المتعب من اعترض بهذه الحدة، بل صديقه بحري:

- أتقصدون أنّ من استولوا على إسطنبول لم يكونوا أتراكاً؟

- لقد أسأت الفهم سيد بحري.

- لا أظن ذلك على الإطلاق. فطوراً تحدثنا عن بطولات البيزنطيين، وطوراً تحدثنا عن استبسالهم في الدفاع، وكأنك لست راضياً عن فتح المدينة؟ لو



كنا نحن مكانهم هل كانوا سيمدحوننا بهذه الطريقة؟

يبدو أننا أثرنا غضبه بالفعل هذه المرة، وعندما لاحظ جورج جدية الأمر، عاد ليختفي بين سرب صديقاته، وحاولت بدوري أن أهدئ من روعه وأشرح له ما أقصده:

- دعني أوضح لك أمراً.
- لا توضح لي شيئاً. فما سمعته يكفيني. ألا يكفي أنّ أرضهم سُلبت منهم، ويريدون أن يسلبونا أمجاد ماضينا أيضاً، وأنت تدافع عنه وتؤيد هذه التقولات.

من الواضح أن التعب والبرد قد زادا من حدة غضبه، وكان ينوي أن يكمل اتهاماته لكن عجوزنا تصدى له:

- لحظة يا بحري، من الذي يطلق التقولات، ومن الذي يؤيده؟

وأشار برأسه نحوي:

- هذا الرجل الذي تتهمه هو أحد أهم المؤرخين الذي قدموا أفضل الأطروحات عن التاريخ العثماني، وأعماله هو وأمثاله من رجال العلم تحافظ على هذا التاريخ من الضياع.

راقني مديح أستاذي السابق لي حتى وإن كان مبالغاً فيه، ولكنني شعرت بالقلق لحدته:

- لا أهمية للأمر يا أستاذ.

تدخلت:

- بل له كل الأهمية. فهو لا يعلم جيداً من تكون.

وبدأت شفتاه ترتجفان من الغضب، وكان لسان حاله يقول لا ينقصنا سوى أحمق كهذا وسط هذه المعمعة التي نعيشها، وقد بدا أنّ الأحمق قد ندم على ما بدر منه وهو يقول:

- اسمعني قليلاً يا طاهر، وكفّ عن توبيخ الآخرين.
- إذاً لا تتفوه بما يدفع الآخرين لتوبيخك.

كان العجوز يزداد غضباً مع كل كلمة يقولها أو يسمعها، ومن الواضح أنّ سبب هذه الحدة لا يعود فقط إلى ما قاله صديق طفولته، بل بسبب التطرف المماثل للتاريخ

والذي أبداه تلاميذه أيضاً ضد نزهت والذي ربما كان السبب في حدوث جريمة قتل. فمثل هذه النقاشات كانت تدور كثيراً في المحاضرات التي يلقيها ولم يسبق له أن احتد بهذا الشكل، بل كان يناقش الأمر بالهدوء والموضوعية المعروف بهما، ولكن سبب غضبه ليس ما حدث في الماضي، بل الجريمة التي حدثت منذ يومين.

وعندما أدرك بحري أنّ صديقه لن يتجاوز الأمر التفت نحوي:

- لا بد أنك فهمت ما أرمي إليه سيد مشتاق، فأنا كنت أدافع عن تاريخنا لا أكثر.

تناهى إليّ صوت والدتي وبدا شبحها الرقيق من خلال ندف الثلج المتساقطة وهي تقول: "مشتاق على الدوام كان طفلا مسالما ودوداً"، ولكن لم ألقِ بالاً إلى شبحها الذي بات يظهر بتواتر خلال هذين اليومين، فتوجهت بحديثي نحو بحري:

- لا عليك، فأنا أفهمك تماماً. كما أننا نتناقش بشكل حضاري، فما من مشكلة.

واتجهت نظراتي نحو الأسوار تهرباً من نظرات أستاذي الغاضبة والتي كانت تقول لي إنّ ما حدث لم يكن حضارياً على الإطلاق.

- إذاً فقد قام قسطنطين بتحصين المدينة بأفضل طريقة ممكنة، ووزع جنوده المتمرسين على الأسوار التي كان يعسكر على الطرف الآخر منها الجيش العثماني الجرار بقادته ذوي الخبرة الواسعة في الحروب وجنوده غير الهيابين. لذا فقد كانت المعارك بينهما حامية الوطيس وخاصة في هذه المنطقة. وقد قام جنودنا بثلاث هجمات قوية على الأسوار تحت نيران المدافع التي لم تكن لتتوقف وكانت ترعد طوال الليل والنهار، والتحم جنود الطرفين حتى الموت ولم يتخلَ المدافعون عن مواقعهم. وكما تمكن الفاتح من دخول المدينة بفضل بطولات جيشنا الأسطورية، فقد ظل المدافعون لمدة 45 يوماً يحاولون الصمود بعناد أمام هذا الجيش الجبار.

- وماذا عن الخليج؟ من كان يدافع عنه؟

على ما يبدو فإن بيامي لا يستطيع البقاء صامتً لوقت طويل. وكأنه بصدد تأليف كتاب عن الفتح لذا فهو مضطر ليسأل عن أصغر التفاصيل ومعرفة كل الأحداث.

- كان اللاتينيون يقومون بحماية الخليج من خلال أسطول مؤلف من ست وعشرين سفينة تعود ملكية عشرة منها للبيزنطيين والبقية تعود ملكيتها للاتينيين. وكانوا تحت إمرة القبطان غابرييل تريفيسانو، وكان الجنويون الذين يقطنون غالاتا يقدمون المساعدات لأهل المدينة أيضاً. في الحقيقة كانوا يلعبون دوراً مزدوجاً ففي النهارات كانوا يقومون ببيع السلع والمواد لجيشنا، أما في الليل فكانوا يحاربون جنباً إلى جنب مع المدافعين عن المدينة. وكما هي الحال الآن كانت الحروب حينها مصدر رزق الكثيرين.
- كل يبكي على ليلاه.

أضافت البدينة زوجة بيامي:

- ولكن أستاذ مشتاق ما كان حال سكان المدينة، أقصد المدنيين لا بدّ أنّ الرعب كان يعصف بهم. ألم يفكروا في ترك المدينة بعد أن تم حصارها؟

رفعت كتفي وأنا أقول:

- وإلى أين سيهربون؟ فليس من السهل عليهم ترك مدينتهم التي يزيد عمرها عن ألف عام، كما أنهم كانوا يأملون أن يفشل الحصار كسوابقه.

ورغم بناء القلعة التي أحكمت السيطرة على المضيق وبالرغم من الجيش الذي أحاط بالمدينة من كل الجهات، إلا أنّ كبار السن منهم كانوا يتذكرون الحصار الذي حصل قبل ثلاثين عاماً ويمنون أنفسهم قائلين بأنّ الأتراك سيعودون خائبين هذه المرة أيضاً، ولكن البقية ممن كانوا يشاهدون هذا السيل البشري الذي زحف نحو المدينة واستقر متربصاً تحت أسوارها، ويسمعون هدير المدافع الذي لا ينقطع مختلطاً بصخب الجنود وأناشيدهم الحماسية وأصوات الطبول التي تدق لبث الحماسة فيهم، ويرون في المساءات النيران المشتعلة أمام الخيم والتي تشع بأعداد أكبر من نجوم السماء، كانوا يدركون حجم الكارثة التي تنتظرهم، ويبتهلون إلى العذراء مريم أن تحمي مدينتهم المقدسة، وينتظرون معجزة تبعد عنهم هذا البلاء.

(35)

سنقاوم حتى النهاية فإما النصر أو الموت

بدأ الضيق يخيم على أفراد قافلتنا وهي تستمع إليّ، فليس من السهل التماهي مع المغلوبين أو الاستماع إلى معاناتهم. ففي البداية شعروا بالفخر وهم يستمعون إلى البطولات التي أبداها السلطان مع جنوده والمشقات التي تكبدوها، وها هم الآن ينتقلون إلى الطرف الآخر حيث معاناة أهل المدينة ومخاوفهم ليتعاطفوا معهم. على الرغم من أنّ جنودنا ولمدة أربعة وخمسين يوماً كانوا يواجهون الموت في كل ساعة وكانوا يخوضون الوحل ويقاسون البرد ويسقط الكثير منهم شهداء كل يوم، إلا أنّ نهاية القصة كانت سعيدة بالنسبة إليهم، وتكللت الجهود الجبارة التي بذلوها بالنجاح، ولم تذهب الدماء التي أراقوها على هذه الأرض سُدى. فيما يقف هذا المؤرخ المجنون أمامهم ليروي لهم قصة أخرى، ويريهم الوجه الآخر من الحقيقة. "مشتاق شخص عطوف جداً وطيب القلب بصورة كبيرة" أجل، وبسبب طيبة قلبي هذه التي تحولت إلى مرض نفسي، تورطتُ في الكثير من المشاكل، وتلقيت الكثير من الصدمات حتى أنني عرضت حياتي للخطر. لا لست أنا بل نزهت من خاطرت بحياتها، وليس بسبب طيبة القلب بل نتيجة طموحها الذي أودى بها للموت. فهي لم تكن على الإطلاق شخصاً يفكّر في الآخرين، وربما كانت محقة في هذا الشأن، فالحزن على الآخرين ومشاركتهم آلامهم والعطف الزائد عليهم، قد يسبب التعاسة لك ولمن حولك أيضاً. كما حدث مع هؤلاء المساكين الذين جاؤوا للتمتع بجولة تاريخية بمناسبة الفتح العظيم. ولكن مؤرخاً مأفوناً مثلي يأتي ليبلبل أفكارهم ويُذهب بفرحتهم. أجل مأفون. فمهمة المؤرخين ليست التأسف على المهزومين بل الكشف عن الحقائق بحيادية قدر الإمكان من دون التورط في صبغها بمشاعرهم الشخصية. ولكن الذين على شاكلتي من الفاشلين، وبدل سرد الحقائق يتورطون في حديث



تراجيدي عن مشاعر المهزومين ومعاناتهم. أحقاً الموضوع بهذه البساطة، ويمكننا التجرد من مشاعرنا؟ ولكن ماذا عن البشر ومعاناتهم؟ هل يكون التاريخ حقيقياً دون التطرق إلى المشاعر البشرية؟ وهل يمكن لدولة أو جيش أو تاريخ أن يتواجد دون هؤلاء الناس؟ بدأ ذهني يتورط في أمور فلسفية ويتطرق إلى مواضيع شائكة لم يتمكن الفكر الإنساني حتى الآن من البتّ فيها. كما أنني لم أتطرق إلى الأمر عامداً، فهذا ما أنا عليه في كل الحالات، وهذه هي نظرتي إلى التاريخ. كنت أراه من خلال عيون المهزومين. وأعترف أنها قد تكون زاوية قاصرة للنظر منها.

الغريب في الأمر أنّ الأستاذ طاهر أيضاً لم يعترض على انغماسي التراجيدي في سرد الأحداث، ولو كانت الظروف مغايرة لعمد على الفور إلى إنهاء هذا السرد العاطفي الذي قمت به، ليس بالحدة التي تصرف بها مع السيد بحري، ولكن بأسلوب أكثر ليناً ودبلوماسية وبالطبع أكثر نجاعة. وكان سيوضح لي أنّ التعاطف مع أحد الأطراف سمة للأعمال الفنية وليس لبحثٍ علمي جاد، كما أنّ هذا التعاطف لا طائل من ورائه ولن يغير من أحداث الماضي في شيء. وقد كان محقاً فالتورط في تعلق عاطفي مع المنتصرين أو المهزومين سيبعدنا عن الموضوعية العلمية، وسيكف العمل عن كونه تأريخاً علمياً بل سيتحول إلى سرد تحكمه إيديولوجيا طرف ما. ولكن الأستاذ تركني أتصرف كما أشاء دون أنّ يتدخل، ربما بسبب إحساس الذنب الذي كان يثقل على وجدانه، وإدراكه أنه تورط في جريمة قتل نزهت بشكل متعمد أو غير متعمد. وربما كان يودّ لو ننتهي من الجولة بأسرع ما يمكن ليذهب للتحدث مع جتين.

وما إن أنهيت كلامي حتى استلم دفة الحديث مرة أخرى، ليعود بنا إلى المعارك التي كان جيشنا يخوضها أثناء الحصار:

- لقد قام جيشنا بأربع حملات رئيسية على الأسوار أثناء الحصار؛ كانت الحملة الأولى في الثامن عشر من نيسان أي في اليوم الثاني عشر من الحصار، فقد سببت نيران المدافع التي كانت تواصل العمل بتواتر محموم، أضراراً بالغة السوء في السور والمدافعين على حدٍّ سواء، وكبّدتهم خسائر بالغة في الأرواح وفي العتاد. كما أنّ جنودنا الأبطال لم يتوانوا عن الهجوم

عند أدنى فرصة. ولكننا لا نستطيع أن ننكر أنّ المدافعين لم يكونوا أقل بأساً وحزماً، فقد كانوا يقومون بترميم الأسوار على الفور، وعندما لا تتاح لهم الفرصة يسدون الثغور بأكياس الرمل أو جذوع الأشجار أو أي شيء يصلح لدرء المزيد من الضرر والخطر. وكان السلطان الشاب يعتقد بأن الوقت قد حان ليقوم أبطاله بهجوم عنيف على الأسوار وذلك ليتحقق من قوة جنوده من جهة، ومن جهة أخرى ليرى مدى مقاومة أعدائه.

تم الهجوم في لجة الليل الحالك حيث اتجه الانكشاريون نحو الخنادق بصمت مطبق، وعندما اقتربوا مسافة كافية قاموا بإيقاد المشاعل وأخذت أصوات الطبول تهدر في سكون الليل كهزيم الرعد وترافقها أصوات التكبير المجلجلة، لينقضّ جنودنا بحماس منقطع النظير على الأسوار.

قاموا بتعليق خطافات السلالم الحبليّة على الأسوار، وأخذوا يتسلقون بسرعة من دون أن يهابوا المدافعين الذين وإن تأخروا في إدراك الهجوم، إلا أنهم استعملوا كل أنواع الأسلحة من سهام نارية ورماح وحراب ومدافع وسيوف وفؤوس. وكان يترأسهم جيوفاني جوستنياني الذي تسبب حقاً بالكثير من القلاقل لجيشنا.

كانت محاولة جريئة، واستمرت لأربع ساعات من القتال المحموم، ولكن للأسف اضطر جيشنا للانسحاب بعدها. وبالطبع لم يكن السلطان ساذجاً ليتوقع أن يؤدي هذا الهجوم لفتح المدينة، ومع ذلك فلم يكن انسحاب جيشنا بالأمر الهين بالنسبة إليه.

وكما يقال بأنّ المصائب لا تأتي فرادى، فقد تعرض أسطولنا في العشرين من نيسان للهزيمة التي تحدثنا عنها سابقاً. ولكن السلطان الذي لم يكن يعرف ما هو الاستسلام انهمك في العمل بعزيمة لا تلين. وفي الثاني والعشرين من نيسان كان أسطولنا يرسو في ميناء القسطنطينية، وهذا ما جعل معنويات العدو تلامس القعر.

بدأ يدقق في الحشد الصغير بنظرات متفحصة كمعلم ينوي التأكد من أن تلاميذه يتابعون ما يقول.

– أتعلمون عن أي شيء أتحدث؟

وأخذت القبعات التي تغطيها ندف الثلج تومئ بالإيجاب لتختلط الأصوات:



- بالطبع نعلم. نقل السفن عبر اليابسة.

نظر إليهم الأستاذ وهو يتابع:

- حسناً، ومتى تعرض أسطولنا للهجوم؟ ذلك الهجوم الذي كان ينوي حرق السفن في الخليج بعد أن رست فيه؟

- الثامن والعشرون من نيسان/ أبريل.

أجابت السيدة صديقة العجوز وربما زوجته المستقبلية:

- والقبطان الذي أغرقنا سفينته اسمه جاكومو كوكو.

كانت تتكلم بحيوية وكأن الخلاف الذي حدث منذ قليل مُحي من ذاكرتها القصيرة، ويبدو أن حماس جنودنا انتقل إليها عبر كلمات الأستاذ.

- أجل كان القبطان الذي غرق مع سفينته جاكومو كوكو.

أعاد الأستاذ كلماتها:

- وهذا الحدث بالذات تسبب في شرخ على جبهة الأعداء، أليس كذلك يا مشتاق؟

كنت أحركُ قدميّ في موضعهما علني أشعر ببعض الدفء يسير في عروقي حين فاجئني الأستاذ بسؤاله.

- أجل. أجل.

نظر إليّ بعد أن صمتت وتلعثمت للحظات، كمن يقول إذاً ما الذي تنتظره؟ لذا عاد إليّ دور الحديث مجدداً:

- كما شرح لنا الأستاذ فقد كان المدافعون ينوون الانقضاض بشكل مفاجئ على الأسطول الراسي في الخليج وحرق السفن. وقد كانت هذه الخطة التي أُعدت بإحكام وصمت مطبقين كما كانوا يتصورون، لكن السلطان العثماني الجسور كان يعلم بأمر الهجوم منذ اللحظة الأولى، فقد كان للتجسس كما الآن أهمية كبرى في ترجيح كفة النصر، كما أن السلطان كان يغدق بسخاء على الجواسيس الذين كانوا ينقلون له أخبار الأعداء. ولم يطلع السلطان الذي علم بالهجوم أحداً على الأمر بل بدأ بالتحضير لخطته بسرية مطلقة كامناً ينتظر. وكما تعلمون فقد منيت المحاولة بالفشل الذريع

والذي كان سبب الشرخ الذي تحدثنا عنه، فقد اتهم البنادقة جنويي غالاتا بأنهم من أطلع العثمانيين على الخطة، ونشب خلاف كبير بين الجهتين تدخل قسطنطين من أجل إخماده، ولكن ظلت الشكوك تراود البنادقة تجاه الجنويين من جهة والبيزنطيين تجاه اللاتينين من جهة أخرى طوال فترة الحصار.

– لقد كان أمراً لصالحنا بالطبع.

علق الأستاذ قائلاً:

– وليت هذه الشكوك أدت إلى تمزيق وحدة صفوفهم، ولكن للأسف هذا ما لم يحدث، فذلك الجيش العظيم الذي كان يحاصرهم خلف الأسوار كان يضطرهم للتوحد.

كانت الحملة الثانية بعد النصر الذي حققناه في الخليج بعشرة أيام؛ أي في السابع من أيار، وقد طغت رائحة الربيع على رائحة البارود ونيران المدافع وبدأ الدفء يسري في العروق ليزيد من حماسة المهاجمين الذين أصبحوا يندفعون نحو الأسوار بعشق يخالط الشجاعة. وفي إحدى تلك الأمسيات الرطبة الدافئة قام جنودنا بالهجوم مرة أخرى على الأسوار، وعندما نتحدث عن الأسوار فنحن نعني المنطقة الواقعة بين أدرنة كابي وتوب كابي. فبعد غروب الشمس بقليل وفي لحظة لم يكن العدو يتوقعها، اتجه ما يقارب الثلاثين ألف جندي مدججين بكافة أنواع الأسلحة نحو الأسوار دون أن يخافوا من وابل السهام والحجارة وقذائف المدافع التي بدأت تمطرهم بغزارة. فقد كانوا مصممين على دكّ هذه الأسوار العملاقة ودخول المدينة. استمرت المعركة طوال ساعات عصيبة ومجدداً اضطر جيشنا للانسحاب دون نتيجة تذكر. ولكن لم يكن هناك مجال للاستسلام والتراجع، ففي اليوم الثاني عادت قذائفنا تنهمر بغزارة أكثر من السابق ودون توقف ولو للحظة على هذه الأسوار في امتحان عظيم لإثبات صمودها.

كان الهجوم الثالث في الثاني عشر من أيار ولكن هذه المرة اختار السلطان نقطة أخرى للهجوم عليها، وهي المنطقة الواقعة نهاية الخليج أي إريكابي، من جديد تسلح الجنود حتى الأسنان واندفعوا نحو الأسوار بحماس ترافقهم المدافع

والمنجنيقات والسهام النارية ومن جديد اضطررنا للانسحاب.

بالإضافة إلى الشجاعة المنقطعة النظير والتضحيات الكبيرة التي كان يبديها كل من الجيش والأسطول، ستظل قصة فتح المدينة ناقصة دون التحدث عن المحاولة الجريئة والتي لا تخطر على بال، وهي حفر الأنفاق تحت الأسوار للوصول إلى المدينة والتي سميت بحروب الألغام، حيث كانت فرقة الألغام تتبع لزاغنوس باشا الذي أحضر هؤلاء الخبراء في حفر الأنفاق من صربيا. تم حفر النفق الأول بالقرب من أدرنة كابي ولكن التربة كانت قاسية مليئة بالصخور لذا تم تغيير الموقع نحو إريكابي، وذلك للوصول إلى الأسوار التي تحيط بقصر بلاهيرنيا والعبور من تحتها لداخل المدينة. ولكن للأسف فقد علم المدافعون بأمر الأنفاق في السادس عشر من أيار، وقامت مجموعة منهم تحت قيادة المهندس جوهانس غرانت بحفر نفق مقابل وعندما أدركوا بأنهم اقتربوا من أنفاقنا قاموا بملئها بالبارود والمتفجرات التي تسببت بقتل العشرات من جنودنا داخل تلك الأنفاق. ولكن على الفور تم حفر المزيد منها، وكان غرانت كصياد محترف يترصد ويفجر أي نفق يكتشفه. وقد استمرت هذه المعركة الجوفية بين الطرفين حتى آخر أيام الحصار.

- يتحدثون عن برج خشبي عملاق بني وتم جره بواسطة الدواليب التي وضعت أسفله ووضع قبالة الأسوار.

كانت الفتاة ذات رائحة البنفسج من يتحدث هذه المرة:

- هذا صحيح. فالسلطان الذكي كان يفاجئ المدافعين كل يوم باختراع جديد. ففي صباح الثامن عشر من أيار أصاب الهلع سكان القسطنطينية وهم يشاهدون هذا البرج العملاق ينتصب أمامهم فجأة؛ ذلك أن هذا العمل الجبار بني في ليلة واحدة. وتم وضعه على عربة خشبية وقد غطي بطبقات من جلود الجواميس والجمال وفي أعلى البرج كانت توجد شرفة كبيرة يتم الصعود إليها بواسطة سلم داخلي، بحيث إن استطاعوا وضع البرج لمسافة قريبة من السور وتمكن جنودنا من الوصول إليها، فسيشكل ذلك ضربة قاصمة للمدافعين. وفي صباح الثامن عشر من أيار كان جنودنا يجرون هذا البناء العملاق نحو الأسوار، ويمهدون الطريق ويسيرون بالعربة من جهة،

ومن جهة أخرى يتصدون لنيران العدو وسهامه الذي أدرك النتائج الكارثية المترتبة على نجاح هذه المحاولة. لذا، قام بإرسال فرقة من الفدائيين لمقاتلة جنودنا، ولن نقول بأنّ محاولتهم باءت بالفشل، ذلك لأن جنودنا لم يتمكنوا من تقريب البرج من السور.

لم يتمالك بحري الفضولي نفسه عن السؤال، ولكن المفارقة أنّ تلك الطبقة الجهورية قد زايلت صوته بفضل التوبيخ الذي ناله قبل قليل.

– أعلم أنك قد تغضب الآن أيضاً من سؤالي يا طاهر، ولكن من يسمعك يظن أنّ جيشنا من تعرض للهزيمة. ففي نهاية كل حملة تقول إننا اضطررنا للتراجع. هلا تخبرني إذاً كيف تمكننا من السيطرة على المدينة؟

حدج العجوز صديق طفولته للحظات طالت أكثر مما ينبغي، وتصورت في النهاية أنّ بحري سيتلقى توبيخاً أقسى من سابقه، ولكن العجوز المحنك خيب ظني هذه المرة أيضاً وهو يقول بهدوء لصديقه الفضولي:

– لا تقلق يا بحري، ستصبح المدينة لنا في النهاية، ولكن اصبر قليلاً.

ولم يمنحه فرصة الكلام مرة أخرى حيث توجه إلى الحشد وهو يكمل:

– مجرد إعادة سرد تلك الأحداث يسبب لنا الضيق نتيجة الخيبة التي منيت بها محاولات الهجوم، فما بالكم بما كان يشعر به الجنود حينها، والضيق والكدر الذي كانت تسببه كل هذه الخسائر. وهذا ما دفع بعض الأصوات المغرضة حينها بالارتفاع مستغلة الفرصة، وكانوا يرددون بأن هذه المدينة أقوى من أن نتمكن من السيطرة عليها، وأننا نحاول منذ أكثر من سبعة أسابيع ورغم ذلك فكل المحاولات تبوء بالفشل، وسيكون من السذاجة القول بأن هذه الحرب المعنوية لم تأثر على جنودنا سلباً.

وبالطبع فقد كانت هذه الأخبار تصل إلى مسامع السلطان على الفور، وهذا ما دفعه لإتباع تكتيك جديد، حيث بعث بالرسل إلى الإمبراطور يطلب منه مجدداً تسليم المدينة لوقف الدماء المراقة وحفظ أرواح الطرفين، وتعهد بحامية الناس وأموالهم ومعتقداتهم، وسلامة جميع السكان دون استثناء، لكن جواب الإمبراطور كان حاسماً فقد أخبره أنّ ما من سلطة تخوله تسليم القسطنطينية وكل ما يستطيع تسليمه الآن هو

روحه هو وجنوده دفاعاً عن المدينة.

في تلك الأثناء، كانت الخيمة السلطانية تستضيف سفير المجر الذي جاء ليخبر السلطان بأن فلاديسلاف قد استلم العرش، وقد اجتمع السفير بالصدر الأعظم تشاندرلي خليل باشا للتحدث حول وقف الحصار، وإقناع السلطان بالأمر وإلا سيضطرون لمناصرة البيزنطيين. كما أنّ البابا أرسل أسطولاً مكوناً من ثلاثين سفينة حربية وهو يقترب من المدينة، وقد انتشر هذا الخبر كالنار في الهشيم في وسط معسكرنا.

لذا اضطر السلطان الذي أدرك خطورة الوضع إلى عقد مجلس عسكري على الفور، ولم يكتفِ باستدعاء وزرائه وقادة الجيش فحسب بل ورجال الدين وكل القادة ذوي المراتب الهامة، ولكن صوت تشاندرلي خليل كان يرتفع بجرأة أكثر من المعتاد في هذا الاجتماع، وهو يدعو إلى إيقاف الحصار والانسحاب، متذرعاً بأن الجيش سيصبح محاصراً من قبل الأسطول البابوي القادم من البحر والجيش المجري الذي سيأتي من الخلف والمدافعين القابعين في الأمام، وبذا ستكون خسائره أكبر من أن يستطيع تحملها.

كان اجتماعاً قاسياً سيحدد مصير سابع السلاطين العثمانيين وقدر القسطنطينية، وقد كان الصدر الأعظم محقاً في رأيه، فهذا الحصار الذي بدأ منذ أكثر من خمسين يوماً لم يحقق أي نتيجة فعلية على أرض الواقع، ومن الصعب أن يستطيع تحقيق ذلك بعد الآن. فيما كان السلطان يحدق إلى نقطة محددة دون أن يحول بصره عنها وهو يستمع بصمت مطبق لكلمات سليل العائلة التي تخدم أجداده منذ أجيال، وربما يكون أكثرهم خبرة وتجربة. ومع كل كلمة جديدة كان حنقه يزداد ولكن كان يعض شفته السفلى ويحاول ألا ينظر إلى أحدٍ حتى لا يُلحظ ما يعتمل في صدره اتجاه هذا الرجل الذي قام قبل سبع سنوات من الآن ونتيجة مكيدة قذرة بإبعاده عن العرش.

وبعد أن أنهى الصدر الأعظم كلماته غطى صمت جليدي على الجميع، فهل كان بفعل الندم على التهور الذي بدر منهم وأدى إلى الفشل، أم بفعل الحزن والأسف على ضياع الحلم مرة أخرى؟ وفي تلك اللحظات الحاسمة استلم زاغنوس باشا دفة الحديث. كانت عيناه تقدحان شرراً وتلمعان كنصلي خنجر دمشقي، وبشرته قد

لوحتها شمس الربيع حيث كان يعمل لساعات طويلة ويحرص أن يظل طوال الوقت منتصب القامة رغم التعب والجهد الذي لا بدّ أنه يشعر بهما. وقد بدأ كلامه وهو يقول إن الصدر الأعظم مخطئ فيما يقوله، وأنّ مجرد التفكير في إنهاء الحصار لهو أمر يدعو للخجل، وأنّ القسطنطينية مثخنة بالجراح والخسائر الآن، والفتح قاب عدة حملات باسلة أخرى، كما أنّ إرسال الجيش المجري هو مجرد كذبة كبيرة، وذلك الأسطول البابوي ليس أكثر من قصة خيالية. وأنّ أعدائنا لن يتحدوا على الإطلاق لأن الدين أهم لديهم من هذه المدينة، ثم نظر إلى السلطان متوسلاً وهو يقول له إن القسطنطينية قاب قوسين أو أدنى منه، وهي تمكث خلف الأسوار جريحة صامتة تنتظر دخوله الظافر، وسيكون من الظلم التخلي عن أملنا في هذه اللحظات والعودة إلى الخلف.

رفع السلطان نظراته عن تلك النقطة اللامرئية التي تعلق بها، وعادت عيناه تتقدان كما زاغنوس باشا، ولكن قبل أن يبادر بالكلام نظر إلى أستاذه الشيخ آك شمس الدين الذي قال له: "زاغنوس باشا محق في كلماته، فهذه المدينة هي قدرك، ولا يحق لك أن تدير ظهرك لما قدره المولى عزّ وجل لك، سيكون ذلك خيانة لشهدائنا الذين تراقبك أرواحهم الآن وتنتظر يوم الفتح. ولا تشك أبداً في أنّ النصر سيكون من نصيبك، فأنت من سيحقق حلم جدك، وأنت المقصود بحديث رسولنا الكريم، وأبطالنا معك والقدر حليفك. أنظر أمامك وسترى القسطنطينية تنتظرك لتدخلها ظافراً، فما من داعٍ للانتظار أكثر".

لم يعترض الصدر الأعظم هذه المرة، وكان السلطان ينظر إلى قادة الجيش ووزرائه وكأنه لا يرى تشاندرلي وكأن هذا الشخص لم يكن موجوداً هناك ولا في أي مكان آخر من حياته. كان ينظر إلى البقية واحداً تلو الآخر وهو يتكلم ليحسس كلاً منهم بالأهمية "أيها الباشاوات الأكفاء، يا رجالي المخلصين ويا أبطالي ورفاق سلاحي الشجعان. عندما وصلنا إلى أمام أسوار هذه المدينة كانت تحيطها خنادق كالوديان، وأسوار كالجبال وبحار مليئة بفخاخ الشيطان. ولكننا ردمنا الخنادق يداً بيد، وزلزلنا الأسوار بنيران مدافعنا، وبسطنا سلطتنا على البحار، وأصبحت القسطنطينية محاصرة من كافة الجهات. نحتاج حملة أخرى، نحتاج العزم والإخلاص والطاعة،

وأنا أعلم بأنكم لم تبخلوا بكل هذا منذ خمسين يوماً وحتى الآن. لأن تضحياتكم العظيمة لا تسعها الكلمات وبطولاتكم النادرة لا مثيل لها. ولكن النصر بات وشيكاً، فهذا الحصار المستمر منذ خمسين يوماً قد كسر مقاومة المدافعين وحطم آمالهم، وهم الآن في وضعٍ يرثى له. حملة أخرى. حملة أخيرة. وستصبح بعدها ملكة المدن من نصيبنا". وقد كانت تلك الحملة ليلة الثامن والعشرين وصبيحة التاسع والعشرين من أيار/ مايو.

صمت الأستاذ للحظات، ولم يكسر صمته أحد من الحضور وكأنما لتترسخ الكلمات والصور في ذهنهم أكثر، حتى ندف الثلج كانت تبتعد مع الريح لتتيح لهم فرصة البقاء أكثر والاستماع إلى الأستاذ الذي أخذ نفساً عميقاً ليقص علينا مجريات الحملة:

– ولكن من كان محقاً؟

تدخل بحري مجدداً، ولم يبدُ الرجل المتحمس في دفاعه عن تاريخ أجداده هذه المرة وكأنه يبحث عن الذرائع ويتصيد ما تحت الكلمات، بل كان يسأل بصدق:

– أحقاً كانت المدينة جاهزة للاستسلام؟ أم أنّ الفاتح كان يحاول رفع معنويات رجاله؟

هزّ الأستاذ رأسه بجدية كبيرة وهو ينظر إليه كأنهما كان في ذلك المجلس العسكري، وكأنهما مقبلان على فتح المدينة للتو، وبدأ يشرح وجهة نظره:

– كلاهما كان محقاً، فالمدينة كانت في وضع يرثى له، لكن المدافعين المتحصنين بأسوارها لم يكونوا ينوون الاستسلام بعد. فعلى الرغم من اليأس والإجهاد والخسائر الكبيرة، كانوا لا يزالون يملكون القوة من أجل الاستمرار في القتال، ويملكون العزيمة للدفاع عن المدينة وحتى الموت في سبيلها.

توقف للحظات قبل أن يكمل:

– ولكن على رسلك، فلن أكتفي بهذا القدر فقط.

عادت تلك الابتسامة المحببة لترتسم على وجهه وهو ينظر إليّ:

– حسناً، بروفيسور مشتاق أعتقد أنك ستتولى مهمة الشرح الآن.



وقد بدا كمراسل حربي ينقل الأحداث من أرض الواقع.

- تفضل فنحن نسمعك، أخبرنا كيف كانت أوضاع القسطنطينية قبل عدة أيام من التاسع والعشرين من أيار/ مايو.

بدأت بالحديث على الفور حتى لا نفقد ذلك الجو الحماسي الذي أضفاه العجوز:

- كانت مرعبة.

كانت وصفاً محبطاً بعد تلك الأحداث الحماسية التي سردها الأستاذ على مسامعنا منذ قليل، ولكن كيف السبيل إلى تجميل حقيقة أفظع بكثير مما تحمله الكلمات.

- أجل كانت مرعبة، فبعد مرور خمسين يوماً وإصرار المدافعين على الصمود، كان الناس يعيشون وسط كابوس لا ينتهي سواء أكانوا نياماً أو مستيقظين، وبدأ الحصار الذي يحكم قبضته على المدينة من معظم الجهات يتسبب بمشكلة نقص الغذاء. وكان الناس يخافون من انتشار الأوبئة، كما أنّ أشرعة السفن التي وعد البابا بإرسالها لم تكن تلوح في الأفق رغم مرور كل هذا الوقت. وكما ذكرت سابقاً لم يعد للناس من أمل في إيقاف هذه الكارثة سوى التضرع للعذراء. ولكن النبوءات التي كانت تنتشر بين الحين والآخر لم تكن علامة خير على الإطلاق، وقد وقعت حادثة في تلك الأيام زادت من تفاقم اليأس بين الأهالي.

فقبل التاسع والعشرين من أيار بأيام خرج رجال الدين في مسيرة من الخليج وحتى بحر مرمرة وهم يحملون صور وتماثيل العذراء ويرددون الأدعية والابتهالات الدينية، وكانوا ينوون الاتجاه نحو الأسوار لرفع عزيمة المدافعين من جهة، وطلب عون القديسين من جهة أخرى. ولكن ما إن بدأوا المسير بقليل حتى سقط تمثال العذراء، وبدا لوهلة وكأنه التصق بالأرض حيث لم يتمكنوا من رفعه إلا بعد جهد جهيد، ولكن الأمر لم يتوقف عند هذا الحدّ، فعندما عادوا لإكمال مسيرهم من جديد، بدأت أمطار غزيرة بالانهمار، وخلال دقائق اجتاحت السيول شوارع المدينة، ولو لم يقم الكبار بالإمساك بأطفالهم وحملهم، لكنت السيول جرفتهم حتى البحر. وهكذا

انتهت المسيرة واعتبر الناس الأمرَ نذير شؤم، ولكن الآتي كان أعظم، ففي الصباح التالي غرقت القسطنطينية في ضباب كثيف ولم يتلاشَ سوى بعد عدة ساعات حينها التمع بريق أصفر فوق كنيسة آيا صوفيا كان البريق يتصاعد من قبتها الضخمة نحو السماء ببطء، وسيطر الحزن الشديد على الجميع، ذلك لأنّ البريق الأصفر يشير للنبي عيسى، وخروجه بهذه الطريقة من الكنيسة يعني أنّ النبي قد تخلى عنهم.

وتوالت التكهنان وكانت إحداها تقول بأنّ هذه المدينة التي منحها الإمبراطور قسطنطين العظيم اسمه وجعلها أعظم المدن ستقع في عهد إمبراطور يحمل الاسم ذاته، ولا بد أنّ اللحظة حانت لذلك. فالقسطنطينية التي بدأت مع قسطنطين ستنتهي معه.

وبحسب البعض الآخر فإن المدينة لن تسقط عندما يكون القمر بدراً، وذلك لأن آلهة القمر هاكيت كانت حامية المدينة قبل تنصّرها؛ حيث إنّ ضوء القمر الفضي الذي كان ينير ليل المدافعين كان يحميها من السقوط. ولكن في تلك الأيام بالذات حدث خسوف للقمر استمر لساعات، وبالتالي فإن كل هذه الإشارات لم تكن علامات خير. وقد تسببت في تحطيم معنوياتهم أكثر من الجيش العثماني المتربص بهم خلف الأسوار. ومنذ القداس المشترك الذي أقيم في آيا صوفيا توقف الناس عن ارتياد هذه الكنيسة التي كانت تعتبر أكبر كنائس الأرثوذكس لأنهم كانوا يعتبرونها قد دنست، ولكن الخوف من الفاجعة أبعد عن أذهانهم هذه الخلافات المذهبية وعادوا للالتجاء إلى الكنيسة متضرعين فيها.

ليس الناس فحسب بل جميع سكانها على اختلاف طبقاتهم، وفي أحد الاجتماعات التي عقدت في تلك الأثناء عرض على الإمبراطور أن يخرج مع عائلته من المدينة، وقد وافق كل من حضر الاجتماع هذا الاقتراح، ولكن قسطنطين رفضه دون لحظة تردد وهو يقول بإصرار "أفضل البقاء في المدينة والموت ليضمني ترابها، على أن أخرج منها مهزوماً يائساً، سنقاوم حتى النهاية فإما النصر أو الموت وكلا الأمرين خير من العيش كجبناء" ويقال إنّ الحضور لم يتمكنوا من حبس دموعهم.

– أجل، كانت النهاية بالنسبة لطرف تمثل البداية لطرف آخر.

عاد الأستاذ للشرح مرة أخرى، وبدا متأثراً مثلي وحزيناً على مصير المدينة،



وهذا ما لم ألحظه عليه من قبل، أكان موت نزهت هو ما جعله يتغير على هذا النحو؟

- ولكنها سنة الحياة.

قالها وهو يرفع كتفيه:

- للأسف فإن التاريخ يكتب بالدماء، في كل مكان وزمان.

وارتسم كرب ثقيل على وجهه، حاول أن يمحيه بابتسامة ولكنه لم يفلح.

- هل تشعرون بالبرد؟ هناك خلفكم يقع متحف الفاتح. لنذهب إلى هناك إن شئتم، فهناك يوجد مجسم رائع لأحداث التاسع والعشرين من أيار، وسيكون الشرح أفضل بكثير مع وجود صورة عنه، سنذهب ونكمل حديثنا هناك.

- لا أستاذ.

كان الاعتراض من طرف السيدة جالة:

- دعنا نكمل حديثنا هنا، فحديثك يجعلنا نتصور المشاهد لحظة بلحظة، ولن يضاهي المجسم الصور والمشاهد الحية التي تخلقها كلماتك في مخيلتنا.

ولكن أكثر من أثار دهشتي كان بحري.

- السيدة محقة.

قالها وهو ينشق أنفه الذي بدا محمراً بفعل البرد.

- ألم تقع المعارك والأحداث أمام هذه الأسوار؟ فلنبق هنا فلن نتجمد من البرد بكل تأكيد.

وعندما لم يعترض أحد بدأ الأستاذ أخيراً بسرد وقائع اليوم الأخير من الحصار:

- في الساعات الأولى من يوم الثلاثاء في التاسع والعشرين من أيار، وبينما كانت القسطنطينية غارقة في صمت الليل الربيعي المريب والرطب، وفيما كان أحد الجنود الجنويين يقوم بحراسة البرج وهو يستمع إلى أغنية الصراصير والحشرات الليلية المعتادة، لاحظ بعد قليل صوتاً مختلفاً يشبه الأنين الذي بدأ يتحول مع الوقت إلى هدير غريب، لذا أصاخ الرجل السمع ليتحقق من الصوت. كانت نسائم الربيع تحمل أصوات التكبير الرائعة التي بدأ الجنود بترديدها بدءاً من الخليج لتنتقل كالأمواج حتى

أطراف بحر مرمرة، كان ترتيلاً رائعاً باللغة العربية للكلمتين السحريتين (الله أكبر. الله أكبر. الله أكبر). وامتد الهدير ليطغى على الأسوار والمنازل والكنائس والأبراج والناس الذين كانوا يرتعدون مذعورين ليطغى على المدينة برمتها، وعندها بدأت مدافع الفاتح العظيمة تدك الأسوار من جديد. لتسكت حشرات الليل وتردد الجدران أغاني النصر العثماني مع كل ضربة مدفع جديدة. فيما طغى الرعب على المدافعين المرابطين على السور، وبدأت تسمع أجراس عدة كنائس وبعد لحظات كانت كل كنيسة صغيرة أو كبيرة في المدينة ترن الأجراس بتضرع وهلع دون توقف، وكأنها بوق إسرافيل الذي ينفخ إيذاناً باقتراب الساعة. وحينها بدأ الهجوم الكبير.

بدأ الجيش العثماني برمته الهجوم على كافة الجبهات في الوقت ذاته، ففي البحر كان قائد الأسطول حمزة باشا مع رجاله، وفي الخليج زاغنوس باشا وأسطوله الأسطوري، أما قبالة قصر بلاهيرنيا فكان يتمركز كارجا باشا مع جنوده، وفي جوار توب كابي كان إسحاق باشا مع أبطاله الأناضوليين الانكشاريين الذي لم يكونوا يعرفون ما هي الهزيمة، كان الجيش قد نهض كفارس استعد لبدء معركته، وامتشق كل أسلحته. ولكن الهجوم تركز بشكل كبير على المناطق الواقعة بين أدرنة كابي وتوب كابي وإريكابي ذلك لأن أسوار هذه المناطق كانت قد تداعت بفعل نيران المدافع التي استهدفتها بكثافة، ولأن أكثر الرجال بأساً من كلا الطرفين كانوا يتمركزون في هذه المواقع.

ارتدى السلطان محمد الثاني درعه وحمل سيفه وكان يوجه المعارك بنفسه، في البداية توجه الفدائيون نحو الأسوار وهم يحملون السلالم الحبلية ليمهدوا الطريق أمام رفاقهم، كانوا من مختلف فرق الجيش ومن مختلف الأعراق، من الأتراك والصرب والمجريين وحتى من البيزنطيين أنفسهم، وكل منهم يردد ابتهالاته بلغته الخاصة، وكلهم مستعدون للموت دون تهيب، معلنين بذلك ساعة الصفر.

حاول المدافعون الذين تفاجئوا بالهجوم استجماع قواهم والتصدي على عجل، لذا بدأوا يمطرون المهاجمين بكافة أنواع الأسلحة، من قذائف المدافع والسهام النارية، والحجارة والزيوت المغلية التي كانوا يسكبونها على الجنود، ولكن عبثاً؛

فالسيل العثماني الجارف لم يكن ليوقفه شيء. استمر الهجوم لساعتين عصيبتين استشهد خلالها الكثير من الجنود فيما واصل رفاقهم العراك دون أن توقفهم جثث الأصدقاء المتساقطة من حولهم، إلا أنهم اضطروا للانسحاب في النهاية، ولكن السلطان كان يتوقع هذه النتيجة لذا أمر بانسحاب جنوده المنهكين تفادياً لمزيد من الخسائر. وعم فرح عظيم المدينة، وأخذت أجراس الكنائس تدق معلنة انتهاء الهجوم ورفعت ابتهالات الشكر وشعر المدافعون براحة كبيرة. ولكن فرحتهم هذه لم تكتمل لأن السلطان انتقل للمرحلة الثانية من خطته التي ظل لأيام يعمل على إعدادها مع رجاله ويحسب حساب كل الاحتمالات فيها. حيث بدأ الهجوم الثاني الذي قاده الانكشاريون خيرة جنود الجيش العثماني، أولئك الرجال الأشداء الذين يملكون خبرة عسكرية لا تضاهى وعزماً لا يلين وشجاعة منقطعة النظير، ومع كلمات (الله. الله) بدأ سيل بشري جديد يتجه مسرعاً نحو الأسوار.

استمرت المعركة بزخم كبير، ولكن المدافعين الذين حاربوا لساعتين متواصلتين قبل ذلك، والذين فاجأهم الهجوم الثاني استطاعوا العودة إلى خطوط القتال ليدافعوا بشجاعة وبأس شديدين، في تلك الأثناء استطاعت طلقة موفقة من مدفع أوربان الشهير أن تحدث ثغرة كبيرة في السور تسلل من خلالها ثلاثمئة من جنودنا ووصلوا إلى داخل المدينة، ولكن المدافعين لم يضيعوا الوقت وتمكنوا منهم، ليستشهد الثلاثمئة على الفور. ولكن قواهم كانت تخور مع مرور الوقت وكانوا يفقدون المزيد من الرجال مع مرور كل دقيقة. على عكس الجيش العثماني الذي كان يزداد حماساً ولا يبالي بأعداد الشهداء. وفي ساعات الصباح الأولى أمر السلطان جنوده الانكشاريين بالانسحاب مجدداً، ولكن هذا الانسحاب لم يجعل البيزنطيين يشعرون بفرحة النصر، وستثبت الساعات القادمة أنّهم كانوا محقين في توجسهم.

كان السلطان يطبق خطته دون أي خلل، لذا وقف أمام الانكشاريين الأشداء يحمل سيفه بيده ويبث القوة والحماسة في صدورهم من خلال كلماته:

- "هيا يا أبطالي، هيا يا أسود الميدان، المدينة تنتظرنا هناك. والعدو جريح ومنهك وقد فقد أمله بالنصر ولن يستطيع الصمود أكثر. هيا فلنأخذ هذه المدينة. إلى الأمام".

هجم الانكشاريون مع خيرة جنود السلطان على الأسوار من جديد تغطيهم نيران المدافع التي كان دخانها يغطي ضوء الصباح المنبلج، ودون مزيد من التردد وصل الجنود إلى الأسوار ليلتحم الطرفان في قتال مميت. فيما كانت أجراس الكنائس تدق بجنون وذعر دون توقف وتستدعي الجميع لنجدة المدافعين، وعلينا الاعتراف بأنهم أبدوا شجاعة منقطعة النظير وبذلوا أقصى ما في وسعهم، ولكن من يستطيع الصمود أمام جيش بهذه القوة والعدد؟ وقد تلقوا الضربة الأولى من حيث لا يتوقعون، حيث تمكن أحد أبطالنا الانكشاريين من الوصول إلى جيوفاني جوستنياني عند باب رومانوس أو ما نسميه الآن بتوب كابي وأصابه إصابة بليغة بسيفه قبل أن يتمكن رجاله من الوصول لنجدته، حينها تزعزعت جبهة المدافعين برمتها، فقد أصرّ جوستنياني على المغادرة وأمر رجاله بأخذه إلى سفينته والهروب، على الرغم من توسلات الإمبراطور قسطنطين الذي سمع بالأمر وأتى إليه راجياً. وقد انتشر الخبر بسرعة بينهم مما تسبب في نشر المزيد من الذعر والفوضى. أما السلطان الذي كان يراقب كل هذه التطورات عن كثب فقد استغل الفرصة على الفور وأخذ يحث أبطاله على الهجوم مرة أخرى وهو يخاطب الانكشاريين: "العدو يهرب، اهجموا يا أسودي. هجوووم. الأسوار أصبحت لنا والمدينة سقطت، إلى الأمام".

"سقطت المدينة" هاتان الكلمتان اللتان انتشرتا بين صفوف أبطالنا، كانتا كمفتاح سحري فتح أبواب المدينة أمامنا وجعل الجنود يتدفقون نحو الأسوار كسيل جارف أصبح من المستحيل إيقافه. ومع شمس الظهيرة كان بإمكانهم رؤية الانكشاريين فوق أسوار توب كابي وإريكابي، وبدأوا بإنزال الأعلام البيزنطية التي يزينها النسر ثنائي الرأس ليرفرف بدلا منها العلم العثماني الأخضر. كان الجنود يتدفقون إلى قلب المدينة من أبوابها وأسوارها التي هدمت، يقاتلون ببسالة ويستولون عليها شبراً شبراً، ليمنحوا سلطانهم الشاب لقب الفاتح. "سقطت المدينة" كلمات النصر هذه كانت تنقلها رياح الربيع من الأسوار وحتى آخر زاوية قصية في المدينة لتجعل معنويات المدافعين في الحضيض. ولم تكن المعارك محتدمة على اليابسة فقط، فقد كان الأسطول أيضاً يشارك بضراوة في هذا القتال المصيري، وكان القتال دموياً بحق في ساعاته الأولى، فجنودنا الذين كانوا يقبعون خلف الأسوار منذ أربعة وخمسين يوماً

والذين فقدوا الكثير من رفاقهم أثناء ذلك الحصار، انتقموا بشدة من المدافعين، ويقال إنّ الدماء كانت تسيل في شوارع المدينة بغزارة. وكان الناس المذعورون يهربون باتجاه كنيسة آيا صوفيا ملتجئين، وكانوا حتى اللحظة الأخيرة يأملون بمعجزة تنقذهم من هذا المصير المفجع.

اتجهت نظراته التي تلتمع حماساً نحوي وهو يقول:

- لو سمحت لي يا مشتاق سأحدثهم عن هذه النبوءة التي كانوا يؤمنون بها. عندما علم البيزنطيون بدخول العثمانيين المدينة اتجهوا نحو عمود قسطنطين أو ما نسميه اليوم تشامبرليتاش، فبحسب اعتقاداتهم، ما إن يقترب العدو من هذا المكان حتى ينزل ملاك، يحمل سيفاً وسيمنحه لأحد أبطال المدينة ليحميهم ويهاجم به أعدائهم. وبمعجزة سيتجه ذلك البطل الخارق وملاكه الحامي نحو العثمانيين الذين سيولون الأدبار ما إن يروا هذا المنظر. ولكن هذا ما لم يحدث بالطبع فقد تجاوز جنودنا المكان واستطاعوا الوصول إلى آيا صوفيا بكل سهولة.

وعندما سمع قسطنطين بأن المدينة سقطت خلع عنه أرديته الملكية وحمل سيفه واتجه لمحاربة الانكشاريين وهو يصرخ بكل قوته: "كيف لي أن أعيش وقد سقطت المدينة؟" وكان الإمبراطور الشجاع يعلم تماماً أنه يتجه نحو موته المحتوم، وقد مات بالطريقة التي يتمناها وكما يليق بحاكم شجاع وصادق، ولم يهرب ليعيش بقية حياته كالجبناء. وأخيراً أصبحت المدينة التي كانت تقبع بجلال تحت شمس الربيع ملكاً لنا. وكان القتال لا يزال مستمراً على بضعة أبراج فقط، بينما بدأت أجراس الكنائس تصمت الواحد تلو الآخر، وكانت القسطنطينية تخضع شارعاً شارعاً وبيتاً بيتاً لسلطة حكامها الجدد.

كان الحشد الصغير يستمع إلى كلمات الأستاذ وهو مستغرق في تخيل تلك المشاهد حتى أصوات الأجراس وهي تصمت واحداً تلو الآخر بدا وكأنه يسمعها حقيقة، ولكن بقي هناك جرس واحد يرن بإصرار دون توقف، ولم يكن الصوت قادماً من مخيلة المستمعين، فحتى الأستاذ بدأ يتلفت باحثاً عن مصدر الصوت، وأخيراً نظر إليّ لسبب أجهله:



- جوالك يرن يا مشتاق.
- ماذا؟
- إنه جوالك. أليس هو من يرن؟

كان محقاً في توقعه، فهذا الجرس ليس جرس كنيسة لم يتمكن جيشنا الذي دخل المدينة في التاسع والعشرين من أيار من العام 1453 من السيطرة عليها بعد، بل كان صوت جوالي الذي يرن بإصرار من جيب معطفي، والذي نسيت أن أغلق صوت جرسه. من هذا الذي خطرت بباله في اللحظة الحاسمة التي بدأت بدخول الجيش العثماني المدينة ظافراً؟ لما علي أن أتعرض لهذه المواقف السخيفة على الدوام؟ فقد شعرت بخجل لا يمكن وصفه:

- أعتذر كثيراً.

كنت أنوي أن ألغي الصوت وأنا أمد يدي نحو جيب المعطف، ولكنني عندما رأيت اسم المحقق نفزت على الشاشة، غيرت رأيي:

- أنا مضطر للرد أستاذ.

وابتعدت عنهم، فيما كان الرنين يتواصل بإصرار جعلني أشعر بالقلق.

- ألو. ألو. أهلاً سيد نفزت.
- مرحباً أستاذ مشتاق.

كان من المستحيل معرفة شيء من نبرة صوته الحيادية:

- آمل ألا أكون قد أزعجتك، هل كنت تلقي محاضرة؟

زايلني القلق نوعاً ما.

- شيء من هذا القبيل، ولكن لا عليك. تفضل أنا أسمعك.
- نحن الآن في بناء ساهتيان في منزل السيدة نزهت.

لا لم يزايلني القلق بل عاد أشد من السابق، فقد كانوا يقتربون مني خطوة خطوة، أمن الممكن أنهم اكتشفوا بصماتي في المنزل؟

- أجل.

قلتها بصوت أشبه بالأنين.

- ويجب أن تأتي إلى هنا.



ما كان يجب عليّ أن أسأل، ولكنني لم أستطع التحمل:

- لِمَ؟ ما الذي حصل؟
- هناك بعض النقاط التي نود التحدث فيها.

قالها بشكل قاطع يوحي بأنني لا أملك خيار رفض دعوته هذه.

- حسناً.

قلتها وأنا أحاول دفن مخاوفي.

- حسناً، سأكون هناك خلال ساعة.

(36)

الإنسان مخلوق غريب يا سيد مشتاق

بعد أن استمعت إلى بقية المجريات حيث كان جسد الإمبراطور قسطنطين الحادي عشر المقطوع الرأس يجوب شوارع القسطنطينية الغاصة بجثث القتلى، فيما السلطان محمد الثاني استحق لقب الفاتح بجدارة مطلقة، وتم قتل الأمير أورهان أيضاً، طلبت الإذن من أستاذي من أجل المغادرة.

- ألن تستمع إلى الجزء المتعلق بدخول الفاتح المدينة؟

سألني بلباقته المعهودة

- فهذا أكثر أجزاء القصة تشويقاً.

في الحقيقة لم يبق هناك الكثير لأستمع إليه، لأن السلطان المظفّر دخل المدينة على صهوة جواده الأبيض واتجه ليصلي في آيا صوفياً إيذاناً بتحويلها إلى جامع، كما قام بقتل الصدر الأعظم تشاندرلي خليل باشا، لتنتهي بذلك تلك المعركة السياسية التي بدأت بينهما في عهد والده مراد الثاني، ومع فتح القسطنطينية تحولت الدولة العثمانية إلى إمبراطورية عظمى، وكل هذه التفاصيل أعرفها حق المعرفة، كما أنني قدمت أطروحة حول هذا الموضوع بعنوان (نهاية الإمبراطورية البيزنطية وبداية الإمبراطورية العثمانية) لا، أنا مخطئ لم تكن أطروحتي بل كانت أطروحة نزهت، وأنا قمت بمساعدتها لا أكثر. وكان عليّ أن أخترع ذريعة مناسبة للذهاب إلى المكان الذي قد يلقى فيه القبض عليّ بتهمة قتل حبيبتي.

- عليّ أن أرى شازية ابنة خالتي.

أجبت الأستاذ على عجل.

- إنها مشكلة عائلية.

ولم أكن أكذب فيما أقوله، فلست أحمق إلى الحد الذي أذهب فيه لرؤية محقق،



وأنا أحمل مسدس والدي في حقيبتي، كنت سأترك الحقيبة عند شازية ومن ثم سأتجه نحو منزل نزهت.

- هل ستذهب إلى منطقة أوصمان بيه؟

كان صوته مليئاً بالشك، ونظراته تتراقص ببطء كسفن العثمانيين الراسية في البحر، ولكنني كنت مضطراً لمواصلة كذبتي، وإخفاء وجهتي الأساسية عنه.

- أجل سأذهب إلى عيادة شازية فهي تقع هناك كما تعلم.

أجبته بهدوء قدر الإمكان.

- فنحن ننوي تأجير الدكان الذي يقع في منطقة سيركجي.

لا أعلم إن صدق الأمر، ولكنه بدا مقتنعاً، أياً يكن الأمر كنت سأذهب حتى لو يقتنع فلن أطلب الإذن منه.

- طالما أنّ الأمر مهم فاذهب، وبلغ شازية تحياتي الحارة.

- بالتأكد سأفعل.

ولوّحت بيدي لأفراد قافلتنا وأنا أكمل:

- وداعاً يا أصدقاء أتمنى لكم جولة ممتعة.

ولكنهم تصرفوا بكل لباقة وتقدموا لمصافحتي واحداً تلو الآخر، وعندما جاء دور بحري خاطبني بصوته الجهوري المعتاد:

- أنا لست مؤرخاً يا أستاذ مشتاق، وكنت أسأل فقط من باب الاطلاع لا أكثر، وإن كانت كلماتي قد سبب الضيق لك فأنا أعتذر بشدة.

- كان يتكلم وهو يصافحني بحرارة.

لقد شعرت بالحزن لأنني تركتهم قبل انتهاء الجولة، وأحسست أنني كدليل قافلة ترك أفرادها في منتصف الطريق وغادر، ولكنه شعور لم يستمر طويلاً. فبعد أن ابتعدت عدة خطوات، عادت الأسئلة لتستولي على ذهني، فما الذي دفع المحقق ليستدعيني بكل هذا الإصرار؟ هل تمكنوا من الوصول إلى أدلة جديدة؟ أي أدلة وقد قمت بالتخلص منها جميعاً، فالسكين والصابون يقبعان في قعر المضيق، كما أنني مسحت بصمات أصابعي عن كل مكان، وحتى لو اكتشفوا بصماتي، فليس لديهم ملف خاص بي للتحقق منها. ولكن ماذا لو كان استدعائي الآن لهذا السبب بالذات،

أي من أجل أخذ بصماتي؟ في هذه الحالة كان سيستدعيني إلى قسم الشرطة وليس إلى منزل نزهت. ربما عثر على بعض المواد التاريخية ويريد مساعدتي في الأمر، ولكن هذا محال، فنفزت ليس مؤرخاً بل محقق جنائي، ولن يعتمد على نصوص التاريخ لكشف الحقيقة. وماذا لو كانت نصوصاً متعلقة بمسألة قتل الأب والسلطان الفاتح؟ ولكن كما قال الأستاذ طاهر فهذا احتمال ضعيف جداً، ولن يركن المحقق إليه، فالاحتمال الأقوى المتعلق بهذه النقطة هو إقدام جتن على ارتكاب الجريمة. كما أنّ سيزجين هو أول المشتبه بهم، وهو الآن يقبع في السجن لهذا السبب بالذات. أخيراً وبعد دراسة جميع هذه الاحتمالات شعرت ببعض الراحة وزايلني الخوف، وركبت سيارة الأجرة متجهاً نحو عيادة شازية التي لم أصلها سوى بعد ساعة، فعلى الرغم من توقف الثلج كان أزمة السير على أشدها. ولحسن حظي لم تكن هناك، فتركت حقيبتي عند السكرتيرة، وأكملت نحو وجهتي الأخرى.

لم يبق أثر لطبقة الثلج البيضاء التي كانت تغطي شارع منزلها منذ يومين، وبدت المنازل أكثر تداعياً بعد ذوبان الثلوج التي كانت تغطي عيوبها كمكياج يخفي تجاعيد وجهٍ عجوز. وعند دخولي بناء ساهتيان في ضوء النهار لاحظت أثر الزمن عليه، هذا البناء الذي كان يعتبر فيما مضى من أجمل أبنية شيشلي، أصبح الآن قديماً ومتداعياً بصورة محزنة، وهذا ما ولد في نفسي شعوراً مزعجاً؛ لا لم يكن الخوف، بل شيئاً أشبه بالكدر، شيئاً يشبه غياب نزهت. كانت بالرغم من غيابها وابتعادها عني كل تلك السنين، تشكل محور الأمل الذي يدور كوني برمته حوله، فكل ذلك الشوق وكل تلك الأحلام الساذجة بعودتها مرة أخرى، ورؤيتها بل وربما إحياء جذوة الحب القديم والأزلي. كلها تلاشت مع رحيلها الأخير في طريق لا عودة منه. ليلف الفراغ كل ما يحيط بي. والآن، وبعد واحد وعشرين سنة من قراءة رسالة الوداع التي تركتها لي نزهت حين سافرت إلى شيكاغو؛ تلك الرسالة التي لم أصدق ولو للحظة أنها تعني نهاية حبنا، بدأت أصدقها الآن، وأعي وقع كل كلمة فيها على قلبي المتعب، فقد انتهى كل شيء بالفعل حين قام أحدهم بتمزيق أوهامي وآمالي المزيفة تلك بواسطة سكين فتح الرسائل التي أهديتها إياها. ربما كان موتها المفاجئ لصالحي، لإنقاذي من وهم استمر لأعوام طويلة. فجريمة قتل عادية تمت في لحظات، كانت نهاية قصة

حب تمسكت بها بكل جنون طوال عقدين من الزمن، أجل ربما كان موتها خلاص روحي من الداء الذي كان يعذبني بصمت كل هذا الوقت. ولكن لما أشعر بكل هذا الألم في قلبي، وأحس أنّ سوطاً من النار يلسع كل ذرة في كياني كلما تذكرتها؟ لما أحس أنّ غيابها هاوية مخيفة تفتح فمها لابتلاعي؟ بالتأكيد لأنها سلطانة قلبي وروحي، فكيف لعبد أن يعيش بمفرده في غياب سلطانه؟

كانت هذه الشجون تجتاحني عندما وجدت نفسي وقد بلغت الباب الحديدي للبناء، تماماً كتلك الليلة التي قادتني ساعاتها المجهولة نحو هذا الباب، وشعرت برعشة هلع عندما رأيت أحدهم عند باب المصعد. ولكنه كان ينظر نحوي بود بالغ، ولم ألحظ في وجهه ما يدعو للخوف، كان يقلص عينيه وهو ينظر إليّ كمن يتأكد من شكوكه التي ظهرت علائمها على قسمات وجهه المتعب.

– عم مشتاق؟ أهذا أنت؟

بقيت أنظر إليه دون أن أتمكن من معرفته.

– أحقاً لم تعرفني؟ أنا سيزجين. ابن أخ نزهت.

سيزجين؟ ذلك الطفل الأجعد الشعر الذي لم أره منذ سنوات طويلة لم يكن يشبه في شيء الرجل الواقف أمامي الآن. وعلى الفور تذكرت ما قاله نزهت عنه: "ولكن لم يبقَ من ذلك الطفل المحبوب أي أثر. فقد تحول إلى شاب يعشق المال".

وعلى الفور رن جرس الإنذار في ذهني، ما الذي يفعله هنا، أليس من المفروض أن يكون في السجن الآن؟ لما أطلقوا سراحه؟ هل تحققوا فعلاً من براءته؟ في هذه الحالة لا بدّ أن شكوك نفزت ستتجه نحوي، ولكن لا هناك جتين مساعد الأستاذ طاهر، بل ربما شريكه في هذه الجريمة.

– ما بك عم مشتاق؟ لما تقف هناك؟

قالها وأصابعه تتخلل خصلات شعره الهزيلة التي حلت مكان ذلك الشعر الأجعد الكث.

– لا شيء، ولكنني مستغرب حقاً، فقد تغيرت بصورة كبيرة، ولو رأيتك في الشارع لما تمكنت من التعرف عليك.

– لقد مر وقت طويل. وعندما رأيتني آخر مرة كنت طفلاً صغيراً في العاشرة

من عمري على ما أظن.

كان صوته متعباً بصورة واضحة، وعيناه الزرقاوان تحيط بهما هالة بنفسجية من تأثير الأرق.

– كانت أزمنة جميلة حقاً، أنت وعمتي نزهت. كنت تأتي لزيارتنا على الدوام، والآن انظر ما حلّ بنا جميعاً.

بدا صوته يختلج، وعيناه تغشاهما طبقة رقيقة من الدموع.

وفجأة اتجه نحوي ليحتضنني، وبدأ جسده الشاب يهتز بحرقة وهو يبكي في حضني. يبكي كطفل عاجز لا حول له ولا قوة، وأنا واقف في مكاني مثل الأبله لا أدري ما عليّ فعله حتى أنني لم أقم باحتضانه. حينها سمعت صوتاً في داخلي يقول لي بأن هذا الشاب لا يمكن أن يكون مجرماً. ولكن عقلي على الفور اعترض على الفكرة، فربما يمثّل دور المفجوع ويحاول إقناعنا بالأمر، كما أمثل أنا دور الأستاذ المسكين الذي لا علاقة له بكل ما جرى؟ عليّ أن أكون أكثر حذراً ولا أنساق وراء مشاعري، ولكنني بالتأكيد لن أصارحه بشكوكي هذه.

– حسناً حسناً. لا عليك يا بُني. حاول أن تكون قوياً. فالحياة تستمر رغم كل شيء.

كانت هذه الكلمات أول ما خطر لي لمواساة الشاب، وقد قالتها وأنا أربت على ظهره بلطف، ولم يبالغ هو في البكاء أكثر مما يجب، وانتشل نفسه من حضني مكتفياً بهذا القدر.

– أكثر ما يحزنني أنهم اتهموني بقتلها. كيف لي أن أقتل عمتي التي كنت أحبها كوالدتي.

وعاد جسده للارتعاش وذرف بعضاً من الدموع ليكمل حديثه وهو يحاول مسح عينيه اللتين ورث لونهما الرائع من عمته.

– لقد قام أحدهم بالإبلاغ عني.

وهذا الأحد الذي يتحدث عنه هو أنا بكل تأكيد. لو علم بحقيقة الأمر فما الذي سيفعله بي يا ترى؟

– كان شخصاً على معرفة وثيقة بنا. ربما أحد الجيران وربما ذلك المتعهد

الذي لم نتفق معه. وقد أخبرهم بأنني كنت على خلاف مع عمتي من أجل مشكلة الميراث، وقد صدقت الشرطة هذا الكلام.

حينها أدرك الخطأ الذي ارتكبه وهو ينظر إلى الأعلى بخوف وأكمل بصوت منخفض:

- أجل لقد صدقت هذه الأكاذيب. وقد قضيت الليل برمته في غرفة التحقيق.
- لا أصدق ذلك.

قلتها وأنا أتصنع الغضب وعدم التصديق.

- ولكن ما الذي كانوا يودون معرفته؟
- وهل لأحد أن يعرف كيف يفكر هؤلاء المحققون. كانوا يسألونني عن سبب رغبتي في بيع البناء، فأخبرتهم أنه أصبح قديماً ومتداعياً، وقد ينهار مع حدوث أي زلزال صغير لا سمح الله، ولكنهم أخبروني بأن عمتي لم تكن موافقة على البيع، فكذّبت هذا الادعاء، لأن عمتي لم تكن معترضة على فكرة البيع، بل طلبت تأجيل الأمر حتى حلول الصيف. كما سألوني عن مكان تواجدي أثناء ارتكاب الجريمة فأخبرتهم بأنني كنت مع بعض الأصدقاء في النادي نلعب الورق. ولم يصدقوني بالطبع. خاصة ذلك المحقق الشاب الغضوب، الذي كان يكذبني في كل كلمة أقولها، ولكن المحقق الآخر كان يبدو أكثر لطفاً منه، وقد اتصل مع رفاقي الذين ذكرت له أسمائهم، وأكدوا بأنني كنت معهم في تلك الأثناء، لذا تم إطلاق سراحي.

وبدأ يتلفت حوله بذعر وكأنه خائف من أن يتنصت علينا أحدهم:

- ولكنهم طلبوا مني ألاّ أغادر المدينة، وهذا يعني أنهم لا زالوا يشكون بي. أرجوك سيد مشتاق حاول أن تقنعهم بأنني لست القاتل.

كان الخوف يدفعه للحديث دون تفكير، وأخيراً خطر له السؤال الأهم:

- ولكن لما أتيت إلى هنا؟
- لقد استدعاني المحقق الآخر الذي ذكرته للتو لسبب لا أعلمه، ربما اكتشفوا نصاً تاريخياً أو ما شابه، وله علاقة بالجريمة، ويودون الاستعانة برأيي.

حاولت استحضار أكثر أقنعة البراءة لأغطي بها قلقي وأتخلص من سيزجين



حين فاجأني بسؤال لم أتوقعه على الإطلاق:

- هل الأمر متعلق بالسلطان محمد الفاتح؟

ذلك السلطان القوي الذي تركته أمام الأسوار وهو يدخل القسطنطينية في التاسع والعشرين من أيار عام 1453، عاد ليلحق بي إلى شيشلي بل حتى مدخل بناء ساهتيان. ويقدم لي في الوقت نفسه فرصة الحصول على أجوبة للأسئلة التي تحير ذهني من هذا الشاب الوقف أمامي. فهو أكثر الأشخاص قرباً من نزهت في الآونة الأخيرة.

- وما علاقة الفاتح بالأمر؟

سألته.

- ألم تكن تعلم أنّ عمتي كانت تعمل على مشروع متعلق بالسلطان الفاتح؟

وقد حولت غرفة المكتب إلى متحف يحوي صوراً وكتباً ولوحاتٍ متعلقة به، لذا كانت تعارض بيع البيت الآن، وتقول لي إنها لا تملك الوقت للتورط مع السماسرة وسواهم، وطلبت إرجاء البيع حتى الانتهاء من مشروعها، لكنني كنت بحاجة ماسة إلى المال.

أيعقل بأن سيزجين يملك معلومات عن مشروعها، ولما لا؟ ألم يقل والدي المهووس بالتحقيق في الجرائم، أنّ أقوى الأدلة يمكن أن تأتينا من المكان الذي لا نتوقعه على الإطلاق.

- ولكن ما الذي كانت تعمل عليه بالضبط حول هذا الموضوع؟

رمشت عيناه ببراءة وهو يشرح:

- لا أعلم ربما. ربما لو سألتها عن الأمر لشرحت لي. على أنني لست واثقاً إن كنت سأفهم شيئاً مما كانت ستقوله.

تمهل للحظات وكأنه يعتصر ذاكرته:

- أعتقد أنها كانت تتحدث عن قبر ما.

لقد دار هذا الحديث من قبل بيني وبين صديق أكين الوفي، ذاك المعماري الشاب.

- أي قبر؟ أتعني مقبرة قديمة مثلاً؟



- أجل مقبرة أجل. أعني شيئاً تاريخياً قديماً.

بدت تكشيرة تتخللها ابتسامة ملغزة على وجهه وهو يكمل:

- ذاك الشاب مساعد عمتي.

- أتعني أكين؟

- أجل هو، كان يبحث عن كيفية فتح القبر.

كان كلامه يتوافق مع ما أخبرني به تيومان، إذاً لا بدّ أنّ حبيبتي قد توصلت إلى دليل مهم، أو أنّ هذا ما كنت تأمله، حتى بدأت بمحاولة فتح قبر السلطان مراد الثاني، أعتقد بأنّ حل لغز هذه الجريمة يقبع هناك داخل ذلك القبر التاريخي.

- لِمَ كانت تود فتح القبر؟

- هذا ما لا أعلمه.

- حسناً، لمن القبر؟ ألم تطلعك على الأمر؟

- لا لم تخبرني.

بدأ يفكر بعمق:

- وحتى لو فعلت ذلك فلن أتذكر الأمر، فهذه أمور تخصكم يا سيد مشتاق ولا أهتم بها.

ولكن ما من ضير من إنعاش ثنايا ذاكرته بقليل من المساعدة:

- هل ذكروا أمامك مراد الثاني؟ أو والد الفاتح؟

- والد الفاتح؟ لا، فلو كان الأمر يخصه لبقي معلقاً بذاكرتي حتماً.

ونظر إليّ معاتباً وهو يكمل:

- صحيح بأنني لست مؤرخاً، ولكن محبتي للفاتح لا تقل عن محبتكم له. ومن المستحيل أن تذكر اسمه أمامي وأنسى الأمر بهذه البساطة.

- حسناً، وأين تقع المقبرة؟ في بورصا؟

أضاء بريق ما وجهه المتعب:

- بورصا. أجل لا بدّ أنها كانت في بورصا. فقبل ثلاثة أشهر توجهت عمتي ومساعدها إلى بورصا بسيارتي، وقد مكثا هناك لليلتين.

هذا يعني بأنني كنت مصيباً في توقعاتي، فنزهت كانت تنوي فتح قبر مراد الثاني.

- وهل تم فتح القبر؟
- لم أسألهما عن الأمر. فقد تعرضت سيارتي لحادث عندما كانت معهما، لم يكن الضرر بالغاً، فقط تحطم الضوء الأمامي، ولكنني انزعجت، فهذه سيارة مرسيدس وليست سيارة رخيصة، ولهذا السبب بقيت على خصام مع عمتي لعدة أيام.
- ولم تفتح الموضوع أمامك مرة أخرى؟

لا بد أنه أخطأ فهم ما أرمي إليه نتيجة التعب والإرهاق الذي تعرض له منذ البارحة مساءً.

- لقد حدثتني عمتي عن الأمر فيما بعد. فقد ارتطمت السيارة بتمثال ما في الشارع.
- لا، لا أعني الحادث، بل ما حدث بخصوص القبر

أعاد رأسه بهدوء للخلف وهو يجيب:

- لا، فلم نتحدث في الأمر مرة أخرى.
- وهل عادا للذهاب إلى بورصا؟
- لم تطلب سيارتي مرة أخرى، ولا أعلم إن كانا قد ذهبا، ولكنني لا أظن بأن عمتي غادرت إسطنبول.

نظر إليّ مجدداً والفضول يلتمع في عينيه:

- هل موضوع القبر مهم إلى هذا الحد؟
- ربما، فنحن نحاول فهم السبب الذي أدى إلى قتل نزهت.
- تعملون؟

وللمرة الأولى نظر إليّ بارتياب:

- مع الشرطة؟

لقد استطاع هذا السؤال البسيط الإيقاع بي، ولو أكمل تسلسل الأفكار في رأسه بصورة منطقية، لتوصل إلى حقيقة أنني أنا من أوعز للشرطة للاشتباه به.

- بالطبع لا.

قلتها وأنا أقطب ما بين حاجبيّ.



- ما علاقتي بالشرطة؟ ولكنني أحاول معرفة القاتل والوصول إلى الحقيقة بأية طريقة.

تلاشت غيوم الشك.

- وأنا أيضاً سأحاول.

وقد شدد على كل كلمة يقولها:

- لو يقع هذا المجرم بين يدي.

ثم توقف للحظات قبل أن يكمل:

- طالما تتحدث عن قبر تاريخي، فلا بدّ أنّ القاتل من وسطكم؟

- هذا ممكن. ولكن علينا أن نعرف حقيقة المشروع الذي كانت تعمل عليه بخصوص الفاتح، لنتمكن من التأكد.

- ألم تخبرك بالأمر.

عادت الشكوك لتصبغ صوته بنبرة ثقيلة وهو يكمل ببطء:

- كنت تقابل عمتي أليس كذلك؟

كانت أي لحظة من التردد كفيلة بنسف كل شيء.

- بالطبع كنت أقابلها.

- إذاً فلا بدّ أنك كنت تلتقي بها خارجاً. لأنك لم تأت إلى هنا على الإطلاق.

- كنا نتقابل في الجامعة.

كانت تلك أول كذبة خطرت لي:

- كانت تأتي إلى مكتبي.

- ليتك أتيت إلى هنا، فقد كنت أرغب بشدة في رؤيتك والتحدث إليك، على الرغم من أنّ السيدة قريبتك كانت تأتي.

عمّن يتحدث هذا الشاب؟

- أي سيدة؟

- تلك الطبيبة.

أحسست بهول المفاجأة كطعنة غدر تخترق قلبي:

- أية طبيبة؟

- تلك السيدة التي تضع نظارة عاجية الإطار، وترتدي معطفاً جليداً.

سألت وأنا أرجو كل قوى الكون أن تخيب توقعاتي:

- أتقصد شازية؟

- أجل، السيدة شازية. وقد تقابلنا مرتين.

ما الذي كانت تخطط له وتخفيه عني تلك المرأة؟ ربما كانت تعلم منذ البداية بأنني أهديت نزهت ذلك العقد، ولكن ما الذي دفعها لافتعال شجار بالأمس من أجله إذاً؟

- هي أيضاً تبدو شخصاً طيب القلب مثلك. ولا أخفيك سراً بأنني عندما رأيتها هنا مرة أخرى تساءلت حول إمكانية عودة الأمور إلى مجراها القديم بينك وبين عمتي.

على الرغم من انشغال ذهني بالمؤامرة التي كانت تحوكها شازية من ورائي، لكن كلماته لسعت قلبي المحزون:

- عودة الأمور إلى مجراها؟

ابتسمت لأخفي ألمي:

- لقد انتهى الأمر منذ زمن طويل.

تهرب بنظراته وكأنه يتحمل جزءاً من مسؤولية ما فعلته عمته بي.

- أعلم ذلك عم مشتاق، وقد شعرت بأسف شديد عندما علمت أنكما افترقتما، صدقني. كنت أعتقد على الدوام بأنكما ستتزوجان، وعندما سمعت بأن عمتي سافرت إلى أميركا انتابني حنق بالغ.

الكل انتابه الشعور ذاته، والدتي وخالتي اللئيمة، وابنة خالتي شازية التي كنت اعتبرها صديقتي الوحيدة حتى قبل لحظات، والأستاذ طاهر الذي كنت أعتبره بمثابة أبي، وكل من في الكلية. الكل دون استثناء إلا نزهت، هي الوحيدة التي لم تشعر بالأسف حيالي. ربما تكون شعرت بذلك، وهذا ما دفعها للهرب دون أن تواجهني. أدركت حينها بأنني بدأت أخفف من إلقاء اللوم عليها، بل وأحاول تفهم موقفها، كان شعوراً جديداً من التسامح بدا يروق لي.

- ما كان عليك لوم نزهت.



بدأت أواسي سيزجين:

- فمشاعر الناس تتغير.
- أظنها أخطأت فيما فعلته، خاصة بعد زواجها من ذلك المأفون جيري، لقد كان شخصاً فظاً، حتى أنه قام بكسر أنفها في إحدى المرات.
- ماذا؟

صرخت رغماً عني:

- أكان يضرب نزهت؟
- لم يكن يضربها باستمرار. كما أننا لم نعلم بتفاصيل الأمر إلا بعد أن عادت إلى إسطنبول في إحدى زياراتها وحدثتنا عما جرى، فقد كان يخونها مع إحدى طالباتها وفي غرفة نومهما بالذات، وقد شاهدتهما معاً في تلك الوضعية فجن جنونها وتهجمت عليه، فما كان منه إلا أن سدد لكمة لوجهها أصابت المكان الخاطئ، وتسبب بثلاثة كسور في أنفها، حيث اضطرت من بعدها لإجراء عملية تجميل.

شعرت بالألم في روحي وكأن أنفي قد كسر للتو، ولو رأيت جيري حتى بعد مئة سنة لن أتردد لحظة واحدة في قتله، عندها سمعت قهقهة صاخبة، لقد أفاق مجنون المرآة من سباته وعاد لينغص عليّ.

لا تحاول ادعاء الشجاعة أيها المسكين، فأنت لن تقتل جيري أو سواه، بل إنك لا تستطيع أن تسدد له مجرد لكمة واحدة. لذا دعك من الترهات، ولا تحنق على جيري فهو كان يعرف نزهت خيراً منك، فحتى بعد أن كسر أنفها لم تقوى على تركه.

وعلى الفور أبعدت هذا الرجل المثير للأعصاب عن ذهني، وأعدت دفنه في أعماقي، ولكن كلماته ظلت معلقة في الهواء فلم أتمالك نفسي من سؤال سيزجين:

- وهل واصلت البقاء معه حتى بعد أن كسر أنفها؟
- بالطبع بقيت. وعندما علم المرحوم والدي بأنه أخته ستخضع لعملية جراحية لأنفها شعر بقلق شديد عليها، لذا قام بإرسالي إلى شيكاغو لأكون معها أثناء العملية. ولكنها لم تكن بمفردها فقد تصالحت مع جيري حتى قبل وصولي، وعندما سألتها عن الأمر أخبرتني بأنها هي من تهجمت عليه،

وكان مضطراً للدفاع عن نفسه، كما أنها تحبه ولا تستطيع أن تتركه. وقد حرصتُ على ألتقي به أثناء فترة بقائي هناك، لكنها حاولت مرة أن تجمعني به لنخرج لتناول الطعام سوية إلا أنني رفضت الفكرة، فقد كنت واثقاً بأنه سيعود إلى ضربها مجدداً وهذا ما حدث بالفعل وأخذ يتكرر فلم تحتمل عمتي الوضع أكثر وانفصلت عنه. الإنسان مخلوق غريب يا سيد مشتاق، فهو يتخلى عمن يهتم به ويلحق بمن يؤذيه.

أعتقد بأنه كان يشفق عليّ، فهو يعلم بالتأكيد بأنني الطرف المغبون، فعمته من تخلت عني وسافرت إلى أميركا، وقد تكون هي من حدثته بالذات وسط دموع الندم. ولكن لا، لم تكن نزهت نادمة على ما فعلته بي، ومن الواضح أنها كانت تحب جيري هذا وقد بقيت معه على الرغم من أنه قام بكسر أنفها. أخبرتني شازية مرة بأن الحب الشديد قد يولد تأثيراً معاكساً لدى الطرف المقابل ويشعره بالقيود. ربما هذا ما دفع نزهت لتركي، ربما اهتمامي الزائد بها وحرصي على تلبية أدنى رغباتها، والاحترام الكبير الذي كنت أوليها إياه أمام الجميع، كل ذلك ربما ولد لديها ردة فعل معاكسة، فقد تكون من النوع الذي يحب أن يُهان ويتلذذ حين يُعامل بقسوة. أياً يكن الأمر لست الآن بصدد تحليل نفسية حبيبتي التي قتلت، فعلي أن أبذل كل جهدي للتنصل من الاتهام الذي قد يوجه إليّ في أي لحظة.

إذاً فسيزجين بريء؟ لا، لا يمكننا البت بالأمر، فإطلاق سراحه يعود لعدم كفاية الأدلة ولكنه لا زال مثار الشكوك، لذا طلبت منه الشرطة عدم مغادرة المدينة حالياً. كما أنّ دموعه التي ذرفها منذ قليل ليست دليلاً قاطعاً على حزن حقيقي، فمن الواضح أنّ حنقاً قديماً يعتمل في صدره اتجاه عمته التي تزوجت ذلك الأميركي العنيف ورفضت التخلي عنه بسهولة. ولكنها بالطبع ليست أسباباً موجبة للقتل، أما السبب الحقيقي فهو المال ومسألة بيع البناء.

- والآن ما الذي سيحصل؟

طرحت السؤال الذي يدور في رأسي:

- هل ستقوم ببيع البناء؟

بدت على وجهه أمارات العتاب وهو يقول:



- على رسلك سيد مشتاق، فنحن لم نقم بدفن عمتي بعد. لست الآن في وضع يسمح لي بالتفكير في مسائل كهذه.

شعرت بخجل عميق. "مشتاق يثرثر بحماقة في بعض الأحيان، فهو يتظاهر بالرصانة معظم الوقت، ولكنه يتفوه بكلمات حمقاء في لحظات حرجة". أعلم أعلم ما أنا عليه يا خالتي، ولكن دعيني وشأني الآن لأحاول ترقيع ما مزقته:

- أعتذر منك سيزجين. صدقني لم أعنِ شيئاً.

حاولت تدارك الأمر وأنا أبدي الحزن الشديد:

- ولكنني حقاً مشتت الذهن بصورة رهيبة.

بدا أنّ كلماتي أقنعته حتى أنه مد يده مواسياً ليربت على يدي بلطف:

- لا عليك. فأنا أعلم مدى طيبة قلبك.

توقف للحظات، وكأنه يستحضر ذكرى جميلة حيث أضاء وجهه بتعبير عذب وهو يكمل:

- كانت جدتي تقول إنك لا تقوى حتى إيذاء نملة.

في الحقيقة، لم أستغرب كلمات سيزجين، لأنني كنت أدرك جيداً بأن والدة نزهت لم تكن تحبني، وكما أخبرتني نزهت فقد كانت تقول لابنتها في الكثير من المناسبات حين يدور الحديث عني "ألم تجدي سوى هذا البليد الخمول لتجعليه زوجاً لك؟".

لا بد أنّ سيزجين لاحظ من الخيبة التي بدت على وجهي أنني أدركت المعنى الخفي لكلمات جدته الذي لم يغب عني، لذا بادر بالقول مواسياً:

- لم أقل شيئاً يزعجك أليس كذلك؟ فأنا كنت أشير إلى مدى طيبتك.

وقبل أن أجيبه بدأ المصعد القديم يهتز نزولاً، فاتجهت أنظارنا نحوه في الوقت ذاته، أكان أحد أفراد الشرطة؟ ولكن عندما فُتح الباب الخشبي القديم خرجت منه امرأة في مقتبل العمر ترتدي معطفاً سكري اللون من النوع الرخيص، وتضع على رأسها وشاحاً تزينه أزهار ملونة تبدو من تحته خصلات شعرها المحناة، وكانت تحمل ممسحة وسطلاً ماء، وعندما رأتنا رمقتنا بضيق ومن ثم خاطبت سيزجين:

- لا يريدون تنظيف الشقة يا سيد سيزجين من أجل بصمات الأصابع وقذارات

أخرى، فذلك الشرطي الوسيم قد وبخني بعنف.

بدا وكأن كلمات المرأة قد أقلقت سيزجين:

- حسناً، حسناً. عودي إلى منزلك يا فضيلة، وعندما تنتهي الشرطة من عملها يمكنك العودة وتنظيف المنزل.

- حسناً.

هزت رأسها بهدوء:

- حسناً، سأذهب إذاً.

ولكن قبل أن تغادر التفتت نحونا مرة أخرى وهي تقول:

- كما أنّ الشرطي الكهل قد سألني بضعة أسئلة عنك.

بدأ قلقه يزداد:

- كان يسألني عن الوقت الذي عدت فيه إلى المنزل ليلة الجريمة، وعن علاقتك بعمتك وصحة وجود خلافات بينكما وأسئلة من هذا القبيل.

تجهم وجهه، فبالطبع لم يكن راغباً في أن يتم هذا الحديث أمامي، ورغم ذلك حاول أن يتمالك نفسه:

- وهل أخبرتهم بالحقيقة؟

بدت عينا المرأة الخضراوان تنتقلان بقلق بيننا:

- أجل أخبرتهم. أخبرتهم بكل شيء. ولكن الكهل طلب مني الذهاب إلى قسم الشرطة. يريدون تدوين أقوالي.

لم تكن تبدي اتجاه سيزجين الاحترام الواجب، بل كانت تظهر على حركاتها ونبرة صوتها نوع من الوقاحة التي تشي بعلاقة أعمق من مجرد علاقة بين خادمة وصاحب المكان. أم من المعقول أنّ هناك شيئاً خاصاً بينها وبين سيزجين؟ ولِمَ لا!

- وقد أخبرتهم بأنني لا أمانع الذهاب على الإطلاق. كما أنّ ذلك الشرطي الكهل يبدو شخصاً لطيفاً.

وعندما ذكرت كلمة الكهل للمرة الثانية نظرت إلى وجهي بتمعن وهي تقول:

- لا بدّ أنك السيد مشتاق؟

كيف لها أن تعرفني؟



- ألم تتذكر فضيلة؟

هب سيزجين لإسعاف ذاكرتي:

- ابنة السيدة ساتي التي كانت تعمل هنا، كانت صغيرة جداً ربما في الخامسة أو السادسة من العمر حين كنت تزورنا.
- ليس صحيحاً. فقد كنت في الثامنة من عمري عندما سافرت السيدة نزهت إلى أميركا.
- أجل ربما. ولكن أحسنت، فكيف استطعت التعرف على السيد مشتاق بعد كل هذا الوقت؟
- وكيف سأنساه؟ كان السيد مشتاق يأتي إلى هنا كل يوم.

وفيما تتحدث عبرت ذاكرتي صورة فتاة صغيرة حمراء الشعر ذات نظرات جريئة وابتسامة جميلة:

- أعتقد أنّ أسنانك الأمامية كانت قد سقطت حينها.

اتّقد خدها بحمرة واضحة:

- يا سيدي لقد تذكرتني، وكنت تحبني حينها وتعطف علي لهذا السبب.
- أعتذر.
- وأنا أظنها قد انزعجت من كلامي
- لم أقصد الإهانة.
- لا على العكس سيد مشتاق، ولما سأشعر بالإهانة؟ فأنت على الدوام كنت تعاملني بلطف.
- السيد مشتاق لا مثيل للطفه

تدخل سيزجين في حديث الذكريات هذا.

- وكان على الدوام يحضر لي الهدايا، وأذكر في إحدى المرات أنه أحضر لي سيارات حمراء رائعة، حتى أنّ علامتها كانت مدونة عليها بصورة واضحة: المرسيدس.

تسمّرت نظراتها عليّ للحظة قبل أن تسأل:

- ولكن لما لم تتزوج من السيدة نزهت يا سيدي؟



كيف سأرد على سؤال كهذا؟

- هيا هيا يا فضيلة عودي إلى منزلك.

هب سيزجين لنجدتي مرة أخرى.

بدا عليها الضيق وهي تتجه نحو القبو حاملة الممسحة وسطل الماء، كان حجم ردفيها الكبيرين يظهر تحت معطفها الرخيص بوضوح، وقبل أن تختفي عن أنظارنا نبهها سيزجين قائلاً:

- فضيلة لا أريد تناول العشاء اليوم، سأنام فأنا مرهق كثيراً. لذا لا تأتي لإيقاظي.

أكملت المرأة سيرها بثقة دون أن تجيب بكلمة واحدة، ولم نسمع سوى وقع قدميها وهي تنزل نحو الأسفل.

(37)

لا زالت نزهت قادرة على التسبب في تعاستي

دخلنا المصعد الذي غادرته فضيلة قبل لحظات، وعلى الفور لفحتني رائحة عطر رخيصة وارتسمت أمام عينيّ نظراتها الماجنة وتكورات جسدها الواضحة.

– إنها ابنة المرحومة ساتي.

بدأ سيزجين يوضح لي الأمر دون أن اسأله، لا بدّ أن رائحة العطر الرخيص التي يعبق بها المصعد هي السبب – أعني فضيلة. تزوجت منذ خمسة أعوام من أحد أقربائها وغادرت إلى القرية، ولكنه كان شخصاً عديم الأخلاق، فتركته بعد ستة أشهر وعادت إلى هنا، وبعد وفاة والدتها استلمت مكانها، وقد أوصتني المرحومة والدتي أن أحسن معاملتها، وأن تستمر هنا في العمل ما شاءت، وهي تقوم بتنظيف منزلي وإعداد الطعام، وتنظيف البناء، قد تبدو غريبة الأطوار بعض الشيء ولكنها جيدة ونشيطة في عملها.

كنت أرقب أصابعه الطويلة وهو يتحدث عنها:

– إنها لطيفة.

اكتفيت بهذا التعليق.

وفيما بدأ المصعد العجوز يهتز إيذاناً برحلة الصعود التي بدأت ببطء، كنت أراقب سيزجين وهو يحدثني عنها وأتأكد مع كل كلمة من وجود علاقة ما بين الاثنين، وإلا فما الداعي لكل هذا الحديث والشرح حولها؟

ولكنها غابت بعد لحظات خلف شازية التي عدت إلى التفكير فيها. فما الذي كان يدفعها لزيارة نزهت؟ والأهم من ذلك لما كانت تخفي الأمر عني؟ أكانت خائفة على مشاعري أو متخوفة من اعتراضي على فكرة زيارتها في منزلها؟ وربما كانت تخاف من اتهامي لها بالجريمة؟ كيف لي أن أفكر في شيء كهذا؟ يبدو أن السؤال



الأصح هل لي أن أفكر في أمر كهذا؟ ولما لا طالما أنّ سيزجين سيخرج من لائحة المشتبه بهم، فلا بدّ من إضافة اسم جديد، ولن يهمني على الإطلاق أن تكون ابنة خالتي أو سواها، كما أنّ تصرفاتها البارحة مساء تدعو إلى الريبة؟ فذلك الشجار الذي افتعلته من أجل عقد جدتي. لحظة لحظة! أيعقل أنها قامت بقتل نزهت عندما رأت العقد يطوق جيدها؛ ذاك العقد القديم القيّم. أعتقد بأن مخيلتي شطحت بي إلى ما بعد الحدود المسموح بها.

"مشتاق يتصف بقسوة خفية" لم أعد أبالي إن كانت خالتي ستسميها قسوة أم أنانية أم أي شيء آخر، فقد تعبت من كوني الشخص العطوف الذي يعامل الجميع بلباقة، وفي النهاية يسحقه الجميع. وأعتقد جازماً بأن كل المصائب التي انهالت عليّ كانت بسبب لطفي الزائد، وطيبتي المفرطة، فقد تركتني نزهت لهذا السبب لتتعلق بذلك المدعو جيري الذي لم يتوانَ عن كسر أنفها ورغم ذلك بقيت معه، كما أنّ العجوز طاهر يعاملني حتى الآن وكأنني أحد مساعديه، بل ويتجرأ ليورطني مع أحد طلبته للتأكد من شكوكه كما كان يزعم. لقد طفح الكيل، ولن أسمح لأحد بعد الآن باستغلالي.

- أود أن أسألك سيد مشتاق.

كان صوته حزيناً:

- بالطبع، تفضل.
- ما رأيك؟ أين تقترح دفنها؟
- كيف؟

لقد سمعت ما قاله ولكن كلمة الدفن سببت لي غماً لا سبيل لوصفه، فتلك المرأة التي قبلتني بحرارة في هذا المصعد بالذات، ستوارى في حفرة صغيرة، ولن يكون هناك من أمل على الإطلاق بعودتها. كان ألماً لا أعلم إن كنت سأقوى على احتماله.

- لولا وجود وصية عمتي لما كانت هناك مشكلة، فقد كنت سأدفنها في أيوبي حيث قبور بقية أفراد العائلة، ولكنها تركت وصية تطلب فيها إحراق جثتها.

إحراق جثتها؟ وماذا عن أزهار البنفسج؟ كيف سأزرعها على قبرها إن تم

إحراق الجثة؟

- أجل لقد طلبت مني إحراق جثتها، وكـأنها كانت تتوقع موتها الوشيك، فقبل موتها بأسبوعين طلبت مني أن أحرق جثتها في حال موتها، وأن أنثر رمادها من منطقة ديل بورنو في جزيرة بيوك أدا على البحر.

ديل بورنو. كنا نقضي معظم أوقاتنا في ذلك المكان عندما نذهب إلى الجزيرة التي كنا نزورها باستمرار وخاصة في أيام الأسبوع العادية، قبل أن يحتل سكان المدينة الجزيرة أيام العطل. كنا نتسلق الجزيرة لنجلس على أعلى صخرة فيها، كانت تلك أسعد لحظات حياتي. ويبدو أنها أيضاً كانت تشاركني هذا الإحساس حتى توصي بحرق جثتها ونثر رمادها في تلك البقعة بالذات. للحظة انتابني ألم لاذع وأنا أدرك أن تلك البشرة الجميلة ستحرق، تلك البشرة التي كانت تحرص على تلقي كل ذرة منها أشعة الشمس وهي تستلقي هناك على تلك الجزيرة، حيث تتلألأ قطرات العرق على أنفها الجميل، فيما يتلاعب النسيم بخصلات شعرها، وتلتمع ذرات الرمل اللامعة التي رست على قدميها تحت أشعة الشمس ويفيض المكان برائحة الشهوة والبنفسج. كنت أشعر بالجنون والغيرة من كل ما حولها وأنا أراها مستلقية هكذا أمامي وأقترب منها "مشتاق ابتعد فأنت تحجب أشعة الشمس عني".

كنت أطيع الأمر، وأراقب سلطانة قلبي من بعيد وهي تستمتع بذلك الهدوء، لا بد أنّ هذه الذكرى هي السبب في وصيتها، تلك اللحظات المليئة بالسكينة حين كانت تتحد مع الأرض والشمس والنسيم، وليس وجودي البائس بالقرب منها. يا إلهي. لا زالت نزهت قادرة على التسبب في تعاستي.

- إن شئت الصدق، فأنا لا أوافق على الأمر برمته، ألا يكفي أنها سافرت إلى أميركا وتزوجت بذلك الأجنبي المأفون جيري، والآن تريد شيئاً لا تقره شريعتنا وديننا. لن أدعي بأنها كانت شخصاً متديناً، ولكنني أخشى من عاقبة أمر كهذا، فهذا وزر لا أقوى على حمله.

لم أعلم بما أجيب.

- إنه أمر محير حقاً. فهي لم تحدثني عنه مطلقاً، لا بدّ أنها اتخذت هذا القرار أثناء فترة مكوثها في أميركا. أياً يكن الأمر ما رأيك لو تخبر الأستاذ طاهر

وحينها نقرر ما سنفعله؟

أخفض صوته مرة أخرى قدر المستطاع:

- لا أستطيع التحدث في الأمر يا سيد مشتاق، فعمتي كانت مؤرخة ذائعة الصيت، وسيصل الخبر إلى وسائل الإعلام على الفور، وحينها لن تنتهي سلسلة الفضائح. كنت أفكر في تنفيذ رغبتها بصمت، ولكنني لا أعلم إن هناك من أحد يقوم بإحراق الجثث.

توقف المصعد كسيارة قديمة نفد وقودها وهو يصدر صريراً وحشرجة صاخبتين:

- وأنا أيضاً لا أعرف أحداً يقوم بهذه المهمة.

كنت أود التخلص من هذا الحديث المزعج بسرعة:

- دعنا نسأل عن الموضوع فربما تكون هناك جهة ما، تقوم بمثل هذه الإجراءات.

دفعت الباب الذي انفتح دون مشقة ليواجهني شرطيان بلباسهما الرسمي، كان الأقصر يحمل بيده علبة كرتون فيما يحمل الآخر كيساً كبير الحجم، رمقني بضيق وهو يسأل:

- هل تود الصعود؟

- لا، نحن نقصد هذا الطابق.

- ولكن يا سيدي.

لم يكمل الشرطي وهو يرمقنا بشك أنا وسيزجين الذي أطلق سراحه منذ قليل، ولكنني لم أبال بما يجول في رأسه، فقد كان جلّ ما يهمني الآن هو معرفة ما يوجد داخل كيسه هذا، أهي دلائل تشير إلى وجودي هنا ليلة البارحة؟ والمفارقة أنّ سيزجين أيضاً كان مشغولا بمعرفة ما تحويه العلبة.

وقد أخذ ينظر إليها بفضول وهو يسأل الشرطي:

- ماذا يوجد داخل العلبة؟ أهي أغراض تخص عمتي؟

- إنها أدلة.

قالها الشرطي بحزم لا يفتح الباب لسؤال آخر سنأخذها إلى المركز لتقوم المحققة زينب بفحصها.



ومن أين خرجت هذه المحققة أيضاً، فقد اعتدت بصعوبة على التعامل مع المحقق نفزت ومساعده الجلف، والآن هناك شخص آخر عليّ التعامل معه، والمصيبة أنها أنثى.

- وماذا عن المحقق نفزت؟

رمقني الطويل بقسوة كمن يقول وما شأنك أنت؟

- وماذا تريد من المحقق نفزت؟
- هو من استدعاني. أنا بروفيسور ومؤرخ. ويبدو أنه يود الاستعانة برأيي في أمر ما.
- حسناً، المحقق نفزت مع المحققين علي وزينب في الداخل لفحص مسرح الجريمة.

ويدا الضيق على وجهه وهو يكمل:

- هذا أشبه بالمتحف منه ببيت. كتب وأوراق ورسائل. فليكن الله في عونهم، فهذا البحث سيستمر ليومين على الأقل.

نظر إلينا وهو يتكلم بنبرة أقرب إلى التوبيخ:

- حسناً، هل ستخرجان أم لا؟ فمعنا الكثير من الأشياء التي علينا إنزالها بواسطة المصعد.
- أعتذر.

خرجت من المصعد بسرعة لأفسح لهما مجال الدخول، حتى سيزجين الذي كان ينوي الصعود إلى الطابق العلوي خرج من المصعد ربماً خوفاً من مزاج الشرطي الغاضب. وفيما كان الشرطي الطويل يحشر الكيس الذي معه داخل المصعد اتجه كلانا إلى شقة نزهت.

كان الباب الخشبي موارباً تماماً كما في تلك الليلة المشؤومة، شعرت حينها بذلك الدوار المعتاد ونشف حلقي وغامت روحي في حزن ضبابي يخالطه جزع، ولولا وجود هذين الشرطيين على باب المصعد، وسيزجين بقربي، لكنت وليت الأدبار هارباً فما الذي أفعله مجدداً في هذا المنزل؟ ولكن المحقق نفزت ما كان ليتركني بسلام بالطبع، لذا أدركت أنه ما من مفر وعليّ مواجهة مخاوفي. ما من

مهرب من بناء ساهتيان هذا. سأدفن كل مشاعري وأواجه المكان الذي زلزل كل حياتي مرة أخرى.

- هل ستأتي أنت أيضاً؟

كان يبدو متردداً وكأنه يطلب العون مني:

- المنزل مليء بأشياء تخصنا. لن يقوموا بسرقتها أليس كذلك؟

- لا أظنهم سيقومون بأمر كهذا؟ هل هناك من شيء ثمين في المنزل؟

بدا خجلاً مما تفوه به:

- لا، أعني حتى في حال وجود شيء ثمين فما من داعٍ للخوف. كما أنّ قيمة الأشياء المعنوية أهم من قيمتها المادية.

وعندما لاحظ أنه يثرثر أردف:

- لن يسرقوا شيئاً بالتأكيد، كما أنني لا أود الدخول ورؤية المحققين الذين لم أصدق أنني نجوت من بين أيديهم اليوم. ادخل أنت وإن انتهيت باكراً اصعد لنشرب القهوة سوياً.

- ربما.

حاولت إنهاء المحادثة:

- عليّ الذهاب إلى مكان آخر بعد الانتهاء من هنا، وحتى لو لم نلتق، سأراك لاحقاً.

أمسك يدي بين يديه كطفل فقد والديه وتيتم للتو وهو يقول:

- ولكن علينا أن نلتقي بكل تأكيد.

كنت أدرك صعوبة موقفه، ولكن وسط كل مخاوفي وهمومي الآن كان من الصعوبة بمكان أن أتحمل وزر مواساة الآخرين ومساعدتهم.

- حسناً، سنلتقي يا سيزجين سنلتقي.

وربتت على كتفه بلطف:

- اذهب أنت وحاول أخذ قسط من الراحة والنوم. ولا تخشى شيئاً، ستصبح الأمور على ما يرام.

(38)

إنها رغبتي الأزلية وجرحي الذي لن يلتئم مطلقاً

تماماً كما في ليلة الجريمة دفعت الباب الخشبي خردلي اللون برؤوس أصابعي ليصدر الصرير الخافت ذاته وتظهر في المدخل ذات الأريكة الصغيرة. كانت متسخة والجدران التي بهت لون طلائها الأبيض الذي تحول إلى الرمادي بفعل الزمن لا زالت على حالها.

وعلى اليمين عُلّق معطف نسائي أخضر اللون، وإلى جانبه لفاح بلون القهوة الداكنة. كانت ثياب نزهت. حينها لاحظت بريق الشفقة في نظراتها، فرفعت رأسي خوفاً من أن تكون جثتها لا زلت هناك ترقبني بعينيها الزجاجيتين، ولكنها كانت عيوناً بنية جميلة لشابة سمراء في مقتبل العمر يشع وجهها الجميل ببريق الحياة، كانت تراقبني بصمت:

- مرحباً سيد مشتاق.

كل من في هذا المكان يعرفني. أهي شخص آخر من الماضي؟

- مرحباً.

لم أستطع التعرف عليها رغم محاولاتي ولكنها كانت تواصل النظر إليّ بإعجاب واضح:

- أنت أطول وأضخم من توقعاتي.

وأخيراً لاحظت خطأها الصغير:

- أعتذر، لم أعرفك إلى نفسي، أنا المحقق زينب.

مدت يدها مصافحة وهي ترتدي قفازات مطاطية رقيقة:

- مساعدة المحقق نفزت.

إذاً فهذه الشابة الجميلة هي من ستحقق معي برفقة صديقها الغضوب علي،



وسأسهر كما سيزجين معهما حتى الصباح في غرفة التحقيق، ومن الواضح أنها بارعة في عملها، فقد تمكنت من التعرف عليّ فوراً، وقد تكون حللت شخصيتي أيضاً وأدركت ما أضمره. ولكن نظراتها لا تشي بأي شك بل على العكس أجد فيهما ما يدعو إلى الراحة. ولكن عليّ ألا أنساق وراء انطباعاتي الساذجة، وأن أكون حذراً مع مساعديّ الكهل الماكر.

- هل لك اهتمام بالأدب أستاذ مشتاق؟

من أين خرجت بهذا السؤال الآن؟

- أعني الروايات الأدبية؟ هل تقرأ الأدب؟

عادت مقالة فرويد عن دوستويفسكي وقتل الأب مجدداً إلى ساحة الحدث، وبالتالي الفاتح وقتل الأب. وشكوك نزهت. ومراد الثاني الراقد في قبره في بورصا بانتظار فحص جثته. أم عليّ التفكير برواية تولستوي (سوناتا كروتز) الرائعة التي كنت أقرأها قبل ليلتين؛ أي في ليلة الجريمة وذلك الزوج الغيور بوزدنيشيف الذي قتل زوجته بخنجر دمشقي حاد النصل.

- بالطبع أقرأها. فلولا الروايات لبدت الحياة مملة جداً.

- أشاركك الرأي. فقراءة الروايات عمل أكثر متعة بكثير من العمل على الجرائم. ولكن يبدو أن هوايتك هذه لا تقتصر على القراءة فقط؟

إلى أين تريد أن تصل من حديثها الذي بدأ يثير حنقي، وعندما بدأت أستعد لمواجهة استجواب حقيقي ظهر وجه نفزت وهو في غرفة الجلوس التي فتح بابها على مصراعيه.

- أهلا أستاذ مشتاق. لقد وصلت إذاً. في الحقيقة كنت قد قطعت الأمل من مجيئك.

مدّ يده مصافحاً بود:

- أعتذر ولكن الأستاذ طاهر حقي كانت لديه اليوم جولة تدور حول الفاتح. وقد رافقته في الجولة لنشارك الحضور بعض المعلومات.

لم يبالِ بتأخري كثيراً:

- جولة حول الفاتح؟



وأكمل بإعجاب:

- لقد ألف يحيى كمال عملاً عن هذا الموضوع، وقد كانت والدتي تملك نسخة عن الكتاب، وهو يصف أحداثاً رائعة لا تنتهي. ليتني استطعت الانضمام إليكم. هل سيعيد الأستاذ الجولة؟
- بالطبع سيفعل، على الرغم من بلوغه هذه السن، فهو لا يزال يتمتع بالحماسة القديمة ذاتها، وبعد انتهاء كل جولة يدّعي بأنه متعب وقد ملّ الأمر وربما لن يقوى على الاشتراك في الجولة مرة أخرى، ولكن بعد انقضاء بضعة أشهر يتحرق رغبة للموعد الجديد ويبدأ بالإعداد له. وبالطبع فهو لا يتركني بعيداً عن مشاريعه، فأنا أشاركه وأساعده. فكما تعلم لا يكمل العرس دون زينة العروس، كما أنه بدأ يتعب بالفعل في الآونة الأخيرة. ولكن عندما اتصلت بي أخبرته بأنني مضطر للمغادرة لأمر هام.
- حسناً فعلت.

كنت أرغب في سماع سبب هذه الدعوة ولكنه اكتفى بهذا القدر وهو يكمل:

- تفضل معي من هنا.

عندما دخلت غرفة الجلوس كانت الستائر لا تزال مغلقة كما تركتها آخر مرة، وقد أضاءت الثريا الكريستالية المعلقة إلى السقف المكان، حاولت قدر المستطاع عدم النظر إلى الأريكة التي وجدت عليها جسد حبيبتي، ولكنني لم أتمكن من ذلك. لم يكن جسدها هناك بالطبع، ولكن بقعة الدماء الداكنة لا تزال هناك، تلك الدماء التي كانت قد انسابت من عنقها لتلوث قميصها وتشكل بقعة على أرضية الغرفة الخشبية، وعندما سحبت السكين من عنقها خرجت دفقة دماء جديد لتسير على ذات المسار. عاد دوار خفيف لينتابني ولكنني حاولت تمالك نفسي، إلا أن نظرات المحقق الكهل لم تفوت أي تفصيل مما ألمّ بي.

- وجدنا جسدها على تلك الأريكة، كانت في وضعية الجلوس، يبدو أنّ الموت حدث فور تلقيها الطعنة.

ولكنه كان يعني بكلماته هذه الاستفسار عن سبب تعلق نظراتي بتلك الأريكة، ولم أتردد في التوضيح:

- أجل هذا ما حدث، فقد قرأت الخبر وشاهدت صوره في الجريدة، كما أنني أعرف كل زاوية وغرض في هذا البيت الذي زرته لمرات كثيرة.

- لم تخبرنا بهذا التفصيل من قبل.

كنت أقف تحت أضواء الثريا المنسابة من السقف وبدت عليّ دلائل الحيرة:

- أي تفصيل؟

- طبيعة علاقتك بالقتيلة.

استحضرت من جديد أكثر أقنعتي براءة لأغطي بها على أكاذيبي، ونظرات باستغراب إليه:

- كيف؟ ألم أخبركم بأنني كنت صديق نزهت المقرّب.

كان ينظر إلي كما يقول ما الداعي لمواصلة هذه الكذبة السمجة:

- أجل أخبرتنا بذلك ولكنك لم تقل لنا بأنك كنت حبيبها القديم.

لنرَ ما ستفعله بهذه المصيبة الجديدة يا أمير المغفلين؟ لما لم تخبرهم منذ البداية بما سيعرفونه فيما بعد بكل تأكيد؟

- لم يكن حباً عادياً.

التفتُّ لألتقي بنظرات المحقق الماكر وهو يكمل:

- فهذا واضح من الرسائل التي جعلت المسكينة زينب تشعر بالدوار لمدى إعجابها بأسلوبك، ولهذا السبب كانت تسألك عن اهتمامك بالأدب.

أي ترهات يتفوّه بها هذا الشاب.

- معك حق.

انضمت صديقته المعجبة إلى هذياناته:

- لو جمعتها في كتاب فستحقق نجاحاً كبيراً، ومبيعات مربحة، فرسائلك رائعة.

رسائلي؟ حينها أدركت أنها تشير إلى الرسائل التي كنت أرسلها إلى نزهت، وانتابتني دهشة عارمة من معرفة أنّ نزهت احتفظت برسائلي كل هذه السنوات.

- أجل لقد احتفظت بها.

قالت الفتاة التي بدت وكأنها تقرأ أفكاري.



- فأي امرأة في مكانها ستحتفظ بهذه الرسائل ذات الأسلوب الرائع، حقاً كانت سيدة محظوظة.

وبدأت كلماتي تنساب من تلقاء نفسها

- ولكن لم يكن هذا رأيها.

ساد صمت قصير، حزناً على الرجل الذي تعرض للهجران.

- ولكن لما أخفيت عنا حقيقة علاقتك بها؟

كان المحقق نفزت الذي يريد الوصول إلى صلب الموضوع، يرسم ابتسامة متفهمة على وجهه وهو يسأل:

- أجل كان عليّ إخباركم بالأمر، ولكنني تعمدت إخفائه حرمة لسمعة نزهت. فما من مبرر لسرد أحداث علاقة قديمة ستتناقل وسائل الأعلام تفاصيلها خاصة وأنّ نزهت مؤرخة ذائعة الصيت وستبادر إلى نشر هذه الرسائل.

كنت أتكلم بتأثر واضح، ولكن حتى أنا لم أعد واثقاً إن كنت صادقاً أم أنني أواصل خداعهم.

- كما أنني لم أتصور أنّ قصة قديمة كهذه يمكن أن تساعدكم في عملكم.

والملفت أنه بدا عليهم التأثر والإحراج بدل الشك، ولكن الأمر استمر للحظات قصيرة استطاع بعدها المحقق الكهل العودة إلى طبيعته وهو يسأل:

- أنت مخطئ أستاذ مشتاق.

قالها بنبرة جافة كأي موظف رسمي مكلف بأداء عمله.

- ففي جريمة قتل لا يزال مرتكبها مجهول الهوية كل التفاصيل والأمور المتعلقة بالضحية قد تفيدنا، لذا أرجو أن تدع لنا مسألة التمييز بين ما هو مهم وما هو غير ذلك.

وقد تلاشى ذلك التعاطف الذي بدا قبل قليل في نظرات الشابين التي عادت الشكوك تملؤها وهما يحدقان إليّ، فرأيت أنّ المهادنة هي أسلم السبل.

- أعتذر، فقد كانت نزهت تحتل مكانة كبيرة في حياتي.

سألتني زينب وهي ترد خصل غرتها نحو الخلف:

- هل بقيت تحبها حتى الآن؟



يا للسهولة التي طرحت بها هذا السؤال المصيري الذي دارت حوله حياتي كل هذه السنوات! فالحب لن يفي مشاعري حقها، فقد كانت قدري وسبب حزني وفرحي ومآل كل آمالي، كنت الدافع الذي يجعلني أستمر في العيش والتنفس، كانت الشيء الحقيقي الوحيد في حياتي البائسة، لقد كانت رغبتي الأزلية وجرحي الذي لن يلتئم مطلقاً. ولكن كيف لهذه الشابة الصغيرة أن تفهم حباً يحتاج إلى عقود إضافية من الزمن ليصل إلى هذه الدرجة.

- لا أعلم.

كان أكثر الأجوبة غموضاً وأكثرها أماناً ربما - كنت أحبها كثيراً، حتى الجنون كما يقال. وعندما تركتني اعتقدتني سأصاب بالجنون حقاً، وقد استمر هذا الألم لسنين طويلة.

- لسبع سنين.

قالتها بتأثر واضح.

لسبع سنين وشهرين بالضبط، ولكنني اصطنعت النسيان وأنا أسألها:

- إذاً فقد راسلتها لمدة سبع سنين؟

وأردفت بصوت خافت محزون:

- سبع سنين!

- أجل، فقد أرسلت لها رسالة كل شهر.

- أظنني كنت عاشقاً ولهاناً.

- كنت تلقبها بسلطانتي في رسائلك.

- بسبب أغنية. كانت أغنيتنا المفضلة. لا أعتقدك تعرفيها، ولكن المحقق نفزت يذكرها بكل تأكيد.

اختفى ذلك الجمود من صوته وهو يسأل بود:

- أي أغنية؟

- أنتِ سلطانة الوجود كله.

بدا محزوناً وكأن ذكرى قديمة عادت إليه للتو.

- كانت أغنية رائعة. أنتِ سلطانة الوجود كله. وأنتِ، دائي ودواء قلبي وحده.

كانت أغنية الحاج عارف. على مقام النهاوند أليس كذلك؟

- أجل النهاوند. كانت أغنيتنا المفضلة. وقد اقتبست لقب السلطانة من كلماتها.

ولكن زينب التي لم تكن تعرف الأغنية لم تسبب لها كلماتها أي تأثر، بل ظل ذهنها معلقاً بالرسائل.

- ولكنك توقفت عن الكتابة بشكل مفاجئ، ولم تعد ترسل لها شيئاً.

بدا عليها نوع من الخذلان، وكأنها كانت ترى في هذه العلاقة البائسة شبهاً لتجربة عاطفية مرت بها، وظلت ذكراها محفورة في قلبها الغض.

- لأن الإنسان يتعب في مرحلة ما، ولا يتمكن قلبه من مواصلة هذا الشغف بالزخم ذاته، أو ربما لأنه يفقد الأمل، ويعلم أنه حان الوقت لمواجهة الحقيقة المؤلمة التي تهرب منها لسنوات. ومع مرور الوقت يكتشف أنه تمكن من نسيان كل ما مضى. وأنّ الحب انتهى.

انتهى الحب؟ ليته ينتهي ويغادرني، ليت روحي المعذبة كل هذه السنوات ترقد بسلام في جسدي العجوز هذا.

- وهل شعرت بالحقد عليها؟

كان علي ينتقل إلى الطرف الآخر من القصة:

- أعني أنْ تحب أحداً إلى هذه الدرجة ويتركك فجأة، ألن تشعر بالكراهية اتجاهه؟

- بالطبع فعلت. كرهتها كثيراً.

وتنهدت بعمق قبل أن أردف:

- كانت تمر الليالي دون أن أتمكن من النوم، وأنا أحقد عليها وأشتاق إليها، وأشعر بالغيرة مما تفعله هناك، ومع من تقضي وقتها. وكل هذه الأسئلة الموجعة التي كانت تصيبني بالجنون. ولكنها بدأت تتلاشى مع مرور السنين، وبدأ الحقد والغضب يختفيان. يقولون أحياناً بأنّ هناك حبٌ لا ينتهي ولا يزول مع مرور الوقت، ولكنها محض أكاذيب، فمهما كانت مشاعرك قوية ستتلاشى مع رياح الوقت، ولا علاج أفضل لداء كهذا من

الزمن.

- وما الذي حدث في لقائكم الأول؟ بما شعرت بعد مرور كل هذه السنين؟

إنه سؤال عاطفي جديد يثير الأوحال القديمة ليخرج الألم المتربص هناك في القاع، ولكن عليّ إيجاد مخرج من فخ كهذا تحت نظرات الثلاثة التي ترمقني بتمعن، فلن أخبرهم بالتأكيد أنني لا زلت أحبها كما في السابق، وإلا سأبدو على الفور كمهووس مريض قادته قصة حب إلى أعتاب الجنون، كما أنني قد بدأت الكذبة السابقة حول التقائنا لعدة مرات ببعض وكان عليّ إكمالها بأحسن صورة.

- الاستغراب.

قلتها وأنا استحضر ما انتابني عندما سمعت صوتها، ولتأكيد رفضي المزعوم لدعوتها ليلة الجريمة.

- أجل شعور بالغربة تجاه شخص تغير بصورة كبيرة، وأصبح مختلفاً عن الشخص الذي كنت تحبه يوماً ما. تشعر بأنه شخص غريب وبعيد عنك.

- هل شعرت بخيبة أمل؟

- إنها خليط من المشاعر يا آنستي، فمن جهة هناك هذا الاستغراب الذي يبقيك على مسافة منها، ومن جهة الفرحة بلقائها مجدداً، وفرحة مناقضة لأنك فعلت الصواب حين تمكنت من نسيانها.

- وماذا عن الغيرة المهنية؟ فهي أيضاً كانت مؤرخة مثلك ولكنها استطاعت بلوغ درجة كبيرة من الشهرة والنجاح.

عاد بنا المحقق المنطقي الكهل إلى الواقع.

- ربما كان هذا الإحساس موجوداً، ولكنني لم أكن في يوم من الأيام أطمح إلى الشهرة، فقد رغبت في دراسة التاريخ لأنني كنت أحبه وأحب معرفة الطرف الآخر من الجبل. والتوصل إلى وجهة نظر مختلفة عن الحقائق المتداولة، فأنا أهوى قراءة الوثائق والمستندات القديمة للوصول إلى تلك التفاصيل الصغيرة التي تغير معتقداتنا واطلاعنا على أمور لم تكن لتخطر ببالنا وكشف ما لا يعلمه أحد. إنه عمل مشوق، وهو يشبه عملكم نوعاً ما في البحث عن تفاصيل الألغاز. ولكننا بالطبع لا نتعامل مع الدماء والجثث

في عملنا.

- أهذا ما تراه؟

عقب الكهل:

- لكنني أخالفك الرأي، فعملك يدور حول جرائم وفظاعات وحشية ارتكبت على مرّ آلاف السنين، وحتى لو تلاشى اللحم، إلا أنّ عظام الموتى قد تروي قصة قتلهم الوحشية. ومن جهة أخرى فقد مضى علٰى عملي عشرات السنين، ولكن عدد الجثث التي رأيتها لا يساوي جزءً بسيطاً جداً من عدد القتلى الذين وقعوا في أي معركة عبر التاريخ.

- هذا جانب من الحقيقة سيادة المحقق، فتاريخ البشر كتب بواسطة الكثير من الدماء وسار على جثث الكثير من القتلى، ولكن هناك جانب آخر أيضاً، فالإنسان عبر تاريخ لم يكتف بالقتل وحده، بل صنع واكتشف أشياء مذهلة.

بدت هذه المرة ابتسامة صادقة على وجه المحقق وهو يتحدث:

- ولكن عشيقتك القديمة لم تكن تفكر بهذه الطريقة، وكانت تهتم بشدة بالجرائم التاريخية وخاصة العائلية منها. هناك مصطلح إنكليزي يدل على ذلك التقليد المتوارث عن الإمبراطورية البيزنطية. ما هو؟

- .edcicirtarf ,edicilif ,edicirtaP

- أي قتل الأب، قتل الابن، وقتل الأخوة.

وأشار نحو غرفة المكتب وهو يكمل:

- تفضل معي إلى مكتب السيدة نزهت، هناك شيء أود اطلاعك عليه.

(39)

أهلا بعودتك أيها العاشق الأحمق مشتاق

ولجت الممر الذي كنت أغادره قبل ليلتين مسرع الخطى، والقلق يتململ في ذهني. كان باب غرفة نومها مغلقاً ولكن عندما عبرنا الحمام عادت رائحة البنفسج المؤلمة تعذب روحي وتشغل بالي أكثر. ماذا لو أنني وفي ساعات الظلام الذهني تلك دخلت مكتبها؟ لا بدّ أنني لمست الكثير من الأشياء، كيف لم يخطر لي حينها مسح بصماتي عن المكتب؟ لا بدّ أنهم اكتشفوا بصماتي هناك. حينها لاحظت بأنني بدأت أهذي، فالبصمات تتحول إلى المخير الجنائي بداية، ويجب استدعائي للمخفر من أجل أخذ بصماتي، فهي ليست شيئاً يمكن رؤيته بالعين المجردة. لقد عاد الإحساس بالذنب يتملكني.

كانت غرفة المكتب تقع في نهاية الممر، فقد اختارت أكثر الغرف اتساعاً وضياءً، وهي تطل على حديقة القطط كما كانت تدعوها نزهت، فهذه المساحة الخضراء الصغيرة تحولت إلى حديقة خاصة لكل أشكال القطط، حيث كان سكان البناء والأبنية المجاورة يضعون القطط التي يصادفونها ويعتنون بها هناك. ألا زالت كما في الماضي مليئة بسكانها الأليفين؟

وما إن دخلنا الغرفة حتى تلاشت الحديقة والقطط من ذاكرتي، فقد تعلقت عيناي بالمكان الذي تحول كما أشار سيزجين إلى متحف خاص بالفاتح. ولكن اللوحات الصغيرة الخشبية اللون المعلقة على النافذة بكثرة هي ما لفت انتباهي. وقد تحولت تحت ضوء الشمس إلى ستارة فسيفسائية. الكثير منها لوحات كتابية لخط رهيف كتب باليد عليها صور رؤوس أحصنة وبوم ومخلوق لم أحدد إن كان شيطاناً أم جدياً، صور أهلّة. كتابات باللغة العربية واليونانية واللاتينية.

- لقد قام برسم هذه الرسومات أثناء حصص تعلم اللغة.



تمتمت فيما كان علي يراقبني وقد اتسعت عيناه إعجاباً:

- أتعني أنّ الفاتح من قام برسمها؟

غابت أجواء التوتر التي كانت حين دخلنا الغرفة، وساد مكانها شعور بالألفة نتيجة معرفتنا المشتركة لطفل يخصنا جميعاً.

- هذا احتمال كبير، ولكن هذه الرسومات لم تتم دراستها كما يجب، والاحتمال المرجح بأنها تعود للسلطان محمد الثاني أثناء تلقيه دروس اللغة.

- يقال إنه كان يعرف سبع لغات. الإنكليزية والفرنسية والروسية.

كان فضول المحقق الشاب يشعرني بأنه هو أيضاً مجرد طفل يتصنع قناع القسوة عندما يكون برفقة رئيسه في العمل، وقد لاحظ المحقق الأمر فقهقه قبل أن يقول:

- يا لك من ساذج يا علي! فما الداعي لتعلم اللغة الإنكليزية في ذلك الوقت، فهي لم تكن لغة مهمة كما الآن، ولم تكن إنكلترا دولة عظمى، حتى إنّ القارة الأميركية لم تكن قد اكتشفت بعد، كانت اللغة العثمانية هي اللغة الأكثر عالمية وتداولاً، أليس كذلك يا أستاذ؟

- السيد نفزت محق ففي النصف الأول من القرن الخامس عشر كانت إنكلترا تحاول إنهاء حرب المئة عام التي كانت تخوض رحاها، ولم تكن اللغة الإنكليزية لغة عالمية كما الآن. وبالإضافة إلى اللغة التركية كان السلطان يتكلم العربية واليونانية والفارسية والروسية (السلافية).

وعندما أدرت رأسي قابلتني لوحة شخصية للسلطان محمد الثاني، ولكن ما لفت انتباهي هو اسم الرسام، فقد كانت اللوحة تعود للرسام الإيطالي المشهور بيلليني. هذه اللوحة الرائعة رُسمت للسلطان بعد فتح القسطنطينية بسبعة وعشرين عاماً، وقد أخرجت من القصر في عهد ابنه بيازيد الثاني حيث اشتراها تاجر من البندقية وقد انتقلت اللوحة التي أدرك قيمتها الكل عدا أصحابها الحقيقيين، واستقرت أخيراً في إحدى متاحف لندن.

- يقال إن الفاتح أعطى الأوامر بنهب المدينة لثلاثة أيام بعد الاستيلاء عليها.

عاد الشاب يتساءل متسع العينين دهشة:

- أهذا صحيح يا أستاذ؟

أدرت ظهري للوحة من جديد لأجاوب على سؤال المحقق الشاب:

- الغنائم مباحة في الدين الإسلامي، كما أنّ نسبة كبيرة من الجنود تحارب من أجل الحصول على حصتها من الغنائم، وهذا دافع إضافي بالنسبة إلى كل جندي. ولا نستطيع أن نغفل بأنّ السلطان راسل الإمبراطور قسطنطين مرتين يطلب فيهما تسليم المدينة دون التسبب في خسارة الأموال والأرواح ولكن الإمبراطور أصرّ على القتال حتى النهاية، فما كان من السلطان الشاب حين دخول المدينة، إلا أن وفى بوعده لجنوده الذين ترك لهم المدينة مباحة لثلاثة أيام، ويقال إن جنودنا قد عاملوا السكان بوحشية، واستولوا على أموال الأغنياء، وقاموا بسبي خمسين ألف من السكان ليتحولوا إلى عبيد، ويقال أيضاً إنّ خمسة آلاف شخص قد تم قتلهم. وفي اليوم الثاني حين تجول السلطان في المدينة ورأى الأذى الكبير الذي لحق بها أمر على الفور بإيقاف عمليات النهب، ويقال إنه شعر بالندم لأنه وافق على الأمر منذ البداية.

تهرب الشاب بنظراته ليخفي الضيق الذي شعر به لدى سماع هذه الحقائق، واستدرت بدوري إلى لوحة الفاتح من جديد. فعلى يمين اللوحة ويسارها هناك عملان آخران يقال بأنهما يعودان إلى بيلليني. اللوحة التي على اليمين كانت ذات اللوحة التي رقد تحتها أكين مثخناً بجراحه؛ (لوحة محمد الثاني وابنه)، ويقال إن الفتى الذي في اللوحة هو ابنه السلطان جيم. أما اللوحة التي على اليسار فكانت منمنمة للسلطان بيازيد الثاني لوحده. وقد كانت تصور السلطان الثامن للإمبراطورية بكامل أبهته. اقتربت من لوحة السلطان وابنه.

- السلطان والأمير.

ولكن المحقق قطع كلماتي وهو يقول:

- إنه السلطان جيم أليس كذلك؟ أكان لديه ولدان؟

- ثلاثة.

صححت له:



- كان الأكبر هو بيازيد الثاني، والأوسط هو مصطفى أقربهم إلى قلب والده، وجيم. لكن الأمير مصطفى توفي في العام 4741، قبل والده بسبعة أعوام، وبعد وفاة الفاتح حدث عراك بين بيازيد وجيم، وانتهى بفوز بيازيد الثاني وتوليه على السلطة.

ازداد فضول المحقق:

- ومن هو الأمير الذي رشحه الفاتح للعرش؟

أشرت إلى الأمير الذي كان ينظر إلى والده والبريق يلتمع في عينيه.

- يرجح بأنه كان يفضل جيم سلطان. فخلال تولي بيازيد إمارة أماسيا على عادة الأمراء تعرف على شخصين هما خضر باشا زادة محمود ومؤيد زادة عبد الرحمن، واكتسب منهما عادة السهر والمجون، ويقال بأنه أصبح مدمناً على الأفيون أيضاً. وبالطبع لم تتأخر الأخبار في الوصول إلى مسامع السلطان محمد الفاتح الذي كان جواسيسه منتشرين في كل مكان، وعلى الفور أرسل إلى الشيخ فنري زادة أحمد بيك الموكل بمساعدة الأمير يسأله عن سبب عدم محاولته منع الأمير من التورط في هذه الشرور، وطلب منه إيجاد حل جذري لعلاقته بخضر محمود ومؤيد زادة عبد الرحمن، وطلب منه إرسال رسالة تفصيلية يطلعه فيها على وضع الأمير ومنذ متى وهو يدمن هذه الآفات.

وقد وصل جواب الشيخ سريعاً للسلطان ليبلغه بأن الأمير ليس على علاقة وطيدة بأشخاص سيئي السمعة مثل خضر محمود ومؤيد زادة عبد الرحمن كما يشاع.

وبعد عدة أيام تلقى السلطان رسالة اعتذار من ابنه الذي اعترف بخطئه وبأنه كان يستعمل الأفيون من أجل النحافة لا أكثر، وهو يدرك أنه أمر خاطئ وقد تخلى عنه. ولا يجب إغفال أهمية هذه الرسالة، فقد تحول الأمير بيازيد إثر هذه الحادثة إلى النقيض، وأصبح شخصا متديناً جداً. ولكن نقطة الخلاف الحقيقية بينهما لم تكن هذه بالطبع، فلم يكن بيازيد كوالده ميالاً للفتوحات والتوسع، ولم يكن يملك ذلك الطموح العالمي في إنشاء إمبراطورية واحدة تنضوي تحت اللواء العثماني. على عكس أخيه جيم، الذي كان يشبه والده في الذكاء وسعة الاطلاع، ولديه ذات النظرة

العالمية الطموحة، كان يملك إصراراً لا يلين، ويميل إلى الاهتمام بفنون الحرب، وكان يحب التعرف على الغرب كما الشرق. لذا فقد كان مرشح والده المفضل للمنصب من بعده.

- كانوا أشخاصاً محاربين أليس كذلك؟

قالها الشاب بإعجاب واضح.

- كانوا يمضون معظم حياتهم على صهوات الجياد، يخوضون المعركة تلو الأخرى؟

- بالتأكيد. فقد قضى الفاتح معظم حياته في الحروب والفتوحات، ولكن هذا لا يشير أنه كان سفاحاً يحب سفك الدماء، بل كان يحلم بإنشاء إمبراطورية عظمى تضم مختلف الأعراق والأديان واللغات والشعوب، وكان إلى ذلك يدرك أهمية العلم كما الحرب، ويؤمن بأن الأراضي التي حصل عليها بحد السيف لا يمكنه الاحتفاظ بها سوى بواسطة الثقافة، لذا كان يشجع الفن والعلم والدين أيضاً، وكان يملك ذلك التسامح الفريد الذي خوّل شعوباً مختلفة الأديان والأعراق تعيش تحت سلطته مع حرية كاملة في ممارسة معتقداتها. وقد بقيت كنيسة الأورثوذوكس ومعابد اليهود في العاصمة تتمتع بالعديد من المميزات. ومن أجل معرفة العالم الذي ينوي بسط سلطته عليه بصورة أوضح، طلب من العالم الرومي أميروتزوس أن يرسم له خريطة العالم.

ولم تكن طموحات السلطان خافية على أحد، فقد كان الأعداء قبل الحلفاء على علم بها، وقد أرسل له معاصره البابا بيوس الثاني رسالة يعرض فيها عليه اعتناق المسيحية، وسيساعده في مشروعه العالمي، وسيجعل الغرب كله تحت سيطرته، ويمنحه لقب إمبراطور اليونان والغرب. لا نعلم إن كانت الرسالة قد وصلت السلطان، ولكنه كان جاداً في هدفه وتحقيق حلمه العظيم، وكان مطلعاً على تاريخ روما، وعلى أعمال أهم رجالات العصر والعلماء مثل جورج أميروتزوس، وجورج ترابيزونتي، وبينديتو دي، جيتالي جاكوبو وسواهم.

- وماذا عن العلماء المسلمين؟



قاطعني علي:

- مثل الشيخ آك شمس الدين، ألم يتعلم على أيديهم؟

يبدو أنّ المحقق الشاب أيضاً مهووس بهذه المواضيع.

- معك حق.

قلتها وأنا أبتسم للشاب.

- فقد تلقى علومه الأولى على يد الشيوخ والملالي ورجال الدين. كالملا كوراني، والشيخ مصلح الدين، والملا إلياس، سراج الدين حلبي، الملا عبد القادر، الملا حيدر الدين، حسن سامسوني، وآك شمس الدين. واتسعت معارفه بفضل هؤلاء العلماء، وكان شغوفاً بالمناقشات الدينية والفلسفية. وكان يريد تنشئة أولاده الثلاثة بالطريقة ذاتها، ولكن الأقدار ما كانت لتلبي رغبات سلطان العالم كلها، فكما ذكرت قبل قليل، توفي ابنه الأوسط مصطفى مبكراً، وبيازيد لم يكن يشبه والد في شيء، أما جيم الذي أخذ من والده الكثير من الخصال، فلن يتمكن من الاستيلاء على العرش.

- إنها المشكلة الأزلية؛ الآباء والأبناء.

أضاف نفزت:

- فلا أحد يعلم ما سيكون عليه ابنه في المستقبل.

- تماماً. فمحمد تقاسم القدر ذاته مع والده، فعلى الرغم من أنه لم يكن المفضل بين أشقائه لكنه من استلم العرش، وكذلك الأمر بالنسبة لبيازيد.

- ولكن القصة هنا أكثر تراجيدية.

قالها نفزت وهو يشير إلى المنمنمتين المعلقتين إلى جانب بعضهما على الحائط، الأولى هي كتاب شقائق النعمان، والثانية هي الرسم الذي أنجزه النقّاش عثمان لمحمد الثاني عندما كان في أدرنة. هذان السلطانان اللذان استلما العرش بالتتابع؛ الأب وابنه الذي يقال بأنه عمد إلى قتل والده.

قالها بنبرة متسائلة وهو ينظر إليّ:

-لا زالت مصراً بأن مقتل نزهت له علاقة بهذه المسألة؟

أشار هذه المرة إلى الحائط الذي خلفه:



- عندما ترى هذه الصورة ستغير رأيك أنت أيضاً.

كانت هناك لوحة كرتونية معلقة على الحائط، هي رسم تفصيلي لشجرة أنساب السلطانين، في القمة كان السلطان مراد، وتتفرع عنه أسماء أبنائه: أحمد، علاء الدين علي، محمد، حسن، أورهان، والصغير أحمد. وقد دوّن تاريخ ميلاد الأمراء الستة ومكان ولادتهم وتاريخ وفاتهم والمكان، إلى جانب أسمائهم، ولكن أسماء الأمهات لم تكون موجودة فلم يكن أحد ليبالي بتدوين أسماء الأمهات. وعلى اللوحة الباهتة اللون وتحت كل أمير منهم فراغ كبير يدل على موت مبكر أتى قبل أوانه، خلا الأمير محمد. فقد توفي ثلاثة منهم نتيجة المرض، والآخران قتلاً. فقط محمد كانت الشجرة تمد فروعها تحت اسمه، ثلاثة أسماء صفت إلى جانب بعضها البعض، الأمير بيازيد، مصطفى وجيم اللذان تشاركا القدر ذاته في الرحيل مبكراً عن الحياة. ولكن تحت اسم بيازيد كانت تصطف أسماء ثمانية أمراء، ولا نعلم إن كان هذا نعمة أم نقمة، فواحد من بين الستة سيتولى العرش وهو الأمير سليم.

- لا ذكر لاسم والد السلطان مراد الثاني.

أشار بسبابته التي تتجول على اللوحة كعصا المعلم:

- فلم يجد السلطان ياووز من ضرورة لإضافة اسم السلطان سليم، وأعتقد بأنّ نزهت لم تكن تهتم فقط بالسلطان محمد والده، فلو جمعنا الأجزاء معاً؛ دوستويفسكي وقتل الأب، السلطان مراد الثاني وابنه الذي لم يكن يحبه محمد الثاني، والذي تم إبعاده عن العرش بالقوة تقريباً، وربما يكون هذا سبب الحزم والقسوة اللتين اتسم بهما السلطان الشاب فيما بعد، وإدراكه بأنه ليس مقرباً من قلب والده كبقية أشقائه، ولا بدّ أنكم تعلمون بأمر وصية السلطان مراد الثاني الشهيرة تلك، حيث أمر بأن يدفن إلى جوار ابنه علاء الدين علي ومنع دفن أحدٍ آخر إلى جوارهما وكأنه كان يتعمد الابتعاد عن محمد. وهذا ما كان له أثر كبير على محمد، فحتى الأمراء بحاجة إلى محبة الأب وعطفه ولكن القانون السياسي الأقدم يقول بأن السلطة مقدّرة لشخص واحد فقط. وأعتقد بأن السيدة نزهت قد بنت دراستها على هذه النقطة؛ إزاحة المنافسين على العرش، حتى لو كان أباً أو ابناً أو شقيقاً.

لم أجد مبرراً لإخفاء حقيقة رأيي الذي يؤيد وجهة نظر المحقق نفزت، فقد تسبب إخفاء الحقائق حتى الآن بإيذائي بدل أن يساعدني، ومن جهة أخرى في حال ثبتت براءة سيزجين بشكل قاطع، فلن يبق من مشتبه به سوى الأستاذ طاهر وعصبته، طبعاً في حال لم تتجه شكوك المحقق نحوي، وهذا احتمال غير مستبعد، ولهذا السبب بالذات كان علي التصريح بحقيقة رأيي، ولكن عليّ الاحتفاظ لنفسي ببعض التفاصيل، فلن أحدثه عن جتين مثلاً ذلك لأنني وعدت الأستاذ بالأمر.

- معك حق، على الرغم من عدم وجود أدلة تشير إلى قتل السلطان محمد الثاني لوالده بدس السم له، ولكن لا بدّ أنّ نزهت كانت تعمل على هذا الاحتمال على ما يبدو.

كنت أتكلم ونظراتي تتجول على اللوحات المعلقة على الجدران، واستقرت على السلطان الذي غيّر قدر السلطنة العثمانية إلى الأبد، وربما سيغير قدري أنا أيضاً فيما أكمل:

- ولأكون صريحاً معك فأنا لم أغير رأيي بسبب هذه اللوحة فقط، فقبل قليل التقيت مع سيزجين على باب المصعد.
- أجل فقد كان يلعب القمار في أحد النوادي ساعة وقوع الجريمة. وكما تعلم فلعب القمار تهمة، لذا حاول إخفاء الأمر في البداية، ولكنه عندما واجه جدية الموقف اضطر للاعتراف، وقد أثبت الشهود صحة كلامه. وبسبب عدم وجود أدلة أخرى تدينه كان علينا إطلاق سراحه.
- أنا لا أسأل عن سبب إطلاق سراحه، فقد حدثني عن تفصيل غريب، حيث سافرت نزهت إلى بورصا ومكثت هناك ليلتين.

ارتسم على وجوه المحققين الثلاثة السؤال ذاته؛ ما المشكلة في ذهابها إلى بورصا؟

- قبر مراد الثاني موجود في بورصا في الكلية المرادية.

انزاحت عن كاهلي نظرات الحيرة التي كانت ترمقني قبل لحظات، وحلت محلها مفاجأة كبيرة، وكان أكبرهم سناً أول من بادر إلى الحديث:

- بالطبع. ستقوم بفحص الجثة وتحليلها من أجل التأكد إن كان قد سُمم

بالفعل. وهل تم فتح القبر؟

- لا أعلم، لأن نزهت لم تحدث ابن أخيها في الأمر.
- ولن تتطنح بهذه المهمة بمفردها، لا بدّ أنّ أحدهم كان يساعدها، في الحقيقة حدثني الأستاذ طاهر عن مساعد غريب الأطوار.

يبدو أنّ العجوز الذي كان يتصنع الصدق أمامي يخفي ما يشاء عن الشرطة، فهو لم يحدثهم عن أكين. ولكن لماذا؟ ربما لأن الفرصة لم تسنح. لا تكن مغفلاً يا مشتاق، فالأستاذ لا يفعل شيئاً دون سبب وجيه، ولا بدّ من سبب دفعه إلى إخفاء هوية أكين عنهم. ربما لأنه يعلم بأن عصبته متورطة في الاعتداء الذي تعرض له، ولكن ماذا عني؟ ما الذي عليّ فعله الآن؟ أظنني لو حدثتهم عن مساعدي القديم فسأبعد الشكوك عني، خاصة وأنني ارتكبت حماقة إخفاء علاقتي بنزهت عنهم.

- في الحقيقة لم تكن تعمل لوحدها.

مجدداً عادت نظرات الثلاثة لترمقني في دهشة:

- كانت تعمل مع أكين والذي كان مساعدي القديم، ولم أكن حتى البارحة أعلم بأنه يعمل مساعداً لنزهت، وقد فاجأني الأمر، ولكن الأسوأ هو تعرض أكين لهجوم.
- تعرض للاعتداء؟

سألني نفزت:

- وهل مات؟
- لا لحسن الحظ، ولكن إصابته جدية، وفي الحقيقة لا أعتقد بأن هذا الاعتداء يحمل أهمية خاصة.
- لا تعتقد؟

قالها علي الذي بقي صامتاً لفترة أطول من عادته وطرح السؤال المنتظر:

- ألم تقل بأنه كان يعمل مساعداً لنزهت؟

تصنعت وجلاً خفيف على وجهي كطفل قام بحماقة ما:

- لا أعلم، أعتذر. ولكنني لم أربط بين الحدثين.
- ومتى تم الاعتداء؟



ساعدني سؤال المحققة الشابة على التخلص من أسئلة صديقها اللجوج، ولكنني بالطبع لن أقول لهم أنه تم في ليلة وقوع الجريمة، بل سأتركهم يكتشفون الحقيقة بأنفسهم.

- قبل ليلتين.

وكانت زينب أول من ربط الحدثين ببعضهما:

- أي في الليلة التي قتلت فيها نزهت.

ساد صمت قصير.

- وكيف علمت بالأمر؟

كان من الغباء عدم ملاحظة نبرة الشك التي تتخلل صوت المحقق نفزت وهو يسألني، وأدركت حينها أن أسلم الأمور هو قول الحقيقة.

- من سيبل. وقد رأيتموها من قبل، تلك الفتاة النحيلة القوام التي كانت توجه الكثير من الأسئلة للأستاذ طاهر البارحة في المؤتمر. أخبرتني بعد انتهاء المحاضرة بأنها تحاول الاتصال بأكين دون أن يجيب عليها. وقد انتابني القلق عليه، فهو كان مساعدي وكان إلى ذلك شاباً طيب القلب ذكياً، لذا اتصلت به عدة مرات وعندما لم أتلقَ الرد ذهبت إلى منزله، وخير ما فعلت، فقد وجدته غارقاً بدمائه.

- لحظة لحظة، اكتشفت أن مساعد السيدة نزهت تم الاعتداء عليه ولم تخبرنا بالأمر، أهذا ما تعنيه؟

يبدو أنني أغرق في هذه الأوحال اللعينة مع كل كلمة أتفوه بها، ولا بدّ من كذبة تنجيني.

- أجل.

قلتها بكل الهدوء الذي تمكنت من استحضاره في تلك اللحظة.

- لم أكن أرغب في ذكر الأمر أمام أحد، ولكن أكين غير سوي وعندما رأيته عارياً غارقاً في دمائه، اعتقدت أنه تعرض لمشكلة لها علاقة بميوله ولم أشأ أن أثير بلبلة حوله، كما أننا نقرأ الكثير عن حوادث مماثلة ومتكررة في صفحات الجرائد.

وقبل أن يسمح لي بسحب أنفاسي بادرني بالسؤال:

- وهل كان الأمر كذلك؟

- لا أعلم، فأكين لا يستطيع الكلام بسبب إصابته، ولعدم وجود شهود على الحادثة لم أربطها في ذهني بمقتل نزهت، ولكن عندما حدثني سيزجين قبل قليل عن سفرهما معاً إلى بورصا بدأت الشكوك تراودني.

يبدو أنهم بدأوا يصدقون القصة لذا أردفت:

- ولكن الشرطة قد دوّنت الحادثة في محضر خاص، أيعقل أنكم لم تضطلعوا عليه؟

نظر إليّ نفزت كمن يقول يا لسذاجتك.

- كيف لي أن أطلع على قضية خارج نطاق دائرة عملي؟ ولكن دعنا من هذا الآن وأخبرنا في أي مشفى يقبع أكين، لأننا يجب أن نؤمن له حماية خاصة.

هذا الكلام جعلني أشعر بالراحة نوعاً ما:

- إنه هنا في شيلشي، في مشفى الأطفال.

- اتصل بالمركز فوراً يا علي.

بدأ رئيس المحققين بإعطاء التعليمات:

- فليبعثوا فريق حماية خاص إلى مشفى الأطفال. ما هي كنية أكين؟

- أكين جوتاكان، وهناك شاب يدعى تيومان يرافقه الآن، إنه شريكه في السكن.

- فليتصرفوا دون مماطلة، وليرسلوا أقرب فريق في المنطقة إلى المشفى ليتولى مهمة الحراسة فوراً، لا نريد أن نخسر أكين كما خسرنا نزهت.

- ما الذي تعنيه سيادة المحقق؟

قلتها وأنا أبدي جزعاً شديداً.

- أمن الممكن أن يعادوا الكرة؟

- ولِمَ لا يفعلونها؟ طبعاً إن لم يكونوا قد قاموا بالأمر حتى الآن.

وعاد لينادي على مساعده:

- علي، هيا يا ابني أسرع.



أخرج جهاز اللاسلكي من محفظة حزامه وخرج كالبرق من الغرفة وهو يدمدم:

- إذاً فأنا لم أكن مخطئاً، فمن قام بقتل هذه المسكينة هو أحد متطرفي التاريخ.

ولكنه التفت إلي قبل أن يخرج وهو يقول:

- ربما أحد زملائها الذين يحسدون تفوقها العملي، ويبدو أنه حاول التخلص من مساعدها الذي علم بالأمر، ولكنه لم يكمل مهمته بنجاح.

تسمّر في مكانه هو يقول:

- ربما لم يكن شخصاً واحداً، ربما كانت مجموعة مشتركة تقوم بها النوع من الأعمال.

كان ما يرمي إليه واضحاً وضوح الشمس، ولكنه كما الأستاذ طاهر كان يريد أن أقول الكلمات التي يفكر فيها هو.

- ما رأيك أستاذ مشتاق؟ يبدو وكأنها عصبة من الجامعة، هل تشك بأحد ما؟

تراجعت نحو الخلف بضيق:

- لا أعلم سيادة المحقق، فشخصية السلطان الفاتح تحظى بتقدير ومحبة كل الوسط العلمي لدينا، كما هي الحال لدى كل مواطن في هذا البلد، والكل بالتأكيد سيغضب عندما يسمع اتهامات من هذا النوع توجه للسلطان، ولكن من الذي سيدفعه غضبه واستيائه لارتكاب جريمة قتل، هذا ما لا أعلمه.

لم يصدق ولو حرفاً واحد من كلماتي:

- أعني إنها مسؤولية كبيرة.

واصلت الحديث لأبرر موقفي:

- أليس كذلك؟ فاتهام شخص ما بجريمة قتل دون وجود أدلة أو شهود أمر في غاية الصعوبة.

وللمرة الثانية شعرت بأن كلماتي لم تترك أي أثر عليه، وظل يحدق بي بتلك القسوة التي يخالطها الشك:

- على رسلك سيد نفزت؟ أيعقل أن أعرف من هو القاتل وأخفي حقيقة هويته



عنكم؟ نزهت كانت شخصاً عزيزاً عليّ، ويهمني كثيراً القبض على قاتلها.

- وماذا لو كان شخصاً تكن له الكثير من الاحترام؟

حينها شعرت بالذعر الذي ينتاب أرنباً حاصره ثعلب في زاوية الهلاك، ومع ذلك قاومت حتى النهاية دون أبدي ما يشير إلى خوفي:

- أياً كان. فمن المستحيل أن أغطي على جريمة قتل، أستميحك عذرا سيد نفزت، ولكنني لست شخصاً وضيعاً إلى هذه الدرجة.

بدأت أتكلم بحدة واضحة تركت أثرها هذه المرة على المحقق الذي حاول تدارك جرأته:

- أستغفر الله يا أستاذ، بالطبع لم أقصد شيئاً من هذا القبيل. فلو لم أصدق بروفيسوراً قديراً مثلك فمن سأصدق؟ ولكن لديّ رجاء خاص. أرجوك أن تعلمنا بأي شيء تعرفه مهما كان تافهاً وصغيراً على الفور، وألا تخفي عنا أي معلومة. ولا تقلق فلن نسيء لسمعتك أو سمعة زملائك، ولن يطّلع أحد على مجرى التحقيق ما لم نصل إلى نتيجة قاطعة ونهائية.

يبدو أنني استطعت أخيراً التملص من شكوك هذا المحقق الداهية، ولكن من المبكر الشعور بالراحة، فهناك الكثير من الحقائق المتناثرة كأوراق شجرة تتساقط مع رياح الخريف، وبالتأكيد سيصل إليها واحدة تلو الأخرى. ما الذي سأفعله حينها، وكيف سأبرر مجموعة أكاذيبي؟ على كل لن أشعر بالراحة والقدرة على التفكير بصورة سليمة ما لم أخرج من هذا المنزل، وفيما أحلم بلحظات الراحة أعادني صوت المحققة الشابة إلى مكتب نزهت. قالت وهي تمد لي مظروفاً:

- أتعرف هذا؟

تناولت الظرف منها وكان يحتوي على عقد، وما إن أخرجته حتى لامست راحتي حبات الياقوت التي كانت تخرج واحدة فواحدة من الظرف ببطء مؤلم. سبع ياقوتات حمراء بشكل دمعة. ذلك العقد الذي لم يرتده أحد من أفراد عائلة سيزجين منذ عقود، والذي اتهمت شاهيستة الكل بسرقته. ووبختني ابنتها قبل يومين لأنني أهديته لنزهت.

- عين الياقوت.



خرجت الكلمات من تلقاء نفسها.

- العقد الذي أهديته لنزهت قبل سنين طويلة.
- وهذا ما هو مكتوب في رسالتها.

رسالتها؟ لا بدّ أن التعب بدأ يشوش على ذهني، لذا كان علي الخروج من هنا بأقصى سرعة من هنا.

- أي رسالة؟
- كنت أقلّص عيني محاولاً ربط الأحداث ببعضها.
- هل كتبت نزهت رسالة لي؟

كان كل من نفزت وزينب يراقبانني بتمعن، حتى لا يفوتهما أي تفصيل صغير يبديه هذا العاشق المحزون الذي فُتحت مغارة ذكرياته العاطفية.

- أتعنين أنّ المرأة التي ظلت لسبع سنين تستلم رسائلي دون أن ترد عليّ بسطر واحد، أكتشف فجأة أنها كتبت رسالة لي.
- معك حق في أن تستغرب.

قالتها زينب وهي تحاول إخفاء حقيقة مشاعرها.

- أجل لقد كتبت رسالة ولكنها لم تقم بإرسالها مطلقاً، قد يكون بسبب إحساسها بالذنب. وهي تشير إلى ذلك صراحة عندما ذكرت شعور الذنب الذي انتابها عندما أهديتها عقد عيون الياقوت.
- شعرت بالذنب؟

كان صوتي يخرج أشبه بأنين، كصفير الريح وهي تحمل حزن وردة تساقطت أوراقها:

- لقد أخبرتني حينها بأن سعيدة جداً بهديتي.

بدا بريق جميل في عيني الشابة السمراء. لماذا يضفي العشق جمالاً خاصاً على كل النساء؟

- وقد ذكرت سعادتها أيضاً. صدقني لقد كتبت فيها أشياء ستسرك، ولكننا لا نستطيع أن نسلمك الرسالة حالياً.

واتجهت نظراتها الحائرة نحو رئيسها وهي تقول:



- هل نستطيع تسلميها سيدي؟
- للأسف لا يمكننا.

قالها بنبرة قاطعة لا تراجع فيها.

- فعندما تنتهي القضية سنعيد إليك رسائلك كلها ورسالة السيدة نزهت أيضاً.

كنت أظنه حتى الآن يشفق عليّ، ولكنه أبدى قسوة كبيرة بهذا الحكم الجائر، فكيف لرسالة كتبت منذ عدة سنوات أن تفك لغز جريمة حدثت منذ يومين؟ إنها قسوة لا مبرر لها.

- ما الذي كتبته أيضاً؟

حينها أدركت أنني استسلمت وبدأت أقنعتي تسقط الواحدة تلو الأخرى في مسرح الجريمة، وأمام صياديّ القتلة هذين. لقد توقفت عن لعب دور الشخص الذي لا يبالي كثيراً بقتل حبيبته القديمة وظهرت حقيقتي كعاشق قديم لم يستطع مرور السنوات أن يبليه من هذا المرض. أهلا بعودتك أيها العاشق الأحمق مشتاق. ولكن الأسوأ هو الاضطراب الذي بدأت أشعر به مع كل كلمة تخرج من فم هذه السمراء الجميلة.

- كانت تكن لك الكثير من التقدير، ولكن من المستحيل أن أتذكر ما كتبته بالتفصيل.

كان صوتها بارداً جافاً وكأنها تحدثني عن ورقة رسمية. أهذا ما علق بذهنك من رسالة حبيبة عمري؟ مجرد أنها تقدرني؟ ولكن كان من الواضح أنّ مشاعري ورسائلي ورسالة حبيبة ما هي إلا مجموعة تفاصيل متعلقة بجريمة قتل تقتضي مهنتهم النظر إليها بكل حيادية كأي جريمة أخرى. بالطبع لم تصارحني بكل هذا ولكنني أدركت بأنّ كل اللهفة التي تنتابني لقراءة سطر من تلك الرسالة لا تعنيها في شيء.

كانا يتحدثان عن دلائل أخرى تتعلق بالجريمة، ولكنني لم أتمكن من فهم ما يقولانه في البداية.

- أسألك عن العقد سيد مشتاق. سيد مشتاق، هل تسمعني؟

عاد الشك وعادت نظرات الاتهام من جديد.

- أجل أجل.

حاولت لملة شتات ذهني:

- تفضلي.
- إنها تتحدث عن قرطين أيضاً كانا مع العقد، وتقول إنها أحبتهما أكثر من العقد ذاته.

عاد إلى فمي مذاق الياقوت الغريب الذي قبلته وهو يتدلى من أذني حبيبتي الجميلتين كدمعتين داميتين:

- أين القرطان سيد مشتاق أتعلم مكانهما؟ لقد وجدنا العقد حول جيدها ولكننا لم نعثر على القرطين.

بالطبع لن تجدوه، فصاحبة العقد والقرط ذهبت دون عودة وأخذت معها أذنيها الجميلتين التي كانت تغطيها خصل شعرها الكستنائي، ذهبت عيناها اللتان كانتا تضيئان قلبي. تلك المرأة التي تدعونها الضحية، وأدعوها سلطانة قلبي قد رحلت وأخذت كل شيء جميل معها إلى اللاعودة.

- لا أعلم.

هززت رأسي بعنف لأبعد تدفق الذكريات وأنا أكمل:

- لا أعلم، كما أنها المرة الأولى التي أشاهد فيها هذا العقد منذ واحد وعشرين سنة.



(40)

القتلة يرتكبون الأخطاء دوماً

هل تستطيع رسالة كتبتها المرأة التي بقيت لسنوات تراسلها دون أمل وتنتظرها دون أمل. رسالة لم تكن تعلم بوجودها، وحين علمت لم يسمحوا لك بقراءة سطر واحد من كلماتها - هل تستطيع أن تهز أعماقك إلى هذا الحد؟ ولكن لو كنت تحوم منذ 21 عاماً حول تلك النار التي تنهش أجنحة روحك. لو كنت بنيت حياتك برمتها على أمل لن يتحقق وعودة لن تكون. لو أنك معتوه لدرجة أنك بقيت عمراً برمته تحب المرأة التي لم تحبك يوماً، وكان اسمك مشتاق سرهزين فلا بدّ أن أعمق أعماقك ستُزَلزل.

لا قتل نزهت ولا خوفي من تورطي في الأمر وما يمكن أن يترتب عليه، ولا مشروعها الغامض عن الفاتح، ولا الأستاذ طاهر وعصبته. كلهم لم يتمكنوا من فتح الجرح القديم كما فعلت هذه الرسالة، وجعلته ينزف بألمٍ مضنٍ من جديد. لم أهتم لما سيقوله المحقق نفزت وهو يراني أهتز كورقة يابسة في مهب الريح، ولا لمصيري في هذه المعمعة التي تلفها ساعات مظلمة من ذاكرتي المعذَبة. كل ما كان يهمني الآن وما كنت روحي تتلهف بعطش إليه هو تلك الرسالة التي أعادتني 21 عاماً إلى الوراء، إلى حيث كنت أظن أنّ الجراح شفيت والعذابات خفّت. لا أنكر أنني بقيت كل هذه الأعوام أفكر فيها، أشتاقها وأكرهها، ألومها وأحاسبها آلاف المرات في مخيلتي، لا أنكر أنها كانت سبب بقائي أحيا وأتنفس، ولكنني كنت أتصور أنّ الزمن خفف من حدة الألم، وأنّ قلبي لن يعود للخفقان بجنون وحشي، لم أكن أعلم أنّ رسالة مجهولة قد تعيدني في رحلة إلى الماضي بكل عذاباته. ورغم ذلك أحسست مع ضربات قلبي التي كانت تهز صدري أنني عدت للحياة مجدداً، وأنّ هناك ما يثير مشاعري ويضرم جذوة النار الخابية من جديد. أحسستني حياً يرزق مرة أخرى.



كيف استطاعت زرقة عينيها التي غاب عنهما البريق منذ يومين أن تقنعني أنّ مسيرة العذاب انتهت؟ فذلك الألم الذي بدأت حدته تخف مؤخراً كان يقبع في كهفه العميق، كان في استراحة محارب ليعود بعدها أكثر قوة وألقاً، والغريب في الأمر أنني لم أكن مستاءً بل أشعر بلذة خفية لأنّ ذلك الوجع المضني سيسحق روحي من جديد. ولكن الأكثر غرابة من استمتاعي بألمي، هو أنني لم أعد أشعر بالحقد عليها؛ على تلك التي تركتني فريسة كل هذا الجنون منذ 21 عاماً. وهنا تذكرت كلمات مجنون المرآة الذي يقبع في مغارة شروري "للكراهية أيضاً فوائدها. فهي تعطيك سبباً للتمسك بالحياة، وتمنحك الطاقة لتكمل طريقك". ولكن هل بالكراهية وحدها يحيا الإنسان؟ فلولا الحب لا يمكن للكراهية أن تظهر.

عادت من جديد هذه المشاعر المختلطة والتي تنزل بي صعوداً وهبوطاً على سلم اللذة واللوعة، الألم والمتعة. أعتقده صادقاً من قال: أهلا بك أيها الحزن الجميل. أهلا بالعشق من جديد.

عندما خرجت من بناء ساهتيان، لم يكن هناك أي أثر لندف الثلج التي كانت تتطاير هذا الصباح في الهواء، وكانت الشمس تواصل حكمها على صفحة السماء بإصرار شديد، وتسخّر الرياح لإبعاد الغيوم عن طريقها، ولكنه كان حكماً رمزياً فلم تخف وطأة الهواء الثلجي ولو قليلاً، ولم تتمكن من إذابة طبقة الثلج التي لا زالت تغطي أسطح الكثير من المنازل، وتلك الكتل التي كانت ولا تزال صامدة هنا وهناك في الزوايا. "ستُثلج هذا المساء" هذا ما قالته نزهت، ولكن ليس في هذا الزمن ولا في هذه المدينة، كنا في أدرنة في القصر الذي كان السلطان الفاتح يتجهز فيه للحصار، كانت كتل الثلج تغطي عيوب قصر (جيهانوم) وتملأ الفجوات التي أحدثها مرور السنين على أسواره وقبابه، وكانت أشجار الحديقة المعمرة التي أحنت الريح جذوعها وسلبتها كل أوراقها تبدو كلطخات سوداء على صفحة الأرض البيضاء. فيما كانت حبيبتي تراقب المشهد بسرور بالغ، كانت ترى الجمال في كل ما حولها، في كل مكان وكل فصل. وتظل تفيض بطاقة لا تنضب ولا تنتهي. حتى أنها بدأت تمطر وجنتي بصفعات صغيرة ممازحة وهي تقول:

– دعنا نتمشى اليوم مساء تحت الثلج مشتاقي.



نظرت إليّ كطفلة تحلم بهدية حلوة:

- ولكن ليس في شوارع المدينة، بل دعنا نتجه إلى حيث الغابة والأشجار.

ولكنني كعادتي في تشويه كل لحظة رومانسية وتجريد العطر من عطره أجبتها:

- ولكن أليس في الأمر خطورة؟

أعني ربما هناك ذئاب أو ما شابه. لا تنظري إليّ هكذا، فهي قد تقترب من المدينة إن شعرت بالجوع.

فأجابتني وهي ترمقني بغضب:

- سيكون من الجيد أن تفعل ذلك وتخلصني منك.

فحاولت اللجوء للمزاح لأنجو من غضبها:

- أنت أكثر نحافة مني وستتمكن من الإيقاع بك والتهامك بسهولة. وفيما هي غارقة في المأدبة سألوذ بالفرار.

وقد حصل ما توقعته تماماً، ليس في غابة أو في مكان مقفر بل في وسط إسطنبول في ليلة مثلجة انهال على جسدها الذئاب وقتلوها بوحشية فيما لذت بالفرار لأكمل حياتي وكأن شيئاً لم يكن. وقد بتّ قادراً الآن أن أحقق رغبتها القديمة وأسير في ليل إسطنبول المثلج بل أستطيع السفر إلى أدرنة وأن أتجول في الغابات المحيطة مع سواها. سواها هي؟ سوى نزهت؟ هذا هو المستحيل بعينه، فنساء عمري كلهن نزهت لم يكن هناك قبلها أحد ولا بعدها أحد. كانت مغامرتي الوحيدة، مغامرة استهلكت ثلثي عمري أو أكثر وستبقى ترافقني حتى آخر نفس. كان عليّ الاعتراف الآن بأنني لا أعرف كيف أواصل الحياة دونها حقاً، لا أتحدث عن وجودها المادي الذي حرمتني منه منذ سنوات طويلة، بل عن ذلك الرابط الخفي الذي كان يمتد بين قارتين ويبقيني حياً لمجرد معرفتي أنها هناك، عن الذكريات التي كانت تملأ كل الفراغ المحيط بي، عن صوتها الذي كان يهمس في أذني لحظة أشاء. عن وجودها الروحي الذي كان يستحوذ على روحي. ولن أخفي أنّ نزهت التي احتفظت بها في مخيلة قلبي أكثر جمالاً وإثارة وروعة من نزهت الحقيقية، وقد يكون هذا سبب خيبة الأمل التي أصابتني وأنا أشاهد تلك العجوز في منزلها تحدق إليّ بعينيها الزجاجتين، تلك لم تكن حبيبتي ولن تكون، ولا أعبئ على الإطلاق بأن تكون كلماتي منافية للمنطق

والواقع، فلن يقنعني أحد حتى هي نفسها أنها تحولت إلى تلك العجوز. لن يقنعني أحد بأن نزهت يمكن أن تتغير.

ومع كل خطوة جديدة كنت أبتعد عن بناء ساهتيان، ولكن شيئاً ما في داخلي كان يشعرني بأنني اقترب من نزهت أكثر، من وجودها اللامرئي الذي كنت أخبئه في داخلي ككنز ثمين، والآن قد تحرر وأصبح يحيط بي في كل مكان. ولو أنني تلفت ورائي لربما التقت أعيننا مجدداً. حتى أنني شعرت بيدها تلمس كتفي من الخلف برفق، ولكن الصوت المصاحب لتلك اللمسة أثبت خطأي:

– سيد مشتاق. سيد مشتاق.

التفت للخلف ليقابلني شاب بوجه ناحل الخدين وأنف أحمر وعينين بلون الظلمة، ضخم الجثة نحيل جداً. بدا وجهه مألوفاً ولكنني لم أتذكر أين ألتقيت به.

– أجل تفضل.

شاهدت خلف شفتيه المزرقتين من البرد صفاً من الأسنان التي اصفرت بفعل التدخين.

– ألست العم مشتاق؟

كيف تحول السيد إلى العم في لحظة؟ تنفرني تلك الحميمية التي يعاملني بها الغرباء، كما ينفرني أن يلمس أحدهم كتفي في وسط الطريق.

– ألم تعرفني حقاً؟

ألم تكن تلك كلمات سيزجين قبل قليل؟ أكان أحد معارف الماضي أيضاً؟ حاولت التركيز وأنا أضيق عينيّ علني أتذكره، ولكن هذا الشاب الذي يراوح باضطراب خفي في مكان، بجسده النحيل ومعطفه الخمري اللون لم يعطني أي دلالة على معرفته.

– أنا آدم – تمتم الشاب – ابن نايل ديلّي.

عمن يتحدث ومن يكون نايل ديلّي هذا؟

أشار بيده نحو دكانة بيع اللحوم المقابلة حيث تصطف في الواجهة كافة أشكال اللحوم المحفوظة والمقدّدة والسجق والمقانق والزيتون والألبان والأجبان، وقد بقيت اللافتة القديمة ذاتها معلقة (بقالية ديلّي). ذلك المحل الذي كانت نزهت مغرمة

بشطائر الجبنة التي يحضرها. "أحضر لي شطيرة جبة من عند ديلّي في طريقك مع زجاجة شراب". لا يعود الماضي لي بذكرياته بل بشخوصه أيضاً. أولئك الذين كانوا أطفالاً فيما مضى ها هم رجال يقفون أمامي ليعيدوني إلى عهد كنت فيه في مثل عمرهم. إلى عهد ذهبي أفل.

– أنت آدم إذاً! آخر مرة رأيتك فيها كنت مجرد طفل صغير.

رمقني بنظرة غريبة لم أفهم دلالتها، إن لم يكن هذا الشاب ذو الأنف الكبير ذلك الطفل الذي كان في العاشرة من عمره تقريباً عندما كنا نرتاد دكانة والده، وكان في بعض الأحيان من يوصل لنا طلباتنا من الشطائر وسواها حين أكون في منزل نزهت، فمن يكون؟

– أليس كذلك؟ أظنك كنت في العاشرة من العمر حينها، وها قد أصبحت شاباً، لا بد أنّ السنوات تمضي بأسرع مما نظن.

كان ينظر إليّ ولكنه لا يسمع كلماتي وذات النظرة الغريبة في عينه، ثم مدّ يده إلى جيبه ليخرج بطاقة، ولسبب لا أعرفه شعرت بضيق خفي.

– هذه لك.

حينها أدركت إلى البطاقة التي في يده بطاقة مصرفية:

– لي؟

لا بدّ أنه يهذي، فهي لمشتاق آخر سواي بكل تأكيد.

– أجل لك.

كان هذا الآدم ابن نايل ديلّي كما يزعم، يتكلم بثقة مفرطة جعلتني أذعن وأمدّ يدي لتناول البطاقة التي في يده لأتأكد من ادعاءاته. قرّبت البطاقة لمسافة كافية تسمح لي بالقراءة بوضوح، كانت من البطاقات التي بتنا نستعملها لأمور متنوعة، بطاقة تشبه بطاقتي وهناك في الطرف الأيسر من البطاقة وجدت الاسم المكتوب بحروف كبيرة بعض الشيء.

– مشتاق سرهزين – كررت الاسم بصوت مرتفع – مشتاق سرهزين.

وتوجهت بنظرات حانقة إلى الشاب وأنا أسأله:

– ما الذي يفعله هذا الكرت معك؟



- أنت أعطيتني إياه.

أنا أعطيته إياه؟ ولكن متى؟ يا إلهي ربما في.

- متى؟

- منذ ليلتين.

انتقلت عدوى القلق إليه هو أيضاً وهو ينظر إلى بناء ساهتيان الذي غادرته منذ قليل.

- إن شئت فلنذهب لنتحدث في المحل، ذلك أفضل من الحديث في الشارع.

زادت كلماته من حنقي.

- لا. - قلتها شبه صارخ - فلنتحدث هنا.

- عم مشتاق، أنا لست غريباً، تفضل إلى الدكان لو سمحت.

- لا - واصلت التشبث برأيي - هل أنت متأكد من أنني أعطيتك تلك البطاقة بنفسي؟

- بالطبع متأكد، فقد اشتريت بعض الأغراض من عندي.

- لا - نفيت بهزة عنيفة من رأسي - أنت كاذب، فأنا لا أذكر أنني اشتريت شيئاً من عندك.

حينها ظهرت تكشيرة غضب على وجهه وأحسست أنّ أنفه ازداد طولاً:

- من المعيب أن تقول ذلك، فأنا لم أقم بسرقة بطاقتك.

أظنني إن واصلت تكذيبه فلن يتوانى عن صفعي هنا في منتصف الطريق، وأحسست أنه من الجيد الشعور ببعض الخوف لأتمكن من التخفيف من حدّتي والتفكير بقليل من المنطق، فكيف لشخص لم ألتقِ به منذ سنوات طويلة أن يقوم بسرقة بطاقتي؟

- لا تسئ الفهم يا آدم. فأنا لا أقصد اتهامك بشيء من هذا القبيل.

وحين خرج أحد أفراد الشرطة من بناء ساهتيان أدركت كم كان الشاب محقاً في طلبه الذهابَ والتحدث في الدكان، فآخر ما أتمناه الآن أن يراني أحدهم أتشاجر معه وتنكشف بقية تفاصيل تلك الليلة، لذا اتجهت نحو الدكان وأن أقول:

- هيا فلنذهب لنتحدث في الداخل.



رفع حاجبيه كمن يقول ألم أخبرك بذلك من قبل أيها العجوز، واتجهنا إلى المكان الذي دخلته في تلك الليلة المشؤومة المثلجة وبقيت بطاقتي فيه.

لم أعبأ برائحة السجق والأجبان والمخللات التي استقبلني ما إن خطوت إلى الداخل، وأشار آدم باحترام إلى ما وراء الطاولة وهو يقول:

- تفضل عم مشتاق، أجلس هنا حتى لا يراك من في الشارع.

انحنيت قليلاً وأنا أعبر إلى الجهة الأخرى من خلال المساحة الخالية تحت الطاولة التي رصفت عليها زجاجات المخلل وصلصة الطماطم وسواها، واتجه بدوره نحو البراد بعد أن ألقى نظرة على الشارع ليتأكد من عدم قدوم أحد، وأخرج كيساً:

- هذا لك.

- لي أنا؟

- أجل، شطيرتا جبن ديلي وأربعة علب شراب. كما كنت تطلب في السابق.

نظر إليّ ليتأكد من صدقي وهو يكمل:

- أحقاً لا تتذكر؟

اكتفيت بهزة من رأسي:

- على الإطلاق؟

- على الإطلاق! أنا مصاب بمرض يجعلني أنسى ما أقوم به في بعض الأحيان، ليس دائماً بالطبع ولكنه أمر يحدث كل بضعة أعوام.

لم يصدق كلماتي بكل تأكيد، فهي بنظره ليست سوى مبرر أنفي به عن نفسي مسؤوليتي عن ارتكاب الجريمة.

- غريب! فقد أتيت تلك الليلة وقد عرفتك بنفسي، وأستطيع القول إن الدهشة ذاتها استولت عليك وأعدت الكلمات نفسها التي قلتها لي قبل قليل. وطلبت شطيرتي جبنة وأربعة علب شراب وأعطيتني بعدها بطاقتك المصرفية من أجل الدفع، حتى أنك كتبت لي رقم الرصيد، وما إن استدرت للحظات حتى كنت قد اختفيت.

لم توقظ كلماته أي صورة أو ذكرى في ذهني، حتى هذه الرائحة اللذيذة المألوفة



لم تستطع أن ترتق ثقب ذاكرتي الأسود، ولكن أملاً في تذكر أي شيء سألته:

- ماذا تعني بأنني اختفيت؟

- أجل اختفيت ولم أجدك، ظننتك رأيت أحدهم في الطريق. أعني السيدة نزهت.

عندما ذكر اسم حبيبتي بدت نظرة وقحة في عينيه وهو يردف:

- ظننتك خرجت للتحدث إليها، وانتظرت عودتك، ولكنك لم تفعل.

كان هذا الشاب يسرد عليّ أحداث تلك الليلة كشريك متواطئ في إخفاء سر سيصبح عما قريب حقيقة خطرة. "من الأفضل الإذعان لقدرك". كانت أمي تواسي نفسها بهذه الكلمات بعد أن تتشاجر مع والدي "فمهما حاولت يا عزيزي لن تستطيع تغييره، لذا عليك الإذعان والقبول به في استسلام".

كنت أستعد لسماع نصيحة والدتي التي كانت الشخص الوحيد الذي أحبني بصدق في هذه الحياة، حين تدخل والدي بنبرته المتسلطة "إياك أن تفعل ذلك، فالاستسلام والضعف لا يليقان بنا، علينا أن نقاوم حتى الرمق الأخير، وتذكر، هناك دائماً مخرج ما وحل آخر".

بدا الدوار يعتريني مجدداً وأظنني كنت أترنح بعض الشيء:

- عم مشتاق، عم مشتاق هل أنت بخير؟

لم أكن بخير على الإطلاق، فمنذ يومين وأنا أعاني رعباً متواصلاً وأخالط مجموعة من الغرباء يقتحمون ذاكرتي وذكرياتي ويستبيحونها، جلست على الكرسي الصغير الموضوع بالقرب من الحائط الذي علقت عليه صورة أتاتورك

- أتذكر في أي ساعة أتيت إليك؟

حاول أن يتذكر:

- ربما في الساعة وبما قبل ذلك بقليل. لا أذكر الوقت على وجه الدقة، ولكننا نستطيع التأكد من الأمر.

هل كان هناك أحد آخر في الدكان حينها؟

- كيف لنا أن نتأكد؟

أصابه القلق عندما أدرك الهلع الذي يعتري صوتي:



- عن طريق الفاتورة التي نسيت أخذها.

فتح درجاً صغيراً في صندوق المحاسبة وأخرج قصاصة ورق صغيرة وهو يقول:

- إنها هنا والتوقيت موجود عليها: 83:7 دقيقة.

يا للروعة فقد باتت جريمتي قاب قوسين أو أدنى من أن تنكشف، فهناك شاهد وهناك دليل أيضاً، فهذه الفاتورة تعني أنّ مروري بهذا المكان قد تم تثبيته عن طريق أوراق رسمية. "لا توجد جريمة كاملة يا مشتاق. القتلة يرتكبون الأخطاء دوماً، والمحققون يقومون بتعقب هذه الأخطاء للإمساك بالمجرم". أسكتّ سفسطة والدي وأنا أسأله:

- وهل رأيتني بعدها مرة أخرى؟

اتسعت حدقتاه لوهلة ومن ثم بدأ يرمش بتواتر جعلني أدرك أنها خطوته الأولى على هذا الطريق وأنني ضحيته الأولى، ولكنه مصر على أن يسير في طريق السوء.

- لا لم أرك. ظننتك ذاهباً للقاء السيدة نزهت بعد كل سنوات الفراق هذه. لقد كانت قصة حب رائعة تلك التي جمعتك بها. - ابتسم وهو يشير بيديه إلى المكان من حوله وأردف - عندما يكون مكان عملك في وسط الحي فستطلع على ما يجري سواء شئت أم أبيت.

يا للثرثار الوقح! أيلمح أنه شاهد على كل ما جرى ومستعد للإدلاء بشهادته في المحكمة إن تطلب الأمر؟

- منذ أكثر من خمسين عاماً ونحن في هذا الحي، لذا نعلم من تزوج ومن طلّق ومن مات ومن وُلد، فأنا ووالدي شهود على مجريات هذا المكان، وقد كان والدي يقول على الدوام إنك شاب لا مثيل لخلقك وطيبتك، وأنك سليل عائلة غنية وعريقة يمتد نسبها إلى القصر السلطاني. ولكنه كان يأسف لأنك تعرفت على فتاة مثل السيدة نزهت وأحببتها، وكان يقول لماذا يتورط شاب مثله مع فتاة تنتسب لعائلة سيئة كهذه، وقد كان محقاً فيما يقوله فعلى الرغم من غناهم إلا أنهم كانوا على الدوام مديونين لنا بمبالغ كبيرة. ولكنك أنت والسيدة نزهت كنتما تشكلان ثنائياً رائعاً، وأذكر أنك كنت في أيام الصيف عندما تذهب والدتها وشقيقها الأكبر إلى منزلهما في جزيرة بيوك أدا؛ كنت تأتي لتقيم مع السيدة نزهت وكنتما تخرجان في

الصبحات معاً للذهاب إلى الجامعة – تصنع الحزن وسكتت للحظات قبل أن يكمل – وهذا ما خطر لي عندما نسيت بطاقتك لدي قبل ليلتين، ظننتكما ستخرجان معاً في صباح اليوم التالي وستأتي لأخذ بطاقتك، ولكنك لم تأت، بل جاءت الشرطة بدلاً منك.

تحاشيت النظر إليه وبدأت أشعر بوزر آخر يثقل كاهلي، وزر كانت تفوح منه رائحة قذرة هذه المرة. رائحة الخيانة والابتزاز. فيما استمر هو في حديثه:

- لا عليك عم مشتاق لا عليك. فالحياة تستمر، بالطبع أنت محق في حزنك عليها وأنا أيضاً شعرت بحزن بالغ – كان يتصنع الحزن ولا ينجح – ولكن كما قلت لك الحياة مستمرة، ولا نستطيع إعادة الزمن للوراء. فليتغمدها الله برحمته وليغفر له ذنوبها.

حاول أن يضع ابتسامة ود على فمه ولكنه لم ينجح أيضاً.

- ورغم كل شيء علينا مواصلة العيش. فأنا مثلاً لدي طفلان وكلاهما في المدرسة الابتدائية الآن، ولكن لا زالا في بداية الطريق، فبعد المدرسة هناك الجامعة والكثير الكثير من الالتزامات الأخرى، وكما تعلم فإن الحياة تغيرت، ولم يعد العمل كما كان في السابق، لقد أصبح هناك الكثير من المحلات التي تنافسنا. الحياة صعبة، صعبة جداً صدقني. ولكنني أحترمك على الدوام، صحيح أنّ السيدة نزهت كانت ابنة الحي، ولكن مكانتك لدينا كانت مميزة، فقد كنت على الدوام تعاملني بلطف، وكنت كريماً معي.

وهو يعني بالطبع بأنني سأواصل نهجي هذا معه، بل سأكون أكثر كرماً بحيث أدفع تكاليف دراسة أبنائه، ومصاريف منزله وحتى لو رغبت زوجته في التبضع فأنا من سيدفع الفاتورة، ومقابل ذلك لن يخبر الشرطة بأنني كنت هنا ليلة الجريمة، ولن يريهم تلك القصاصة اللعينة التي تثبت أنني أعطيته بطاقتي المصرفية من أجل دفع ثمن الأشياء التي اشتريت. ولكن لا، لقد طفح الكيل ولن أتبع سياسة النعامة هذه المرة وأخفي رأسي في الرمال، سأخبره بأنني أدرك ما يرمي إليه وأنني لست لقمة سائغة وسألكمه على وجهه البغيض هذا. أنا ألكمه على وجهه؟ أنا مشتاق سرهزين سأتهجم على أحد وألكمه على وجهه؟! هذا ما لم يحدث من قبل، ولا أظنه سيحدث

بعد هذا العمر. كما أنني لست نداً له، فقبل أن أرفع يدي سيلكمني هو، هذا إن لم يمسك بي ويجرني إلى مركز الشرطة بنفسه.

- "ما إن رأيته أدركت بأن هناك خللاً ما. بدا العم مشتاق كشخص فقد وعيه. كمجنون. وقد غرز سكين فتح الرسائل التي معه في عنق السيدة نزهت وأرداها قتيلة على الفور".

ولكن هل سيصدقه المحقق نفزت؟ ولما لا؟ فما الذي يدفع صاحب دكانة في الحي أن يكذب كذبة كهذه؟ كما أن بحوزته دليلاً ضدي وهو فاتورة الشراء. أدركت حينها أنّ كل دقيقة تمر عليّ في هذا المكان تزيد من غرقي في بحر الرمال المتحرك هذا، لذا نهضت على الفور لأغادر.

- أظنني يجب أن أغادر.

لم يعترض على رغبتي:

- معك حق عم مشتاق، لا يجب عليهم أن يروك هنا.

انتابني الهلع لدى سماع كلماته وتخيلت مساعد المحقق نفزت الشاب يراقبنا خلف الباب ويسمع ما نقوله.

- لا تقلق عم مشتاق لا تقلق- قالها وقد لاحظ ما ألمّ بي- فالتورط مع الشرطة عملية تأخذ الكثير من وقتنا، فمنذ قليل جاء إلي سيزجين لشراء السجائر، وأخبرني بأنهم اعتقلوه وهو كما تعلم لا ذنب له في مجرى، وقد حققوا معه حتى الصباح. كما أنهم قلبوا منزل السيدة نزهت رأساً على عقب للبحث عن دليل ما.

قالها وقد أخرج من جيبه بطاقة من النوع الرخيص عليها اسم المحل والهاتف.

- احتفظ بها، ومن المستحسن أن تعطيني رقم هاتفك أيضاً.

أذعنت له وأعطيته رقم الهاتف رقماً تلو الآخر. فلا مهرب لي الآن سوى أن أجاريه.

- سأتصل بك قريباً، ولا داعي أن تتعذب بالمجيء حتى شيشلي، فأنا سأوافيك في المكان الذي تريد- لا بدّ أن وجهي امتقع- لا تنزعج عم مشتاق. وإلا ستجعلني أحزن عليك. ولا تقلق سنحل المشكلة معاً.

(41)

كانوا سيفتحون قبر مراد الثاني

كل جريمة فعل قائم بذاته هذه القاعدة التاريخية القديمة والتي تعدّ الأساس الذي بني عليه القانون الشهير السن بالسن والعين بالعين لا زالت مستمرة رغم مرور آلاف السنين. بالطبع لن أتنطح للدفاع عن قانون كهذا وأقول أن المجرم يجب إن يعاقب بذات طريقة ارتكاب الجريمة، ولكن ما أنا متأكد منه، هو أنّ لعنة ما تنصب على القاتل، وأنه مهما حاول، فلن يستطيع محو آثار الدماء عن يديه، ولا التخلص من عار الشراكة مع عزرائيل في أمر مشين. ربما يتمكن من خداع القاضي والشرطة والشهود وحتى نفسه وربما يستطيع تأليف شتى السيناريوهات حول أنه بريء من التهمة وتوريط الآخرين فيها. ولكنها جهود لا طائل منها، فالجريمة التي ارتكبها ستظل وصماً خفياً على جبينه وعاجلاً أم آجلاً ستُظهر تلك الوصمة العادلة نفسها للجميع، وسيدرك أنّ كل تلك الأكاذيب والأحابيل والخدع لم تساهم سوى في إخفاء وصمته لبعض الوقت، ولكنها لم تمحها على الإطلاق ولن تستطيع فعل ذلك.

وليس آدم ديلّي ومحاولته ابتزازي سوى تأكيد لهذه الفكرة، فطالما أنني قمت بقتل نزهت عليّ أن أدفع ثمن جريمتي. كانت هذه الأفكار تعصف بذهني وأنا أسرع الخطى بعد خروجي من دكانة ديلّي. لقد كنت أدرك تماماً أنني أستطيع إسكات هذا المحتال القذر بمبلغ شهري ولكنني لن أستطيع إخفاء الأمر إلى ما لا نهاية. يا للموقف الرهيب الذي أوقعت نفسي فيه، فمؤرخ محترم ورجل مرموق وسليل أعرق عائلات إسطنبول، الذي تجنب على الدوام التورط في شجار بسيط حتى؛ يتعرض للابتزاز من وقح لا يتوانى عن فعل أي شيء.

- كان عليك أن تدرك هذه النتائج قبل إقدامك على ارتكاب الجريمة، فكيف لأحمق مثلك أن يقوم بأمر ناجح.



أظهر مجنون المرآة القابع في مغامرة أعماقي نفسه مستغلاً الضعف الذي ألمّ بي.

ولكنني اعترضت فليس من المؤكد حتى الآن أنني قمت بارتكابها بالفعل.

– لا زالت تواصل الكذب! وهذه المرة على نفسك.

كان محقاً ولكنني بقيت أتمسك بخيط الأمل الأخير وأنا أهز رأسي نافياً وأواصل سرد مبرراتي؛ فلما سأكذب؟ كما أنّ شهادة آدم ديلّي لا تعني تورطي في الجريمة فهناك الكثير من الأشخاص كانوا يمرون في الشارع ذاته لحظة ارتكابها.

– فلنكن دقيقين أكثر، ليس في الشارع بل الدكانة.

وماذا في الأمر؟ هل الذهاب إلى دكانة ديلّي أصبحت ذنباً؟

– لو كان الأمر عائداً لي فلن أعتبره ذنباً على الإطلاق، وأكثر من ذلك لو عدتَ الآن وقتلت ذلك القذر آدم بيديك فسأساندك بكل جوارحي، ولكن للشرطة رأي آخر، فوجودك في ذلك المكان ساعة ارتكاب الجريمة لا يمكن اعتباره مصادفة بحتة، كما أنّ التوقيت لم يكن لصالحك.

وما مشكلة التوقيت؟

– دعني أذكرك بأن المحقق أخبرك أنّ الجريمة وقعت ما بين الساعة السابعة والثامنة مساءً، وأن ورقة الفاتورة تثبت تواجدك في دكانة ذلك المبتز في تمام 83:7 دقيقة، وأنك حين استعدت وعيك أمام منزل نزهت كانت الساعة 24:7 دقيقة، أي أنّ هناك خمس دقائق تكفيك لتخرج من الدكانة وتنسى بطاقتك كالأحمق وتتجه بذهنك المشوش نحو بناء ساهتيان.

وهذا دليل آخر على البراءة، فلا يمكنني خلال خمس دقائق الوصول إلى منزل نزهت وقتلها والخروج مرة أخرى. الوقت غير كافٍ.

– هذا ما لم تكن قد قتلتها قبل أن تذهب إلى دكانة ديلّي.

قصر من رمال الاحتمالات يُشيد كل طابق فيه على احتمال الطابق الذي قبله. وكلها احتمالات واهية ضعيفة. ولا زلت مصراً أنّ رؤية آدم لي في ذلك التوقيت لا تعني ارتكابي للجريمة.

لكنه أطلق قهقهة أغاظتني.



- معك حق فالمحقق نفزت سيؤيدك بكل تأكيد ويقول لك معك حق أستاذ مشتاق، فوصولك إلى شقة نزهت في السابعة وأربعين دقيقة، وإخفائك الأمر عنا ومسحك لبصمات أصابعك عن المكان كله وإخراجك لأداة الجريمة من عنق الضحية ورميها في قاع البحر. كل هذا لا يعني تورط في الجريمة طالما أنك تصر على البراءة. وهكذا سيبدؤون بالبحث عن مشتبه آخر سواك. هل أنت أحمق يا هذا؟ فهذه الأدلة ستدفع أكثر القضاة ميلا لارتكاب جرائم القتل وتبريرها، إلى زجك في السجن على الفور.

ولكن ماذا عن أكين؟ من الذي اعتدى عليه وحاول قتله؟ لنفترض أنّ لديّ دوافعي لقتل حبيبتي القديمة، فما دوافعي لمحاولة قتل مساعدي القديم؟

- هذا ما لا أعلمه، ولكن ما لم تقم بإسكات هذا القذر آدم.

وكيف سأسكته؟ ما الذي تعنيه تحديداً؟

- الأمر في غاية البساطة، فمسدس والدك الذي اشتراه ولم يستعمله لمرة واحدة لا زال بحوزتك، ستقوم أنت باستعماله وتضغط على الزناد مرة واحدة، لا لا فلتكن ثلاث مرات حتى نتأكد من النتيجة، وهكذا ستخلص نفسك والعالم من بعض حثالاته.

كف عن الهذيان، فأنا لن أقوم بارتكاب جريمة قتل، أعني لن أرتكبها وأنا في كامل وعيي. وأفضل سبل الأمان التي أراها أمامي الآن هي المهادنة والموافقة على منحه بعض المال ريثما تنجلي الأمور، ونرى ما ستؤول إليه نتائج التحقيق. ألم يكن هذا الأسلوب الذي لجأ إليه تشاندرلي خليل باشا مع السلطان الفاتح بتقديم الرشاوى له عندما استدعاه إلى خيمته السلطانية أثناء الحصار؟

- وماذا كانت النتيجة؟ لقد جزّ السلطان عنقه، فبعد فتح القسطنطينية قام بحبسه على الفور وبعد أربعين يوماً قام بقطع عنقه. وأنت تحاول إتباع ذات الوسيلة الفاشلة وتضع عنقك تحت رحمة سيف الجلاد. ولكن ما رأيك أن تتبع سيرة سلطانك المفضل، السلطان محمد الفاتح الذي تتبجح هنا وهناك بأنك تعرف عنه كل شيء، وأنت في الحقيقة لا تعلم شيئاً عن أي شيء. فلو كنت تعرفه حق المعرفة لعرفت أنه اتبع سيرة قائده ومعلمه

الروحي الإسكندر المقدوني، وقام ببتر عقدة غورديوس بحد سيفه بسرعة ودون إضاعة المزيد من الوقت، ولم يتردد لحظة واحدة في حسم الأمور بأكثر الطرق فعالية، وحتى بعد فتح القسطنطينية لم يترجل عن صهوة حصانه بل بقي يحمل السيف ويرتدي الدرع، ويقال إنه استطاع فتح مئتي مدينة ليخط اسمه بحروف من ذهب على صفحة التاريخ. كان يدرك بأنه إن لم يبادر إلى قتلهم فهم سيفعلون ذلك. وأنّ مفتاح الاحترام والسلطة يكمن في القوة، وأنّ العصا لمن عصا. فلنتبع هذا الطريق القديم نحن أيضاً وننتهي من مشكلة آدم هذه بشكل نهائي.

ولكن المسكين أب لطفلين ولا زال شاباً في مقتبل العمر.

- أي مسكين هذا يا أحمق؟ إنه ينوي أن يحول حياتك إلى جحيم وأنت تشفق عليه! ألم تر الطمع الذي كان يلتمع في عينيه القذرتين؟ شخص كهذا لن يتوانى عن بيع أطفاله إن اقتضى الأمر. كف عن الترهات والنواح دون طائل وفكّر جيداً فيما سيؤول إليه مصيرك إن وافقت على مطالبه، فلو بعت المنزلين الذين تملكهما وكل ما ورثته عن عائلة سرهزين لن تستطيع إشباع مطامعه، فمن يدري أي ديون تراكمت عليه نتيجة لعب القمار أو تعاطي المخدرات أو إحدى القذارات الأخرى التي تليق به. اتبع نصيحتي ودعنا نستدعيه غداً إلى مكان مهجور ونفرغ بضع رصاصات في جبينه وننتهي من هذه الورطة.

رأيت أمام ناظري جثة آدم غارقة وسط دمائه وأنا واقف في منتصف إحدى أكثر شوارع شيشلي ازدحاماً وقد تناهت إلى مسامعي أصوات صرير دواليب سيارة جيب بيضاء تقف على بعد سنتيمترات قليلة مني ورأس ضخم يخرج من نافذة السيارة وهو يصرخ.

- انتبه أيها الأحمق، كنت ستُسحق تحت عجلات السيارة. هل أنت أعمى.

ولكنني كنت أقف متسمراً في مكاني أنظر حولي ولا أستطيع ترتيب المشاهد وربطها ببعض بطريقة منطقية فهل كانت تلك الجثة التي رأيتها لي أم لآدم؟ وما الذي يجعل قدمي عاجزتين عن الحركة وأنا أرى هذا المعتوه يواصل الصراخ والشتم.

- ابتعد أيها الغبي لما لا زلت واقفاً في مكانك. ابتعد وألا سأنزل من السيارة وأقتلك بيدي هاتين. أتريدني أن أتحول إلى مجرم بسبب حماقتك؟ لما تواصل النظر إليّ هكذا ألا تسمعني؟ ابتعد عن طريقي.

كان محقاً، ألا يكفي أنني تحولت إلى مجرم وقتلت نزهت نتيجة حماقتي، وإذا بي أدفع شخصاً آخر نتيجة حماقتي ذاتها ليرتكب جريمة قتل أخرى.

- أعتذر منك – تلعثمت وأنا أكمل – أعتذر حقاً فقد شردت قليلاً.

ولكن اعتذاري زاده حدة بدلاً من حل المشكلة.

- وماذا لو دهستك أنا أيضاً في لحظة شرود؟ يا للمبرر الوقح. ابتعد لما تقف هكذا كحمار عنيد في وسط الطريق أيها العجوز. ابتعد هيا.

رغم كل الإهانات والشتائم، فقد ابتعدت عن الطريق بسرعة وأنا أهز رأسي فيما يشبه التحية للرجل الذي كاد أن يقتلني قبل قليل.

- أسرع أسرع. هيا بسرعة.

كان الشاب الذي اختلط شعره بلحيته ليحول رأسه إلى كرة مُشعِرة، يقف تحت إشارة المرور وينظر إليّ بشفقة واضحة ومحبة لم ألحظها منذ سنوات على وجه أحد وهو يصرخ:

- أهرب يا عم أهرب. أهرب قبل أن يدهسك الجميع. أهرب من هذه المدينة المتوحشة التي ستبتلعنا يوماً ما. أهرب قبل أن يلتهمك الوحش.

اتبعت نصيحته، وحاولت الهرب من خليط الإسمنت والمعدن والبلاستيك والبشر الذي يشكل هذه المدينة، من عار الإهانة التي تلقيتها للتو. ولكن مرارة أعماقي لم تخف بل على العكس كانت تمد المجنون الذي يسكنني بمزيد من القوة.

- أجل أهرب يا مشتاق. لذ بالفرار كما تفعل دوماً. فبدل أن تقوم بصفع ذلك الوغد في سيارته اهرب. لنرى إلى متى ستتمكن من الهرب.

لم أعد أستطيع احتمال سماع المزيد من كلمات مجنون المرآة التي تزيد تشتتي وضعفي، لذا استجمعت كل قواي وأغرقته في عمق مغامرته المظلمة مجدداً.

والآن إلى أين سأذهب؟ إلى أين أتوجه مسرعاً هكذا؟ حين نظرت حولي وحاولت معرفة المكان والاتجاهات بشكل صحيح أدركت أنني يجب ألا أثق بأحد

سوى بقدميّ، فهما من تذكرا موعدي مع تيومان المسكين الذي ينتظرني منذ الظهيرة وقد شارف الظلام على أن يخيم الآن. فبعد اجتياز هذا التقاطع سأصل إلى مشفى الأطفال. ولكن ماذا عن حقيبتي التي يرقد المسدس القديم بداخلها؟ ماذا لو فتحها أحدهم؟ من سيفعل ذلك؟ بالتأكد ليست تلك السكرتيرة الكسولة ولا شازية أيضاً فهي لن تقدم على فعل كهذا مطلقاً.

عندما وصلت إلى المشفى توقعت أنّ تكون الشرطة قد أحاطت بغرفة أكين، ولكنني لم أجد أحداً في المكان سوى علي الذي رمقني بنظراته النارية المعتادة. حينها انتابني ذعر شديد، فهل تأخرت بالمجيء؟ هل تم قتله كما كنت أخشى؟

– أترى يا أستاذ لم يأتِ أحد. على الرغم من إخطارنا لهم بالأمر منذ الصباح إلا أنّ المسكين تُركَ بمفرده هنا. ولكنني لا ألقي اللوم عليهم بل على المحقق نفزت الذي طلبت منه أكثر من مرة أن يشتكي عليهم ويقدم تقارير تنص على إهمالهم المتعمد للعمل، ولكنه لا يفعل ذلك وكما ترى فهذه هي النتيجة. – وأشار بيده نحو الغرفة – ترك بمفرده ليسهل على المجرمين القدوم مجدداً وإتمام ما قاموا به.

– ولكن أين تيومان؟

– لا يوجد أحد يا أستاذ. – تمهل قليلاً – لقد ترك قصاصة ورق على الباب – ومدّ يده إلى جيبه ليخرج ورقة مطوية من منتصفها – أستاذ، لقد انتظرتك طويلاً ولم تحضر، سأذهب إلى المنزل لأمر ضروري، وسأحاول العودة خلال ساعة واحدة. تيو – ونظر إلي بعد أن أنهى قراءة الملحوظة – لا بدّ أنك الأستاذ المقصود؟

– أجل وتيومان هو شريكه في السكن.

– ونِعمَ الشريك، لقد ذهب وترك المسكين لوحده.

– لا ذنب له، فقد أخبرته بأنني سأحضر في وقت أبكر ولكن.

توجهت نظراته النارية التي زادت حدتها وبريقها الآن نحو الممر وهو يرى ثلة من رجال الشرطة يتهادون في الممر

– وأخيراً أقبل الطاقم الميمون. – سكت وهو يرمقهم بضيق – أنظر كيف يتهادون في الممر كعصبة من المجرمين في إحدى الأحياء القذرة. اقتربوا

أكثر، اقتربوا لكي أصب جام غضبي عليكم كما يجب.

بعد كل ما جرى، لم أكن في حال تسمح لي بمشاهدة ما سيحصل بين المحقق وزملائه من الشرطة، لذا اتجهت على الفور نحو غرفة أكين.

كان لا يزال غائباً عن الوعي أو ربما نائم تحت تأثير مسكنات الألم والمنومات، اقتربت منه قليلاً فلاحظت مسحة من السكينة على وجهه فأدركت أنه لا يشعر بالأم وبدا صدره يعلو ويهبط بانتظام. ولكنه عما قريب سيستعيد وعيه كما أخبرنا الطبيب وسيخبرنا بالحقيقة وسأتخلص من هذا الكابوس، من المرجح أن يتهم جتين وأصدقائه. "حضرة القاضي، عندما فتحت الباب ووجدت جتين والبقية لم يخطر لي ولو للحظة ما ينوون لذا سمحت لهم بالدخول، ولكن كما ترى فقد تجهموا عليّ و...". ولكن ربما لا علاقة لجتين بالأمر ربما سيشير بإصبعه نحوي في قاعة المحكمة. ولكن لا، فما علاقتي بأكين ولما سأقدم على محاولة قتله؟ كما أنني لا يمكن أن أرتكب جريمتين في الوقت ذاته. ولكن من قال إنهما ارتكبتا في الوقت ذاته؟ فالجارة العجوز أخبرتني أنه عاد للمنزل في حوالى الخامسة مع بدء عرض مسلسلها الذي نسيت اسمه بعد أن ذكرته على الفور. ولكن لما سأقدم على أمر كهذا؟ وأنا لم أكن أعلم حينها أنّه يعمل مساعداً لنزهت بل لم أكن أعلم أنها أتت إلى إسطنبول. وماذا لو سمعت بالخبر مصادفة ونسيته، فأنا ابتليت بالنسيان. بل بما هو أسوأ بالشرود النفسي اللعين الذي أغرقني في بحر الظلام هذا. ولكن لا، لا يجب عليّ الاستسلام وإلصاق التهمة بنفسي كلما التبس عليّ أمر ما. فأنا لا مصلحة لي على الإطلاق في قتل هذا المسكين. ليته يستعيد وعيه بسرعة ويخبرنا بما جرى له لأزيح عن كاهلي هذا الحمل الثقيل وأتخلص من ابتزاز آدم، وربما أقوم باستدعائه بعد أنْ تتضح البراءة وأسدي له بعض النصح، ليترك هذه الأساليب الملتوية.

اقتربت من أكين أكثر ولمست أطراف أصابعه المكسورة الغارقة حتى رؤوسها تقريباً في جبيرة جصية فبدت حركة طفيفة على يده أشعرتني بالوجل من أنني أيقظته في وقت أبكر مما يجب، ولكن ما هي إلا ثوان حتى عاد لهدوئه وتنفسه المنظم. وقبل أن أسحب نفساً من الراحة سمعت رنيناً ضعيفاً وحاداً قادماً من مكان ما، ليس

صوت جوالي بكل تأكيد. يبدو قادماً من الخزانة الصغيرة في الغرفة حيث معطف أكين الجلدي الذي أحضرناه معنا حين أتينا إلى المشفى.

أخرجت الجوال من جيب المعطف ورأيت اسم منصور على الشاشة السوداء كان يرن بإصرار، ربما كان أحد أصدقائه الذين علموا بالأمر ويود الاطمئنان عليه.

- ألو.

- ألو أكين أين أنت؟

يبدو أنه لا يعلم بشيء

- أنا. أنا أستاذ أكين.

سكت للحظات، ولا بد أنه تفاجأ، ولكي أزيل مخاوفه تكلمت بنبرة ودية وأنا أعرف عن نفسي:

- أنا الأستاذ مشتاق، مشتاق سرهزين بروفيسور ومؤرخ.

- تشرفنا يا أستاذ، وأخيراً تعرفت عليك، وأنا منصور - كانت صوته مفعماً بالحيوية - لقد كان أكين مصراً طوال الفترة الماضية على إخفاء اسمك مكتفياً بالقول بأنك أحد أساتذته من الجامعة. ولكن أين هو؟ كنا متفقين على أن نلتقي اليوم.

لم أفهم سبب إخفاء أكين لهوية نزهت عن الآخرين، ولتجنب مشقة سرد الأحداث مرة أخرى اخترت إخفاء الأمر عنه.

- أكين متعب قليل، وهو نائم الآن

- يا للحظ العاثر. أبلغه تمنياتي بالشفاء. على أي حال يا أستاذ نحن لسنا بحاجة إليه الآن طالما تم التعارف بيننا، لذا أود أن أعرف ما الذي تقترحه بشأن مسألة القبر؟

عن أي قبر يتحدث؟ أيعقل أنّ الأمر اختلط عليه وظنّ بأنني من يشرف على البحث بدل نزهت؟

- فأنت صاحب المشروع يا أستاذ.

أنا صاحب المشروع؟ لا لست أنا، إنها حبيبتي التي قتلت منذ ليلتين، هو يتحدث بالطبع عن القبر الموجود في الكلية المرادية، فهم كانوا سيفتحون قبر مراد

الثاني من أجل الفحص الطبي لبقايا العظام. ويبدو أنها لم تتمكن من الحصول على تصريح رسمي فلجأت إلى طريق ملتوٍ، ولم يفاجئني الأمر فمحاولة اتهام جدنا الأعظم بجريمة بشعة كهذه لن تلقى القبول بكل تأكيد. ولكن أهي محاولة اتهام أم إظهار الحقيقة؟ أي لعنة كانت فلن أتورط في أمر مماثل فأنا غارق حتى أذني في مصائب أخرى، وكلها تتعلق بنزهت، ولا أريد مصيبة جديدة. ولكن من قال إنها مصيبة، ربما تكون فرصة ساقها إليّ القدر للكشف عن أهم سرٍ تاريخي، وسيكون من الجنون لو ركلتها وتصرفت بجبن وأخبرته الحقيقة.

– أليس كذلك يا أستاذ؟

كان منصور يواصل إقناعي مستغلاً الفرصة لمنافع مادية بالتأكيد.

– فما كان من داع لتضييع المزيد من الوقت مع مدير دائرة الآثار في بورصا، فبغض النظر عن كونه خال أكين، بل حتى لو كان والده لن يوافق على نبش قبر كهذا. فلو سمع أكين نصيحتي منذ البداية لما أضعنا كل هذا الوقت، ولكن الأمر قد حسم منذ زمن. على أي حال فقد قضي الأمر والآن بما أننا تعرفنا فلنتفق إذاً.

– حسناً، حسناً. أخبرني بالتفاصيل.

– لا أستطيع – على الفور تغيرت نبرة صوته – فكما تعلم لا يمكن التحدث عن هذه المواضيع عبر الهاتف.

أحسنت يا مشتاق، فبعد الانتهازي آدم جاء دور لص القبور هذا للتعامل معه. ولكن حتى لو كان الشيطان بذاته لن أضيع الفرصة من يدي، فقد تكون البراءة والشهرة معلقتين بهذا اللص

– معك حق – قلتها بهدوء أغطي به على الانفعال الذي انتابني – ومتى تريد أن نلتقي؟

– على الفور.

– على الفور؟

لا فأنا لست على عجلة من أمري إلى هذه الدرجة، ولكن يبدو أنه يخالفني الرأي.

- لا داعي لتأجيل الموضوع أكثر من ذلك يا أستاذ. كما أنني كنت متفقاً مع أكين من أجل مقابلته اليوم، ولكن بما أننا تعرفنا فمن الأفضل أن تحضر بنفسك وستتعرف على حسن أيضاً، فهو شخص ضليع في هذه الأمور ويعرف كيف يمكننا الوصول للقبر كما أنه يعرف كل زاوية في تلك المنطقة، وستتفقون على الأجر الذي يريده وعلى عمولتي أيضاً. تعال إلى دكانه في زيرك فنحن بانتظارك هناك.
- وهل دكانه في زيرك؟
- ألم يخبرك أكين عن عنوان المحل؟ يبدو أنه شخص كتوم جداً. حسناً، إنه محل خردوات يدعى (ساغلام للخردوات) في شارع إيبادت هانة قبالة جامع الملا زيرك. هيا يا أستاذ أسرع فنحن بانتظارك.
- حسناً – قلتها وتنفست بعمق فانسابت رائحة الأدوية لتغمر صدري – حسناً، أنا قادم على الفور.

(42)

الحب، يُذهب بعقل المحبين

عندما خرجت من المشفى كان الثلج قد أعاد الكرة على المدينة، ولكنه كان ينهمر بهدوء دون ريح عاصفة أو ضجيج ليغطي بصمت على ألوان المدينة ويوحدها بلونه، كانت ليلة مثالية لتحقيق رغبة نزهت في السير ليلاً تحت الثلج المنهمر، ولكنني لم أكن بحال تسمح لي بذلك، فقد كنت منشغلاً بصراع ثلاثة أصوات متضاربة في ذهني.

- فلنعد إلى منزلنا، ما علاقتنا بالسلاطين وكيف ماتوا أو قتلوا بعضهم البعض، دعنا من التورط في مشاكل نزهت ولنعد إلى منزلنا الدافئ يا بُني ولننعم بالهدوء– صوت والدتي التي كانت على الدوام تعتقد أنّ الابتعاد عن المشاكل سيجنبنا التورط فيها؛ كان يوقظ لدي حنيناً كبيراً إلى دفء منزلي وأيام الهدوء والدعة ولكنني للأسف لا أستطيع تحقيق رغبتها فأنا غارق في المشكلة حتى ما فوق الغيوم التي تعلو رأسي الآن.
- لا تسمع كلام تلك المرأة يا بُني، فقد سمعته طوال سنوات وكنت على الدوام أخسر كل الفرص. عليك أن تتجه إلى الجهة الأفضل؛ إلى المحقق نفزت وتخبره بكل ما جرى منذ البداية، صدقني فمحققو الشرطة ليسوا أغبياء كما تحاول الروايات البوليسية أن تظهرهم، إنهم ذوو خبرة واسعة وسيتمكنون من مساعدتك، كما أنهم يخدمون دولتنا وقوانينها.

في الحقيقة، كنت مزمعاً على تنفيذ وصية والدي، وأخبار المحقق الشاب الذي ينتظر خارجاً وإطلاعه على تفاصيل الأمر، ولكنني بقيت في انتظار مجيء تيومان، وعندما غادرت الغرفة لم أجد أثراً للمحقق علي، وبدلاً منه وجدت اثنين من رجال الشرطة جالسين أمام الباب يتبادلان الحديث وحين سألتهما عن المحقق الشاب أجابا



بضيق واضح أنهما لا يعرفان أين هو.

- حتى لو التقيت بعلي فلا تخبره شيئاً الآن - بدا صوت مجنون المرأة يرتفع من جديد - دعنا نذهب للقاء هؤلاء الرجال ونطلع على تفصيل الأمر لنقرر بعدها ما علينا فعله، ولكن عليك أولاً التوجه إلى عيادة ابنة خالتك لأخذ حقيبتك من هناك، وأخيراً العودة إلى شيشلي من جديد، ليس لزيارة أكين في المشفى بل لزيارة آدم، وسيكون حينها الوقت قد تأخر وفي ليلة شتائية مثلجة كهذه أظن أنّ الشوارع ستكون خالية، وسيفرح بالتأكيد عند مشاهدتك ويعرض عليك الدخول وفي اللحظة المناسبة تفرغ في رأسه القذر ثلاث رصاصات، وتأخذ بطاقتك المصرفية وورقة الفاتورة تلك، وستفرغ في جيوبك كل النقود التي في الدرج، وتعود بعدها إلى المنزل قرير العين.

صحيح أنني لم أقتنع بما يقوله هذا المأفون، ولكنه نبهني إلى نقطة هامة، وهي حقيبتي التي تركتها عند شازية، فمن المستحسن أن آخذها معي قبل لقاء لصوص القبور هؤلاء تحسباً لأي طارئ، لذا اتجهت نحو الشوارع الخلفية من أجل الذهاب إلى أوصمان باي.

- أهلا سيد مشتاق. تفضل.

لقد سررت لرؤية السكرتيرة فسأخذ حقيبتي على الفور وأذهب قبل أن تراني ابنة خالتي، ولكنها لم تمنحني الفرصة

- السيدة شازية في الداخل وهي تنتظرك.

تجولت نظراتي في المكان

- وحقيبتي؟

عادت لتواصل الحديث بتلك النبرة الباردة المعتادة

- الدكتورة أخذت الحقيبة إلى غرفتها.

ربما ما من داعٍ للخوف، وقد أخذت شازية الحقيبة دون أن تحاول فتحها ومعرفة ما بداخلها، ولكنني ما إن فتحت باب الغرفة حتى أدركت العكس.

فقد كانت لعبة والدي الحديدة تقبع ببراءة تامة على الطاولة، أجل ببراءة تامة



مقارنة مع نظرات ابنة خالتي التي تقدح شرراً من خلف نظارتها ذات الإطار العاجي، حتى إنني خفت أن تصيبني طلقات نارية من عينيها لا من المسدس. وبدا وجهها تحت ضوء المصباح الأصفر يميل مع كل لحظة تمر ليشبه وجه والدتها. "ها قد كُشف المستور يا مشتاق وظهرت كل قذاراتك التي تحاول إخفائها، ولن تستطيع أن تخدعنا بعد الآن".

– أين كنت يا مشتاق؟

لم تكلف نفسها عناء الانتظار حتى أغلق الباب كي لا تسمع السكرتيرة، وكان تصرفاً مستهجناً من ابنة خالتي التي لا تفقد سيطرتها على نفسها بسهولة، وأيضاً تصرفاً لا يشبه اللين الذي أبدته البارحة مساءً بعد الشجار الذي نشب بيننا. لقد عادت لتقمص دور المرأة الحديدية التي تجلس بثقة وراء طاولة مكتبها وتمارس سلطة مطلقة في مكان عملها. ولكنني بدوري أجبت بحدة على الفور وقبل أن أغلق الباب:

– كنت في منزل نزهت. فقد استدعاني المحقق من أجل أمور تتعلق ببعض الوثائق العثمانية. فهناك اعتقاد سائد بأن الجريمة قد ارتكبت بسبب بحث تاريخي كانت تعمل عليه نزهت. حول قتل الفاتح لوالده.

أجابتني بسخرية واضحة.

– تعني قتل الأب أليس كذلك؟ لقد انتقلت إليك هذه اللوثة من فرويد أليس كذلك؟

كانت تلمح بنبرتها تلك إلى تورطي أنا أيضاً في الموضوع، ولكنني لم أبالِ على الإطلاق بما كانت ترمي إليه، حين أشارت بسبابتها نحو المسدس الموضوع على الطاولة وهي تقول:

– وما هذا يا مشتاق؟

لم أكن في وضع يسمح لي بتحمل مزاجية شازية الآن فأجبتها ببرم:

– مسدس. مسدس والدي القديم. وقد وافقت على أن تنتقل إليّ رخصته بعد وفاته، بناء على إصرار والدتك لكي يكون هناك ما نحمي به أنفسنا في ذلك القصر الكبير – اقتربت من الطاولة بهدوء وثقة – وأعتقد أنك شاهدته من قبل، فحين أتيت إليّ وأخبرتني بوجود لص في منزلك، أخرجت المسدس

وذهبنا سوياً للبحث عنه.

رفت بجفنيها الذين أثقلهما الماكياج وزاد من كثافتهما.

- أعلم ما هو، ولكنني أسألك عن سبب وجوده في حقيبتك.

- كان معي، ولكنني عندما توجهت للقاء الشرطة فضّلت تركه هنا.

حدقت إلى وجهي بنظرة ملؤها الاتهام وهي تقول:

- لا أسألك لما تركت الحقيبة هنا، بل أود أن أعرف لما كان المسدس بداخلها يا عزيزي.

أخذت المسدس من على الطاولة وأنا أجيبها:

- لحماية نفسي.

- ممن؟

وبدا القلق في عينيها.

- من القتلة.

كانت ترقبني دون أن ترمش، حتى لا تضيع أي حركة صغيرة أقوم بها أو أي تغيير يطرأ على وجهي

- أي قتلة؟

وقبل أن أجيبها أعدت المسدس إلى داخل الحقيبة التي على الطاولة:

- قتلة نزهت.

ورمقتها بنظرة ملغزة وأنا أردف:

- فأنا لا أعلم أين هم ومتى سيعتدون عليّ.

ولكنها تخلصت من أثر نظراتي وكلماتي على الفور.

- وهل اتضح الفاعل الحقيقي؟ هل عرفوا من قتل نزهت؟

واصلت تقمص الهدوء دون أن أبدي ما يشير إلى خوفي من سؤالها.

- أنا لا أعلم. ولكن ربما أنتِ لديك معلومات أكثر.

اهتزت ثقتها بنفسها قليلاً وهي تنظر إليّ.

- ما الذي تقوله يا مشتاق؟ كيف لي أن أعلم من هم القتلة؟

بقيت أرمقها وأنا أجلس على الكرسي الذي يجلس عليه المرضى عادةً.

- ربما أخبرتك نزهت بشكوكها بعد زياراتك المتكررة إلى منزلها.

ظننتها ستنكر الأمر، ولكنها استرخت في كرسيها الجلدي الأسود وهي تقول:

- إذاً فقد علمت بالأمر؟

- أجل.

كنت أحاول التحدث بهدوء قدر المستطاع.

- ولكن لما افتعلت ذلك الشجار السخيف مساء البارحة طالما أنك ونزهت كنتما على تواصل مستمر؟

أشاحت بنظراتها.

- لأنني لم أشاهدها ترتدي عين الياقوت من قبل، ربما شعرت بالخجل من ارتدائه أمامي.

كان جواباً منطقياً فلطالما شعرت نزهت بالحرج من هديتي الثمينة هذه، وفجأة انتابتني نوبة غضب كتلك التي انتابتها البارحة عندما شاهدت صورة العقد حول جيد حبيبتي بالأمس، فهي قد أخفت عني الكثير كما فعلتُ بدوري، لذا سألتها بحزم:

- شازية أنت ابنة خالتي وقريبتي الوحيدة. وأنت تعلمين المحبة التي أكنها لك، ولهذا السبب لا أتمنى لك السوء، ولا أتمنى توريطك في أمر سيئ. لذا أرجو أن تجاوبي بصراحة على سؤالي.

- تفضل.

ورفعت رأسها قليلاً وهي تنظر إلي بتحدٍّ.

لقد تبادلنا الأدوار وكأنني الطبيب وهي المريضة.

- أين كنت قبل يومين بين الساعة السادسة والثامنة مساءً؟

- ماذا؟ - قالتها صارخة - إلى ما تلمح؟ أتعني أن لي علاقة بهذه الجريمة؟

كانت ترتعش غضباً.

- هل أنت مجنون يا مشتاق؟ كيف تفكر في أمر كهذا؟

قد أكون مجنوناً، ولكن لدي أسباب كافية لأشك بها، لذا واصلت التحدث بالحزم والهدوء السابقين.

- أنا لا أتهمك بشيء، فقط أود معرفة مكان وجودك.

- مشتاق أنت مجنون حقاً - قالتها بنبرة تخللتها خيبة الأمل أكثر من الغضب وأردفت - أجل أنت مجنون وبحاجة للعلاج.

لم أهتم لكلماتها وواصلت:

- ولكنك لم تجاوبِ على السؤال بعد.

نظرت إلي للحظات قبل أن تجيب:

- كنت حوالى الساعة السادسة والربع تقريباً في منزل أحد المرضى المصابين بمرض باركنسون وهو السيد سيزاي بسبب زيادة أعراض مرضه، كما أن زوجته ميرال وابنه شكري وزوجة ابنه أمل والممرضة المولدافية يلينا والموكلة بالاعتناء به يشهدون على كلامي، وإن شئت سأعطيك رقم هاتفهم للتأكد.

ربما لو كانت الظروف مغايرة لشعرت بالخجل بعد أن اتضح أنها بريئة ولكنني لم أشعر بأي خجل أو شعور بالذنب لاتهامها بأمر كهذا، فلأنها أخفت عني زياراتها لنزهت فلا بدّ أنها تخفي الكثير أيضاً. لذا فقد واصلت سردها عندما لاحظت أنني لا زالت أرمقها بذات النظرة الاتهامية.

- وخرجت حوالى السابعة من هناك، كانت الشوارع مغطاة بالثلج والسكينة البيضاء تعم إسطنبول برمتها بسبب انزواء الناس في منازلهم في وقت باكر، لذا راق لي المشي في ذلك الهدوء وعدت سيراً إلى المنزل.

سحبت نفساً عميقاً وبدأت تستعيد شيئاً من الهدوء ورفعت رأسها لترمقني بنظرات الاتهام مرة أخرى.

- وعندما وصلت مررت لرؤيتك قبل أن أذهب إلى المنزل ولكنك لم تكن في البيت، وأظنك لم تنسَ أنك اتصلت بي يومها ولكنني لم أنتبه للأمر إلا بعد أن وصلت إلى المنزل. ولأذكرك بالأمر جيداً فقد كانت الساعة تقارب الثامنة، عدت بعد ساعة لأطرق بابك، ولكنك لم تكن قد عدت بعد، وفي المرة الثالثة كانت الساعة العاشرة مساءً حين فتحت لي الباب - واستقرت نظراتها على قدمي وهي تكمل - أتذكر حالتك؟ كنت تبدو غريب الأطوار، أجل لقد كنت قلقاً وخائفاً ومضطرباً على غير عادتك، وقد أخبرتني حينها أنك خرجت للسير تحت الثلج. ولكن هل من المنطقي أن يسير أحد ما

تحت الثلج لمدة ساعتين ونصف؟

عادت شازية التي أعرفها، القوية والتي تستطيع مواجهة المواقف على اختلاف أنوعها بذلك القدر من الهدوء والصلابة، وتحللها بطريقة منطقية مذهلة، فعدا عن كونها نفت التهمة عن ذاتها، بل لقد قلبت الأدوار بصورة كلية لتتجه الاتهامات نحوي، ولم تكن مخطئة في ذلك، ولكنني لم أكن أملك رفاهية الاستسلام.

- لن تستطيعي التستر على غلطتك وراء هذه الاتهامات السخيفة - بادرت بالهجوم - فمن أخبرك أنني كنت أسير لساعتين ونصف؟ فهل أنا مجنون لأواصل السير وأهيم على وجهي كل تلك المدة في ليلة كتلك؟ لقد ذهبت لتناول العشاء في مطعم جيا الذي تحبين الأطعمة التي يعدها. ولكن الأهم من هذا كله عدم إخبارك لي بأنك كنتِ تقابلين نزهت.

- لقد أخفيت الأمر لمصلحتك - بدا صوتها أكثر دفئاً وزايلتها تلك البرودة الحديدية - لم أشأ أن تعيش الألم ذاته وأن تنفتح الجروح التي اندملت.

أثارت كلماتها شجوني، ولكنني واصلت المقاومة.

- إذاً لما كنت تلتقين بها أساساً؟

- لفهم حقيقة ما جرى، فكل ما أعرفه عن نزهت هو عن طريق كلماتك ووجهة نظرك أنت، كنت أعرف فقط ما تقوله عنها، وكان عليّ إدراك الحقيقة كلها لأتمكن من مساعدتك بصورة صحيحة.

- أي أنك لم تثق بما كنت أقوله؟

ولكنها أجابت عن سؤالي الغبي إجابة ذكية

- لم أثق بالطبع، لأنك كنت متيماً بها حدّ الجنون، والحب يذهب بمنطق الإنسان وحياديته، الحب، يُذهب بعقل المحبين. ويستحيل أن يقيّم أحد الشخص الذي يحب بطريقة موضوعية. وهذا ما كنت تفعله، ففي بعض الأحيان كنت ترفع المسكينة لمرتبة عالية، وأحياناً كنت تنزلها إلى الدرك الأسفل أسوة بأسوأ الشياطين. كانت الحقيقة في مكان ما في الوسط، وكان عليّ معرفتها.

- لهذا ذهبت للبحث عن نزهت؟



- لم أبحث عنها بل التقينا صدفة قبل شهرين. التقينا أمام نفق المترو القريب حين كنت قادمة إلى العيادة. وهي من تعرّف علي وقالت لي: "لم تتغيري على الإطلاق". ولكنها كانت قد تغيرت كثيراً، وكأن ذلك الجمال اهترأ بفعل الزمن أسرع مما يجب – حدقت فيّ للحظة قبل أن تكمل – انظر إلى نفسك، فحتى مجرد الحديث عنها يسبب لك الضيق والألم.
- لا. لا هذا ما يهيأ لك.

تمتمت ولكنني لم أتمكن هذه المرة من إخفاء وجيب الحزن في صدري ولا الأسى على ملامحي، فكلانا كان يعرف تمام المعرفة أنها محقة فيما تقول.

- الحياة كالحب يا مشتاق قسوتها أكثر من لذتها، وخاصة على النساء. فتلك الصبية الجميلة التي أذهبت بعقلك وقلبك تحولت إلى امرأة في طور الشيخوخة – تنهدت بصدق هذه المرة وهي تكمل – ولكن ابتسامتها حافظت على سحرها القديم، وظل ذلك البريق في عينيها. حدثتني عنك، وأخبرتني بأنها لم تتصل بك منذ سنين طويلة، لم تخبرني عن السبب ولم أسألها بدوري، وعرضت عليّ أن أزورها في منزلها لشرب الشاي، وأعطتني رقم هاتفها، وبعد أسبوع اتصلت بها من أجل أن نلتقي.

تخليت عن محاولتي الحمقاء في استجوابها، وبدأت أستمع بكل جوارحي إلى كل كلمة تقولها عن حبيبتي التي لا أعلم عنها الكثير منذ سنين.

- قمت بزيارتها لثلاث مرات فقط، وقد أتت هي مرة إلى عيادتي، فقد كانت تعاني صعوبة في النوم، وأعطيتها دواء مهدئاً.

لم أتمكن من كبح السؤال أكثر من ذلك:

- ولما لم تتصل بي؟
- لم نناقش الأمر، ولكنني لاحظت أن حياتها الخاصة لم تكن تسير على ما يرام، وأنها تعرضت للكثير من الأذى النفسي. وفي هذه الحالات يبحث الإنسان عن شخص يحبه دون مقابل أو شروط، شخص يمتلك الشفقة والحب الكافيين لتضميد جراحه. لا تحدق إليّ هكذا، فالبشر مخلوقات أنانية دون استثناء، وكلنا نبحث عمن يواسينا ويخفف من آلامنا قبل التفكير

في الآخرين. وأظنها طلبت رؤيتي من أجل معرفة أخبارك، وما تكنه من مشاعر اتجاهها.

- وما الذي أخبرتها به؟
- أخبرتها بأنك لم تعد تحبها. وأن اللقاء بها سيسبب لك الحزن مجدداً وسيفتح جراح الماضي.

ربما كان عليّ الصراخ في وجهها ولومها على ما قالته لنزهت وحال دون اتصالها بي في وقت أبكر من ذلك، ولكنها ستكون مجرد محاولة لحجب الحقيقة الواضحة كالشمس، فنزهت لم تكن تحبني، وربما لم تفعل ذلك على الإطلاق، كانت فقط جريحة وبحاجة لمن يداوي جراح تسبب بها الآخرون الذين فضلتهم عليّ. وربما كان الأمر أسوء من ذلك، ربما كانت تشفق عليّ وتشعر بالذنب نتيجة ما فعلته بي، وتريد أن تطلب مني السماح لتريح ضميرها وتواصل الحياة وكأن شيئاً لم يحدث. ولكن لم غيرت رأيها واتصلت بي إذاً؟ بالطبع من أجل الاستعانة بي في مشروعها الجديد، فعندما يتعلق الأمر بتألقها المهني، فليذهب مشتاق ومشاعره البالية إلى الجحيم.

- لم تتصل بك أليس كذلك؟

كانت تسأل دون أدنى ذرة شك.

- من نزهت؟

تمتمت.

- ومن سواها؟

بدأت تحدق إليّ الآن وهي تراقب آلة الكذب الجالسة أمامها لتتأكد مما يجول في خاطري.

- هل فعلت ذلك؟

بدأت الشكوك تصدع الثقة السابقة في صوتها وأكملت بجزع مفاجئ.

- مشتاق، لم تذهب إلى ذلك المنزل أليس كلك؟ لم تكن هناك ليلة حدوث الجريمة؟

كان عليّ نفي هذا الاتهام، بل وتوبيخها على سؤال كهذا كما هو المفروض،



ولكن الكذب قد أتعبني ومؤامرات اليومين المنصرمين ومحاولاتي للصمود أرهقتني، وكانت مخاوفها تتعاظم مع كل ثانية صمت إضافية، حتى تحول إلى فزع حقيقي وهي تسألني شبه راجية.

- أنت لم تقتلها أليس كذلك يا مشتاق؟

كان عليّ القول بأنني لا أذكر وإزاحة هذا الوزر عن كاهلي، ولكنني تخليت ما سيحدث حينها والرعب الذي سيطر عليها، وستبدأ حينها بالبحث عن طريقة للمساعدة، وقد لا تفعل بل تسلمني للشرطة بكل بساطة. أي أن كافة الطرق تؤدي إلى مصيبة محتومة حاولت تجنبها مجدداً بالكذب.

- ما الذي تقولينه يا شازية؟

وأردفت بحدة:

- ما الذي سيدفعني لقتل نزهت؟

على الرغم من عدم اقتناعها إلا أنها حاولت التحلي بأكبر قدر من التهذيب.

- أعتذر، فأنت بالطبع لن تقدم على أمر كهذا عندما تكون بكامل وعيك، ولكن ماذا لو كنت قد تعرضت لنوبة من تلك النوبات.

حاولت الرد عليها بالحجة التي أوردتها هي من قبل:

- ما بك يا شازية؟ أنسيت بأنك من أخبرني البارحة بالذات أن مرضى الشرود النفسي لا يمكنهم القيام بجريمة قتل أثناء تعرضهم للنوبة؟ وأنها ردة فعل للدماغ لعدم قدرته على تحمل الواقع وحقائقه، لذا يحاول التهرب بالنسيان المؤقت.

- لا أعلم لا أعلم.

هزت رأسها بضيق.

- ولكن دماغ الإنسان يعمل وفق آلية معقدة جداً لم نتوصل حتى الآن إلى فك طلاسمها، وكل ما نفعله أننا نعمم نتائج معينة على جميع الحالات في محاولة لتفسير الأمراض والأعراض التي تصيبه. ولكنها كما أخبرتك فهي نتائج عامة تتخللها آلاف الاستثناءات التي لا نعلم عنها شيئاً.

ولكنها نظرت إلي هذه المرة وهي راغبة في تصديق ما أقول

- أرجوك أخبرني الحقيقة يا مشتاق، ألم تتعرض لنوبة جديدة مؤخراً؟
- لم يحصل ذلك، لما لا تصدقينني؟ لم أتعرض لأي نوبة منذ وفاة والدتي – ولكن غيوم الشك كانت لا تزال تحجب الثقة عن نظراتها – أنا لا أكذب عليك شازية، فلو أنني تعرضت لأمر كهذا لكنت لجأت إليك على الفور.
- كنت أخبرتني أليس كذلك؟

وأخيراً، بدا وكأنها تقتنع.

- بالطبع. فأنا لا خيار لدي سوى إخبارك بالأمر لمساعدتي – وأشرت إلى الحقيبة التي كنت قد وضعتها في حضني – وهذا السلاح أكبر دليل على ما أقوله، فلو كنت ارتكبت الجريمة لما سأحمل السلاح خوفاً من القتلة؟ وأنتِ تعلمين جيداً أنها آلة لا أحبذها على الإطلاق.

كانت كل كلمة تزيدها اطمئناناً وتبدد شكوكها حولي.

- ومع ذلك ليس عليك حمل ذلك السلاح. ولا مبرر لأن يحاول المجرم قتلك – وابتسمت – كما أنك أخرق كبير وقد تتسبب في إطلاق النار على نفسك.

كانت محاولة اختبائي خلف ستار خرافتي المزعومة تصرفاً دنيئاً، ولكنها كانت الطريقة الوحيدة للتخلص من أسئلة ابنة خالتي الذكية، كما أن الوقت كان يسير بسرعة، ولم يكن بإمكاني التأخر أكثر عمن ينتظرني قبالة جامع زيرك.

- معك حق – تمتمت وأنا أهم بالمغادرة – وأنا أيضاً شعرت بالندم الشديد لأنني اصطحبت المسدس معي، لكنني كنت خائفاً جداً.

(43)

إنه لشعور رائع حين ترى الآخرين يخافون منك

عندما نزلت من سيارة الأجرة كان تساقط الثلج قد توقف تقريباً، ولكنّه تمكن من تغطية الشارع بطبقة رقيقة بيضاء دفعت السائق لأن ينزلني في بداية الشارع لأنه لا يملك سلسلة لعجلاته تقاوم الانزلاق، ولم يكن هناك من ضوء ينير عتمة الليل سوى ذلك الضوء الذي يولده الثلج ببياضه الجميل والذي كان كافياً لأسير دون خوف. بدأت السير بخطى ثابتة وأنا أتلفت من حولي بحثاً عن دكانة ساغلام للخردوات ولكن ما من محلات في الجوار وهذا يعني بأنني يجب أن أتجه نحو الأعلى.

أخيراً، لاح ضوء أبيض ينير عتمة الشارع لا بدّ أنه صادر عن جامع الملا زيرك والذي كان قبل فتح القسطنطينية من أهم كنائسها وهي كنيسة بانتوكراتور حيث اعتصم جيناديوس اعتراضاً على فكرة انضمام أرثوذكس القسطنطينية للمذهب الكاثوليكي. وبعد أن فتح السلطان محمد الفاتح القسطنطينية بحث عنه بإصرار ولم يجده في الكنيسة حيث تمّ أسره من قبل الانكشاريين وبيعه فيما بعد إلى أحد أثرياء أدرنة مع بقية العبيد. وقد دفع السلطان ضعف المبلغ للثري واشترى منه جيناديوس ليحرره ويعلنه بطريرك الطائفة الأرثوذوكسية في القسطنطينية. وفيما أسير بخطى وئيدة على الثلج الذي كانت قدماي تترك أثاراً واضحة عليه، كنت أفكر بشخصية الفاتح المتعددة الجوانب، فمن جهة هو ذلك الغازي الذي لا يترجل عن صهوة جواده وينطلق من معركة إلى أخرى ومن فتح إلى آخر، ومن جهة ثانية هو ذلك الشاعر الرقيق الذي ترك لنا أبياتاً جميلة ورقيقة من قصائد الحب والغزل. هو ذلك السلطان المتسامح الذي سمح بحرية الدين والمعتقد لكافة الشعوب والأديان التي خضعت لحكمه ومن جهة أخرى كان أول من تجرأ على سنّ قانون يسمح بقتل الأشقاء بعد الاستيلاء على العرش. وهو الذي كان لا يتوانى عن بلوغ غايته مهما كانت الوسيلة وبالمقابل هو

الحاكم المستنير الذي أحب العلم والعلماء سواء من الشرق أو الغرب وحرص على تقريبهم إليه وتواجدهم في قصره وعاصمته على الدوام. أي من كل هؤلاء كان الفاتح الحقيقي؟ أي من هذه الأعمال كان مجبراً على القيام بها وأيها كانت الأقرب لروحه وقناعاته؟ ربما كان مجموع هذه التناقضات في كلٍ واحد، وربما لم يكن أياً منها. وهذا هو سبب انجذاب نزهت لشخصية الفاتح ورغبتها في إنشاء دراسة تاريخية وسيكولوجية عنه لتعطينا سيرة ذاتية مختلفة عما سبقها لهذا السلطان، ولكن إلى أي حدٍّ كانت ستقارب الحقيقة؟ ربما إلى الحدّ الذي يقارب فيه علم التاريخ الحقيقة كما حصلت في الماضي.

ولكن كل هذه الفرضيات لم تعد تهم الآن طالما أنّ نزهت قد قتلت بسبب هذه الأطروحة بالذات، ولكن أحقاً تمّ قتلها لهذا السبب؟ ألا يمكن أن يكون هناك سبب آخر؟ لا أظن ذلك خاصة بعد أن تمكن سيزجين من إبعاد التهمة عنه التي لم أكن مقتنعاً وأنا أورطه فيها. ولم يبقَ أحد سوى الأستاذ طاهر وذلك الأرعن صاحب السحنة الكريهة والذي كان يلقي على مسامعي اليوم صباحاً محاضرة عن ضرورات قتل كل من يرتكب هفوة أثناء قيادة السيارة. وقد تأكد لي هذا الاحتمال خاصة بعدما تعرض له المسكين أكين. ولكن هناك آدم ديلي الذي شاهدني في الحي أثناء حدوث الجريمة، وما الغريب في الأمر فأنا أيضاً أعلم أنني كنت هناك، ولكن ما لا أعلمه على وجه التحديد من قام بغرس السكين في عنقها؟ فآدم يبدو مقتنعاً بأنني الفاعل ويحاول ابتزازي لهذا السبب. ولكن لما سأفعل ذلك؟ لما سأقتل المرأة التي أحب؟ أظن الجواب واضحاً؛ الحقد الذي تراكم كل هذه السنوات لأنها تركتني في قعر تلك الهاوية السحيقة من الحزن والرتابة المقيتة والنسيان. الغيرة لأنها أحبت سواي وحققت ما فشلتُ فيه. آلاف الأسباب التي يستغرق شرحها واحداً وعشرين عاماً. ولكن لا، من المحال أنني من قام بقتلها. كل ما في الأمر أنني تعرضت لنوبة في تلك الأثناء وكما قالت شازية فإن قيام مرضى الشرود النفسي بجرائم قتل احتمال ضعيف، ولكن لغة الاحتمالات ليست تطمينية في هذه الحال، فهي تحمل إشارة ضمنية لاحتمال حدوث النقيض ولو بنسبة ضئيلة. أعتقد بأنني يجب أن أتخلى عن نزعة السرهزينيين المزمنة في الإحساس بالذنب وتحمل وزر كل أخطاء الكون. "نحن

ملزمون بالقيام بواجباتنا والأمور الملقاة على عاتقنا على أكمل وجه حتى تستطيع الأمة التخلص من مشاكلها، وهذا الالتزام يشكل غاية وجودنا". للحظة سمعت صوت خطى والدي الثقيلة ورائي، تلفت من حولي ولكن الشارع كان مقفراً فواصلت السير وأخيراً لاحت أضواء دكانة الخردوات كانت تبعد عني حوالى عشرين متراً، ولكنه كان صعوداً شاقاً حيث تقع الدكانة في الطابق الأرضي للبناء الذي يقبع عند زاوية الشارع المرتفعة.

كانت الدكانة عبارة عن مخزن كبير مقسم إلى ممرات عديدة بواسطة الرفوف التي تمتد من السقف وحتى الأرض وقد وضعت عليها كافة أنواع الطلاء ومعداته وأدوات الصرف الصحي وسواها. وكلها مضاءة بأضواء النيون البيضاء، ومن إحدى تلك الممرات خرج شاب وسيم بني الشعر واتجه باشًا نحوي.

– أهلاً بك أستاذ مشتاق.

لا أدري كيف تمكن الشاب من معرفتي على الفور ربما من طريقة لباسي أو من الحقيبة التي في يدي.

– مرحباً.

كان أقصر مني بصورة واضحة ورغم وسامته وأناقة ثيابه إلا أنّ نظرة عينيه كانت تشي بشيء غامض لا يبعث على الطمأنينة، كانت حدقتا عينيه التي يكاد لونهما البني يبلغ أعتاب الحُمرة، تتراقصان باستمرار وهو يتحدث، وكانت جدتي تصف هؤلاء الناس بأنهم قادرون على سرقة الكحل من العين.

– أنا منصور.

ومدّ يده مصافحاً.

صافحته بدوري وقد اختفت يده الرطبة كلها في قبض يدي الضخمة، فابتسم وهو يقول:

– لقد تأخرت كثيراً يا أستاذ واعتقدنا أنك لن تأتي اليوم.

– كان الطريق مزدحماً بعض الشيء.

أدركت أنني بدأت اللعبة بطريقة خاطئة لأن صوتي كان ضعيفاً يشوبه القلق، لذا تداركت الأمر وأنا أكمل بثقة أكبر وبنبرة صوت أكثر ارتفاعاً.

- وصلت بصعوبة إلى هنا، وكنت سأعود من منتصف الطريق بسبب الأزمة الخانقة.

ضحك ضحكة قصيرة وظهرت أسنانه الصفراء بفعل التدخين ومن ثم لفحتني أنفاسه التي تحمل رائحة الدخان الكريهة.

- أعتذر لأننا جعلناك تتكبد كل هذه المشقة وخاصة في طقس كهذا، ولكننا نتفاوض حول الموضوع منذ شهر تقريباً وكان يجب الوصول إلى حسم ما.

وفيما هو يتحدث أقبل علينا رجل خمسيني طويل القامة يرتدي طقماً بني اللون وربطة عنق حمراء أشيب الشعر يستقر شارب رفيع فوق شفّته. كان يمشي بخطى واثقة ومن الواضح أنه تجاوز مرحلة البائع البسيط ليتحول إلى مقاول أو رجل أعمال صغير.

- هذا هو المعلم حسن - قدمه لي منصور - الشخص الذي حدثتك عنه في الهاتف.

بدت على شفتيه شبح ابتسامة وهو يمدّ يده مصافحاً باحترام زائف.

- أهلاً أستاذ. أهلاً وسهلاً.

- أهلاً بك سيد حسن.

ليتني خاطبته بالمعلم بدل كلمة السيد التي بدت رسمية أكثر مما يجب، ولكنهما لم يهتما للأمر كما يبدو.

- تفضل معنا لو سمحت.

وأشار بيده نحو نهاية الممر حيث بدت طاولة ما وبعض الكراسي، ولكنني شعرت برجفة تنتابني مع هذين الرجلين الغريبين اللذين لا تشي سحنتهما بالثقة على الإطلاق وفي هذا الشارع المقفر، وهذا المخزن المترامي الأطراف الذي لو ذبحوني فيه وقطعوني إرباً فلن يسمع أحدٌ صوت استغاثاتي. ولكن المحظور قد وقع ولن أستطيع العودة. لذا، كان عليّ المخاطرة وإتمام الطريق، وقد هون مسدس والدي الذي أحمله في حقيبتي الأمر عليّ.

على الطاولة التي تقدمنا نحوها كان هناك كمبيوتر محمول فضي اللون ودفتران قذران وهاتف سماعته حمراء اللون، وورقتان مطويتان تشبهان الخرائط، وثلاثة

مقاعد مخملية القماش تحيط بالطاولة.

- تفضل أستاذ.

أشار إلى وراء الطاولة ولم أستطع أن أتبين على وجه التحديد أهي فعلاً بادرة احترام تجاه بروفيسور ورجل علم أم محاولة التاجر لإقناع الزبون؟

- لا يجوز سيد حسن فذلك مكانك.

قلتها وأنا أنوي الجلوس على المقعد المخملي ولكنه أصر وهو يمسك بيدي ويوجهني للجلوس خلف الطاولة

- أرجوك أستاذ. كما أنّ مخططات المقبرة موجودة على الطاولة وستتمكن من الاطلاع عليها بصورة أوضح هناك.

حينها انتابني فضول عارم، إذاً فتلك الأوراق التي بدت لي كخرائط هي مخطط للمقبرة. وعلى الفور مددت يدي لأخذ الورقة المطوية وأنا أقول:

- أهذه هي خارطة المقبرة؟

- أجل، فقد عملت هناك لمدة عامين في أعمال الترميم، وقد ظلّت الخرائط معي منذ ذلك الوقت – تمهل وكأنه تذكر أمراً هاماً – ولكن علينا في البداية أن نشرب شيئاً، لقد أعددنا الشاي منذ لحظات ما رأيك بكأس من الشاي يذهب عنك البرد؟

كان عرضاً مغرياً خاصة أنني لم أتناول شيئاً منذ الظهيرة حين وزعوا علينا تلك الشطائر الصغيرة في الحافلة أثناء جولتنا، ورغم ذلك بدت لي تلك الخارطة أكثر إغراء الآن.

- شكراً جزيلاً. ربما فيما بعد.

ومددت يدي نحو الورقة المطوية ولكن المعلم حسن كان أسرع مني في أخذها.

- من الأفضل أن أشرح لك الأمر بنفسي.

وبخفة فتح الورقة ومدّها على الطاولة وأزاح المحمول وكأنه آلة عديمة النفع.

- ياز يستخدمه. – شعر بأنه مدين لي بتوضيح – ياز هو ابني ولكنه بالطبع لا يستخدمه من أجل العمل وإنما من أجل اللعب ليس أكثر.

وأخيراً انتقل للحديث عن المقبرة



- في الحقيقة يا أستاذ لا يمكن أن نحفر من داخل الكلية، ولولا أعمال ترميم البئر الذي يقع في الحديقة الخلفية والذي لا زال مستمراً حتى الآن لما استطعنا تحقيق أمر كهذا. إنها أحد الآبار التي تم ردمها في ما مضى ويتم ترميمها الآن، ومن داخل هذا البئر سنحفر نفقاً لنصل إلى القبر.

وبينما كان المعلم حسن يشرح خطته ويضع دوائر ومربعات حول الأماكن والاتجاهات التي سيحفر فيها، كنت أحاول تذكر مشروع من هذا النوع في الكلية المرادية ولكن عبثاً، فلم أسمع بترميمات من هذا القبيل هناك، كما أنّ المسافة بين الجامع والمقبرة أطول مما تبدو عليه، والأهم أنّ الكلية المرادية لا تحوي فقط على قبر السلطان مراد الثاني وابنه علاء الدين الذي يرقد بجواره فقط، فهناك قبر هُما خاتون، والأمير مصطفى وجيم سلطان والأمير أحمد وأفراد آخرين من السلالة العثمانية، ولكنني لا أجد على الخارطة أمامي سوى خمسة قبور. لذا فقد اختلطت عليّ الأمور فيما يواصل المعلم حسن سرد المتاعب والصعوبات التي تكتنف مهمته.

- صحيح أنّ العمال هناك يثقون بي، ولكننا سنعمل في وسط إسطنبول.

وسط إسطنبول؟ ما الذي يتحدث عنه هذا الرجل، هناك شيء ما لا أفهمه، وفي تلك اللحظات شاهدت تلك الكلمات الصغيرة المسطرة في أعلى الخارطة، فأخرجت نظارتي لأتمكن من القراءة بوضوح.

- ولكن لا تقلق يا أستاذ لأن أعمال الحفر ستتم داخل البئر وبالتالي من الصعب معرفة ما يجري هناك، بالإضافة إلى أننا سريعون في العمل كما أنني أعرف كل زاوية في ذلك المكان.

وبينما كان يواصل الثرثرة بدأت الحروف السوداء الصغيرة تتخذ صورة واضحة بعد أن وضعت نظارتي. (كلية الفاتح) حين قرأتها شعرت بأنّ قلبي غار في هاوية سحيقة.

- ماذا؟

- أجل يا أستاذ فما من طريقة أخرى لبلوغ قبر الفاتح سوى بهذه الطريقة. - كان يحاول إقناعي بالفكرة لتحصيل المبلغ المتفق عليه - فكما تعلم أنّ قبر السلطان ليس في المقبرة بل تحت محراب الجامع.

إذاً فهو قبر الفاتح الذي كانت تنوي حبيبتي أن تفتحه، وكل التهم التي ظننتها موجهة نحو محمد الثاني كانت في الحقيقة موجهة نحو بيازيد الثاني، فالفاتح لم يكن القاتل بل الضحية وابنه بيازيد هو المتهم بتسميم والده السلطان. الآن بدأت القطع تتخذ مكانها المناسب في لوحة أفكاري، وبدأت أفهم حقيقة المشروع الذي كانت تعمل عليه، فهي تود فتح قبر السلطان محمد الفاتح. كان عليَّ إدراك الأمر منذ البداية، وأظن عقلي الباطن قد أرسل لي إشارة من قبل حين سألني الفاتح الذي حلمت به "هل سمعت عن شخص يموت بمرض النقرس؟" ولكن ذهني المتخبط بكل هذه المخاوف والأفكار لم يستطع تبين الحقيقة بصورة واضحة. كما أنّ الأشخاص الذي اقتحموا مكتبي في الجامعة كانوا يبحثون عن دراسة حول بيازيد الثاني، ولم أجد ما يشير حينها إلى اهتمامهم بالسلطان مراد. ففي شهر أيار من العام 1481 توفي السلطان الفاتح بصورة مفاجئة، وهذا الموت اللامتوقع هو ما دفع حبيبتي للبحث والكشف عن أسبابه والتورط مع هؤلاء الأشخاص المشبوهين عن طريق أكين.

- نحن بارعون في عملنا – استلم الشاب مهمة التسويق للعملية وإقناعي بها – فعندما حدثتُ أكين عن المعلم حسن اقتنع على الفور وأخبرني بأنك أنت أيضاً مقتنع بالفكرة أليس كذلك؟

كنت أهمّ بالرد عليه عندما لاحظت دخول شاب في بداية العشرينات من عمره إلى المخزن، كانت خصلات شعره مرفوعة كما هي الصيحة الرائجة بين الشباب حالياً، وله لحية خفيفة، يرتدي سترةً جلدية قصيرة وبنطال جينز قذرٍ.

- مساء الخير.

كان يتكلم بوقاحة ولامبالاة ظاهرة.

- أهلاً ياز، حمداً لله أننا تمكنا من رؤيتك. أين كنت طوال هذا الوقت؟

خاطبه منصور بسخرية.

- كنت أتجول في الجوار مع أصدقائي.

لكن والده كان يرمقه بغضب وحدة.

- يا لوقاحة أجوبته – بدا وكأنه نسي وجودي وهو يكمل تقريع ابنه – لم أرك البارحة في المخزن ومع ذلك تغاضيت عن الأمر، وعندما خرجتُ من

المنزل صباحاً كنتَ لا تزال نائماً وقد نبهت والدتك أن ترسلك إليّ حال استيقاظك، وها أنت تأتي قبل أن أغلق المحل بخمس دقائق وتقول بكل وقاحة أنك كنت تتجول.

- ولكنني أتيت في النهاية.

اعتقدت أنه سيتلقى صفعة مدوية على وجهه ولكن الأب استطاع السيطرة على غضبه وهو يقول:

- ما الذي حصل لوجهك؟

حينها انتبهت أن عينه اليمنى متورمة وأنّ شفته العليا أيضاً مجروحة وهناك خدوش أخرى تغطي وجهه.

- أعدتَّ لافتعال الشجار؟

ولكن المساعدة جاءت من منصور.

- حسناً معلم حسن هون عليك، فمن الواضح أنها مشكلة صغيرة، كما أنّ لدينا ضيفاً.

حينها تمالك حسن نفسه ونظر إلي بحرج بالغ.

- أعتذر يا أستاذ. في الحقيقة لستِ شخصاً عصبي المزاج ولكن هذا الجيل – واتجه نحو ابنه وهو يكمل – انظر فالأستاذ البروفيسور اجتاز كل هذه المسافة وأتى إلينا كيلا يخلف بوعده رغم هذا الطقس السيئ، وأنت تخترع ألف ذريعة كيلا تسير بضع خطوات وتأتي لمساعدتي في العمل.

- بروفيسور؟

وقف قبالي متوسطاً الرجلين وكأنه إن اقترب مني سيتعرف عليّ وهو يحدق إليّ، فمددت يدي مصافحاً وأنا أقول مبتسماً

- مرحبا سيد ياز.

ولكنه تجنب يدي وكأنه ستنقل إليه عدوى مرض مميت، وأخذ يرمقني بعداوة واضحة.

- إنه البروفيسور الذي حدثنا عنه السيد أكين – أوضح لابنه وقد انزعج من تصرفه معي – والذي ينوي فتح قبر السلطان الفاتح.

ورغم ذلك لم يرد على مصافحتي.

- هل أنت أستاذ أكين؟

كان صوته مليئاً بالشك.

- أجل – قلتها وأنا أسحب يدي المعلقة في الهواء – وسنعمل سوية على فتح القبر.

- كذب.

تردد صدى صوته في أرجاء المكان وهو يكمل:

- إنه يكذب يا أبي، فهو ليس بروفيسوراً. البروفيسور الذي حدثني عنه أكين امرأة.

- كف عن الترهات – قالها منصور معنفاً – فأكين لم يرضَ أن يخبرني أنا بأي معلومة عن أستاذه، فلما سيخبرك أنت؟

- أقسم لك بذلك. كما أنه أطلعني على صورة المرأة أيضاً.

- ما هذه الحماقات التي تتفوه بها؟

- ولما سيطلعك أكين على أمر كهذا؟

احمر وجهه وبقي صامتاً للحظات يتهرب من نظرات والده الغاضبة، وفي هذه الأثناء تمكنت من فتح غطاء حقيبتي ووضعت يدي على مقبض المسدس.

- هيا تكلم، متى أطلعك أكين على الصورة ولماذا؟

- قبل يومين – تنحنح قبل أن يكمل – حين خرجنا سوية من هنا مساءً قبل يومين.

أي في الليلة التي قتلت فيها نزهت وتعرض فيها أكين لذلك الاعتداء الوحشي، أيكون هو من اعتدى على المسكين أكين؟ كنت أرمقه مستغرباً مع لصي المقابر.

- خرجت أنت وأكين سويةً؟

سأله منصور وهو ينظر إليه مؤنباً.

- دعاني على كأس من الشراب في بيه أوغلو وقد وافقت وذهبت معه.

يبدو أنّ والده لم يدرك حتى الآن حقيقة الموقف، فسأله بسذاجة

- ولا بدّ أنك شاهدت الصورة وأنت ثمل ولم تدرك إن كان رجلاً أو امرأة.

ولكن ياز لم يعد يتحمل سهام الاتهام الموجهة نحوه وأشار بيده إلي وهو يصرخ.

- أرجوك أن تفهم ما أقوله يا أبي، فهذا الرجل محتال.

نظر إليّ الاثنان في حيرة.

- ابنك مخطئ بكل تأكيد سيد حسن، فأنا أستاذ أكين، وأنا بروفيسور ومؤرخ وأستطيع أن أريك بطاقتي إن شئت.

كنت أتحدث ولا زالت يدي تمسك مقبض المسدس في الحقيبة.

انتابت الحيرة الرجل إزاء الهدوء الذي تحدث به، والتفت من جديد نحو ابنه

- ما بالك أيها الأحمق، ما الذي شربته حتى تتهم الأستاذ مشتاق بالاحتيال؟

- لم أشرب شيئاً يا أبي، صدقني أنني أعي ما أقول، فقد كان أكين غير سوي.

زادت اتهامات ياز من بلبلة أفكار والده الذي هز رأسه بغضب وهو ينهر ابنه.

- ما الذي تتفوه به أيها الأحمق، ولما تتهم المسكين بتهمة قذرة كهذه؟

- إنه غير سوي جنسياً. وقد دعاني إلى منزله أيضاً. هل فهمت الآن ما أعنيه؟

- كيف؟ أتعني أنه غير سوي يمارس الفاحشة؟

ترنح للحظات وكأن ضربة قوية انهالت على رأسه.

- دعاك إلى منزله وأنت قبلت الدعوة؟

حينها بدأ الشاب يبكي بصوت مرتفع كطفل انكشف أمره.

- لم أكن أعلم غايته الحقيقية، فقد قال لي دعنا نذهب للمنزل ونكمل الشرب هناك، وقد قبلت الدعوة من أجل توطيد العلاقة معه لإقناعه بالعمل معنا.

- ما الذي تقوله أيها القذر؟ - أمسك بياقة سترته وهو يصرخ - وكيف ستوطد علاقتك مع شخص مثله؟

كان الشاب يرتعد وهو يوضح لوالده.

- صدقني لم يحصل شيء مما يدور في ذهنك يا أبي. لم يحصل أي شيء.

- كيف لم يحصل شيء وقد ذهبت بقدميك إلى منزله؟



- حين حاول الاقتراب مني أدركت ما يرمي إليه، وانهلت عليه بالضرب وتركته غارقاً في دمائه وأظنه قد مات.

لم يبالِ على الإطلاق حين أخبره ابنه بأنه ترك أكين غارقاً في دمائه، ولكنه كان يحاول التأكد من أمر واحد.

- أصدقني القول يا بُني. أحقاً لم يقترب منك؟

رفع الشاب رأسه بفخر وهو يقول:

- قبل أن يحاول مجرد لمسي بإصبعه هجمت عليه بكل قوتي وكسرت أضلعه ويده، وتركته غارقاً في الدماء - وأشار نحو عينه المتورمة وهو يقول - وقد حاول الدفاع عن نفسه ولكن لم يتمكن من ذلك فقد تركته وهو يحتضر.

يبدو أنه اقتنع أخيراً بكلمات ابنه لذا ترك ياقة سترته، ولكنه توجه بنظراته الغاضبة نحو منصور، فبادر الأخير بالدفاع عن نفسه على الفور

- أقسم لك بأنني لم أكن أعلم بالأمر، كنت أنوي إتمام المهمة والحصول على بعض النقود لا أكثر.

- اللعنة عليه وعلى نقود هذا القذر - وفجأة تذكر وجودي فتوجه نحوي مؤنباً - وأنت يا حضرة البروفيسور كيف ترضى بالعمل مع شخص قذر كهذا؟

ولكنني لم أتمكن من الدفاع عن نفسي.

- لم لا تصدقني يا أبي، أقسم بأنّه محتال، البروفيسور الذي تحدث عنه أكين امرأة، وقد شاهدت صورتها في منزله واسمها نزهة أو نزهت أو شيء من هذا القبيل.

اتجه الأب نحوي وهو يحدق إليّ بغضب وشكٍ واضحين.

- من أنت يا هذا؟ - صرخ في وجهي - وما الذي تريده منا؟

- لا أريد شيئاً صدقني - تلعثمت خائفاً وأنا أحاول تهدئته وقبل أن تصلني يده للامساك بياقتي أخرجت المسدس من الحقيبة وأنا أقول - لا تتحركوا وإلا سأطلق النار.

خرج صوتي ضعيفاً ومرتعشاً ولم يقنع ثلة اللصوص بقدرتي على إطلاق النار.



- أتهددنا أيها الحقير؟ - كان صوته أشبه برعد جعل يدي ترتعد أكثر - حاول أن تفعل ذلك وسآخذ هذا المسدس وأفرغ كل طلقاته في رأسك.

كنت أعلم أنني ورطت نفسي في كارثة جديدة، وأنني لن أتمكن هذه المرة من النجاة خاصة وأن يدي باتت ترتعد بشدة فأمسكت بالمسدس بكلتا يدي علني أخفف من تراقصه ولكن عبثاً.

- لا تقترب وإلا سأطلق النار، أقسم إنني سأطلق النار إن اقترب أحدكم مني.

وارتكبت خطئاً فادحا وأنا أتجه نحو منصور الذي بات يقترب مني بصورة كبيرة، فاستغل ياز الفرصة وانهال على رأسي بضربة مكنت منصور أيضاً من التهجم عليّ في محاولة لأخذ المسدس مني، ولكنني تمسكت بكل قوتي بسلاح والدي القديم، فيما كان يمطرني بالركلات والضربات كيفما اتفق، إلا أن يديه النحيلتين لم تكونا بالقوة الكافية لتؤثرا على جسدي الضخم.

- لا تتركاه، أمسكا به جيداً.

كان الأب الذي يتجه نحوي لمساعدة ابنه يشجع الاثنين، وأدركت حينها أنّ فرصتي بالنجاة ستنعدم إن تمكن مني الثلاثة، لذا ركلت منصور بكل ما أوتيت من قوة وتمكنت من إطلاق رصاصة من مسدس والدي العتيق الذي دوى صوته كمدفع في أرجاء المخزن، وعلى الفور شعرت بالتخفف من حمل ثقيل، فقد انبطح الثلاثة على الأرض تحت قدميّ، وأخرج مجنون المرآة رأسه من المغارة وهو يقول بنشوة:

"والآن أفرغ في رأس كل واحد منهم رصاصة وأخرج من هذا المكان".

لم أطع رغبته في القتل، ولكنني ضغطت على الزناد مجدداً، ومستمتعاً بصوته الذي هدر هذه المرة كالمدفع السلطاني.

- أخبرتكم بألا تقتربوا مني.

كانوا يتراجعون في هلع نحو الخلف وأنا أراقبهم بمتعة، إنه لشعور رائع حين ترى الآخرين يخافون منك.

- لما لا تصدقونني، لقد أتيت إلى هنا فقط من أجل التحدث معكم - واتجهت نحو حسن وأنا أكمل - ابنك مخطئ فأنا لست محتالاً، ولا أنوي زجكم في السجن.

- ولكنني سأفعل ذلك.

ظهر علي فجأة من إحدى الممرات وهو ينظر إليّ مبتسماً

- أهنئك يا أستاذ، فقد كان أداؤك رائعاً.

(44)

الأبناء الذين لا يقتلون آبائهم لا يكبرون أبداً

في كثير من الأحيان تمنعنا متعة الانتصار الآني من رؤية الخطر المؤجل، والمتربص بنا في زاوية ما. فبسبب فرحتي بتمكني من استخدام سلاح والدي أخيراً وفي المكان والزمان المناسبين، لم أتمكن من إدراك حقيقة أنّ هذا النصر سلاح ذو حدين، فهو يثبت التهمة عليّ أكثر، لأنني أتجول في الأرجاء وأنا أحمل مسدس والدي في حقيبتي. أجل كانت ثمالة الروح تذهب بعقلي، وبدأت أشعر أنني تخلصت من عبء ثقيل وأثبت لوالدي بأنني أخيراً كبرت. أهذا ما كان يشير إليه فرويد في مقالته المعنونة بدوستويفسكي وقتل الأب؟ فالأبناء الذين لا يقتلون آبائهم لا يكبرون أبداً، بالطبع لا أتحدث عن القتل الحقيقي بل القتل بشكل رمزي، والتخلص من سلطة الأب وسطوته، ولكنه للأسف أمر بعيد عن ثقافتنا ومجتمعاتنا، فنحن حتى في حال قتل الأب بصورة فعلية، لن نتمكن من التخلص من سلطته النفسية التي يمارسها علينا، ومعظمنا لا يرغب في ذلك، ويبحث على الدوام عن أبٍ ما يتكأ عليه، سواء أكان أباً حقيقياً أو سلطاناً أو زعيماً.

أياً يكن الأمر كنت أحس بالراحة وأنا أجلس في مكتب المحقق نفزت وتحت وطأة أسئلته ونظراته المشككة، رغم أنّ المحقق علي كان يردد كلما اقتضت الحاجة بأنني كنت في حالة دفاع عن نفسي. ولم أكن أبالي كثيراً بأنني كنت أكرر الخطأ نفسه؛ وهو إخفاء معلومات هامة عن الشرطة. ولكنني تذرعت بضيق الوقت وأوضحت له بأنني عندما تلقيت اتصال منصور خرجت من غرفة أكين على الفور، وسألت الشرطي الذي على الباب عن المحقق علي فأخبرني بأنه قد خرج، لذا توجهت لوحدي لمقابلة منصور وحسن، وبالطبع فقد كان علي متطلعاً على كل هذه التفاصيل لأنه كان يراقبني منذ البداية. لكن المحقق نفزت لم يقتنع بالرواية التي سقتها وكان يحدجني بإمعان



بحثاً عما يشير إلى كذبي، وسألني باتهام واضح.

- تعني أنك لم تكن تملك الوقت لتتصل بنا لمدة دقيقة واحدة وتطلعنا على ما يجري؟

ولكنه لم يتوقف كثيراً عند الأمر، وبدا وكأنه يؤجله إلى الوقت المناسب فقد كان ذهنه الآن مشغولاً بأمر أهم.

- إذاً فقد كنا مخطئين - قالها بخيبة وهو يكمل - فالسيدة نزهت كانت تنوي فتح قبر السلطان محمد الثاني، أحقاً احتمال قتله وارد يا أستاذ؟

كان يبدو كمؤرخ يريد الوصول إلى حقيقة تاريخية وليس محققاً يريد معرفة القاتل الحقيقي.

- إنه جدال قديم يا سيادة المحقق - قلتها قبل أن أقضم قطعة أخرى من الكعك الذي قدمه لي المحقق مع الشاي - وقد بدأ هذا الجدال بعد موت السلطان في المكان المسمى بالمرج السلطاني.

أعاد رأسه للوراء قليلاً وكأنه إن تمكن من رؤيتي بصورة أوضح سيتمكن من فهم ما أقوله والوصول للحقيقة بسرعة.

- وأنا أيضاً سمعت بعضاً من هذه الادعاءات.

بلعت اللقمة التي في فمي بسرعة لأوضح له:

- بالطبع ولهذا ثار الانكشاريون وقاموا بتمرد في المدينة حيث هجموا على حي اليهود وقاموا بالتهجم على الصدر الأعظم كارماني محمد باشا وقتلوه.

وشربت رشفة شاي واستمعت بمذاق السائل الساخن وهو ينزل ببطء إلى جوفي.

- إنها معلومات جديدة يا أستاذ - وأكمل متأسفاً - فنحن لا نملك معلومات حقيقية وصحيحة عن تاريخنا.

- أنت محق - أيدته في هذه الجملة من كل قلبي وأنا أردف - ورغم ذلك فحتى الآن لم يتمّ التأكد من صحة هذه الادعاءات حول تسميم السلطان الفاتح.

التمعت عيناه بذكاء وهو يقول:



- لأنه ما من دليل وما من شهود أليس كذلك؟
- بالضبط. ليس هناك سوى قصيدة من أحد مؤرخي ذلك العصر وهو آشيكار باشازاده – وحاولت اعتصار ذاكرتي – أظنها على النحو التالي:

أي طبيب أعطى السلطان الشراب
ذاك الشراب الذي اختلط بدمائه
وحبس الهواء عن رئتيه والزفير
أي ترياق ذاك الذي أودى بحياته
سألت عيناه الطبيب دون كلام
هل خنت سلطانك من أجل أعدائه؟

- هل خنت سلطانك من أجل أعدائه؟ – كرر نفزت الشطر – حقاً إنها أبيات توقظ الشك بل وتؤكده أيضاً، ولكن ألم يحاول أحدٌ قبل السيدة نزهت التحقق من الأمر؟ أعني في الوقت المعاصر حيث أصبح من السهولة التحقق من شيء كهذا بعد تطور العلم.
- أتذكر كتاب المؤلف الألماني والذي شاهدتَه في بيت نزهت؟

تذكر الكهل على الفور:

- فرانز بيبينغير.
- صاحب كتاب عصر السلطان محمد الفاتح، تم نشر الكتاب في ذكرى مرور نصف قرن على فتح القسطنطينية، وقد طرح في كتابه هذه الفكرة قائلاً إنّ السلطان الفاتح كان لديه الكثير من الأعداء الذين يرغبون في التخلص منه، كما أنّ الظروف المحيطة بموته تثير العديد من التساؤلات والشكوك. ثم وفي العام 4691 طالبت الرسامة ومسؤولة المتحف إليف ناجي بفتح قبر السلطان وإجراء فحص طبي لبقايا عظامه للتأكد من هذه الشكوك، وقد وافق الكثير من الفنانين ومدراء المتاحف والمؤرخون على الفكرة وقد أيدها عبدي إيبكجي أيضاً، كما أنّ الصحافة اهتمت بالموضوع بشكل مباشر وأخذت تراقب تطوراته عن كثب، ولكن الأمر لم يتعدَ حدود النقاش، فلأسباب مجهولة تم التعتيم على الفكرة ومنعها من التداول والتطبيق.

ويبدو أنّ نزهت عادت لفتح هذا الملف مرة أخرى رغم المخاطر التي تكتنفه.

وضع المحقق يديه على الطاولة أمامه وقد شبك أصابعه ونظر إليّ وهو يسألني:

- رغم المخاطر؟ ما وجه الخطورة في طرح فكرة قتل السلطان الفاتح مسموماً؟

أيحاول أن يقنعني بأنه لم يدرك ما أرمي إليه؟ أم أنه يحاول التلاعب بي كما فعل أول أمس عندما أتوا لمنزلي.

- الخطورة تكمن في اعتبار الأمر مسيئاً لأحد أهم شخصيات تاريخنا والذي يُعتبر رمزاً من رموزه. وكل من يتنطح بمهمة كهذه سيتهم بأنه يخون هذا التاريخ.

استمر في مواصلة لعبته.

- ولما سيُتهم بالخيانة؟ فلو كانت هذه الادعاءات حقيقية لا فائدة من إخفائها.

وتناهت إلى مسامعي كلمات الأستاذ طاهر لتنذرني "لا تسلبوا هذا الشعب المسكين المتعطش للنجاح والذي يتمرغ في إحساسه بالذنب رموزه التاريخية".

- أليس كذلك؟

أعاد المحقق ليطرح عليّ سؤاله:

- فنحن نتحدث هنا عن التاريخ؛ أي عن أحد فروع العلم، وهل يجوز أن نخفي الحقائق العلمية عن الناس؟

- معك حق، ولكن التاريخ يختلف عن بقية فروع العلم، فلو تبينت صحة هذا الافتراض سيطرح سؤال آخر نفسه على الفور، وهو من الذي قتله؟

التمع بريق اهتمام واضح في عينيه المتعبتين وهو يقول:

- ومن الذي قتله؟

- هذه مهمتك فأنت المحقق، وعلى عاتقك تقع مسؤولية البحث عن الجاني وإيجاده.

أطلق قهقهة صغيرة وهو يرد:

- على رسلك يا أستاذ، فهي حادثة وقعت منذ أكثر من خمسمئة عام وليس

من المؤكد إن كانت جريمة قتل متعمدة، كما أننا لا نملك أي دليل أو إثبات يرشدنا إلى الحقيقة هذا بالإضافة أننا لسنا مؤرخين لنلمّ بتفاصيل الحدث وملابساته وليس لدينا أي معلومات تساعدنا.

كان عليّ التصرف بحذر شديد إزاء هذا الرجل فهو أكثر خطورة من ثلة اللصوص الذين كنت معهم قبل قليل في ذلك المخزن، فرغم الاحترام الذي يبديه لي ورغم ادعائه اللطف والاهتمام بالتاريخ إلا أنني يجب ألا أثق به، فهو محقق جنائي وكل ما يرمي إليه هو القبض على مرتكب هذه الجريمة ولذا يحاول الاطلاع على المعلومات التي بحوزتي حول الجريمة بكافة الطرق.

- وما هي المعلومات التي تريد الحصول عليها؟

تململ في كرسي ومدّ جذعه من وراء الطاولة ليقترب مني قدر المستطاع وهو يقول:

- في الحقيقة لا أعرف فكل ما لدينا حول موت السلطان الغامض والمثير للشبهات هو مجرد شكوك - تمهل للحظات قبل أن يردف وقد رسم ابتسامة محببة على وجهه - لا أدلة وعلى شهود على هذه الجريمة. ألست محقاً حتى الآن فيما أقول يا أستاذ؟
- بالطبع أنت محق.
- وفي هذه الحال علينا الإلمام ببعض المعلومات عن الفاتح وأعدائه، لنتمكن من معرفة المستفيدين من موته.

بدا صادقاً في رغبته حتى أنّه كان مستمتعاً وهو يطلب معرفة المزيد عن السلطان الفاتح، ولكنها بالطبع كانت مجرد مظاهر خادعة ليوقعني في حبائل لعبة جديدة من ألاعيبه ويستدرجني إلى أحد الاحتمالات الجهنمية التي فيه رأسه، لذا كان عليّ عدم الانجرار وراء المظاهر. ولكن من جهة أخرى لم أجد ضيراً في سرد أحداث مضى عليها مئات السنين.

- حسناً، لا مانع لدي من ذلك، ولكننا نتحدث عن حادثة وقعت قبل حوالى خمسمئة عام وسيتطلب سردها بعضاً من الوقت.
- لا ضير من ذلك أستاذي. فعلي يحقق مع لصوص المقابر في غرفة التحقيق

وزينب تفحص قلادة الياقوت التي أهديتها للمرحومة نزهت. ونحن سنستمتع بجلسة تاريخية شيقة - واتجهت أنظاره نحو كأسي الفارغ وهو يكمل - سنواصل حوارنا مع كأس آخر من الشاي.

- شكراً لا أريد المزيد من الشاي، ولكنني لن أمانع لو أحضرت لي كأساً من الماء.

نهض على الفور وأخرج قنينة ماء من أحد الرفوف وملأ لي الكأس الزجاجية

- تفضل.

وبعد أن وضعت الكأس على الطاولة عاد للجلوس مكانه وهو يقول:

- ما من داعٍ للتحدث عن طفولة السلطان أو اعتلائه العرش أو حتى فتح القسطنطينية، فهذا الوقائع نعرفها جميعاً وإن لم أكن ملماً بكل تفاصيلها الدقيقة. أريدك أن تحدثني عن موت السلطان في ذاك المرج، ما كان اسمه؟ المرج السلطاني أليس كذلك حيث لفظ الفاتح أنفاسه الأخيرة.

أظنه يعرف كل شيء حتى عن هذه الحادثة، كما يعلم الكثير عن الفاتح الذي كان يعتبر نفسه ظل الله على الأرض، ويريد أن تعلو كلمة الله في الشرق والغرب أيضاً استناداً إلى الآية الواردة في سورة البقرة ﴿وَلِلَّهِ الْمَشْرِقُ وَالْمَغْرِبُ...﴾ وكان ينوي أن يضم الغرب كما الشرق لحكمه، وخلال حكمه الذي استمر ثلاثين عاماً حول السلطة العثمانية إلى إمبراطورية عظمى يخضع لها الشرق والغرب في آن. فخضعت له صربيا وشبه جزيرة موره والأفلاق وأوترانت وشرق الأناضول وطرابزون والقرم وإشقودرة وسواها العشرات من الممالك والإمارات التي دانت لحكم السلطان العظيم الذي كان مستعداً لفعل المستحيل من أجل تحقيق حلمه في بناء إمبراطورية توازي إمبراطورية الإسكندر المقدوني وقياصرة الروم، مستلهماً العزيمة من فتوحات الإسلام الأولى، كان يقضي معظم وقته في الفتوحات من معركة لأخرى ومن نصر لآخر يقود عشرات الآلاف من الجنود على اختلاف أديانهم ومذاهبهم وقومياتهم ولغاتهم. حيث كانت الإمبراطورية العثمانية تشكل خزاناً بشرياً هائلاً لهذا الجيش.

ولم أحدد على وجه الدقة كيف سيتمكن المحقق ومن خلال الحديث عن موت الفاتح، من تحديد قاتل نزهت، ولكنني بدأت بالسرد:

- أجل كان مرج تيكفور أو المرج السلطاني.

وقبل أن يبادر بالسؤال أخفض صوت جهاز اللاسلكي الذي لم يكف عن بث الأصوات والنداءات طوال الوقت

- لما ذهب الفاتح إلى هناك؟
- بالطبع، من أجل معركة جديدة، ولكن وجهته كانت مجهولة هذه المرة.

اصطنع الدهشة وهو يسألني

- ما الذي تعنيه بأنها كانت مجهولة؟ فكيف لهذا الجيش العظيم المكون من عشرات الآلاف من الجنود المحاربين الاستعداد والانطلاق دون معرفة الهدف، وكيف تم التحضير لحملة لا يعلم وجهتها أحد؟

رسمت ابتسامة ملغزة على فمي وأنا أجيب:

- أنت محق في تساؤلك، ولكن كما تعلم فقد كان السلطان محمد الثاني شخصاً كتوماً لا يثق بأحد ويحاول قدر المستطاع عدم الإفصاح عن نواياه إن لم تقتضِ الحاجة، ولكن في حملة كبيرة كهذه بالطبع كان عليه إطلاع قادة جيشه على وجهتهم خاصة وأنّ جيشه كان ضخماً جداً هذه المرة، حيث يقال إنهم كانوا حوالى ثلاثمئة ألف جندي.
- ثلاثمئة ألف جندي؟ - رددها بإعجاب واضح وهو يكمل - إذاً فقد كان ينوي التوجه لملاقاة خصم قوي جداً، ألديكم تخمينات حول الأمر؟
- يرجح المؤرخون ثلاث وجهات محتملة، الاحتمال الأول أنه كان سيذهب لمحاربة المماليك بعد الخلافات التي نشبت بين الطرفين حول ترميم آبار المياه التي تمتد على طريق الحج وأدت لنشوب الكثير من المناوشات والمعارك، وبالتالي فإن وجهته كانت نحو مصر.

أما الاحتمال الثاني فكان جزيرة رودوس التي رغب السلطان في السيطرة عليها بشدة خاصة بعد فشل حملته الأخيرة عليها، حيث كانت هذه الجزيرة تشكل خنجراً في خاصرة دولته وعثرة في وجه طموحه بالسيطرة على كافة شواطئ البحر الأبيض المتوسط.

والاحتمال الثالث هو إيطاليا فبعد سيطرة جيشه بقيادة غيدك أحمد باشا على



أوترانت أصبح الطريق أمامه سالكاً لتحقيق هذا الحلم.

ولكن لأن وجهة الجيش كانت نحو الأناضول فمن المرجح أنه كان متجهاً نحو مصر.

سألني بفضول وهو يدرك وجود حلقة مفقودة في لوحة الاحتمالات هذه:

– أما من احتمال آخر؟

سؤاله هذا كان يدل على أنه مطلع على حياة الفاتح وعصره بشكل دقيق جداً.

– بالطبع كان هناك احتمال رابع – وسكتت لبرهة قبل أن أكمل – ولكنني لن أذكره الآن، فبعد أن ننهي سردنا أظنك ستكتشفه بنفسك.

أمال رأسه وهو يبتسم ويبدي التواضع في كلماته.

– لا أظنني سأنجح في ذلك يا أستاذ ولكنني سأمتثل لرغبتك.

– أنا متأكد من أنك ستتمكن من اكتشافه. على أي حال ففي ربيع العام 1841 ترأس السلطان الفاتح جيشه للمرة الأخيرة، وكما في كل مرة فقد تم الإعداد للحملة وسط حماس كبير، وقد غادر السلطان مع جيشه العاصمة وسط احتفال عظيم يليق به، ولم تصلنا أي وثائق أو مدونات تشير لاعتلال صحته بسبب مرض طارئ، ولكننا نعلم بالمقابل أنه كان قد أكتسب وزناً زائداً وأصيب بداء النقرس كما والده السلطان. وكان يعاني آلام مبرحة عندما تشتدّ عليه أعراض النقرس ولهذا السبب تخلى عن قيادة بعض المعارك وأرسل الوزراء بدلاً منه. وهذا يشير إلى أنّ صحته كانت على ما يرام في تلك الفترة لذا قام بقيادة الحملة بنفسه ولم يسلم قيادتها لأحد من رجاله. وعندما بلغ الفاتح أوسكودار كان جيشه المتمركز في روملي قد اجتاز جاناك كالة، وكان من المزمع إن ينضم إليه جيشه من الأناضول في شهر أيار. لقد كانت هذه إجراءات روتينية اعتاد عليها جيشه الذي اكتسب خبرة عظيمة في المعارك وكانت الأمور تسير على ما يرام حتى وصول الجيش إلى المرج السلطاني.

شربت رشفة ماء قبل أن أواصل سردي من جديد:

– وبما أنك مهتم بالتاريخ فسأطلعك على معلومة غريبة بعض الشيء فالمرج

السلطاني أو مرج تيكفور كان قريباً جداً من الموقع الذي قتل القائد القرطاجي الشهير هنيبعل نتيجة كمين أعده له الرومان. كما أنّ قسطنطين العظيم الذي حوّل القسطنطينية إلى عاصمة لإمبراطورية روما قد مات في هذا المكان أيضاً. ولا نعلم أن كان الفاتح مطلعاً على هذه المعلومات أم لا، وهل شعر بالمواساة من مصادفة كهذه بعد دنو أجله المفاجئ وهو في مقتبل عمره.

تمهلت للحظات، وأفرغت ما تبقى من كأس الماء في جوفي، وعلى الفور نهض المحقق من مكانه ليعيد تعبئة الكأس من جديد، كطفل مستعد لفعل أي شيء مقابل الاستماع إلى قصته الأثيرة وأحداثها الشيقة.

- شكراً لك.

وواصلت الحديث مجدداً عن حادثة تعتبر من أكثر الحوادث غموضاً في تاريخ السلطنة العثمانية

- كانت الأمور تسير على خير ما يرام حتى بلوغ الجيش المرج، وفجأة سيطر الهلع على رجال السلطان وبدأوا بالإسراع في نصب الخيمة السلطانية الشهيرة والتي كانت تماثل قصراً متنقلاً، وقد تم نصب الخيمة قبل بلوغ المكان المحدد وسيطر على الانكشاريين وكل أفراد الجيش خوف كبير وبدأوا يتساءلون عن سبب هذا التوقف المفاجئ، وقد حاول الصدر الأعظم كارماني محمد باشا والذي ينحدر من سلالة مولانا جلال الدين الرومي، طمأنة الجميع بأنّ السلطان أمر بأخذ استراحة قصيرة حتى يصل جيشا الأناضول وروملي ولكن مبرراته لم تخفف وطأة مخاوفهم. ولكن الوضع كان أسوأ من مخاوفهم بكثير، فقد أصيب السلطان منذ بضعة أيام بألم شديد في بطنه ولم تنفع معه كل أدوية الطبيب حميد الدين اللاري ومسكناته في تخفيف حدة التشنجات التي كان يعاني منها، لذا فقد تم استدعاء الطبيب اليهودي يعقوب باشا والذي كان صديق السلطان في الوقت ذاته، وما إن عاين السلطان حتى أبدى أسفه، وصرحّ بأنّ الطبيب حميد الدين ونتيجة خلطة دواء خاطئة تسبب في انسداد معوي للسلطان بحيث وصلت حالته

إلى مرحلة اليأس، وللأسف فقد تحقق تشخيصه ففي الثالث من أيار توفي السلطان الفاتح بعد أن عانى آلاماً مبرحة.

كان المحقق يتابع حديثي وقد التمعت عيناه بفضول غريب، وبدا كصياد اشتم رائحة فريسته، وربما أخذته مخيلته إلى ذلك المرج ليتجول بين الخيم العثمانية الملونة ليصل إلى أعتاب الخيمة السلطانية بحثاً عن الفاعل وهو يقول:

- إذاً فهناك طبيبان، وهما أكثر من يجب أن نشك فيهما.
- أجل طبيبان أشرفا على علاج السلطان، ربما كان أحدهما متورطاً في قتله، وربما كان كلاهما بريئين من هذه التهمة.
- وربما كان كلاهما متورطاً في الأمر، فمن أجل قتل سلطان بهذه القوة والمكانة لا بد من اتخاذ كافة الاحتياطات والتدابير ولا ضير من شراء ذمة الطبيبين معاً.

لم أكن في موقع يخولني مناقشة المحقق وأنا جالس في مكتبه والكثير من الشبهات تحوم حولي في جريمة لها علاقة بهذا السلطان تحديداً، كما أنّ اختلاف الروايات والمصادر ولّد اختلاف الآراء والاحتمالات، ولكن الشيء الوحيد الذي جمع كل هذه الاختلافات هو حقيقة موت السلطان الفاتح في لحظة غير متوقعة تماماً مثل أبيه.

- بالطبع فإن تورط الطبيبين في مؤامرة من هذا النوع احتمال وارد، فيما لو كان السلطان قد مات مسموماً بالفعل.

تغضن جبينه وكأنه استاء من احتمال عدم وجود جريمة قتل.

- ولكن السلطان كان فقط في التاسعة والأربعين من العمر، كما أنّ صحته كانت جيدة بحيث خولته قيادة الحملة بنفسه، ألا ترى موته المفاجئ بهذه الطريقة مثيراً للشبهات؟
- كان مصاباً بالنقرس.

وعادت إليّ كلمات الفاتح وهو يسألني في الحلم عن هذا الأمر بالذات.

- ولكن مرض النقرس لا يؤدي إلى الموت.

أومأت برأسي موافقاً وأنا أبتسم.



- معك حق حضرة المحقق، ولكننا قبل خمسمئة عام لم نكن نملك محققين مختصين مثل المحققة زينب لنتبين أسباب الوفاة على وجه الدقة.
- ولهذا السبب لم يشك الناس في أنه مات مقتولاً.

أكمل المحقق.

ولكنني أوضحت له بمتعة كبيرة أنه مخطئ في هذا افتراض أمر كهذا.

- على العكس تماماً فقد كان الكل مقتنعاً بأنّ السلطان مات مسموماً، ولكنهم اختلفوا حول المتهم. فقد اتهم الانكشاريون الصدر الأعظم وقاموا بتمرد قتلوا خلاله الرجل. ولكن دعنا نسرد الأحداث وفق تسلسلها، فبعد وفاة السلطان حاول الصدر الأعظم كارماني أحمد باشا وهو شخص كان يتصف بدهاء عميق، إخفاء الأمر عن عامة الناس وعن الجنود أيضاً رغبة منه في تثبيت دعائم العرش أولاً وانتقالها إلى الوريث، لذا فقد أرسل رسالتين إلى كلٍ من ولدي السلطان.

الأمير بيازيد الثاني والأمير جيم.

- أجل، حيث كان بيازيد الثاني في أماسيا، في حين كان الأمير جيم في كارمان، وبما أنّ السلطان قد مات فمن الطبيعي أن يبدأ نزاع الأشقاء الدموي على العرش. هذا النزاع الذي سيكسبه بكل تأكيد الأمير الأكثر ذكاءً وشجاعة وسرعة في اتخاذ القرارات، وكان الصدر الأعظم يميل للأمير جيم، وكذلك والده السلطان والذي يُقال أنه لم يكن راضياً عن بيازيد الثاني، وربما لهذا السبب بالذات قام الصدر الأعظم بإرسال رسل الأمير جيم قبل رسل الأمير بيازيد بحسب ما تناقلته الروايات. ولكن الرسل الثلاثة الذين تم إرسالهم إلى الأمير جيم قتلوا من قبل سنان باشا قائد الانكشاريين في حين واصل ككليك مصطفى الرسول الموجه إلى الأمير بيازيد رحلته دون توقف واستطاع أن يصل إليه سالماً ليبلغه بموت والده.

لم يعلم الصدر الأعظم بمصير رسله إلى أميره المفضل، فقد كان منهمكاً بالإشراف على حراسة جثمان السلطان بنفسه حيث رافق العربة التي ستقل الجثمان إلى العاصمة بسرية تامة، وأعطى أوامر مشددة للجيش بعدم التحرك من المرج حتى

تلقي أوامر جديدة، كما منع تنقل سكان العاصمة بين طرفيها الأوروبي والآسيوي، ولكن ما إن غادر المعسكر حتى انتقل خبر موت السلطان كالنار في الهشيم بين الجنود - توقفت للحظة وأنا أومأ برأسي قبل أن أكمل - وهذا يعني أنّ أحدهم كان يحرك الأحداث بطريقة مغايرة لرغبة الصدر الأعظم.

- أتعني قَتَلَة السلطان؟
- في الحقيقة يا أستاذ بدأت أحسّ بأنني أخوض معك إحدى مؤامرات القصر ولن أخفي عنك بأنّ الفضول استبد بي حقاً لمعرفة الحقيقة.

لا لن أفصح له عن رأيي، فليحاول هو الوصول إلى الاستنتاج الذي يشاء.

- عليك أن تصل للإجابة بنفسك. فبعد موت السلطان وانتشار الخبر بين الجنود انتشرت معه على الفور فكرة أنه مات مقتولاً، أو أنّ أحداً ما حرص على نشر هذه الفكرة بينهم، وتولدت مشاعر من الغضب والحزن معاً، وهذه المشاعر لدى الأشخاص العاديين ليست مقلقة، ولكنها في حالة أشخاص مدججين بالسلاح الذي اعتادوا حمله طوال أيام السنة تقريباً والانتقال من معركة لأخرى، ستكون له نتائج مرعبة بلا شك. وهذا ما حدث بالفعل فقد قام الجنود الغاضبون بالعودة على وجه السرعة إلى العاصمة وكان أول ما فعلوه هو التهجم على قصر الصدر الأعظم كارماني باشا والذي كان أكثر الثقات لدى السلطان الفاتح وأحد أهم مفكري عصره، فقاموا بقتله ولم يكتفوا بذلك بل مزقوا جثته أيضاً، واتجهوا للبحث عن الطبيب اليهودي يعقوب وتتعدد الروايات بشأن مصيره فالبعض يزعم بأنه قد مات، وآخرون يزعمون بأنه اختفى لذا صبّ الجنود جام غضبهم على الحي اليهودي حيث قاموا بتحطيم المحال والتهجم على المنازل وقتلوا الكثير، وامتدت أعمال الشغب لتشمل منازل الكثير من الأغنياء ولكن إسحاق باشا الذي تركه السلطان في العاصمة ليتولى شؤون إدارتها، تدخل وأنهى هذا التمرد وأعمال الشغب وأعاد الجنود إلى ثكناتهم.
- ولكن لما لم يتدخل قبل ذلك؟ لما انتظر كل هذا الوقت حتى قُتل الصدر الأعظم وتعرض الناس للأذى؟

بالطبع كان سؤالاً مشروعاً تبادر إلى أذهان الكثيرين من قبل، ولكنني حافظت على حيادي في سرد الأحداث دون إطلاق أي حكم

- هناك الكثير من الاحتمالات، فقد يكون موت السلطان المفاجئ سبب البلبلة ومنعه من التصرف في الوقت المناسب، وربما لم يكن يتصور بأنّ الأحداث ستتدحرج ككرة ثلج لتتضخم بهذه السرعة، وربما انتظر قتل الصدر الأعظم ليتصرف بعدها وينهي الشغب.
- وأنت ما رأيك؟ أي الاحتمالات ترجح؟
- هذا ما لن أخبرك به - قلتها بنبرة حاسمة - فقد طلبت مني سرد الأحداث كما جرت وها أنا ذا أفعل ذلك، كما أنني أخبرتك منذ البداية بأنك أنت من سيحدد إن كان موت السلطان عادياً أم أنه مات مسموماً.

نظر إليّ مبتسماً وهو يقول شبه معتذر

- معك حق أستاذ مشتاق، ولكن بالتأكيد سأود معرفة رأيك في النهاية بسبب اطلاعك وخبرتك الواسعة - ولكنه تمهل للحظات قبل أن يسألني - ألم يكن إسحاق باشا هذا أحد وزراء السلطان مراد الثاني أيضاً؟

ومع استمرار حوارنا كان يثبت لي بأنه يملك ذاكرة قوية واطلاعاً واسعاً على التاريخ يفوق توقعاتي.

- أجل إنه هو. فقد كان منضوياً تحت لواء تشاندرلي خليل ومن المناهضين لاستلام محمد الثاني العرش، ولهذا السبب بالذات فقد أبعده السلطان محمد الثاني عن أدرنة وولاه ولاية الأناضول حال استلامه للعرش وزوّجه من إحدى زوجات والده وهي حليمة خاتون، ولكن ولأسباب غير معلومة غيّر السلطان رأيه بعد مرور عدة سنوات، وقرّب إسحاق باشا منه وعينه مسؤولاً عن أمن العاصمة. ولا أريد لك أن تفهم من كلماتي بأنني أوحي لك بأي انطباع عن الرجل، ولكن بعد وفاة السلطان محمد الفاتح وتولي ابنه بيازيد الثاني العرش قام الأخير بتعيين إسحاق باشا في أعلى مناصب السلطنة أي مكان الصدر الأعظم المقتول كارماني باشا.

غامت عيناه في موجة من الشكوك ولكنه بالتأكيد ليس رجل القرارات المتسرعة.

- لا نستطيع اتهام إسحاق باشا بالضلوع في قتل السلطان محمد الفاتح لهذا السبب فقط أليس كذلك؟ – تمهل للحظات قبل أن يدمدم – كما أنه من الصعوبة بمكان أن يضطلع لوحده بمهمة قتل سلطان يعتبر من أقوى السلاطين والحكام ليس في عصره فحسب بل في كل العصور.

كانت كلماته تضم إشارتين هامتين.

- لوحده؟ أتعني أنّ إسحاق باشا كان لديه شركاء آخرون؟

أطلق قهقهة صغيرة من قهقهاته المعتادة.

- يبدو أننا قلبنا الأدوار، ولكنني أستميحك عذراً يا أستاذ فأنت من يجيب على الأسئلة لا من يطرحها.

حاولت تقبل الأمر على أنه مزحة صغيرة ولكن غبائي المعهود منعني من ذلك.

- أتريد تذكيري بأنني متهم؟

اختفت ابتسامته على الفور وردّ عليّ بجدية بالغة.

- على حدّ علمي فنحن لم نوجه إليك أي تهمة على الإطلاق حتى الآن لأننا لم نملك أي دليل يشير إليك، ولكن إن كنت تعاني من عذاب الضمير وتريد الاعتراف فلا مانع لدي.

ما الذي يعنيه بهذا الكلام؟ أيعقل بأنهم يعرفون كل شيء وينتظرون اعترافي بالأمر؟ لا لا، لا أظن ذلك. فأنا من دفعه لقول هذه الكلمات بسبب حماقتي لا أكثر.

- كنت أمزح فقط – حاولت لململة الفوضى التي خلقتها كلماتي ولكنه لم يتأثر على الإطلاق بتبريري لذا اقترحت عليه – إن شئت نستطيع إنهاء الحديث؟

- على العكس دعنا نستمر، فقد بدأت باكتشاف أمور على غاية الأهمية.

لذا فقد واصلت السرد بناء على رغبته.

- لم ينتظر إسحاق باشا وصول الأمير إلى العاصمة عندما أعلن كوركوت ابن بيازيد الثاني نائباً للحكم لحين وصول والده، ولم يكن الباشا وحده من يؤيد بيازيد فقد كان هناك أيضاً سنان باشا قائد الانكشاريين، فقد زوّج بيازيد اثنين من بناته إلى قادة الجيش ولهذا السبب كان لديه الكثير من الموالين

في هذه المؤسسة، أما القائد غاديك أحمد باشا والذي كان من مناصري الأمير جيم فقد كان مع جنوده في أوترانت. كما أنّ بيازيد كان لديه أنصار من رجال الدين أيضاً وقد أخبره الشيخ المتنفذ محي الدين محمد قبل ذهابه لأداء فريضة الحج بأنه عندما يعود سيراه إن شاء الله جالساً على العرش، وقد تحقق توقع الشيخ واستحق المكافأة الكبيرة التي أغدقها عليه بيازيد الثاني.

- أتعني أنّ رجال الدين أيضاً كانوا مشتركين في هذه المؤامرة؟
- بالطبع إن كان هناك من مؤامرة – عدت لتذكيره مرة أخرى بضرورة الأخذ بكل الاحتمالات وأكملت السرد – ففي الفترة الأخيرة من حكم والده بدأ بيازيد الثاني باكتساب شعبية واسعة بين الناس وذلك للأسف على عكس السلطان الذي بدأ الناس يتذمرون منه. فبسبب الحروب والمعارك التي لم تكن تنتهي كان السلطان مجبراً على إبقاء جيشه قوياً على الدوام، ولأن أعداد جنوده كانت تعد بعشرات بل بمئات الآلاف فهذا يعني أنّ مؤسسته العسكرية بحاجة لموارد مالية ضخمة عليه تأمينها باستمرار، وهذا ما انعكس سلباً على الناس حيث فرض السلطان حزمة من الإجراءات الاقتصادية التقشفية عليهم، وصكّ عملات فضية ساهمت في تدني مستوى مقدراتهم المالية، كما قام بالاستيلاء على الكثير من أملاك وأراضي العائلات الغنية وأملاك الأوقاف ولهذا السبب بالذات فقد اتسعت الهوة بينه وبين رجال الدين هذا بالإضافة إلى الضرائب التي فرضها والتي خلقت موجة تذمر عارمة لدى الجميع. وهناك الانكشاريون وقادتهم الذي بدأوا يتبرمون من تدني مدخولهم بسبب الحاجة لزيادة أعداد الجنود الذي كانوا بدورهم بحاجة لموارد مالية هائلة. ولهذه الأسباب مجتمعة تم قتل الصدر الأعظم كارماني باشا بتلك الوحشية بعد موت السلطان.

وصل بيازيد إلى أوسكودار بعد أن وصله خبر وفاة والده في العشرين من أيار، كان أول عمل قام به هو دفن السلطان الذي بقيت رفاته كل هذا الوقت دون دفن وتعرضت للتلف بانتظار قدوم أبنائه، وفي اليوم التالي استلم العرش الذي سيجلس

عليه مدة واحدٍ وثلاثين عاماً كسلطان، أما جيم وبعد هزائمه المتلاحقة أُسر من قبل القراصنة وبقي في الأسر مدة أربعة عشر عاماً ليموت بعدها بطريقة تثير الشبهات.

مدّ جذعه من جديد وهو يشبك أصبعه على الطاولة كمن يحتضن فكرة ما.

- تعني أنّ أكثر المستفيدين من موت السلطان محمد الفاتح هو ابنه بيازيد الثاني؟

حاولت إيجاد طريقة تبعد عني تهمة انحيازي لأي طرف. "مشتاق على الدوام يبحث عن حل وسط ولا يستطيع التعبير عن رأيه صراحة". لا أدري من الذي اتهمني هذه التهمة وأظنه محقاً، فأنا الآن أحاول كل جهدي التصرف بحيادية مطلقة أمام هذا المحقق الداهية لأنجو بنفسي من أي انطباع سيشكله عني.

- صحيح فقد استفاد بيازيد من موت والده حيث آل العرش إليه، ولكنه لم يكن المستفيد الوحيد فهناك روما العدوة اللدودة، فعندما علم البابا بموت السلطان الفاتح أخذت المدافع تطلق طلقاتها ابتهاجاً وبدأت أجراس الكنائس تدق فرحاً طوال اليوم وأخذ الجميع يردد (أن النسر الكبير قد مات) واستمرت الاحتفالات طوال ثلاثة أيام. لقد أراحهم موته من كابوس ظل يلاحقهم ثلاثين عاماً، ولو عاش الفاتح لعشر سنوات أخرى مثلاً لتغيرت خارطة العالم إلى الأبد. وهذا سبب أكثر من كاف ليدفع بالإيطاليين لمحاولة التخلص من السلطان وهناك روايات تقول إن الأمراء الإيطاليين عرضوا على الطبيب اليهودي يعقوب ثروة طائلة مقابل التخلص من السلطان. ولم يكن الطليان وحدهم من يكنون العداء للسلطان فهناك المماليك أيضاً.

ولكن يبدو أنّ المحقق لم يعد يتحمل المزيد من الاحتمالات فقاطعني:

- ولكن السيدة نزهت لم تفكر بكل هذه الاحتمالات بل كانت شكوكها موجهة نحو شخص واحد وهو بيازيد الثاني، وهذا ما تشير إليه مقالة فرويد التي وجدناها في منزلها وقصاصة الورق التي تحوي الكلمات المفتاحية الثلاث: (edicirtarf ,edicilif ,edicirtap).

ولكنني لم أستطع كبح السؤال الذي يدور في ذهني رغم مخاوفي من أن ينهرني

مرة أخرى ويذكرني بأنه لا يحق لي طرح الأسئلة

- وأنت ما رأيك سيد نفزت؟ فها قد اطلعتك على الحادثة بالتفصيل، هل كانت نزهت محقة في افتراض قتل السلطان من قبل ابنه؟

نظر إلي بتمعن ليعرف ما أرمي إليه بالتحديد من سؤال كهذا، أهو معرفة رأيه فعلاً أم محاولة اختباره.

- لا أعرف. فبالنظر إلى الأحداث التي تتالت ومحاولة تسليم العرش إلى بيازيد الثاني وإبعاد الأمير جيم من خلال قتل الرسل، والعداوة القديمة بين إسحاق باشا والسلطان محمد وكثرة المتذمرين من سياساته التوسعية وحروبه، فاحتمال موته نتيجة مؤامرة من مؤامرات القصر أمر وارد بالفعل. ولكن من جهة أخرى لا نستبعد أنّ النسر الكبير كما أسماه الطليان قد مات نتيجة مرض ألمّ به. أياً يكن الأمر لا يمكن الوصول إلى قناعة مطلقة ما لم يتم التأكد بأنه مات مسموماً، أليس كذلك؟

كانت جلستنا التاريخية هذه تكاد تصل إلى نهايتها

- ولهذا السبب كانت نزهت تريد القيام بفحص رفات السلطان. وعندما فشلت في أخذ الموافقات الرسمية طلبت العون من لصوص المقابر.

عادت ملامح الشك التي كنت أكرهها إلى وجهه من جديد

- أوفقك الرأي بشكل مطلق. ولكن ما نحن بحاجة إلى معرفته الآن هو سبب مقتل السيدة نزهت، فقبل الكشف عن هوية المعتدي على أكين كنا نظن بأن الجريمتين نفذتا من قبل الشخص ذاته، وكنا سنعزو الأمر إلى مجموعة من المتطرفين للتاريخ. ولكننا لا نستطيع الركون إلى هذا الاحتمال بعد الآن.

إذاً فقد كان يشك في الأستاذ طاهر حقي وعصبته بشكل جدي وكان مقتنعاً بفكرة ارتكابهم للجريمة، ولكن وبعد اكتشاف حقيقة ما حصل لأكين بدأت هذه الفرضية تتداعى، كما تداعت فرضية اتهام سيزجين. وأخذت براءة المشكوك بأمرهم تظهر ولم يبقَ سواي، أجل فربما أكون أنا بالفعل من قام بارتكاب الجريمة، وربما جال هذا الاحتمال في ذهن المحقق أيضاً، ولهذا السبب بالذات طلب مني قبل قليل أن أعترف إن كنت أعاني من عذاب الضمير، تماماً مثل راسكولنيكوف الذي اعترف

بجريمته أمام الشرطة نتيجة عذاب الضمير. وحتى لو لم أفعل ذلك سيصلون للحقيقة عاجلاً أم آجلا فهناك الكثير من الأدلة ضدي وأهمها هو آدم ديلي وهذا المسدس الذي أتجول وأنا أحمله في محفظتي عدا عن نوبة شرود الذاكرة التي أصابتني. لعله أنسب وقت للاعتراف والتخلص من هذا العبء الثقيل. وقد استغل والدي هذه الفرصة ليهمس في أذني من مكان ما "اعترف يا بُني فلا أحد يستطيع التغلب على الدولة وموظفيها".

- لما أنت ساكت يا أستاذ؟

أعادني صوت المحقق البارد إلى الواقع، وبعد أن بدأت استمتع باللذة والراحة التي يولدها الاستسلام وكنت سأعترف غيرت رأيي فجأة. فالمتهم بريء حتى تثبت إدانته، وأنا لم تثبت إدانتي بعد، لذا ليس عليّ الاعتراف بذنب لست متأكداً من ارتكابه، وإن كان دوستويفسكي قد شاء لبطل روايته أن يُسحق تحت ثقل عذاب الضمير فأنا ضميري لا يعذبني مطلقاً، ولن أطيع رغبتي والدي المهووس بتطبيق القوانين وأزجّ بنفسي في السجن جراء تهمة لست متأكداً من ارتكابها بعد.

- هل تعاني من هذا الشرود على الدوام؟

كان عليّ إيجاد ردّ مناسب قبلَ فوات الأوان

- كنت أفكر – وطرحت أول فكرة خطرت ببالي – كنت أفكر بزوجها السابق.

تفاجأ المحقق من كلماتي وهو يسألني

- أي زوج؟

- جيري. زوجها الذي انفصلت عنه.

وكنت أستعد لإخباره بأن ذلك الوضيع كان يضربها باستمرار ولكن رنين الهاتف قطع عليّ محاولتي.

- أعتذر فربما يكون الأمر هاماً – وأخرجت الجوال من جيب المعطف ولكنني أصبت برعب شديد حين شاهدتُ رقماً غير محفوظ يظهر على الشاشة، فقد يكون آدم ديلي وستكون أسوأ لحظة يختارها للاتصال بي لو صدق توقعي.

- ألو الأستاذ مشتاق؟



سحبت نفساً عميقاً فلم يكن صوت آدم بل بدا صوتاً مألوفاً

- أجل، تفضل.
- الأستاذ طاهر حقي - وسكت للحظات وكأنه يكابد صعوبة في إتمام الجملة. - الأستاذ طاهر.
- أجل ما به الأستاذ طاهر؟

ونطق الجملة التي جعلت قلبي يغور في هاوية سحيقة من جديد

- لقد مات الأستاذ طاهر في منزله هذا المساء.

(45)

لقد أودى خطأك بحياة إنسان بريء

الأستاذ طاهر حقي كان أكثر الأشخاص الذين ساعدوني في حياتي، والرجل الذي كنت أحبه أكثر من والدي وصديقي القديم، وها قد رحل. عندما أخبرني ذلك الشخص المجهول الهوية على الهاتف بأنه قد مات كانت دهشتي أكبر من حزني، ليس لأنني رجل بلا مشاعر أو أحاسيس، ولكن لأن هذه المتاهة الدموية التي علقت فيها منذ يومين يقابلني في كل زاوية منها مينوتور(*) جديد. ففي الوقت التي كانت كل الدلائل تشير إلى الأستاذ وعصبته، أدى ظهور ياز لخلط الأوراق كلها من جديد، وبالتالي ارتفاع اسمي ليحتل الصدارة في قائمة المتهمين مرة أخرى. لذا لن أتوانى عن الاعتراف بأن هذا الموت قد سبب لي بعض الراحة وأبعد عني شبح الاتهام، وعادت غيوم الشك لتنقشع عن سمائي، رغم أنّ صوت خالتي كان يصلني بين الفينة والأخرى وهي تردد "مشتاق طفل عديم الرحمة". وأظنها لم تكن مخطئة. أياً يكن الأمر، كان عليّ التفكير بشكل جدي في أمر هذه الجرائم الثلاث التي تحصل من حولي والتي أودت اثنتان منها بحياة أقرب شخصين إلى قلبي، ألا يمكن أن أكون أنا المقصود من كل هذا؟ أيعقل أن تكون جثتي خاتمة هذه الأضاحي؟ ولكن لا، فمن الذي سيلطخ يديه بدماء شخص مثلي؟ أنا الذي لم أقم في حياتي كلها بإيذاء أحد سوى نفسي، فقد أفنيت عمري في انتظار يائس، وحاولت قدر المستطاع أن أبقى مؤرخاً عادياً لا طموح لديه يمر العالم من حوله بسرعة الأرنب، ويسير هو بخطوات سلحفاة متثاقلة لن تفوز في النهاية كما في الحكاية. ورغم أنني اصطحبت هذا المسدس معي فالكل يعلم مثلي تماماً بأنني لن أكون المبادر في الاعتداء على أحد مطلقاً. كانت هذه الأفكار تجول في رأسي ونحن نصعد درج شقة الأستاذ طاهر

(*) المترجم: المينوتور في الميثولوجيا الإغريقية كائن نصفه رجل ونصفه الآخر ثور.



الجميلة في تشفيكة.

- أكان يعيش وحيداً؟ - سألني نفزت - ألم يكن لديه قريب يعيش معه؟

- لا، فقد توفيت زوجته السيدة بيرين منذ سنتين ولم يرزقا بأولاد، ولكنه كان يعتبر طلبته بمثابة أبنائه، وقد كرس حياته كلها لعمله، ورغم بلوغه الثمانين فقد كان يواصل العطاء والعمل وإلقاء المحاضرات وحضور المؤتمرات وسواها من الفعاليات. لقد كنا معنا اليوم حتى الظهيرة.

وارتسم وجه العجوز المحبب أمام ناظري، فحاولت قدر المستطاع كبح الدموع التي بدأت تشكل غلالة رقيقة أمام ناظري.

- وكان يقول على الدوام.

ولكنها أبت إلا أن تنهمر فمسحت عيني وأنا أقول:

- وقد قال لي مؤخراً بأنه يشعر أنّ الموت بات قريباً منه، وكل ما يرجوه أن ألا يضطره العجز والضعف إلى استجدائه كل لحظة، بل أن يأتي بشكل مفاجئ دون أن يشعر به، ولكنني لم أتخيل بأنه سيموت الآن.

ولم أعد قادراً على السيطرة على نفسي أكثر وأخذت انتحب كطفل صغير وأنا أجلس على درج البناء، وبعد أن هدأت قليلاً قدّم لي المحقق نفزت منديلاً.

- تفضل أستاذ مشتاق.

لم يحاول مواساتي بكلمات فارغة يدرك جيداً أنها لن تخفف وطأة الفاجعة، ولكنه نبهني قائلاً:

- يجب أن أخبرك بأن المشهد الذي ينتظرنا قد يكون قاسياً. لذا تستطيع البقاء هنا إن شئت.

- لا. فأنا أرغب في بالدخول.

كان باب منزله موارباً، وأغلب الظن أن علي الذي سبقنا في صعود الدرج دخل المنزل وتركه موارباً من أجلنا، إلا أنّ مساعد المحقق الذي وصل إلى المنزل قبلنا واتصل بالمحقق نفزت، أخبره أنّ الباب كان موارباً لدى وصولهم تماماً كما في شقة نزهت قبل ليلتين.

كان المنزل يعبق بتلك الرائحة المألوفة والجميلة، رائحة النارنج الرائعة، حيث



كانت السيدة بيرين والتي تعود أصولها لمدينة مرسين، تتقن صناعة مربى النارنج، وكانت تعطيني في كل عام في موسم النارنج مرطباناً من هذا المربى الذي لم أكن أحبه، ولكنني كنت أقبل هدية السيدة بيرين بكل امتنان، ولم تكن شازية أيضاً تتناوله لأنه سيسبب لها السمنة كما كانت تقول، إلا أنّ كديفة كانت تعشق هذا المربى، وفي كل سنة كانت تعيد على مسامعي السؤال المكرر "هل ستحضر لي مرطبان المربى هذا العام يا سيدي؟". ورغم غيابها إلا أنّ الرائحة لا زالت تلازم المكان.

تخيلت وجهها الباسم وهي تستقبلني في كل زيارة لي أمام هذا الباب وتسألني سؤالها المعتاد: "ألست جائعاً يا مشتاق؟". لقد كانت سيدة أنيقة ولطيفة على الدوام، ومن حسن حظها أنها توفيت قبل زوجها حتى لا تشهد موته المفجع هذا.

على الباب سمعت صوتاً مألوفاً آخر، حيث استقبلتني زينب بعينيها البنيتين الجميلتين وهي تقول:

- أرجو أن تنتظر قليلاً يا أستاذ. تفضل انتعل هذا الخف البلاستيكي فوق حذائك، وأرجو منك أيضاً ألا تتجول كثيراً في الأرجاء وأن تلازم مكاناً محدداً قدر المستطاع، فقد يكون مسرح جريمة ولا نريد أن تتغير أماكن الأشياء.

أخذت الخف الشفاف الذي قدمته لي وأنا أطمئنها

- حسناً، لا تقلقي.

تكبدت مشقة كبيرة في الانحناء بجسدي الضخم المغطى بطبقات من الثياب من أجل انتعال الخف، ولكنني مستعد لتكبد أعظم المشقات في سبيل القبض على المجرم.

نظر المحقق نفزت إلى زينب بإعجاب وهو يسألها:

- متى وصلت إلى هنا زينب، ألم تذهبي إلى محل الصائغ من أجل العقد؟
- أجل كنت متجهة إلى هناك، ولكنني ما إن سمعت النداء توجهت إلى هنا فوراً.
- وهل توصلتم إلى شيء؟

ولكنها أبت أن تدلي بتصريح أمامي واكتفت بالقول



- سأشرح لك الأمر فيما بعد يا سيدي.

هل يحاولون الوصول إلى شيء ما بخصوص العقد؟ إذاً فهذا قد يورط شازية أيضاً في الموضوع، فهي متعلقة جداً بهذا العقد وربما. لا يا إلهي أيعقل أن ترتكب جريمة من أجل عقد قديم؟ حينها تذكرت الأسئلة الكثيرة التي أمطرني بها المحقق علي أثناء توجهنا من محل الخردوات إلى قسم الشرطة، وبكل تأكيد فقد رآني وأنا أتجه إلى عيادة شازية طالما أنه كان يراقبني طوال الوقت. "مشتاق يؤذي كل شخص حوله".

عندما دخلت غرفة الجلوس الواسعة والتي اعتدت على نورها الخافت، شعرت بغرابة وأنا أرى المكان مضاءً بشدة من خلال المصابيح المتنقلة التي أحضروها معهم. كان علي واثنان من رفاقه يرتدون القفازات وينتعلون الخِفاف الشفافة ذاتها في أرجلهم مجتمعين عند زاوية المدفئة وكأنهم يتفحصون السجادة العجمية والتي لطالما أثارت إعجاب كل من يراها، ولكن عندما تحرك المحقق علي قليلاً، أدركت بأنني كنت مخطئاً فهم يتفحصون الجثة الملقاة على ظهرها والتي ترقد فوق السجادة؛ جثة أستاذي. عندها انتابني الدوار وبدأت ستارة من الظلام تغطي كل شيء أمامي، وقد لاحظت زينب ذلك فأسرعت لنجدتي قبل أن أقع.

- أستاذ مشتاق. أستاذ مشتاق هل أنت بخير.

كانت تبذل كل جهدها لتمسك بي حتى لا أقع أرضاً، وبدوري حاولت استجماع كل قوتي لكي أظل واقفاً ولا أمكّن تلك النوبة اللعينة من أخذي مجدداً في متاهاتها المظلمة، عليّ أن أكف عن التهرب من الحقائق. فرغم أنني لم أستطع إبعاد الأذى عن أستاذي وصديقي العزيز، ولكنه يستحق مني أن ألقي عليه نظرة أخيرة وأودعه بوقار.

- أنا بخير آنسة زينب – سحبت ساعدي برفق من فوق كتفها – يبدو أنني تعثرت بشيء ما.

- هل أنت متأكد؟

كان نفزت أيضاً يراقبني بقلق.

- أجل أنا بخير. أرجو أن تتابعوا عملكم.

قبل بضع ساعات كنا معاً نتبادل النكات والأسرار والمخاوف، والآن ها هو جثة هامدة ملقاة على الأرض بكل قسوة. كنت أفكّر في غرابة وقسوة ما يحصل خلال هذين اليومين حين لفت انتباهي بقعة داكنة على السجادة، أهي دمه يا ترى؟ أجل لا بدّ أنها كذلك، وعندما ابتعدت زينب قليلاً تمكن من رؤية جسده أيضاً، كان يرتدي الروب المنزلي البني اللون والذي تخالطه بقع صفراء، إذاً فقد بدّل ثيابه وهذا يعني بأنه لم يكن ينوي استقبال أحد الليلة، ولكن ألم يخبرني بأنه سيتصل بجتين ويطلب منه المجيء؟ حينها انتبهت إلى أنني تسببت في مقتل أستاذي العزيز دون قصد مني. لا ليس بسبب متلازمة السرهزينيين في إلقاء اللوم على الذات، بل إنها الحقيقة. فلو لم أطع رغبة الأستاذ في عدم الإبلاغ عن جتين لما حدثت هذه الجريمة ولكان الأستاذ بيننا الآن، ولكن بما أنّ أوان الندم قد فات، عليّ التصرف بحكمة وإخبار المحققين بكل شيء حتى يتم إلقاء القبض على هؤلاء المجرمين ليرقد الأستاذ بسلام في قبره هو ونزهت أيضاً، فقد أصبحت متأكداً بأن المجرم واحد في كلتا الجريمتين وقد يكون سلاح الجريمة واحداً. ها قد بدأت بالهذيان، فالسلاح الذي قتلت به نزهت سحبته من عنقها بيدي ورميته في قعر البحر.

– لقد تم ضربه بأداة على رأسه – كان علي يتحدث وهو يشير نحو الأرض – انظروا إلى بقعة الدماء المتجمدة حول رأسه. هل وجدتم سلاح الجريمة؟

– لا لم نجد شيئاً – أوضحت زينب – ولكن هناك شيء آخر أريدك أن تراه.

وبدأت تكشف عن صدره على ما أظن، فاقتربت لأرى ما كانت تعنيه، حينها رأيت عيني الأستاذ وقد جحظتا وكأنما من الدهشة وهما تتجهان نحوي بسؤال ضمني "لما لم تنقذني يا مشتاق؟ لماذا سكتت ولم تخبرهم عن الخطر المحدق بي؟ لماذا تركتني أرحل بهذه الصورة؟". حينها عاد إليّ الدوار من جديد ولكنني تمكنت من تمالك نفسي وبدأت أتنفس بعمق.

كانت تشير إلى البقعة الداكنة في الجهة اليسرى من صدره وهي تقول:

– انظر أترى هذه البقعة؟ يبدو أنّ المجرم انهال على صدره بواسطة العصا أو أياً كان سلاح الجريمة، وبعد أن وقع على الأرض أجهز عليه بالضربة الثانية. أياً يكن الأمر بعد فحص الروب المنزلي وبقية ثيابه قد نتمكن من

معرفة سلاح الجريمة.

- هناك بقعة ما.

كان المحقق يشير إلى المدفئة القديمة التي كانت الغرض الوحيد الذي ورثه الأستاذ عن منزل والده، والتي كان يشملها بعناية خاصة بل كانت هذه المدفأة القديمة التي خرجت من نطاق الاستعمال وأصبحت مجرد قطعة ديكور من أغلى قطع الأثاث لديه.

على الفور، توجهت المحققة زينب نحو حقيبتها لتخرج أحد عيدان تنظيف الأذن، وإن ما لمس رأس العودُ البقعةَ حتى اصطبغ القطن بلون أحمر قانٍ.

- ربما تكون دماء المجرم الذي جرح أثناء محاولة الضحية الدفاع عن نفسه. لو ثبتت صحة هذا الاحتمال فسيساعدنا الأمر كثيراً.

ولكن المحقق نفزت لم يقتنع بأي من تحليلات مساعديه الشابين.

- وماذا لو كان الأمر مجرد حادث؟

- ماذا؟

أكان جاداً فيما يقول؟ أيعني أنّ الأستاذ طاهر سقط أرضاً ومات فجأة؟

- ولِمَ لا يا عزيزتي؟ فهو رجل مسن وربما تعرض لنوبة قلبية وسقط أرضاً وارتطم رأسه بمكان ما. فقد تجاوز الرجل السبعين بكثير.

ونظر إلي كمن يطلب العون

- لقد كان في الثانية والثمانين من عمره.

- أرأيتم؟ رجل في الثانية والثمانين من عمره يواصل العمل بكل هذا الزخم، فالبارحة كان لديه مؤتمر واليوم كان في جولة. أليس هذا متعِباً لرجل في مثل عمره؟

وعاد ليلتفت إليّ مجدداً وكأنه تذكر أمراً هاماً

- هل تعرض لأزمة قلبية من قبل؟

كنت مضطراً لإخباره الحقيقة

- أجل لقد تعرض لنوبة قلبية منذ ست سنوات وتم تغيير ثلاث صمامات لقلبه، ولكنه تحسن ولم يتعرض لنوبة جديدة.

لم يسمع بقية الكلام فقد تمسك بجملتي الأولى وهو يسوق تبريره.

- أسمعتما؟ لقد تعرض لنوبة قلبية.

ولحسن الحظ أنّ زينب كانت فتاة عنيدة ولا تستسلم بسهولة.

- وماذا عن بابه الذي كان مفتوحاً، وعن البقعة الداكنة على صدره. وعن قتل زميلة له منذ يومين؟

وقبل أن يرد عليها نفزت توجهت أنظار الجميع نحو الرجل الذي وقف أمام الباب بقامته الفارعة ووجه النحيل وشاربه الكث اللافت للنظر، لقد كان حسين البواب.

- لقد طلبتم رؤيتي - وأضاء وجهه عندما رآني - مرحباً سيد مشتاق، أنت أيضاً علمت بالأمر؟

وما إن خطا أول خطوة ليتجه نحونا حتى أوقفته زينب وهي تقول:

- توقف عندك. نحن سنأتي إليك.

واتجه الثلاثة نحوه وأنا برفقتهم، وشعرت لوهلة بأنني أصبحت جزءاً من هذا الفريق.

- البقية في حياتكم سيد مشتاق - حاول التحدث معي، فمن الواضح أنه كان يشعر بنوع من القلق من مخاطبة الشرطة - ما هذه المصائب التي تتالت علينا؟ ولما قاموا بقتل شخص مثل الأستاذ طاهر والذي كان محبوباً من الجميع؟

- أنت من شاهد الجثة؟

قطع عليه نفزت حديثه.

- أنا - بدا وكأنه شعر بذعر عابر وهو ينظر إليهم ولكنه تمكن من تمالك نفسه بسرعة - في الحقيقة الشرطة هي من اكتشفت الأمر، فقبل حوالى ساعة جاء ثلاثة منهم بالزي الرسمي، وأخبروني بأن جريمة قتل قد ارتُكبت هنا، فنفيت الأمر، ولكنهم سألوني عن منزل الأستاذ طاهر وطلبوا مني الصعود معهم، وعندما وصلنا منعوني من الدخول وبقي أحدهم معي فيما دخل الآخران وقد وجدا جثة الأستاذ ملقاة على الأرض - ونظر إلي وهو يكمل

- فليتغمده الله برحمته الواسعة، كان رجلاً طيب القلب عطوفاً - بدأت شفتاه وشاربه الكث بالارتجاف وترقرقت الدموع في عينيه وهو يكمل - لينتقم الله ممن فعل ذلك.

- هل رأيت أحداً يدخل البناء أو سمعت حركة غير طبيعية قبل حدوث الأمر؟

سأله نفزت.

- لا يا سيدي لم أرَ شيئاً. فقط جاء ذلك الشاب، أعني ذاك الطويل القامة تلميذ الأستاذ طاهر - نظر إلي كمن يطلب المساعدة - أنت تعرفه يا أستاذ مشتاق، فهو يأتي على الدوام برفقة تلك الفتاة النحيلة وذلك الشاب الآخر الوسيم.

- أتعني جتين؟ - سألته - ذاك الشاب الذي تبدو آثار الجدري على وجهه؟

- أجل أجل. جاء هو قبل الحادثة - وفجأة اتسعت عيناه رعباً وهو يسألنا جميعاً - أهو الذي قام بقتل الأستاذ؟ لا يعقل ذلك، فقد كان الأستاذ يحبه كثيراً ويعتبره مثل ابنه، وقد أعطاه نسخة إضافية من مفاتيح البيت.

- إذاً فقد كان يملك مفاتيح البيت - يبدو أنه سيتخلى عن فرضية النوبة القلبية وسيقتنع بفكرة الجريمة - وهل رأيته وهو يدخل البناء؟

- أجل التقيت به وهو يدخل البناء.

- وهل رأيته عندما خرج؟

- لا يا سيدي. لم أره مرة أخرى.

- ومتى جاء؟ أعني كم كانت الساعة؟

بدا حائراً وهو ينظر إلى المحققين.

- لا أعلم يا سيدي. فلم أنتبه للساعة، ولكن كان الظلام كان مخيماً على ما أعتقد.

- هل جاء قبل مجيء الشرطة بوقت طويل؟

مدّ يده اليمنى إلى شاربه وهو يمسده في حركة لا إرادية وبعد لحظات أجاب:

- أظنه. أظنه جاء قبلهم بحوالى ثلاث ساعات - وأرفق كلامه بهزة تأكيد من رأسه وهو يكمل - أجل أجل. على الأقل ثلاث ساعات. كنت قد بدأت

بالنوبة المسائية لتنظيف المبنى.

- أتعني في حوالى الخامسة مثلاً؟

- لا كانت الساعة قد تجاوزت الخامسة. حوالى السادسة أو ربما أكثر بقليل.

- إذاً حوالى السادسة؟ - قلّص عينيه وهو يجري عملياته الحسابية في ذهنه وتوجه إليّ بعد لحظات - برأيك يا أستاذ في أي ساعة أنهى الأستاذ طاهر جولته؟

أسندت ظهري إلى الحائط وأنا أجيبه:

- لقد تركتهم حوالى الساعة الواحدة، وكانوا سيتجهون نحو المتحف البانورامي. أظنه أنهى الجولة حوالى الساعة الثالثة.

- هل ذهب لمكان آخر قبل العودة إلى المنزل؟

- لا أظن ذلك، فقد كان الجو بارداً - تريثت للحظات وأنا أفكر إن كان عليّ إخبارهم بالحقيقة، ولما الانتظار بعد أن مات المسكين؟ كما أنّ حسين قد أخبرهم بالأمر قبلي، لذا فقد أكملت بتمهل - والأهم من ذلك أنه كان معكر المزاج.

- وهل أخبرك بالسبب؟

كنت أتوقع هذا السؤال من المحقق نفزت، ولكنني صمتت وأنا أنظر إلى البواب، وعلى الفور وصلت رسالتي إلى المحقق الذي قال مخاطباً البواب:

- حسناً يا حسين تستطيع الذهاب. ولكن لا تغادر البناء فقد نحتاج إليك.

غادر حسين بعد أن تنفس الصعداء لأنه نجا من أسئلة المحققين، ومسّد مرة أخرى شاربه الذي اصفر من التدخين، فيما تعلقت نظرات المحققين الثلاثة بي، منتظرين بلهفة ما سأقوله

- أظنكم مستاؤون مني. ولكنني حانق على نفسي أيضاً لأنني لم أخبركم من قبل. كان عليّ أن أطلعكم على ما دار بيننا من حديث هذا الصباح من أجل أخذ التدابير اللازمة لحمايته.

- ما الذي تعنيه يا أستاذ - كان الفضول قد استبد بعلي وهو يرمقني - هل أخبرك الأستاذ بأنه مهدد مثلاً؟



اتجهت نظراتي نحو الجسد الدامي الملقى على السجادة وأنا أجيب:

- لا، في الحقيقة أنا من أخبره بأنه قد يتعرض لمكروه ما.
- وكيف علمت بالأمر؟
- من خلال حديثه معي.
- حديثه معك؟

بدا نفزت مستاءً من هذا الاستجواب الذي يبتر الحقائق في أسئلة محيرة، واتجه نحو علي بالقول:

- كفّ عن طرح الأسئلة ودعه يسرد علينا ما حصل بالتفصيل.
- هذا الصباح أخبرني الأستاذ بأنه يشك بتلاميذه، وخاصة جتين. فقد كان شخصاً عدائياً سريع الغضب يثور لأتفه الأسباب، وكان قد تورط في العديد من المشاكل أثناء دراسته الجامعية.
- أجل فقد تورط منذ سنتين في شجار نشب بين الطلبة في الجامعة – تدخل علي مجدداً – وفي المرة الأولى تهجم على أحد الطلاب بسكين حادة، وفي المرة الثانية كان يحمل العصا.

إذاً فقد اطلعوا على ملف جتين، وهذه خطوة جيدة.

- أجل فقد كان منتسباً لأحد الأحزاب السياسية حينها، ولكنه ابتعد عن هذا النوع من المشاكل فيما بعد حسب ما كان يخبرنا به، إلا أنّ الأستاذ قد أخبرني بأن جتين تشاجر مع نزهت هنا في هذا المنزل عندما جاءت برفقة أكين، كما أنه اعتدى عليه بالضرب وبالكاد استطاع الأستاذ إنهاء الشجار، حيث غادرت نزهت مع أكين المنزل. وبعد ذهابها اتهمها جتين بأنها ربما تكون جاسوسة تعمل لصالح الأميركيين وقد قال للأستاذ وهو يشير إلى خنجر موضوع على طاولته "يخطر لي أن أحمل هذه السكين، وألحق بتلك المرأة لأغرزها عميقاً في عنقها". وقد صدم العجوز المسكين إزاء هذا العنف الذي أبداه الشاب الذي كان يعتبره بمثابة ابنه.
- وأين هو هذا الخنجر؟

أشرت إلى الممر وأنا أجيب:



- من المفترض أن يكون في مكتب الأستاذ على الطاولة.

توجهت زينب إلى هناك على الفور حتى قبل أن يطلب منها نفزت ذلك، فبعد هذه السنوات من العمل معاً بدا وكأنهم لم يعودوا بحاجة للكلام كثيراً من أجل التفاهم، تماماً مثلنا نحن الثلاثة أنا ونزهت والأستاذ حين كنا نعمل معاً في ذلك الزمن الجميل، وكانت نظرة واحدة تغني عن جملة من الكلمات.

- أتعني أنَ الأستاذ كان يشك بأنَ جتين هو من قتل حبيبتك السابقة؟

كان المحقق يشدد على كل كلمة يقولها وكأنه يشير إلى أمر آخر من سؤاله.

- لم يكن يودّ تصديق الأمر فقد كان جتين من أعز طلبته، ولكن كان يمتلك الكثير من المبررات لهذا الشك.

بدأ هذا الحوار يستولي على اهتمام المحقق وكأنه بات مقتنعاً بوجهة نظري.

- وما هي هذه المبررات؟

- كان جوال جتين مغلقاً أثناء حدوث الجريمة، فقد اتصل به الأستاذ أكثر من مرة كما اتصل على هاتف منزله أيضاً ولكن أحداً لم يرد عليه، وفي اليوم التالي عندما سأل جتين أين كان مساء البارحة أخبره بأنه كان في المنزل.

- ولكن لما لم يطلعنا الأستاذ على كل هذه التفاصيل؟

- لأنه لم يشأ أن يورط تلميذه المفضل في أمر كهذا من دون أن يكون متأكداً، وقد اقترحت عليه أن نخبركم بالأمر على الفور لكن أصر على إبقاء الموضوع طي الكتمان حتى يتأكد منه، وألزمني بعدم إخبار الشرطة، فقد كان ينوي استدعاء جتين إلى منزله الليلة من أجل التحدث معه، وبعدها كان سيقرر ما يجب فعله. ولكنني أخطأت حين وافقت على كلامه.

- أجل لقد أخطأت – قالها نفزت بحدة – كما أنني نبهتك اليوم بالذات حول عدم إخفاء أي شيء عنا. لقد أودى خطأك بحياة إنسان بريء.

لقد كان محقاً بكل تأكيد، وقد تلعثمت وأنا أدمدم.

- أعتذر، لم أتوقع بأن يحدث هذا.

- كان يجب أن تتوقع. أهناك شيء آخر تخفيه عنا؟

- ليس هناك من شيء آخر – قلتها وأنا أحاول إظهار ندمي – فكل ما أريده

هو مساعدتكم في الوصول إلى الحقيقة.

ولم أخبره بأن هناك الكثير من التفاصيل الكارثية التي أخفيها عنهم، وبأنني بين كل كلمة وأخرى أضيف كذبة جديدة للنجاة بنفسي من قبضتهم.

- سأحذرك للمرة الأخيرة يا أستاذ، فإن علمت فيما بعد بأنك تخفي عنا أمراً ما سأضطر لزجك في السجن، وهذا شيء لا أريده مطلقاً فلا تجبرني على فعله.

كان يتكلم بنبرة تهديد جدية. فيما بقيت أسمع تقريعه بصمت مطبق، ولكنه في المقابل كان مضطراً للتغاضي عن الأمر حالياً لأنه كان بحاجة إليّ.

- على أي حال - قالها وهو يحاول السيطرة على غضبه - برأيك ما سبب محاولة طاهر حقي حماية جتين؟

أجبت على الفور ودون تردد:

- لأنه لم يشأ توريط أحد طلابه في تهمة كهذه دون التأكد من الأمر.
- ولكن الضحية كانت أيضاً إحدى طالباته، أليس كذلك؟

كان محقاً في سؤاله، ولكنني لم أشأ أن أصرح بكل ما يعتمل في صدري من شكوك حول احتمال تورط الأستاذ أيضاً في الأمر لذا اكتفيت بالقول:

- معك حق - وبعد أن تنهدت بعمق أردفت - لكن الأستاذ لم يكن يميل كثيراً إلى نزهت.
- بسبب اختلاف وجهات النظر؟

بالطبع لم يكن مجرد سؤال بريء، فهذا الكهل الداهية لا يطرح أي سؤال دون أن يودي بي إلى فخ جديد، وبالتأكيد هو يومئ إلى تورط الأستاذ أيضاً في الجريمة، وهذا ما لن أسمح به، ولن أخون ذكرى أستاذي المحبوب، وإن شاء الوصول إلى الحقيقة فليذهب وليلقي القبض على ذلك المجنون جتين.

- لا. - واصلت سرد الأكاذيب وإخفاء الحقائق رغم التهديد الذي سمعته للتو - فقد كان يعتبرها شخصاً وصولياً لا يهتم كثيراً بالمبادئ وعلى استعداد لفعل أي شيء من أجل مصلحته الخاصة.
- وربما كانت نقمته عليها مضاعفة لأنها تركتك؟



كان علي الذي بقي صامتاً كل هذا الوقت من نكأ جرحي مجدداً.

- لا أظن ذلك، فلم يكن الأستاذ من النوع الذي يتدخل في حياتنا الخاصة، ولكنه وعلى عكس توقعك فقد كان يطلب مني في الكثير من الأحيان أن أسامحها وأحاول تفهم موقفها.
- وماذا عن الغيرة المهنية – لقد كان التورط مع هؤلاء المحققين كابوساً لا ينتهي من الأسئلة – ألا يمكن للأستاذ أن يشعر بالغيرة من أحد طلبته الذي تفوق عليه؟

ولكن قدوم زينب أنقذني من الإجابة، فقد سألتني وهي تحمل الخنجر بيدها المغطاة بقفاز مطاطي:

- أهذا هو الخنجر الذي حدثتنا عنه؟
- أجل، فقد كان هدية من صديق إيراني.

وقدمت زينب الخنجر إلى رئيسها الذي بدأ يتفحصه باهتمام وهو يدمدم:

- ولما سيحتفظ رجل مثل الأستاذ طاهر بسلاح كهذا على طاولته؟

لن أسمح بالمزيد من الترهات.

- سلاح؟ لقد كان الأستاذ يستعمله فقط لفتح الرسائل.

عندها رفع رأسه ونظر إلي وهو يقول الجملة التي جعلت الدماء تتجمد في عروقي هلعاً

- لا تستخف كثيراً بسكين فتح الرسائل، فتلك الآلة التي تتموضع ببراءة ظاهرية على طاولة المكتب تسببت في الكثير من الجرائم التي شهدناها بأنفسنا، وقد تكون السكين التي طُعنت بها السيدة نزهت هي مجرد سكين لفتح الرسائل أيضاً.

(46)

لست الوحيد الذي هجرته حبيبته

"وقد تكون السكين التي طُعنت بها السيدة نزهت هي مجرد سكين لفتح الرسائل أيضاً". كلمات المحقق نفزت بقيت تتردد في ذهني طوال الطريق إلى المنزل وأنا أفكر فيما كان يعنيه. أحقاً هي مصادفة؟ أم أنّ هذا الكهل الماكر الذي لا يتفوه بكلمة من دون أن يرمي من ورائها للوصل إلى غاية ما، كان يتقصد التصريح بهذا الرأي أمامي لينبهني بأنهم يعرفون الحقيقة؟ ولكن كيف؟ أيعقل أن يكون آدم قد غير رأيه وقرر إخبار الشرطة بكل ما يعرفه؟ لا أعتقد ذلك، فهو شخص جشع لا يأبه بشي سوى بالنقود والتي لم أرفض منحه إياها، وبالتالي لا مصلحة له في الإبلاغ عني حالياً. ولو كانت الشرطة تشك بي حقاً، لما تركوني أذهب طليقاً واتجهوا للقبض على ذلك المجرم الدميم السحنة، والذي أرجو أن يلقوا القبض عليه عاجلاً، ونرتاح كلنا من هذا الكابوس.

كنت أمشي وحيداً في الشارع المكلل بالبياض النقي والصمت، حيث انزوى الجميع في منازلهم الدافئة واستسلموا لسلطان النوم منذ وقت لا بأس به، وحتى قطط وكلاب الشارع آثرت الانزواء في زاوية ما متقية هذا البرد الشديد. لكنني وعلى خلافهم جميعاً كنت أشعر بالانتعاش وبأن هذه الرياح التي تهب قادمة من البحر للتو تتجول في تلافيف دماغي لتبعد عنه الغمّ والألم الذي أعانيه منذ يومين. يومان فظيعان فقدت خلالهما أقرب الناس لقلبي وروحي، ولا أدري إن كانت حياتي ستعود إلى مجراها الطبيعي بعد الآن. ولكن متى كان لحياتي مجرىً طبيعياً؟ فحياتي كانت سلسلة من المجريات اللاطبيعية بدءً من الحياة في ذلك القصر الذي عفا الزمن عليه، ولفظه التاريخ كإمبراطورية أفل نجمها خارج مسار الحياة. ولم يكن ساكنوه بأوفر حظ من القصر نفسه، فوالدي قضى جلّ حياته مهووساً بالنظام وتطبيق القوانين ولم

يفتح في حياته الرتيبة تلك نافذة صغيرة للحرية، وكان قناع التسلط الذي يرتديه على الدوام يخفي ورائه خوفاً وضعفاً بكل تأكيد. بالإضافة لثلاث نساء تعيسات يعشن بين جدرانه، ولكن من الإجحاف اعتبار جدتي تعيسة، فقد كان لديها الكثير من الذكريات الجميلة لتتمسك بها وتبعد عنها كآبة سنواتها الأخيرة، وخالتي شاهيستة كانت تقاوم حظها السيئ بالإفصاح عن الشر الذي يعتمل في صدرها دون خوف أو حرج، بل وكانت تجد متعة في التصريح عنه، وخاصة حسدها وغيرتها من والدتي المسكينة، لأسباب كثيرة منها أنّ أبي لم يتخلَ عنها ويهرب كما فعل زوجها وربما أيضاً بسبب السكينة والسعادة التي كانت والدتي تدّعي أنها تنعم بها مع زوجها، والذي كان مجرد مظلة تحمي نفسها بها من صواعق طباعه الفظّة. وأظنها لم تعرف السكينة الحقيقية إلا بعد موته، أو ربما لم تعرفها مطلقاً، فبحسب شازية هناك سعادة حقيقية وسعادة زائفة والفرق بينهما هو الحد الفاصل بين المرض النفسي والتوازن، فالإيمان بسعادة غير موجودة هو عَرَض نفسي لتصدع عميق، إنها امرأة أخرى من نساء القصر البائسات، وربما كانت رغبتها في دراسة الطب النفسي وسيلة لفهم هذه التعاسة ومحاولة للتغلب عليها. أما أنا فقد اخترت النقيض، وواصلت إحياء هذا الميراث العائلي بكل ما أملك من جهد، وسخرت كل حياتي في انتظار حب لن يعود وامرأة لن أراها مجدداً. لقد حولت نفسي إلى ضحية حقيقية وتفوقت على كل السرهزينيين في الوصول إلى ذروة التعاسة.

- أستاذ مشتاق.

جفلت لدى سماع أحدهم يناديني باسمي، وتلفت حولي في الظلام ولكن الشارع كان مقفراً.

- أستاذ مشتاق. أنا هنا يا أستاذ.

استدرت نحو المرأب حيث الصوت، فشاهدت شاباً طويل القامة يقف في الظلام بجانب سيارة غولف زرقاء، بدا مألوفاً ولكن ذاكرتي لم تسعفني، اقتربت بضع خطوات إضافية وعندها أحسست أنني أقف على شفير هاوية وفي الأسفل ينتظرني ذلك المجرم المهووس جتين. أجل لقد كان واقفاً هناك في الظلام ولا أدري من أين أتى بكل هذه الجرأة بعد أن قتل اثنين من أعز الناس على قلبي. كنت أود لو مددت

يدي لحقيبة والدي ولكنها كانت فارغة هذه المرة، حيث حجزت الشرطة المسدس لفترة مؤقتة، ورغم ذلك فقد تحصنت بالحقيبة كدرع يحميني من طلقة مسدس أو طعنة سكين، ولكنه كان يقف خالي الوفاض.

- إنها مجرد افتراءات يا أستاذ. صدقني أنا لم أقتل الأستاذ طاهر – كان صوته متضرعاً ومتعباً وبدا منهكاً واقترب مني وكأنه يجرّ قدميه خلفه – صدقني أنا لم أقتل الأستاذ ولم أقتل أي أحد آخر.

تصنعت الدهشة وأنا أسأله:

- ما الذي تتحدث عنه يا جتين؟

ولكنه لم يشأ تضييع الوقت وصرح بكل مخاوفه:

- الشرطة تبحث عني في كل مكان. ذهبوا إلى منزلي وعندما لم يجدوني هناك اتصلوا بوالدي، وقد ارتفع ضغط والدتي وحالتها حرجة جداً، فيما أخذ والدي يصب عليّ اللعنات وهو يخبرني بما حصل.

يبدو أنّ الشرطة لن تتمكن من إلقاء القبض بسهولة على هذا المجرم، ولكنه بدا شخصاً مثيراً للشفقة أكثر من جانٍ.

- أرجوك أن تساعدني، فلا أحد سواك يستطيع تقديم العون لي. صدقني أنا لم أقتل أحداً.

كان خائفاً ويتلفت حوله بهلع لدى سماع أدنى صوت، على عكس ذلك الشاب الهائج المتبجح صباح اليوم.

- سأوضح لك كل شيء. كل شيء. وقد كنت أنا من اتصل بك منذ قليل.

عما يتحدث هذا المأفون؟

- أنا من اتصل بك وأخبرك بأنّ الأستاذ طاهر قد مات.

وصلت بي الدهشة إلى أقصى مداها وأنا أسأله:

- أنت من اتصل بي؟

- أجل – قالها وبدا صوتها حزيناً جداً وهو يكمل – اضطررت للاتصال بك من هاتف عمومي من منطقة مجدية كوي. وقد وضعت منديلاً على سماعة الهاتف حتى لا تتعرف على صوتي.

وفجأة أُضيء المكان بأنوار سيارة قادمة فأصابه الرعب وهو يصرخ بيأس:

- الشرطة.

بالطبع لم تكن سوى مجرد سيارة عابرة.

- أخاف الوقوف في منتصف الطريق يا أستاذ. دعنا نذهب إلى منزلك ونتحدث هناك.

انتابني هلع حقيقي عند سماع كلماته، أكل هذا الخوف والهلع مجرد تمثيلية وضيعة من أجل إقناعي بأخذه إلى المنزل ليقتلني كما قتل نزهت وطاهر في منزليهما. "ثلاثة جرائم قتل غامضة لثلاثة مؤرخين. والضحايا الثلاثة وجدوا مقتولين في منازلهم". وهنا تعلقت نظراتي بسيارة جتين وأنا أتفحصها، فربما يكون شريكه في الجريمة إرول أيضاً هناك ينتظر اللحظة المناسبة للانقضاض علي، ولكنها بدت فارغة، ومع ذلك كان من الأفضل توخي الحذر.

- لا أستطيع اصطحابك للمنزل فأنا أستضيف خالتي وهي مريضة، ولا أريد إزعاجها في وقت كهذا.

- إذاً فلنتحدث داخل السيارة.

تراجعت خطوة للوراء وأنا أقول:

- لا أريد. إن شئت فدعنا نتمشى قليلاً في الجوار وحدثني بما لديك.

ولكنه أبدى سلوكاً لم أتوقعه مطلقاً وهو يقول لي:

- وأنت أيضاً تشك بي يا أستاذ؟

لا جدوى من الإنكار الآن.

- أليس من حقي الشك بك بعد كل ما حصل؟ تتصل بي وتحاول تغيير صوتك، ثم تلحق بي في منتصف الليل متخفياً كاللصوص وتريد مني الوثوق بك؟

تهدلت كتفاه بصورة واضحة وهو يقول:

- معك حق.

- بالطبع أنا محق، فأنت تخفي عني الكثير من الحقائق منذ البداية – وبقي يستمع في صمت من ينتظر الحكم عليه – حسناً، إن شئت أن أسمعك

دعنا نتمشى في الجوار قليلاً ولا تطلب مني الاختباء في الزوايا والأماكن المظلمة.

أشرت إليه ليقترب مني ولكنه كان متردداً، لا يدري ما يجب عليه فعله.

- لا تكن جباناً إلى هذه الدرجة، فالشرطة لن تلحق بي. هناك مقهى قريب دعنا نذهب إلى هناك ونتحدث بهدوء.

هز رأسه رافضاً الفكرة:

- لا يا أستاذ لا أريد الجلوس في مكان عام - تلفت حوله حائراً ونظر إليّ وهو يقول مستسلماً - حسناً، دعنا نتمشى.

بقيت غير مصدق للتحول الهائل الذي أصابه، فقد اختفى ذلك الشاب العصبي المزاج وحل محله شخص خائف يتلفت حوله هلعاً لدى سماع أدنى صوت.

- حسناً، فلنتمشى.

وسرنا عائدين في الطريق الذي أتيت منه.

- لقد مات الأستاذ طاهر أمام ناظري - وأكمل بعد لحظات - تعرض لنوبة قلبية ومات.

حدقت في وجهه وأنا أسأله.

- أي نوبة قلبية؟ لقد كان غارقاً في دمائه.

- ارتطم رأسه بالمدفئة عندما وقع أرضاً.

تذكرت على الفور كلمات المحقق نفزت.

- حاولت إنقاذه بكل ما أوتيت من قوة، دلكت صدره ومن ثم بدأت أضغط على صدره علّه ينتعش ولكن دون طائل.

إذاً فهذا يفسر سبب تلك البقعة الداكنة على صدره، والتي نوه إليها المحقق نفزت، وإن كان ما يقوله صحيحاً فهذا يعني أنه بريء من التهمة، ولكن لا. لا يجب أن أصدق أكاذيبه، لذا واصلت استجوابه بحدة:

- ولما لم تتصل بالإسعاف؟

- لقد مات - وبدأ يتكلم بصوت مختلج وقد توقف في منتصف الشارع - أقسم لك بأنني أقول الحقيقة، فقد توفي حتى قبل سقوطه على الأرض.

ليس عليّ أن أصدق هذه الأكاذيب.

- وأنت تركته غارقاً في دمائه وهربت، أليس كذلك؟

بدا عليه ندم عميق وأحسست للحظة بأنه سيركع أمامي ويرجوني لأصدقه.

- خفت يا أستاذ. صدقني كنت خائفاً جدا ولا أدري ما عليّ فعله. ولكن لو كان حياً لما تركته على الإطلاق - واجتاحته نوبة بكاء جعلت جسده الضخم كله يهتز، وأخذ يتكلم من خلال دموعه ونشيجه - عليّ اللعنة. عليّ اللعنة. فأنا أحمق أتصرف بتهور عندما أغضب. وقد سألني أن كنت قد قتلت نزهت، ولكنني نفيت الأمر. وحينها.

ولم يتمكن من إتمام كلامه، واجتاحني شعور أشبه بالشفقة على هذا الشاب المجرم الذي يقف أمامي وهو يبكي كالأطفال، فمددت يدي إلى جيبي وأخرجت منديلاً وأعطيته إياه.

- خذ. امسح دموعك.

- شكرا لك.

بدأت أفكر فيما يقوله وأقارن الأحداث ببعضها، فحتى لو افترضنا أنّ الأستاذ مات إثر ذبحة صدرية كما يدعي، فنزهت بالتأكيد لم تمت لذات السبب، وإن لم يكن هو المجرم، فمن يكون إذاً؟ لا يجب عليّ تصديقه لمجرد بعض الدموع التي يذرفها أمامي. ربما من الأفضل أن أدعي تصديقه ونيتي مساعدته ولكن في حال أطلعني على الحقيقة كاملة وبكل تفاصيلها، فكما كان يردد والدي دائماً "الشيطان يكمن في التفاصيل" وحينها سأتبين ما عليّ فعله.

- اسمعني يا جتين - ووضعت يدي بلطف على كتفه وأنا أكمل - إن كنت تريد مني مساعدتك عليك إخباري بكل ما حدث، وبالتفصيل.

- حسناً، يا أستاذ سأخبرك بكل شيء - وبعد أن مسح دموعه وسحب نفساً عميقاً - بدأ السرد - اتصل بي الأستاذ طاهر بعد الظهر وطلب مني الذهاب إليه.

- لا. قاطعته بحزم - أريدك أن تسرد ما حصل منذ البداية، جدالك مع نزهت واعتدائك على أكين. أخبرني ولا تخفي عني أي شيء.

كنا نقف متقابلين وفي ظلمة الليل الحالكة التي لا يضيئها سوى انعكاس الثلج الأبيض على وجهينا، وتساءلت عن حقيقة هذه البؤس المرتسم على وجهه، أهو صادق؟ أم أنه بارع في ارتداء الأقنعة مثلي.

- فهمت.

كان صوته مهزوماً يشي بالندم العميق.

- وإن أحسست بأنك تكذب أو تخفي أمراً ما سأتركك هنا وأذهب.
- أرجوك لا تذهب.
- حسناً، سأخبرك بكل ما حصل – توقف للحظات وهو يمسح أنفه ومن ثم أكمل – في الحقيقة كان الأستاذ طاهر من بدأ بالأمر، فأنا لم أكن أعرف نزهت من قبل.

عدنا للسير مجدداً فوق طبقة الثلج الرقيقة التي غلفت الطريق، وأنا أفكر فيما يقوله، أيريد أن يلقي باللوم كله على الأستاذ طاهر؟

- بدأ الأمر منذ سنة حين كنا جالسين على مائدة الفطور صبيحة يوم الأحد في منزل الأستاذ، أنا وإرول وسيبيل حين رن الهاتف. كانت السيدة نزهت وقد تحدث معها الأستاذ بود، ولكنه ما إن أغلق السماعة حتى بدا عليه الاستياء وهو يقول "ما الذي تريده هذه المرأة؟". وعندما استوضحنا عن الأمر أخبرنا بأنها امرأة استغلالية لا تتوانى عن فعل أي شيء من أجل مصالحها، كما أنها لا تمانع على الإطلاق تدنيسَ رموزنا التاريخية وتشويه الحقائق من أجل بلوغ الشهرة. وقد أشار إليك أيضاً في معرض حديثه حيث أخبرنا بأنها قد أساءت إليك إساءة بالغة في الماضي، ولم يشرح لنا الأمر بالتفصيل ولكننا أدركنا على الفور بوجود علاقة عاطفية بينكما. ولم نعد للتطرق إلى هذه المسألة سوى بعد شهرين حين كنا عائدين من مؤتمر حول السلطان الفاتح والشعر والذي عقد في معهد يحيى كمال، حيث عادت نزهت للاتصال به من جديد، وحين أنهى المكالمة كان منفعلاً جداً وقد نعتها بالجنون، وهو يخبرنا بأنها طلبت منه مساعدتها من أجل فتح قبر السلطان الفاتح لإجراء فحص طبي وتحليل بقايا عظامه، مدعية بأنه

مات مسموماً، وقد أوضحت له بأن المؤرخين يجب أن يتحلوا بالجرأة وبالحيادية العلمية بعيداً عن مصالح السلطة وأنها بحاجة لدعمه لإقناع مديرية الآثار بالموافقة على إجراء الفصح. كان حانقاً ويقول بأنه تريد تحقيق شهرة زائفة على حساب سمعة سلطان عظيم كالفاتح ومن خلال تشويه ذكراه وتشويه التاريخ برمته.

وإن شئت الصدق فقد انتابنا جميعاً غضب عارم، فكيف تريد تشويه ذكرى أعظم السلاطين الذي كان له فضل لا يضاهى على تاريخنا من أجل غايات شخصية؟ وربما وهذا هو الأسوأ قد تكون لها غايات سرية أيضاً؟

- غايات سرية؟
- أجل هذا ما قاله الأستاذ طاهر حينها. وكنا نؤيد وجه نظره هذه.
- من أنتم؟ هل تتحدث عن منظمة ما؟

بدا عليه الانفعال وهو يوضح لي:

- لا لا. فقد وعدت الأستاذ طاهر أن أتخلى عن السياسة وعن أعمال العنف وأتفرغ لعملي ودراستي.

تذكرت حينها ردة فعله الجنونية إزاء ما حدث اليوم على الطريق ومحاولته التهجم على السائق، ولكنني تغاضيت عن الأمر وأنا أسأله:

- إذاً من تقصد؟
- من سيكون سوى سيبيل وإرول. فقد تشكل لدينا انطباع بأن هناك أهدافاً سياسية وراء الفكرة، خاصة وأنها ظهرت في هذه الفترة بالذات حيث بدأت تركيا تستعيد قوتها السابقة وتتحول إلى مركز ثقل في الشرق الأوسط كما في العهد العثماني. ولن نستغرب إن حاولت جهات معينة الإساءة إلى رموزنا التاريخية وتشويه سمعتنا. أليست مصادفة غريبة أن تتقدم مؤرخة قضت معظم حياتها في أميركا بأطروحة إشكالية إلى هذا الحد عن التاريخ العثماني وفي هذا التوقيت بالذات؟

توقف للحظات وهو ينتظر سماع ردي:

- في الحقيقة لا أعرف إن كانت الأمور وصلت إلى هذا المنحى، ولا أهتم

على الإطلاق بالسياسة المعاصرة – وتمهلت للحظات وأنا أجيل النظر في الجليد الذي بدأ يغطي كل مكان قبل أن أجيب – ولا أدري ما الذي كان يجول في رأسها، ولكنني متأكد من أن نزهت لن تتورط في لعبة سياسية قذرة كهذه خاصة إن كان الأمر متعلقاً بتاريخنا والإساءة إليه. أجل لقد كانت غريبة الأطوار بعض الشيء وتسعى للشهرة، وربما هذا ما دفعها للعمل على فرضية قتل الفاتح من أجل تحقيق سبق علمي آخر.

– ألا يمكن أن تكون قد تغيرت؟ فأنت لم تلتق بها منذ زمن طويل.

– وما أدراك أننا لم نلتقِ؟

– لقد أخبرنا الأستاذ بذلك بعد مقتلها. فقد اجتمعنا في منزله وتحدثنا في الأمر.

إذاً فقد كان العجوز على علم بكل شيء منذ البداية ورغم ذلك لم يخبرني. والأغرب من ذلك هو الاجتماع الذي تم بعد موت نزهت. فسألته بفضول:

– ولما ورد اسمي في الاجتماع؟

– لم يكن اجتماعاً، فقد استدعانا نحن الثلاثة إلى منزله في اليوم التالي للجريمة.

بدأت الستارة تزاح عن الأحداث التي وقعت وراء الكواليس، وأخذت الكثير من النقاط تتموضع في أماكنها.

– هل اجتمعتم قبل ذلك المؤتمر الذي عقد عن السلطان الفاتح؟

– أجل، فما إن علم بمقتل نزهت حتى اتصل بنا ودعانا إلى منزله، وكان من الواضح أنه يشك بنا نحن الثلاثة، لذا فقد بدأ يسألنا عن أماكن تواجدنا ليلة البارحة.

وأنا أيضاً كنت راغباً بمعرفة مكان تواجده أثناء حدوث الجريمة، ولكنني تركته يواصل سرد الأحداث دون مزيد من الأسئلة حتى لا يشك بنواياي.

– وقد أحس براحة عندما علم بأن لا علاقة لنا بالجريمة، أو أنّ هذا ما حاول إظهاره لنا، فمن الواضح أنّ الشكوك ظلّت تنتابه حتى آخر لحظة. وقد أخبرنا بأن الكشف عن الحقيقة منوط بالشرطة الآن، ولكنه طلب منا أيضاً

ألا نطلع أحداً على مشروع السيدة نزهت وفكرة أطروحتها الذي كان يأمل أن تدفن معها، وقد أخبرنا بأنه وحين كان شاباً طرحت إحدى الرسامات واسمها إليف ناجي هذه الفكرة وقد اقتبستها من كتاب بيبينغير ونسبتها لنفسها، وقد اهتمت الصحافة والوسط الثقافي بالخبر، ولكنهم تداركوا الأمر في آخر لحظة وتم التخلي عن الفكرة. ولكنني ذكرته بأنّ أكين مطّلع على الفكرة، فقال لي "أكين شاب مسكين كل همه إيجاد طريقة للسفر إلى الخارج، ولا أظنه سيهتم كثيراً بطرح الفكرة بعد مقتل نزهت. وإن اقتضت الحاجة سأتكلم معه بنفسي وأقنعه بوجهة نظرنا. أما بالنسبة لمشتاق فهو لا يعلم شيئاً عن فكرة المشروع، فهو لم يلتق بها منذ سنوات طويلة، ولو كان لديه أدنى فكرى لأخبرني بها البارحة عندما حدثني على الهاتف". وحينها بدأ يسرد علينا تفاصيل علاقتك بالسيدة نزهت وكيف تخلت عنك من أجل طموحها، لقد كانت قاسية القلب حقاً.

أحسست بثقل نظراته وهو يراقبني ولكنني تجاهلت الأمر، وبقيت عيناي تراقبان الطريق ونحن نسير فيما واصل كلامه.

- لما كل النساء يتصفن بالخيانة يا أستاذ؟

ما الذي يحاول فعله هذا الأحمق؟ أيحاول التحدث عن النساء وخيانتهن فيما هو مهدد بالسجن؟

- حسناً، دعنا من هذا الحديث ولنعد إلى حوارنا. عندما انتهى المؤتمر وأتيتم مع الأستاذ إلى مكتبي لمناقشة أطروحة نزهت، كنت تعلمون الحقيقة حينها، ولكنكم فقط أتيتم لتتأكدوا من عدم اضطلاعي عليها أليس كذلك؟

بدت ابتسامة حرجة على فمه وهو يقول:

- أعتذر يا أستاذ، فقد كانت فكرة الأستاذ طاهر.

- وماذا عن اقتحام مكتبي؟ أنت من ارتطم بي في الممر حين خرجت مسرعاً من مكتبي أليس كذلك؟

جاء دوره هذه المرة للتهرب من نظراتي، وهو يلوذ بالصمت.

- أخبرني الحقيقة يا جتين، أكنت أنت من اقتحم مكتبي؟



تعلثم بخجله وهو يتمتم:

- أجل. أرجو أن تغفر لي يا أستاذ، ولكن كان عليّ التأكد من الأمر بنفسي، فلم أقتنع حينها بكلام الأستاذ طاهر، وبقيت أعتقد بأنّ السيدة نزهت تعمل لصالح منظمة أجنبية لها غايات سياسية وكان عليّ التأكد من عدم توريطك في الأمر، لذا ألقيت نظرة على الملفات التي لديك. وقد كان من السهل الدخول إلى مكتبك.

إن التعصب لفكرة ما يدفع الإنسان إلى شفير هاوية خطرة حقاً.

- وهل تأكدت؟

قلتها بلهجة تقريع.

- من حقك أن تغضب مني يا أستاذ، ولكن أرجو أن تقدّر خطورة الموقف، فهي كانت تنوي فتح القبر وإحداث ضجة إعلامية حول القضية، وبالتالي تدنيس أحد أهم شخصيات تاريخنا ورمزاً من رموزنا الذين نفتخر بهم. وجميعنا نعلم بتورط مجلس البندقية في مقتل السلطان الفاتح. ولكنها كانت تود تصويب مدافع اتهامها نحو الداخل، وتتهم السلطان بيازيد الثاني بالتورط في قتل والده، بل وأكثر من هذا كانت تدعي بأنّها اكتشفت وجهة الحملة الأخيرة التي ترأسها السلطان والتي لم يفصح عنها لأحد. أجل لقد شطح بها الخيال إلى درجة أنها كانت ترى بأن السلطان كان يتجه لمحاربة ابنه بيازيد والتخلص منه، من أجل إفساح الطريق أمام ابنه جيم والذي كان يشبهه في الطباع وطريقة التفكير، لاستلام السلطة. وعندما علم إسحاق باشا ومناصرو الأمير بيازيد بالأمر قاموا بتسميم السلطان وقتله، وعلى الفور حرّضوا الانكشاريين لقتل كارماني باشا من خلال إلصاق التهمة به، وبالتالي تخلصوا من جميع مؤيدي الأمير جيم في القصر، وأصبح بإمكان بيازيد الثاني الجلوس على العرش. هل سمعت بفكرة أكثر سخافة من هذه الفكرة؟ والأسوأ أنّ من كان يريد التسويق لها أحد أهم مؤرخينا الأتراك وليس شخصياً أجنبياً.

- وهل استحقت القتل لهذا السبب؟



توقف للحظات مصدوماً مما قلته، قبل أن يجيبني بكل هدوء

- ولكنني لم أقل شيئاً من هذا القبيل يا أستاذ.
- لا أهمية لما تقوله، المهم الآن هو ما فعلته.
- أقسم لك يا أستاذ بأنني لم أقتل أحداً ولا علاقة لي بكل ما يجري.

ولكنني لم أعد أصدق أكاذيبه.

- لم تكن لوحدك، فهناك إرول وسيبيل أيضاً.
- سيبيل وإرول؟

أحسست بالألم يعتصر وجهه عندما سمع كلماتي، ولن أخفي بأنني استمتعت بهذه اللحظة.

- أجل، فأنتم الثلاثة شركاء في كل شيء. وربما تكون سيبيل من ذهبت إليها أولاً في المنزل لتسمح لكم بالدخول فيما بعد.
- أنت مخطئ يا أستاذ. فقد تركتني سيبيل قبل مقتل السيدة نزهت – حتى في ذلك الظلام كان من الجلي كم هو حزين وهو يبوح بمكنونات قلبه – فكما ترى لست الوحيد الذي تعرض للهجر والخيانة.

إذاً فهذا الشاب الذي كنت أكرهه يشاطرني ذات المصير والألم، ولم أتمالك من كبح الاحتمال الذي خطر لي لذا سألته:

- مع إرول؟
- لا أعلم – ولكنني كنت أراقبهما تلك الليلة – نظر إلي بتحدٍّ وهو يكمل – أجل كنت أراقبهما طيلة الوقت.

لم أهتم كثيراً بعذاباته فكل ما كنت أرمي الوصول إليه هو معرفة علاقته بالجريمة.

- أي ليلة تعني؟
- ليلة مقتل السيدة نزهت، فقد ذهبنا نحن الثلاثة إلى مكتبة أتاتورك في تقسيم، لحضور ندوة بعنوان (التوسع في عصر الفاتح) وبعد انتهاء الندوة خرجا سوية وقد تعقبتهما – صمتت لحظات قبل أن يكمل – ذهبت معه إلى بيته يا أستاذ، وبقيتُ لساعات انتظر في مقهى الإنترنت المقابل للمنزل ولكنها لم تخرج، لقد قضت تلك الليلة برفقته.

كانت تلك المفاجأة التي لم أتوقع سماعها على الإطلاق. فالشخص الذي يحتل مكان الصدارة في لائحة المتهمين، يقف أمامي الآن ويقص عليّ كيف كان يراقب حبيبته التي بدأت تخونه مع أقرب أصدقائه، ومن جهة أخرى كان المنطق يخبرني بأنها مجرد كذبة جديدة اتفق عليها الثلاثة للتخلص من التهمة. ولكنني تذكرت حينها سيبيل التي جاءت إليّ تسألني عن أكين لكي يساعدها في السفر إلى الخارج من أجل منحة دراسية. أيعقل أنه يقول الحقيقة، وأن لا علاقة له بكل ما حصل؟

– تستطيع التأكد من الأمر يا أستاذ. سأعطيك عنوان المقهى الذي بقيت فيه، وقد تحدثنا لبعض الوقت أنا وصاحب المقهى وأنا متأكد بأنه سيتذكرني.

إذاً كان لديه شهود أيضاً يثبتون صحة أقواله، ولكن هناك قطعة أخرى يجب التأكد من مكانها قبل إتمام اللوحة.

– لما اعتديت على أكين في منزل الأستاذ طاهر؟ ألأنه كان يساعد نزهت في مشروعها؟

عاد ذلك الخوف الذي بدا على ملامحه قبل قليل عندما أضاءت أنوار إحدى السيارات الطريق.

– إذاً فقد علمت بالأمر – حينها نظر إليّ وهو يواصل سرد مكنونات قلبه – لأنه كان سيساعد سيبيل من أجل حصولها على منحة في إحدى الجامعات في الخارج، كانت تريد التهرب مني والابتعاد قدر المستطاع، وربما أخبرته بأنها تنوي أن تتركني أيضاً. وعندما بدأ ذلك الأحمق يتحدث وهو يرمقني بسخرية واضحة لم أحتمل المزيد واعتديت عليه بالضرب. ولن أخفي بأن الترهات التي أخذ يسردها مع نزهت في ذلك اليوم زادت من غضبي. – صمت للحظات قبل أن يعترف – ولا أنكر بأنني حاد الطباع يا أستاذ وأثور بسرعة.

فقط أولئك الذين مروا بالألم ذاته يستطيعون التعرف عليه، وعندما توقفت ونظرت إلى وجهه رأيت الحقيقة بكل وضوح، تعرفت بسهولة على تلك العذابات المبرحة التي يعانيها. وتأكدت بأنه لم يكن يكذب، فهو لم يقتل نزهت ولم يقتل الأستاذ طاهر أيضاً، لقد كان مجرد تعس مثلي ولكنه ليس مجرماً بكل تأكيد.

إذاً فمن المجرم؟ من الذي قتل حبيبتي؟ لقد فرغت قائمة المشتبه بأمرهم إلا من اسمي، ولكن الإعياء الذي كنت أشعر به حجب جميع الاحتمالات عن ذهني بحثاً عن فسحة صغيرة من الراحة لا أكثر.

(47)

مشتاق يحطم السكينة

ما إن خطوت إلى داخل منزلي بعد تخلصي من جتين، حتى أحسست بدوار فظيع ينتابني، كانت الصور والأماكن والكلمات والمشاعر كلها تدور في زوبعة كارثية هائلة وتزلزل كل كياني. أغمضت عيني علني أنجو من هذا الدوران ولكن الصور بدأت تنهمر أمام عيني كعاصفة من الذكريات والألم. عينا نزهت الزجاجيتان جسد الأستاذ الدامي. شازية مع كل أسرارها التي أخفتها. عذابات أكين ووفاء تيومان. أكاذيب جتين خيانة إرول وسيبيل. جشع منصور وحقد ياز وطمع المعلم حسين. سذاجة سيزجين ودناءة آدم وفجور فضيلة. دهاء المحقق نفزت ووجه زينب المشرق وحيوية علي. فرويد ومقالته الشهيرة (دوستويفسكي وقتل الأب). (patricide, fili- cide, fratricide) الكلمات التي ظننتها مفاتيح الحقيقة. انتقال السلطة الدموي الذي ورث العثمانيون تقاليده عن روما التي ورثته بدورها عن الحثيين والذين ورثوه عن أمم أقدم من كل معارفنا. تولستوي وروايته (سوناتا لكروتز) ونصل الخنجر الدمشقي الذي يغوص في طيات لحم المرأة اللدن. والعاشق الغيور مشتاق الذي غرس السكين الفضية التي عليها ختم سلطانه الأثير في عنق سلطانة قلبه ومن ثم دفنه في أعماق البحر المظلمة. المسدس الذي ورثته عن والدي والمدفأة التي ورثها الأستاذ طاهر عن والده والعرش الذي ورثه محمد الثاني عن والده. وأخيراً السلطان محمد خان. محمد بن مراد بن محمد بن بيازيد بن مراد بن أورهان. سلطان البرين وخاقان البحرين وظل الله على الأرض والوريث الأقوى لإمبراطورية روما وسيف الإسلام، والحاكم الذي أنشأ أمة جديدة من مزيج أعراق وأديان ولغات مختلفة. أيعقل أنه لم يكن سوى طفل أراد السيطرة على العالم برمته ليحظى بقبول الأب الغائب الحاضر؟ أم أنه خليط من كل هذه المتناقضات معاً؟



صليل السيوف وأناشيد النصر. آهات القتلى والأسرى وصراخ الثكالى واليتامى. صيحات الرعب وأهازيج الفرح. الحصون التي كانت تسقط الواحدة تلو الأخرى، والمدن التي كانت تفتح الواحدة تلو الأخرى والأبراج التي كانت تعلوها مختلف الأعلام على وقع الانتصارات والهزائم. كلها جعلت اسم السلطان الذي لم يعش سوى تسعة وأربعين عاماً يُخلد إلى الأبد. والقدر الذي لا يستطيع أحد تبدليه والشمس التي لن يستطيع أحدٌ الحؤول دون غروبها. والموت؛ ذاك الكأس الذي سيتجرعه الجميع دون استثناء وموت السلطان المشبوه. وسخرية التاريخ حين يعيد نفسه. حيث السباق الدموي لبلوغ العرش، والقصر الذي يتقاسمه خصمان لدودان والدولة التي انقسمت على وقع أهواء السلطة، والشعب الذي لم يكن على علم بكل ما يجري من حوله، وكل همه منصب على لقمة العيش وبيت يأوي إليه بسلام في نهاية يومه. وجسد السلطان الأب الذي بدأ يتفسخ نتيجة طمع الأشقاء في السلطة.

كل هذه الصور كانت تنهمر على ذهني المضطرب كعاصفة ثلجية وتتطاير بصمت مع الرياح التي بدأت تعصف بروحي، ولم يكن لدي اعتراض على تطايرها وابتعادها عني ولكنها كانت تذهب بالقليل من التوازن الذي يبقيني واقفاً على قدمي، حيث بدأ دوار شديد ينتابني وبتُّ أترنح، حتى أنني اضطررت للاستناد إلى الحائط خشية الوقوع. وفيما اجتزنا غرفة الجلوس تعلقت عيناي بساعة الحائط التي كانت من أجمل مقتنيات قصر شفيق باشا والتي أصبحت تزين منزلي الجديد وتسبب لي رؤيتها بهجة خفية. كانت عقاربها تشير إلى الثالثة بعد منتصف الليل.

– لما تأخرت حتى هذا الوقت يا بُني.

كانت والدتي بعينيها الحانيتين وسذاجتها التي جعلتها تظن أننا وما إن نشيح بنظرنا عن الأحزان فإنها ستختفي وكأنها لم تكن، كانت تراقبني بعتب وهي تقف في نهاية الممر.

– أين كنت حتى الآن؟ ستتدهور صحتك مجدداً إن بقيت تواظب على السهر.

مدت لي يديها البضتين لتمسك بي وتضمني إلى حضنها، وقد استجبت على الفور لهذه البادرة الحانية التي لم أشعر بحاجتي الملحة إليها كما اليوم، ولم أشعر بهول الوحدة التي أعانيها في هذه المدينة الكبيرة كما في هذه الليلة، ضمتني لحضنها

وهي تقول "مهما بلغت من العمر ستبقى ابني الصغير المحبوب". شعرت بدفء حضنها وأظنني ذرفت بعض الدموع، وكما كانت تفعل على الدوام قادتني إلى غرفتي، ونزعت عني ثيابي، وألبستني بيجامتي، وبعد أن تمددت في سريري قامت بتغطيتي باللحاف بشكل محكم، فأغمضت عيني في انتظار تلك اللحظة حيث تطبع قبلتين حانيتين على عيني المغمضتين.

"تصبح على خير يا بُني. أتمنى لك أحلاماً سعيدة".

تلك الكلمات السحرية التي كنت أسمعها كل ليلة في طفولتي، كانت كافية لكي أغمض عيني وأغوص في ظلمة حالكة، في رحم من السكينة والهدوء حيث لا مخاوف. لا رغبات. لا أحلام. لا شيء سوى السكون والسلام السرمدي.

استيقظت على صوت جتين المتضرع وهو يصرخ من وراء الستائر:

– أرجوك يا أستاذ. أرجوك لا تفعل ذلك.

فتحت عيني مرتعباً وأنا أتساءل عن سبب تضرعه، هل قمت بقتله هو أيضاً وأخفيت جثته في صندوق سيارته التي ركنها البارحة مساء تحت منزلي؟

نهضت هلعاً واتجهت نحو النافذة ولكنني ولحسن الحظ لم أجد سيارته هناك، لذا عدت متهالكاً إلى السرير الذي رميت نفسي عليه. إذاً لا بدّ أنه اقتنع بكلماتي ووافق على الذهاب إلى مركز الشرطة لإخبارهم بالحقيقة، فهو بريء من قتل نزهت، ولديه شاهد يثبت مكان تواجده أثناء وقوع الجريمة، كما أنّ فحص جثة الأستاذ طاهر سيثبت بأنه مات نتيجة ذبحة صدرية، وبالتالي لا داعي لكي يخاف. أجل أظنه ذهب ليخبر المحقق نفزت بالحقيقة، ولكن ماذا عني؟ ما الذي حصل لي بعد أن تركني ولما أشعر بكل هذا الدوار والصداع الشديدين ولا أتذكر شيئاً عما حصل بعدها؟ أيعقل أنني تعرضت لنوبة جديدة من تلك النوبات اللعينة؟ إنه أمر وارد جداً، فبعد الصدمة التي تعرضت لها عندما شاهدت أكين مسجئ بدمائه، وبعد الهلع الذي أصابني نتيجة تهديدات آدم، ومنظر جسد الأستاذ الدامي ومصيره المؤلم الذي هزني من الأعماق، وفوق كل ذلك اكتشافي لبراءة جتين، عادت شكوكي لتحوم حولي. كان من الطبيعي جداً أن أتعرض لنوبة جديدة هرباً من كل هذه الصدمات المتلاحقة. هرباً من الحقيقة التي أخاف الاعتراف بها.

وفجأة بدأ شيء غريب يحصل أمام ناظري، أخذت مرآة الخزانة تهتز وترتعش وكأنها صفحة مياه، فنهضت عن الفراش قليلاً وأنا أمعن النظر ولم أجد سوى انعكاس صورتي فيها، ولكن هناك غرابة في الصورة، ففيما بقيت مستلقياً في فراشي نهض مشتاق المرآة خلع بيجامته الكحلية ووضعها على طرف السرير وفتح باب الخزانة وأخرج البنطال الأسود وربطة العنق القرمزية اللون والقميص الأزرق الفاتح اللون والسترة الكحلية. نظرت إليّ مستغرباً وأنا لا زلت في الفراش بينما هو يتحرك في المرآة جيئة وذهاباً، ولكنه لم يشبه مجنون المرآة الذي تتقد عيناه بالغضب والحنق على الدوام، بدا وكأنه مسرنم لا بريق في عينه ولا حياة، كل ما في الأمر أنه كان مستعجلاً وكأنه يحاول اللحاق بأمر هام سيفوته. اهتزت المرآة قليلاً وخرج منها الرجل وسط ذهولي واتجه نحو الباب ولم يلقِ عليّ ولو نظرة واحدة. كان لا يراني. ولكنني نهضت على الفور وتعقبته، حيث اتجه نحو الردهة الصغيرة، وفتح خزانة الأحذية، وأخرج الحذاء الأسود المخملي، جلس على الأريكة بحركة آلية وانتعل الحذاء، ولكنه رفع رأسه فجأة وكأنه تذكر أمراً هاماً، فعاد ليخلع الحذاء من قدميه وقبل أن أخمّن وجهته رأيته قادماً نحوي بسرعة. كان أسرع من أن يسمح لي بالتنحي، وعندها حصل أمر رائع وغير متوقع، لقد عبر من خلالي إلى الممر وكأن روحي تجتاز جسدي، واتجه نحو غرفة المكتب فتبعته على الفور مذهولاً من وقع التجربة.

توقف وسط الغرفة وهو يتلفت حوله كمن يبحث عن شيء ما، واتجه إلى طاولة المكتب حيث بدأ يفتش بين أوراق الكتب الموضوعة على الطاولة وأخيراً رفع كتاب تولوستوي (سوناتا لكروتز) وأخرج أداة حادة من بين صفحاته؛ كانت سكين فتح الرسائل الفضية، وترك الكتاب مقلوباً على الطاولة، ومفتوحاً على الصفحة التي يصف لنا الزوج بوزدينشيف كيف قتل زوجته. توجه مشتاق الآخر نحو الباب، فبادرت بالتنحي بسرعة هذه المرة، ولكني تعقبته ما إن خرج، صحيح أنه تحرر من جسدي ولكنه لن ينجو مني بهذه البساطة. خرج من البناء مسرعاً يتقدمني ببضع خطوات، وأنا أحاول اللحاق به قدر المستطاع، والغريب في الأمر أنني ومنذ قليل حين نهضت من الفراش ونظرت من النافذة كانت الشمس في كبد السماء، فكيف حلّ المساء بهذه السرعة، حتى أنّ أولى ذرات الثلج بدأت تتطاير في الهواء منذرة بالعاصفة القادمة،

ولكن الأكثر غرابة هو أنني وعند مروري من أمام الواجهة الزجاجية لمتجر الثياب ذي العلامة الأوروبية والذي كان في ما مضى أشهر محل لصنع المحلبية في شارع بهرية، رأيت انعكاس الرجل الآخر، أجل رأيتني أرتدي الثياب ذاتها التي أخرجها هو من الخزانة قبل قليل، لقد بدأت الأمور تختلط علي بانفصام غريب. فمن منا الحقيقي، أيعقل أنه الحقيقي وأنا مجرد روح. لا ولكن بما أنني أنا الذي أفكر وأدرك ما يجري، فلا بدّ أنني أنا مشتاق الحقيقي. أبعدت هذه الأفكار عن رأسي وعدت للحاق بروحي الهاربة مني. كانت له نفس مشيتي، تلك الانحناءة الخفيفة في الظهر، والخطوات التي تشي بعدم الثقة، كان يسير في ذات الطريق المختصر الذي أسير فيه للنزول إلى الطريق الساحلي، ويسلم على أصحاب المحلات الذين أسلم عليهم كلما اجتزت هذا الطريق.

وقد استطاع اللحاق بالباخرة التي ستنطلق في السادسة مساءً في آخر لحظة. استطعت التسلل معه إلى داخل الباخرة، وجلست قبالته، حيث احتل مكاناً بالقرب من النافذة بعيداً عن ضوضاء الركّاب، وكأنه يتجنب أن يراه أحد أو يلتقي به، وبقي طوال الرحلة القصيرة ينظر إلى البحر الرمادي اللون، ذلك اللون الكئيب الذي يظلل حياته منذ أكثر من عقدين من الزمن.

اقتربت السفينة بصعوبة من الشاطئ المقابل بسبب الرياح القوية التي كانت تبثّ الغضب في أمواج البحر، ولكننا وبعد عدة محاولات من قبطان الباخرة المحنك تمكنا من الرسو بسلام، واجتزنا الركاب المستعجلين. وقد طال مكوثنا على الطريق بانتظار إحدى سيارات الأجرة بسبب رداءة الطقس، ولكنه استطاع أن يستقل سيارة في النهاية حيث جلس في المقعد الخلفي وجلست أنا بجواره ويداي على ركبتيّ، فيما كانت يداه في جيب معطفه، حيث تتجول أصابع يده اليمنى على الختم المحفور على السكين الفضية القابعة هناك.

نزلنا معاً في مدخل شارع هانم أفندي، حيث دفع هو أجرة السائق فهذه مغامرته وليست مغامرتي، وسار بخطواته العجولة المتعثرة نحو بناء ساهتيان فيما أتعقبه بصمت، وعندما وصل إلى دكانة ديلي توقف ودخل الدكانة وأنا أراقبه من خلال الواجهة الزجاجية حيث استقبله بحفاوة كبيرة شاب هزيل الجسم ناحل

الخدين يتوسط وجهه أنف أحمر ضخم وتلتمع نظرة غريبة في عينيه السوداوين، وبعد لحظات من الحديث توجه الشاب نحو أحد الرفوف لإحضار زجاجتين من الشراب وأشياء أخرى، بينما أخرج مشتاق بطاقة البنك ومدها للشاب الذي استدار لأمر لا أعرفه، وحينها اتجه مشتاق مسرعاً نحو الباب خالي الوفاض، وذهب إلى بناء ساهتيان على الطرف المقابل للشارع حيث ضغط على أحد أزرار الأنترفون، ليُفتح بعد لحظات الباب الحديدي الثقيل بصورة أوتوماتيكية.

توقف كلانا أمام باب المصعد القديم بانتظار هبوطه البطيء دون الانشغال بالذكريات التي مررنا بها هنا، وما إن فتح الباب حتى دخل كلانا وبدأنا نشعر، أو بدأت أشعر أنّ المصعد يعلو على كتفي، أجل كنت أشعر بثقل وانقباض غريبين. وأخيراً فتح الباب بعد عدة اختلاجات وكانت هناك بانتظارنا. كان لها الصوت القديم والجميل ذاته ولكنها لم تكن هي، فهذه الابتسامة الباهتة، وهذا الوجه المجعد القبيح لا يمكن أن يكون لحبيبتي التي غادرت قبل واحد وعشرين سنة، لكن المرأة لم تشعر بما أفكر به، لذا توجهت نحوي لتحتضنني بفرح ظاهر. أجل كانت تحتضنني أنا فيما بقي مشتاق الآخر متنحياً، وهو يضع يديه في جيبه متحسساً نصل السكين الفضية.

دخلنا نحن الثلاثة المنزل، وظلت تلك العجوز تثرثر دون أن أفهم شيئاً مما تقوله، كنت أسمع نبرة صوت نزهت وأرى ملامح عجوز شمطاء أمامي ولا أجمع بين الضدين في خيالي، رغم السعادة التي بدت على وجهها وهي تحدثني. لحقت بها إلى غرفة الجلوس حيث جلست على الأريكة السكرية اللون وجلست قبالتها وبقي مشتاق الآخر واقفاً بالقرب مني ويداه في جيبه يسمع بصمت. ومع تواصل الحديث بدأ صوتها يتغير واعترته نبرة جدية وهي تحدثني عن السلطان الفاتح وعن الحزن الذي أصابه لموت ابنه مصطفى، عن تعلقه بابنه الأصغر الأمير جيم الذي يماثله في الكثير من الصفات، وعن الأمير بيازيد الثاني وما يدور حوله من أقاويل، وأخذت تكرر على مسامعي تلك الديباجة المكررة عن وجوب تحلي المؤرخين بالشجاعة والموضوعية، بعيداً عن التحيزات الدينية والاجتماعية والسياسية. وضرورة التقيد بمنهج علمي دقيق أثناء دراسة التاريخ لأن هذا ما نحتاج إليه الآن أكثر من أي وقت مضى، التحلي بالشجاعة ومواجهة أخطاء الماضي دون مواربة حتى لا تتكرر في

الحاضر. وأنّ الأمر في غاية البساطة، ويمكن البدء بالخطوة الأولى من خلال استصدار موافقة تسمح بفحص رفات السلطان الفاتح للتأكد من أنه لم يمت مسموماً، وكانت تطلب مساعدتي في إقناع الأستاذ طاهر حقي الذي سيأتي بعد قليل هو الآخر، وبأنّ ما من أحد يستطيع أن يجعله يغير وجهة نظره المتصلبة إزاء الموضوع سواي، وفي حال وافق على الفكرة فسيكون من السهل جداً الحصول على موافقة مديرية الآثار، وهي تطلب مني هذه المساعدة باسم الماضي الجميل بيننا والذي لن تنساه ما بقيت حية.

- أين نزهت؟

لا أدري بالضبط من الذي طرح هذا السؤال بتلك النبرة الحادة والعدائية أنا أم مشتاق الآخر؟ بدا عليها الخوف وهي تشاهد الحقد الذي ارتسم في وجه الرجل الذي يسألها وأخذ صدرها يعلو ويهبط بتواتر هلعٍ وتلعثمت بخوفها وهي تقول:

- نزهت. أنا نزهت.

- لا. لستِ نزهت. أخبريني أين هي حبيبتي نزهت؟

كان يصرخ في وجهها مهدداً، وعندما بقيت صامتة ترمقه بجزع انهار المسكين أمام الحقيقة التي تواجهه، حقيقة الزمن الذي أخذ منه أجمل ما يملك ليستعيض عنه بهذه العجوز القبيحة، وأخذ يبكي بصمت في البداية ومن ثم علا نحيبه ولم يعد قادراً على إخفاء ضعفه وألمه.

- ما الذي فعلته بنزهت؟

كانت تنظر إليّ في حيرة وقد استبد بها الخوف فنهضت في حركة مفاجئة وكأنها تنبأت بمصيرها، كانت ذقنها ترتعد وشفتاها تحاولان الكلام ولكنها لم تستطع سوى أن تطلق آهة صغيرة عندما انغرزت السكين بعمق في عنقها في لحظة خاطفة، عادت لتجلس متهالكة على الأريكة، وتعلقت نظراتها بي وكأنها تنطق بالسؤال الذي لم تنطق به شفتاها

- كيف استطعت أن تفعل هذا بي يا مشتاق؟

عندها رأيت نفسي مجدداً في فراشي ومشتاق الآخر يتلفت حوله حائراً محبوساً في مرآة الخزانة، وبعد لحظات من الضياع انتابت كلينا، أدرك ما حصل، ووضع يده

على رأسه مرتعباً من الحقيقة التي رآها تمر أمام ناظريه، دون مبررات أو حجج، كانت تلك الحقيقة واضحة هناك بانتظاره في أعماقه، قابعة بسكون تتطلب لحظة من الشجاعة لإزاحة الستار عنها.

في تلك اللحظة بدأ هاتفي بالرنين بإصرار، وانتابني الهلع من جديد، أيكون نفزت هو من يتصل ليخبرني بأنهم عرفوا الحقيقة وسيأتي للقبض عليّ؟! لا. لن يخبرني بذلك ولكنه سيأتي عاجلاً أم آجلاً. أخذت أفكر بالهرب ولكنني أدركت أنه مجرد إطالة لعذاباتي لا أكثر. فكما قال شكسبير عن أحد أبطاله "لقد قتل ماكبث السكينة". لم يقل السكينة بل الحكاية. ولكن "مشتاق قتل السكينة" ومن الصعب إحياء ما قد قُتل، بل هو مستحيل.

نظرت إلى شاشة الهاتف، كان رقماً لا أعرفه.

- ألو.
- ألو مرحباً عم مشتاق، كيف حالك؟

كان صوتاً مفعماً بالرياء، إنه آدم ديلي.

- أردت الاطمئنان عليك وإخبارك بأنّ الشرطة لم تعد تتردد على شقة السيدة نزهت، كما أنني أود رؤيتك لنتحدث عما حصل. ولن أخفيك بأنني أعاني من مأزق وبحاجة إلى مبلغ صغير. فقط 52 ألف ليرة، وإن لم تتمكن من تأمين المبلغ دفعة واحدة لا مانع لدي من تقسيطه على دفعتين.

كان يواصل الحديث دون أن أتفوه بكلمة واحدة، ولكنني لم أعد أستطيع التحمل أكثر فضغطت على زر الإقفال بكل ما أوتيت من قوة ولم أرفع يدي عنه حتى رأيت الجوال يُقفل بشكل نهائي، حينها أحسست بسكينة عميقة تغمرني، تلك السكينة المؤقتة واللذيذة التي تغمرك حين تزيل عن كاهلك عبئاً رهيباً بالاعتراف بما اقترفته يداك، أجل إنها سكينة مؤقتة في انتظار العقاب.

(48)

أنا قتلت نزهت

كانت قدماي اللتان تعبتا من حمل جسدي الضخم المثقل بعذابات الضمير، تجرانني ببطء وتردد نحو قسم الشرطة الذي وقفت على بابه وقد ارتسم مصيري الأسود أمامي، اجتزت الباب وأنا أتلفت حولي حائراً، فلفت منظري انتباه أحد الحراس ليرمقني بنظرات ملؤها الشك.

- توقف.

لم تكن بي رغبة لشرح حالتي للحرس وعلى مسامع الناس المجتمعين في الردهة، لذا أكملت السير علني أنجو منه.

- أنت يا هذا. ألا تسمعني؟ توقف.

التفت الجميع إلي فيما يناديني بصوت عالٍ وهو يشير إلى الحقيبة التي معي.

- ما هذه؟

بدأ القلق يعتري نظراته إزاء الاضطراب الذي ألمّ بي، ولا بد أنه خاف من وجود قنبلة داخل الحقيبة ستودي بحياتنا جميعاً. فيما كانت مخاوفي متجهة نحو الألبسة الداخلية القطنية والجوارب وسواها من أغراضي الشخصية التي سأضطر لإخراجها قطعة تلو الأخرى أمام أنظار هؤلاء الغرباء.

- إنها تحوي أغراضي الشخصية – تلعثمت خجلاً – قد أمكث فترة طويلة هنا.

- تمكث هنا؟

لم يفهم ما كنت أحاول قوله، والأسوأ من ذلك أنّ مخاوفه بدأت بالازدياد وأشهر سلاحه في وجهي

- أريد رؤية المحقق نفزت – ذكرت له اسم المحقق علّه يطمئن قليلاً – إنه



يعرفني.

نظر إلي وكأنه أمام معضلة رياضية صعبة لا يعرف كيف يحلها.

- وما الذي تريده من المحقق نفزت؟

لم يكن وارداً أن أشرح له الأمر بالتفصيل أمام أنظار كل هؤلاء الغرباء وأخبره بأنني أتيت للاعتراف بقتل حبيبتي السابقة.

- لدي معلومات أدلي بها حول جريمة قتل.

بدا وكأنه يميل لتصديقي.

- حسناً - وأشار بواسطة مسدسه أن أترك الحقيبة على جهاز التفتيش الآلي - ضع حقيبتك هناك.

نفّذت أوامره على الفور.

- والآن ارفع يديك وأدر ظهرك. أحسنت.

يبدو شرطياً ذكياً فقد أدرك منذ اللحظة الأولى بأنني مجرم لذا لم يصدقني، وبدأ يمرر آلة التفتيش الصغيرة على جسدي كله دون إهمال سنتيمتر واحد، فيما خرجت حقيبتي من الجهة من تحت جهاز التفتيش وأوضحت له زميلته الجالسة بالقرب من شاشة الكمبيوتر.

- إنه نظيف، لا يوجد في الحقيبة شيء سوى ملابسه وبعض الأغراض الشخصية.

كانت تلك الأغراض الشخصية هي فرشاة أسناني والمعجون وفرشاة الحلاقة، والخف المنزلي وغسول الفم ورواية تولستوي (سوناتا لكروتز) التي لم أكمل قراءتها، وكتاب بيبينغير (عصر السلطان محمد الفاتح).

ظننته سيتركني بعد أن اطمأن، ولكن يبدو أنّ عذاباتي قد بدأت للتو ولن تنتهي ببساطة.

- عليك أولاً أن تسجل اسمك.

أحقاً يبدو منظري مخيفاً ويدعو للريبة إلى الحد الذي جعل هذا الشاب يواصل شكه رغم تأكده بأنني لا أحمل أي أسلحة أو ما شابه. أياً يكن الأمر قام شاب أسمر طويل القامة بأخذ بطاقتي الشخصية ليدون اسمي وبعض المعلومات عني. ورفعت

زميلته الشقراء سماعة الهاتف لتتصل بالمحقق نفزت وتخبره بوصولي. في هذه الأثناء بقي الشرطي الشاب الذي فتشني، يرمقني من مسافة قريبة والشكوك لم تزايل نظراته، ولكن لحيته الخفيفة المشذبة ذكرتني بزمن آخر.

كنا نقضي عطلة الصيف على ساحل بحر إيجه وقد أطلقتُ لحية خفيفة راقت كثيراً لنزهت، وأذكر أنها قالت لي: "تبدو كثوار أميركا اللاتينية بهذه اللحية". بالطبع لم تكن تجمعني بثوار أميركا سوى هذه اللحية فقط، ومع ذلك راق لي مديحها.

- المحقق نفزت بانتظارك.

أعادني صوت الشابة إلى حيث كنت، وأراحت الشاب الذي ظل يرمقني بشك طوال الوقت ليعود لعمله أمام الباب.

- شكرا لكم، لقد خلصتموني من زميلكم الذي ظل يرمقني طوال الوقت بشك.

- إنه يحاول تأدية عمله يا سيدي - قالها بكل حيادية ولباقة دون أدنى ضيق - تفضل، أتعرف أين تقع غرفة المحقق نفزت؟

- أجل أجل. إنها في الطابق الثاني.

فتنهدت بعمق.

- الطابق الثاني، المكتب الثالث من جهة اليسار.

كان الثلاثة مجتمعين في غرفة المحقق نفزت بانتظاري، يرتدون ثياب البارحة ويبدو التعب والإرهاق واضحاً على وجوههم، ومن الواضح أنهم بقوا هنا ولم يذهبوا إلى منازلهم منذ البارحة، ولكن عيونهم كانت تلتمع براحة غريبة، وكأنهم أنجزوا عملهم على أكمل وجه ولم يبقَ سوى الاحتفال بالنتيجة، لا بدّ أنهم علموا بأنني من ارتكب الجريمة، ولكن لما لم يأتوا للقبض عليّ؟ أكانوا يتوقعون هذه النتيجة حتى أبدوا كل هذا السرور لدى رؤيتي؟

- ما هذه المفاجأة الجميلة أستاذ!

بادرت زينب بالقول وابتسامة لطيفة على وجهها، فيما نهض المحقق نفزت من مكانه، وأتى ليصافحني بحرارة ونحا الشابين نحوه. كنت أتلفت حولي متسائلاً عن سر كل هذه الحفاوة، أهي لعبة جديدة للإيقاع بي؟ أشار نفزت إلى الكرسي وهو

يقول:

- تفضل بالجلوس أستاذ مشتاق.

فرميت بجسدي المنهك على الكرسي.

- شكراً لك.

- تبدو متعباً يا أستاذ!

قالها علي وهو يرمقني من مكانه.

- أجل، أجل فأنا متعب بعض الشيء.

- لم يكن الأمر سهلاً، فقد بقيت معنا حتى منتصف الليل.

تدخلت زينب.

- وقد تأكدنا من براءة جتين أيضاً - بدأ المحقق نفزت يوضح لي الأمر - فقد أخبرنا بكل ما حصل، وحققنا مع صاحب مقهى الإنترنت الذي ذكره، وتأكدنا من أنه بريء من الجريمة.

ولكن خيبة أملٍ خفية ظهرت في صوته. وبالطبع كان محقاً، فمن يتصور أنّ شخصاً بمكانتي ومؤهلاتي العلمية سيرتكب جريمة قتل بهذه البشاعة؟

- ولكن ما الذي أتى بك إلى هنا؟

كان ينظر إليّ متصنعاً الاستغراب فيما أحتضنُ حقيبتي الصغيرة، ولكنني لم أشأ أن أطيل عذابي أكثر من ذلك وأتابع لعبة التهرب هذه.

- في الحقيقة - وتوجهت بنظرات متوسلة نحو نفزت فهو أكثر من سيقدر موقفي - لقد جئت من أجل.

كنت أنوي البوح بكل ما يعتمل في صدري، ولكن ليس من السهل الاعتراف بقتل المرأة التي أحببت طوال هذه السنوات، ورغم ذلك عدت للمحاولة.

- نزهت.

أحسست بجفاف حلقي، وفكرت بطلب كأس من الماء، ولكن لا. أريد الانتهاء من هذا العذاب على الفور.

- تفضل يا أستاذ، ألديك معلومات جديدة حول القضية؟

- أجل. في الحقيقة.



لن أتمكن من الاعتراف بشيء وأنا أنطق الكلمات واحد تلوى الأخرى، عليّ قول الجملة كلها دفعة واحدة دون انقطاع، كطلقة مسدس، لذا سحبت نفساً عميقاً:

- أنا قتلت نزهت.

وأخيراً بحت بالكلمات التي أثقلت كاهلي وكررتها مرة أخرى كأنما كنت غير واثق من سماعهم لما قلته.

- أجل أنا من قتلها.

لكن الغريب أنهم حدقوا فيّ غير مصدقين، لذا بدأت أشرح لهم الأمر وقد شعرت بالجرأة بعد أن اجتزت أصعب مرحلة من الاعتراف.

- قتلتها في تلك الليلة المثلجة حين دعتني أنا والأستاذ طاهر إلى منزلها، وقد كذبت عليكم حين أخبرتكم بأنني لم أقبل دعوتها، لقد فعلت وذهبت إلى هناك وقتلتها بسكين فتح الرسائل الفضية.

ساد هدوء حذر المكان، وبدت الحيرة تتجلى في نظراتهم الصامتة وهم يرمقونني، وكان نفزت أول من بادر بالكلام:

- بسكين فتح الرسائل – يبدو أنّ أجزاء اللوحة اكتملت في ذهنه الآن – وأين تلك السكين الآن؟

- لقد رميتها في قعر البحر عندما كنت عائداً إلى المنزل، رميتها هي وصابون البنفسج من الباخرة خوفاً من أن تكون بصماتي قد ارتسمت على الصابون أيضاً.

- على رسلك قليلاً – تدخل المحقق الكهل – حدثنا عما حصل منذ البداية وبالترتيب يا أستاذ.

أحقاً كانوا لا يعلمون بارتكابي الجريمة؟ على أي حال لم يعد الأمر مهماً الآن، ولم تعد لدي أسباب للاختباء والهرب، لذا بدأت سرد الأحداث منذ البداية، ليس منذ قبل عدة أيام حين اتصلت بي نزهت، بل منذ 21 عاماً حين تركتني، وصولاً إلى تلك الليلة التي وجت نفسي فيها تائهاً أجلس أمام باب منزلها، والشكوك التي راودتني عن الأستاذ وطلبته، وعن آدم ديلي ومحاولة ابتزازي، وعن شازية وشجارها معي بسبب عقد عين الياقوت. تحدثت صراحة عن كل آمالي ومخاوفي وعذاباتي وأفرغت ما

في جعبة الروح كلها أمام هؤلاء الثلاثة.

كانوا يستمعون إليّ وبدوا مأخوذين بقصتي الغريبة، وظلوا صامتين حتى آخر كلمة ختمت بها حديثي.

- عين الياقوت؟ - سألني المحقق الكهل - أكان العقد حول جيدها حين رأيتها مقتولة؟

كان الأمر يشكل بالنسبة إلي أيضاً أحد الألغاز التي لم أتمكن من فهمها، لذا أجبته بكل صراحة.

- لا لم يكن موجوداً، أو أنّ هذا ما كنت أظنه حين سحبت السكين من عنقها، حيث لا أذكر أنني شاهدت أي عقد في عنقها، ولكن صورة الجريدة أثبتت خطأي.

- والأقراط؟ أرأيت الأقراط أيضاً؟

كانت زينب من تسأل وقد عزوت فضولها للاهتمام بتفاصيل زينة نزهت، لشغف نسائي بحت.

- لا لم أشاهد الأقراط أيضاً، وفي صورة الجريدة أيضاً لم أجد الأقراط.

نظروا إلى بعضهم بتواطؤ وكأنهم تأكدوا من حقيقة هامة، ما الذي كانوا يخفونه عني؟

- هل أنا مخطئ؟ - سألت مجدداً علني أصل إلى تطمين ما - أكانت الأقراط موجودة وأنا لم أشاهدها؟

- لا لست مخطئاً.

أجابني المحقق نفزت وقد زادت الابتسامة الودودة على وجهه من حيرتي وهو يكمل:

- ولكن لما لم تأتِ لإخبارنا بالأمر منذ البداية؟ في الحقيقة يا أستاذ لم أتوقع من شخص مثلك أن يخفي الحقائق عن الشرطة بهذه الطريقة.

كان يقرعني بطريقة مهذبة ويخفي عني أمراً هاماً، ولكنني رغم ذلك بقيت مصراً على صراحتي حتى النهاية.

- لقد كنت خائفاً. فهذه المرة الأولى التي أرتكب فيها جريمة قتل، كما أنني

غير متأكد مما جرى حتى الآن. وحتى لو كنت متأكداً فما أنا واثق منه هو أنني لست القاتل؛ بل مشتاق الآخر هو من قتل نزهت.

نظر إليّ الثلاثة معاً وبدأوا بالضحك ومن ثم تعالت أصوات ضحكاتهم لتتحول إلى قهقهات صاخبة. للحظة حاولت مجاملتهم ورسمت ابتسامة على شفتي، ولكن لا لن أجاريهم هذه المرة على حساب مشاعري. "مشتاق لا يتوانى عن قضم الحجارة إرضاء لغيره". زالت ابتسامتي وأنا أشعر بالغبن جراء فظاظتهم، فمن المشين جداً أن يعتبروا مرضي النفسي مدعاة للسخرية والقهقهات الصاخبة. والأكثر إيلاماً هو أنني بدأت أميل إليهم وخاصة المحقق نفزت الذي أثرّت فيّ سخريته أكثر من الشابين، ويبدو أنه لاحظ الأمر أخيراً، لذا حاول التكلم من خلال قهقهاته المتقطعة.

- أعتذر جداً يا أستاذ. تفضل. تفضل إلى هنا لو سمحت.

أشار للاقتراب منه إيذاناً بوضع الأصفاد في يدي، لذا أطعت الأمر ونهضت من مكاني متعثراً بخيبتي ومخاوفي وحاملاً حقيبتي التي لا أدري كيف سقطت من يدي، والأسوأ من ذلك أنّ غطائها قد فتح لتتناثر كل أغراضي وثيابي في وسط الغرفة، فيما بقيت أرمق هذا المنظر في هدوء جنائزي بانتظار نوبة جديدة من قهقهات السخرية، ولكن صمتاً حزيناً عمّ المكان وملامحَ الثلاثة، حيث نهض الشابان على الفور وبدأا بلملمة أغراضي المبعثرة وإعادتها إلى الحقيبة في هدوء تام، وقد انتظر الكهل انتهاء المهمة ومن ثم بادر بالسؤال

- لما هذه يا أستاذ؟

- إنها بعض حاجياتي الشخصية من أجل السجن - تلعثمت وأنا أكمل - في الحقيقة ليس لدي إطلاع على ما هو مسموح، ولكنني أحضرت بعض الأشياء الأساسية.

بدا حزن حقيقي يتجلى في نظرات الثلاثة وهم يتجنبون النظر إليّ، ولم يكن موقفاً سهلاً بالطبع فشخص وقور مثلي وبروفيسور في الجامعة يقدم على قتل حبيبته السابقة وهو في خريف العمر. كانت تراجيدية حقيقية.

- فهمت - قالها نفزت بهدوء وأشار بيده نحو أحد الكراسي القريبة منه - تفضل بالجلوس هنا يا أستاذ.

اقتربت بحذر وأنا أتساءل متى ستنتهي هذه اللحظات وأتجه نحو زنزانتي، وأكثر ما كان يثير مخاوفي أن يتم تصويري أثناء وضع الأصفاد في يدي لتحتل صوري في صبيحة اليوم التالي صفحات المجلات والجرائد.

- شكرا جزيلاً لكما.

توجهت بالشكر إلى الشابين متأثراً بمبادرتهما اللطيفة، واقتربت من المحقق نفزت الذي أشار بيده نحو شاشة الكمبيوتر أمامه.

- تفضل، دعنا نشاهد هذا المقطع معاً.

ما الذي سنشاهده وأنا على وشك دخول السجن؟ عما كان يتحدث هذا الرجل نظرت إليه حائراً فيما أشار هو بجهاز التحكم الذي بيده وابتسامة صغيرة على شفتيه كي أتابع الشاشة.

كان أحد محلات الصياغة، رجل خمسيني بدين يستقبل ويودع الزبائن، بعد لحظات دخلت امرأة ترتدي فستاناً ملوناً وتضع وشاحاً موشاً بالأزهار على رأسها، وأخرجت من حقيبتها قطعة قماش زهرية بداخلها زينة ما، عقد أو ما شابه، وحين رفعها الرجل رأيت حجرين أحمري اللون، حينها شهقت متفاجئاً:

- أهما القرطان؟

ونظرت إلى المحقق نفزت وأنا أكرر متلعثماً.

- أهما قرطا عين الياقوت؟

ولكن أحداً منهم لم يكلف نفسه عناء التوضيح لي، لذا عدت لمتابعة المرأة وهي تنظر حولها فيما الرجل يفحص القرطين بإمعان، وبدت لي مألوفة ولكن ذاكرتي اللعينة لم تسعفني حتى اللحظة التي رفعت رأسها فبدا وجهها واضحاً في الكاميرا، حينها تذكرت تلك النظرات الماجنة.

- فضيلة.

صحت مصدوماً.

- المرأة التي تعمل في بناء نزهت، أهي من سرقت الأقراط؟

- ليس الأقراط فحسب - وأطفأ الشاشة بوساطة الجهاز وهو يلتفت نحوي - بل العقد أيضاً، ولم تكن مخطئاً حين أخبرتنا بأن العقد لم يكن موجوداً

حين وجدت جثتها.

عادت الأمور لتختلط في ذهني مجدداً.

- وماذا عن صورة الجريدة؟ كانت ترتدي العقد في الصورة، كما أنّ العقد كان مع زينب البارحة.
- ذلك لأنها خافت من افتضاح أمرها، فالعقد ليس مثل الأقراط وسيلاحظ أحد ما أنه غير موجود، لذا فقد صعدت من جديد لتعيد العقد إلى جيد نزهت، ولكنكما لم تلتقيا ببعض.
- أتعني أنها دخلت المنزل بعد أن خرجت أنا؟
- أجل، لقد كانت خائفة وتريد إبعاد الشبهات عنها.
- ولكنني أغلقت الباب خلفي، فكيف تمكنتْ من الدخول؟
- لأنها تملك مفاتيح جميع منازل البناء، حيث كان سيزجين يكلفها بأعمال التنظيف، ويبدو أنها عندما عادت ولم تجد سكين فتح الرسائل في عنق نزهت فخافت كثيراً وأعادت العقد وتركت الباب مفتوحاً مرة أخرى لتوهمنا باقتحام المنزل من قبل اللصوص.
- الآن اتضح لي لما قال سيزجين أنّ الباب كان مفتوحاً، إذاً فسرقة فضيلة قد جعلت الأمور كلها تختلط.

بدت السخرية في عيني المحقق نفزت وهو يرمقني وخفت من نوبة جديدة من الاستهزاء لا أدري إن كنت قادراً على تحملها هذه المرة.

- أستاذ مشتاق، ألم تفهم حتى الآن حقيقة ما حصل؟

عاد الشابان يضحكان بصمت فيما أجبته بكل سذاجة:

- بالطبع فهمت، لقد قامت فضيلة بسرقة العقد حين وجدته حول عنق نزهت وهي غارقة في دمائها، وبعد أن سرقته أعادته من جديد، قد يكون أمراً سيئاً ولكنها تعاني من ظروف قاسية وقد دفعتها الحاجة للسرقة.

هز الكهل رأسه نافد الصبر وهو يرمقني:

- لم تكتف بالسرقة فقط بل ارتكبت الجريمة أيضاً من أجل ذلك العقد.
- ماذا؟ – صرخت مصدوماً – من الذي ارتكب الجريمة؟

- لما لا تحاول أن تفهمنا يا أستاذ – لم يتمالك علي نفسه وبادر بالتوضيح – فضيلة هي من ارتكبت الجريمة.
- فضيلة؟ أتعني؟ – لم أعِ تماماً ما يقوله فقد كنت أخاف من أنني أخطأت في فهمه – أتعني أنها هي من؟
- أجل هي – وأخذت زينب تعيد الشرح لي كلمة كلمة – فضيلة هي من قتلت السيدة نزهت، فقد كانت تدخل المنزل من أجل أعمال التنظيف وقد قامت بسرقة القرطين من قبل دون أن ينبته أحد، ويبدو أنّ السيدة نزهت أرادت ارتداء العقد وقرطيه لتكون بادرة لطيفة للترحيب بك، وكانت فضيلة معها تساعدها في الإعداد للعشاء، وحين أدركت السيدة اختفاء القرطين، اتجهت شكوكها على الفور نحو فضيلة التي كانت الوحيدة التي تدخل وتخرج من المنزل في غياب صاحبته، وأخذت تهددها بإخبار الشرطة ما لم تعد القرطين، وهذا ما كان مستحيلاً فقد باعتهما قبل عدة أيام، لذا وتحت تأثير الخوف من السجن أخذت السكين الفضية الموضوعة على الطاولة وغرزتها في عنق السيدة نزهت.

ومع كلمات زينب كنت أتخيل تلك المرأة ذات الشعر المحنى والنظرات الماجنة تغرز السكين بعمق وكراهية في عنق حبيبتي، ورغم ذلك كانت صورة طفولتها المترسخة في ذاكرتي تشوش عليّ تصوراً كهذا فكيف لتلك الطفلة التي كنت أصادفها في زيارتي أن تقتل حبيبتي السابقة وولية نعمتها؟ وهذا ما جعلني أشكّ بكلمات الثلاثة، أيمكن أن تكون لعبة جديدة منهم؟ ولكن ما الهدف منها؟

- أهذا افتراض؟

سألت بضيق.

- اطمئن يا أستاذ.

على النقيض مني كان نفزت يتكلم بهدوء شديد وكان ينظر إليّ ببرود وهو يشرح لي.

- إننا متأكدون من الأمر، فهي من قتلت السيدة نزهت، وهذا يعني أنك لم ترتكب أي جريمة، كما أنها اعترفت بالأمر بنفسها، والأهم هو بصمات

أصابعها على عقد عين الياقوت وبقع دماء نزهت على ثوبها.

انتابتني الشفقة عليها حين تخيلتها ستقضي بقية عمرها في السجن نتيجة جشعها، ولكن كان عليّ التأكد حتى النهاية.

- هل أنتم متأكدون؟ أعني أهي من قتلت نزهت بالفعل؟

- أجل نحن متأكدون وهذا ما تشير إليه كل الأدلة.

ولم يتمالك نفسه من الضحك قبل أن يضيف:

- يبدو أنك الوحيد الذي لا يريد الاقتناع، وأخشى أنك مستاء لأنك فوّت على نفسك فرصة أن تصبح قاتلاً.

انتابتني مشاعر مختلطة بين الراحة العميقة والحرج من الموقف الذي وضعت نفسي فيه أمام هؤلاء الثلاثة.

- لا، لا على العكس تماماً. أشعر بسعادة غامرة وامتنان عميق، فقد كنت أظن نفسي مجرماً، ولكنكم استطعتم إثبات أنني بريء في الوقت الذي بلغت فيه قاع اليأس. أي أنني في تلك الساعات المظلمة من ذاكرتي كنت أهيم على وجهي في الطرقات.

- أجل والشيء الوحيد الذي قتلته تلك الليلة هو الوقت. - وأضاف بعد ضحكة قصيرة- وهناك شيء آخر تمكنا من معرفته وهو وجود علاقة خاصة بين فضيلة وسيزجين.

- أتعني أنّ سيزجين أيضاً؟ أهو متورط في الأمر؟

ولكنه لم يشأ أن يصرح بشيء.

- لا نعرف. ولكننا لا نستطيع التغافل عن هذا الاحتمال، فكما تعلم هو أكثر الأشخاص المستفيدين من موت عمته نزهت.

رمقني بإمعان وهو يشدد على كلماته.

- تماماً كالأمير بيازيد الثاني الذي كان أكثر المستفيدين من موت السلطان محمد الفاتح.

ضحكت ضحكة خرجت من أعماق قلبي الذي أزيحت عنه ستائر الخوف وأثقال الندم.

- أتمنى ألا يظل الغموض يلّف جريمة قتل نزهت لمدة خمسمئة عام كما حصل مع موت السلطان.

ولكنه أجاب على الفور بسرعة بديهته المعتادة:

- لا تقلق يا أستاذ، أعدك أن تتضح ملابسات هذه الجريمة كلها، كما أننا نحن المحققين نتمتع بالإصرار في عملنا، على خلاف المؤرخين الذين لم يتأكدوا حتى الآن إن كان السلطان قد مات ميتة طبيعية أم مسموماً.
- الأمر في غاية البساطة - تدخلت المحققة زينب - خصلة شعرة صغيرة وقطعة من بقايا أظافر السلطان كافية لإجراء تحليل فحص السموم وإظهار الحقيقة.

أجابها المحقق نفزت الذي كان يعرف تمام المعرفة أنّ الأمر الذي تقوله عنه زينب أنه في غاية البساطة محفوف بالكثير من المخاطر والتعقيد.

- ليس المهم إجراء هذا الفحص يا عزيزتي، فالأهم هو رغبة الناس في معرفة الحقيقة.

(49)

أكثر نجاحاتي خزياً

تحت ظلال الصنوبر وفوق طبقة من الأوراق اليابسة التي تخشخش تحت أقدامنا كنا نسير يداً بيد. يدها الصغيرة الناعمة ترقد في كفي كعصفور صغير، وقد غمرتني سعادة لا توصف إزاء هذا الجمال المزدوج. كانت ترتدي شورت زهري اللون قصيراً وتضع حول رقبتها وشاحاً بلون السماء الزرقاء فوقنا، ونحمل كلانا حقيبة الرحلات الصغيرة على ظهرينا ونتجه نحو أجمل بقعة في جزيرة (بيوك أدا). كنا في بداية شهر أيلول على ما أظن وهو أروع الفترات التي من الممكن قضائها على الجزيرة، نسير نحو (ديل بورنو) أروع شواطئ الجزيرة. حيث تغمرنا شمس لطيفة، لطيفة ودافئة كيدها التي في كفي.

سماء رمادية مكفهرة، وأرض موحلة ذابت الثلوج عنها لتظهر طبقة من الأوراق وثمار الصنوبر المتفسخة، حيث تحلق في الأجواء قبيلة من النوارس الجائعة يرافقها نعيق غراب لا يعرف التوقف، وكأنه يردد لحناً جنائزياً. أغمضت عينيّ وأنا أتنشق عبير البنفسج الذي أحمل باقة منه، وعادت كلمات رسالتها لتمر أمام ناظري كلمة كلمة. تلك الرسالة التي قرأتها عشرات المرات لتنحفر في ذاكرتي حتى اللحظة الأخيرة.

"مرحباً مشتاق.

أعلم أنني تأخرت كثيراً. وكان عليّ الكتابة لك من قبل، ولكنني لم أفعل. لم أفعل لأنني لم أرغب أن عيد إحياء الآمال في قلبك، ولم أشأ أن أعرضك لخيبة جديدة. لذا انتظرت مرور وقت كافٍ؛ أتمنى أن يكون كافياً لتتغير خلاله بحيث لن تؤذيك كلماتي.

أظنني قد فعلت الصواب، فمغادرتي لإسطنبول والاستقرار في شيكاغو كان خطوة ناجحة، ولكنها ترافقت مع خطأ فادح وهو أنني لم



أجرؤ على توديعك، حتى أنني لم أجرؤ على إخبارك بالأمر، وأعترف أنّ تلك الرسالة المؤلفة من سطرين والتي اعتبرتها وداعاً كانت تصرفاً مشيناً بحقك وبحق المشاعر الجميلة التي جمعتنا.

لا أعلم إن كنت ستصدق حجم عذاب الضمير الذي شعرت به وأنا أتسلل هاربة بتلك الطريقة، دون أن أصارحك بأنني أنوي إنهاء هذه العلاقة، وإلغاء فكرة الزواج التي كانت ستتحول إلى كارثة حقيقية تفضي بكلينا إلى الجنون، أو بأحدنا إلى القبر وبالآخر إلى السجن. وأعترف أنه كان يتوجب عليّ أن أبذل الكثير من الجهد لدفعك لارتكاب جريمة قتل وذلك لطيبة قلبك اللامحدودة. ولكن ليتك كنت مثلنا، مثل الجميع تتصف بالأنانية والخيانة والكذب، لكنك للأسف لست كذلك، وأنا أتأسف عليك من أعماق قلبي. لأنك ستكون على الدوام عرضة لخيانة الناس وأذيتهم، ولن تفعل شيئاً لمنع الأمر، فأنت لن تتغير، ولن أطلب منك أن تتغير فأنا أعلم أنه أمر مستحيل. قد تنفعل وتغضب للحظة قصيرة، ولكنها ستزول بسرعة ولن تكون كافية لتبادر حتى برفع يدك على من قام بإيذائك. فأنت لا تقوى على إيذاء أحد ولا حتى تقريعه. ولا تحاول ذلك بعد الآن لأنك لن تنجح حتى لو رغبت في التغيير، وإن شئت الصدق فقد كان هذا أكثر ما أحببته فيك، تلك البراءة التي لا أظنني سأجدها عند أحد آخر. ولكنني تخليت عنها، ربما بسبب أنانيتي وربما لأنني تغيرت، وربما ببساطة لأنني شعرت بالملل من هذه الرتابة. أعتذر من أعماق قلبي ولكن الأمر انتهى. حاولت التهرب كثيراً من هذا الشعور، وفي كل يوم جديد كنت أقنع نفسي بأنني لا زلت أحبك وأنني فرحة لأننا سنتزوج، حتى أنّ أمي اقتنعت بك زوجاً لابنتها في النهاية وبدأت تشعر بالسعادة لأنني سأتزوج، ولكنني لم أعد قادرة على خداع نفسي أكثر. لقد انتهى كل شيء، رغم أنك لم تشعر بالأمر ولكنه انتهى، وبدأت علاقتنا تثقل كاهلي مع كل يوم جديد. والأسوأ من كل هذا أنك كنت تعيش في عالم آخر، ولم تشعر ولو للحظة بالتغيير الذي بدأ يصيبني، لذا كانت مهمة اطلاعك على الحقيقة تزداد صعوبة.

كانت تصلني رسائلك التي قرأت كل واحدة منها أكثر من مرة، ومع كل قراءة جديدة لم أكن قادرة على حبس دموعي، ورغم ذلك لم تكن لتلك العواطف الجياشة التي تبثها في كلماتك الجميلة من مقابل لدي، أجل كان الحب قد انتهى، ولكن ليس أنت. أنا لا أهذي وأرجو أن تقرأ كلماتي حتى النهاية. محبتي لك لم تنتهِ على الإطلاق، وأتمنى لو كان بمقدورنا البقاء معاً، ليس كعشيقين بل كصديقين قديمين. لا تستخف بالصداقة، ففي الكثير من الأحيان تكون الصداقة القوية أفضل من ألف علاقة حب. ولكن كما كان يردد الأستاذ طاهر حقي على الدوام "الحب، يقتل الصداقة". وحبك لي ما كان ليسمح لصداقتنا بالاستمرار، فأنت كنت تعتبره قدراً محتوماً لا سبيل إلى تغييره والخلاص منه، وقد تظل مقتنعاً بهذه الفكرة حتى آخر لحظة، والأسوأ من ذلك أنك كنت تحاول إقناعي أنا أيضاً بالفكرة، وهذا ما كان يُشعرني بالاختناق. ففي الوقت الذي من الممكن أن تجعل هذه المشاعر الصادقة أي امرأة تشعر بأنها أكثر النساء حظاً، كنت أنا أعاني من وطأة هذه العواطف.

كل ذلك الحب والوفاء والعطاء اللامحدود كان يسبب لي مزيداً من الإحساس بالذنب، وخاصة حين أهديتني عقد عين الياقوت الذي لا زلت أعتبره أجمل قطعة حلي حظيت بها امرأة، ولكنه جعلني أشعر بمدى أنانيتي. أجل كنت أتلظى في جهنم حقيقية مع مرور كل لحظة إضافية معك، وأعيش في تناقض فظيع وحنق على نفسي التي بت أكرهها، ولكل هذه الأسباب ورغم شوقي الكبير إليك لم آتِ لرؤيتك ولم أجرؤ على توديعك. أعلم أنها أنانية بحتة وجحود كبير، ولكنني الآن وبعد مرور الوقت أحاول أن أكون صادقة معك قدر المستطاع وأنا أخطّ لك هذه الكلمات.

الآن، وقد مضى الشباب وأخذ معه تلك العواطف الجياشة والرغبات المستعرة والطموح الذي لا يرتوي، يمكن لنا أن نفكر بتروٍ في ما كان، ونلتفت إلى الماضي لنلقي عليه نظرة هادئة، ولن أخفيك القول بأنني عرفت الكثير من الرجال بعدك وتعلقت بالكثير منهم إلى درجة الجنون

أحياناً، ولكن لو سألوني في اللحظة الأخيرة من حياتي، أيهم كان الأحب إلى قلبك، سأختارك دون تردد، فأنت بذلك القلب الرائع الذي تحمله في جسدك الضخم كنت أكثر من أحبني والأقرب إلى روحي على الدوام.

لا أعلم إن كنت سأتجرأ على إرسال هذه الرسالة إليك، ولكنني أتمنى إن تمكنتَ من قراءتها يوماً أن تسامحني. لأنني أعلم جيداً مقدار الألم الذي سببته لك. أجل لقد نجحت في فعل ذلك للأسف، وكان أكثر نجاحاتي خزياً. أرجوك أن تسامحني، لأجل تلك اللحظات الجميلة التي قضيناها معاً، وإن فعلتْ سأكون أسعد النساء على وجه الأرض. لا أعلم إن كنت سأسمع هذه الكلمات منك يوماً ما، ولكنني أتوق إليها من أعماق قلبي، حتى أستطيع احتضانك مجدداً بمحبة لن تتغير، يا عشقي الكبير وصديقي الحقيقي والأزلي.

هذا ما كتبته لي حبيبتي الجميلة وهي لا تعلم أنني سامحتها، حتى قبل أن أقرأ هذه الرسالة، سامحتها لأنني لن أستطيع مواصلة حياتي دون أن أسامحها، وسأحقق رغبتها الأخيرة ولن أتغير، سأستسلم لقدري كزاهد متعبد. كدرويش لا يد له في دورانه الأزلي، فهذا كل ما أتقنه، لأنّ مقاومة الحياة تكلف الكثير من الجهد، وتتطلب الكثير من الجرأة التي لا أملكها. "على الإنسان أن يعرف نفسه جيداً، ذلك أول شرط لكي تصبح شخصاً بالغاً. معرفة الذات دون محاولة لخداع نفسك والآخرين". هذا ما كان يردده والدي على الدوام. ربما تأخرت كثيراً لأصبح شخصاً بالغاً وأعرف نفسي، ولكن لا بأس من البداية بالمحاولة مهما كانت متأخرة.

وقد كانت حبيبتي محقة في شأن آخر، وهو أنني لن أنساها مطلقاً، فقد ظلت معي طوال واحد وعشرين عاماً وهي غائبة، وأظنها ستواصل البقاء معي ما حييت. ولم أعد أهتم كثيراً بعدم رؤيتي لها مرة أخرى، فتلك اللحظات الرائعة التي قضيتها معها ستكفي ما بقي من العمر. الأمر الوحيد الذي سبب لي الضيق هو أنني لم أنفّذ وصيتها الأخيرة في إحراق جسدها، وذلك لأننا لا نملك في تركيا أفران لإحراق الجثث. كما أنّ سيزجين اعترض بشدة "ما الذي سيقوله عنا الناس لو علموا بالأمر؟ نحن مسلمون ولا يليق بنا سوى دفن موتانا على الطريقة الإسلامية". ولم أحاول

التدخل أكثر من ذلك، وأنا أتذكر رغبة نزهت القديمة في أن تغطي أزهار البنفسج قبرها، لذا فقد زرعت مجموعة من هذه الأزهار على اختلاف ألوانها على قبر حبيبتي الراقدة في مدافن منطقة أيوب، وهي على وشك أن تتفتح، ولكنني وتلبية لجزء من رغبتها في نثر رمادها من فوق جزيرة بيوك أدا على البحر، أتيت حاملاً باقة من البنفسج لأنثرها.

ولم تتضح لسيزجين علاقة مباشرة بالجريمة حتى الآن، وأما عن علاقته بفضيلة فهي قديمة تعود إلى ما قبل زواجها، وكان هذا هو السبب الذي دفعها لترك زوجها والعودة مرة أخرى، ذلك الحب الذي بقي متقداً في قلبها ولم يجد له مقابلاً لدى الشاب الذي لم يكن يعتبرها سوى مجرد جسد يفرغ فيه شهواته دون أي مشاعر. ولعل هذا ما دفعها لقتل نزهت انتقاماً من حبيبها، وليس السرقة فحسب، بل ذلك الكره الخفي المختلط بالحب العميق، هو ما دفعها لغرز سكين فتح الرسائل في عنق حبيبتي العاجي.

أما السكين فلم تكن لي، لقد كانت السكين التي أهديتها لنزهت، وقد أحضرتها مع عقد عين الياقوت وقرطيه أثناء عودتها من أميركا. وقد علمت بالأمر من كديفة التي اعترفت بأنها كانت تستعمل السكين الخاصة بي لفتح المعلبات الغذائية في بعض الأحيان، وأخرجته من أحد أدراج المطبخ أمام ناظري، وقد كانت مرتعبة حتى أنني عدلت عن فكرة تأنيبها.

أما أكين فقد تحسنت صحته وتماثل للشفاء، وقد أخبرنا بالحقيقة التي لم أتوقع، فقد تخلت نزهت عن فكرة فحص رفات السلطان محمد الفاتح، ذلك أنها حتى لو تحققت من فرضية تسميمه فمن المستحيل معرفة الفاعل، ونفى بذلك إمكانية تورطها مع ثلة لصوص المقابر بقيادة المعلم حسين، وقد اعترف أكين بأنها بدأت تشعر بالخوف من التورط معهم. وتلك الدعوة التي وجهتها إليّ أنا والأستاذ طاهر كانت نوعاً من الوداع لأنها كانت تنوي العودة إلى شيكاغو من جديد. وعندما سألته إن كان يعرف سبب دعوتها لي، أخبرني بأنه لا يعرف ولكنها كانت تسأله عني على الدوام "يبدو أنها بقيت تحبك يا أستاذ". قالها وقد دمعت عيناه.

أما بالنسبة إلى السلطان محمد الفاتح، فقد أُغلقت مسألة فتح القبر، على الأقل



في الوقت الحالي، ولا أستطيع الجزم إن كان هذا جيداً أم لا، ولكنني متأكدٌ من أنّ الغموض سيبقى يلف القضية وسيتطلب التطرق إلى الأمر من جديد مؤرخاً بجرأة نزهت وطموحها.

انتهت

نبذة عن المؤلف

وُلِد أحمد أوميت في غازي عنتاب سنة 1960، وأنهى دراسته الجامعية في جامعة مرمرة سنة 1983 قسم العلاقات العامة. ذهب إلى موسكو للدراسة في عامي 1985-1986 في كلية العلوم الاجتماعية

صدر ديوانه الشعري الأول في العام 1989 بعنوان: خفايا الأزقة، ولم يلقَ الاهتمام الكافي حتى أعادت دار إيفريست للطباعة والنشر نشره مجدّداً في العام 2011

عمله الروائي الأول كان رواية بعنوان (ليلة حافية القدمين) وقد صدرت عام 1992

في العام 1994 أصدر عمله الروائي الثاني (صوت غيّر صمت الليل)

في العام 1999 أصدر رواية (مفتاح أجاثا)

في العام 2002 (الشيطان يكمن في التفاصيل)

في العام 1995 (حكايا في قلب الحكاية) والتي كانت تستهدف القراء الصغار والكبار على حدّ سواء..

في العام 2008 (أرض غير موجودة). وقد تركت هاتان الروايتان بصمةً مميزةً في عالم الأدب.

أما روايته البوليسية الليل والضباب والتي صدرت عام 1996 فكانت بحسب النقاد من أهم الروايات البوليسية..

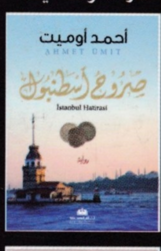
توالت بعد ذلك رواياته (رائحة الثلج) عام 1988، باتاسانا عام 2000، الدمية 2002

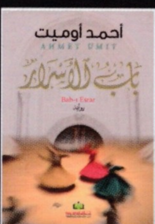
ومن ثم رواية (خارطة لروح الإنسان)، (الحب عبودية)، (مذكرات قاتل)، (باب الأسرار)، (خارطة إسطنبول)، و(اغتيال السلطان).

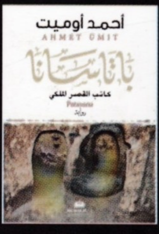
كما أصدر بالاشتراك مع إسماعيل كولكيج سلسلةً من القصص المصوّرة قامت دار إيفريست بطباعتها.

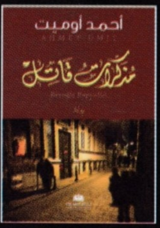


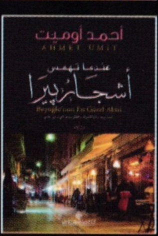
صدر للمؤلف أيضاً:





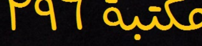


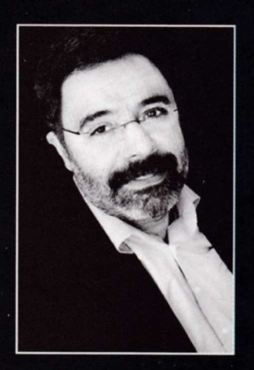




مشتاق سرهزين رجل بقي في انتظار حبيبته لسنوات طويلة، وهو آخر أفراد عائلته العريقة. أما نزهت فهي الحبيبة التي انتظرها: امرأة طموحة كرست حياتها لدراسة التاريخ العثماني، وبروفيسورة قضت عمراً حافلاً بالنجاحات، وفي النهاية طُعنت بسكين فضية نقش عليها ختم السلطان محمد الفاتح.. أهي جريمة بدافع الحب؟ أم إنّ جذورها تمتد لتصل إلى السلطان العظيم وترتبط مع موته المشبوه؟ إنها رحلة تاريخية مثيرة ومليئة بالانتصارات والخيانات، تأخذنا إلى العصر الذي تحولت فيه السلطنة العثمانية إلى إمبراطورية تحكم العالم.. في هذه الرواية يتردد السؤال الإشكالي القديم الذي لا يكف عن طرح نفسه علينا: هل التاريخ هو ما حدث في الماضي بالفعل، أم ما دوّنه لنا المؤرخون؟

أما السلطان محمد خان.. محمد بن مراد خان بن محمد خان.. فهو سلطان البرين، وخاقان البحرين، وظل الله على الأرض.. فاتح القسطنطينية، والوريث الأقوى لإمبراطورية روما، والحاكم الذي أنشأ أمة جديدة من مزيج أعراق وأديان ولغات مختلفة. صليل السيوف وأناشيد النصر.. آهات القتلى والأسرى وصراخ الثكالى واليتامى.. صيحات الرعب وأهازيج الفرح.. المدن التي كانت تفتح الواحدة تلو الأخرى، والدول التي كانت تهزم الواحدة تلو الأخرى.. والأبراج التي كانت تعلوها مختلف الأعلام على وقع الانتصارات والهزائم.. كلها جعلت اسم السلطان الذي لم يعش سوى تسعة وأربعين عاماً يُخلَد إلى الأبد. وفي هذه الرواية، ستقرأ عن القدر الذي لا يستطيع أحد تبديله، والشمس التي لن يستطيع أحدٌ الحؤول دون غروبها، والموت: تلك الكأس التي سيتجرعها الجميع من دون استثناء، وموت السلطان المشبوه، والقصر الذي يتقاسمه شقيقان لدودان، والدولة التي انقسمت على وقع أهواء السلطة، والشعب الذي لم يكن على علم بكل ما يجري من حوله، والحرب الدموية بين الأخوين من أجل العرش، وجسد السلطان الأب الذي ترك منسياً في غرف القصر...





ولد أحمد أوميت في العام 1960 في مدينة غازي عينتاب جنوبي تركيا، وانتقل إلى اسطنبول في العام 1978 ليلتحق بالجامعة. في العام 1983 تخرّج من كلية الإدارة العامّة في جامعة مرمرة، وكتب أول قصصه. كان أوميت عضواً فاعلاً في الحزب الشيوعي التركي بين عامي 1974 و1989، وشارك في «الحركة السرية من أجل الديمقراطية» حين كانت تركيا ترزح تحت وطأة الديكتاتورية العسكرية بين 1980–1990. منذ العام 1989، كان أوميت قد نشر ديوان شعر واحداً، وثلاثة مجلدات قصص قصيرة، وكتاب حكايات شعبية، وحكاية قصيرة، وستّ روايات طويلة. يُعدّ أوميت أحد أشهر الكتّاب المعاصرين في تركيا.


ISBN 978-9948-446-62-0






THAQAFA ثقافة
للنشر والتوزيع ذ.م.م.
Publishing & Distribution L.L.C.